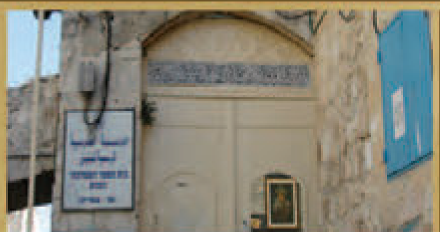
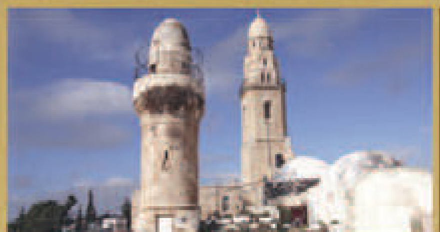
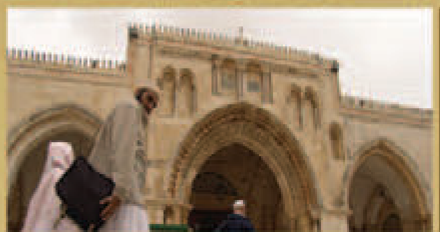
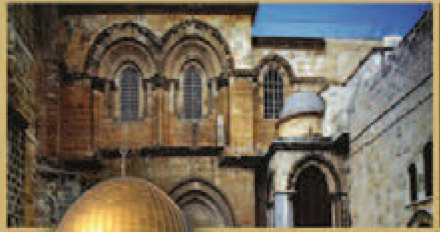


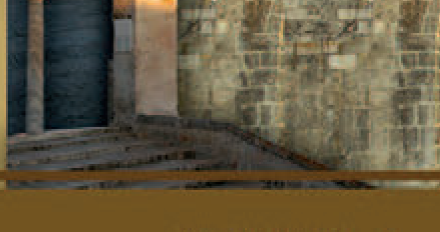












دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس

تحرير

د. محسن محمد صالح

المشاركون

د. إبراهيم أبو جابر
أ. إبراهيم عبد الكريم
د. بديع العابد
د. رياض حمودة ياسين
د. سامي الصلاحات
د. سلامة الهرفي البلوي
د. عبد الجبار سعيد
أ. عبد الله كنعان
أ. فادي شامية
د. محمد أكرم العدلوني
د. محمد عمارة
د. محمد عيسى صالحية
أ. محمود عواد
د. ناجح بكيرات

مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات - بيروت

الحملة الأهلية للاحتفال
القدس
عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس

تحرير

د. محسن محمد صالح

المشاركون

د. إبراهيم أبو جابر | أ. إبراهيم عبد الكريم | د. بديع العابد
د. رياض حمودة ياسين | د. سامي الصلاحات | د. سلامة الهرفي البلوي
د. عبد الجبار سعيد | أ. عبد الله كنعان | أ. فادي شامية
د. محمد أكرم العدلوني | د. محمد عمارة | د. محمد عيسى صالحية
أ. محمود عواد | د. ناجح بكيرات

مساعدو التحرير

إقبال عميش   ليلى الحاج
ليلى صبّاغ





مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات
بيروت - لبنان

Studies on the Cultural Heritage of Jerusalem

Editor:

Dr. Mohsen Moh’d Saleh

الطبعة الأولى

2010م – 1431هـ

بيروت – لبنان

ISBN 978-9953-500-80-5

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

تلفون: 44 36 80 1 961 +

تلفاكس: 43 36 80 1 961 +

ص.ب.: 14-5034، بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net

الموقع: www.alzaytouna.net

إخراج

مروة غلاييني

تصميم الغلاف

زوتكس
XOTOX

exotox.com

طباعة

Golden Vision sarl +961 1 820434

فهرس المحتويات

الفصل الثالث: العثمانيون ومدينة القدس: الحفاظ على الدور الثقافي والحضاري

د. محمد عيسى صالحية

الفصل الرابع: مؤسسات الوقف في القدس: النشأة والتطور

د. سامي الصلاحات

الفصل الخامس: الممتلكات والأوقاف المسيحية في القدس

أ. فادي شامية

الفصل السادس: المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس

د. سلامة الهرفي البلوي

الفصل السابع: دور المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس

د. ناجح بكيرات

الفصل الثامن: التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي للقدس

أ. إبراهيم عبد الكريم

الفصل التاسع: التراث الثقافي لمدينة القدس في المعاهدات والقرارات الدولية

د. رياض حمودة ياسين

الفصل العاشر: القدس في الموسوعات العالمية

د. رياض حمودة ياسين

الفصل الحادي عشر: الجمعيات التي تعنى بحفظ تراث مدينة القدس في ظل التزوير الإسرائيلي

د. إبراهيم أبو جابر

الفصل الثاني عشر: بيبليوغرافيا التراث الثقافي لمدينة القدس

أ. محمود عواد

الفصل الثالث عشر: القدس والدور المأمول

المبحث الأول: الدور العربي والإسلامي في الحفاظ على التراث الثقافي للقدس

أ. عبد الله كنعان

المبحث الثاني: دور العلماء والأكاديميين في الحفاظ على التراث الثقافي للقدس

د. عبد الجبار سعيد

المبحث الثالث: دور مؤسسات المجتمع المدني في حماية التراث الحضاري والثقافي للقدس

د. محمد أكرم العدلوني

المشاركون في التأليف

التمهيد: القدس الشريف: صراع له تاريخ

د. محمد عمارة:

مفكر إسلامي ومؤلف وعضو في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، حاصل على الدكتوراه من كلية دار العلوم سنة 1975. تجاوزت أعماله الفكرية تأليفاً وتحقيقاً مئتي كتاب، وقد ترجم العديد من كتبه إلى لغات أخرى. له عضوية في عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية، ومن مؤلفاته: إسلامية الصراع على القدس وفلسطين، والقدس الشريف: رمز الصراع وبوابة الانتصار، ومعالم المنهج الإسلامي، والقدس: أمانة عمر في انتظار صلاح الدين، ومعارك العرب ضد الغزاة.

الفصل الأول: أعلام مقدسية: الدور الثقافي والحضاري وترقية الفكر الإنساني

د. محمد عيسى صالحية:

مؤرخ، وخبير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وفي التاريخ العثماني، وتاريخ اليمن، وتاريخ فلسطين. أستاذ دكتور في قسم التاريخ بجامعة اليرموك في الأردن. خبير في الوثائق والمخطوطات الإسلامية والعثمانية. أعدّ ونشر عشرات الدراسات والأبحاث والكتب، وأشرف على عشرات أبحاث الماجستير والدكتوراه. حقق سجلات الأراضي في فلسطين وخصوصاً القدس وشمال فلسطين. وأصدر له مركز الزيتونة كتاباً عن القدس: السكان والأرض.

الفصل الثاني: القدس: العمارة والهوية

د. بديع العابد:

مهندس معماري استشاري وباحث، حاصل على دكتوراه الفلسفة في الهندسة المعمارية من جامعة دلفت في هولندا سنة 1992، كان عميداً لكلية الهندسة في جامعة الإسراء في الأردن، وعمل أستاذاً مساعداً في جامعة بيرزيت في

فلسطين، وشغل موقع نائب رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم. وصاحب مكتب هندسي في الأردن. له العديد من الكتب والأبحاث منها: الهوية المعمارية لمدينة القدس: قبة الصخرة أم الهيكل المزعوم، والمركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض.

الفصل الثالث: العثمانيون ومدينة القدس: الحفاظ على الدور الثقافي والحضاري

د. محمد عيسى صالحية

الفصل الرابع: مؤسسات الوقف في القدس: النشأة والتطور

د. سامي الصلاحات:

مستشار المعهد الدولي للوقف الإسلامي في ماليزيا، حاصل على الدكتوراه في أصول الفقه والسياسة الشرعية من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا سنة 2001. وهو مدير تحرير مجلة "الرسالة" الأكاديمية المحكمة الصادرة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. صدر له العديد من الكتب والأبحاث في حقول الدارسات الإسلامية، وأصول الفقه، والوقف الإسلامي، والسياسة الشرعية، والقضية الفلسطينية. شارك في العديد من المؤتمرات والندوات والدورات التدريبية.

الفصل الخامس: الممتلكات والأوقاف المسيحية في القدس

أ. فادي شامية:

صحفي وباحث لبناني متخصص في القضايا الإسلامية وشؤون القدس. يعمل باحثاً في مؤسسة القدس الدولية، ومحللاً سياسياً في عدد من الصحف والوسائل الإعلامية. حائز على عدة إجازات جامعية من بينها: شهادة الماجستير

في الحقوق والعلوم السياسية – المعلوماتية القانونية، ودبلوم في الإدارة، وعلم النفس، والدراسات الإسلامية. له عدة مؤلفات وهي: سبيل القاصد، والقتال في العهد النبوي، والقتال في العهد الراشد.

الفصل السادس: المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس

د. سلامة الهرفي البلوي:

رئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الشارقة، حاصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة أم القرى سنة 1985، عمل وكيلاً لعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، ورئيساً لقسم الدراسات الاجتماعية بجامعة الملك فيصل، ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية في الجامعة الإسلامية بماليزيا، ويعدّ من الرواد الأوائل في حقل التاريخ الأمني الإسلامي. له أكثر من أربعين بحثاً وكتاباً منها: مكتبات بيت المقدس من الفتح الإسلامي إلى الاغتصاب الصهيوني، وتاريخ أوقاف القدس بوصفها نموذجاً لعدالة الإسلام والتعايش بين الأديان.

الفصل السابع: دور المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس

د. ناجح بكيرات:

رئيس قسم المخطوطات في المسجد الأقصى، ومدير ثانوية الأقصى الشرعية، حاصل على الدكتوراه في العلوم الإسلامية من جامعة الزيتونة في تونس سنة 2006، ترأس لجنة التراث الإسلامي وعمل على تأسيس العديد من المؤسسات الاجتماعية، شارك في عدة أعمال شعبية ورسمية للدفاع عن المسجد الأقصى والعقارات الإسلامية والمسيحية في القدس، وقد قامت السلطات الإسرائيلية باعتقاله وتوقيفة عدة مرات. له عدد من الكتب منها: المسجد الأقصى في سطور، ورقوم مساجد يافا، والفوائد الجمة في زيارة الأقصى وما ضمه.

الفصل الثامن: التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي للقدس

أ. إبراهيم عبد الكريم:

باحث ورئيس التحرير في مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، وعضو اتحاد الكتّاب العرب، وعضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ومحاضر في كلية الدفاع الوطني بسورية. توجَّه منذ أواخر السبعينيات للدراسات المتخصصة في الشؤون الإسرائيلية والصراع العربي – الصهيوني. نشر عدداً من الدراسات والأبحاث في مجلات عربية محكمة، وله عدة كتب منها: القدس تحت الاحتلال: معاناة وصمود، وحائط البراق: الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي، وملامح بنية الدولة الفلسطينية، والانتخابات الإسرائيلية: الخريطة السياسية والانعكاسات المستقبلية.

الفصل التاسع: التراث الثقافي لمدينة القدس في المعاهدات والقرارات الدولية

د. رياض حمودة ياسين:

باحث، مسؤول قطاع الثقافة والاتصال في اللجنة الوطنية لليونسكو في الأردن، حاصل على الدكتوراه في التاريخ الثقافي من الجامعة الأردنية سنة 2009. شغل منصب مساعد مدير الإعلام والدراسات في اللجنة الملكية لشؤون القدس، وقام بإعداد مجموعة من البرامج التلفزيونية. أمين سر جمعية حماية القدس الشريف، والمنسق والمقرر للهيئات الوطنية الحكومية الأردنية لمتابعة ملف القدس مع منظمة اليونسكو، وله عدد من المشورات، أهمها: كتاب موجز تاريخ القدس.

الفصل العاشر: القدس في الموسوعات العالمية

د. رياض حمودة ياسين

الفصل الحادي عشر: الجمعيات التي تعنى بحفظ تراث مدينة القدس في ظل التزوير الإسرائيلي

د. إبراهيم أبو جابر:

مدير مركز الدراسات المعاصرة في أم الفحم، وحاصل على الدكتوراه من جامعة غوته بفرانكفورت سنة 1990، عمل لمدة أربع سنوات في جامعة بن جوريون، ثم في كلية الدعوة في أم الفحم. أصدر العديد من الكتب والبحوث والدراسات، منها: القدس في دائرة الحدث، وموسوعة جرح النكبة، وانتفاضة القدس والأقصى، والجدار الفاصل، وخطة خارطة الطريق، ومستقبل القدس وسُبل إنقاذها من التهويد، وخطة الانفصال عن غزة.

الفصل الثاني عشر: بيبليوغرافيا التراث الثقافي لمدينة القدس

أ. محمود عواد:

باحث متفرغ في شؤون القدس واللاهوت، ومدير الدراسات في اللجنة الملكية لشؤون القدس في الأردن، ورئيس قسم المنظمات العربية والدولية في وزارة التربية والتعليم في الأردن وعضو أمانة سر اللجنة الوطنية الأردنية لليونسكو. له عضويات في عدد من الجمعيات، وله العديد من الأبحاث والدراسات والترجمات والمقالات حول القدس وفلسطين، وله عدة مؤلفات منها: القدس في قرارات الأمم المتحدة 1947-1994، وإقامة الهيكل المزعوم: إعلان الحرب الدينية، والقدس في أقوال الحسين والحسن.

الفصل الثالث عشر: القدس والدور المأمول

* **المبحث الأول: الدور العربي والإسلامي في الحفاظ على التراث الثقافي للقدس**

أ. عبد الله كنعان:

عبد الله توفيق كنعان خريج الحقوق من جامعة دمشق. تولى العديد من المناصب الإدارية حيث شغل منصب مدير مكتب مجلس البحث العلمي، ثم أصبح نائباً لمدير مكتب الأمير الحسن بن طلال، وعُيّن مستشاراً للأمير. له عضويات في كثير من الجمعيات والمؤسسات منها لجنة إعمار المسجد الأقصى، واللجنة التنفيذية للهيئة الخيرية

الأردنية الهاشمية. صدر له العديد من المؤلفات والكتابات منها: القدس من منظور إسرائيلي، والاستيطان اليهودي في مدينة القدس، وأهمية القدس ودور المثقفين في المحافظة عليها.

* المبحث الثاني: دور العلماء والأكاديميين في الحفاظ على التراث الثقافي للقدس

د. عبد الجبار سعيد:

أستاذ مشارك في كلية الشريعة بجامعة قطر، والأمين العام لهيئة علماء فلسطين في الخارج، حاصل على الدكتوراه في تخصص السنة وعلوم الحديث من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان سنة 1996، شغل منصب المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وتولى عدة مناصب إدارية في جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن. شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات، وله عدد من الأبحاث المحكمة والدراسات والكتب منها: اختلاط الرواة الثقات.

* المبحث الثالث: دور مؤسسات المجتمع المدني في حماية التراث الحضاري والثقافي للقدس

د. محمد أكرم العدلوني:

الأمين العام لمؤسسة القدس الدولية، والمنسق العام لشبكة المؤسسات العاملة من أجل القدس، حاصل على الدكتوراه في الإدارة التربوية من جامعة إلينوي في أمريكا سنة 1990، وهو مستشار وخبير التطوير الإداري لوزير التربية والتعليم في قطر، شغل منصب مدير مركز الأبحاث الزراعية في الإمارات، ومدير عام مركز إتقان للتدريب في لبنان. له عضويات في عدد من الجمعيات والمؤسسات، وله عدد من المؤلفات منها: القيادة الفعّالة للقرن الحادي والعشرين، ومدخل إلى العمل المؤسسي، وكيف تضع خطة استراتيجية.

مقدمة الكتاب

بعد نحو عام من الجهد المتواصل، يسرنا أن نقدم للقارئ الكريم كتاب "دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس"؛ وهو كتاب يصدر بمناسبة اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية سنة 2009.

لقد سعينا إلى تقديم دراسات علمية رصينة تسلط الضوء على هذه المدينة العربية المسلمة، وتراثها الثقافي؛ وتكشف بعضاً من عطاءاتها، وأدوارها الحضارية، وإنجازات أبنائها. وأردنا أن نقدم الوجه الجميل للقدس في الوقت الذي تتعرض فيه لحملات المسخ والتشويه الصهيوني، والعدوان على هويتها وتراثها وأرضها وإنسانها. كما حاولنا أن ننبه إلى المخاطر التي تتعرض لها المدينة ومقدساتها.

يشارك معنا في إعداد هذا الكتاب نخبة متميزة من الأساتذة والخبراء المتخصصين، الذين يقدمون أبحاثاً تراثية وتاريخية ومعمارية وشرعية وتعليمية وقانونية...، تثري الجوانب العلمية المختلفة المتعلقة بالقدس.

ويفتتح الدكتور محمد عمارة بدراسة حول تاريخ الصراع على القدس وهويتها الحضارية، ويقدم الدكتور محمد عيسى صالحية (الذي انتقل إلى رحمة الله بينما كان هذا الكتاب يعد للطباعة) بحثاً حول عدد من الأعلام المقدسية، كما يقدم بحثاً آخر حول دور العثمانيين في الحفاظ على التراث الثقافي والحضاري للقدس، أما الدكتور بديع العابد فيسلط الضوء على الهوية المعمارية للمدينة المقدسة. وبينما يتحدث الدكتور سامي الصلاحات حول مؤسسات الوقف الإسلامي في المدينة، يقدم الأستاذ فادي شامية دراسة عن الممتلكات والأوقاف المسيحية فيها. ويسلط الدكتور سلامة البلوي الضوء على المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس على مدى تاريخنا الإسلامي؛ أما الدكتور ناجح بكيرات فيوضح للقارئ الكريم أبرز المدارس والمؤسسات التعليمية في القدس في القرن العشرين؛ بينما يركز الدكتور إبراهيم أبو جابر على الجمعيات التي تُعنى بحفظ تراث المدينة في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي. ويكشف الأستاذ إبراهيم عبد الكريم التوجهات والممارسات الصهيونية تجاه القدس. أما الدكتور رياض حمودة فيقدم دراستين: الأولى قانونية حول التراث الثقافي للقدس في المعاهدات الدولية، والثانية

حول القدس في الموسوعات العالمية؛ بينما يقدم الأستاذ محمود عواد قائمة من الكتب والمصادر المقترحة حول القدس وتراثها الثقافي. ويختتم الكتاب بفصل حول القدس والدور المأمول من العرب والمسلمين، ومن العلماء والأكاديميين، ومن مؤسسات المجتمع المدني. ويشارك في كتابته الأستاذ عبد الله كنعان، والدكتور عبد الجبار سعيد، والدكتور محمد أكرم العدلوني.

ونأمل بذلك أن يكون هذا الكتاب قد قدم منظومة متكاملة من الأبحاث والدراسات التي يمكن أن تشكل مرجعاً مهماً لكافة الباحثين والمهتمين بالقدس وتراثها؛ وإضافة نوعية لمكتبات الجامعات ومؤسسات الدراسات وطلبة العلم.

وأخيراً، فلا بدّ من تقديم الشكر للإخوة في الحملة الأهلية للقدس عاصمة للثقافة على دعمهم وتشجيعهم، كما لا بدّ من تقديم الشكر لمساعدي التحرير من فريق العمل بمركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، وخصوصاً الباحثة ليلى صبّاغ التي كانت عوناً رئيسياً ومميزاً.

والحمد لله رب العالمين

المحرر
د. محسن محمد صالح

التمهيد

التمهيد

د. محمد عمارة

القدس الشريف: صراع له تاريخ

القدس في الرؤية الإسلامية، ليست مجرد أرض محتلة ومدينة مغتصبة... وإنما هي، مع ذلك وفوقه وقبله وبعده، جزء من العقيدة الدينية الإسلامية، فضلاً عن الحضارة والتاريخ... ذلك لأنها حرم مقدس، ربط القرآن الكريم بينها وبين الحرم المكي عندما تحدث عن معجزة الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء: آية 1).

فهي في الدين والعقيدة أولى القبلتين وثالث الحرمين، وحرمها مع الحرم المكي والحرم المدني يمثلون المساجد الثلاثة التي تنفرد بشدّ الرِّحال للصلاة فيها... ورباطها المقدس مع الحرم المكي هو الرمز المجسد لعقيدة وحدة الدين الإلهي الواحد، عندما ارتبطت القبلة الخاتمة (الحرم المكي) بقبلة النبوات السابقة (الحرم القدسي الشريف).

ولقد تجلّت هذه المكانة المقدسة للحرم القدسي الشريف عندما عاملها المسلمون على مرّ التاريخ معاملة "الحرم"، الذي لا يجوز فيه القتال؛ فالحرم المدني فُتح بالقرآن، والحرم المكي فُتح سلماً، حتى لقد دخله الرسول الفاتح صلى الله عليه وسلم، يوم الفتح الأكبر، ساجداً على راحلته، شكراً لله... والحرم القدسي حرص المسلمون على فتحه سلماً وصلحاً، وجاء فتسلم مفاتيحه الراشد الثاني الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه (40ق.هـ-23هـ/584-644م). ولقد سار على هذه السنة صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ/1137-1193م) عندما استرد المدينة من الصليبيين سنة 583هـ/1187م... بعد ما يقرب من تسعين عاماً احتكروها فيها وانتهكوا حرمتها وقدسيتها.

ولقد كانت القدس الشريف، على مرّ تاريخ الصراع بين الغرب الصليبي والشرق الإسلامي، هي رمز هذا الصراع، وهي بوابة الانتصارات... حتى إن الشاعر العماد الكاتب (519-597هـ/1125-1201م) لخص هذه الحقيقة من حقائق استراتيجية هذا الصراع، عندما قال لصلاح الدين الأيوبي:

وهَيَّجْتَ للبيت المقدس لوعة   يطول بها منه إليك المتشوّق
هو البيت إن تفتحه والله فاعل   فما بعده باب من الشام مُغلق

ولقد حرص المسلمون، عندما حرروا القدس سنة 15هـ/636م من الاستعمار الروماني الذي دام بضعة قرون، على أن يكون اسمها عنواناً على قداستها وقدسيتها، فسمّوها "القدس" و"القدس الشريف" و"الحرم القدسي الشريف"... كما حرصوا بحكم إسلامهم، الذي تفرّد بالاعتراف بالآخرين (عقائدهم ومقدساتهم) على إشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات... فجعلوها حرماً مقدساً وقدسياً لكل أصحاب الديانات السماوية، حتى لقد كانت السلطة الإسلامية هي الضمان لمصلحة الجميع، فلم تحتكرها للإسلام، كما احتكرها الرومان لوثنيتهم عندما كانوا وثنيين، ولمذهبهم النصراني عندما تنصروا... وكما احتكرها الصليبيون الكاثوليك إبان الاحتلال الصليبي... وكما يحتكرها اليهود ويهوّدونها هذه الأيام.

ولقد تفردت العقيدة الإسلامية وتميزت وامتازت بالاعتراف بالآخرين، وبحماية مقدساتهم؛ انطلاقاً من تعهّد رسول الله صلى الله عليه وسلم للنصارى، في عهده مع نصارى نجران سنة 10هـ/631م بحمايتهم وحماية مقدساتهم، إذ جاء في رسالته إليهم: "وأن أحمي جانبهم وأذبّ عنهم، وعن كنائسهم وبِيَعِهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا... وأن أحرس ملتهم ودينهم، أين كانوا... بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي"[1].

ومن ثمّ أشاع الإسلام والمسلمون قدسية القدس بين كل أصحاب المقدسات، فلقد كانت الأساطير النصرانية الغربية أو اليهودية هي المنطلق لغزو القدس ولاحتكارها، بالإبادة والمجازر التي تقشعر منها الأبدان. فأساطير التعصّب الصليبي هي التي دفعت البابا الذهبي أوربان الثاني Pope Urban II (1088-1099) لتغليف الأطماع الاستعمارية بالأساطير اللاهوتية؛ فخطب في أمراء الإقطاع الأوروبيين بمدينة كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا سنة 1095 للميلاد، مفتتحاً قرنين من الحروب الصليبية، في الفترة 489-690هـ/1096-1291م، ضدّ الإسلام وأمته وحضارته فقال:

> يا من كنتم لصوصاً كونوا اليوم جنوداً...! لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضدّ الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضدّ بعض، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن... هي... في حقّ الله عينه... وليست هي لاكتساب مدينة واحدة... بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء.

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض –حسب ألفاظ التوراة– تفيض لبناً وعسلاً... ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوساً سماوياً...

إذهبوا وحاربوا البربر [يقصد المسلمين!] لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم... امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية [أي مفاتيح الجنة التي صنعها البابا!] واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً.

وهذا هو الحين الذي فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التي مارستموها عدواناً، من حيث أنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلماً، فاغسلوها بدم غير المؤمنين!![2].

وعندما اقتحمت الجيوش الصليبية يومئذ مدينة القدس سنة 492هـ/1099م أبادوا جميع من فيها من المسلمين، ومعهم اليهود، بالقتل والذبح والحرق... حتى الذين احتموا بمسجد عمر (الجامع القبلي) ذبحهم الصليبيون في المسجد حتى تحوّل المسجد إلى بحر من الدماء! وحسب عبارة صاحب حرب الصليب:

فإنَّ الصليبيين –خيّالة ومشاة– قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحدّ السيف كلّ الموجودين هناك، حتى استوعب الجامع من الدم بحراً متموجاً، علا إلى حدّ الركب، بل إلى لُجُم الخيل!.

ولما حلّ المساء، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها ورددوا الصلوات... ثمّ كتبوا إلى البابا فقالوا له: يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهي تسبح في دماء الكفار [أي المسلمين!][3].

وحتى كبار رجال الدين شاركوا في المذبحة، ليتقربوا إلى ربهم بذبح المسلمين!! ولقد نقلت المستشرقة الألمانية الدكتورة زيجريد هونكة Sigrid Hunke (1913-1999) عن المؤرخ الأوروبي ميشائيل درسيرر كيف:

كان البطريرك نفسه يعدو في أزقة بيت المقدس، وسيفه يقطر دماً، حاصداً به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصاً من الدماء اللاصقة بها، مردداً المزمور التالي: "يفرح

الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقاً إن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهاً يقضي" [المزمور 58: 10-11] ثمّ أخذ في أداء القداس قائلاً: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب!![4].

هكذا بدأت الأساطير النصرانية الغربية حول القدس، وهكذا وضعها الصليبيون في الممارسة والتطبيق.

وهذه الأساطير النصرانية الغربية هي التي دفعت كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus (1451-1506)، بعد هزيمة الحملات الصليبية في الشرق وعقب نجاح الصليبيين في إسقاط غرناطة في كانون الثاني/ يناير 1492، إلى أن يسعى إلى القيام بغزوة صليبية جديدة، يعيد بها اختطاف القدس من الإسلام والمسلمين. فكتب إلى ملكي إسبانيا؛ فرديناند Ferdinand (1479-1516) وإيزابيلا Isabella (1474-1504) يعلمهم بأن هدفه هو "العثور على الذهب بكميات كبيرة، حتى يتسنى للملكين أن يفتحا الديار المقدسة خلال ثلاث سنوات... فقد أعلنتُ لسموكما أن كل المغانم التي سيدرّها مشروعي هذا سوف تنفق على فتح القدس. وقد ابتسمتما يا صاحب الجلالة وقلتما: إنَّ ذلك يسركما"[5].

وفي رسالة ثانية تحدث كولومبوس إلى ملكي إسبانيا عن أن هدف حياته ومشاريعه ورحلاته هو تجهيز حملة صليبية لإعادة القدس إلى الكنيسة الكاثوليكية، فقال:

لقد مكثت في بلاطكم سبعة أعوام مناقشاً هذا الأمر مع العديد من الرجال... ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل... لقد قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين...

لقد ذكر الكاردينال "بيير" الكثير عن نهاية المسلمين، كما أن الأب "يواقيم الفيوري" قد ذكر أن الشخص الذي سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا... فلتكونوا واثقين من إحراز النصر في مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية![6].

تلك هي الأساطير النصرانية الغربية، حول القدس، كما آمن بها كرستوفر كولومبوس، الذي ما نزال ندرّسه لأبنائنا في المدارس باعتباره من عظماء المستكشفين الجغرافيين !!.

ولقد أدخلت البروتستانتية البعد اليهودي إلى هذه الأساطير المحركة لاختطاف القدس وفلسطين وذلك عندما أصدر مارتن لوثر Martin Luther (1483-1546) كتابه "المسيح يهودياً" سنة 1523، وقال فيه: "إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف والغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها" ![7].

ولقد أدخلت البروتستانتينية إلى صميم العقيدة المسيحية ثلاثة مبادئ، هي ثلاثة أساطير، دمجت البعد اليهودي في البعد النصراني إزاء قضية القدس وفلسطين... وهذه "المبادئ – الأساطير" هي:

أولاً: أن اليهود هم أبناء الله وشعبه المختار.

ثانياً: أن ثمة ميثاقاً إلهياً يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين.

ثالثاً: ربط الإيمان المسيحي بعودة المسيح بقيام دولة صهيون.

وهذه "المبادئ – الأساطير" هي التي أثمرت تيار "المسيحية – الصهيونية" في الحضارة الغربية، ذلك التيار الذي استغلته الحركة الصهيونية في شراكتها مع الإمبريالية الغربية، والذي قال عنه بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu عندما كان سفيراً للكيان الصهيوني في الأمم المتحدة، في خطابه أمام الجمعية العامة، في شباط/ فبراير 1985:

> إن كتابات المسيحيين الصهيونيين –من الإنجليز والأمريكان– أثّرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين، مثل لويد جورج [Lloyd George]، وآرثر بلفور [Arthur Balfour]، وودرو ويلسون [Woodrow Wilson] في مطلع القرن العشرين.
>
> إن حلم اللقاء العظيم [عودة المسيح] أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دوراً رئيسياً في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية... لقد تفجر الحلم اليهودي من خلال المسيحيين الصهيونيين ![8].

وهكذا غدت الأساطير المسيحية الغربية تياراً مسيحياً – صهيونياً، تحالفت معه الحركة الصهيونية الحديثة، مستغلة إياه لتحقيق أطماع الشراكة "الصليبية – الصهيونية" ضدّ القدس وفلسطين!.

ومع مطالع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة التي قادها نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte (1769-1821)، على مصر والشرق سنة 1213هـ/1798م؛ رمى بونابرت حبال الشراكة للأقليات اليهودية، لتكون عوناً له على إقامة إمبراطوريته الاستعمارية في الشرق الإسلامي، مقابل زرعهم ككلاب حراسة في أرض فلسطين. ولذلك أصدر وهو على أسوار عكا سنة 1799، نداءه لهؤلاء اليهود، والذي قال فيه:

> أيها الشعب الفريد! إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل... إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به... قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق التي استهانت طويلاً بمدينة داود، وأذلتها!...
>
> يا ورثة فلسطين الشرعيين! إن الأمة الفرنسية، تدعوكم إلى إرثكم، بضمانها وتأييدها ضدّ كلّ الدخلاء![9].

وبعد هزيمة بونابرت وتبخر أحلامه الاستعمارية في لهيب الثورات المصرية وحرارة تضحياتها، تسلم الاستعمار الإنجليزي قيادة المشروع الغربي لاستعمار الشرق الإسلامي، واختطاف القدس... مغلفاً تلك الأطماع الإمبريالية بالأساطير الدينية والأوهام اللاهوتية، التي استخدمت بمثابة "العقيدة القتالية" في الصراع التاريخي بين الغرب والإسلام.

1. ففي 1649 قدم لاهوتيان أنجليكانيان، هما جوانا وإبنزر كارترايت Joanna and Ebenezer Cartwright، نداء إلى الحكومة الإنجليزية، لإقامة شراكة مع اليهود في مشروع الاستيلاء على القدس وفلسطين؛ وذلك كي يكون للبروتستانت الإنجليز والهولنديين "شرف نقل اليهود إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومنحهم إياها إرثاً أبدياً"![10].

2. وفي سنة 1938، أنشأت إنجلترا أول قنصلية إنجليزية في القدس، وعينت قسيساً بروتستانتياً نائباً لقنصلها فيها!.

3. وفي سنة 1839 نشر اللورد الإنجليزي أنتوني آشلي كوبر (إيرل شافتسبري) Anthony Ashley-Cooper (Earl of Shaftesbury) (1801-1885) دراسته التي يقول فيها:

"إن اليهود هم الأمل في تجدد المسيحية، وعودة المسيح ثانية" ليحكم العالم ألف سنة سعيدة!.

4. وفي سنة 1839 أرسل سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية بالمرستون Palmerston (1784-1865) رسالة يقترح فيها دعوة أوروبا للاقتداء بالملك الفارسي قورش Cyrus (557-528ق.م)، وإعادة اليهود إلى فلسطين، كما سبق وأعادهم قورش من السبي القديم!.

5. وفي سنة 1840 طلب وزير الخارجية الإنجليزي "اللورد بالمرستون" من سفيره في الآستانة السعي لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين، ليكونوا حاجزاً ضدّ تجديد وحدة الشرق، التي كان يعمل لها محمد علي باشا الكبير (1184-1265هـ/1770-1849م)، وجاء في مذكرة بالمرستون: "ويكون من مصلحة السلطان الواضحة، أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين... ليكونوا حجر عثرة في سبيل أي أهداف تخطر ببال محمد علي أو من يخلفه"![11].

6. وفي سنة 1840 قدم اللورد الإنجليزي شافتسبري برنامجاً إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين، على قاعدة: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"!، وهي القاعدة التي تبنتها الشراكة "الصليبية – الصهيونية" لاغتصاب القدس وفلسطين.

7. وفي سنة 1844 ألف البرلمان الإنجليزي لجنة "إعادة أمة اليهود إلى فلسطين"!.

8. وفي سنة 1882 ذهب القس الإنجليزي وليم هشلر William Hechler (1845-1931) إلى السلطان عبد الحميد الثاني (1258-1336هـ/1842-1918م) في القسطنطينية، محاولاً إقناعه بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين.

9. وفي السنة نفسها 1882 عُقِدَ في إنجلترا المؤتمر الأول لرجال الدين المسيحيين، من أجل "إيجاد حلّ للمسألة اليهودية"!.

10. وفي سنة 1894 صدر كتاب الديبلوماسي الإنجليزي، القس وليم هشلر: "إعادة اليهود إلى فلسطين" تنفيذاً للنبوءات الدينية!.

11. وفي 1917/11/2 صدر وعد من آرثر بلفور (1848-1930)، وزير الخارجية الإنجليزي إلى المليونير الصهيوني اللورد إدموند روتشيلد Edmond Rothschild (1845-1934) بإقامة الوطن القومي اليهودي على أرض فلسطين، وهو الوعد الذي وضعه الانتداب البريطاني في الممارسة والتطبيق. فدخل الجيش الإنجليزي إلى القدس سنة 1917 بقيادة الجنرال اللنبي Allenby (1861-1936)، ويومها قال كلمته الشهيرة: "اليوم انتهت الحروب الصليبية"!.

وقد نشرت يومها مجلة "بنسن" الإنجليزية رسماً "كاريكاتورياً" موحياً... ظهر فيه الملك الصليبي الإنجليزي ريتشارد الأول (ريتشارد قلب الأسد) Richard I (Richard the Lion-Heart) (1157-1199) وهو يقول "أخيراً تحقق حلمي"!. وهكذا "غُلِّفت" الأساطير الدينية البروتستانتية و"حُرِّكت" الأطماع الإمبريالية في اختطاف القدس وفلسطين.

ثم جاء الدور الأمريكي، الوارث للإمبراطوريات الاستعمارية الغربية القديمة، فأقام "توأمة" مع المشروع الصهيوني، انطلاقاً من الأساطير البروتستانتية:

1. فالمستوطنون البيض (الآباء المؤسسون) الذين استعمروا أمريكا، وأبادوا الهنود الحمر؛ قد اعتبروا أنفسهم بعثاً لبني إسرائيل عند خروجهم من مصر إلى أرض كنعان. فالملك جيمس الأول James I (1566-1625) ملك إنجلترا، الذين خرجوا من بلاده، اعتبروه "فرعون"، وأنهم خرجوا إلى "كنعان الجديدة" و"القدس الجديدة"؛ فهم –من ثم– شعب الله المختار... ذهبوا إلى أرض بلا شعب لتكون وطناً لشعب بلا أرض!.

2. ولقد أطلق هؤلاء المستوطنون البروتستانت على بقاع البلاد التي غزوها أسماء عبرانية، مثل "حبرون" و"كنعان". كما أطلقوا على مواليدهم أسماء عبرانية، مثل "أبراهام" و"سارة" و"ألعازر"، وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى إن أول دكتوراة منحتها جامعة هارفرد Harvard University سنة 1642 كان عنوانها "العبرية هي اللغة الأم"!. وأول كتاب صدر في أمريكا هو "سفر المزامير"، وأول مجلة صدرت حملت عنوان "اليهودي"!. كما أطلقوا على نهر كولورادو الاسم التوراتي القديم "باشان"! وسمحوا ببناء المعابد اليهودية في أمريكا هذه قبل السماح ببناء كنائس الكاثوليك!.

وهكذا تمت "توأمة" أمريكا مع بني إسرائيل، وتأسست الدولة الداعمة للإحياء اليهودي والصهيوني في القدس وفلسطين!.

3. ولقد تشكّلت في هذا المناخ... وبين الأمريكان، الذين سموا أنفسهم "أطفال إسرائيل" Children of Israel، أساطير المسيحية الصهيونية، التي تؤمن بأن مجيء المسيح يجب أن ينتظر عودة الدولة اليهودية، ومن ثم عملوا على ذلك منذ فجر تأسيسهم لهذا البلد (أمريكا).

4. ولقد تبنى القس الأمريكي جوزيف سميث Joseph Smith (1805-1844)، مؤسس الكنيسة المورمونية، نظرية البعث اليهودي في فلسطين، ولحق به كوكبة من ألمع اللاهوتيين الإنجيليين، من مثل سايروس سكوفيلد Cyrus Scofield ووليام بلاكستون William Blackstone (1841-1935) ووردر جريسون، والذين عملوا على بناء المستوطنات اليهودية في أرض فلسطين!.

5. كما أنشأ بلاكستون البعثة العبرية من أجل "إسرائيل"، المستمرة حتى الآن باسم "الزمالة اليسوعية الأمريكية"، والتي تمثل نواة جهاز الضغط Lobby الصهيوني في أمريكا.

6. وفي سنة 1818 طالب الرئيس الأمريكي جون آدمز John Adams (1735-1826) باستعادة اليهود لفلسطين، وإقامة حكومة يهودية مستقلة فيها!.

7. وفي سنة 1866 أرسلت البروتستانتية الأمريكية أولى البعثات الاستيطانية إلى أرض فلسطين، يقودها القس آدم ومعه 150 قسيساً أمريكياً. وفي السنة التالية 1867 قامت على أرض فلسطين أولى المستوطنات الأمريكية، بمشاركة سبعين شخصية دينية، من المسيحيين الصهاينة!.

8. وفي سنة 1878 قام القس الأمريكي وليام بلاكستون بالتنظير اللاهوتي "للمسيحية – الصهيونية"، ولاغتصاب القدس وفلسطين، وذلك في كتابه "المسيح آت"، وهو الكتاب الذي ترجم إلى أربعين لغة، وأصبح الأكثر انتشاراً في القرن 19 ميلادي بعد الكتاب المقدس!.

وعندما زار بلاكستون فلسطين سنة 1888 رفع شعار: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"!، وذلك قبل تسع سنوات من انعقاد المؤتمر الصهيوني

الأول، وقبل تأليف تيودور هرتزل Theodor Herzl (1860-1904) لكتابه "الدولة اليهودية" سنة 1896. أي أن المسيحية الصهيونية – البروتستانتية هي التي ابتدأت التسويق للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين حتى قبل أن يتبناه اليهود!.

9. وانطلاقاً من الأساطير الدينية البروتستانتية أصبح المشروع الصهيوني، وكيانه "إسرائيل"، تجلياً إلهياً، يمهد لعودة "الرب – يسوع"، وليس كياناً سياسياً يحاسب كما تحاسب الدول، ويخضع مثلها للقانون! ولقد عبر القس الأمريكي والتر ريجانز Walter Riggans عن هذه النظرية اللاهوتية بقوله:

> إن الصهيونية التوراتية، التي هي بالتأكيد أمنية كل مسيحي، تتعلق بشكل أساسي بالله وبأهدافه، ولذلك تفهم الصهيونية، من خلال الرؤية المسيحية، على أنها جزء من اللاهوت الديني، وليست جزءاً من السياسة، وإن دولة إسرائيل هي مجرد البداية لما يفعله الله من أجل الشعب اليهودي، ومن خلال الشعب اليهودي. إن من واجب المسيحيين دعم إسرائيل وسياستها، باعتبارها إشارة إلهية لرحمة الله، واستجابة لإرادته، على أنها تشكل إشارة توراتية بأن الله منشغل جداً في قضايا هذا العالم![12].

10. ولأن الأمر دين ولاهوت، وليس مجرد سياسة وإمبريالية، كان الالتزام الأمريكي نحو "إسرائيل"، بكل السبل... من المال... إلى السلاح... إلى النفوذ... إلى الفيتو، على النحو الذي يستغربه الذين لا يعلمون!!. كما كان الضغط على صناع القرار لوضع هذا الدين –المسيحي الصهيوني– في الممارسة والتطبيق. فالقس وليام بلاكستون، في سنة 1891، قام بجمع توقيعات 413 شخصية مسيحية ويهودية على مذكرة تطلب من الرئيس الأمريكي بنجامين هاريسون Benjamin Harrison (1833-1901) عقد مؤتمر دولي من أجل إعادة اليهود إلى فلسطين. ومن بين الذين وقعوا على هذه المذكرة جون روكفلر John Rockefeller (1839-1937)، ووليام روكفلر William Rockefeller (1841-1922)[13].

11. وفي سنة 1918م أعلن الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون (1856-1924) التزام أمريكا بتنفيذ وعد بلفور Balfour Declaration، ثم صادقت أمريكا على هذا الوعد رسمياً سنة 1922، وقرر مجلس النواب الأمريكي "منح اليهود

الفرصة التي حرموا منها لإعادة إقامة حياة يهودية وثقافية خاصة في الأرض اليهودية القديمة"!.

12. وفي إدارة الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت Theodore Roosevelt (1858-1919) أصبح اليهود، الذين يشكلون أقل من 3% من سكان أمريكا، يسيطرون على 15% من المناصب القيادية القابضة على المواقع الحساسة في الدولة الأمريكية[14]!.

13. وأصبحت الصهيونية المسيحية، أو المسيحية الصهيونية، العقيدة المحركة للقيادات الأمريكية. فالرئيس الأمريكي ليندون جونسون Lyndon Johnson (1908-1973) خطب سنة 1968 في إحدى المنظمات اليهودية وقال: "إن لأكثركم، إن لم يكن لجميعكم، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إليّ، ذلك لأن إيماني المسيحي انطلق من إيمانكم. إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتي، كما أن الكفاح الشجاع الذي قام به اليهود المعاصرون من أجل التحرر من الإبادة منغمس في نفوسنا"!.

والرئيس الأمريكي جيمي كارتر Jimmy Carter (1924)، الذي يعتنق عقيدة "الولادة الثانية"، يعترف بأن مشاعره المؤيدة للصهيونية كانت الموجه لسياسته الشرق أوسطية... وقد قال في خطاب الأول من أيار/ مايو 1978: "إن العودة إلى أرض التوراة التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية في أرضها، هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تشكل جوهر هذه النبوءة"!.

والرئيس الأمريكي رونالد ريجان Ronald Reagan (1911-2004) هو القائل سنة 1984: "إنني أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة في العهد القديم، وإلى المؤشرات حول هرمجدون، فأتساءل بيني وبين نفسي: ما إذا كنا الجيل الذي سيرى تحقق ذلك؟... إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن"!![15].

14. ويقرر الكونجرس الأمريكي في 1995/10/24: اعتبار القدس عاصمة أبدية لـ"إسرائيل"، لأنها كما يقول: "الوطن الروحي لليهودية"!.

وتشرع الحكومة الأمريكية بعد هذا القرار في بناء سفارتها بالقدس على أرض مملوكة للوقف الخيري الإسلامي!.

15. وحتى الغزو الأمريكي للعراق في آذار/ مارس 2003 يعتبره الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن George W. Bush حرباً مقدسة عادلة بمقاييس القديس أوغسطين Augustine (354-430م) والقديس توما الأكويني Thomas Aquinas (1225-1274م)[16]... وهي للقضاء على صدام حسين "بختنصر [نبوخذ نصر Nebuchadnezzar] بابل الذي يهدد إسرائيل، ويعرقل عودة المسيح!!"... وفي هذا التنظير المسيحي الصهيوني يقول القس الأمريكي ديفيد بريكز: "إننا نعرف أن تدمير بابل، الذي ورد في الإصحاح 18، يعني تدمير العراق"!!.

كما يقول القس تشارلز داير Charles Dyer، أستاذ اللاهوت في جامعة دالاس University of Dallas: "إن إصحاح إشعيا 13 يشير إلى قيام صدام حسين، وإلى غزوه للكويت، وذلك لإقامة قاعدة للهجوم على إسرائيل... فصدام هو خليفة "نبوخذ نصر" (605-562ق.م) (الذي هزم الإسرائيليين وسباهم إلى بابل ودمر الهيكل)، وذلك بسبب عداء صدام لإسرائيل، وبسبب نواياه لإعادة بناء بابل"![17].

وهكذا نظّرت الأساطير المسيحية الصهيونية لدمار العراق على يد بوش الابن (هولاكو القرن 21 ميلادي) دماراً فاق ما صنعه هولاكو القديم Hulagu (هولاكو المغول 614-663هـ/1217-1265م).

16. وفي نيسان/ أبريل 2004 يعطي بوش الابن لأريل شارون Ariel Sharon، رئيس الوزراء الإسرائيلي "رسالة الضمانات" التي تحرم اللاجئين الفلسطينيين من حقّ العودة، الذي قررته الشرعية الدولية بالقرار 194... وهي الرسالة التي تفوقت على وعد بلفور سنة 1917... إذ حرمت الفلسطينيين حتى من الحقوق المدنية والدينية التي نصّ عليها وعد بلفور!.

17. وفي الذكرى الستين لقيام الكيان الصهيوني في أيار/ مايو 2008 يخطب بوش الابن بالكنيست الصهيوني خطاباً توراتياً، يقرر فيه أن "إسرائيل" ليست سبعة ملايين نسمة، وإنما هي 307 ملايين نسمة؛ لأن أمريكا هي جزء متمم لـ"إسرائيل"!![18]. كما يقرر يهودية الدولة العبرية، أي التشريع لطرد العرب الذين يعيشون فيها!.

تلك هي الأساطير الدينية النصرانية الغربية "المغلفة... والمحركة" للأهداف الاستعمارية الغربية من وراء استعمار الشرق ونهب ثرواته واختطاف القدس وفلسطين.

أما عن الأساطير اليهودية، التي تزعم أن لليهود حقوقاً في القدس وفلسطين، فيكفي لتنفيذها ودحضها، بالمنطق العقلاني... والعقلانية المنطقية، أن نقول إن اليهودية، التي ينتسبون إليها، هي شريعة موسى عليه السلام، التي جاءت بها التوراة... وموسى عليه السلام ولد ونشأ وبعث في مصر، ونزلت عليه التوراة بمصر، باللغة الهيروغليفية، ثم مات ودفن بمصر، قبل غزو بني إسرائيل لأرض كنعان (فلسطين) وقبل نشأة اللغة العبرية، التي هي في الأصل لهجة كنعانية، فموسى عليه السلام لم يدخل فلسطين، ولم تر عينه القدس... ومن ثم فلا علاقة لليهودية وشريعة موسى بالقدس ولا بفلسطين...

وإذا كانوا يقولون: إنهم يصلون إلى القدس... كما يصلي المسلمون إلى مكة... فإننا نقول: إن الصلاة إلى بلد لا تستدعي ولا تتطلب ولا تبرر الاستيلاء عليه... فكل المسيحيين، من كل الأقطار والقارات والقوميات، يصلون إلى القدس، دون أن يكون ذلك داعياً ولا مستلزماً ولا مبرراً لأن يخرجوا من بلادهم ويحتلوا القدس!.

وكل المسلمين، من كل الأقطار والقارات والقوميات، يصلون إلى مكة المكرمة دون أن يكون ذلك داعياً ولا مستلزماً ولا مبرراً لأن يحتل هؤلاء المسلمون الحرم الذي إليه يتوجهون!.

وإذا كان تفرد الإسلام بالاعتراف بكل الآخرين، وحماية عقائدهم ومقدساتهم... وإذا كان التاريخ الإسلامي في القدس قد طبق وجسد هذه الحقيقة؛ فإن عروبة القدس وإسلاميتها هي الضمانة لإشاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات، وللنأي بها عن الاحتكار من قبل أهل دين من الأديان.

ولقد لخص هذه الحقيقة، حقيقة إسلامية القدس وعروبتها، الضامنة لإشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات؛ صلاح الدين الأيوبي، الذي استرد أمانة عمر من الصليبيين، وذلك عندما كتب إلى الملك الصليبي ريتشارد قلب الأسد فقال:

> القدس إرثنا كما هي إرثكم... من القدس عرج نبينا إلى السماء... وفي القدس تجتمع الملائكة... لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة. أما بالنسبة إلى الأرض، فإن احتلالكم فيها كان شيئاً عرضياً، وحدث لأن المسلمين الذين

عاشوا في البلاد حينها كانوا ضعفاء. ولن يمكنكم الله أن تشيدوا حجراً واحداً في هذه الأرض طالما استمر الجهاد!.

نعم... هذا هو الطريق... وهذا هو المنهاج...

- لقد بدد صلاح الدين الأيوبي بالجهاد أساطير الكاثوليكية الصليبية في التاريخ الوسيط للصراع.
- وبددت ثورات مصر وتضحيات شعبها أساطير بونابرت وأحلامه مع مطلع العصر الحديث.
- واليوم... لا سبيل أمام أمتنا لتبديد أساطير المسيحية الصهيونية والعنصرية اليهودية إلا بالجهاد. فهو "رهبانية" أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان الوعي بتاريخ هذا الصراع الطويل هو لون من الجهاد، لأنه سلاح من أمضى الأسلحة في مواجهة التحديات التي قامت وتقوم على أرض القدس وفلسطين؛ فإننا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل صفحات هذه الدراسة إسهاماً في استرداد أمانة عمر إلى أحضان العروبة والإسلام.

وصدق الله العظيم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (سورة الحج: آية 38-40).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء [شدة ومحنة] حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك". قالوا: يا رسول الله: وأين هم؟... قال: "ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس" رواه الإمام أحمد.

تلك هي مكانة القدس في عقيدة الإسلام وحضارته وتاريخه... وتلك هي أساطير الصليبية والمسيحية الصهيونية حول المدينة المقدسة، التي كانت دائماً وأبداً "رمز الصراع... وبوابة الانتصارات".

هوامش التمهيد

[1] **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، تحقيق محمد حميد الله الحيدر آبادي (القاهرة: 1956)، ص 123، 124.

[2] مكسيموس مونروند، **تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب**، ترجمة مكسيموس مظلوم (أورشليم: 1865)، المجلد 1، ص 12-14.

[3] **المرجع نفسه**، ص 172-175.

[4] زيجريد هونكة، **الله ليس كذلك**، ترجمة غريب محمد غريب (القاهرة: دار الشروق، 1995)، ص 25-34.

[5] أحمد عبد المعطي حجازي، أول إسرائيل آخر أمريكا، جريدة **الأهرام**، القاهرة، 2004/4/28.

[6] حاتم الطحاوي، "وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس،" مجلة **العربي**، الكويت، العدد 532، آذار/ مارس 2003، ص 62-67.

[7] محمد السماك، **الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي** (مالطا: مركز دراسات العالم الإسلامي، 1991)، ص 36.

[8] محمد السماك، **الدين في القرار الأمريكي** (بيروت: 2003)، ص 78؛ وجريس هالسل، **النبوءة والسياسة**، ترجمة محمد السماك (ليبيا: 1989)، ص 140.

[9] محمد عمارة، **في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام** (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2003)، ص 21.

[10] محمد السماك، **الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية**، ص 36، 39.

[11] جورج كيرك، **موجز تاريخ الشرق الأوسط**، ترجمة عمر الإسكندري، سلسلة الألف كتاب (القاهرة: مركز كتب الشرق الأوسط، 1957)؛ ومحمد عمارة، **إسرائيل: هل هي سامية؟** (القاهرة: 1967)، ص 14.

[12] محمد السماك، **الدين في القرار الأمريكي**، ص 26-27.

[13] **المرجع نفسه**، ص 33-34.

[14] **المرجع نفسه**، ص 81.

[15] **المرجع نفسه**، ص 41-42.

[16] النسخة العربية من مجلة **نيوزويك**، الولايات المتحدة الأمريكية، 2003/3/11.

[17] محمد السماك، **الدين في القرار الأمريكي**، ص 52.

[18] انظر تفاصيل هذه الحقائق –وأمثالها– بكتابنا: محمد عمارة، **في فقه الصراع على القدس وفلسطين** (القاهرة: دار الشروق، 2005).

الفصل الأول

أعلام مقدسية
الدور الثقافي والحضاري وترقية الفكر الإنساني

أعلام مقدسية
الدور الثقافي والحضاري وترقية الفكر الإنساني

د. محمد عيسى صالحية

مقدمة:

إذا كانت قضية القدس تُؤَزِّمُ الفِكر الإنساني وتضعه أمام حدوده وقُصوره في عصرنا الحاضر، فإنها كانت على مدى تاريخها مَعلَماً حضارياً مُشعاً. ومنارة أشرقت أنوارُها على كافة أنحاء المَعْمورة.

والمسلمون رُعاة المدينة وحُماتها أنبتوا فيها بيئة ثقافية رائدة تأصَّلت في علمائها وشيوخها وأُدبائها، فقدَّموا للإنسانية إبداعات علمية، كانت عاملاً في تقدُّم العلوم والفنون والآداب، عند كل الأمم التي تواصلت مع صُرّة العالم وملتقى أقطاره.

وهذا البحث يعرض لإنجازات خمسة من علماء القدس، ويلقي أضواء على دورهم الثقافي والحضاري في ترقية الفكر الإنساني، من خلال اللقاء الحضاري وانفتاحهم على الثقافات والحضارات الأخرى؛ إغريقية كانت أم يونانية أم مدنية غربية، دون الالتفات للأعراق أو الأجناس أو الأديان وإنما العلم وحده هو المقياس دون غيره.

هؤلاء الأعلام المقادسة هم:

- **ابن الهائم المقدسي**، المبدع في العلوم الرياضية.
- **مُجيرُ الدين العليمي**، صاحب النظرة الشاملة في البحث والنظر العلمي التاريخي.
- **خليل السكاكيني**، أحد رُوَّاد التربية في العصر الحديث.
- **محمد إسعاف النشاشيبي**، الداعية لاستيعاب التقدُّم العلمي الغربي والانفتاح على المدنية الحديثة (قلبٌ عربي وعقلٌ أوروبي).
- **عارف العارف**، واحد من جسور الاتصال مع الثقافة الألمانية والإنجليزية والفرنسية والتركية.

من معاهد بيت المقدس تخرَّج المئات من العلماء والأدباء والشيوخ والأطباء والمهندسين والفلاسفة وغيرهم ممن أثروا الفكر الإنساني بإنجازاتهم، وقدَّموا للحضارة الإنسانية من الروائع التي ستظلُّ خالدةً مع الأيام. غيرَ أنَّ هؤلاء الخمسة تفوَّقوا، وصاروا من شوامخ الأعلام في الثقافة والحضارة، فلنتعرَّف على دورهم وإنجازهم.

أولاً: ابن الهائم المقدسي:

هو أحمد بن محمد بن عماد الدين، شهاب الدين، أبو العباس، توفي سنة 815هـ/1412م، "حيسوب الزمان، وفرضي العصر والأوان" اللقب الذي أطلقه علماء عصره عليه، فقد كان مبدعاً مبتكراً في الرياضيات، وأطلق اسمه على العصر نسبةً إلى إبداعه الرياضي فقالوا عصر ابن الهائم، إذ فاق الأقران في ذلك. وانتهت إليه الرئاسة في الحساب والفرائض، ورحل إليه الدارسون من الآفاق، وسارت بمؤلفاته الركبان، وأخذ الناس عنه طبقة بعد طبقة[1]. ويُعدُّ من كبار علماء الرياضيات في العالم الإسلامي بلا منازع، وشيخ الإسلام، وشيخ علماء المقادسة في عصره[2].

ولد بالقاهرة، في حي القرافة الصغرى سنة 753هـ/1352م أو 756هـ/1355م، وبها نشأ، وتلقَّى علومه الأولية بمصر واشتغل وحصّل طرفاً صالحاً من الفقه[3].

ومن الشيوخ الذين درس عليهم:

- الشيخ عمر بن رسلان بن نصير البلقيني ت 805هـ/1402م، المحدث والفقيه والمفسر، وقد برع في جميع العلوم، وكان أحفظ الناس لمذهب الشافعي، وقد درس عليه الفقه والحديث والتفسير[4].
- جلال الدين الأميوطي، إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم ت 790هـ/1388م، مهر في الفقه والعربية والنحو، ودرس وأفتى وناب في الحكم، ودرس عليه ابن الهائم هذه العلوم[5].
- الشيخ علي بن عبد الصمد الجلاوي المالكي ت 782هـ/1380م، عالم بالفرائض والفقه والحساب والهندسة، وقد ذكر ابن الهائم في مقدمة الرسالة التي كتبها وعنوانها: عمل المناسخات بالجدول، "اعلم أن عمل المناسخات بالجدول هو من الصناعة البديعة العجيبة، تلقيتها من أستاذي أبي الحسن الجلاوي، ولم أرها مسطورة"... إلخ[6].

- الشيخ الحافظ العراقي، عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن ت 806هـ/1404م، عالم بالنحو واللغة والقراءات والفقه وأصوله والغريب، وغلب عليه علم الحديث، وصف بفريد دهره ووحيد عصره، وشهد له بالتفرُّد في فنِّه أئمة وشيوخ وعلماء زمانه[7].
- وأورد السخاوي أن ابن الهائم قد سمع صحيح البخاري وأمهات كتب الحديث عن التقي بن حاتم[8].

في هذه البيئة العلمية تكونت شخصية ابن الهائم العلمية والفكرية، وغدا شاباً معروفاً بحبه للعلوم والاشتغال بها.

وتفيد بعض حرود مؤلفاته التي ما تزال مخطوطة بارتحاله من القاهرة إلى بيت المقدس قبل سنة 772هـ/1370م، ولمّا يتجاوز العشرين من عمره. وفي القدس جمع نفسه على المطالعة والاشتغال بالعلوم؛ فبرع في الفقه والعربية والنحو والفرائض ومتعلقاتها وخاصة الحساب، واشتهر أمره بين شيوخ المقادسة، فانقطع للتدريس والإفتاء، ودرَّس في أماكن كثيرة في المسجد الأقصى ومدارس القدس الأخرى. وكان الشيخ زين الدين، أبو بكر بن عمر بن عرفات القمني المصري الخزرجي ت 833هـ/1429م يتولى تدريس المدرسة الصلاحية سنة 797هـ/1394م، واستمرت الوظيفة بيده وهو مقيم بالقاهرة، فاستناب ابن الهائم في تدريس الصلاحية، مدرساً للرياضيات والفرائض[9]. وعلا أمر ابن الهائم واشتغل بالتدريس في الصلاحية، حتى وفد إلى بيت المقدس العلاَّمة شمس الدين الهروي، محمد بن عطاء الله بن محمد الرازي ت 829هـ/1425م من وكان حنفياً، فرأى وظيفة التدريس في الصلاحية ومعلومها، ولم ير للحنفية شيئاً من تدريس الصلاحية، فسعى لدى نائب الشام الأمير نوروز، فأشركه في الوظيفة بنصف المعلوم (المرتب) مع ابن الهائم سنة 814هـ/1411م. ويفيد العليمي بأن شمس الدين الهروي قد تحوَّل إلى الشافعية ليظفر بالتولية[10]، ولولا معارضة أهالي القدس لفعلة الأمير نوروز لما ظفر ابن الهائم بنصف التولية بعد نزعها منه. وكان الشيخ زين الدين القمني، لما سمع بسعي ابن الهائم وأهالي القدس لإعادة ابن الهائم لوظيفة التدريس، يردد: أنت أحق بها من غيرك[11]، وكان يسكن في دارٍ في الزاوية الوفائية عرفت بدار معاوية، لأن معاوية بن أبي سفيان نزلها عند زيارته إلى القدس[12].

كان ابن الهائم شافعي المذهب، ذكرت له محاسن كثيرة، فقد كان قواماً بالحق، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، عنده ديانة متينة، ولكلامه وقع في القلوب[13]، وكان قد حجّ وجاور كما يستشف من تأليفه، شرح الأرجوزة الياسمينة في مكة سنة 789هـ/1387م. ويروى أن زين القمني ظلّ يسعى لإعادة ابن الهائم للتدريس استقلالاً، وأنه جهَّز توقيعاً إلى ابن الهائم، وكتبه بخطه، ولكن سلطان المماليك لم ينفذه فقد توفي ابن الهائم.

أصيب ابن الهائم بوفاة ولد نجيب له اسمه محب الدين، وصف بنادرة دهره ذكاءً وفطنةً وعلماً وذلك في شهر رمضان 800هـ/1397م فصبر واحتسب، وأظهر برداً لكبده عند فقد ولده[14].

وعلى الجانب الآخر فقد درس على ابن الهائم المقدسي جمٌّ غفيرٌ من الدارسين، إذ كان يُعدُّ رحلة الطالبين، ومقصد الطلبة والدارسين. احتل البعض منهم مقاماً كبيراً بين العلماء والشيوخ وكان منهم:

- القاضي زين الدين عبد الرحمن التميمي الشافعي ت 876هـ/1471م، فقد اشتغل بالنحو على الشيخ ابن الهائم[15].
- الشيخ تقي الدين، أبو بكر بن محمد بن يوسف القدسي الشافعي ت 856هـ/1452م، وأخذ عنه الفقه والنحو[16].
- زين الدين، ماهر بن عبد الله بن نجم الأنصاري المقدسي، المكنى بأبي الجود ت 867هـ/1462م، لازم ابن الهائم المقدسي واشتغل عليه في الفقه والنحو والفرائض والحساب والعربية[17].
- العلاَّمة الشيخ إسماعيل بن إبراهيم بن شرف الشافعي ت 852هـ/1448م، معيد المدرسة الصلاحية، الفرضي الحاسب، وعين فقهاء الشافعية، وأحد الأركان في بلده القدس الشريف، وقد شرح مصنفات شيخه ابن الهائم، وكان ملازماً له[18].
- برهان الدين الكركي، إبراهيم بن موسى بن مسعود الشافعي المقرئ ت 853هـ/1449م، أخذ عن ابن الهائم المقدسي في الفقه والنحو، فقد عرض نظم القواعد لابن الهائم على ناظمه ببيت المقدس ولازمه[19].
- الشهاب أحمد بن يوسف بن حمد بن أحمد الفرضي الحاسب ت 862هـ/1457م، وأخذ عن ابن الهائم المقدسي الفقه والفرائض والنحو، وحاكى شيخه بنظمه

أرجوزة في الفرائض سمَّاها المربعة، جاءت في 313 بيتاً، على أربعة أقسام؛ الفرائض، والحساب، والوصايا، والجبر، والمقابلة[20].

- محمد بن أحمد بن عثمان بن مقدِّم، شمس الدين البساطي ت 842هـ/1438م، الذي أخذ الفرائض والحساب عن ابن الهائم المقدسي، وغدا واحداً من كبار علماء عصره[21].

كما ذكر ابن حجر العسقلاني في تاريخه أنه لقي العلاَّمة ابن الهائم في بيت المقدس، وحضر مجالسه وسمع فوائده[22]. وروى عنه شمس الدين البرماوي، محمد بن عبد الدائم ت 831هـ/1427م، وقد عُيِّن سنة 830هـ/1426م مدرساً في الصلاحية وتولى نظرها[23]. وكذلك جمال الدين يوسف بن منصور المشهور بابن النائب المقدسي ت 866هـ/1461م، اشتغل بالفقه والنحو والحديث، وتفقه على العلاّمة ابن الهائم[24]. كما سمع منه الأبي، ثلاثيات البخاري وبعض التحرير في الفقه (نجاسة الخنزير)، وصيام ست شوال. وسمع منه ابن يعقوب، نظم القواعد وشرحها في النحو[25].

لقد أمضى ابن الهائم عمره في الدرس والدراسة والمطالعة والتأليف، يفتي ويدرس، وما عرف عنه سعي لنيل حظوة عند أمير أو سلطان، وما قبل صُرة أو هدية، وإنما كان عالماً عاملاً ومبدعاً ومبتكراً.

وتوفي ابن الهائم في العشر الأخيرة من جمادى الآخرة سنة 815هـ/1412م، ودفن بمقبرة مأمن الله، وقبره مشهور معروف على بضعة أمتار من البركة، وكان القبر مبنياً على شكل تابوت[26].

إبداعات ابن الهائم المقدسي ونظرياته:

ابتكر ابن الهائم نظريات جديدة في الحساب والجبر، منها نظرية في حساب الكفتين، ونظرية حساب الخطأين، وقد أخذ بهما العالم الرياضي المعاصر، كما أوجد طريقة الغربال لتمييز الأعداد الأولية عن الأعداد المُركَّبة، وهذا يمثل تطوراً كبيراً في علم الحساب[27].

وكان وما زال أهم إنجاز علمي لابن الهائم والذي طوَّر علم الرياضيات، واعتبر ترقيةً للفكر الإنساني الرياضي، كتاب ابن الهائم في الشباك، فقد ابتكر طريقةً لضرب الأعداد باستعماله لجداول تعرف بجداول التخت والميل، (الضرب بالشباك) وهي التي

تستخدم حتى وقتنا الحاضر. والكتاب ما زال مخطوطاً تحتفظ الخزانة العامة بالرباط بنسخة منه رقمها (2,430) D 1,194 بين الأوراق 69أ – 80أ.

ومثاله: لنضرب 5674 × 124 = 703576

		5	6	7	4
	1	5	6	7	4
7	2	1 / 0	1 / 2	4	8
0	4	2 / 0	2 / 4	2 / 8	1 / 6
		3	5	7	6

وطريقته:

- نرسم مستطيلاً ونقسمه إلى مربعات.
- يكون عدد المربعات في الاتجاه الرئيسي مساوياً لعدد أرقام أحد المضروبين.
- يكون عدد المربعات في الاتجاه الرئيسي الآخر، مساوياً لعدد أرقام المضروب الآخر.
- نقسِّم كل مربع إلى مثلثين، علوي وسفلي.
- نبدأ بالضرب من الأعلى بالرقم الأول.
- نسجِّل رقم العشرات في المثلث الأعلى.
- نُكرِّر العملية في الأرقام التالية.
- ثمّ نجمع بطريقة مائلة، فيكون الناتج هو الجواب.

لقد كان هذا الابتكار (الإبداع) سبباً رئيسياً لتطوُّر وتقدُّم العمليات الأربعة الحسابية، والتقطها غيّاث الدين جمشيد الكاشي، وطوَّر عمليات الشباك واستنتج نماذج جديدة لها وضُمِّنَ قواعد أثبتها في كتابه مفتاح الحساب، وما أحسب الشبكات الحاسوبية إلا وقد أفادت من إنجازات ابن الهائم والكاشي[28].

ومثال حساب الخطأين:

أوجد العدد الذي إذا أضيفت إليه ثلثاه وثلاثة كان الناتج 18 وحلها، بأن أعطى فرضاً أول، العدد هو 3 وتصرف حسب السؤال

$$8 = 3 + \frac{2}{3} \times 3 + 3$$

يكون الخطأ الأول 18 – 8 = 10 ناقص

ثمّ فرض أن العدد هو 6 وتصرف بحسب السؤال

$$13 = 3 + \frac{2}{3} \times 6 + 6$$

الخطأ الثاني يكون 18 – 13 = 5 ناقص

وعليه فالمحفوظ الأول = 3 × 5 = 15

والمحفوظ الثاني = 6 × 10 = 60

الفرق بين المحفوظين = 60 – 15 = 45

الفرق بين الخطأين 10 – 5 = 5

وعليه فالجواب = $\frac{45}{5}$ = 9 العدد.

ومثال حساب الكفتين:

ويمكن حل مسائل حساب الكفتين أو الكفّات، وطريقته أن تصور ميزاناً على الهيئة المرسومة، وتضع المفروض على قبته، وتتخذ إحدى الكفتين من أي الأعداد شئت، وتفعل في ذلك ما فرض من الجمع والحط إلى غير ذلك من الأعمال، ثمّ تقابل على القبة فإن أصبت فتلك القبة هي العدد المجهول، وإلا فانظر كيف تحل المسألة التالية:

مال جمع ثلثه وربعه، فكان 21، توضع على القبة، وفرض الأول 12، والثاني 24، وتصرف بالسؤال:

$$7 = 4 + 3$$

21 – 7 = 14 تحت الكفة

$$14 = 6 + 8$$

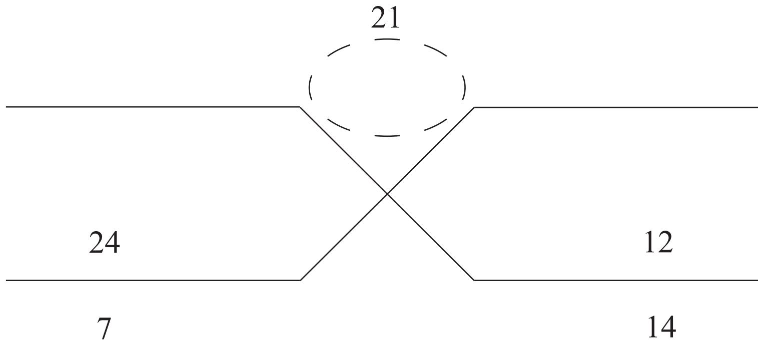
21 – 14 = 7 تحت الكفة الأخرى

ثمّ نضرب 14 × 24 = 336

7 × 12 = 84

ونطرحهما 336 – 84 = 252

252 ÷ 7 = 36 وهو العدد المجهول[29].



مصنفات ابن الهائم المقدسي:

وضع ابن الهائم العديد من المصنفات في العلوم الرياضية، الحساب والجبر والمقابلة، وصنَّف في الفرائض (حساب المواريث وقسمة التركات والوصايا)، والفقه وأصوله واللغة العربية والنحو والتفسير. وكان البعض منها قد جُعل للطلبة والدارسين في مراحل التعليم المختلفة، والبعض الآخر لذوي الاختصاص والعلماء وأكابر الشيوخ. واتسمت مؤلفاته التعليمية بمنهجية تربوية عالية إذ راعت تدرُّج التعليم من الأسهل إلى السهل إلى الأصعب فالمعقد، وفق أعمار التلاميذ ومستوياتهم العقلية والفكرية. أما النوع الآخر، فكان يُركِّزُ فيه على تنمية القدرات العقلية، وخاصةً الذكاء، ويطرح مسائل بالغة التعقيد للنظر والتفكير. أما مؤلفاته الفقهية فقد تصدّت للعديد من الأمور الفقهية الشائعة في المجتمع، والتي تتطلب حلاً، كالبدع والأزمة الاقتصادية في الدولة المملوكية نتيجة انتشار غش النقود وزغلها، وتوضيح وشروحات للمذهب الشافعي، ومثلها مصنفات في اللغة والنحو.

واللافت للنظر، بلوغ ابن الهائم المقدسي درجة الإبداع والابتكار على المستوى العالمي في الفكر الرياضي ووضع نظريات جديدة أسهمت في تقدم وترقية الفكر الرياضي الإنساني، وكانت نقلة نوعية دفعت البحث في الرياضيات: الحساب والجبر والمقابلة، دفعات مهمة إلى الأمام، وما زالت الدوائر العلمية الكبرى تُقِرُّ وتعترف بفضل ابن الهائم المقدسي على دراسات العلوم الرياضية كما أوضحناه في بحثنا سابقاً. ولا يوجد أبلغ من أهمية الإقرار بجهوده المبدعة، من رواج مصنفاته في العالم الإسلامي، مشارقه ومغاربه، واشتغال علماء الرياضيات لأكثر من ثلاثة قرون بشرح وتوضيح واختصار والتعليق وكتابة الحواشي على مصنفات ابن الهائم المقدسي، وخاصةً في علمي الحساب والفرائض والجبر والمقابلة.

وما زالت المكتبات العربية والتركية والأجنبية تحتفظ بالعديد من مصنفات ابن الهائم. وتباهي المكتبة الخالدية بالقدس بتراث ابن مدينتها، وتحتفظ بكتبه في خرانة خاصة به.

ومن مصنفاته في الحساب والفرائض والجبر والمقابلة نذكر:

1. **إبراز الخفايا في فن الوصايا:** وهي مناقشة لبعض مسائل الإرث، منه نسخة مخطوطة في إيرلندا، دبلن، مكتبة جستربيتي، رقم 4428.
2. **الأرجوزة الكبرى الألفية في الفرائض:** المسماة بالكفاية، وهي قصيدة وقعت في 1096 بيتاً، وقد شرحها ابن الهائم المقدسي في كتاب بعنوان: شرح الكفاية في الفرائض، في ثلاثة أجزاء ضخمة. ومنه نسخ مخطوطة في:
   - دار الكتب الوطنية بتونس رقم 881.
   - دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، رقم 23192ب.
3. **الأرجوزة الصغرى:** المسمَّاة بالنفحة القدسية في اختصار الرحبية في الفرائض، أو الألفية الصغرى، وهي منظومة في الميراث ومنها نسخ مخطوطة في:
   - مكتبة مدرسة الحجيات بالموصل رقم 266.
   - دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، رقم 3964ح.
   - دبلن، مكتبة جستربيتي رقم 6/3420 (مجاميع).

4. **ترغيب الرائض في علم الفرائض:** ذكره السخاوي، في كتابه الضوء اللامع، الجزء الثاني، صفحة 157.

5. **الجُمل الوجيزة في الفرائض:** ذكره السخاوي في كتابه الضوء اللامع، الجزء الثاني، صفحة 157. وانظر فهرس المخطوطات المصوَّرة، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، الجزء الثاني صفحة 800.

6. **الحاوي في الحساب:** اختصار وتعليق وإضافة لكتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشي، أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي ت 721هـ/1321م. حقَّقه وعلَّق عليه، رشيد عبد الرازق الصالحي وخضير عباس المنشداوي، طبعة بغداد، جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1988.

7. **رسالة في الحساب لدارسي أحكام الميراث:** يوجد منه نسخة في دبلن، مكتبة جستربيتي قرم 3469/ع (مجاميع). وانظر، كارل بروكلمان Carl Brockelmann، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني صفحة 125، والملحق الجزء الثاني صفحة 154.

8. **شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة:** ألَّف عبد الله بن محمد بن حجّاج المعروف بابن الياسمين ت 600هـ/1204م منظومةً في الجبر والمقابلة تضمَّنت قوانين الجبر وأصوله. فشرحها ابن الهائم المقدسي، شرحاً وافياً، وأضاف إليها الكثير، حيث تناول في شرحه: بيان معاني الألفاظ التي يتداولها أهل هذا الاصطلاح، وبيان وجوه التصرفات في المقادير المجهولة، وبيان المسائل الست التي ينتهي الحاسب بالمعادلة إليها، وحل مسائل يرتاض بها من أحكم الأبواب الثلاثة لتحصل له ملكة تامة في استخراج المجهولات. وقد عُرِفَ عن ابن البناء المراكشي براعةٌ نادرةٌ في الهندسة والجبر والحساب والمنطق. ويبدو أن المؤلف وضعها في أثناء وجوده في مكة حاجاً أو معتمراً أو مجاوراً دارساً سنة 789هـ/1388م. ومنه نسخ في:

- إسطنبول، مكتبة كوبريلي زاده 947.
- إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة لاله لي رقم 2134 و2/2738 (مجاميع).
- إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة حفيد أفندي رقم 2/215.

- إسطنبول، مكتبة متحف التوب كابي سراي، رقم E.H. 2004, E.H. 19994, H. 299.
- دمشق، مكتبة الأسد، الخزانة الظاهرية، 3084 عام و9251 عام.

وانظر أيضاً كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول صفحة 471.

9. **شرح الجعبرية في الفرائض:** وهو شرح لكتاب برهان الدين، إبراهيم بن عمر الجعبري، أبو إسحق ت 732هـ/1331م، ذكره السخاوي في الضوء اللامع، الجزء الثاني صفحة 158.

10. **جداول الميراث الشرعي:** ذكره السخاوي في الضوء اللامع، الجزء الثاني صفحة 158.

11. **عمل المناسخات بالجدول:** (لعله المذكور سابقاً)، وصنفها أحدهم تحت عنوان: "كيفية صناعة المناسخات". قال في أوله: "اعلم أن عمل المناسخات بالجدول هو من الصناعة البديعية العجيبة تلقيتها من أستاذي أبي الحسن الجلاوي، ولم أرها مسطورةً في مصنَّف، وما زلت أعلّمها للطلبة كما تلقيتها، وكم سألوني أن أقيِّدها بالعبارة ليكتبوها مفردة، فلم يتيسّر ذلك، وقد دعت الضرورة إلى بيانه في هذا الشرح". ومنه نسخ في:

- إسطنبول، السليمانية، خزانة راغب باشا رقم 5/569، بغداد، مكتبة الأوقاف العامة، 1/2984.
- وانظر الرسالة المخطوطة بعنوان: رسالة في المناسخات، المكتبة الوطنية، تونس، منه نسخة مصوَّرة في جامعة اليرموك – قسم الوثائق والمخطوطات.

12. **غاية السُّول في الإقرار بالدين المجهول:** (أصول مسائل الإقرار بالدين المجهول الدوري)، بحث فيه 12 مسألة، وحلَّ كلاً منها في خمسة أوجه عددية، ووجه عن طريق الجبر والمقابلة، وآخر عن طريق حساب الخطأين، وهو الذي ابتكر هذا النوع من الحساب، وتتعلق ببعض مسائل الإرث عند عدم معرفة الأقارب الورثة، كتبها في 12 شوال 797هـ الموافق 1395/7/31م. ومنه نسخ في:

- إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة راغب باشا رقم 2/569 وخزانة أسعد أفندي رقم 1/3159.

- دبلن، مكتبة جستربيتي رقم 4490.
- دمشق، مكتبة الأسد، الخزانة الظاهرية، 3077 عام.

وانظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني صفحة 125، والملحق (إنديل)، الجزء الثاني صفحة 154-155.

13. **الغربال:** رسالة تبحث في وجه يستعمل لتمييز الأعداد المركَّبة عن غيرها، منه نسخة مخطوطة فريدة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم 2/4437.

14. **الفصول المهمة في علم المواريث الأمة:** وهذا الكتاب يوجد منه نسخة في كل من:

- دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة رقم 2/1843ب.
- دار الكتب الوطنية، بتونس، رقم 1944.

15. **اللمع في الحساب:** ويتناول الضرب والقسمة والكسور، وفيها مُلَحٌ ونوادر رياضية، ومنه نسخ مخطوطة في:

- إسطنبول، جامعة إسطنبول، القسم العربي، رقم 1534. وتركيا، بالي كسير باغشلر.
- برلين، مكتبة غوطا، رقم 1482.
- بغداد، مكتبة الأوقاف العامة، رقم 4/5501.
- بغداد: مكتبة المتحف العراقي، 15/11220، 25 و6/27433.
- دمشق، مكتبة الأسد، الخزانة الظاهرية، فيها ست نسخ 3085، 3089، 5262، 6666، 9515، 8408 (عام).
- دبلن، مكتبة جستربيتي رقم 1/3231، 2/3362.

16. **المبدع:** وهو مختصر لكتابة المعونة في صناعة الحساب الهوائي، الذي سيشار إليه لاحقاً، وهو المختصر الثاني، منه نسخة في خزانة راغب باشا، بالمكتبة السليمانية، رقم 1458.

17. **مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب في علم الحساب:** وقد بحث فيه الأعداد الصحيحة والكسرية بالإضافة إلى الجذور، وهو كتابٌ تعليمي، وقد شرحه

محمد بن عبد الله بن علي الشنشوري ت 999هـ/1591م، ومنه العديد من النسخ المخطوطة في:

- المتحف العراقي، رقم 13565.
- المكتبة الأزهرية في القاهرة، رقم 4/2162، 51/7651، 330/41612، 269/53660.
- مكتبة برلين الأهلية رقم 5978.
- المتحف البريطاني في لندن، 5/420.
- الخزانة الظاهرية، بمكتبة الأسد، خزانة الظاهرية، 30307 عام.
- شهيد علي بالمكتبة السليمانية، 4/2706.
- راغب باشا، بالمكتبة السليمانية، 3/569.

18. **المسرع في شرح المقنع:** (مختصره)، فرغ من تصنيفه في 18 جمادى الآخرة 810هـ الموافق 1407/11/20م، بالمسجد الأقصى، ومنه نسخ في:
   - الموصل، المكتبة الأحمدية، رقم 107 أحمدية.
   - القاهرة، المكتبة الأزهرية، 3/4376.
   - القاهرة، دار الكتب المصرية، 2815 ك.
   - إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة لاله لي رقم 3747 ورقم 3752.
   - تركيا، مكتبة مدينة طاوشانلي، رقم 6/1754.
   - إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة قليج علي رقم 570.
   - دمشق، مكتبة الأسد، الخزانة الظاهرية، 240 عام.

19. **المعونة في صناعة الحساب الهوائي:** وقد بحث في تعريف الحساب، وموضوعه، وأعمال الصحيح والكسور والجذور والمتواليات والأعداد المتناسبة وحساب الخطأين ومسائل العشرات والحياض والليل والتلاقي والإضمار، تاريخ تأليفه 791هـ/1388م وقد حقَّقه خضير عباس المنشداوي، ونشر في بغداد، عن طريق جامعة بغداد، ومركز إحياء التراث العلمي العربي، 1982.

20. **المقنع في الجبر والمقابلة:** وهي قصيدة في الجبر والمقابلة (المنظومة) تتكون من 59 بيتاً، وتبحث في أسماء الأنواع المجهولة وقرابتها وأعمال الأعداد والجذور ومسائل جبرية أخرى، وقد أنشأها في المسجد الأقصى سنة 804هـ/1401م. وقد اعتنى بهذه القصيدة شرحاً وتعليقاً عددٌ من علماء الرياضيات، مثل زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري السنيكي ت 926هـ/1520م، وسبط المارديني، محمد بن محمد ت 907هـ/1501م، وشرحها المؤلف نفسه. ومنه نسخ في:

- بغداد، مكتبة الأوقاف العامة، رقم 1/550.
- دمشق، الخزانة الظاهرية، 4823 عام.

21. **المسرع في شرح المقنع:** شرح المؤلف كتابه السابق بناءً على طلب تلاميذه ومعاصريه من العلماء، نظراً لصعوبتها، فذكر في مقدمة المسرع: "وبعد، فإنَّ منظومتي في الجبر والمقابلة، الملقب بالمقنع، كثرت معانيه، وقلَّت ألفاظه، فالتمس مني مَنْ حقُّه علي لازم أن أضع له شرحاً، ومن ثمّ اختصره ليسهل على من قصرت همته تناوله". حيث فرغ تصنيفه في 18 جمادى الأولى 810هـ الموافق 1407/10/21م، بالمسجد الأقصى، ومنه نسخ في:

- إسطنبول، مكتبة فيض الله، رقم 1366.
- دمشق، الخزانة الظاهرية، رقم 24 عام.

22. **ملجأ الاضطراب في حساب الفرائض:** وهي رسالة في حساب الفرائض، ومنه نسخ في:

- بغداد، مكتبة المتحف العراقي، رقم 1/4847.
- بغداد، المكتبة القادرية، رقم 216.
- بغداد، مكتبة الأوقاف العامة، 1/2984.

23. **الممتع في شرح المقنع:** (الشرح الكبير)، شرح لقصيدته المقنع في الجبر والمقابلة، فرغ من تصانيفها 13 جمادى الآخرة 810هـ الموافق 1407/10/16م، ومنه نسخ في:

- إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة شهيد علي، رقم 2/2706.

- دمشق، الخزانة الظاهرية، 24 عام.
- الجزائر، المكتبة الوطنية، فيها نسخ أرقامها 6/597، 19/673، 12/959، 2/1474، 1479، 1480، 6/1483، 14/1830.
- دبلن، مكتبة جستربيتي رقم 1/3881.

24. **الوسيلة في علم الحساب الهوائي:** وهو اختصار لكتابة المعونة المذكور سابقاً، وهو من أهم مؤلفاته، حيث أبدع في مسائل الأعداد المضمرة، وبيان الأعداد الأربعة المتناسبة، ومنه العديد من النسخ في:

- إسطنبول، المكتبة السليمانية، خزانة لاله لي رقم 1/2766.
- المكتبة السليمانية، خزانة حسن حسني رقم 11/1135 وخزانة عاطف أفندي رقم 1717، وخزانة جورليلى علي باشا رقم 443، وخزانة أسعد أفندي، رقم 183.
- القاهرة، المكتبة الأزهرية، رقم 20312.
- بغداد، مكتبة الأوقاف العامة، رقم 12241.
- دمشق، الخزانة الظاهرية، 4280 عام.
- دبلن، مكتبة جستربيتي رقم 4/3469.

وللمزيد انظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 162/2، والملحق (الذيل)، 155/2. وقد شرحها أيضاً سبط المارديني. المكتبة الظاهرية رقم 4280 عام، وكان ابن الهائم قد صنَّفه في 28 ربيع الثاني سنة 772هـ الموافق 1370/11/19م بجوار المسجد الأقصى.

25. **نزهة النظار في صناعة الغبار:** أو نزهة النظار في معرفة القلم الهندي، وهو مختصر لكتابه مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب، ومنه العديد من النسخ في:

- المكتبة السليمانية بإسطنبول، خزانة لاله لي رقم 2717/ وخزانة راغب باشا رقم 4/569، وخزانة حفيد أفندي رقم 455، وخزانة أسعد أفندي، 183، وخزانة حسن حسني، رقم 1135.

- متحف التوب كابي سراي، خزانة أمانت خزينة سي، رقم 1725، ومكتبة نور عثمانية، إسطنبول، رقم 2975، ومكتبة جامعة إسطنبول، القسم العربي، رقم 1534.
- خزانة الظاهرية بمكتبة الأسد، بدمشق، ويوجد أربع نسخ أرقامها: 6693 عام، 3079، 3084، 9557 عام، والعديد منها أيضاً في المكتبة المذكورة.

وشرحها زين الدين بن أحمد بن أحمد الدري في سنة 1033هـ/1624م وابن الحنبلي، محمد بن إبراهيم بن يوسف ت 971هـ/1563م، وسمَّى كتابه "عدة الحاسب وعمدة المحاسب"، منه نسختان في الخزانة الظاهرية رقم 5132 عام، و8815 عام. وشرحه أيضاً أحمد بن محمد بن جبريل الغزي سنة 1298هـ/1880م. وكذا يحيى بن تقي الدين بن إسماعيل بن عبادة الينابيعي الشهير بالفرضي توفي بعد 1026هـ/1617م، ومن شرحه نسخة في الخزانة الظاهرية رقم 8861 عام.

إن كثرة الشروحات والتعليقات والاختصارات لمصنفات ابن الهائم المقدسي تبيِّن أهمية مؤلفاته، سواء التعليمية منها أم النظرية الفكرية، فقد ظلّ الاهتمام بها منذ أوائل القرن 15 ميلادي/ 9 هجري وحتى نهاية القرن 19 ميلادي/ 13 هجري. أي مرحلة تزيد عن ثلاثة أو أربعة قرون.

ومن مصنفاته في الفقه وأصوله:

1. **شرح قطعة من منهاج الطالبين:** لصاحبه للإمام النووي ت 676هـ/1277م، في الفقه الشافعي.
2. **العجالة في حكم استحقاق الفقهاء أيام البطالة.**
3. **المغرب عن استحباب ركعتين قبل المغرب.**
4. **جزء في صيام ست شوال.**
5. **التحرير بدلالة نجاسة الخنزير.**
6. **رفع المَلام عن القائل باستحباب القيام.**
7. **اللمع في الحق على اجتناب البدع:** وهو من الكتب المهمة في الفقه، أكد فيه على السير والتمسُّك بالأصول والابتعاد عن البدع.

8. **تحقيق المنقول والمعقول في نفي الحكم الشرعي عن الأفعال قبل بعثة الرسول**.

9. **مختصر اللمع:** للشيخ أبي إسحاق الشيرازي في الأصول.

10. **نزهة النفوس في بيان المعاملة بالفلوس:** وهي رسالة فقهية مهمة من الناحية الاقتصادية عالج فيها زغل وزيف النقود في الدولة المملوكية، ووصف حالة التردي الاقتصادي والأزمة المالية آنذاك. وقد فرغ من تأليفه سنة 802هـ/1400م، بالمسجد الأقصى، وحقَّقها عبد الله بن محمد بن أحمد الطريقي، وطُبعت بالرياض، في السعودية، مكتبة المعارف، 1410هـ/1990م.

11. **البحر العجاج في شرح المنهاج**.

12. **تحرير القواعد العلائية وتمهيد المسالك الفقهية**.

ومن مصنفاته في اللغة العربية وفي النحو:

1. **الضوابط الحسان فيما يتقدم به اللسان**: التي صارت علماً على السماط، وشرحها.

2. **القصيدة الميمية**: (نظم السماط، 53 بيتاً، البحر البسيط).

3. **تحفة الطلاب**: وهو نظم قواعد الإعراب لابن هشام، وشرحها شرحاً مطولاً في مجلد.

4. **خلاصة الخلاصة في النحو**.

5. **التبيان في تفسير غريب القرآن**: دار الكتب المصرية، 84 تفسير.

6. **العقد النضيد في تحقيق كلمة التوحيد**.

وله أيضاً قطعة جيدة من التفسير إلى قوله: "فأزلَّهما الشيطان عنهما". بالإضافة إلى ديوان شعر.

لقد كان ابن الهائم المقدسي، أعجوبة زمانه، وفريد عصره، بل وبديع زمانه، أبدع وابتكر، وأفاد، وكان معولاً على مصنفاته في الفكر والاجتماع واللغة.

وللمزيد عن مصنفاته انظر:

- محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت)، الجزء الثاني، صفحة 157-158.

- مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (عمّان: مكتبة المحتسب، 1973)، الجزء الثاني، صفحة 110-111.
- قدري طوقان، **تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات**، 1952، صفحة 439.
- رمضان ششن، **نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا** (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1975)، الجزء الأول، صفحة 192-197.
- آرثر جون أربري Arthur John Arberry، **فهرس المخطوطات العربية في مكتبة تشستربيتي**، دبلن، ترجمة محمود شاكر سعيد، مراجعة إحسان صدقي العمد (عمّان: مؤسسة آل البيت، 1992-1993)، ثلاثة أجزاء.
- Carl Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*, Zweiter Band (Leiden: E.J. Brill, 1949), pp. 125-126.

ثانياً: مجير الدين العُلَيمي:

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمري العُلَيمي، أبو اليُمن توفي سنة 928هـ/1522م، مؤرخ القدس والخليل، قاضي قضاة بيت المقدس، مُصنِّف كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لم يصنف في مثله مثل، ولم يوجد في بابه نظير كما وصفه صاحبه.

ولد عبد الرحمن بن محمد في 13 ذي القعدة 860هـ الموافق 1456/10/13م بمدينة القدس، في بيت علم وصلاح ورئاسة؛ فوالده كان قاضياً في الرملة والقدس، ويتصل نسبه بعبد الله بن عمر بن الخطاب، فقيل العمري. وأما العُليمي فإنما لحقته نسبةً للقرية المُسمَّاة باسم علي بن عُليم الواقعة شمال يافا، والمدفون فيها الفقيه علي بن عُليم، موطن أجداده.

نشأ عبد الرحمن بن محمد في مدينة القدس، وبها شبَّ، وفيها تلقى العلوم الأساسية برعاية والده، حيث حرص والده على إعداده علمياً ليكون له شأن يحفظ مجد أسرته، ومن ثمّ دفع به إلى مجالس كبار العلماء والشيوخ المقادسة.

والنظر في سيرة حياة عبد الرحمن بن محمد يفيد بأن ثقافته وبناءه الفكري قد تكون خلال مرحلتين من دراسته؛ المرحلة الأولى: في مدينته بيت المقدس، والتي امتدت من سنة

860هـ/1455م حتى 880هـ/1475م. والمرحلة الثانية: في مصر، وخاصة القاهرة، حيث رحل إليها سنة 880هـ/1475م واستمر فيها دارساً حتى 889هـ/1484م[30].

كان شيخه الأول والده؛ حيث علَّمه القرآن والقراءة والكتابة وشيئاً من الفرائض والحساب والفقه والنحو، ويذكر مجير الدين عبد الرحمن بن محمد، أن والده بدأ يصحبه ويحضره مجالس العلماء منذ الثالثة من عمره، وأنه حفظ ملحمة الإعراب في النحو، التي نظمها الحريري صاحب المقامات، القاسم بن علي بن محمد ت 516هـ/1122م، ولما يتجاوز السنة السادسة من عمره، وأنه عرضها على تقي الدين، عبد الله بن محمد بن إسماعيل القلقشندي ت 866هـ/1461م، عالم الأرض المقدسة، وكان أول شيخ جلس مجير الدين، عبد الرحمن، بين يديه يتلقى العلم، ويصفه العُليمي بشيخنا الإمام – العلاَّمة، الفهّامة. ويذكر مجير الدين:

> عرضت عليه، أي العلاّمة تقي الدين القلقشندي، ملحمة الإعراب في ثاني جمادى الأولى سنة 866هـ، بمنزله بجوار المدرسة الصلاحية، ولي دون ست سنين. وهو أول شيخ، عرضت عليه وتشرفت بالجلوس بين يديه، وأجازني بالملحمة بسنده إلى المصنف، وبغيرها من كتب الحديث الشريف، وما يجوز روايته. وكتب والدي الإجازة بخطه، وكتب الشيخ خطه عليها[31].

وإن صدقت الرواية، ففيها ما يشير إلى فطنة وذكاء وقوة الحافظة التي أنعم الله بها على هذا الفتى. ويبدو أن الفتى مُجير الدين، عبد الرحمن قد حفظ القرآن الكريم، وله عشر سنين، قرأه على الشيخ العلاَّمة المُقرئ الحنفي، علاء الدين، علي بن عبد الله بن محمد الغزي ت 890هـ/1485م، وتميّز بالقراءات السبع، وقرأ عليه القرآن برواية عاصم من سورة الأنبياء حتى الفاتحة، ثمّ كرَّر ختم القرآن عليه مرات كثيرة، وذلك بمكتب باب الناظر بالقدس[32].

وكان شيخه تقي الدين القلقشندي يدفعه لحضور مجالس شيخه الآخر، محمد بن موسى ابن عمران الغزي، أبو عبد الله ت 873هـ/1468م، شيخ القُرَّاء بالقدس الشريف، حيث أفاد منه في قراءة القرآن، وسمع عليه صحيح البخاري بقراءة شهاب الدين بن عبيد الشافعي، سنة 871هـ/1466م، ويوصف ابن عمران بملازمته لقراءة القرآن وتدريس الحديث وروايته.

وقد انتفع به الناس، وتخرَّج عليه جماعةٌ من الطلبة، وأجازه ابن عمران بقراءة القرآن، ورواية صحيح البخاري والأحاديث العشرية، والمسلسل بالأولية. وألبسه خرق بعض الطرق الصوفية، ويبدو أن ذاك كان بعد وفاة والده، وعناية علماء القدس به إكراماً لوالده، ونجابته وفطنته[33].

أما علوم الفقه، وخاصةً كتاب: المقنع في الفقه الحنبلي لابن قدامة، عبد الله بن أحمد ت 620هـ/1223م، وكتاب الخرقي، عمر بن الحسين الخرقي، أبو القاسم ت 334هـ/945م، المختصر في فروع الحنبلية؛ فقد بدأ يأخذها عن والده، ثمّ أخذها وعرضها على عدد من علماء بلده، بعضها في حياة والده، وبعضها الآخر بعد موته، ومنهم، شيخه كمال الدين بن أبي شريف ت 906هـ/1501م، حيث عرض عليه قطعة من المقنع، وحضر مجالسه في المسجد الأقصى والمدرسة الصلاحية بالقدس في الدروس والإملاء قبل سفره إلى القاهرة وبعد حضوره إلى القدس. وأجازه كمال الدين بن أبي شريف في أحد شهور سنة 873هـ/1468م[34]. كما عرض قطعة أخرى من المقنع على الشيخ أبي الأسباط، أحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر العامري الرملي ت 877هـ/1472م، الذي كان يعمل بالمدرسة الصلاحية بالقدس، وصفه مُجير الدين العليمي بـ"شيخنا القدوة، ومن قضاة العدل لا يحابي"؛ وأجازه بها[35].

كما أجازه شيخه العلاّمة، نجم الدين، محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن جماعة ت 901هـ/1495م، شيخ المدرسة الصلاحية، وخطيب المسجد الأقصى، وقاضي القدس، بقطعة من كتابه المقنع في شهر ربيع الأول سنة 873هـ/1468م. ويصف مُجير الدين، عبد الرحمن، شيخه نجم الدين بن جماعة، بـ"الإمام العلاّمة، والحبر الفهّامة"[36].

ودرس مُجير الدين، عبد الرحمن، بالزاوية الختنية بالقدس الشريف على شيخه برهان الدين، إبراهيم بن عبد الرحمن بن أحمد السعدي ت 893هـ/1488م، المعروف بابن قوقب، حيث أخذ عنه علم الحديث والفقه، وعرض عليه قطعةً من المقنع، وحصل منه على الإجازة الخاصة والعامة[37]. ومن الجدير ذكره ملازمة مجير الدين، عبد الرحمن العُليمي، للشيخ شهاب الدين العميري، أحمد بن عمر بن خليل، أبو العباس، ت 890هـ/1485م، وكان نائباً للحكم في بيت المقدس، درس وأفتى وأعاد بالمدرسة الصلاحية. وكان مُجير الدين، عبد الرحمن يقرأ عليه في المقنع، ويحضر مجالس وعظه ودرسه بالمسجد الأقصى، وحصل منه على الإجازة العامة والخاصة[38]. كما درس على

العلاّمة المحقق، شمس الدين، أبي مساعد، محمد بن عبد الوهاب الشافعي ت 873هـ/1468م، وهو من أعيان علماء بيت المقدس، وقد استفاد منه فائدةً عظيمةً في الفقه والحديث، وعرض عليه قطعةً من كتاب المقنع سنة 873هـ/1468م فأجازه بها[39].

كما أخذ عن الشيخ العلاَّمة، زين الدين، عمر بن عبد المؤمن الحلبي ت 873هـ/1468م الحديث النبوي، وخاصةً صحيح البخاري، وله سندٌ عالٍ في الحديث الشريف، وحضر عليه ختم البخاري سنة 872هـ/1467م بالصخرة المُشرَّفة، وأجازه بروايته[40].

ودرس على قاضي القضاة، نور الدين، علي بن إبراهيم المالكي المصري ت 878هـ/1473م، العارف بالعربية وعلم الفرائض والحساب والحديث النبوي، وكان يكثر من التلاوة ونشر العلوم، وقرأ عليه النحو ولازم مجالسه وتردَّد إليه كثيراً. وكانت قراءته عليه كما أشار مجير الدين العليمي بأنه قراءة بحث وفهم ونظر، وحصل له منه غاية الخير والنفع، وعرض عليه مجير الدين قطعة من الخرقي وأجازه بها[41].

والخلاصة، فقد تشكلت في المدينة المقدسة معالم ثقافة مجير الدين العليمي الدينية واللغوية والنحوية وخاصةً على المذهب الحنبلي، واكتنز ثقافةً واسعةً في الحديث النبوي الشريف، من خلال أخذه على كبار علماء وشيوخ المقادسة. وشعر الشاب المثقف مجير الدين العليمي بأنه لا بُدَّ له من استكمال ثقافته وتمتين حصيلته العلمية والأخذ عن كبار شيوخ آخرين، فقرر الارتحال إلى مصر، ووصل إلى القاهرة سنة 880هـ/1475م، وفيها أخذ العلم عن كلٍّ من الشيوخ والعلماء التالية أسماؤهم:

- بدر الدين السعدي، محمد بن محمد بن أبي بكر، ت 900هـ/1495م، شيخ الإسلام، من علماء الحنابلة الكبار في مصر، المفتي والمدرس، نائب الحكم ومفتي دار العدل ثمّ القاضي بالديار المصرية. وقد لازم مجير الدين العليمي شيخه السعدي، وأقام تحت نظره وتفقَّه عليه، وأخذ عنه كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ت 741هـ/1340م[42].
- ودرس على القطب الخضيري، محمد بن محمد بن عبد الله ت 894هـ/1489م، الحافظ والأصولي والفقيه والمؤرخ وقاضي الشافعية بدمشق[43].
- وحضر مجالس السخاوي، محمد بن عبد الرحمن ت 902هـ/1497م من كبار علماء الديار المصرية والمؤرخ المعروف[44].

- وعثمان بن محمد بن عثمان الديمي الطبناوي ت 908هـ/1502م من حفاظ الحديث[45].
- وأخذ عن الجلال البكري، محمد بن عبد الرحمن بن محمد، أبو البقاء ت 891هـ/1486م، النحو والفقه، في الخانقاه البيبرسية[46].

وأمضى مجير الدين العليمي في مصر قرابة عشر سنوات دارساً وباحثاً وناظراً في القرآن والفقه واللغة. ثمّ ولي قضاء الرملة سنة 890هـ/1485م، فسافر إليها، وأقام بها سنتين، ثمّ أضيفت إليه القدس والخليل ونابلس، ثمّ ترك قضاء نابلس باختيار بعد سنتين. واستمر على الباقي إلى أيام الدولة العثمانية في 5 ذي القعدة 922هـ الموافق 1516/11/30م، وهذا يفيد بتوليه قضاء القدس قرابة 31 عاماً بصورة مستمرة.

ويلاحظ أنه حجَّ سنة 908هـ/1502م مع التجريدة صحبة أمير الركب الرحبي، وأقام بمكة نحو شهر ملازماً للتلاوة والعبادة، وعاد إلى مدينته القدس الشريف، ثمّ انقطع في المسجد الأقصى للتدريس والإفتاء والتصنيف.

مصنفات مجير الدين العليمي:

وضع مجير الدين العُليمي عدَّة مصنفات في التفسير والفقه وتراجم الرجال والتاريخ؛ وتعود شهرة مجير الدين العُليمي إلى تصنيفه **كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، وقد بدأ كتابته في 25 ذي الحجة 900هـ الموافق 1495/9/16م، وانتهى منه في 17 رمضان 901هـ الموافق 1496/5/30م، والكتاب من أهم الكتب التي تناولت تاريخ المدينة المقدسة منذ بدء الخليقة حتى سنة 900هـ/1494م، وتناول فيه تاريخ مدينة الخليل أيضاً. ويمتاز الكتاب بالشمول والدقة، ووقع في أربعة أقسام، وقد وصف طبوغرافية المدينة ومسجدها الأقصى، وما للمدينة من الفضائل وأشار إلى عمران المدينة. وترجم للسلاطين الولاة والعلماء والوعاظ والفقهاء، وقد استقصى عشرات المصادر التي أرَّخت للمدينة المقدسة وأعيانها وعلمائها، لا سيّما وأنه أمضى حياته فيها لم يغادرها سوى 12 عاماً، كان خلالها على اتصال بمدينته وأهلها وعلمائها، وكان شاهد عيانٍ للعديد من أحداثها، وكثيراً ما يذكر "وكنت حاضراً ذلك المجلس"[47].

ويعدّ كتابه وثيقة تاريخية مهمة للسنوات 873-900هـ/1468-1494م، فقد شهد الأحداث وحضر المجالس ودوّن معاناة أهل القدس خلال عسف وظلم ولاة المماليك في

نهاية الدولة المملوكية، وحوادث الصراع بين المسلمين والنصارى واليهود على بعض الأماكن الدينية. مثل بناء كنيس محدث لليهود في المدينة، وقبر النبي داود المزعوم، وقبة علية صهيون، وظاهرة الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي وتشكي أهل القدس من هذه الظاهرة، مما سبَّب تردياً للأحوال المعاشية لأهل المدينة، وختم كتابه بأحداث سنة 900هـ/1494م، وبترجمة لسيرة شيخه كمال الدين بن أبي شريف، وذكر بيتين من نظم شيخه، سمعها منه بدرب القدس حين عودة الشيخ من غزة في شهر ذي القعدة الحرام، سنة 900هـ/1494م، وهي:

أحيي بقاعَ القدس ما هبّت الصبا — فتلك رباع الأنس في زمن الصبا
وما زلت من شوقي إليها مواصلا — سلامي على تلك المعاهد والربى[48]

ومن مصنفاته الأخرى:

1. تفسيران:

- **الأول: فتح الرحمن بتفسير القرآن** (مطول)، منه نسخة محفوظة في مكتبة الجامع الأقصى بقلم يحيى بن حامد تاريخ نسخها 18 رمضان 1026هـ الموافق 1026/9/19م، في مجلدين.
- **الثاني: الوجيز في تفسير القرآن**، وهذا التفسير ما زال مفقوداً.

2. كتاب الإتحاف: وهو مختصر كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف لعلاء الدين، علي بن سليمان بن أحمد المرداوي المقدسي ت 885هـ/1480م، الأصل أربعة مجلدات، اختصرها في مجلد واحد، ذكره ابن العماد في شذرات الذهب، الجزء السابع، صفحة 341.

3. تصحيح الخلاف المطلق في المقنع: ذكره العامري في السحب الوابلة، صفحة 141.

4. الإعلان بأعيان دولة الإسلام: ذكره العامري في السحب الوابلة، صفحة 141.

5. المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد: (الطبقات الكبرى)، وقد أوضح فيه منهجه الذي يتمثل بما يلي:

- يذكر ما تيسَّر من مناقب الإمام أحمد أولاً.
- يذكر أصحابه الذين عاصروه، ثمّ من توفي منهم بعده، ثمّ مَنْ لم تؤرّخ وفاته.
- يبيِّن من اشتهر من أعيان أصحاب الإمام أحمد من الفقهاء، الذين كانوا على مذهبه في الأصول والفروع، مُرَتَّباً على الطبقات والوفيات.
- من لم يظفر بسنة وفاته، ذكر اسمه وما اتفق له من ترجمته.
- حذف الأسانيد من الحديث الشريف في بعض التراجم طلباً للاختصار.

6. **الدر النضيد في أصحاب الإمام أحمد:** وهو مختصر للكتاب السابق ويسمى (الطبقات الصغرى)، وهو ما زال مفقوداً.
7. **التاريخ المعتبر في أنباء من غبر:** ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، صفحة 1305؛ ومحمد جميل الشطي في مختصر طبقات الحنابلة، صفحة 74؛ وخير الدين الزركلي في كتابه الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، 1979)، المجلد الرابع، صفحة 108.
8. **إتحاف الزائر وأطواف المقيم المسافر:** ذكره البغدادي في هدية العارفين، الجزء الأول، صفحة 544.
9. **البدر المنور في سيرة الملك المظفر:** وهو ذيلٌ لكتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط رقم 2602.

ويوجد في خزانة قره مصطفى باشا، بالمكتبة السليمانية، باسطنبول مخطوطٌ مُسجَّلٌ عليه: تاريخ القدس لمجير الدين العُليمي، رقمه 399، وهو يختلف في بدايته ونهايته عن المنشور، بما في ذلك تفصيلات الأحداث والتراجم[49]. ويظل كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل أهم مؤلفاته وأوسعها وأكثرها انتشاراً بكماله وفضائله.

وقد توفي مجير الدين العُليمي سنة 928هـ/1521م أو 927هـ/1520م بمدينة القدس، ودفن في مقبرة باب الرحمة قرب كنيسة ستناريم بالجسمانية، ولما وسعت الطريق، نقلت بقية رفاة جثته إلى مكانٍ قريب، وحفر له قبرٌ جديد، وبُني على قبره الجديدة قبة صغيرة ترتكز إلى أربعة أعمدة[50]، وحول القبر حوش صغير له جدران أربعة تعلوها قضبان حديدية، ونقشت على الجدار الشمالي العبارات التالية:

كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام

هذا قبر الفقير إلى الله تعالى القاضي عبد الرحمن بن محمد

ابن مجير الدين العليمي الفخري الحنبلي المقدسي

مؤرخ القدس والخليل توفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة[51].

لقد كان مجير الدين العُليمي، علاَّمة بارزة في تاريخ المدينة، حفظ تراثها الثقافي والعلمي والحضاري من خلال تسجيله ورصده للحركة العلمية في المدينة، وكتابة سيَر العلماء والشيوخ الذين وفدوا إلى المدينة، وبيان دورهم في ترقية حركة البحث العلمي في المدينة المقدسة، ورسم صورة لطبوغرافية المدينة؛ شوارعها وأسواقها وحماماتها ومتنزهاتها ومؤسسات الخدمات في المدينة، وحتى منازلها ودورها وأحواشها وهيكليتها. وسجَّل التطورات الاجتماعية والاقتصادية في المدينة، وحركة المجتمع في العصر المملوكي، والحِرَف والصناعات، وعلاقات أهل الذمة من يهود ونصارى مع المسلمين في المدينة، وإجراءات الدولة المملوكية لحفظ السلم الاجتماعي بين أهالي المدينة من مسلمين ونصارى ويهود، ورعاية حجَّاج المدينة المُقدَّسة، وتوفير كافة أسباب الأمن والطمأنينة والاستقرار لهم في ظلّ العدالة الإسلامية التي بُسِطَت على ربوع المدينة وعمقها الريفي.

وعليه، فقد كانت كتاباته تمثل صورةً حيَّةً لواقع المدينة ومجتمعها، عبر تاريخها، حتى سنة 900هـ/1494م.

ثالثاً: خليل السكاكيني:

هو خليل بن قسطندي السكاكيني توفي سنة 1373هـ/1953م، ولد خليل السكاكيني في مدينة القدس بتاريخ 1878/1/23 في دار والده الكائنة داخل المدينة، والدته مريم حرامي، ونشأ في أسرة متوسطة الحال، إذ كان والده يعمل في النجارة وتجارة الأخشاب. ويبدو أن تجارة والده كانت رائجة انعكست بامتلاك الوالد لدار ثانية ظاهر القدس، وكان والده يجيد اللغات التركية واليونانية والروسية. في هذه البيئة نشأ الطفل خليل، فأمه كانت ذات ثقافة معقولة، ووالده يتمتع بصداقات ناجحة، سواء في تجارته وأعماله أو مع معارفه وأصحابه. ولم يكن خليل بعيداً عن مساعدة والده في أشغاله، فقد عمل معه

في أشغال النجارة، وكان مولعاً بتربية الحيوانات الأليفة كالخراف والماعز، وكان لكلبه "فرهود" مكانة خاصة عنده[52]. والأسرة مسيحية تتبع المذهب الأرثوذكسي الرومي اليوناني.

وحين بلغ الطفل سن التعليم ألحقه والده بالمدرسة الطائفية للروم الأرثوذكس القائمة داخل الدير الرومي الأرثوذكسي، ويبدو أن الطالب خليل قد أقنع والده بضرورة نقله إلى مدرسة أخرى بعد أن ضاق ذرعاً بأساليب التدريس في مدرسة الدير، واعتماد العقاب ومنه العقاب الجسدي، بالعصا واللطم، وشكا لوالده من لطم أحد أساتذته له دون ذنب جناه فيما يرى[53]. فنقله والده إلى مدرسة C.M.S. الإنجليزية، والتحق بعد تخرجه من مدرسة صهيون الإنجليزية بكلية الشباب والتي تحولت إلى الكلية الإنكليزية فيما بعد. وكان من أساتذته فيها الأستاذ نخلة جريس زريق، 1861-1921، أستاذ اللغة العربية وآدابها، وكان نخلة زريق من أكثر المدرسين تأثيراً على الطالب خليل.

ونخلة جريس زريق، ولد في بيروت وتلقى تعليمه في مدرسة المعلم بطرس البستاني، ودرس العربية فيها على يد الشيخين ناصيف اليازجي ويوسف الأسير، وهما من الأعلام الأقطاب في اللغة العربية وآدابها آنذاك. وجاء نخلة زريق إلى القدس سنة 1889 ليعمل في إدارة مخازن بيع الكتب التابع للإرسالية التبشيرية الإنجليزية، ثمّ تسلم في سنة 1892 إدارة مدرسة الشبان الإعدادية التي عُرفت فيما بعد بالكلية الإنجليزية، وعَلَّم فيها اللغة العربية إضافةً إلى عمله الإداري، واستمر فيها حتى وفاته سنة 1921. ويسجل لنخلة زريق الفضل في بعث اللغة العربية في القدس خاصة، وقيام نهضة أدبية في فلسطين عامة، إذ كان منزله منتدى أدبياً يجتمع فيه أدباء القدس، علاوةً على اقتنائه لمكتبة عامرة تزخر بأمهات مصادر اللغة والأدب والتاريخ.

وكان نخلة زريق يمثل أحد رجالات الدور الأول للنهضة السورية، فقد أدرك شيوخها واتصل بأقطاب العلم وأئمة اللغة وزعماء الأدب وفحول الشعراء ودعاة الوطنية والإصلاح، الأمر الذي جعله يتعصب لشرقيته، وينصرف إلى إحياء اللغة العربية وتجديد معانيها[54].

لقد طغت شخصية هذا الأستاذ وثقافته الواسعة ووطنيته الأصيلة على السكاكيني، فكان مثاله الأعلى، وظل السكاكيني حتى آخر حياته يحمل له أعمق التقدير وأحسن الذكريات. يقول السكاكيني: "صناعة التعليم آنذاك، كانت ولا تزال ممقوتة، ودخل أكبر

أستاذ فيها لا يسمن ولا يغني من جوع ولا يسدُّ من عوز، ومع ذلك آثر نخلة زريق أن يكونَ معلماً، وأنفق شبابه وصحته، بل امتنع عن الزواج، في سبيل خدمة بلاده"[55].

ودخل السكاكيني ميدان الحياة العملية فبعد تخرجه من الكلية الإنجليزية سنة 1893 زاول مهنة التعليم في المدرسة الأرثوذكسية التي كان تلميذاً فيها[56]. وكان همه مواصلة تحصيله العلمي في روسيا، بعد أن ادخر بعض المال بتشجيع من صديقه بندلي الجوزي، ولكنه عدل عن ذلك بسبب مرض والده[57].

تعرف السكاكيني إلى فتاة مقدسية، اسمها سلطانة، عشقها وأحبها كما المجنون وليلى أو عروة وصاحبته عفراء، ولمّا كانت سوق الأدب غير رائجة في تلك الأيام، والتدريس لا يسد حاجة، وهمه متابعة التحصيل العلمي، فقد صمم على امتطاء غارب السفر، ولكن هذه المرة إلى أمريكا التي كان أخوه يوسف قد سبقه إليها. وهناك لم يعد قادراً على كتم حبه الهائم بسلطانة، فَولْوَلَ بعذابات فراقه واغترابه عنها، فقد كتب إليها رسالة جاء فيها "لم يعد في مقدوري أن أكتم حبي لك، وأعيذك بالله أن تكوني قاسية فتستخفي بحبي الخالص لك"، "ترفقي بي، لا تدعيني أذهب من هذه البلاد ممزق الأحشاء، دامي القلب، قريح الأجفان، منكسر الخاطر"[58]، وبدأ تبادل الرسائل بينه وبين من عشق. وارتحل السكاكيني إلى أمريكا، أواخر سنة 1907.

كانت حياته في أمريكا كلها شقاء ونصب وتعب، عرف فيها من الحرمان والجوع ألواناً، ولم ينجح في الالتحاق بأي معهد علمي للدراسة. وكان حال أخيه يوسف أسوأ من حاله. ولم يمتلك خليل أية نقود لشراء تذكرة السفر للعودة، فعمل في أحد المطاعم يغسل الصحون والكاسات أيضاً، وعمل شيالاً في مصنع ورق في مدينة رمفولد فولز الصناعية الصغيرة، يدفع العربة عشر ساعات في اليوم بأجرة لم تتجاوز ريالاً ونصف، فأرهقه العمل وما عاد قادراً عليه. وقادته المقادير للتعرف على فرح أنطون، صاحب مجلة الجامعة، أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده، وأخذ يتردد على مكتبه، ولكن دون أن يعمل معه، وإنما أتيح له تدريس اللغة العربية في المدرسة اللاهوتية في نيويورك فيما بعد، ولكن بأجرة تكفيه لطعامه ومنامه فقط. وفي أمريكا أيضاً تعرف على الدكتور كونهايل، وعمل معه في تنقيح وتصحيح بعض المخطوطات، وكان السكاكيني قد لاقى أهوالاً ومرارات متعددة من الفقر، وكان حينها أحوج ما يكون للطعام، وحين أنجز عمله أعطاه كونهايل نسخة من كتاب "محيط المحيط" مكافأة على عمله معه، ونظر السكاكيني إلى

الكتاب وخاطبه "إذا جعت أو عريت، أكلت المحيط، وخطت من أوراقه ثياباً"[59]. وما كان أمامه إلا العمل كبائع قماش متجول، فسار حتى انتعلت قدماه الدم، ينتقل من ضيعة إلى ضيعة، ومن سوق إلى سوق، ينام حيث انتهى به المقام، مفترشاً الأرض وملتحفاً السماء، مخدته حقيبة قماشه. ولاحت للرجل طاقة فرج، ففي يوم 1908/7/25 حطت رحلة تجواله في نيويورك فقرأ في الجرائد العربية: إن جلالة السلطان عبد الحميد الثاني قد منح الدولة العثمانية الدستور، مما سُرَّ له كثيراً، واستبشر به خيراً، وقال في نفسه: "الآن إذا رجعت إلى بلادي يكون رجوعي في محله، إذا صحت الأحلام، وكان المجال أمامي واسعاً، الآن أستطيع أن أخدم بلادي، الآن أستطيع أن أنشئ مدرسة وجريدة وجمعيات للشبان، الآن نستطيع أن نرفع أصواتنا، بدون حرج، لينعم بالك يا سورية، صبرت كثيراً، فنلتَ مبتغاك، ليرتد الطامعون فينا خائبين، ولتحيا سورية"[60]. وكان قراره العودة في 1908/8/8، حيث وصل إلى بلده، ليباشر نشاطه الأدبي والاجتماعي والسياسي؛ فشارك فيه بهمة ونشاط. وبالرغم من معاناته في أمريكا، فقد قرأ مؤلفات نيتشه Nietzsche وما صدر عنه، وقد تركت تلك القراءات أثراً كبيراً في تفكيره وفي منهجية حياته، كما رأى في أمريكا التقدم والمدنية والحرية.

وفي القدس شارك تحرير مجلة الأصمعي، المجلة الاجتماعية، نصف الشهرية، وكان يوقع مقالاته بكنية أبي الطيب المتنبي ويصحح بعض المقالات في جريدة القدس لصاحبها جورج حبيب حنانيا، حتى إذا ما توقفت المجلة بعد موت صاحبها حنا عبد الله العيسي بتاريخ 1909/9/12[61]، أنفذ مشروعه الذي طالما حلم به: "المدرسة"، فأنشأ المدرسة وسماها بـ"الدستورية" وذلك بإسهام من علي جار الله وجميل الخالدي وافتيم مشبك، وكانوا جميعاً يُدرِّسون فيها. كما كان يُدَرِّسُ فيها أيضاً عادل جبر، وتولَّى السكاكيني إدارتها إضافةً إلى عمله في التدريس فيها، كانت المدرسة الدستورية الأولى من نوعها في البلاد، إذ كانت مناهجها على أحدث الأساليب التربوية والعلمية. وفي المدرسة الدستورية أنشأ المجلة الدستورية، وكان الهدف من إنشاء المجلة، تدريب الطلاب على الكتابة الصحفية، التي كانت تعتبر في تلك الفترة من أهم وسائل الاتصال الجماهيرية للتعبير عن الرأي العام الوطني، ومقاومة مظالم الولاة الأتراك، والمخططات الصهيونية. وكانت المجلة خطية حائطية، يحررها الطلاب، ويشارك في الكتابة الأساتذة، وتعلق نسخ منها في المدرسة وأماكن مختلفة من المدينة[62].

وبين السنوات 1909 وحتى بداية الحرب الحرب العالمية الأولى 1914 كان له نشاط سياسي واجتماعي في جمعية الاتحاد والترقي التركية، ويورد السكاكيني في رواية (نراها ضعيفة) بأنه استدرج للانضمام إلى عضويتها، إذ في حماسه للدستور ومدرسته الدستورية ومجلته الدستورية ما يفيد برغبته في الانضمام، ولكن بعد أن كشفت الاتحاد والترقي عن وجهها الحقيقي في التتريك، والحط من منزلة العرب، اتجه للانضمام إلى جمعية الإخاء العربي العثماني، وكانت تتبنى الدفاع عن العرب، والوقاية من خطر الاتحاد والترقي، والمحافظة على الدستور، ووحدة الولايات العثمانية، وتحسين الأوضاع في المقاطعات العربية على أساس المساواة. وكان منتخباً في أول هيئة عاملة في فرع القدس برئاسة إسماعيل الحسيني، وعضوية حنا العيسى ونخلة زريق وفيضي العلمي وخليل السكاكيني[63].

ويسجل للسكاكيني في هذه المرحلة من حياته 1908، صراعه المرير مع بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس، فكان كثير التعرض والنقد لزعماء وقيادة الكنيسة المتنفذة، وجُلُّهم من أصول يونانية، ولا روابط ثقافية أو فكرية بين رجال الأكليروس اليونانيين وأبناء الملة العرب من أهالي فلسطين. وزاد نقد السكاكيني بعد إعلان الدستور العثماني، فهاجم نماذج الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والدينية والاقتصادية التي تفرضها الكنيسة على أبناء الملة، ودعا إلى مقاطعة رجال البطريركية الأرثوذكسية اليونانيين؛ لطمسهم حقوق الطائفة الأرثوذكسية في فلسطين. وبادلته الكنيسة النقد والتعريض، واتهمته بالإلحاد، وميله إلى البلشفية الشيوعية، مستغلةً صداقته مع بندلي الجوزي الذي كان يقيم في بطرسبرج Petersburg مدرساً في كليتها، منخرطاً مع الحزب الشيوعي هناك، وحرَّض السكاكيني على قيام المظاهرات والاحتجاجات ضدّ رجال الكنيسة، مما حمل البطريرك الأرثوذكسي اليوناني دميانوس Damianus I على إصدار مرسوم بفرض "الحرمان على السكاكيني من الكنيسة"[64].

وفي سنة 1914 عُيِّنَ السكاكيني عضواً في إدارة المعارف (قومسيون المعارف) بلواء القدس، فبذل جهوده كلها في سبيل إصلاح مناهج التدريس وجهاز المدرسين، وتعيين المعلمين وعزلهم وتنزيل درجاتهم، فقد كان يرغب في إصلاح التعليم، وإفساح المجال أمام تعليم البنات[65]، وكان قبل ذلك قد تزوَّج بمن عشق وهام، تزوج بسلطانة عبده بتاريخ 1912/1/13.

ولما كانت المدينة المقدسة مثار تنافس وصراع القوى الكبرى، بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وأمريكا. فقد عمل جمال باشا، والي دمشق آنذاك، على جعل القدس مركزاً للثقافة الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط، فأعاد إحياء المدرسة الصلاحية التي كان قد أقامها صلاح الدين الأيوبي غداة تحرير القدس من الاحتلال الصليبي الفرنجي، واسماها كلية صلاح الدين الأيوبي، وجلب لها الأدوات اللازمة من ألمانيا، وفتحت المدرسة الإسلامية أبوابها في شباط/ فبراير 1915، من جديد. وقد وضع لها نظاماً عصرياً جديداً، وشملت صفين شبه جامعيين، واختار لها جمال باشا بنفسه أكفأ الأساتذة من سورية وفلسطين وبلاد عربية أخرى. وتولى إدارتها رستم حيدر، وكان السكاكيني وإسحق النشاشيبي وعبد العزيز جاويش من مدرسيها[66].

واستمرت المدرسة قائمة حتى احتلت القوات البريطانية المدينة المقدسة في 1918/1/9، بقيادة الجنرال اللنبي، أما الأساتذة والطلبة فقد تحولوا منذ سنة 1916، حين اشتدت أوار الحرب العالمية الأولى إلى دمشق. وانتقل السكاكيني منها إلى دمشق أيضاً، وهناك كانت له علاقات بمعلمه الأول نخلة زريق، ولكنه عاد إلى القدس[67].

وقد عثر الباحث في الأرشيف الصهيوني المركزي The Central Zionist Archive (CZA) على وثيقة رقمها CZA. 3/74 تاريخها الأول من كانون الثاني/ يناير 1918، وهي رسالة بعث بها فيجنباوم Feigenbaum إلى آرثر روبين Arthur Ruppin، أحد زعماء البعثة الصهيونية في القدس والمسؤول عن الاستيطان اليهودي، تفيد باعتقال السلطات العثمانية لكل من خليل السكاكيني واليهودي الأمريكي ألتر ليفين Alter Levine بتاريخ 1917/12/4. حيث كان الأخير مطلوباً بتهمة التجسس لصالح الحلفاء، وأما السكاكيني فلأنه أخفاه في بيته، وبعد إلقاء القبض عليهما أرسلا إلى سجن أريحا مشياً على الأقدام، ومنه نقلا إلى دمشق ليودع خليل السكاكيني السجن المعلق بباب الجابية أمام سوق مدحت باشا، وقد أورد السكاكيني الحادثة في يومياته[68]. وقدمها في سياق مساعدة الغريب الذي التجأ إليه مضطراً. ولا نعلم شيئاً عن مصير اليهودي الأمريكي فيما بعد، غير أن السكاكيني أطلق سراحه بوساطة عبد القادر المظفر، رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس، وبكفالة مالية، وكان ذلك في 1918/1/10.

ويميل الباحث إلى أن سيرته الحسنة أيام الوجود العثماني في القدس، وانخراطه في الحياة السياسية العثمانية؛ سهلت أمر إطلاق سراحه بعد سنة من اعتقاله وبالكفالة

المالية. وبعد إطلاق سراحه اعتمد السكاكيني على الدروس الخصوصية في تعليم اللغة الإنجليزية، ودرس الفرنسية عند الأستاذ بشارة توما[69]، كما أتقن الموسيقى والعزف على آلات الكمنجة وخاصة العود، وكان يسكن في بيت السيدة أم إلياس شطاحي في مئذنة الشحم تلة السماكة [70] محلة الخراب، نومره 57.

في 1918/8/10 دبر أمر فراره من دمشق، وكانت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي قد عظم أمرها، فخرج من دمشق ومعه لفيف من الشبان قاصداً جبل العرب (جبل الدروز)، حيث وصل إلى "القرية" مسقط رأس سلطان باشا الأطرش قاصداً مضارب الأمير فيصل بن الحسين في أم اللسن في قلب الصحراء، وفي القرية وضع السكاكيني نشيداً وطنياً للثورة ولحنه، ليقدم هدية لثورة العرب الكبرى، جاء فيه:

أيها المولى العظيم — فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم — ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا — قبل فوت الزمن
وعلى الخصم أغير — وا لخلاص الوطن
لم نعد في ذا الزما — ن أمة مستعبدة
ليس يجدينا التوا — ني والليالي مسعدة
نحن في الهيجاء نقبـ — ل كالآتي المنهمر
وعلى الأعداء نحمـ — ل ليس فينا من يفر
إن نعش عشنا كرا — ماً أو نمت متنا كرام
همنا نردي اللئام — همنا نردي اللئام[71]

ولكنه ما إن وصل مضارب الأمير فيصل سرعان ما ترك المضارب والأمير والثورة وتوجه إلى مصر، حيث أمضى فيها شهرين، لأن الحكومة الإنجليزية منعته من دخول فلسطين ظلماً وعدواناً كما أورد في مذكراته[72]. ويميل الباحث إلى الاعتقاد بأن السكاكيني كان مأخوذاً بالشعارات التي رفعت آنذاك للثورة؛ "الوحدة، الحرية، الاستقلال" فكان حماسه وفراره ومغامراته على ظهر جمل متخفياً حذراً حتى إذا ما حلّ المضارب راعه الاتصالات التي كانت جارية مع الإنجليز ومع زعماء الحركة الصهيونية فغادر[73].

ونقرأ في يوميات السكاكيني، 1919/3/26 مقولة راغب النشاشيبي "إذا لم تخولنا الحكومات الاستقلال التام، ولم يكن بدّ أن ننتدب إحدى الدول للعناية بنا، فالرأي أن

تنتدب الحكومة الإنجليزية، وما نراه من سوء الإدارة فناشئ عن الجنرال ستورز [رونالد ستورز Ronald Storrs] لا عن الحكومة الإنجليزية"، والجنرال ستورز كان الحاكم العسكري البريطاني في القدس، وصلاته قوية مع حاييم وايزمن Chaim Weizmann، رئيس البعثة الصهيونية في فلسطين[74]، ويفهم من ردة فعل السكاكيني عدم موافقته على رأي النشاشيبي.

لقد عاد السكاكيني إلى القدس ليزاول الدروس الخصوصية، ولكن هذه المرة للضباط والمسؤولين الإنجليز، يعلمهم اللغة العربية، ومن خلال دروسه الخصوصية نسج علاقات طيبة مع الماجور ريتشموند Richmond ويعرف بالمستر بيل، وربطته علاقات ودية مع مدير المعارف البريطاني تدمن، وكانت له زيارات للمستر كمب Comb رئيس قلم الاستخبارات البريطاني، واللفتنانت لوك Lucke، والمستر آشبي Ashbee، ووترس بتلر وغيرهم[75]. ولم تقتصر علاقاته بالمسؤولين البريطانيين على الدروس الخصوصية، بل كانت تدور مناقشات بينه وبينهم عن الأوضاع في فلسطين، وكان يبدي رأيه في المظاهرات وأسبابها والداعمين لها، واللجان الدولية التي كانت ترسل للتحقيقات، والأحداث التي تقع في البلدان المجاورة لمصر، ومدى تأثيرها على الاستقرار والأمن في فلسطين[76].

ويفهم من يوميات السكاكيني تكرار عرض تدمن، مدير المعارف البريطاني، وظيفة رسمية في المعارف على السكاكيني، وكان جوابه دوماً: لا بدّ من تشكيل هيئة معارف أهلية لتشرف على التعليم العربي، وبتاريخ 1919/3/14، تمّ تعيينه في هيئة المعارف لمدارس الذكور وزوجته سلطانة لمدارس البنات.

وفي القدس أيضاً تولى إدارة دار المعلمين سنة 1919، وأنشأ مجلة الجوزاء لطلبتها، يحررونها بأنفسهم[77]، ولم يطل به المقام في مدينته، فرحل إلى القاهرة ليتولى إدارة التعليم في المدرسة العبيدية التابعة للجمعية السورية الأرثوذكسية، فقد ترك العمل احتجاجاً على تعيين هربرت صموئيل Herbert Samuel اليهودي الصهيوني مندوباً سامياً على فلسطين. ولكنه عاد إلى القدس مرة أخرى سنة 1920 ليرحل مرة ثانية لإدارة المدرسة العبيدية حيث أمضى سنتين، وفي سنة 1922 مارس مهنة الصحافة ونشر المقالات في الجرائد والمجلات في مصر وفلسطين، فكتب في الشورى والمقتطف والهلال والسياسة والدستور والأهرام والزهرة والقدس والنفير والدفاع والكرمل وجراب الكردي والنفائس.

ثمّ استقر به المقام مساعداً ثمّ مفتشاً عاماً للغة العربية في إدارة معارف فلسطين من سنة 1926 وحتى 1938، وبنى بيتاً في حي القطمون، وخلال هذه الفترة، وتحديداً في سنة 1936، عرضت عليه وظيفة مدير البرنامج العربي لمحطة الإذاعة الفلسطينية، ولكنه رفض العرض، وقد تلكأ لأنه لا يريد مزاحمة رفاقه عادل خير ورفيق التميمي، لا سيّما وأن برنامج الافتتاح يقرن عبارة فلسطين بـ"أرض إسرائيل" لدى افتتاحه البث الإذاعي. وفي سنة 1938، وقد تقاعد من عمله، أسس مع زميله إبراهيم خوري ولبيب غلمية وشكري الحرامي مدرسة النهضة، وظلّ مديراً لها حتى وقوع النكبة سنة 1948[78].

بدأت حياة السكاكيني الأدبية في سنٍّ مبكرة، فقد صنَّف مؤلفه الأول، "الاحتذاء بحذاء الغير"، ولما يتجاوز الـ 19 من عمره، إذ كان يرى أن أحد أسباب تدهور الأدب العربي هو المحاكاة والابتعاد، بل ونبذ الأصالة. كما انتسب إلى جمعية زهر الآداب سنة 1898، وكان من أعضائها عيسى العيسى وفرج فرج الله وافيتم مشبك وشبلي الجمل وجميل الخالدي ونخلة زريق، ويرأسها داود الصيداوي، وهي تُعنى بالأدب العربي وترقية الدراسات فيه[79].

كان السكاكيني كلفاً بالقراءة ومحباً للغة العربية، قضى سنوات من حياته في دراستها ودعمها، اهتم بأسرار اللغة ودقائقها وقواعدها ومزاياها. وإسهاماته كانت في ميادين متعددة في الآداب والفكر والنقد الأدبي والنقد الاجتماعي والسياسة والتربية؛ ففي ميدان اللغة كان في طليعة الرواد الذين دافعوا عن اللغة العربية في وجه الهجمات التي كانت تشن عليها، ودعا إلى تقديسها والذود عنها، ويقول في هذا الصدد: "اللغة قبل كل شيء هي العنصر الذي نقيم به أمجاد الأمة، وعلينا أن نُعلِّمَ الولد كرامة أمته ومجدها في الكلمات العربية ليقرأها، ويشعر بأنه يشرف على مجده وعزته القومية من خلال الحروف والكلمات"[80]. وكانت للسكاكيني دراسات لغوية في النحو والبيان والحروف، وعنده أن اللغة كائن متطور، تنبذ التراكيب الجامدة، وهي قادرة على استيعاب علوم الحضارة الغربية. كما كانت له دراسات في النحو والصرف، ودعا إلى إلغاء تعليم القواعد، إذ يمكن تعلمها بالسماع والتقليد والاستعمال، ولكنه اشترط أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة التعلم والتخاطب[81]. هذا بالإضافة لدراسته للحروف وأصواتها وصورها، وكان من أشد المعارضين لاستبدال الحروف اللاتينية بالأحرف العربية[82]، وله مؤلفات في اللغة سنعرض لها لاحقاً.

آراء السكاكيني في التربية والتعليم:

من آرائه أن التعليم يجب أن يكون وطنياً وصحيحاً، والتلاميذ من كل الطوائف، والتعليم من أجل توسيع المدارك لا من أجل حشد العقول بالعلوم، لا بدّ من رفع معنويات التلاميذ بإعزازهم وعدم إذلالهم، لا قصاص ولا جوائز ولا علامات[83].

وقد طبَّق نظرياته وآراءه في التربية والتعليم في مدرسة "النهضة" التي أنشأها، فاختار نخبة من المعلمين الشبان للتدريس فيها، واشترط على مدرسي المدرسة أن يتأنقوا في ملابسهم، ويحلقوا لحاهم كل يوم، وأن يكثروا من السياحة مع التلاميذ والعناية بالموسيقى والفنون.

إن التعليم في عرف السكاكيني ليس ادخاراً ولا استظهاراً، بل حياة واستعمالاً، ومدرسته لا بدّ وأن تقوم على نظام الحوار والمناظرة لتكون أداة للنهضة. ويعرّف مدرسته "النهضة" بالمقولات التالية: مدرستنا حرة، أعني أنها لا تهيء طلابنا لأن يكونوا أحراراً في المستقبل، ولكنها تريدهم أحراراً منذ اليوم، مدرستنا لا تنتمي لطائفة أو بلد أو طبقة ولكنها للجميع، لا تثق بالشهادات، تحترم التلميذ وتحسن معاملته، لا تتقيد بالحضور والغياب، ولا تتقيد برأي أحد إلا بعد البحث. مدرستنا تدرس اللغات والفنون والغناء والموسيقى، وحتى الرقص[84].

والمرأة عند السكاكيني يجب أن تكون حرة، شرفها خصوصية لها، وهي المسؤولة عنه، فالوصاية والضغط والعنف والغيرة المبالغة لن تجدي نفعاً[85].

وفي خضم الحياة السياسية كان للسكاكيني دور بارز، فقد ناهض الصهيونية والانتداب، وعمل في الجمعيات والمنتديات، وأسهم في المؤتمرات، فكان من النخبة السياسية القيادية في فلسطين، حيث كان عضواً في المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس، سنة 1922[86]. وكان أحد الموقعين على مذكرة لكبار الموظفين العرب في فلسطين المرسلة إلى المندوب السامي، وفيها يحتجون على السياسة البريطانية المتبعة في البلاد، سنة 1936[87]. كما اختير رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني الخامس، ومن طرائف نضاله إنشاؤه "مقهى الصعاليك"، وهو مقهى شعبي يقع في باب الخليل في القدس الشريف، صاحبه مختار الطائفة الأرثوذكسية عيسى الطلبة، وكان يجتمع فيه عدد كبير من رجالات السياسة والعلم والأدب "شلة الصعاليك"، ويتحلقون لمناقشة الأحوال الاجتماعية

والسياسية، ينبهون إلى الأخطار التي تحيط بالوطن عامة وبفلسطين خاصة، ويدعون الناس إلى الاستيقاظ، ويدرسون قوة عدوهم الذي يسعى لتشريدهم وطردهم. ووضع للصعاليك مبادئ وقواعد لا بدّ أن يسيروا بموجبها، وتعاظم أمر مقهى الصعاليك في كل المدن والبلدات الفلسطينية، حتى كادت السلطات البريطانية أن تعتقل شلة الصعاليك، وتعمل على تفريقهم[88].

كان السكاكيني محباً للحياة، مقبلاً عليها بكل ما أوتي من حصافة وذكاء، واختط لحياته منهجاً سلوكياً التزم به معظم حياته، فيه الحفاظ على صحته الجسمية والعقلية والروحية، حتى عصفت به النكبات الواحدة تلو الأخرى، منها ما استطاع تجاوزه مستسلماً لقدر الله وقضائه، ومنها ما هدَّ كيانه ولم يقو الرجل على مكابدته. وكانت أولى نكباته، وفاة زوجته سلطانة، وهي في ريعان الشباب سنة 1939، بكاها ما دام له بقية عمر صباح كل يوم، كان يزور قبرها قبل توجهه إلى عمله، ولذكراها وضع كتابه، ويسجل في كل يوم "خرجنا، أختي ودمية وهالة وأنا إلى المقبرة، فنثرنا الزهور وذرفنا الدموع"، يناجيها بأبيات من الشعر أو بنثر بليغ حزين، وظلّ مثابراً حتى النكبة، وما فارق خيالها عقله وروحه لحظة واحدة، ولا تملك وأنت تقرأ حسراته وحزنه وبكاءه إلا أن تكون معه[89].

ثمّ كانت النكبة الثانية، يوم أجبر على ترك بيته في حي القطمون، في نيسان/ أبريل 1948، ووداعه لمكتبته، ونجده يقول "الوداع يا مكتبتي يا دار الحكمة، يا رواق الفلسفة، يا معهد العلم، يا ندوة الأدب". وبهذا ابتعد عن الأهل والأحباب وعن مواطن الذكريات، ورحل إلى القاهرة، واستأجر شقة مفروشة، في مصر الجديدة، شارع الأمير حسين، رقم 7، يرتاد مقهى بالميرا، يدخن نارجيلته، ونار الذكريات يضطرم في أحشائه، حتى وقع الحادث الجلل الذي صدع كيانه وهدّ بنيانه، وأصبح في تعاسة لا يقوى على مكابدتها أو تحملها، فقد فارق ابنه العزيز سرّي الحياة، وهو في عنفوان الشباب، على أثر سكتة قلبية، في 1953/5/11 في البيت وأمام نظر والده المكلوم، كانت ضربة قوية للسكاكيني، لم يستطع احتمالها فعاش بعد فقده ابنه ثلاثة أشهر في حزن عميق، وفارق الحياة في مستشفى دار الشفاء بالقاهرة مساء يوم 1953/8/13.

مات السكاكيني الأديب والمؤلف والمعلم والمربي، ودفن في مقبرة كنيسة مارجرجس الأرثوذكسية في القاهرة.

وخلدت ذكرى السكاكيني باختياره عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1926، وعضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1948. وأطلق اسمه على مدرسة وشارع في مدينته القدس. وقد استحق كل هذا التخليد والتكريم.

قالوا فيه:

- العقاد: إن السكاكيني إنسان بكل ما في معنى الإنسانية من رفعة وعمق.
- منصور فهمي: صورة بسامة لمعنى الإنسانية.
- جورج أنطونيوس: إنه متطرف في آرائه ووطنيته، صعب القياد، لا يطيق أن يتحكم فيه أحد[90].

مؤلفات خليل السكاكيني:

1. **الاحتذاء بحذاء الغير:** طبع في القدس سنة 1896.
2. **مطالعات في اللغة والأدب:** طبع في القدس، مطبعة مدرسة دار الأيتام الإسلامية، سنة 1925، ويقع الكتاب في 167 صفحة، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعات المصرية، ومقالات لغوية وأدبية، نشر معظمها على صفحات جريدة السياسية المصرية، وفيه مناظرات حول الجديد والقديم في أسلوب الكتابة العربية، دارت بينه وبين الأمير شكيب أرسلان.
3. **النهضة الأرثوذكسية في فلسطين:** طبع في القدس سنة 1913، وفي هذا الكتاب يصور حالة الطائفة الأرثوذكسية في القدس، وما تعانيه من رجال الأكليروس الأرثوذكسي الديني، وخاصة من البطريرك والرهبان اليونانيين الذين لا يمتون للنصارى العرب بأية صلة عاطفية أو قومية أو وطنية. ونقد أسلوب الكنيسة في التعليم نقداً مُرّاً.
4. **فلسطين بعد الحرب الكبرى:** طبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، سنة 1920، في جزأين، وهو مجموعة مقالات نشرت في عدد من الصحف المصرية، مثل الدستور والشورى والمقتطف والسفور والمقطم والأهرام السياسية والزهرة، وفي عدد من الصحف التي تصدر في فلسطين، مثل النفير وفلسطين والدفاع والكرمل وجراب الكردي والنفائس. وتناولت أوضاع فلسطين بعد احتلالها من قبل القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي، وسياسة بريطانيا إزاء وعد بلفور والانتداب البريطاني.

5. **الجديد في القراءة العربية:** طبع في القدس، المطبعة العصرية، 1929-1934، وهو أربعة أجزاء، وضع للمدارس العربية الابتدائية في عهد الانتداب البريطاني، ولهذا الكتاب بأجزائه الأربعة شهرة واسعة في الأقطار العربية، عرف الجزء الأول منه شهرة واسعة في صفوف المدارس الأولى وكان كتاباً ناجحاً، لا سيّما بعد أن بذله السكاكيني للنقاش والنقد في الصحافة المحلية والعربية.

6. **الأصول في تعليم اللغة العربية:** طبع في القاهرة، مطبعة الاعتماد، سنة 1952.

7. **الدليل:** طبع في القدس، الأول سنة 1931، والثاني سنة 1934. ويشبه من بعض الوجوه كتابه الجديد في القراءة العربية.

8. **سريّ:** طبع في القدس، المطبعة التجارية، سنة 1935، ويقع الكتاب في 169 صفحة، جمع في هذا الكتاب عدداً من رسائله التي كان يبعث بها إلى ابنه سريّ عندما كان يدرس الحقوق في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد عالج الكثير من الأمور الاجتماعية المتنوعة، وفيه إرشادات ونصائح، كتبها بأسلوب أدبي راق، كرسائل الساعة والخزانة وأكلوا الدجاجة. وجاء في بعض الرسائل، إن دراسة الحقوق تمكن من معالجة المشاكل الاجتماعية، أما دراسة الطب فهي علاج للجسد، ودراسة الأدب فيها علاج للنفس والروح. وقد نقد الكتاب عيسى الناعوري في مجلة رقيب صهيون نقداً قاسياً، ثمّ تراجع عن نقده بعد أن وعى وعرف مرامي خليل السكاكيني في رسائله[91].

9. **حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير تعلم النحو والصرف والبلاغة:** وقد صحح في هذا الكتاب ما ذهبت إليه اللجنة التي عهد إليها مدير التعليم البريطاني في فلسطين، تدمن "بوضع كتاب للطلبة العرب في النحو والصرف والبلاغة".

10. **لذكراكِ:** طبع في القدس، المطبعة العصرية، سنة 1940، ويقع الكتاب في 97 صفحة، وقد ضمّ هذا الكتاب قصائده من البكائيات والمراثي التي قالها في زوجته سلطانة، بعد أن فجعه الموت بفقدها، وكانت سلطانة أهزوجة النشيد الخالد في حياته افتتحه بعبارة "تعالوا ننقرض" ثمّ بيت الشعر:

فيا لكَ من حُلُم جَميل قد انتهى ويا لَكَ مِنْ حُزْنٍ طويل قد ابْتَدا

11. **عليه قِسْ:** طبع في القدس، مطبعة الآباء الفرنسيين، سنة 1943، ويقع الكتاب في 65 صفحة، هو كتاب اقترحه لتعلم قواعد اللغة دون تدريس النحو، يُسار فيه من المثال إلى القاعدة إلى الاستعمال، ورصف أبواباً في النحو والصرف يمكن أن توضع في جداول، يكلف الطلبة بحفظها، ومن ثمّ يقيسون غيرها عليها، جرياً على الطريقة الفرنسية.

12. **ما تيسر:** طبع في القدس، المطبعة العصرية، وهو في جزأين، الأول سنة 1943، والثاني سنة 1946. وهو مجموعة مقالات وخطب ألقاها في التربية والاجتماع والسياسة، وهي من كتبه المهمة، لأنه عالج فيها موضوع التعليم والمدرسة التي ينشدها، والمواد والمقررات التي تدرس فيها، ووصاياه لطالب العلم.

13. **كذا أنا يا دنيا:** طبع في القدس، المطبعة التجارية، سنة 1955، ويقع الكتاب في 405 صفحات؛ وطبعة دمشق، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الأمانة العامة، الطبعة الثانية، 1982، ويقع في 407 صفحات. وهي يوميات السكاكيني ومذكراته، صدرت بعد وفاته، أعدتها ابنته هالة، والمذكرات تصوير يومي للأحداث السياسية والاجتماعية التي نزلت بفلسطين وسجلها، علاوة على كونها سيرة ذاتية لخليل السكاكيني، وتبدأ من سنة 1907، وتنتهي بتاريخ 1951/9/16، وفُقد منها المذكرات العائدة إلى السنوات 1922-1931، وذلك حين أخرج من بيته في حي القطمون بالقدس نتيجة الغزو الصهيوني سنة 1948، فلم يحمل معه أوراق تلك السنوات، إذ كانت القنابل وطلقات الرصاص الصهيوني تنهال على الحي من كل جانب، وأصابت إحداها بيته.

14. **حروف العربية:** قارن فيه هذه الحروف بالحروف اللاتينية، نشر في المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني.

15. **أعزائي:** طبع في القدس، المطبعة التجارية، سنة 1978، جمعته ابنته هالة من مذكراته ورسائله، ومقدمته على أهله وأصدقائه وذاكري فضله والأعزاء منهم: أبوه وأمه وابنه سريّ وأخوه يوسف، وشقيق زوجته نجيب، وشقيقته ميليا وابنتاه، دمية وهالة.

16. **معالم التاريخ القديم:** مترجم، نقله إلى العربية بالاشتراك مع وصفي عنبتاوي وأحمد خليفة سنة 1942.

ثمّ جمعت أعمال السكاكيني تحت عنوان:

المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني: وقد طبع في القدس، المطبعة العصرية، سنة 1962. وهي تتضمن معظم كتب السكاكيني التي تمّ نشرها سابقاً، وتنقسم إلى جزأين؛ الأول: في الأدبيات ويضم "ما تيسر" و"لذكراك" و"سريّ" و"فلسطين بعد الحرب الكبرى"، عدد صفحاته 83. والثاني: في اللغويات، ويضم، "الأصول في تعليم اللغة العربية"، و"حاشية على تقرير النظر"، و"عليه قسْ"، و"حروف العربية"، عدد صفحاته 333.

هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات التي نشرها في الصحافة، ومنها:

- كلمات في سبيل الحياة، مجلة السفور، 1918/10/7.
- فلسفة القوة، مجلة القافلة، 1947/10/10.
- مقالة السارق والمسروق، مجلة القافلة، 1922/5/1.
- الزلزلة التي ضربت فلسطين، الشورى، 1927.

والعديد من المحاضرات التي ألقاها في جمعية الشابات المسيحية بالقدس Young Women's Christian Association - Palestine (Y.W.C.A) سنة 1943، وغيرها في النادي القومي في يافا في 1943/3/23، والنادي الأرثوذكسي في القاهرة، والنادي الشرقي في القاهرة أيضاً، والجامعة الأمريكية بالقاهرة.

كما شارك في المؤتمر الثقافي العربي الأول الذي عقد في بيت مري بلبنان، صيف 1947.

رابعاً: محمد إسعاف النشاشيبي:

هو محمد إسعاف النشاشيبي توفي سنة 1368هـ/1948م، كاتب، أديب، ناظم، لقبوه "بأديب العربية". والشيخ علي الطنطاوي وصفه بأديب العربية الأكبر، وغيره أضفى عليه صفة، أديب فلسطين الكبير، وخطيب فلسطين. أما هو فاختار لنفسه كنية أبي الفضل، تشبهاً بأبي الفضل الهمذاني، صاحب المقامات، بديع الزمان[92]. وما ذاك كله إلا لأنه امتلك زمام اللغة العربية، وحاز ناصية البيان والبلاغة فيها. عرف أسرار

اللغة وبواطنها، وكان له أسلوب في الكتابة يكاد يكون وقفاً عليه، نسيج وحده في الكتابة والخطابة[93].

والده عثمان بن سليمان النشاشيبي، ثاني أكبر ملاك الأراضي في قضاء القدس، إذ كان يملك 15 ألف دونم في القدس، وأراضٍ في قرى المزيرعة وشلتا وقطرة وواد المزار وملبس وأم صفاه وفي يافا[94]، إضافةً إلى الدكاكين والمنازل والعمارات في شارع اسكندر عوض بمدينة يافا، الميناء الرئيسي لفلسطين، التي امتلكها عثمان بن سليمان[95]. ولعله ورث الكثير منها عن جده الأكبر أحمد بن رجب النشاشيبي، أحدُ رجال السلطان المملوكي الظاهر جُقمق، 842-857هـ/1438-1453م، حيث كان يتولى الإشراف على دار صناعة النشاب في الجيش المملوكي، ومنح إقطاعات واسعة من الأراضي، بموجب نظام الإقطاع العسكري في السلطنة المملوكية.

كان والده من أبرز رجال عصره ذكاءً وبسطة حال، تقلَّبَ في المناصب حتى انتخب عضواً في مجلس المبعوثان العثماني. وكانت له علاقاتٌ قوية مع مراكز القوى المحيطة بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، في إسطنبول.

تزوَّج والده بامرأتين، إحداهما من آل الدزدار، الأسرة المقدسية المعروفة، والأخرى فاطمة بنت مصطفى إبراهيم عيسى أبو غوش، شيخ قرى ناحية نعلين التي تضم ثلاثين قرية. واعتاد شيوخ الناحية من عائلة أبو غوش، أخذ أتاوة من كلِّ إنسان أو بضاعة تمرُّ من بلدهم، فهم يتحكمون في الطريق ما بين القدس ويافا، وكانوا يفرضون على الفلاحين بيع إنتاجهم لشيخ أبو غوش، وبالأسعار التي يفرضها الشيخ (مدير الناحية). وفي دفاتر المهمة المكتومة فرمانات أرسلها السلطان العثماني إلى شيخ أبو غوش يخاطبه فيها بـ"قدوة الأماجد والأعيان، شيخ أبو غوش، زيد مجده"[96]، أما الشيخ أبو غوش فلقَّب نفسه وعائلته بـ"ملوك أو سلاطين البر". ورزق عثمان من زوجته فاطمة بولد واحد هو محمد إسعاف، وابنتان توفيت إحداهما في صباها، والثانية كوثر، والدة هشام وناصر الدين وعصام النشاشيبي.

ولد محمد إسعاف، على الأغلب سنة 1885[97]، في القدس، في قصر والده، الكائن في القدس القديمة، يمنة طريق الآلام، من باب العمود إلى الحرم الشريف[98]. وفي المدينة المقدسة نشأ الفتى محمد إسعاف، الذي نال الحظوة من والده ومن أسرة والدته، فكان الوالد وجده وأخواله من آل أبو غوش يسجلون مساحات واسعة من الأراضي باسم

الفتى المدلل محمد إسعاف، سواء من حصة والدته أو ما يشترونه لوالده عثمان من الفلاحين المظلومين في ناحيتهم، منعاً لتسرُّب الأراضي لابن ضرَّة ابنتهم محمود ضرار من زوجته الدزدارية بحكم الإرث. فكان نصيب أخيه محمود ضرار محدوداً وقليلاً[99]، بخلاف محمد إسعاف الذي ظفر بنصيب الأسد من الأراضي والعقارات.

وحين بلغ الفتى مرحلة التعليم، دفع به والده إلى كبار شيوخ الكتاتيب في المدينة المقدسة، حيث تعلم القرآن والعربية والخط، وشيئاً من الحساب والفقه، وأتمَّ المرحلة الابتدائية والثانوية، وفق النظام التعليمي العثماني، في مدرسة الفرير، التي تُرَكِّز في مناهجها على تعليم اللغة الفرنسية[100]. ويبدو أن والده كان حريصاً على تشجيع ولده على حضور المجالس الأدبية التي تعقد في قصره، ويحضرها الأدباء، ويتقارض روادها الشعر، ويتذاكرون الأدب ومسائل الفقه، ومنهم، محمد جار الله، وعارف الحسيني، وموسى عقل، وأسعد الإمام، وراغب الخالدي، وكامل الحسيني (المفتي)، ورشيد النشاشيبي، وعبد السلام الحسيني وغيرهم. وكان الشاب محمد إسعاف يرتاد المجالس والحلقات، ويسمع نوادر اللغة والأدب، ويجد في مكتبة والده نفائس الكتب، ويطَّلع على أمهات كتب التراث والأدب في خزائن كتب شيوخ القدس وعلمائها. ومن الجدير بالذكر أن المدينة المقدَّسة عرفت في هذه المرحلة من تاريخها عناية فائقة بمجالس الأدب والطرب، وخاصةً بعد الاحتلال البريطاني للمدينة سنة 1917[101]، وروادها على الأغلب من كبار شيوخ الأسر المقدسية وشبابها[102].

ومن ثمَّ اقترح الشيخ راغب الخالدي على عثمان النشاشيبي أن يرسل ابنه محمد إسعاف للدراسة في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت، حيث أمضى فيها أربع سنوات. تتلمذ خلالها على عبد الله بن الخوري مخائيل البستاني ت 1930، وكان عبد الله البستاني أستاذ اللغة العربية في المدرسة، وعُرف بإتقانه للغة العربية وبمهارته في النظم والنثر، وكان لأستاذه عبد الله البستاني تأثير كبير عليه، فقد أورثه عشق الأدب القديم، والعناية بغريب الألفاظ، والبحث عن أصول المفردات، والشغف باللغة العربية وأسرارها وألفاظها وأساليبها، وكأن إسعاف مُلِكَ بطابع أستاذه اللغوي، ونسج على منواله فيما بعد[103]. وكان محمد إسعاف يحضر دروس أستاذه الأخرى في مدرسة دار الحكمة المارونية، التي أدارها البستاني خلال السنوات التي قضاها محمد إسعاف دارساً في بيروت.

وفي بيروت أيضاً تأثَّر النشاشيبي بالشيخ مصطفى بن محمد بن سليم الغلاييني ت 1944. ولعلَّ ذلك كان بحضوره الحلقات العلمية التي كان يعقدها الشيخ الغلاييني في الجامع العمري الكبير في بيروت، فقد اعتاد الشيخ الغلاييني على تدريس العربية والجغرافية والتاريخ والفقه والنحو والصرف والبيان في الجامع المذكور، إذ لم نعثر في سيرة حياة الشيخ الغلاييني على أيَّة إشارة تفيد بإلقائه الدروس لا في مدرسة البطريركية ولا في مدرسة الحكمة.

ومن الناحية الأخرى، فإننا لا نعتقد أنَّه تتلمذ على الشيخ محيي الدين بن أحمد بن إبراهيم الخياط ت 1332هـ/1914م. وهو شيخ مصطفى الغلاييني، ولعلَّه سمع منه خارج المدرسة البطريركية شيئاً من النحو والصرف والفقه والتوحيد، ولكن محمد إسعاف تأثَّر إلى حد كبير بعناية الشيخ محيي الدين الخيَّاط بديوان أبي تمام، فقد وقف محيي الدين الخيَّاط على طبعه وفَسَّر غوامض ألفاظه اللغوية[104]، كما حقَّق العديد من الدواوين الشعرية الأخرى[105]. وهو ما سيظهر في كتابات محمد إسعاف فيما بعد. وفي بيروت زامل النشاشيبي شكيب أرسلان وشبلي الملاط وبشارة الخوري صاحب البرق في المدرسة، كما حسَّن لغته الفرنسية وصار يقرأ بها بعض كتب الأدب الفرنسية، إضافةً إلى إجادته اللغة الإنجليزية ومعرفته بالتركية.

في بيروت تكوَّنت شخصية محمد إسعاف الأدبية، وعاد سنة 1905 إلى بلده مزهواً بعلمه وأدبه، يحمل معه قصيدة قالها في وداع مدرسته وأساتذته، كتبها بماء الذهب، ووزعها على أصدقائه، مفتخراً بما حصَّله من علم وفائدة[106].

كان محمد إسعاف يطمح بعد عودته أن يروي غليله من اللغة والأدب وذخائر التراث العربي، حيث لا مدرسة من بعد، أما والده فكان يريده أن يساعده في إدارة أملاكه وثروته الطائلة، ويكون عوناً في ضبط ومراقبة الفلاحين الذين يعملون في أرضه استئجاراً بنصيب مُقدَّرٍ من الإنتاج، الربع أو الثلث، وفق الشروط المتفق عليها بين والده وجماعات الفلاحين. وفشل محمد إسعاف في نظر والده في مهمته الأولى، فقد كلفه والده بمحاسبة فلاحي قرية النعانة، بينما وجدها محمد إسعاف فرصته الذهبية، فاصطحب معه عدَّة كتب وانزوى يطالع كتبه، وترك للفلاحين تقدير ناتج محاصيلهم كما يريدون. فهاج الوالد وماج، وعاقبه بالتقتير عليه بالنقود، وهو الذي كان يريدها لشراء ما تتوق إليه نفسه من كنوز كتب التراث والأدب. وعالج محمد إسعاف قبوض يد والده عليه،

بأن باع قطعةً من الأرض المُسَجَّلة باسمه، وثار جنون الوالد وأضمر الشر لابنه، فطلب منه التنازل عمَّا سجَّله باسمه من أملاك، ورفض محمد إسعاف بإصرار، فما كان من والده إلا استغلال نفوذه لدى الدوائر الأمنية، وطلب من الشرطة إلقاء القبض عليه، ومن باب الخليل حتى السوق الجديد، والشاب يطلق ساقيه للريح هرباً من البوليس حتى أمسكوه، وانهال الوالد عليه ضرباً، وقد تجمهر المارة والناس، وهرع السكاكيني وأصدقاء الوالد عليه ينقذون محمد إسعاف ويترضون الوالد، والولد يصرخ: أتضرب يا عثمان فخر بلادك، ولكن دون جدوى! وساق رجال البوليس محمد إسعاف إلى السجن، حيث قضى أياماً، عقوبة وتربية، أما الوالد، فركب بغلته وجعل الولد يخاطب السكاكيني وهو بين يدي الشرطة: يا سكاكيني، أهذه آخرة من يقرأ مقدمة شميل (أي كتاب شميل على مذهب دارون)[107].

لقد كان والد محمد إسعاف يرى أن العلم لا يُسمِن ولا يُغني من جوع، إنما هو ترفٌ فكريٌّ تُحلَّى بها المجالس، والخير كل الخير في المال. والولد مشغوفٌ بالقراءة والمطالعة والكتابة.

وتدخل حاكم القدس، جبرائيل حدَّاد للإصلاح بين محمد إسعاف ووالده، وكان ردُّ محمد إسعاف: ما يصلح بيننا ليس جبرائيل ولكن عزرائيل[108]. وكثيراً ما ردَّد محمد إسعاف أبياتاً من الشعر نظمها، وصف حاله وحال وطنه:

قد كنت أطمع أن أرى — وطني بهيجاً زاهياً
فوجدته من كل علم — أو علاء خالياً
فرثيته وندبته — وسكبت دمعي غالياً[109]

وانصرف محمد إسعاف بكليته إلى الأدب والكتابة، وفي مجلة الأصمعي التي أصدرها حنا العيسى، التقى ثلاثتهم؛ العيسى والسكاكيني ومحمد إسعاف، واختار كل واحد منهم له كنية. حنا العيسى، صاحب المجلة، تكنَّى بأبي سعيد تمثلاً بأبي سعيد الأصمعي، والسكاكيني بأبي الطيب، تيمُّناً بالمتنبي، ومحمد إسعاف النشاشيبي بأبي الفضل اقتداءً بالهمذاني، صاحب المقامات البديعة، وشاعت الكنى على الألسنة من خلال مقالاتهم في المجلة[110]، وانطلق عنان النشاشيبي في الكتابة؛ فكتب في مجلة النفائس التي أسَّسها خليل بيدس سنة 1908، وعلى مدى تسع سنوات، ما خلا مجلدٌ فيها من نثرٍ أو شعر أو مقالة لمحمد إسعاف حتى توقفت[111].

وكتب في مجلة المنهل المقدسية، وفي العديد من المجلات العربية، مثل الرسالة القاهرة والبلاغ واللواء المصري والأخبار والسياسة وكوكب الشرق المقتطف وغيرها كثير. وكان محمد إسعاف قد انضم لعضوية جمعية الآداب التي أنشأها داود الصيداوي ت 1908، الموظف في بنك كريدي ليونيه Le Crédit Lyonnais[112].

وحين جدَّد القائد العثماني، أحمد جمال باشا، الذي ينعته بعض الكُتَّاب العرب بالسفَّاح، المدرسة (الكلية الصلاحية) التي كان صلاح الدين الأيوبي قد أنشأها سنة 853هـ/1449م، جعل منها أحمد باشا معهداً دينياً علمياً، تدرس فيه العلوم الإسلامية والعلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء وغيرها، وكذلك اللغات؛ العربية والتركية والفارسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية، بهدف تأهيل كوادر إسلامية تبعث إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي، لتحريض شعوبها على الثورة ضدّ الاستعمار الأوروبي. وبسعي من رستم حيدر، مدير المدرسة، عيَّن أحمد جمال باشا النشاشيبي أستاذاً للغة العربية، وكان محمد إسعاف قد توارى عن الأنظار لئلا ينتظم في سلك الجندية العثمانية، غداة اندلاع الحرب العالمية الأولى، فأخرجه رستم حيدر من مخبئه، وعُيِّن في الكلية الصلاحية[113]. وبعد احتلال القوات البريطانية للقدس، عيَّنه الحاكم العسكري البريطاني سنة 1918 أستاذاً للغة العربية في المدرسة الرشيدية بالقدس، أشهر مدارس فلسطين آنذاك، ثمّ مديراً للمدرسة، ورقّي إلى رتبة مفتش للغة العربية في معارف فلسطين، وظلَّ فيها حتى سنة 1929. وضاق محمد إسعاف بالبريطانيين وسياستهم في فلسطين، ورأى أن العمل موظفاً مع سلطات الاحتلال وتفشِّي النفوذ الصهيوني، إنما تحطُّ من قيمة الإنسان، وتعلِّمُهُ التزلُّفَ والمهانة والسرقة، عدا أنها تُميتُ الضمير والإحساس، وكانت مشاكله مع مدير المعارف ومساعده البريطانيين في حكومة الانتداب في فلسطين لا تنتهي[114]، فعزف واستقال، وأخذ على نفسه عهداً ألا يمتهن أيَّة وظيفة، لا سيّما وأنَّ "عزرائيل قد حلَّ كافة مشاكله العائلية"!!.

يقول محمد إسعاف نظماً:

عشقوا الوظائف ضلة لهواهم ... ورأوا بها العلياء شامخة الذرى
خالوا السعادة عندها أوما دروا ... أن الرزايا في الوظائف والشقا
تدعو العزيز إلى المهانة ... والذل شر ما كرث الفتى[115]

وكان محمد إسعاف، قد ابتنى لنفسه سنة 1922 قصراً على بقعة مرتفعة شمالي حي الشيخ جرَّاح، أشرف على بنائه المهندس اليوناني سبيرو خوري Spiro Khouri اليوناني الأصل، زيَّنَهُ بالفسيفساء والرخام، وفرشه بفاخر الأثاث الفرنسي، وأحاطه بحديقة غنَّاء، وقد أنجزه بصورة كاملة سنة 1938[116]. واستضاف به فيما بعد نخبةً من رجالات الفكر والأدب وأعلام الفكر والسياسة والاجتماع، ومنهم الأمير فيصل بن عبد العزيز وأخوه الأمير خالد، وهما في طريقهما إلى لندن سنة 1937[117]. وتفرَّغ للمطالعة والكتابة وجمع الكتب، وتيسَّر له اقتناء الكثير من الكتب النادرة، وكانت مكتبته من أفضل المكتبات في القدس. لقد جمع نفسه على العلم والاشتغال به، فكان ينقطع عن أصحابه أسابيع وشهور، فيظنون أنه في سفر[118]، ومما أفرحه انتخابه عضواً مؤازراً للمجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1923[119].

وغاص محمد إسعاف في بطون أوابد كتب التراث وذخائره، وقضى شهوراً في دراسة ومطالعة آي الذكر الحكيم، وكتب الأحاديث والمسانيد، وعرج على الثقافة الأوروبية الحديثة، فقرأ العديد منها بلغاتها الإنجليزية والفرنسية. لقد كان أستاذ نفسه وثقَّفَ نفسه، فاكتنز ثقافة عربية أصيلة منفتحة على التيارات الفكرية الحديثة في أوروبا، وقد أجاد صيد الكلمات، والنوادر والمختارات، فالعلم عنده صيد، والكتابة قيده، ويوصي: قيّد صيودك بالحبال الموثقة[120].

العلـم صيدٌ والكتابـة قيدُهُ   قيِّد صيـودك بالحبـال الموثقة

فكره:

الثقافة العربية الأصيلة هي التي صاغت فكر إسعاف النشاشيبي، فقد كان من أوعية ينابيع الفكر العربي الإسلامي المتمثلة في القرآن الكريم، والحديث النبوي الصحيح، والأدب العربي، واللغة العربية، وثقافات الشعوب التي انتشر الإسلام بين ربوعها. وكانت كتابته تفيض بحب العروبة والإسلام، ولكن بأسلوب حماسي وبمزاج ناري، تبعده أحياناً عن حقيقة ما يقصده، ويُفهَم خلاف ما أراده.

إنَّ دراسة مصنَّفات محمد إسعاف النشاشيبي وخطاباته ومحاضراته واختياراته ومنظوماته؛ تحدِّد ملامح القضايا المهمة التي حاول أن يبدي فيها رأياً، وبالتالي بدت وكأنها أفكار تبنَّاها ودافع عنها بأسلوبٍ علمي حيناً، وبأسلوب أدبي خالجته العاطفة الصادقة، ولكنه على أيِّ حال كان يرفض التقليد والتعصب الأعمى.

كان كتابه "الإسلام الصحيح" يمثل مرحلةً مهمةً في تطوُّر فكر محمد إسعاف النشاشيبي الديني، فقد ابتدأ شاعراً وأديباً ومنشئاً وناقداً، وانتهى كما يرى إسحق موسى الحسيني فقيهاً مجتهداً[121]. فقد أراد من كتابه "أن يثبِّت للمسلم دينه، ويقوي إيمانه ويقينه، ويحامي عن كتاب الله، ويذود عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويدعو الناس كافةً إلى هدى الله"[122].

كان محمد إسعاف النشاشيبي عنده محبةٌ صادقةٌ للقرآن الكريم، يعتزُّ به ويؤثره على كل كتابٍ آخر في هذا العالم، يقول: "جاء مع هذا النبي الكريم، كتابٌ عظيم، إعجازه فاق بلاغة العرب الخلصاء، وفصاحة مصاقع الخطباء، وخناذيذ الشعراء متحاقرة، متضاءلة بين يدي بلاغته وفصاحته". ويضرب مثلاً أنه إذا أنشأ القرآن بذكر الجنة والجحيم كاد سامعه يشهدهما، ويضيف:

> ربما أوغل فريقٌ من هؤلاء الزمنى، زمنى العقول، في الجهالة والغي والفساد والقحة والجنون والبهمية، هؤلاء لا أدري كيف أصفهم، قالوا (نعوذ بالحقيقة من قولهم... وناقل الكفر ليس بكافر) إنَّ نهج البلاغة المعزو إلى علي بن أبي طالب أو أمثال نهج البلاغة، هي مثل القرآن، أي مثل الكتاب الذي هو جوهر جوهر جوهر اللغة العربية[123].

والنشاشيبي يذهب في فكره إلى أن الإسلام هو القرآن وما جاء به، أما ما كتبه العلماء والفقهاء ففيه نظر، الإسلام هو المساواة والعدل والعزة والانتفاض يقول: من لَدُنَ الله يسير في الأرض هادياً ودليلاً، ذلك هو القرآن الذي يتلوه القارئون: إباءُ الأبي، وعزَّة العزيز، ووفاء الوفي، وكرم الخلق، والصدق وقول الحق، والعدل في الحكم، والكفر بسلطان الأجنبي "ومن يتولهم منكم فإنه منهم"، والتواضع "واخفض جناحك للمؤمنين"، والنظر والبحث والعلم والتعليم وداد، بل أخوة بين المؤمنين "إنما المؤمنون إخوة".

القرآن في نظر النشاشيبي هو الأساس، والنشاشيبي ينقد الأحاديث غير الصحيحة وحتى التفاسير، وهو يستخدم لغة قوية تنطبع أحياناً بطبعه الناري ومزاجه الحاد، وقد تعرَّض لنقد مرير من يوسف بن محمد الكافي، أحد علماء الشيعة الذي كتب كتاباً عنوانه "نقض إسلام النشاشيبي الصريح بصريح الأدلة التي يفهمها الأعجمي والفصيح"[124]، وكان النشاشيبي قد أورد آراء عن الإمامة وفسّر آية التطهير والتفسير بالتأويل مما أوجب الردَّ عليه[125].

وكان محمد إسعاف يردِّد دوماً: إذا أردنا فهم القرآن الكريم حقاً وصدقاً، علينا أن نفهم لغته[126]، فاللغة وسيلةٌ للتفقه في الدين وفهم أسرار القرآن[127]، وحين نشر من سمّى نفسه، إبراهيم العربي، كتاباً يدّعي فيه بوجود أخطاء لغوية في القرآن، تصدَّى له، وردَّ عليه بعدة مقالات على صفحات مجلة الرسالة[128].

وكان لمحمد إسعاف دفاعٌ عن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، يقول:

أي معنى للكون إن ذهب منه اسم محمد

أي معنى للكون إن ذهب منه قرآن محمد

أي معنى للكون إن ذهبت لغة محمد

محمد معنى هذا الوجود

محمد سيد هذا الوجود

محمد جمال هذا الكون[129].

ويضيف في مقامٍ آخر: لولا محمد والعرب والمسلمون، ما تقدَّم الغربيون. ويسترسل فيقول:

> وبينما العالم يرتقب هاديه، وقد تطاول ليل ضلاله وحيرته، صات صائت في فلاة، لم تعتد الناس أن تسمع فيها للخير دعاء، فأرهف لاستماع ما يقول الصوت أذنه، فإذا هو يوقظ الهاجد في عماه. وينادي إلى الحق وصراط مستقيم، وذلك الصائت هو سيدنا وزعيمنا وإمامنا ومصلحنا وقُرَّة أعيننا ومهوى أفئدتنا؛ شرَّف العرب، بل المشارقة، بل قطيف الأرض قاطبة[130].

وفي مؤتمر جمعيات الشبان المسلمين الرابع، وبتاريخ 25 ربيع الثاني 1351هـ الموافق 1932/8/28م بمناسبة الذكرى الخالدة لمعركة حطين، وقف محمد إسعاف خطيباً وأخذ يقول: "محمد بن عبد الله، نحن عبيدك، ونحن عبيد عبيدك، نحن منتمون إليك، منتمون إلى قرآنك، منتمون إلى دينك، منتمون إلى عربيتك، فماذا نريد؟ أدركنا، نجنا، خلِّصنا، أنقذنا، إنَّ الأعادي تداعت من كل صوبٍ علينا"[131].

لقد أصدق محمد إسعاف الأمة القول، وكان لسان صدقٍ دفاعاً وانتماءً للقرآن الكريم ورسول الله الكريم.

اللغة العربية في فكر محمد إسعاف:

عشق النشاشيبي اللغة العربية، فهو كما يقول "يرى الله من خلالها"، قرآن الله وشريعته لا يراها إلا سامية عالية راقية مدهشة ساحرة[132]. وعنده "اللغة هي الأمّة، والأمّة هي اللغة، وضعف الأولى ضعف للثانية، وهلاك الثانية هلاك للأولى، وما الأمّة إلا لغتها وأدبها وخلقها"[133].

يقول نظماً:

لغة الجزيرة حقها الإنصاف ... من ترتجيهم، صيدها الشغاف
إن عقَّها أهل الضلال فإنَّما ... بربِّها وبربّها إسعافُ
هذا البيان محمد أوصى به ... فله على قول الورى إشرافُ
هو روحُ من عشق الكتاب وإنّه ... سم لشائنه البغيض زعاف[134]

وفي كتابه "نُقْل الأديب" يطنب محمد إسعاف في التغني بمزايا اللغة العربية وتفوقها على كافة اللغات، إذ جمعت الحسن كله في نظام، فيها الفصاحة والبلاغة والتجود والتذوق والإيجاز والإطناب، وفيها البيان الساحر، ويقرر: إذا تنافرت اللغات يوماً وتساجلت، جاءت فتاة الجزيرة، سيدة عقيلة وجئن إماء[135].

كان غيوراً على العربية، شغوفاً بآدابها، تغنَّى بمحاسنها، ودافع عنها، وحمل على المستخفين بها، وحاول إظهار ما فيها من مزايا[136].

إنَّ محمد إسعاف يرى أن اللغة هي الأمة، والأمة هي اللغة، كما سبق الإشارة إليه، وفي هذا الرأي بُعدٌ قومي وديني وإنساني. فالبعد القومي يدعو إلى التمسُّكِ باللغة الأصيلة، لغة القرآن الكريم، فتكون نقية سليمة، بعيدةً عن الغث والضعيف، فيسهل التفاهم بها بين أصحابها فلا يتشرذمون، وبالتالي تكون من أهم الروابط القومية لأبناء الضاد. والبعد الديني يدعو إلى معرفة اللغة العربية، لسان مبين، فإعجاز القرآن الكريم لا يدرك كنهه إلا من عرف لغته العربية، فيقوى الإيمان به. وهي ثالثاً دعوة إنسانية لنا، نتعود الصدق والأمانة العلمية، ونحافظ على شريحة من التراث الإنساني، ولأن اللغة النقية السليمة تساعد على تنقية العقل[137].

وعلى الجانب الآخر، فقد عرض محمد إسعاف في كتابه "كلمة في اللغة العربية" العديد من القضايا التي ركَّزت في جانب منها على حاضر اللغة العربية، وتصدّت لتفنيد

آراء المنتقصين لملائمتها للعصر تحت ذريعة التقدم ونبذ الجمود والتخلف، وبذل رأياً في ترقية تدريس اللغة العربية، والوفاء بحقها في التجديد. وفي سرد تاريخي تناول النشأة والبلاغة والإعجاز في القرآن الكريم والحديث، الصحيح منه والضعيف، وقواعد اللغة العربية في صدر الإسلام والعصر الأموي وأثر الموالي في إفساد قواعدية اللغة[138].

ولخّص إسعاف طريقته ومنهجيته في ترقية تدريس اللغة العربية والتي تقوم على: اختيار النصوص من القرآن والحديث، والخطب البليغة والأمثال السائرة والقطع النثرية الجميلة، ثمّ قراءتها للطلبة بفهم ومتعة وشخصية قوية، ومن ثمّ التعليق على المفردات، بشكلٍ يكشف أسرار الألفاظ ودلالتها المعجبة الدقيقة، ثمّ تكليف الطلبة بالحفظ، وسماعه ما حفظوه. إذن فالمدرس والكتاب هما وسيلتا النشاشيبي لترقية اللغة[139]، ومع أنه يؤمن بضرورة تجديد اللغة، ولكنه التجديد الذي يحفظ اللغة من كل ما يؤدي إلى إفسادها أو اضمحلالها، ويرى التجديد تنمية وتطوراً للحضارة من جانبها الأدبي واللغوي؛ فلا نقضي على اللغة ونعتمد العامية أو نلغي القافية بدعوة حرية الشعر وتجديده. وينعى على الذين يقولون بلزومية استخدام اللهجة العامية، دون الفصحى، لأنها لغة التخاطب اليومي في كافة مجالات وميادين الحياة، ويصف دعاة العامية إما ذئب أو زنيم أو جاهل أحمق. ويعزو سبب التدني في حاضر اللغة إلى الكبراء والحكام الذين تلقوا تربيةً أجنبية، أو إلى المدرسين الذين يدرِّسون تلاميذهم بلغة عامية[140]. كما رفض بصورة قاطعة استبدال الأحرف العربية باللاتينية، ومحاكاة أتاتورك في ذلك، وإنما رأى وجوب التمسُّك بها، وتحسين أساليب الكتابة والتعبير[141].

ويفهم من كتابات محمد إسعاف أنه التزم بالدعوة إلى الاستفادة من التقدم العلمي في الغرب، وضرب أمثلة بنقل العلماء المسلمين والعرب الأوائل الكثير من العلوم عن اليونان بعد تحريرها وتنقيتها وتهذيبها وتشذيبها، ويقول: "تلكم مدنية الغرب، فالخير كل الخير في أن نعرفها، والشر كل الشر في أن نجهلها. وأما إذا عاديناها وهي السائدة الساطية استعلتنا، وهي مدنية غمرت الكرة الأرضية، فليس ثمّ عاصم، وإن آويت إلى المريخ، ولن يُنجينا من عفاريت، غيرها، ولن يبعد عنا شرهم إلا خيرها"[142]، فعنده المدينة الغربية ضرورية جداً، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها لاستكمال النهوض العربي في هذا العصر.

ولم تغب قضية وطنه عن فكره وأدبه، فالقدس يجب ربطها بكل العواصم العربية، فعزلتها أو انقطاعها سيؤدي إلى موتها، ولم يكن يعترف بحدودٍ بين قطر وقطر، فالعرب أمةٌ واحدة، يجمعهم وطنٌ واحد، ويقول في ذلك:

فسعادتي يا ابن الكرام ... وبغيتي ومراميا
أن تصبح العرب الأذلة ... سادةً ومواليا[143]

ويدعو أبناء قومه لبذل الدماء بدل الدموع، رثاءً لوطنه التي تحيق به ألاعيب بريطانيا المستعمرة وأطماع العصبات الصهيونية:

فلقد ولت فلسطين ولم ... يبق يا أخت العلى غير دماء
إنها أوطانكم فاستيقظوا ... لا تبيعوها لقوم دخلاء[144]

وكان محمد إسعاف يكره أحزاب فلسطين العائلية، ويراها إهداراً لطاقات الوطن، فلم ينضم لأيِّ حزب، وكره لبس الطربوش، العلامة المميزة لآل النشاشيبي، حزب الدفاع، وكره لبس الكوفية علامة الهيئة الموالية لآل الحسيني، فكان يضع على رأسه شاشة بيضاء مبرومة وملفوفة على الرأس كالعمامة، ومع ذلك فقد ربطته صداقة مع الحاج أمين الحسيني، وإذا ما سأل محمد إسعاف عن الحسيني، قدّم لسؤاله، أين ابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم[145].

مصنفات محمد إسعاف النشاشيبي:

وضع محمد إسعاف العديد من المؤلفات تراوحت بين الكتاب والبحث والمقالة والخطبة والمحاضرة، كما طرق باب النظم، ولكنه عزف عنه، لأنه لم يحقق له ما يريده من علو كعب في الشعر، واتجه بكليته نحو الأدب المنثور فحاز السبق ومن مؤلفاته:

1. **الإسلام الصحيح:** ويعدُّ من أعظم آثاره، فقد اعتمد نقد النصوص وتحقيقها، يسندها علم واسع، وفيه توضيح لعدد من الحقائق ونقدها وتحليلها ودحض الأباطيل (التي يسميها الأشتات) التي سار عليها الناس وقتاً طويلاً، وتنزيهاً للإسلام من البدع التي لحقت به، وعرض للإمامة وآيات الطهارة والعصمة. وقد نُقد هذا الكتاب نقداً مُراً من قبل بعض علماء الشيعة، وطُبع في القدس، مطبعة العرب، 1354هـ/1935م، يقول إبراهيم المازني: أدهشني ما في "الإسلام الصحيح" من تحقيق، شرعت أقرأه مساء، ولم أقوَ على تركه، وفرغت منه مطلع الفجر.

2. **البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي:** أصلها خطبة ثمّ طبعت في كتاب، يعدّد فيه مناقب كل من البطل والشاعر، ويتحدث عن دور كل واحدٍ منهما في الارتقاء بأمة الإسلام ولغة الإسلام، العربية، وطُبع في القدس، 1932، أعاد طباعته اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين بدمشق، سنة 1984.

3. **البستـان:** كان شيخه عبد الله البستاني قد وضع مؤلفاً بعنوان البستان، معجم عربي في جزأين، ولما وضع محمد إسعاف كتابه مجموعة النشاشيبي وجدها صعبة على الطلاب، فاختار للطلاب مجموعةً أخرى أسهل مما ورد في المجموعة الأولى، وأطلق على المختارات الجديدة اسم "البستان" وجعله للمدارس الأولية والابتدائية، وجاء في سبعة أقسام، وكان كتاباً مدرسياً مقرراً في مادة المطالعة في مدارس فلسطين، ذكر في مقدمته: ما الكبير بأحق بالعناية بشأنه من الصغير، وليس الشادي بأحوج إلى كتب في العلم والأدب يحتفل فيها العلماء من البادي، بل الثاني في هذا الأمر هو الأول والأهم المقدم، وإن على الذي يلقنه في بدء تثقيفه المعول. وقد قدّمت مجلة المقتطف الكتاب بالقول: حديقة غنّاء، جمع فيها الأستاذ النشاشيبي من فنون الأدب العربي، كل زهرةٍ وثمرةٍ يانعة، وقد قرظه العلاّمة الشيخ محمد بهجة الأثري البغدادي وغيره[146].

4. **سيرة العلم وسيرتنا معه:** المحاضرة الأولى التي ألقاها في الكلية الصلاحية بالقدس، عند تعيينه مدرساً للغة العربية فيها، حثَّ فيها الطلاب على الدراسة في الغرب، والانفتاح على التقدُّم العلمي في الغرب. وقد قرظه انستاس الكرملي في مجلة لغة العرب فقال: "فما أجدر هذه الكلمة في سيرة العلم بأن تتلى بمنزلة آي صباح مساء، لتنطبع محكمات عباراتها في الخاطر، فيجري عليها كل شاعر وناثر"[147]. طبع في القدس، دير الروم الأرثوذكس، 1916، 1922.

5. **سيفيات المتنبي:** نثر الشعر، قول في أبي الطيب المتنبي، محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، الجزء الثالث، تموز 1936، صفحة 127-143.

6. **شرح أمثال أبي تمام الطائي:** اعتبره النقاد خير كتاب، بدأ في الأدب العربي في هذا العصر، نُشِر تباعاً في مجلة النفائس، 1912، وقد جمع فيه أمثال أبي تمام كما فعل الصاحب بن عبَّاد في جمعه لأمثال أبي الطيب المتنبي.

7. **العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي:** أساسها خطبة ألقاها في مهرجان شوقي ودوره في خدمة الأدب واللغة في مؤتمر مدراء المدارس في معارف فلسطين، 1927/4/21. ويعكس غيرة وتحمس محمد إسعاف على اللسان العربي.

8. **العربية المصرية:** دفاع عن العربية وذكر لخصائصها وتأكيد لدور مصر في المحافظة على العرب والعربية، طُبع في القدس، 1352هـ/1933م.

9. **العربية والأستاذ الريحاني:** خطبة ألقاها عندما كان يعمل مفتشاً في معارف فلسطين، حيث ركَّز على العروة الوثقى في القرآن والفقه، ردّ فيه على وصف الريحاني للأديب محمد إسعاف بأنه مقلد، طُبع في مصر، مطبعة المعارف ومكتبتها.

10. **العربية في المدرسة:** خطبة ألقاها في مؤتمر مدراء المدارس في معارف فلسطين، طُبع في مصر، مطبعة المعارف ومكتبتها، 1928.

11. **العراق في سبيل الحرية:** خطبة ألقاها في حفل تأبين فقيد العراق عبد المحسن بك السعدون في 1929/12/27، أقامت الحفل اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي السابع في بيت المقدس، طُبع في القدس، مطبعة العرب، 1932.

12. **قلب عربي وعقل أوروبي:** محاضرة ألقيت في الجامعة الأمريكية ببيروت، طُبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، 1342هـ/1924م.

13. **كلمة في اللغة العربية:** دفاع عن العربية، لا يدانيه دفاع في الأدب العربي الحديث، أذاع صيته في البلاد العربية والقطر المصري، وجهر به في جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة، 1924، وتهافت الأدباء بعدها على لقائه، طُبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، 1925.

14. **كتاب المبشرين:** (أغلاط لغوية)، فقد نشر من سمّى نفسه إبراهيم العربي، مقالة ادعى وجود أخطاء لغوية في القرآن الكريم، فردَّ عليه محمد إسعاف بمقالات نشرت في مجلة الرسالة ابتداءً من 1938/10/24.

15. **مجموعة النشاشيبي:** طُبع في القاهرة، المطبعة السلفية، 1341هـ/1923م، مجلة المقتطف قدمت المجموعة بالقول إن الأستاذ إسعاف النشاشيبي، أديب فلسطين الأكبر، وأحد مفتشي المعارف في تلك البلاد، ألَّف كتاباً من خير ما قاله العرب

شعراً ونثراً، متوخياً تربية الروح القومية، وتمرين ألسنة التلاميذ وأقلامهم على البيان الفصيح حتى يكون ملكة فيهم، وقد قسم هذه المجموعة إلى خمسة أقسام:

القسم الأول منها، ما تخيره من آيات القرآن الكريم.

الثاني: ما انتخبه من صحيح البخاري.

الثالث: أشهر أمثال العرب.

الرابع: أشهر ما روي عن حكماء العرب وأدبائهم من الأقوال المأثورة.

الخامس والأخير: ما اختاره من المقاطع الشعرية البليغة، وقد فسَّرَ ما فيه من الغامض، والكتاب مطبوعٌ طبعاً متقناً، وقد فسَّرَ ما فيه من الغامض، ويطلب من المطبعة السلفية بمصر[148].

16. **مقام إبراهيم:** خطبة ألقاها في حفلة تأبين إبراهيم هنانو، التي ألقيت في دمشق 15 شوال 1354هـ الموافق 1936/1/10م، ضمَّنها حواشي وشذرات أدبية ولغوية وتاريخه وبيانه، تأبين إبراهيم هنانو (شهيد الثورة السورية ضدّ الفرنسيين)، طُبع في القدس، مطبعة بيت المقدس.

17. **نُقْل الأديب:** نشر معظمها في مجلة الرسالة، وهي عرض للثقافة العربية على اختلاف قطوفها وتباين ألوانها، بلغ عدد ما نشر منها 969 نادرة، على مدى ما يقرب من عشر سنوات، وكان آخر ما نشر منها في عدد كانون الثاني/ يناير 1948. وقد بلغ إعجاب القُراء بها مبلغاً عظيماً، وظهر ذلك الإعجاب على قلم زكي مبارك، إذ كتب: "من واجبي نحو نفسي أن أعلن أني استوحشت لغياب الشذرات النفيسة جداً، الشذرات التي كان ينشرها الأستاذ الجليل على صفحات الرسالة، فمتى يعود"[149].

وهناك مجموعة من المقالات للنشاشيبي، أهمها:

- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تعقيبات على كتاب ياقوت الحموي في معجم الأدباء، نشرت في مجلة الرسالة اعتباراً من 1945/5/14.
- حظي بالشيء، مقالة لغوية في مجلة الرسالة، 1938/5/26.
- حكاية الوفد الكروي، مقالات في مجلة الرسالة، 1948/8/23.

• شوقي والرافعي في النحو، مجلة الرسالة، 1938/4/25.

• قصة الكلمة المترجمة، مجلة الرسالة، 1928/9/25.

وانظر عشرات المقالات في مجلة الرسالة، فقد واصل النشر فيها على مدى عقد من الزمن في الأعداد التالية:

جدول 1/1: أعداد مجلة الرسالة التي نشر فيها محمد النشاشيبي مقالاته

العدد	التاريخ	الصفحة
299	1941/2/24	219
404	1941/3/21	288
575	1944/7/10	130
604	1945/1/29	97
605	1945/2/5	120
606	1945/2/12	140
607	1945/2/19	159
608	1945/2/26	190
609	1945/3/5	215
614	1945/4/1	253
659	1946/2/18	179
663	1946/3/18	199

وهناك عدة خطب في احتفالات، أبرزها:

• تأبين الزعيم محمد علي، 5 رمضان 1345هـ الموافق 1927/3/9م.

• تأبين الحسين بن علي، 18 محرم 1350هـ الموافق 1931/6/5م.

• بيروت والغلاييني: الحفلة التكريمية للعلاّمة الشيخ مصطفى الغلاييني، بيروت، دار الكلية الإسلامية، 1932.

• التفاؤل والأثرية في كلام أبي العلاء المعري، المهرجان الألفي للاحتفال بأبي العلاء المعري، طُبع في دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي، 1938.

ملاحظة: معظم خطبه تمّ طبعها في كتب صغيرة الحجم فيما بعد.

أهم مخطوطات كتب النشاشيبي التي فقدت:
- الأمة العربية.
- حماسة النشاشيبي.
- جنة عدن[150].

وفاتــه:

في شتاء سنة 1947 سافر النشاشيبي إلى القاهرة في رحلته الشتوية ليشرف على طباعة كتبه الثلاث المخطوطة، وليتطبب من مرض الربو الذي لازمه أواخر أيام عمره، وظل مع سُمَّاره وأصدقائه ومحبيه حتى أحسَّ ذات ليلة بألم شديد في صدره، نقل على أثرها إلى مستشفى الدقي، حيث فارق الحياة في الساعات الأولى من صباح يوم الخميس 1948/1/22.

وكانت له جنازة حافلة، شارك فيها الأدباء والعلماء ورجال الدولة، ووري الثرى في مقابر الإمام الشافعي[151].

ولقد رثاه عدد كبير من أصدقائه وعشاق أدبه ومنهم؛ محمد عبد الرحمن الجديلي وداود حمدان وأحمد حسن الزيات ومحمد سليم الرشدان وأحمد لطفي السيد وشكري فيصل وعبد الوهاب عزام، والشاعر عبد الغني حسن، قال في رثائه:

يا غريب الممات ما نحن إلا ... غرباء في منزل الغرباء
أخطأتك الأقدار والناس تغلي ... في فلسطين والحمى في دماء
وأصابتك في مكان أمين ... رب آمن يجد حبل الرجاء
لم تمت ميتة الجبان ولكن ... مُتَّ في العلم ميتة الشهداء

ولم يتزوج محمد إسعاف، واكتفى بالأدب، فبمصاهرته له تزيده شرفاً، وهذا ما كتب به إلى صديقه أمير الشعراء أحمد شوقي[152].

قال عنه معاصروه: وعاءٌ من أوعية الأدب[153]. وقال أحمد حسن الزيات: إنَّ النشاشيبي كان خاتم طبقة من الأدباء اللغويين المحققين، لا يستطيع الزمن الحاضر بطبيعته وثقافته أن يجود بمثله[154].

أما أمين الريحاني فيقول: ثلاثة سأذكرهم على الدوام، الحرم الشريف وجبل الزيتون وإسعاف النشاشيبي[155]. وروى كثير ممن كتب سيرة حياته بأن الجمهورية اللبنانية أهدته وسام الاستحقاق اللبناني تقديراً لجهوده الأدبية[156].

لقد نافح النشاشيبي عن دينه وقرآنه ورسوله وأمته العربية والإسلامية، وأمضى حياته باحثاً ومنقِّباً في كنوز التراث والأدب العربي، وكان أديب العربية بكل جدارة واستحقاق.

خامساً: عارف العَارِف:

هو عارف شحادة العارف توفي سنة 1393هـ/1973م، مُؤرِّخ فلسطيني معروف، وأَحَدُ رجال الإدارة والسياسة في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، وفي العهد الأردني بعد وحدة الضفتين الغربية والشرقية في إطار المملكة الأردنية الهاشمية. أسهم في الحركة الوطنية الفلسطينية في بدايتها، وكانت له مواقف سياسية إزاء الوجود العثماني في فلسطين، والاحتلال والانتداب البريطاني والغزو الصهيوني واغتصاب فلسطين منذ 1921-1967، وكذا من الأحداث التي انعكست على علاقة منظمة التحرير الفلسطينية مع النظام الأردني منذ 1966-1973.

يُعدّ عارف العارف أحد اثنين، الآخر هو أكرم زعيتر، كانا من أكثر كُتَّاب اليوميات مداومةً على تسجيل الأحداث التي لفَّت وطنهما، وصنعت التاريخ الفلسطيني الحديث، وإن كان لكل منهما منهجيته ومصادره.

ولد عارف العارف في مدينة القدس سنة 1310هـ/1892م، وأتمَّ دراسته الابتدائية فيها، ثمّ انتقل إلى إسطنبول في ظروف لم تورد المصادر شيئاً عنها، ويبدو أنه كان متفوقاً في المدرسة فاختير لإكمال دراسته في المدارس السلطانية في إسطنبول. وكانت الإدارة العثمانية في الولايات العربية عادةً ما تختار من تتوسم فيهم النجابة والذكاء، وترسلهم إلى العاصمة لتأهيلهم علمياً وإعدادهم؛ تربيةً وولاءً، ليكونوا موظفين في دوائر الدولة ومؤسساتها فيما بعد، وفي بعض الأحيان تتولى الإدارة العثمانية رعاية أبناء الأعيان والوجهاء وأبناء العائلات المتنفذة للهدف نفسه. وأرى بأن عارف العارف قد اختير للسبب الأول، فلم أعثر في الوثائق والسجلات العثمانية ما يشير إلى أن والده أو أسرته كانت من العائلات المتنفذة أو الأعيان أو الوجهاء.

وأكمل عارف العارف دراسته الثانوية في المدارس السلطانية العثمانية، ومن ثمّ التحق بكلية الآداب في جامعة إسطنبول، وحصل منها على درجة الليسانس في الإدارة والاقتصاد والسياسة سنة 1332هـ/1913م.

ومن الجدير بالذكر أنه عمل خلال مرحلة دراسته الجامعية في جريدة بيام Payam (الرسالة)، التركية ليلاً، ليتمكن من متابعة دراسته والإنفاق على نفسه. ولعله من خلال عمله الصحفي واتصاله بالشبان العرب في إسطنبول تنبّهت في نفسه عوامل اليقظة والوعي، فانضم إلى جمعية المنتدى الأدبي، الذي أنشأه الشبان العرب في إسطنبول، والذي يدعو ضمن برنامجه إلى توحيد العرب. ونظراً لنشاطه وحماسه فقد انتخب عضواً في الهيئة الإدارية للمنتدى، لا سيّما وقد عرف عنه، إبَّان دراسته الجامعية، حرصه على تدوين محاضرات أساتذته وتوزيعها على أترابه الطلبة.

ومن ثمّ فقد عُيِّن عارف العارف في قلم الترجمة التابع لوزارة الخارجية التركية، إذ كان يجيد اللغة التركية، وله معرفة باللغة الفرنسية بالإضافة إلى لغته الأم، العربية[157].

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى 1914، تمَّ تجنيد العارف ضابطاً احتياطياً في الجيش العثماني، حيث أمضى في الكلية الحربية مدة ستة أشهر. ومن ثمّ أرسل إلى جبهة القفقاس مع غيره من المتجندين العرب، وكان يتولى الترجمة بين المجندين العرب والضباط الأتراك. وفي إحدى المعارك بين الروس والأتراك، سنة 1915، وعلى مقربة من أرضروم أُسِر، وأرسل إلى سيبيريا، وفي معتقل للأسرى أقيم على مقربة من مدينة قراسنويارست، على شاطئ نهر ينى ساي قضى ثلاث سنوات 1915-1917 سجيناً في هذا المعتقل، القارس البرد، وفي ظروف قاسية مريرة لبعده عن وطنه، ومعاناة الجوع والحرمان.

في المعتقل، حيث يوجد مجموعةٌ من الضباط الأسرى من المجريين والألمان والنمساويين، تعلَّم عارف العارف اللغة الألمانية. يُعلِّمُهم العربية ويتعلم منهم الألمانية، وقد أجادها، حتى إنه نقل كتاب آرنست هيجل Ernst Haeckel "أسرار الكون"، الذي شرح فيه نظرية دارون Darwin's Theory في النشوء والارتقاء، إلى اللغة التركية.

وفي المعتقل، أصدر جريدة حائط، وكان يكتبها بخط يده، دعاها "ناقة الله" لإعلام وتسلية رفاقه السجناء، وكانت في البداية فكاهية هزلية، ثمّ جنحت إلى الجدية والتحليلات الإخبارية السياسية. وقد كانت تجمع الفكاهة إلى الانتقاد والمعالجة الحديثة للأخبار والمواضيع، وقد صدر العدد الأول منها سنة 1916، وصدر العدد 45، العدد الأخير، سنة 1917. وذكر الناشف، أن عارف العارف ما زال يحتفظ ببعض أعدادها في مكتبته، برام الله[158].

وأُعلنت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي، ووصلت أخبارها إلى المعتقل في سيبريا، وقرر العارف وعدداً من رفاقه المعتقلين العرب، الطلب إلى السلطات الروسية إطلاق سراحهم وتمكينهم من الالتحاق بمعسكرات الشريف الحسين بن علي، ورُفِضَ الطلب لأنهم اعتبروا أسرى عثمانيين. وتلاحقت الأحداث، وقامت الثورة الاشتراكية الروسية سنة 1917، ودكَّ البلاشفة Bolshevik عرش القيصر نيقولا الثاني Nicholas II، وقتلوه وزوجته وأولاده وتسلَّموا زمام الأمور، وسرت الفوضى والاضطراب في كل البلاد الروسية فاستغلها عارف العارف ورفاقه وتدبروا أمر هربهم. وعبر رحلة طويلة ومرهقة وصلوا إلى فلاديفوستك Vladivostok، حيث زار العارف القنصل البريطاني في تلك المدينة، وأوضحوا له حالهم وفرارهم ورغبتهم بالالتحاق بمعسكرات الشريف، وكان عددهم 22 ضابطاً وعسكرياً، فاتخذ القنصل الترتيبات لنقلهم على ظهر الباخرة "دنيره" إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، عن طريق جنوب شرق آسيا، عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر.

وحطَّت رحاله وأصحابه أرض الوطن سنة 1918، ليجد الأتراك وقد انسحبوا من القدس، والحرب قد انتهت، والهدنة أعلنت، وأطماع الصهاينة في إنشاء الوطن القومي في بلده قد باتت واضحة وقريبة، والانتداب البريطاني يجهّز ليُفرَض على فلسطين.

وما هي إلا فترة حتى عُيِّنَ معلماً في المدرسة الرشيدية الحكومية في القدس، غيرَ أنَّ اتجاهه إلى النضال من أجل الاستقلال القومي العربي، والوحدة العربية، ومعاداته للصهيونية؛ قد دفعه مع صديقه المحامي محمد حسن البديري لإصدار جريدة عربية سياسية أدبية، فأصدرا جريدة سورية الجنوبية، أسبوعية، ثمّ نصف أسبوعية. وصدر العدد الأول منها في 1919/9/8، وقد هاجمت الصهيونية هجوماً عنيفاً، وندَّدت بالسياسة البريطانية بخصوص فلسطين، ووعد بلفور، والهجرة اليهودية، والاستيطان، وانتزاع ملكية الأراضي، وتسهيل انتقالها إلى اليهود، وتبنَّت أهداف النادي العربي في الوحدة مع سورية، ومكافحة الصهيونية، وكان شعار النادي "أرضنا لنا"[159]. وقد دفع هذا الأمر السلطات البريطانية إلى تعطيلها في 1920/7/27 بعد سنة من صدورها[160]، وكان النادي العربي في ذروة نشاطه سنة 1920، وعارف العارف من أهم أعضائه البارزين.

وتوترت العلاقات العربية – اليهودية، وكانت هبَّة القدس في نيسان/ أبريل 1920 (أو ما يعرف بانتفاضة موسم النبي موسى)، وحدثت اشتباكات بين العرب واليهود،

أسفرت عن جرحى وقتلى، وعمّت المظاهرات والاضطرابات سائر أنحاء فلسطين. وكان الفلسطينيون قد أنشأوا "الجمعية العربية الفلسطينية"، وفاز عارف العارف بعضويتها الإدارية، وفي لقاء جماهيري حاشد، وفي ساحة باب الخليل، ومن شرفة مُطلَّة على الساحة، كان العارف واحداً ممن ألهب حماس الجماهير الذين تجمعوا للاحتفال بموسم النبي موسى[161]، وألقى كلمةً حرَّض فيها المحتشدين على ضرورة إدخال فلسطين ضمن الوحدة السورية، ومقاومة الهجرة اليهودية، ودعا إلى جمع كلمة الجمعيات الفلسطينية وتوحيد غاياتها[162]. وهتف بالشعار: أيها العرب، هذا ملككم (أي فيصل) فاتحدوا معه.

واندلعت شرارة الاشتباكات التي استمرت أسبوعاً بعد اتهام العرب لليهود بتلوين أحد أعلامهم، وسارعت السلطات البريطانية باتهامه والحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، بتدبير المظاهرات وإثارة حوادث العنف الدموية، فألقت القبض عليه يوم 1920/4/4. وبينما كان رجال الأمن يقتادونه للمثول أمام المحكمة العسكرية في القدس، وعلى حين غفلة من العساكر، أطلق ساقيه للريح، وولى هارباً عن طريق هضاب النبي موسى إلى البحر الميت، واجتاز بقارب إلى الكرك، صوب شرق الأردن، واختبأ عند القبائل البدوية. جدَّت السلطات البريطانية في محاولة إلقاء القبض عليه، ومن ثمّ صدر الحكم بحقه وزميله الآخر الهارب الحاج أمين الحسيني بالسجن لمدة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة. وقد اختفى ليظهر في دمشق عضواً مشاركاً في المؤتمر السوري، الذي أعلن استقلال سورية ووحدة أراضيها، ومبايعاً للفيصل بن الحسين ملكاً على سورية. وفي 1920/5/31 شارك العارف في اجتماع، عُقد في دمشق، تقرر فيه تأليف الجمعية العربية الفلسطينية واختير أميناً عاماً للجنتها الإدارية، وقد احتجت الجمعية على قرارات مؤتمر سان ريمو San Remo Conference، ورفضت تعيين هربرت صموئيل، اليهودي الصهيوني مندوباً سامياً على فلسطين، وناشدت البابا مناصرة قضية فلسطين، والاحتجاج على السياسة البريطانية في فلسطين[163].

ولما وصل هربرت صموئيل إلى فلسطين رأى أنه لا بدّ من التقرب إلى العرب خداعاً، فأصدر فور وصوله ما سماه "بالعفو العام"، شمل جميع الذين شاركوا في هبَّة نيسان/ أبريل 1920، وإطلاق سراح الموقوفين، وسمح للفارين بالعودة. واستُثْنِيَ من العفو العام، الحاج أمين الحسيني، وعارف العارف، إلا إذا استسلما للبريطانيين، كونهم صدر بحقهم أحكام قضائية، ولم يعد الاثنان إلى وطنهم.

وحدثت تطورات في سورية، أفضت إلى احتلال الجنرال غورو Henri Gouraud مدينة دمشق، ومخافة إلقاء القبض عليه وتسليمه للسلطات البريطانية في فلسطين غادر عارف العارف دمشق، مُيمماً شطر شرقي الأردن، متنقلاً ومختفياً بين مضارب البدو حتى وصل مدينة السلط واختفى فيها، وحين زار هربرت صموئيل مدينة السلط، قدم شيوخها وأعيانها التماساً له، طالبين الصفح عن العارف، فاستجاب هربرت صموئيل، وسمح له بالعودة. كما عفا عن الحاج أمين.

ويبدو أن عارف العارف قد أضناه التنقل والترحال، من هربٍ إلى هرب، ومن ترحال إلى ترحال، ومن تخفٍّ إلى تخفٍّ، ومن معتقل إلى معتقل، وبدا الجميع عنده وكأنهم كلهم سجَّان يمسك بيد سجَّان، وكنظرة واقعية رأى أن أفضل طريق لنيل المطالب، هو التعاون مع حكومة الانتداب في فلسطين، ومحاولة إقناع السلطات البريطانية بعدالة هذه المطالب، ومثله كثيرون من النخبة السياسية آنذاك. فانخرط في الوظائف الإدارية في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، واستفاد من مؤهلاته العلمية وخبرته الصحفية والعسكرية والسياسية، فعُيِّن سنة 1920 قائمقام في جنين، وكانت مدينة صغيرة، ثمّ قائمقام في نابلس سنة 1924، وبيسان سنة 1925، ويافا سنة 1925[164].

وفي سنة 1926 استعير العارف أميناً أول لحكومة شرق الأردن، حيث أمضى عامين، ومن ثمّ اعتزل العمل في نيسان/ أبريل 1929 لأسباب ما زالت موضع تحليل دون جزم، فكتابه "عامان في عمّان" ظلّ حبيساً أدراج مكتبته في رام الله، ولم ينشر لا من قِبَله ولا من قِبَل أولاده.

وفي سنة 1929 عُيِّن قائمقام لبئر السبع، ومديراً لشؤون البدو، وأمضى هناك عشر سنوات، انتقل خلالها للعمل كقائمقام في غزة سنة 1935، ثمّ نقل فيما بعد سنة 1943 ليكون قائمقام في رام الله، وبقي في منصبه حتى انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين سنة 1948.

ولا نستطيع الجزم بدوره في الحياة العامة في فلسطين بصورةٍ قاطعة، إلا بعد اطلاعنا على جميع المصادر العربية، فضلاً عن ملفات المحفوظات البريطانية والأرشيفات الصهيونية وغيرها، المتصلة بمواقفه وإجراءاته. وكان له دور في الحياة الاجتماعية للمجتمعات التي تولى السلطة فيها، فقد عمل على ترقيتها، وتصدى لحلِّ قضاياها ومشاكلها بطرقٍ حسنة. أما قضايا الأمن والثورة والثوار فلا نقطع فيها برأي، وحاول

خدمة مجتمعه من خلال العمل الإداري الحكومي السلمي، ولذلك كان ضمن كبار الموظفين الفلسطينيين تحت الإدارة البريطانية، وظلّ يتقاضى الراتب التقاعدي من الخزينة البريطانية حتى أواخر أيام حياته. وفيما عدا توقيعه مع آخرين على مذكرة كبار الموظفين العرب في فلسطين إلى المندوب السامي، بخصوص السياسة البريطانية في البلاد، سنة 1936، لا نجد له أي نشاطٍ غير وظيفته[165]. ويظهر أن الأستاذ العارف حدد مجالات تركيزه في العمل الإداري وفي البحث والكتابة الأكاديمية، وخصوصاً تلك التي تتعلق بأرض فلسطين وشعبها، ليكون بعد ذلك أحد أبرز المؤرخين الفلسطينيين المعاصرين.

إثر النكبة سنة 1948، ذهب إلى عمّان، فاستقبله الملك عبد الله بحفاوةٍ بالغة، وأنعم عليه بلقب الباشوية[166]. وفي العهد الأردني أيضاً، كان نائب الحاكم العسكري العام في منطقة رام الله سنة 1949 لمدة سنة. ثمّ انتدب رئيساً لبلدية القدس سنة 1950، وفاز برئاسة البلدية عن طريق الانتخابات سنة 1951، ثمّ عزل بمرسوم في 1951/11/4 لخلافٍ مع رئيس الوزراء الأردني، توفيق أبو الهدى، بسبب خطاب ألقاه ترحيباً بالملك طلال أثناء زيارته للقدس في 1951/10/30، فُسِّر عكس ما قصده العارف.

ثمّ أعيد انتخابه سنة 1955 لرئاسة بلدية القدس، وكان في الوقت نفسه رئيساً للجنة التنفيذية لرابطة المناضل الجريح، وعضواً في المجلس الاستشاري لدائرة السياحة، واختير في أواخر سنة 1955 وزيراً للأشغال في وزارة لم تعمِّر إلا أياماً ثلاثة، بسبب أحداث حلف بغداد والمظاهرات الصاخبة التي عمَّت جميع مناطق الأردن، ثمّ عُيِّنَ مديراً للمتحف الفلسطيني للآثار سنة 1963 حتى احتلال الضفة الغربية في 1967.

كان هول ما سمي بالنكسة مذهلاً على نفسية وشخصية عارف العارف، فتخلى عن ولاءاته السابقة، واكتفى بعضوية الهيئة الإسلامية في القدس، ومن مهامها الحفاظ على الأوقاف في القدس والضفة الغربية. وكان حاداً في مواقفه اتجاه الأحداث التي عصفت بالثورة الفلسطينية في الأردن 1970-1973. ويظهر ذلك بوضوح في مذكراته: عمّان تحترق[167]، وكان مع أبناء قومه في صراعهم مع الإسرائيليين، يشجب ويُنَدِّدُ ويستقبل رجال الصحافة الأجنبية، ويعطي الأحاديث الصحفية المنددة بالسياسة الإسرائيلية، ويدعم مؤسسات المجتمع المدني في وطنه، وخاصة جمعية إنعاش الأسرة في رام الله.

لقد بلغ العارف من العمر عِتِيّاً، وتاقت نفسه لزيارة منزله في القدس الغربية، الكائن في حي البقعة، وحملت رجلاه جسمه الضعيف بتؤدة إلى ربوع مدينته، ووطئت قدماه ثرى بيته، ورأته مستوطنة يهودية تحتل وتأخذ مكانه في بيته، وعرفت أنه صاحب البيت الذي تحتله والذي بناه من ماله فوق أرضه، فطردته شر طردة، وصرخت في وجهه وكشرت، فعاد كسير الخاطر، جريح الفؤاد، والدمع يترقرق بين جفونه، ملكت عليه المأساة كل كيانه، لا تفارقه الليل والنهار، حتى نقل إلى مستشفى في رام الله، قريب من بيته في البيرة، فقد أصيب بجلطةٍ دماغية بتاريخ 1973/7/20، وفارق الحياة إلى الرفيق الأعلى، وقد رثاه الأصدقاء، وتحدثت بفضائله الصحافة والكُتّاب، وستظل ذكراه تدور مع الأيام.

مصنفات عارف العارف:

وضع عارف العارف العديد من المؤلفات في التاريخ والاجتماع والسياسة كان محورها وطنه فلسطين بصورةٍ عامة، ومدينته الخالدة بيت المقدس، وقضايا أمته خاصة، وما تعانيه بلده من عسف بريطاني وأطماع يهودية صهيونية. إضافة إلى الطوائف الفلسطينية الأخرى من أهالي وطنه، النصارى واليهود. ولقد أولى القبائل البدوية في جنوب فلسطين عناية خاصة، ومع أنه كان يحاول استقصاء المصادر والمراجع المتصلة بالأبحاث التي يتصدى لها، فإن الروايات الشفوية كانت واحدةً من أهم المصادر التي اعتمد عليها، فهو يعدّ بحقّ أحد رواد كتابة التاريخ الشفوي، مع ما يعتور التاريخ الشفوي من مظانّ وجرح في بعض الأحيان، لأن كل مقابلة أو لقاء مع الراوي تتطلب إعداداً دقيقاً، ومراعاة للمعايير النقدية إزاءها، وخاصة في مؤلفاته التي سجّل فيها أحداث نكبة سنة 1368هـ/1967م وحتى سنة 1392هـ/1971م.

لقد كان للوظائف الرسمية الإدارية التي تولاَّها، سواء في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين أم في العهد الأردني، والنفوذ السلطوي الذي حظي به إثرهما في اتصاله بالرواة في مناطق ولايته، والذي مكّنه من مشاهدة المواقع الجغرافية التي يكتب تاريخها، وتقصى الأحداث التي وقعت بها وحتى صناع الأحداث؛ دور جعل عارف العارف يبدو وكأنه شاهد عيان في البعض، ومستقصٍ ومدقق وناظر وباحث في البعض الآخر. واللافت للنظر، إفراد العارف المصنفات العديدة لمدينته الخالدة بيت المقدس بالدرجة الأولى، ثمّ منطقة جنوب فلسطين، بئر السبع والنقب وغزة وعسقلان. ولا غرو في ذلك، فقد قضى في المنطقة عشر سنوات (1929-1939)، حاكماً إدارياً (قائمقام) لها، وتنقل بين

بقاعها وأنقابها وتلالها، وعرف قبائلها وشيوخها وما ملكوه من أراضٍ، ومن ثمّ الأطماع الصهيونية في اغتصاب أراضيها، علاوةً على مصنفاته الأخرى التي سنعرض لها.

مؤلفات عارف العارف حول القدس وحرمها الشريف وقبة الصخرة المشرفة:

1. **المفصل في تاريخ القدس:** طبع في القدس، مطبعة المعارف، شوال 1380هـ الموافق نيسان/ أبريل 1961م، ويقع الجزء الأول في 569 صفحة. وجاء الكتاب في ثمانية أبواب، حوت القدس في العهود الغابرة، وقدم معلومات تاريخية تثبت عروبة المدينة المقدسة قبل وصول الإسرائيليين، وركَّز على الطابع العربي للمدينة عبر العصور منذ الفتح الإسلامي والقدس وعمر بن الخطاب، ثمّ الأطماع الغربية الأوروبية من خلال الغزو الفرنجي للأرض المقدسة (الحروب الصليبية)، وصلاح الدين وتحريرها واستراتيجيته، والقدس وأحفاد صلاح الدين، والقدس في عهد المماليك، والمدارس في القدس القديمة ثمّ في عهد الأتراك العثمانيين ومعالم الحكم التركي فيها، والاحتلال البريطاني للمدينة، والقدس كما رآها في مطلع سنة 1947. وكان الفصل الثامن والأخير للأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية واليهودية وقد اعتمد فيه المؤلف على مصادر عربية وتركية وإنجليزية وألمانية وفرنسية، فقد استقصى وبحث في 97 مصدراً عربياً و11 مصدراً تركياً و65 مصدراً إنجليزياً و7 مصادر ألمانية و10 مصادر فرنسية. وقد أعادت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طبعه سنة 2005.

2. **الموجز في تاريخ القدس:** طبع في القاهرة، دار المعارف، سنة 1951، وقد ترجم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو تلخيص وإبراز لتاريخ المدينة.

3. **تاريخ الحرم القدسي:** طبع في القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، سنة 1366هـ/1947م، ويقع الكتاب في 123 صفحة. وقد أهداه إلى عبد الملك بن مروان، باني الحرم وموطِّد كيان العرب والإسلام في هذه البلاد (فلسطين). وتناول فيه قيمة المسجد الأقصى في نظر العرب والمسلمين، ثمّ مسجد الصخرة وبناءه، وأوصاف المؤرخين له عبر العصور، وفناء الصخرة والقباب والمساطب والمآذن والأروقة والأبواب والمياه والحرم بوجهٍ عام، وضمنه أكثر من أربعين صورة، وأفرد مساحةً واسعةً لإعمار الصخرة والحرم عبر العصور، وقد ترجم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

4. **تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى:** طبع في القدس، مطبعة دار الأيتام، سنة 1958. وقد أضاف إليه ما حصَّله من مادة علمية إلى كتابه السابق، وخاصةً الفن والمعمار، تحفة فنية رائعة، وبراعة هندسية متكاملة.

5. **المسيحية في القدس:** طبع في القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، سنة 1951. وقد تتبع تاريخ المسيحية في المدينة، والأماكن الدينية المسيحية، والتعايش بين المسلمين والمسيحيين فيها، وما كان يحدث بين الطوائف المسيحية حول الأولوية في الأماكن الدينية المسيحية، ودور المسلمين في تحقيق السلم الاجتماعي بينها. وترجم إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

أما جنوب فلسطين، بئر السبع والنقب وغزة وعسقلان، فقد صنّف فيها المؤلفات التالية:

1. **القضاء بين البدو:** طبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، سنة 1351هـ/1933م. وكُتِبَ على صفحة عنوانه: تأليف عارف العارف، قائمقام بئر السبع. ويقع في 265 صفحة. وقد ترجم إلى العبرية والإنجليزية والألمانية.

2. **تاريخ بئر السبع وقبائلها:** طبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، سنة 1934.

3. **تاريخ غزة:** طبع في القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، سنة 1943. وقد تُرجِمَ إلى الألمانية والعبرية والإنجليزية.

4. **الموجز في تاريخ عسقلان:** طبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، سنة 1943. وقد تُرجِمَ إلى الألمانية والعبرية والإنجليزية.

وجاء كتابه **القضاء بين البدو** في عشرة أبواب، عرض فيها؛ لعرب بئر السبع وأصولهم العربية الضاربة في بطون وأعماق التاريخ. وعرض أيضاً للقضاء بينهم ومحاكم العشائر عندهم، لا سيّما وأنه بحكم مركزه الإداري يرأس تلك المجالس. وتحدث عن مراتب قضاة البدو ووسائلهم في دفن الحصى وقرطها واليمين وحوادث القتل وإجراءاتها للقصاص أو الصلح (العطوة، والجيرة، والوجه، والبشعة، والدية)، والسرقات (العداية والوساقة، والحسنى). وتناول المرأة البدوية (حقوقها وواجباتها، والوراثة، والزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، والزنا) وكتب عن الحيوان (الخيل والإبل والوسم، والمرعى، والمياه وحقّ الشرب). وتناول الرحيل (الظعن والرحيل والسلام

وحقّ الضيف، وحقّ الطنيب، والقهوة والغزو). وعرض أيضاً للتجارة والاقتصاد (المحل أي الجدب، والخصاب، وأحوال البدو الاقتصادية، والبيع والشراء والأراضي، والطب بين البدو، ومعتقدات البدو)، وضمن الكتاب عشرات الصور.

ومع أن الكتاب يسجل ما عرفه من المصادر وما رواه له المشايخ والرواة، إلا أن الكتاب أُخرج عن سياقه وغاياته عندما استُغِل من قبل الصهاينة والمؤسسات الأوروبية الداعمة للصهاينة، وتُرجِمَ إلى عدة لغات، وجرى توزيعه بصورة واسعة لإظهار مدى التخلُّف عند أهالي فلسطين، وبعدهم عن التطور والتقدم الحضاري والمدني في أوروبا وأمريكا. انظر على سبيل المثال: ما تُرجم منه في كتاب Bedouin: Love, Law and Legend سنة 1944 (وتُرجمت فصولٌ منه إلى العبرية).

ومن الجدير بالذكر أن الحركة الصهيونية، ما كانت تترجم وتنشر في ترجماتها إلا ما اتصل بها من تاريخ اليهود دون غيره، والتغاضي عن كل ما عداه وتذيعه من باب الدعاية المكذوبة من أساسها.

أما كتابه، **بئر السبع وقبائلها**، فقد انتهى منه إلى أن العرق العربي الأصلي شكَّل 70% من السكان المسلمين لفلسطين وشرق الأردن[168]. ويذكر في مقدمة كتابه (**أوراق**)، المجموعة الرابعة، القسم الثاني: "عندما انتدبتني حكومة فلسطين في عهد الانتداب قائمقام للمقام ومديراً لشؤون البدو في بئر السبع 1929-1939، صرفت جُلَّ اهتمامي للتعرُّف على البدو المقيمين في ذلك القطاع، وأخلاقهم وطبائعهم، والأساليب التي يتبعونها في حلِّ الخلافات بين أفرادهم أو بينهم والقبائل الأخرى، وعادات وقيم محاكم العشائر عندهم"[169].

وجاء كتابه في ستة أبواب، حيث درس بئر السبع وقبائلها في الكتب والأسفار، وفي الطلول والآثار، وفي الأحاديث والأخبار، والحروب الأهلية، وديرة السبع على ممر الأحقاب، وديرة السبع في يومنا هذا.

وحين أحصاهم ولأول مرة في التاريخ، كان عددهم 150 ألفاً وينتمون إلى سبع قبائل كبرى هي: الترابين والتياها والعزازمة والجبارات والحناجرة والسعيديين والأحيوات، وبلغت عشائرهم 83 عشيرة. وهو بخلاف ما كانت تُذيعُه المنظمات الأوروبية واليهودية والصهيونية.

وفي ملتقى أبناء البادية علّق جهاد أبو غرابة، عمّا أغفله العارف عن عشيرته النصيرات في كتابه المشار إليه[170].

وكتابه **تاريخ غزة** أرَّخ فيه لتاريخ المدينة منذ أقدم العصور حتى زمانه، ومدنها وقراها وجغرافيتها وطبوغرافيتها، وما تعانيه من أطماع الصهاينة وظلم الإنجليز. وكذا كتابه **الموجز في تاريخ عسقلان**، والذي بحث فيه تاريخ المدينة من 3750ق.م إلى 1948 للميلاد، وفيه يثبت عروبة المدينة وعروبة سكانها.

وقد وضع حلمي أبو شعبان كتاباً بعنوان: تاريخ غزة، نقد وتحليل، طبع في القدس، مطبعة بيت المقدس، 1943، تجاهلته الحركة الصهيونية تماماً، ولم تُشِر إليه بوجهٍ من الوجوه.

ومن كتب عارف العارف الأخرى:

1. النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود: طبع في صيدا، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، سنة 1956-1965، في ستة مجلدات. وفي مقدمة كتابه، يذكر العارف أن سبب تسمية مصنفه بهذا الاسم، لأن العرب عامةً والفلسطينيين خاصة نكبوا خلال هذه الحقبة من الزمن بما لم ينكبوا بمثله منذ قرون، ومن واجبه تدوين الحوادث كما حدثت قبل أن تنسى. ويضيف أنه سجّلها بأمانة ونزاهة، لم يتملق أحداً كان من الناس، ملكاً كان أم زعيماً، حاكماً أم محكوماً، غنياً أم فقيراً ولا شايع فئةً من الناس[171].

وينبّه العارف إلى أنه تحدّث بإسهاب عن حوادث القدس وما جاورها من البقاع، بينما تحدث باقتضاب عن المدن والبقاع الأخرى، وذلك لأنه طوال الفترة كان بالقدس وجوانبها، وحضر أكثر المعارك التي جرت وإن لم يشارك بنفسه فيها، فله قدرةٌ على التمحيص لأنه قريبٌ من الميدان، وعلى صلة بالقائمين على الأمر[172].

وجاءت مجلدات كتاب النكبة كما يلي:

- **المجلد الأول:** ما جرى في فلسطين من اليوم الذي صدر فيه قرار التقسيم 1948/11/29 إلى اليوم الذي انتهى فيه الانتداب البريطاني، وانسحاب الجيش البريطاني من البلاد، 386 صفحة.

- **المجلد الثاني:** منذ دخول الجيوش العربية في 1948/5/15 إلى أول يوم بدأت فيه الهدنة في 1948/6/11، 204 صفحة.
- **المجلد الثالث:** أخبار المعارك التي جرت بعد الهدنة الأولى، وما جرى في غُضونِها حتى استئناف القتال في 1948/7/9، وما قبل بداية الهدنة الثانية، 285 صفحة.
- **المجلد الرابع:** معارك النقب الأخيرة، مؤتمر أريحا، اتفاقيات الهدنة في رودس Rhodos والخسائر بالأرواح والأملاك، 198 صفحة.
- **المجلد الخامس:** نصّ قرار التقسيم، مؤتمر بلودان ونصّ الهدنات بين العرب و"إسرائيل"، وقضية اللاجئين، 175 صفحة.
- **المجلد السادس:** سجل الخلود لشهداء النكبة من الفلسطينيين ومن العرب والأجانب الذين ضحُّوا بأرواحهم لفلسطين وشعبها 1947-1952، 303 صفحة.
- **المجلد السابع:** صور من النكبة، التقطها واختارها العارف.
- **المجلد الثامن:** طريق العودة، كان يطبع سنة 1965 ولا ندري مصيره.

في المجلد الأول: تناول المؤرخ إحالة بريطانيا، الدولة المنتدبة، قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة في 1947/4/2، وما جرى في دهاليز وأروقة الأمم المتحدة، وتكالب القوى الكبرى حتى صدور قرار التقسيم، وما تلاه من تفجُّر العنف في كافة أنحاء فلسطين. ويفصّل في المعارك التي أعقبت مؤامرة بريطانيا في الانسحاب من فلسطين، والتواطؤ البريطاني في نصرة العصابات الصهيونية، وكذا التخاذل والتظاهر العربي في نصرة شعب فلسطين في المحافل الدولية، والمجازر الصهيونية ضدّ العرب، وخاصة مذبحة دير ياسين وغيرها. ويقف المجلد عند 1948/5/14.

في المجلد الثاني: سجَّل العارف وقائع العدوان الصهيوني على مدن وبلدات وقرى فلسطين غداة إعلان دولة الكيان الصهيوني في 1948/5/15، ودخول الجيوش العربية وفرق المجاهدين والمتطوعين، ويستقصي المعارك ونتائجها، وسقوط المدن والبلدات والقرى العربية بيد الصهاينة بمساعدة بريطانيا والغرب الأوروبي وأمريكا، ويركز على معارك القدس. ويلقي أضواءً على وصول فرقة التدمير إلى القدس القديمة في 1948/5/23، واشتداد المعارك، وقبول اليهود وقف القتال والعرب يرفضون، والهجوم على منازل اليهود في البلدة القديمة ومن ثمّ اجتياحها، وسقوط حارة اليهود ومحاصرة

اليهود، وقبولهم الاستسلام، واقتراب المشروع الصهيوني في إقامة الدولة والوطن القومي ليهود الشتات من نهايته، ولكن تواطؤ بعض الزعامات العربية قلبت النتائج، وأدخلت المؤن والأسلحة والعتاد إلى اليهود المحاصرين بعد قبولهم هدنة مؤقتة لساعات، فتحول مصير المعركة لصالح الصهاينة، واحتلوا ما سمي آنذاك القدس الجديدة.

في المجلد الثالث: يؤرِّخ عارف العارف للمعارك بين اليهود من جهة والعرب من أهالي فلسطين والمتطوعين والجيوش العربية من جهة أخرى، ويتتبع مواقف الملوك والرؤساء العرب إزاء تفجُّر الأعمال الحربية، واشتداد المعارك في كل أنحاء فلسطين، والاجتماعات والمؤتمرات العربية، والتدخلات والمؤامرات الدولية حتى دعوة مجلس الأمن إلى إقامة هدنة دائمة في فلسطين، بتاريخ 1948/11/16.

وفي المجلد الرابع: يتابع عارف العارف بسط فصول المؤامرة على فلسطين، من خلال اتفاقيات الهدنة مع الدول التي دخلت جيوشها لإنقاذ فلسطين، وخرجت خائبة مدحورة، ويبين كيف خنع الزعماء العرب، وحتى لجان الهدنة العسكرية العربية للعصابات الصهيونية، وتنازلت عن بلدات وقرى كانت تحت السيطرة العربية، كالمثلث والنقب. ويتحدث عن اختراقات العصابات الصهيونية للاتفاقيات، واحتلال العديد من المناطق بعد توقيع اتفاقيات الهدنة، وإلحاق ما تبقى من فلسطين بالمملكة الأردنية الهاشمية بعد مبايعة الملك عبد الله في 1949/1/25 ملكاً على الدولة المتحدة الجديدة، شرقي الأردن وما سُمِّيَ بالضفة الغربية، وتقف الأحداث عند مذبحة قبية في 1953/10/14.

أما المجلد الخامس: فقد حوى وثائق قرار التقسيم ومحاضر ونصوص قرارات مؤتمرات الزعماء العرب واتفاقيات الهدنة، وركَّز على القرارات المتصلة بالقدس ومصيرها، ثمّ ذيَّل له بـ 14 ملحقاً، كان الملحق 12 خاصاً بالملك عبد الله، والملحق 13 خاصاً بجلوب باشا Globb (أبو حنيك)، والملحق 14 لما سُمي قضية اللاجئين.

وفي المجلد السادس: وقصره على شهداء النكبة، وسمّاه سجل الخلود من الفلسطينيين والعرب والأجانب الذين ضحُّوا بأرواحهم لفلسطين وشعبها 1947-1952، وأورد أسماءهم والمعارك والأماكن التي استشهدوا فيها، وكانت حصيلة ما سجَّله 16,534 شهيداً، توزيعهم كما يلي:

جدول 1/2: جنسية الشهداء الذين ذكرهم عارف العارف في كتاب النكبة

الجنسية	عدد الشهداء
فلسطينيون	13,000
مصريون	1,161
أردنيون	562
سوريون	511
عراقيون	399
سعوديون	173
لبنانيون	161
ليبيون وتونسيون وجزائريون ومغاربة	55
متطوعون في جيش الإنقاذ، وهم من أكثر من بلد.	512
المجموع	**16,534**

وفي المجلد السابع: صور التقطها أو اختارها مما كان ينشر أو حصل عليها من هواة ومحترفي التصوير، وهي ناطقة بعمق المأساة.

وفي المجلد الثامن: طريق العودة، ما زال تائهاً، ولم يعرف مصيره، يبحث عن صلاح الدين ليعبر الطريق مجاهداً محرِّراً، وإلى الله المشتكى، نعمَ المولى ونعمَ النصير.

2. أوراق عارف العارف: ست مجموعات، نشرت في بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، الدار العربية للموسوعات، 1973.

المجموعة الأولى:

- سجل الخلود، أسماء شهداء حرب فلسطين سنة 1967، 70 صفحة.
- الفلسطينيون في سجون إسرائيل، 1967-1972، 168 صفحة.

المجموعة الثانية:

- المعذَّبون في السجون الإسرائيلية من أبناء فلسطين 1967-1972، 372 صفحة.
- الفلسطينيون المبعدون عن بلادهم، 1967-1971، 194 صفحة.

المجموعة الثالثة:

- الدور الفلسطينية التي هدمها الإسرائيليون، 1967-1972، 194 صفحة.
- غزة نافذة على الجحيم، 364 صفحة.

المجموعة الرابعة:

- أحداث رفح ومأساة البدو من أهلها، 48 صفحة.
- مأساة البدو في النقب وقطاع بئر السبع، 251 صفحة.

المجموعة الخامسة:

- مآخذي على الحكم الإسرائيلي في القدس، 165 صفحة.
- مذكراتي عن نشاط المقاومة الفلسطينية 1970/5/18-1973/12/27م، 207 صفحة.

المجموعة السادسة:

- مذكراتي عن المساعي السلمية، 155 صفحة.
- عمّان تحترق، مذكراتي للعام 1971م، 194 صفحة.

ويذكر عارف العارف أن عدد الشهداء الذين لاقوا وجه ربهم في حرب حزيران/ يونيو 1967، وما أعقبها من أحداث خلال السنوات المنصرمة 14,373 شهيداً[173].

وفي القسم الثاني من المجموعة الأولى يقول:

> ألهمني ربي أن أسجل في مذكراتي، هذه المذكرات التي لم انقطع عن تدوينها يوماً واحداً منذ نشب القتال بين العرب واليهود في حرب حزيران 1967، أسماء الفدائيين من أبناء فلسطين الذين اعتقلوا سواء إثر اشتباكهم مع القوات الإسرائيلية أو أثناء قيامهم بحركات مقاومة لسلطات الاحتلال وصدرت ضدهم أحكام مختلفة من المحاكم العسكرية الإسرائيلية[174].

وقد تمكَّن من إحصاء 1,678، منهم 1,598 فتية ذكور و80 فتاة ومنهم:

- 1,198 سجيناً صدرت ضدهم أحكام دون عشر سنين.
- 295 سجيناً صدرت ضدهم أحكام أكثر من عشر سنين.
- 185 السجن مدى الحياة؛ 181 شاباً و4 فتيات هُنَّ: فاطمة برناوي، رسمية عودة، عائشة يوسف عودة، وعفيفة فراج بنورة.

ويؤكِّد عارف العارف أنه لم يُسجِّل أسماء جميع المعتقلين الموجودين في سجون "إسرائيل"، وإنما ما وسعه الجهد وهو شيخ في الثمانين من عمره، ويناشد الكافة إبلاغه عن كل من لم يسجل اسمه في قوائم المعتقلين[175].

أما في أوراق المجموعة الثانية فجمع من الصحافة العبرية والإذاعة والتلفزيون الإسرائيلي، ومن وقائع المحاكمات والشهادات، والتقارير الصادرة عن هيئات حقوق الإنسان، ومن الذين أفرج عنهم بصفقات التبادل بين المنظمات الفدائية و"إسرائيل" لأكثر من 350 حالة لأشخاص عذّبوا، ووصف بكل دقة أساليب العدو الإسرائيلي في التعذيب وألوانه، مما يستدعي دراسة جادة من قبل الباحثين[176].

وفي القسم الثاني من المجموعة أورد أسماء 1,447 مبعداً من الأرض المحتلة سنة 1967[177].

وفي المجوعة الثالثة، القسم الأول، ذكر الدور التي هدمها الإسرائيليون. ويذكر في المقدمة أنَّه كان يزور مواقع تلك الدور ويصطحب معه مصوراً، ففي القدس على سبيل المثال هدمت "إسرائيل" 460 منزلاً حتى 1971/8/31، إضافةً إلى 1,475 منزلاً ومتجراً ومسجداً ومدرسةً هدموها في حارة الشرف[178]، وكثيرٌ منها من أملاك الأوقاف. ويثبت الأوامر الإسرائيلية بالمصادرات والاستملاك، أو نسف البيوت. ويتابع في نابلس وقراها، وغزة وتوابعها، وجنين وقلقيلية والخليل وتوابعها، وحتى قرى البدو.

أما القسم الثاني من المجموعة فقد عرض للهمجية الإسرائيلية في تعذيب وتشريد وتقتيل وحرق وهدم واعتقال ونفي البشر والحجر في القطاع وتوابعه[179]، وكانت مذكراته يومية ابتداءً من 1967/6/5 وحتى 1971/12/29، وألحقها بأسماء المحكوم عليهم في غزة وقطاعها، وعدد الدور التي هدمها الإسرائيليون أو نسفوها وأسماء أصحابها.

وفي المجموعة الرابعة بقسميها دوَّنَ ووثَّقَ مأساة رفح والبدو من أهلها، ومأساة البدو في النقب وقطاع بئر السبع، وذلك باستيلاء سلطات الاحتلال الإسرائيلي على أراضيهم وانتزاعها منهم ظُلماً وعدواناً، وتُقدَّر مساحة الأرض بأكثر من 40 ألف دونم، وشرّدت أكثر من 15 ألفاً[180].

وفي القسم الثاني، يؤرِّخ للنقب وبئر السبع ثمّ يُرَكِّز على شهداء المنطقة، وإجراءات اليهود من تدمير المنازل وأسر الشباب والشابات، والمعارك التي وقعت والحروب فيها، ومساحة الأراضي التي سيطر عليها اليهود وتبلغ 20,513,534 دونماً[181]. ويعرِّج على حادثة التواطؤ وتسليم منطقة الرشراش على خليج العقبة، ويواصل تسجيل وتوثيق إجراءات الصهاينة لتهويد المنطقة ومصادرة أراضيها[182].

وفي المجموعة الخامسة، القسم الأول، تناول الأحداث التي وقعت في القدس سنة 1971 وسنة 1972، ومذكراته عن الفترة وما شاهده أو نقله إليه الثقات، والمصادرات للأراضي وانتزاع الملكيات من أصحابها في المدينة.

والقسم الثاني من المجموعة، كانت مذكراته فيها عن نشاط المقاومة الفلسطينية من 1970/5/18-1972/12/27 ويُمهِّد: "ظلموهم فنعتوهم بالمخرِّبين وما هم بمُخرِّبين بل هم فدائيون...". إلى أن يقول "بل هم طُلاَّبُ حرية، ودعاة رحمة، وناشدو حق مغتصب"[183]. ويُسجِّل ما وسعه الجهد عن العمليات العسكرية (الفدائية)، ضدّ سلطات الاحتلال، والمستوطنين والشهداء والأسرى من الفدائيين، ونماذج من محاكمات الأسرى.

أما في المجموعة السادسة، فتناول في مذكراته المساعي السلمية. ويبدأ بمقترحات وليام روجرز William Rogers، وزير الخارجية الأمريكية، والموقف الشعبي والمنظمات الفدائية منها، وغاب عنها أحداث أيلول الأسود سنة 1970، ثمّ الاقتراحات التي توالت حتى 1971/12/31[184].

والقسم الثاني من المجموعة: عمّان تحترق، هي مذكراته لسنة 1971، وفيه يظهر مدى التغير الذي حدث على مواقفه من الأردن[185]، وتقف مذكراته عند يوم الجمعة 1971/12/31[186].

كان من طبع عارف العارف أن يُدوِّن مذكراته ويومياته، وأن يرصد ويُسجِّل الأحداث التي يعايشها يومياً، مُنَقِّبَاً، ومُفتِّشاً، وسائلاً، وباحثاً عن التفاصيل بلا كَلَل، ولقد واظَب على عمله هذا زُهاء خمسين عاماً.

أما مؤلفاته الأخرى، والتي لم نطَّلع عليها، وإنما أوردتها الدراسات وبعض المراجع فمنها:

- **رؤياي**: طبع في القدس، مطبعة الآباء الفرنسيين، سنة 1943. وقد ضمنه أحلام ذهبية مشرقة، فتنبأ بقيام الجامعة العربية.
- **رحلة في الظلام بحثاً عن النور:** طبع في بيروت، دار الفارابي.
- **مرقص العميان:** طبع في القاهرة، دار الفكر العربي، سنة 1947. وقد تُرجِمَ إلى التركية الكتاب المعروف Die Welträtsel لمؤلفه الألماني البروفسور إرنست هيجل وسماه "أسرار الكون"[187].

ومن الكتب المخطوطة التي لم تطبع:

- **كنت أسيراً.**
- **ثلاثة أعوام في عمّان.**
- **الكويت، ماضيها وحاضرها.**
- **موجز سيرته بالعربية والإنجليزية.**

وعلى أيٍّ حال، ومهما قيل عن عارف العارف، فإنَّ تُراثَهُ سيظلُّ حاضراً في التاريخ الفلسطيني.

هوامش الفصل الأول

[1] محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت) (بالتصوير)، ج 2، ص 157-158؛ وأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ** (حيدر أباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1974)، ج 7، ص 81؛ وعبد الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب** (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، ج 7، ص 109؛ وأبو اليُمن مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (عمّان: مكتبة المحتسب، 1973)، ج 2، ص 110-111.

[2] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 110؛ وقدري طوقان، **تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات** (القاهرة: دار القلم، 1963)، ص 493؛ وعبد الجليل حسن عبد المهدي، **المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ودورها في الحركة الفكرية** (عمّان: مكتبة الأقصى، 1981)، ج 1، ص 235-239.

[3] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 157؛ وابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج 7، ص 81؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 110؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 109.

[4] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 6، ص 85-90؛ وابن الهائم المقدسي، **المعونة في علم الحساب الهوائي**، تحقيق خضير عباس المنشداوي (بغداد: جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1982)، ج 1، ص 1؛ ومحمد الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع**، ج 1، ص 506-507؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 51-52.

[5] جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964)، ج 1، ص 427؛ وابن الهائم المقدسي، **المعونة في علم الحساب الهوائي**، ج 1، ص 11؛ وأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة** (حيدر أباد الدكن: 1929-1931)، ج 1، ص 60.

[6] ابن الهائم المقدسي، عمل المناسخات بالجدول، مخطوط محفوظ في مكتبة راغب باشا السليمانية، إسطنبول، رقم 5/569 الورقة 1؛ وابن الهائم المقدسي، **المعونة في علم الحساب الهوائي**، ج 1، ص 11-12.

[7] ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج 2، ص 275؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 4، ص 171؛ ومحمد الشوكاني، **البدر الطالع**، ج 1، ص 354.

[8] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 157.

[9] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 110؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 109؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 157-158، وج 11، ص 63؛ وابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج 3، ص 443.

[10] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 112.

[11] **المرجع نفسه**.

[12] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 43؛ وكامل جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس** (عمّان: مؤسسة آل البيت، 1981)، ص 38.

[13] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 158؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 112.

[14] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 112.

[15] **المرجع نفسه**، ص 133.

[16] جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، تحقيق فيليب حتي (نيويورك: المطبعة السورية-الأمريكية، 1927)، ص 98-99.

[17] ابن الهائم المقدسي، **المعونة في علم الحساب الهوائي**، ج 1، ص 19؛ وجلال الدين السيوطي، **نظم العقيان**، ص 135؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 188.

[18] جلال الدين السيوطي، **نظم العقيان**، ص 92؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 284؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 181.

[19] جلال الدين السيوطي، **نظم العقيان**، ص 29-30؛ ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي، **القبر المسبوك في ذيل السلوك** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت)، ص 272-275.

[20] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 249-250؛ وجلال الدين السيوطي، **نظم العقيان**، ص 90-92.

[21] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 7، ص 5؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 245.

[22] ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج 2، ص 157-158؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 36-40؛ وجلال الدين السيوطي، **نظم العقيان**، ص 45-53؛ ومحمد الشوكاني، **البدر الطالع**، ج 1، ص 87-92.

[23] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 112.

[24] **المرجع نفسه**، ص 188.

[25] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 158؛ ومحمد الشوكاني، **البدر الطالع**، ج 1، ص 117؛ وابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج 7، ص 81.

[26] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 112؛ وكامل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**، ص 166.

[27] ابن الهائم المقدسي، **الحاوي في الحساب**، تحقيق رشيد عبد الرزاق الصالحي وخضير عباس المنشداوي (بغداد: جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1988)، ص 48، 55، 57، 60.

[28] جمشيد غيّاث الدين الكاشي، **مفتاح الحساب** (القاهرة: 1967)، ص 54.

[29] قدري طوقان، **تراث العرب العلمي**، ص 57؛ وابن الهائم المقدسي، **الحاوي في الحساب**، ص 60؛ ومحمد عيسى صالحية، **بحوث ومقالات في الحضارة العربية الإسلامية** (الكويت: 1988)، ص 282-283.

[30] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 8، ص 2-25؛ ومحمد جميل الشطي، **مختصر طبقات الحنابلة** (دمشق: مطبعة الترقي، 1339هـ/1920م)، ص 73؛ ومحمد بن عبد الله بن علي العامري، السحب الوابلة على ضريح الحنابلة، مخطوط في الخزانة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، رقم 1445 تاريخ تيمور، ص 141؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 189.

[31] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 189-190؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 306.

[32] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 237؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 5، ص 235.

[33] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 230؛ وابن تغري بردي يوسف، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984)، ج 2، ص 422-433؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 10، ص 58.

[34] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 377-382؛ ومحمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 9، ص 64؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 8، ص 29.

[35] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 195؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 323.

[36] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 116-118؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 8، ص 10.

[37] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 1، ص 56؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 206.

[38] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 2، ص 52؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 203.

[39] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 191-192.

[40] **المرجع نفسه**، ص 191.

[41] **المرجع نفسه**، ص 251.

[42] **المرجع نفسه**، ص 302-346؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 7، ص 366.

[43] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 9، ص 117-124.
[44] **المرجع نفسه**، ج 8، ص 2-25؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 8، ص 15-16.
[45] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 5، ص 140.
[46] **المرجع نفسه**، ج 7، ص 284-286.
[47] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 300، 305.
[48] **المرجع نفسه**، ص 382.
[49] محمد عيسى صالحية، "التاريخ والمؤخرون في فلسطين،" **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، الدراسات الحضارية، ج 3، ص 333-334.
[50] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس** (القدس: 1952)، ص 509؛ وكامل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**، ص 139.
[51] كامل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**، ص 140.
[52] يوسف أيوب حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره** (دمشق: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1981)؛ وخليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا** (القدس: المطبعة التجارية، 1955)، ص 163.
[53] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 40.
[54] يعقوب العودات، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين** (عمّان: 1976)، ص 274؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984)، القسم الأول، ج 4، ص 458.
[55] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 100؛ وخليل السكاكيني، **ما تيسر** (القدس: المطبعة العصرية، 1946)، ج 2، ص 19.
[56] تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون من القرن العشرين** (الناصرة، يافة الناصرة: دار الطلائع، 1999)، ص 56.
[57] يعقوب العودات، **من أعلام الفكر**، ص 274-275.
[58] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 4.
[59] **المرجع نفسه**، ص 26-27.
[60] **المرجع نفسه**، ص 33-34.
[61] شوقي أبو خليل، **بندلي الجوزي في الميزان** (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1993)، ص 78.
[62] بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، 1917-1948** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 9؛ وعجاج نويهض، "رجل من فلسطين: خليل السكاكيني،" جريدة **القدس**، 1955/7/9؛ وفيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** (بيروت: دار صادر، 1913)، ج 3، ص 66.
[63] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 46.
[64] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 48؛ وشوقي أبو خليل، **بندلي الجوزي**، ص 109.
[65] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 151.
[66] تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 57.
[67] **المرجع نفسه**؛ وخير الدين الزركلي، **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين، 1979)، ج 2، ص 321؛ وكامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس** (عمّان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1981)، ص 59.
[68] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 133. ملاحظة: قصة ليفين الأمريكي واتهامه بالتجسس لصالح أمريكا، ورسائل نائب القنصل الإسباني له بضرورة سرعة المغادرة بسبب شك السلطات التركية به جاسوساً؛ وردت في تقرير آرثر روبين التالي:
Aziz Bek, *Intelligence and Espionage in Syria, Lebanon and Palestine in the World War 1913-1948* (Ramat Gan: Bar-Illan University Ma'arachot, 1991), p. 25ff.

[69] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 152.

[70] **المرجع نفسه**، ص 133.

[71] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 54؛ وخليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 156، أسقط النشيد من طبعة 1981، نشر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

[72] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 155.

[73] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 54.

[74] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 172-173.

[75] **المرجع نفسه**، ص 157، 159-160، 170، 176.

[76] **المرجع نفسه**، ص 173، 176.

[77] **المرجع نفسه**، ص 190.

[78] **المرجع نفسه**، ص 306؛ وتيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 57-58.

[79] يعقوب العودات، **من أعلام الفكر**، ص 274-275.

[80] عصام الشنطي، **خليل السكاكيني اللغوي** (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 1967)، ص 25.

[81] عصام الشنطي، **خليل السكاكيني اللغوي**، ص 55-57.

[82] **المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني** (القدس: المطبعة العصرية، 1962)، ج 2، ص 94.

[83] عجاج نويهض، "رجل من فلسطين: خليل السكاكيني."

[84] تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 67.

[85] **المرجع نفسه**، ص 66.

[86] خليل السكاكيني، الملف رقم ب/11، سنة 1920–1922، وثائق محفوظة، مركز الأبحاث، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية.

[87] الوثيقة رقم 25، الملف ب/71، مركز الأبحاث، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية.

[88] لمزيد عن أثر مقهى الصعاليك في الحركة الوطنية الفلسطينية انظر: يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 68-71؛ وشوقي أبو خليل، **بندلي الجوزي**، ص 12.

[89] يوسف حداد، **خليل السكاكيني: حياته، مواقفه، آثاره**، ص 363.

[90] يوسف أسعد داغر، **الفكر العربي الحديث في سِيَر أعلامه: الراحلون 1800-1955** (بيروت: مطابع لبنان، 1956)، ص 458-460.

[91] عيسى الناعوري، "الإنسان الذي فقدناه، خليل السكاكيني،" جريدة **فلسطين**، الملحق الأدبي، العدد 1062، 1953/8/13.

[92] يعقوب العودات، **من أعلام الفكر**، ص 626-630؛ ومجلة **المقتطف**، المجلد 63، ج 1، تموز/ يوليو 1923، ص 90-91؛ وعلي الطنطاوي، "محمد إسعاف النشاشيبي، أديب العربية الأكبر،" مجلة **المكشوف**، العدد 6، ص 5؛ ومحمد عمر حمادة، **أعلام فلسطين** (دمشق: دار قتيبة)، ج 1، ص 298-315.

[93] تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 22.

[94] انظر الوثيقة CZA. Z4/771/1 المحفوظة في الأرشيف الصهيوني المركزي وكذا الوثيقة CZA. S25/7615 تاريخ 1920م.

[95] تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 19.

[96] دفتر مهمة مكتومة رقم 5، تاريخ جمادى أول 1220هـ - ذي القعدة 1221هـ/1806م - ص 931.

Muhimme Mektum defterleri, no. 5. Sahifa 931

والدفتر نفسه، ص 9؛ وإسحق موسى الحسيني، **هل الأدباء بشر** (بيروت: دار العلم للملايين)، ص 27.

[97] في السجلات الرسمية، ولد محمد إسعاف، سنة 1890، وذكر معارفه ومعاصريه أنّه ولد سنة 1882، انظر: عجاج نويهض، **رجال من فلسطين** (بيروت: مطبعة الكرمل الحديثة، 1981)، ص 17-18؛ وإسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 72؛ ويعقوب العودات، **من أعلام الفكر**، ص 136-137؛ وخير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 6، ص 30-31.

[98] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف النشاشيبي،" ص 29، نشر ضمن كتاب: ياسر أبو عليان وآخرون، **أبحاث عن أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي** (القدس: مركز الأبحاث الإسلامية، مؤسسة دار الطفل العربي، مطبعة المعارف، 1987)، ص 29-46.

[99] **المرجع نفسه**، ص 29.

[100] المرحلة الثانوية تعادل الصف الثالث الإعدادي أي الصف العاشر.

[101] مقالة محمد إسعاف النشاشيبي، انظر: http://diwanalarab.com.article2/68؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 298-299؛ وكمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 27-30؛ وإسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 72.

[102] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 30؛ وإسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 74-75؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 299؛ ومحمد خليل الحسيني، "محمد إسعاف النشاشيبي أديباً كاتباً،" ص 87-99، نشر ضمن كتاب **أبحاث عن أديب العربية**.

[103] المراجع نفسها.

[104] توفي الشيخ محيي الدين الخياط سنة 1914 ولما يتجاوز العقد الرابع من عمره.

[105] انظر: www.diwanalarb.com

[106] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 30.

[107] خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ص 382.

[108] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 30؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 299.

[109] إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 74-75.

[110] **المرجع نفسه**، ص 76؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 200.

[111] إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 76.

[112] عجاج نويهض، **رجال من فلسطين**، ص 56.

[113] إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 77؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 301.

[114] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 36.

[115] محمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 301؛ وعبد الرحمن ياغي، **حياة الأدب الفلسطيني** (بيروت: 1968)، ص 168-169.

[116] تحول القصر إلى مركز الأبحاث الإسلامية، التابع لدار الطفل العربي، ويضم متحفاً ومكتبة ذاخرةً بأمهات المصادر ومؤلفات محمد إسعاف النشاشيبي.

[117] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 39.

[118] محمد خليل الحسيني، "محمد إسعاف النشاشيبي أديباً كاتباً،" ص 89-90.

[119] رسالة من إسعاف النشاشيبي إلى رئيس المجمع بتاريخ كانون الأول/ ديسمبر 1923، انظر: مجلة **المجمع العلمي العربي**، ج 11، 12، تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1923، ص 388.

[120] يحيى عبد الرؤوف جبر، "إسعاف النشاشيبي اللغوي،" ص 148، نشر ضمن كتاب **أبحاث عن أديب العربية**.

[121] إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 80.

[122] محمد إسعاف النشاشيبي، **الإسلام الصحيح** (بيروت: دار العودة، 1985)، المقدمة، صفحة ج.

[123] محمد إسعاف النشاشيبي، **كلمة في اللغة العربية** (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1925)، ص 66-67.

[124] يوسف بن محمد الكافي، **نقض إسلام النشاشيبي الصريح بصريح الأدلة التي يفهمها الأعجمي والفصيح** (دمشق: مكتبة الشرف، 1354هـ/1935م)، ص 9-10.

[125] محمد إسعاف النشاشيبي، **الإسلام الصحيح**، ص 10، 40؛ وحسن عبد الرحمن سلوادي، "إسعاف المفكر الإسلامي،" ص 49-64، نشر ضمن كتاب **أبحاث عن أديب العربية**.

[126] محمد خليل الحسيني، "محمد إسعاف النشاشيبي أديباً كاتباً،" ص 91.

[127] إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 80.

[128] محمد إسعاف النشاشيبي، **المبشرين** (مجموعة مقالات حول أغلاط لغوية، نشرت في مجلة **الرسالة** ابتداءً من 1938/10/24).

[129] محمد إسعاف النشاشيبي، **البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي** (دمشق: اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1984)، ص 79-80.

[130] محمد إسعاف النشاشيبي، **مقام إبراهيم** (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1354هـ/1935م)، ص 24.

[131] محمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 306-307.

[132] محمد إسعاف النشاشيبي، نُقْل الأديب، ص 8، مقالات نشر معظمها في مجلة **الرسالة**، ابتداءً من 1938/10/24 وحتى كانون الثاني/ يناير 1948. انظر تعريف نُقْل الأديب في بند مصنفات النشاشيبي داخل النص.

[133] محمد إسعاف النشاشيبي، **كلمة في اللغة العربية**، ص 21؛ وإسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 80؛ وتيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 24.

[134] خطبة محمد إسعاف في حفل تأبين عبد المحسن السعدون، ألقاها في القدس بتاريخ 1348/7/26هـ الموافق 1929/12/27م بعنوان "العراق في سبيل الحرية"؛ وانظر: محمد إسعاف النشاشيبي، **كلمة في اللغة العربية**، ص 56-57.

[135] محمد إسعاف النشاشيبي، نُقْل الأديب، ص 7-8؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 299.

[136] تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 22.

[137] محمد خليل الحسيني، "محمد إسعاف النشاشيبي أديباً كاتباً،" ص 92.

[138] رشدي الأشهب، "إسعاف في كتابه كلمة في اللغة العربية،" ص 159-174، نشر ضمن كتاب **أبحاث عن أديب العربية**.

[139] **المرجع نفسه**، ص 161-162؛ ومحمد إسعاف النشاشيبي، **العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي** (القاهرة: دار المعارف، 1928)، ج 1، ص 4.

[140] محمد إسعاف النشاشيبي، وحي الرسالة، ج 3، ص 210؛ ورشدي الأشهب، "إسعاف في كتابه،" ص 162-163.

[141] محمد إسعاف النشاشيبي، وحي الرسالة، ج 4، ص 11؛ ورشدي الأشهب، "إسعاف في كتابه،" ص 164.

[142] محمد إسعاف النشاشيبي، **قلب عربي وعقل أوروبي** (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1342هـ/1924م)؛ ومحمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 307.

[143] محمد حمادة، **أعلام فلسطين**، ج 1، ص 303-304.

[144] إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 76.

[145] كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 42.

[146] محمد إسعاف النشاشيبي، **البستان**، ط 6 (مصر: دار المعارف، 1365هـ/1946م)، المقدمة؛ ومجلة **المقتطف**، القاهرة، المجلد 72، ج 6، 1334هـ/1928م، ص 698.

[147] انستاس الكرملي، مجلة **لغة العرب**، دير الروم الأرثوذكس، القدس، 1922؛ وانظر: تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 32؛ ونقد المحاضرة في مجلة **المقتطف**، العدد 60.

[148] مجلة **المقتطف**، المجلد 63، ج 1، 1923/7/1م الموافق 16 ذي القعدة 1341هـ، ص 90-91؛ ومحمد خليل الحسيني، "محمد إسعاف النشاشيبي أديباً كاتباً،" ص 9، ط القاهرة، المطبعة السلفية، 1341هـ/1923م.

149 زكي مبارك، نُقْل الأديب، ص 13 (المقدمة)؛ ومحمد خليل الحسيني، "محمد إسعاف النشاشيبي أديباً كاتباً،" ص 91.

150 ذكر هذه الكتب المخطوطة إسحق الحسيني في كتابه: إسحق الحسيني، **هل الأدباء بشر**، ص 79.

151 **المرجع نفسه**، ص 80؛ وكمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 42-43.

152 كمال الريماوي، "حياة محمد إسعاف،" ص 40.

153 عجاج نويهض، **رجال من فلسطين**، ص 56.

154 مجلة **الرسالة**، العدد 761، شباط/ فبراير 1948، ص 129.

155 http://diwanalarab.com,article2018

156 تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 19.

157 المصادر والمراجع التي تناولت سيرة عارف العارف:
عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الأولى** (بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، الدار العربية للموسوعات، د.ت)، ص 3-5؛ ومرسي الأشقر، **مشاهير الرجال في المملكة الأردنية** (عمّان)، ج 1، ص 93؛ وخير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 3، ص 245-246؛ وتيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 37-55؛ ويعقوب العودات، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين** (عمّان: 1987)، ص 400-403؛ ويوسف أسعد داغر، **مصادر الدراسات الأدبية** (بيروت: مكتبة لبنان، 2000)، ص 1466-1468؛ وفوزي يوسف، "المؤلف عارف العارف ونبذة من سيرته،" عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس** (مكتبة الأندلس، مطبعة العارف، 1380هـ/1961م)، ص 570-572؛ وفريدة العارف العمد، "عارف العارف أباً،" مجلة **التراث والمجتمع**، مركز دراسات التراث والمجتمع، العدد 41، تموز/ يوليو 2005، انظر:
http://www.inash.org/csp/PDF/41/41_4_Amad.pdf

158 تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 38.

159 بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 86.

160 حسين العودات وياسين الشكر، **الموسوعة الصحفية العربية: سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن** (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، 1990)، ص 45.

161 بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين**، ص 118.

162 **المرجع نفسه**، ص 121.

163 تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 41.

164 عارف العارف، **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود** (صيدا: منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1956-1965)، ج 1، ص 385.

165 وثائق محفوظة، ملف ب/VI رقم 25، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت.

166 تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون**، ص 42.

167 عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الخامسة**، القسم الأول، ص 1187-1188.

168 عارف العارف، **تاريخ بئر السبع وقبائلها** (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1934)، ص 65.

169 عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الرابعة**، القسم الثاني، ص 958.

170 انظر: http://www.albadiaforum.com/showthread.php?t=6374

171 عارف العارف، **النكبة**، ص 3-5.

172 **المرجع نفسه**، ص 5.

173 عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الأولى**، القسم الأول، ص 7.

174 عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الأولى**، القسم الثاني، ص 73.

175 **المرجع نفسه**، ص 75.

[176] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الثانية**، القسم الأول، انظر على سبيل المثال: وسائل تعذيب المحامي بشير، ص 245، والفتى حسن عيسى البطاط، 15 سنة، ص 250، وعبد المطلب أبو ارميلة، ص 263-266، وعبلة شفيق طه، ص 267-268.

[177] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الثانية**، القسم الثاني، ص 375-465.

[178] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الثالثة**، القسم الأول، ص 477، ويذكر أسماء أصحابها.

[179] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الثالثة**، القسم الثاني، ص 657-899.

[180] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الرابعة**، القسم الأول، ص 904.

[181] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الرابعة**، القسم الثاني، ص 1017.

[182] **المرجع نفسه**، ص 1031-1034.

[183] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة الخامسة**، القسم الثاني، ص 1265.

[184] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة السادسة**، القسم الأول، ص 1616.

[185] عارف العارف، **أوراق عارف العارف: المجموعة السادسة**، القسم الثاني، انظر الصفحات: 1629، 1637، 1653، 1657، 1666 وغيرها كثير.

[186] **المرجع نفسه**، ص 1820.

[187] فوزي يوسف، "المؤلف عارف العارف ونبذة من سيرته،" ص 560.

الفصل الثاني

القدس
العمارة والهوية

القدس: العمارة والهوية

د. بديع العابد

مقدمة:

تلعب المباني الدينية دوراً رئيسياً في تحديد الهوية المعمارية للمدن، فالشخصية البصرية للمباني الدينية هي الأكثر انتشاراً والأقوى حضوراً في النسيج المعماري للمدن. وذلك لارتباطها المباشر بعامة الناس، ولمكانتها الروحية وقيمتها الفنية.

ولما كانت القدس مدينة دينية، فاليهودية تدعي الارتباط بها، والمسيحية واضحة الارتباط والحضور فيها، وأما الإسلام فهو الأقوى حضوراً فيها لأنها أولى القبلتين وبها ثالث الحرمين الشريفين. ونتيجة لوضوح الحضور المسيحي في القدس، فقد تعايش مع الوجود الإسلامي، ونُظِّمت العلاقة بينهما بموجب العهدة العمرية التي قطعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسيحيين عندما حرر المسلمون القدس من البيزنطيين سنة 15هـ/636م. حيث لم يكن لليهود حضور فيها، وكان شرط البطريرك صفرونيوس Sophronius أن لا يسمح المسلمون لليهود بدخول القدس والسكن فيها.

لكن المزاعم اليهودية تدعي ارتباطها بالقدس، وحضورها مادياً فيها من خلال هيكلهم المزعوم. وهو ادعاء لا سند له في التاريخ، ولا دليل مادي عليه في أرض الواقع. فكل محاولات إثبات حضورهم المادي في القدس باءت بالفشل، فالحفريات الآثارية التي بدأتها المسيحية الأوروبية منذ بداية القرن 19، جميعها، لم تسفر عن أي دليل مادي يثبت الحضور اليهودي بالمدينة. وكذلك الحفريات التي شرع بها الآثاريون اليهود، منذ احتلال الكيان الصهيوني اليهودي للقدس الشرقية وكل فلسطين سنة 1967، لم تسفر عن وجود أي ارتباط مادي معماري يهودي بالمدينة، وهذا ما أعلنه الآثاري اليهودي مئير بن دوف Meir Ben-Dov. وبهذا، فإن دعواهم الكتابية التي تزعم ارتباطهم بالمدينة وحضورهم المادي المعماري من خلال هيكلهم المزعوم، يعوزها السند التاريخي والدليل المادي.

أما الدليل المادي فقد تمت الإشارة إلى أن الحفريات والتنقيبات الآثارية لم تسفر عن شيء يثبت هذا الارتباط. وأما السند التاريخي فلا الحفريات ولا

التنقيبات أثبتته، ولا الوثائق التاريخية أشارت إليه؛ حتى أن هيرودوت أبو التاريخ Herodotus (Father of History) لم يأتِ في كتابه الذي ألّفه في القرن الخامس قبل الميلاد على ذكرهم على الإطلاق.

كما أن العهد القديم يؤكد أنهم لم يدخلوا يبوس (القدس) إلا بعد 480 عاماً من خروجهم من مصر (ملوك أول 1:6)، فلو كان لهم أي ارتباط بالمدينة لما أخروا دخولهم إليها كل هذا الوقت.

نخلص من كل ما سبق أنه لا صلة دينية لليهود بالقدس كما هو الحال بالمسيحية والإسلام، فالارتباط الإسلامي والمسيحي بالقدس حقيقة مؤكدة ظاهرة الحضور وحيّة الوجود، الأمر الذي دفع بالكيان الصهيوني اليهودي العمل على مواجهة هذا الحضور بالزعم بوجود حضور للديانة اليهودية، ليوازي الحضورين المسيحي والإسلامي في المدينة، والعمل على تدميرها مادياً (معمارياً) وبشرياً. فالحضور المعماري المسيحي المتمثل بكنيسة القيامة وطريق الآلام وكل الكنائس المسيحية مستهدف من قبل الكيان الصهيوني اليهودي، كاستهدافهم للمسجد الأقصى (وقبة الصخرة) وباقي الوجود المعماري الإسلامي. ولعل الوجود المعماري المسيحي مستهدف بصورة أقوى من الوجود الإسلامي، لكن التركيز الآن على الحضور الإسلامي ما هو إلا ترتيب للأوليات ولاعتبارات سياسية تتعلق بالدعم المسيحي الأوروبي للكيان الصهيوني اليهودي.

الأهداف والمنهجية:

يهدف هذا الفصل إلى التعريف بالهوية المعمارية العربية الإسلامية لمدينة القدس، المتمثلة بمفردات النسيج المعماري المسيحية والإسلامية. كما يهدف إلى بيان محاولات الكيان الصهيوني اليهودي في القضاء على هذه الهوية.

ولتحقيق ذلك، سيعرض هذا الفصل لمحاولات الكيان الصهيوني اليهودي في القضاء على مفردات ومكونات هذه الهوية من خلال ثلاثة محاور؛ الأول: يتمثل في محاولة هذا الكيان فرض حضور مادي معماري في النسيج المعماري للمدينة. والثاني: التشكيك بالحضور المادي المعماري المسيحي المتمثل بكنيسة القيامة وطريق الآلام داخل المركز التقليدي (التاريخي). والثالث: يتمثل في محاولات هدم المسجد الأقصى أو فرض حضور معماري يهودي مرحلي فيه أو في جواره تمهيداً لهدمه في مرحلة لاحقة.

إذن، سيوضح هذا الفصل أن خطة اليهود في تهويد المدينة قائمة على الزعم بحضور معماري يهودي بها، ثم التشكيك بالحضورين المسيحي والإسلامي، ثم المطالبات المرحلية بتحقيق حضور معماري يهودي تمهيداً للانفراد بالمدينة، والتخلص من مفردات النسيج المعماري المسيحي الإسلامي وهدمها.

سيعرض الباحث لهذه المراحل من خلال الدعاوى اليهودية المتمثلة في عمليات التهديد المستمرة للمدينة، سواء المطبق منها أو المعلن عنها في المصادر الكتابية اليهودية والغربية الآثارية والعمرانية، أم في المقترحات العمرانية التي تعرض ويروج لها في المؤتمرات. وستكون البداية بمحاولات اليهود تحقيق حضور مادي معماري داخل المركز التقليدي (القدس داخل السور) وفي محيطه.

أولاً: الدعاوى والمزاعم اليهودية في القدس:

تستند دعاوى الكيان الصهيوني اليهودي في القدس إلى مزاعم دينية وتاريخية يحاول من خلالها فرض حضور مادي عمراني ومعماري في المدينة، وسأعرض لها تباعاً، وأُبَيِّن مراميه وأهدافه السياسية خلف هذه الدعاوى.

1. الدعاوى اليهودية:

تبدأ الدعاوى اليهودية بالزعم بأن النبي داود احتل يبوس حوالي سنة 993ق.م (صموئيل ثاني 5: 6-10) بعد 480 عاماً من خروجهم من مصر (ملوك أول 6: 1)، وغيّر اسمها إلى مدينة داود. ويقتضي التنويه هنا بأن اليهود، إن صدقت مزاعمهم الكتابية، غزاة ومحتلون لأن يبوس كما تأكد مصادرهم الكتابية هي مدينة كنعانية كانت قائمة قبلهم فهم لم ينشئوها.

وموقع يبوس خارج السور الحالي لمدينة القدس، وكان السائد بين رجال الدين اليهود والمسيحيين أن موقعها هو على هضبة صهيون جنوب غرب المركز التقليدي لمدينة القدس (القدس داخل السور) حتى نهاية القرن 18. حيث قام الجغرافي جورج آدم سميث George Adam Smith[1] بتحديد موقعها في بداية القرن 19 على تل الظهور جنوب المسجد الأقصى بعدة أمتار، وتمتد جنوباً بطول يتراوح بين 350-420 متراً وعرض أقصاه 150 متراً حتى مشارف قرية سلوان الشمالية.

لكن أمر تحديد موقع مدينة يبوس لم يحسم حتى سبعينيات القرن العشرين، حيث هناك من يقول بوجود مدينتين[2]؛ إحداهما أورسالم تقع على هضبة صهيون، والأخرى يبوس التي غير اسمها إلى "مدينة داود" وتقع على تل الظهور جنوب الأقصى وتعرف عند الآثاريين بأوفل Ophel. إلا أن الحفريات الآثارية التي قامت بها الآثارية الإنجليزية كاثلين كينيون Kathleen Kenyon[3] في ستينيات القرن الماضي استبعدت وجود مدينة أورسالم على هضبة صهيون، بينما أظهرت بعض السلاسل الحجرية واللقيات الآثارية في تل الظهور (أوفل)، الأمر الذي عزز مزاعم وجود يبوس وتحديد موقعها على تل الظهور. لكن الحفريات التي قام بها الآثاريون اليهود[4] منذ سنة 1967 لم تسفر عن أي اكتشافات آثارية تعزز هذا الزعم، وعلى الرغم من ذلك فقد أبقوا عليه، وواصلوا الدعاوى بأن يبوس "مدينة داود" تقع على تل الظهور لقربها من الحرم الشريف، حتى تتوافق دعاواهم الكتابية مع الزعم بأن توسعة النبي سليمان امتدت إلى جبل الموريا (الأقصى)، وأقام هيكله المزعوم مكان المسجد الأقصى (الحرم الشريف).

واللافت للنظر أن المصادر الكتابية اليهودية انفردت بهذه الروايات، ولم يوجد ما يؤكد أو يعزز هذه الروايات لا في الحوليات المصرية القديمة ولا البابلية ولا الأشورية ولا حتى المصادر اليونانية، بل إن المؤرخ اليوناني هيرودوت[5] لم يذكر اليهود في كتابه الموسوم بتاريخ هيرودوت.

لكن المصادر التاريخية الغربية اعتمدت المصادر الكتابية اليهودية، وأسست عليها حقائق ووقائع تاريخية يعوزها السند التاريخي والدليل المادي. وأصبحت هذه المزاعم بينات تاريخية يستند إليها الكيان الصهيوني اليهودي في مفاوضاته على المدينة، ويبني عليها مطالب داخل سور المدينة وفي محيطها لفرض حضوره العمراني والمعماري. ففي محيطها يطالب هذا الكيان بما يسمى "بالحوض الديني أو المقدس أو التاريخي"، وهو في زعمهم يتكون من الأراضي المحيطة بغرب وجنوب وشرق سور المدينة. فقد طالبوا بالمفاوضات حول المدينة توسعة مساحة المركز التقليدي[6] (القدس داخل السور) من كيلومتر مربع واحد إلى ثلاثة كيلومترات مربعة، كما في المخطط رقم 1. لكن الجانب الفلسطيني لم يستجيب لهم، فلجأوا إلى أعمال الهدم، وقاموا بإنذار السكان في حي البستان شمال قرية سلوان (المتاخم للحدود الجنوبية للمسجد الأقصى) بإخلاء منازلهم، تمهيداً لهدمها، بحجة أن بناءها غير مرخص. لكن الحقيقة هي إصرارهم على تنفيذ مزاعمهم الدينية، وتهويد المركز التقليدي للمدينة (القدس داخل السور) بإزالة

التجمعات السكانية من محيطه، لعزله وعزل المواطنين الفلسطينيين بداخله تمهيداً لترحيلهم منه. وهم يفعلون ذلك أيضاً في محيط المركز التقليدي الشمالي، أي في حي الشيخ جراح وفي كل المدينة. فإذا تمكنوا من إزالة التجمعات السكانية الفلسطينية في الجنوب والشمال يتحقق لهم عزل المركز التقليدي (القدس داخل السور) لخلو محيطيها الشرقي والغربي من التجمعات السكانية الفلسطينية، فيستطيعون توسعة المركز التقليدي إلى ثلاثة كيلومترات مربعة حسب زعمهم، ومن ثم يتفرغون لاستكمال تهويده من الداخل، وهدم المسجد الأقصى، وفرض حضورهم المعماري مكانه بإقامة هيكلهم المزعوم الذي سيكون موضوعنا التالي.

2. الهيكل المزعوم:

هو ثاني الدعاوى اليهودية في القدس، ولقد عرض الباحث للهيكل المزعوم بالتفصيل في بحث سابق[7]، فبيّن طبيعة العبادة اليهودية القائمة على تقديم القرابين، وكيف تحولت إلى عمل تجاري يحتكره الكهنة. ثم عرض بالتفصيل لطقسين من طقوس العبادة اليهودية التي فرضت عليهم، حسب مزاعم العهد القديم في التيه، وهما البقرة الحمراء والعنزة الشاردة، وبيّن كيفية ممارستها في خيمة الاجتماع في التيه، ثم عرض بالتفصيل لتحوير هذين الطقسين لممارستهما في الهيكل المزعوم.

وبيّن كيف ترتب على هذا التحوير مطالب دينية في المسجد الأقصى (الحرم القدسي) وجبل الزيتون شرقاً، أي داخل السور وخارجه. فخارج السور (أي الامتداد شرقاً) مرتبط بمطالب اليهود في "الحوض المقدس" فيربطون الهيكل المزعوم بجبل الزيتون دون أي وجود غير يهودي، كما تتطلب طقوس العبادة المحورة[8]، ثم إبقاء كامل المنطقة شرق جبل الزيتون وحتى البحر الميت منطقة "برية"، أي منطقة غير مأهولة، كما يتطلب ممارسة طقس عبادة العنزة الشاردة. وهذا يفسر عزل منطقة القدس من الشمال والجنوب والترويج لإقامة عاصمة الدولة الفلسطينية في بلدة الرام شمال القدس، بدلاً من أبو ديس في شرق جنوب القدس، كما خططوا في بداية المفاوضات. فالرام تحقق عزلاً أقوى لمنطقة شرق القدس من أبو ديس في شرق الجنوب، لأن منطقة شرق القدس يجب أن تبقى برية، غير مأهولة وخالية من العمران، كما تتطلب الطقوس الدينية اليهودية المحورة، وهذا يضع جميع الكنائس المسيحية في جبل الزيتون في دائرة الاستهداف اليهودي المستقبلي.

أما مطالبهم داخل السور فالمقصود منه القضاء على الهوية المعمارية العربية الإسلامية للمدينة، أو مزاحمتها مرحلياً بإقامة هيكلهم المزعوم في ساحة المسجد الأقصى أو في محيطه، لإضعاف الشخصية البصرية لقبة الصخرة حتى يتمكنوا من هدمها في مرحلة لاحقة، وسيتم عرض محاولاتهم لهدم قبة الصخرة في المحور الثالث.

ولتحقيق ذلك حددوا سبعة مواقع لهيكلهم المزعوم، أربعة منها داخل الحرم القدسي وواحد على تل الظهور، لكن ساحاته تمتد على كامل مساحة الحرم، والسادس في ساحة البراق بجوار الحرم والسابع يحدده الله عندما ينزل هيكلهم المزعوم من السماء مصحوباً بعودة المسيا Messiah (المسيح اليهودي وليس النصراني) المخلص.

فالمواقع الستة الأولى هدفها وغايتها تحقيق حضور مادي معماري في المركز التقليدي للمدينة (القدس داخل السور) وتحديداً في الحرم القدسي ليزاحم الحضور الإسلامي تمهيداً للقضاء عليه. وهم يعلمون يقيناً، وطبقاً للتقاليد الدينية اليهودية، أنهم لا يستطيعون بناء هيكلهم المزعوم. لأن شروط إقامته طبقاً للتعاليم الدينية اليهودية مستحيلة، وجميع تخريجاتهم الفقهية لتسهيل عملية بنائه اصطدمت بأحكام دينهم المتزمتة في ممارسة طقوس عبادتهم القائمة على تقديم القرابين، فهم في ورطة دائرية كما يسميها عبد الوهاب المسيري[9].

فدعاة بناء الهيكل المزعوم تواجههم مشكلتان؛ أولهما أن الخدمة في الهيكل المزعوم وممارسة الطقوس منوطة بالكهنة ومقتصرة عليهم. والكهنة يجب أن ينحدروا من نسل هارون من سبط لاوي، لأن الكهانة محصورة بهم (خروج 40: 13-15، لاويين 7: 31-37، 8: 6-9)، ونظراً لعدم وجود لاويين فإنه حكماً لا يوجد كهنة، والحاخامات والربيون ليسوا كهنة في التقاليد اليهودية.

وثانيهما عدم وجود يهودي طاهر[10]، حسب الشريعة اليهودية، لأن طقوس الطهارة لا تتم إلا بعد تقديم قربان البقرة الحمراء وخلط الرماد الناتج عن حرقها بالماء ورشه على النجس منهم فيتطهر.

هذان الشرطان يصبان في صالح دعاة انتظار المسيح والهيكل الذي سيأتي معه. كما أن بناء الهيكل المزعوم سيعيد الديانة إلى سلطة الكهانة مرة أخرى، وهذا بدوره يقضي على الديانة اليهودية الحاخامية التلمودية، الأمر الذي لن يسمح به الحاخامات حفاظاً على مصالحهم ومكتسباتهم.

هذه الورطة الدائرية لم ولن يتمكن المجمع الحاخامي التلمودي اليهودي من حلها والتغلب عليها، على الرغم من فتاوهم وتخريجاتهم الفقهية، ومنها أنهم أنشأوا معهداً لدراسة البقرة الحمراء، وزعموا وجود بقرة حمراء تمّ إنتاجها نتيجة تلاقح صناعي بين بقرة يهودية وأخرى أمريكية تمّ فحصها وإجازاتها. لكن المعضلة هي عدم وجود يهودي طاهر لذبحها والتضحية بها، ولتذليل هذه المعضلة اقترحت مجلة علمية دينية يهودية الآتي[11]:

> أن تعزل امرأة يهودية حامل من إحدى الأسر الكهنوتية [!؟] داخل منزل يبنى على أعمدة، حتى يعزل المنزل نفسه عن أي جثث يهودية قد تكون تحته، ويقوم رجال آليون بتوليدها، ثم يقومون بعد ذلك على تنشئة الطفل بعيداً عن كل البشر، حتى يصل سن الثالثة عشر. ساعتها يمكنه أن يصبح كاهناً طاهراً فيضحي بالبقرة الحمراء وتحل المشكلة.

وحتى ينجح هذا المقترح لا بد من وجود عائلة كهنوتية، وهذا شرط غير قائم لانقراض الكهنة وضياع القبائل العشرة واختلاط النسب. كما أنه لكي ينجح هذا الاقتراح لا بد من وجود فتاة يهودية طاهرة عمرها 13 عاماً لكي يتزوجها الكاهن قبل التضحية كما تشترط الديانة اليهودية. كما أنه لا بد من الاتفاق على مكان الهيكل المزعوم، حتى يتحدد مكان تابوت العهد، لكي يسكب دم البقرة الحمراء بعد التضحية بها على موضعه لضياعه وعدم وجوده. كما أن ضياع تابوت العهد لا يحقق شرط سكن الرب في الهيكل المزعوم، فظهر التابوت هو كرسي الرحمة "الذي يجلس عليه الرب اليهودي عند انكماشه ودخوله قدس الأقداس" في الهيكل المزعوم، ليسكن مع شعبه كما تنص الديانة اليهودية.

ولو تمّ الاتفاق على مكان الهيكل المزعوم، في أي مكان في الحرم القدسي فلا بدّ من إزالة كامل مباني الحرم، خاصة القبور داخل الحرم، وكذلك إزالة المقبرة الإسلامية شرقي السور أسفل الباب الذهبي. كما يتطلب إزالة جميع الكنائس والمنشآت القائمة على جبل الزيتون، وشرقاً حتى البحر الميت، كما يشترط في طقس العنزة الشاردة.

هذه الأمور لا يقوى عليها الكيان الصهيوني اليهودي في المرحلة الحالية حتى لو عزز تحالفه مع المسيحية المتصهينة لأنه سيواجه ثوابت في الإيمان المسيحي للكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية تمنعه من تحقيق مآربه، إضافة إلى الثوابت الإسلامية.

ونكتفي بهذا القدر من الأسباب للتدليل على حرج الموقف اليهودي المتعلق بهيكله المزعوم[12]، وورطته الدائرية فيه التي تجعل فكرة إعادة بنائه مجرد وهم وتفكير غير واقعي، بل مستحيل، على الرغم من وجود 25 تنظيماً يهودياً إرهابياً يعملون على إعادة بناء الهيكل المزعوم.

وبالرغم من كل هذه المعوقات فإنه لا قيمة لها أمام تحقيق هدفهم السياسي، وهو تهويد القدس من خلال إيجاد واقع مادي عمراني ومعماري ديني يهودي في المركز التقليدي للقدس، وعلى وجه التحديد في الحرم الشريف. وعلى المتخصص والمعني أن يكون واعياً للحقائق التي ذُكِرت، وملماً بالتقاليد الدينية اليهودية، حتى يتمكن من دحض دعواهم ومطالبهم، ليس فقط بالهيكل المزعوم بل أيضاً في حائط البراق الذي سيكون موضوعنا التالي.

3. حائط البراق:

حائط البراق هو جزء من الحائط الغربي للحرم الشريف، ينحصر بين الحائط الجنوبي للمدرسة التنكزية وبين ما يسمى بالزاوية أسفل الطريق المؤدي إلى باب المغاربة الكائن في أقصى جنوب الحائط الغربي للحرم، وليس باب المغاربة الكائن في نهاية طريق الواد في الحائط الجنوبي لسور القدس. ويشكل هذا الحائط، أي حائط البراق، مع البيوت الشرقية لحارة المغاربة قبل هدمها زقاقاً طوله 27.6 متراً وعرضه 4.5 متراً.

ولقد زعم اليهود، قبل إنشاء كيانهم في فلسطين، بأن هذا الجزء من الحائط الغربي للحرم القدسي من بقايا هيكلهم المزعوم، وأحاطوا هذا المكان بهالة من القدسية قائمة على مجموعة من الأساطير والافتراءات التاريخية فنّدها الباحث جميعاً في بحث سابق[13]. كما بيّن أن التواجد اليهودي في هذا المكان بدأ بصورة فردية منذ بداية القرن 19، وبقيت كذلك حتى سنة 1256هـ/1840م حيث بدأت تظهر تجمعات يهودية بصورة شبه منتظمة عصر أيام الجمع (بداية السبت اليهودي)، ثم أيام الأعياد، ثم أيام الأسبوع، وعندها أخذت هذه العادات طابعاً اجتماعياً واكتسبت شكلاً أو تقليداً دينياً، حيث أصبح الحائط في وجدان اليهود المتدينين مكاناً مقدساً، استناداً إلى مجموعة أساطير، أحاطوا قدسية هذا المكان بها، وقد تمّ تفنيدها جميعها.

ولقد استغل السياسيون اليهود هذه القدسية المزعومة سنداً لدعاوٍ سياسية ووسيلة ابتزاز دينية لتحقيق أطماع استيطانية، وفرض وجود مادي عمراني أحدث

خللاً في التخطيط العمراني للمركز التقليدي، تمثل في هدم حارة المغاربة وحارة الشرف وجوارهما، وإنشاء ما يسمى بالحي اليهودي. كما تمّ هدم الطريق المؤدي إلى باب المغاربة ومبنى الزاوية الكائن أسفل الطريق، التي كان يقيم فيها الرئيس الراحل ياسر عرفات في طفولته مع أخواله من عائلة أبو السعود المقدسية.

وبهذا، فإن الكيان الصهيوني اليهودي يكون قد أحدث خللاً في النسيج المعماري للمركز التقليدي، وتشويهاً في شخصيته البصرية، وتهديداً كافياً للحرم القدسي الشريف، لكنه لم يغير هوية المركز التقليدي المعمارية العربية الإسلامية. لأن الحرم الشريف، وتحديداً قبة الصخرة، ما زالت تفرض شخصيتها البصرية الطاغية والمسيطرة على النسيج المعماري والفضاء البصري للمركز التقليدي، كما يظهر في الصورة رقم 1.

ولقد تأسس على هذا الزعم هدم الحي الإسلامي الجنوبي بالكامل، ومن ضمنه الحارتين المذكورتان سابقاً وكذلك هدم الزاوية، والطريق الذي يعلوها والمؤدي إلى باب المغاربة، وتوسعة زقاق البراق (الساحة التي يصلون بها ويطلقون عليها ساحة المبكى) جنوباً حتى آثار القصور الأموية. كما أصبح الجزء الشرقي من ساحة البراق منطقة حفريات آثارية وأنفاق تؤدي إلى الحرم القدسي الشريف. كما أصبحت الساحة مكاناً مفترضاً[14] لإنشاء هيكلهم المزعوم أو لإنشاء مركز حضاري[15] عالمي يخلخل النسيج المعماري للمركز التقليدي، ويشوّه شخصيته البصرية، ويحجم الفضاء البصري للحرم القدسي، ومن ثم يحجم الشخصية البصرية لقبة الصخرة ويقلل من حضورها الطاغي والقوي على الفضاء البصري للمركز التقليدي.

كما تأسس عليه مطالبات داخل الحرم وأسفل الحرم، هدفها جميعاً مزاحمة الهوية المعمارية العربية الإسلامية للمركز التقليدي ولمدينة القدس، تمهيداً للقضاء عليها في مرحلة لاحقة، وسنعرض لهذا الموضوع لاحقاً في هذا الفصل، أما فيما يلي فسنعرض لمحاولتهم الأخيرة في فرض حضور لهم في محيط المركز التقليدي للمدينة وهي قبر داود.

4. قبر داود:

وهو مبنى قديم يقع خارج السور أي خارج المركز التقليدي على هضبة صهيون جنوب غرب المركز التقليدي. كان في الماضي موضع نزاع بين المسلمين

والرهبان الكاثوليك، وقد حسم الصراع عليه في عهد السلطان المملوكي جقمق 842-857هـ/1438-1453م، إذ حكم بالجزء السفلي للمسلمين ليس لأنه قبر داود، كما ذكر مجير الدين العليمي[16] صاحب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بل لأن به قبلة وتقام به الصلاة ولأنه بأيدي المسلمين منذ تقادم السنين. وحكم بالجزء العلوي لصالح الرهبان الكاثوليك. وبقي الأمر دون نزاع من سنة 856-1368هـ/1452-1948م، حيث استولى عليه الكيان الصهيوني اليهودي، وحوله إلى معلم معماري يهودي وضع به نموذجاً للهيكل المزعوم، وأصبح منذ ذلك التاريخ موضع نزاع بين الكنيسة الكاثوليكية والحكومة الإيطالية من ناحية وبين الكيان الصهيوني اليهودي من ناحية أخرى[17].

واللافت للنظر أن دعاوى الكنيسة الكاثوليكية قائمة على أن المبنى هو المكان الذي تناول فيه المسيح عليه السلام العشاء الأخير مع الحواريين. أما الدعاوى اليهودية فتنكر الحجج الكاثوليكية بدعوى أن مكان العشاء الأخير قد غُيِّر ثلاث مرات[18]؛ أولها في جبل الزيتون، وثانيها في موقع كنيسة الجثمانية بجبل الزيتون أيضاً، والثالثة في المبنى المسمى بقبر داود خطأ والكائن على هضبة صهيون جنوب غرب سور المركز التقليدي من الخارج.

وبصرف النظر عن دعاوى الكنيسة الكاثوليكية فإن دعاوى اليهود ليست أكثر من ابتزاز ديني هدفه وغايته تحقيق حضور مادي معماري في محيط المركز التقليدي، وقد نجحوا في الاستيلاء على مبنى القبر، فيكونون بذلك قد حققوا أول حضور "ديني" لهم في محيط المركز التقليدي. أما حضورهم المدني فيتمثل في توسعات عمرانية ومعمارية في القدس، وفي محيط القدس الكبرى أي في إقليم القدس، وجميعها خارج نطاق هذا الفصل لأنه مكرس للتأثيرات المباشرة على الهوية المعمارية للمركز التقليدي، وإن كانت جميعها تعمل على عزل المركز التقليدي ومحاصرة سكانه، تمهيداً لترحيلهم ودفعهم للهجرة من المركز التقليدي ومن محيطه، حتى يتسنى للكيان الصهيوني اليهودي تحقيق هدفه بتهويد المدينة.

فيما سبق من عرض وتحليل تمّ الحديث عن المحور الأول من هذا الفصل والخاص بمحاولة الكيان الصهيوني اليهودي فرض حضور مادي عمراني ومعماري على حساب

الوجود الإسلامي في المركز التقليدي، وتحديداً في منطقة الحرم القدسي الشريف. أما فيما يلي فسنتناول المحور الثاني لهذا الفصل، والخاص بمحاولات اليهود التشكيك بالوجود المادي المعماري المسيحي بالمركز التقليدي ومحيطه الشرقي.

ثانياً: التشكيك بالوجود المعماري المسيحي في المركز التقليدي ومحيطه الشرقي:

إن خطط الكيان الصهيوني اليهودي في تهويد مدينة القدس لا تقتصر على تحقيق حضور مادي معماري على حساب الوجود المادي المعماري الإسلامي أو على مزاحمته مرحلياً فقط، بل تمتد لتشكك بالوجود المسيحي داخل المركز التقليدي، وتحديداً التشكيك بصحة موقع كنيسة القيامة وطريق الآلام. أما الوجود المعماري المسيحي الكائن شرقي الحرم القدسي، أي على جبل الزيتون فهو، وإن لم يعلن عن التشكيك فيه، في حكم المزال، لأنه يتعارض مع طقسي العبادة اليهودية المحورين كما بينت سابقاً.

وهذا التشكيك ما هو إلا تمهيد لمعركة قادمة مع الوجود المسيحي برمته وليس المادي المعماري فقط، والمعركة وقوعها مرهون بنتائج المعركة الدائرة حالياً مع الوجود الإسلامي بشقيه المعماري والبشري داخل المركز التقليدي وفي محيطه بصفة خاصة، والقدس بكاملها بصفة عامة.

واللافت للنظر أن المعركة مع الوجود الإسلامي بدأت بالتشكيك فيه، فقد زعم اليهود ومنذ القرن الثامن الميلادي أن حائط البراق هو "حائط المبكى"[19]، كما أشاعوا في القرن التاسع الميلادي أن قبة الصخرة المشرفة هي الهيكل المزعوم[20]. وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد ساعدت في تعزيز التشكيك الأخير في أثناء الحروب الصليبية واحتلال القدس سنة 492-583هـ/1099-1187م، بتحويل قبة الصخرة إلى كنيسة باسم هيكل سليمان Solomon Temple أو Templum Domini طوال فترة احتلالهم للقدس[21]. فإن المسيحية المتصهينة هي التي تتحالف حالياً مع اليهود لإزالتها من داخل المركز التقليدي. وهنا يقتضي التنويه إلى أن الحماية التي وفرها المسلمون للوجود المسيحي في القدس، بدءاً من العهدة العمرية سنة 15هـ/636م، هي وحدها الكفيلة بإبقاء هذا الوجود

فاعلاً في النسيج المعماري للمدينة ومشاركاً في الحياة الاجتماعية فيها. وأن وحدة المصير أمام عدوانية الكيان الصهيوني اليهودي تفرض على المسيحيين والمسلمين تعزيز وحدتهم وتآزرهم أمام هذا الكيان الغاصب وحلفائه من المسيحيين المتصهينين. وسنعرض فيما يلي من دراسة وتحليل إلى التشكيك بموقع كنيسة القيامة.

1. التشكيك بموقع كنيسة القيامة:

تقع كنيسة القيامة في المركز التقليدي (داخل السور) لمدينة القدس، بنتها القديسة هيلانة Helena والدة الإمبراطور قسطنطين الأول Constantine I في الفترة 326-335 للميلاد. والكنيسة واحدة من أقدم ثلاث كنائس في فلسطين، بل في العالم. وهي رمز الوجود المسيحي العربي والشرقي (الأرثوذوكسي)، ومثلث الهوية المعمارية للقدس طوال الفترة 335-636 للميلاد، أي قبل تحرير المسلمين للقدس من البيزنطيين. واستمرت الكنيسة في تمثيل الهوية المعمارية في بداية عهد المسلمين حتى بناء قبة الصخرة المشرفة سنة 72هـ/691م.

ولقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية[22] طرح نفسها كبديل لكنيسة القيامة وطرح مدينة روما كبديل للقدس، إلا أن جميع محاولاتها باءت بالفشل، ولم تتمكن من السيطرة عليها إلا في الحروب الصليبية في الفترة 492-583هـ/1099-1187م. ثم أعادها المسلمون بعد تحرير القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي إلى المسلمين الأرثوذكس، وعاد المسيحيون العرب إلى مشاركتهم الفاعلة في الحياة الاجتماعية في المدينة، وممارسة طقوسهم الدينية في كنيسة القيامة التي تمثل رمز الوجود المسيحي في مدينة القدس.

ومع بداية القرن 19 شهدت القدس هجمة يهودية ومسيحية أوروبية استيطانية[23] حاولت زعزعة الوجودين الإسلامي والمسيحي الأرثوذكسي وأرادت أن تفرض لنفسها حضوراً على حساب المدينة وأهلها. وكان أخطر ما في هذه الهجمة المشتركة هو التشكيك بصحة موقع كنيسة القيامة، وانبرى لهذا التشكيك القس الإنجيلي الأمريكي روبرت روبنسون Robert Robinson[24]، واستند في تشكيكه إلى أن المسيح عليه السلام يهودي، واليهود لا يدفنون موتاهم داخل الأحياء السكنية، ولما كان القبر داخل سور المدينة ووسط السكان، كما يزعم الآثاريون اليهود، فإن موقع القبر غير صحيح وكذلك موقع البناء الذي يعلوه، وهو كنيسة القيامة، غير صحيح أيضاً.

ثم عزز هذا التشكيك الجنرال البريطاني تشارلز جوردون Charles Gordon[25]، الذي ادعى أن صخرة الجمجمة (الجلجلة) Skull Hill (Golgotha) ليست في موقع كنيسة القيامة بل تقع في حي المصرارة شمال باب العمود (باب دمشق)، وفي المكان المعروف بمقبرة الحديقة Garden Tomb، الذي ادعى اكتشافها سنة 1867 في أثناء زيارته للقدس. وعليه، فإن قبر المسيح عليه السلام حسب زعم القس روبنسون والجنرال جوردون الإنجيليين هو خارج السور، وليس في موقعه الحالي أي داخل كنيسة القيامة.

أما الكاثوليك[26] فيدعون أن موقع كنيسة القيامة كان خارج السور الثاني زمن المسيح عليه السلام، خلافاً لما هو متعارف عليه بين علماء الآثار، كما هو موضح بالمخطط رقم 1، وهذا ما يستندون إليه مقابل الدعاوى اليهودية والإنجيلية.

وفي رأي الباحث أنه لا يوجد سور ثانٍ أو ثالث كما تزعم المصادر الكتابية اليهودية والآثاريون الغربيون، وأن الموقع الحالي لكنيسة القيامة يجب أن يبقى قائماً وخارج نطاق التشكيك حتى لا يكون هذا التشكيك بداية لحائط براقٍ جديد[27]، يستند عليه الكيان الصهيوني اليهودي لإزالة الوجود المسيحي برمته من المركز التقليدي (القدس داخل السور) ومن جبل الزيتون، إذا نجح بإزالة الوجود الإسلامي كما يخطط.

واللافت للنظر أن تشكيكاً من نوع جديد بدأ الكيان الصهيوني اليهودي في الترويج له، وهو أن الوجود المعماري للأديان السماوية الثلاثة[28]: الإسلامي والمسيحي واليهودي يشكل عائقاً أمام تنمية المدينة اقتصادياً، وأنه لا بدّ من التخلص منه. وعقد الكيان مؤتمراً عمرانياً يهودياً لمدينة القدس اقترح فيه نقل قبة الصخرة إلى مدينة عكا كما في الصورة رقم 2 أو إلى مدينة نابلس انظر الصورة رقم 3 ونقل حائط البراق إلى صفد انظر الصورة رقم 4 ونقل كنيسة القيامة إلى الناصرة.

هنا يتوجب علينا أن نكون أكثر وعياً أمام هذه المقترحات لإبطالها، وتفعيل حضورنا في المدينة. كما يتوجب علينا أن نعي جيداً أن الحفاظ على الوجود الإسلامي المعماري هو الضمان الوحيد للحفاظ على الوجود المعماري المسيحي وبالتحديد كنيسة القيامة، أما طريق الآلام فهو وجود مستحدث، ووجوده وعدمه لا يغير ولا يبدل من وحدة النسيج المعماري للمركز التقليدي للقدس وطابعه وهويته كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل.

2. التشكيك بطريق الآلام:

طريق الآلام هو طقس مسيحي كاثوليكي تمّ استحداثه في بداية القرن 19، وهذا الطريق كما تدعي التقاليد المسيحية الكاثوليكية هو الطريق الذي سار فيه المسيح عليه السلام من المبنى الذي حوكم فيه، وهو الآن "المدرسة العمرية" الكائنة في الزاوية الشمالية الغربية للحرم كما تزعم المصادر المسيحية، كمحطة أولى وحتى المكان الذي صلب ودفن وقام منه وهو كنيسة القيامة.

وطريق الآلام هو أول اختراق مسيحي كاثوليكي للحي الإسلامي منذ انتهاء الحروب الصليبية، حيث تغير اسم الطريق من عقبة السراي القديم إلى طريق الآلام كما هو مثبت على خريطة الكولونيل البريطاني تشارلز ويلسون Charles Wilson سنة 1864-1865 انظر مخطط رقم 2، وذلك لأن المحطات أو الأماكن التي زعم أن المسيح عليه السلام وقع عندها أو استراح بها أثناء سيره مقيداً على الصليب تقع في طريق عقبة السراي القديم ثم تنعطف قليلاً في طريق الواد ثم تنحرف يميناً باتجاه كنيسة القيامة، كما هو موضح بالمخطط رقم 3.

والتشكيك اليهودي قائم على أن هذه الدعاوى جميعها مستحدثة، إذ لا يعقل تحديد هذه المحطات من خلال "أبنية متهدمة تقع في أزقة علاها الطمم"، والادعاء أنها من المحطات التي مرّ بها المسيح ومنحها صبغة القداسة. والحقيقة أن تحديد المواقع لم يستند إلى أي دليل تاريخي أو مادي، وظهر في وقت متأخر[29]، إما في القرن 14 أو القرن 16. وفي رأي الباحث أن كلا البدايتين غير صحيحة، لأن المسلمين كانوا في أوج قوتهم في القرون 14-18 ميلادية. وفي الأعم الأغلب أنه بدأ في بداية القرن 19 كنتيجة للهجمة المسيحية الأوروبية على القدس وللصراع المسيحي (الأرثوذكسي الكاثوليكي البروتستنتي) المحموم، لإثبات حضور كل كنيسة منها في القدس.

واللافت للنظر أن هذا التقليد لو كان حقيقياً لبادر إلى ممارسته رجال الدين من المسيحيين الأرثوذكس ولما انتظروا الرهبان الكاثوليك لابتداع هذا التقليد، وأكثر من ذلك فإنه لو كان هذا التقليد صحيحاً لمارسه الكاثوليك أنفسهم أثناء احتلال الصليبين للقدس (493-583هـ/1099-1187م)، لأن الكنيسة الكاثوليكية هي التي سيطرت على الشأن المسيحي في القدس طوال فترة احتلال الصليبيين لها.

إن ما يعنينا هنا هو ليس مصداقية التشكيك من عدمه، بل هدفه وغايته. فهو وإن كان باطلاً كل البطلان في كنيسة القيامة، أو حتى لو كان محقاً في طريق الآلام، فإن الهدف والغاية من هذا التشكيك هو التخلص من تقليد ديني مسيحي، وهدم تسع كنائس مقامة على الجزء الواقع في الحي الإسلامي من طريق الآلام من ناحية، وتعزيز تشكيكهم بصحة موقع كنيسة القيامة من ناحية أخرى، لأن المحطات الخمسة الأخيرة من أصل 14 محطة التي وقع فيها المسيح حسب هذا التقليد تقع داخل كنيسة القيامة. وبتخلصهم من هذا التقليد الظاهر الحضور كل يوم جمعة، يقتضي التخلص من مباني الكنائس التي تمثل ركائز هذا التقليد، ومن ثم يتخلصون من الوجود المسيحي داخل المركز التقليدي. وقد تمّ فعلاً تسليم إخطارات من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني اليهودي لكنيسة الأرمن الكاثوليك[30]، التي يعود تاريخها إلى أكثر من 150 عاماً، لهدم طابقين شيدا على سطح الكنيسة التي تقع في طريق الآلام، وتضم المحطتين الثالثة والرابعة من درب المسيح في طريق الآلام حسب هذا التقليد الديني.

وعليه، فإن واجب المسلمين والمسيحيين أن يكونوا متنبهين لمخططات ونوايا الكيان الصهيوني اليهودي، المؤجلة مع الوجود المسيحي، والمعلنة مع الوجود الإسلامي وأماكن عبادته ومقدساته التي ستكون موضوعنا التالي.

ثالثاً: الصراع مع الحضور المعماري الإسلامي في المركز التقليدي ومحيطه:

في المحورين السابقين عرضنا لمحورين من خطة الكيان الصهيوني لتهويد القدس وهما؛ الأول: المزاعم والدعاوى اليهودية المتعلقة بحضورهم العمراني والمعماري بالمدينة. والثاني: التشكيك بالحضور المعماري المسيحي الذي سبقه تشكيك بالحضور الإسلامي العمراني والمعماري. أما المحور الثالث والأخير فهو عنصر المطالبات بالاعتراف بالحضور اليهودي العمراني والمعماري على حساب الحضور الإسلامي أو إلى جانبه، وهذه المرحلة تستهدف المسجد الأقصى (الحرم القدسي) المكون الرئيسي للهوية المعمارية العربية الإسلامية للمدينة. وخطة الكيان الصهيوني قائمة على المطالبة بمشاركة الحضور الإسلامي بالموقع أو في جواره، ومزاحمته لإضعاف شخصيته البصرية، تمهيداً للانقضاض عليه وهدمه والانفراد به، وإقامة هيكلهم المزعوم إن

وجدوا طريقاً أو منفذاً إلى ورطتهم الدائرية التي عرضنا لها في المحور الأول. وسنعرض في هذا المحور لمطالباتهم العمرانية والمعمارية بعد أن نعرض لعمارة المسجد الأقصى (الحرم القدسي)، ونُبيِّن مدى حضوره في النسيج المعماري، وبصفة خاصة طغيان الشخصية البصرية لقبة الصخرة على المشهد المعماري للمدينة، التي يشكل حضورها ثقلاً نفسياً، وحاجزاً عاطفياً، وعائقاً مادياً معمارياً، ومانعاً دينياً لتهويد المدينة.

1. المسجد الأقصى (الحرم القدسي):

يقع المسجد الأقصى في المنطقة الجنوبية الشرقية للمركز التقليدي لمدينة القدس ومساحته 143 دونماً من مساحة المركز التقليدي البالغة ألف دونم، وهنا يتوجب التنويه أن المسجد الأقصى[31] يطلق على كامل المساحة البالغة 14.3% من مساحة المركز التقليدي ويشمل جميع المباني المقامة على هذه المساحة بما فيها قبة الصخرة. لكن الناس تواضعت على أن تسمي هذه المساحة بالحرم وأن تسمي المسجد الكائن جنوب هذه المساحة بالمسجد الأقصى. ولما كان الأصل في الأسماء المواضعة، أي اتفاق الناس، فسأشير من الآن إلى ما تواضع عليه الناس، أي سأسمي بناء المسجد الكائن جنوب المساحة بالأقصى وكامل المساحة بالحرم القدسي، وهو في الإسلام يمثل أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، قدسيته مطلقة، وحرمته مصانة، باركه الله سبحانه وتعالى، وشرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج.

يشكل الحرم القدسي فضاء بصرياً واسعاً جداً وبه مبنيان مركزيان هما: قبة الصخرة 66-72هـ/685-692م والمسجد الأقصى (الجامع القبلي) 87هـ/705م. وهناك مجموعة من مباني المدارس المقامة على ضلعيه الغربي والشمالي، وهذه المباني شكلت في مجموعها حرماً جامعياً استقطب نخبة من العلماء، وخرج نخبة منهم، كما يضم الحرم مجموعة من العناصر والمفردات المعمارية كقبة السلسلة وغيرها من القباب ومنبر برهان الدين الرخامي وسبيل قايتباي وبعض التُرَب.

أما تحت الأرض فيشمل المصلى المرواني الكائن في الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم، كما يشمل تسوية مبنى المسجد الأقصى والمداخل الثلاثة الكائنة في الواجهة الجنوبية التي تؤدي إلى مساحة الحرم وإلى المصلى المرواني.

والحرم برمزيته الدينية وفضائه البصري ومبنييه المركزين، خاصة قبة الصخرة، يفرض حضوره على النسيج المعماري للمركز التقليدي (القدس داخل السور)، ويشكل

هويته المعمارية العربية الإسلامية. وهذا ما يثير حفيظة الكيان الصهيوني اليهودي، ويعرقل تهويد المدينة؛ فمحاولاته التشكيكية التاريخية فشلت، ومخططاته الآنية مبنية على مجموعة من المزاعم والدعاوى التي لن يتمكن من فرضها في المستقبل المنظور وسيكون مصيرها الفشل كسابقتها. وسنتحدث فيما يلي عن قبة الصخرة باعتبارها المبنى الأقدم زمناً والأظهر حضوراً في عمارة الحرم الشريف، ثمّ نبيّن محاولات الكيان الصهيوني اليهودي في زعزعة حضورها والتخلص منها بإزالتها وهدمها.

2. قبة الصخرة:

تتمتع قبة الصخرة بمزايا عديدة: دينية ومكانية وتاريخية ومعمارية وجمالية وإتقانية، شكلت منها شخصية بصرية ذات حضور طاغٍ ومسيطر يأخذ بالألباب ويذهب بالعقول ويهيج القلوب ويسكن في الوجدان وتعشقه النفوس، خاصة للقادم من الشرق، حيث تبرز له قبة الصخرة، فيتفاجأ بموضعتها الحضرية الرائعة وشكلها الرشيق، ونِسَبها الجميلة المتناسقة، وألوانها الزاهية البراقة، التي تدهش الناظر، وتسلبه وعيه للحظات يحتاجها العقل للإدراك، فيتحرر الوعي وتلذ النفس بما ترى ويهيج القلب عشقاً وطرباً. هذه الحالة يلمسها ويعيشها كل من رآها قادماً من الشرق، حيث أكدها القاضي مجير الدين العليمي[32] (860-928هـ/1455-1521م) في كتابه الأنس الجليل 900هـ/1494م، فمنظر قبة الصخرة من الشرق تجربة فريدة في الإدراك تعجز الكلمات عن التعبير عنه ويقصر الوصف عن تصويره.

أما من الجنوب فالشخصية البصرية لقبة الصخرة ظاهرة الوضوح، مسيطرة وطاغية، وإن افتقرت إلى عنصر المفاجأة. وأما من الغرب والشمال فشخصيتها البصرية تظهر بكل قوتها وسيطرتها من داخل المركز التقليدي (المدينة داخل السور) وليس من خارجها كما هو الحال من الشرق والجنوب، لأن المباني في شمال وغرب المدينة تحجبها جزئياً فلا يتبينها القادمون من هذه الجهات بوضوح إلا بعد دخولهم المدينة. فحضور الشخصية البصرية لقبة الصخرة وسيطرتها على النسيج المعماري للمدينة يعود إلى جملة المزايا التي ذكرتها سابقاً والتي سنعرضها فيما يلي.

إن أهم المزايا التي تتمتع بها الشخصية البصرية لقبة الصخرة هي موضعتها الحضرية، والمقصود بالموضعة الحضرية هو موقع قبة الصخرة داخل الحرم القدسي ومن ثم داخل المركز التقليدي. ولقد بينّا فيما سبق أن الحرم القدسي يحتل الجزء

الجنوبي الشرقي من المركز التقليدي، وقبة الصخرة تتموضع تقريباً في منتصفه، وهي مقامة على دكة (مصطبة أو منصة)، مرتفعة عن سطح أرضية الحرم بحوالي خمسة أمتار. ولقد لعبت الدكة دوراً رئيسياً في إظهار مبنى قبة الصخرة من داخل الحرم القدسي وخارجه، فقوت من مركزية مبنى القبة وسط الحرم وجعلته قبلة الناظرين من جميع الاتجاهات، فألغت جميع عوائق التواصل البصري بين مبنى القبة والناظرين من داخل الحرم، وعززت إظهارها وحضورها من خارجه خاصة من الشرق والجنوب.

فالموضعة الحضرية إذن إبداع معماري بامتياز، ومعالجة معمارية غير مسبوقة، قلدتها المدن الإيطالية والأوروبية في القرون 10-16 ميلادية أو ما يعرف في الحضارة الغربية "بالقرون الوسطى وعصر النهضة"[33]. وأكثر من ذلك فإن الموضعة الحضرية لقبة الصخرة أصبحت أنموذجاً للمدينة المثالية في أوروبا في القرن 15[34]، كما في الصورتين رقم 5 و6.

كما عزز الموضعة الحضرية للقبة الحلول المعمارية التي ابتدعها القائمون على ممارستها، فجعلوا الوصول إليها من خلال أدراج، فزادوا بذلك من شخصيتها البصرية، وواصل القائمون على عمارتها وصيانتها (منذ القرن 10 وحتى بداية القرن 14) تعزيز موضعتها الحضرية وتقوية شخصيتها البصرية بإضافة القناطر (الموازين) التي تعلو الأدراج السبعة المحيطة بالدكة من جهاتها الأربعة، التي بدورها عملت على تحديد مسار البصر ومجال الرؤية وجعل مبنى قبة الصخرة محجاً للمشاهدين وقبلة للناظرين، فكانت هذه القناطر حلولاً مبتكرة وعناصر جديدة في تشكيل وتكوين الشخصية البصرية لمبنى القبة وتعزيز حضورها. ويقتضي التنويه هنا بأن هذا الحل المبتكر، أي استعمال القناطر، قد تأثرت به العمارة المغولية بالهند، فاستعملت في معظم مداخل المباني الرئيسية، خاصة في ضريح تاج محل كما في الصورة رقم 7. واللافت للنظر أن العمارة المغولية قلدت قبة الصخرة في مباني الأضرحة[35]، كما في الصورة رقم 8. وهذا بدوره يؤكد حضور عمارة قبة الصخرة في العالم الإسلامي أيضاً.

ومن الحلول المعمارية التي ساعدت في تعزيز الشخصية البصرية لقبة الصخرة، الشكل المثمن، الذي من مزاياه عدم وضوح نهايتيه بشكل قاطع كما في المربع والمستطيل، فالناظر يتلمس حضوره كيفما اتجه البصر، فيتوالى حضوره مع حركة الناظر إليه، فتبقى الشخصية البصرية (الشكل) لمبنى قبة الصخرة ماثلة للناظرين إليها

دون انقطاع حتى الولوج إليها، الأمر الذي يقوي حضورها ويميزها عن سائر مباني المدينة ويؤكد هويتها المعمارية. فاختيار الشكل المثمن عمل إبداعي بكل المعايير، وزاد في إبداعه انسيابه إلى أعلى بشكل مخروطي ليشكل فوق مساحة الصخرة دائرة تعلوها رقبة القبة، ثم القبة التي تتسامى إلى أعلى فتضيق رويداً رويداً وبالتدريج، حتى تنهي تحيزها بالفضاء بشكل مدبب، يعلوه الهلال رمز الإسلام والمسلمين. فتكتمل بذلك شخصية قبة الصخرة البصرية المدروسة هندسياً بدقة متناهية سواء على مستوى التدرج الشكلي لعناصر المبنى أم على مستوى النسب المتناسقة طولاً وعرضاً وارتفاعاً وهذه المعالجة الهندسية عبرت عن معالجات معمارية بحس فني راقٍ وجمالي عالٍ، أسفرت بدورها عن إنتاج عمل معماري (مبنى) إبداعي في غاية الروعة والجمال.

وتواصلت المعالجات المعمارية في أعمال الكسوة الخارجية للمبنى لتزيد من روعته وجماله، فلجأ المعمار إلى توظيف الكسوة الخارجية بصرياً باستعمال التفاصيل المعمارية والزخارف والألوان. فاستعمل الرخام المائل إلى البياض في أسفل المبنى، وعمد إلى استعمال الزخارف الهندسية الكبيرة الحجم باستخدام الرخام الأسود لتسهيل عملية إدراكها وتسريع عملية الانتقال منها إلى الأجزاء العليا من المبنى التي كساها بالبلاط القيشاني بزخارفه الهندسية المتنوعة، الصغيرة الحجم والدقيقة التفاصيل والمتعددة الألوان حتى وإن غلب عليها اللون الأزرق.

وهدف المعمار من هذا التنوع في المواد والتباين في الزخارف والألوان؛ إلى تعزيز المنظومة الجمالية للمبنى التي توّجها باللون الذهبي البراق للقبة نفسها من ناحية، وإلى تسريع عملية الإدراك الجمعي للمبنى لتتساوق مع التدرج الشكلي والنسب المتناسقة للمبنى التي أشرنا إليها سابقاً. فتتم عملية الإدراك الجمعي لمبنى القبة بشكل موحد وسريع ودون فوارق ذهنية تعمل على تجزئة الإدراك بالانتقال من عنصر إلى عنصر آخر. فمن خصائص اللون الأبيض إظهار الجسم بما هو عليه، أي بحالته الحقيقية، فثبت به المعمار الشكل المثمن على مستوى الأرض، وعمد إلى توظيف اللون الأزرق في أعلى الشكل المثمن ليتكامل مع الفضاء البصري للمبنى، ثم نوّع الألوان في قطع الزجاج المعشق بجص الشمسيات (الشبابيك) الموزعة بانتظام على رقبة القبة ليسهل بذلك عملية الانتقال من الشكل المثمن إلى القبة التي أنهى بها منظومة المواد والألوان بالذهب اللامع والبراق، فأكد بذلك شخصيتها البصرية، وعزز تحيزها بالفضاء؛ لتصبح العنصر المعماري الأقوى حضوراً في النسيج المعماري للمدينة.

عرضنا فيما سبق للمزايا الدينية والمكانية والمعمارية والجمالية والإتقانية الهندسية، ونضيف إليها هنا أن لقبة الصخرة سقفاً مزدوجاً وبينهما فراغ، وهو ثاني سقف مزدوج في الإسلام، أما الأول فكان للكعبة المشرفة. والسقف الخارجي هو سقف إنشائي أما الداخلي فيعرف في عصرنا الحاضر بالسقف العيرة، ويستعمل لتزيين سطح المبنى الداخلي، ولهذا السبب استعمل السقف الداخلي في الكعبة وقبة الصخرة المشرفتين.

أما الفراغ الداخلي فاستغل حالياً في أعمال تمديدات الكهرباء والميكانيك ومقاومة الحريق وقد تمّ استغلاله في قبة الصخرة لهذه الغاية في أعمال الترميم الأخيرة المعروفة بالإعمار الهاشمي، فساعد هذا الفراغ في إخفاء تمديدات التقنيات المستجدة لحماية مبنى قبة الصخرة.

أما مزاياها التاريخية فيكفي أن ننوه هنا بأن قبة الصخرة هي أقدم بناء معماري بقي على حالته الأصلية في الإسلام؛ فالشكل المعماري بقي كما هو ولكن اختلفت أعمال الكسوة ومواد البناء، أما عناصر المبنى فلم يطرأ عليها أي تغيير أو زيادة أو نقصان. وحتى يتم إجلاء أي تناقض قد يتبادر إلى الذهن بأن الكعبة المشرفة هي أقدم من قبة الصخرة فهذا صحيح، إلا أن الكعبة المشرفة بنيت قبل الإسلام أما قبة الصخرة فبنيت في الإسلام. وأما المسجد النبوي والحرم المكي فلم تكتمل شخصيتهما البصرية إلا بعد بناء قبة الصخرة، المكتملة الشخصية البصرية، بفترة زمنية طويلة، وتحديداً في عهد الخليفة العباسي المهدي، ناهيك عن أنها أولى القبلتين والجزء الأقدم من ثالث الحرمين الشريفين.

بيّنا فيما سبق الحضور العمراني والمعماري الإسلامي ممثلاً بالحرم القدسي ومبنييه الرئيسيين المسجد الأقصى (الجامع القبلي) وقبة الصخرة، وركزنا على المنظومة الجمالية لقبة الصخرة وتحيزها في الفراغ بشخصيتها البصرية الطاغية وسيطرتها على جميع مفردات النسيج المعماري للمركز التقليدي، الذي يمثل ثقلاً نفسياً وعبئاً عاطفياً على الكيان الصهيوني اليهودي، الذي يرى فيها عائقاً مادياً معمارياً ودينياً أمام خططه في تهويد المدينة التي بدأها بالمزاعم والدعاوى، وعززها بمطالبات المشاركة، تمهيداً لنواياه المستقبلية بهدمها وإزالتها، وسنعرض فيما يلي إلى مطالبات ومقترحات الكيان الصهيوني في الحرم القدسي.

مطالبات ومقترحات الكيان الصهيوني المعمارية والعمرانية:

تقوم المطالبات الصهيونية اليهودية على مبدأ "اكذب ودع غيرك ينفي"، وبين الكذب والنفي تتشكل واقعة، فمناقشتها اعتراف بها وإهمالها يفسر إما تسليم بها أو عجز عن دحضها، وفي كل الحالات فإن المستفيد هو الكيان الصهيوني. فالكذب الصهيوني بوجود حضور معماري له داخل المركز التقليدي لم يسفر عن تحقيق أي نتيجة إيجابية، أما عمرانياً فنجح في تحقيق حضور له في مساحة البراق، وهي مكان مزوي في طرق المركز التقليدي ولا يشكل مركزاً حضرياً لأنشطة سكان المدينة الاجتماعية والثقافية والتجارية، بل يقتصر على ممارسة نشاط ديني يهودي محدود.

أما مدنياً فقد استطاع تحقيق حضور معماري وعمراني داخل المركز التقليدي يتمثل فيما يسمى بالحي اليهودي، الذي أقيم على أنقاض الحي الإسلامي الجنوبي (حارة المغاربة وحارة الشرف وجوارهما) وبالإضافة إلى حضوره البصري المغاير للشخصية البصرية لكامل المركز التقليدي فإنه أيضاً يفتقر إلى وجود مفردات معمارية دينية كقبة الصخرة وكنيسة القيامة، حيث تتمتع الأولى بشخصية بصرية طاغية ومسيطرة على جميع مفردات النسيج المعماري للمدينة إضافة إلى قيمتها التاريخية ورمزيتها الدينية، بينما تتمتع الثانية، أي كنيسة القيامة، بقيمة ورمزية دينية مسيحية تثير حفيظة اليهود، وتذكرهم بوطأة التاريخ الذي عانوا منه منذ تنصير القدس في بداية القرن الرابع الميلادي وحتى احتلالهم للقدس سنة 1967.

كما أن المبنيين؛ المسجد الأقصى ككل وكنيسة القيامة، يشكلان بؤرتي النشاط الديني والاجتماعي والثقافي والتجاري في المدينة المستثنى منها الجماعات اليهودية. فيوم الجمعة يتوافد على المركز التقليدي من المسلمين ما بين 250-300 ألف شخص، وهذا العدد يساوي تقريباً عدد المستوطنين اليهود في القدس الكبرى، بل حتى في إقليم القدس. بينما نجد حضوراً مسيحياً مميزاً وإن كان بأعداد بسيطة يوم الأحد، وكذلك عصر يوم الجمعة؛ لممارسة تقليد السير في درب الآلام الذي ينتهي في كنيسة القيامة.

فالمركز التقليدي إذن بنسيجه المعماري يمثل الهوية المعمارية للقدس الكبرى بعمارته الدينية الإسلامية الأقوى حضوراً، والمسيحية بقيمتها التاريخية، ويفتقر إلى حضور عمارة دينية يهودية، الأمر الذي دفع الكيان الإسرائيلي إلى اختلاق المزاعم والدعاوى لتحقيق حضور مادي معماري وعمراني له يزاحم الحضور المعماري الإسلامي

كمرحلة أولى، ثم ليحل محله كمرحلة ثانية، ثم الانقضاض على الحضور المعماري المسيحي كمرحلة أخيرة، نجملها فيما يلي:

1. الادعاء بأن الهيكل المزعوم كان مقاماً في الحرم القدسي، وقد حددت الأماكن التي زعموا أنه كان مقاماً عليها، وأسس الكيان الصهيوني اليهودي على هذا الزعم المطالب التالية:

أ. المطالبة بنقل قبة الصخرة خارج المركز التقليدي، كما في الصورة رقم 9، لإقامة هيكلهم المزعوم مكانها.

ب. اقتراح نقل قبة الصخرة إلى مدينة عكا كما في الصورة رقم 2 أو إلى مدينة نابلس كما في الصورة رقم 3.

ج. المطالبة بإقامة هيكلهم المزعوم أسفل الحرم القدسي.

د. اقتراح بناء الهيكل المزعوم في ساحة البراق.

2. الادعاء بأن حائط البراق هو جزء من الحائط الغربي لهيكلهم المزعوم، وقد نجحوا في إنشاء فضاء حضري حقق حضوراً عمرانياً لهم مقابل حائط البراق، ويمارسون فيه صلواتهم كما بيّنّا سابقاً.

3. الادعاء بأن قبة الصخرة هي الهيكل المزعوم، وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية هذا الادعاء وحولت قبة الصخرة إلى كنيسة باسم هيكل سليمان كما بيّنا سابقاً، وتمّ استعمالها كرمز وشعار يهودي عند يهود البندقية[36]، كما في الصورتين رقم 10-أ ورقم 10-ب.

4. المطالبة بما يسمى "بالحوض الديني أو الحوض المقدس أو الحوض التاريخي"، وقد عرضنا لهذا المطلب سابقاً.

5. المطالبة بتوسعة مساحة المركز التقليدي من كيلومتر مربع واحد إلى ثلاثة كيلومترات مربعة ليشمل ما يسمى بالحوض الديني.

هذه إذن مجمل الدعاوى والمطالبات التي يتبناها الكيان الصهيوني اليهودي لمزاحمة الحضور المعماري الإسلامي الديني كمرحلة أولى تمهيداً لإزاحته وهدمه كلياً، ليتفرغ بعدها للتخلص من الحضور المعماري المسيحي، خاصة كنيسة القيامة وطريق الآلام، الذي بدأ فعلاً بتنفيذ مخططه فيه كما بيّنا سابقاً في المحور الثاني. أما التخلص من

الحضور المعماري الديني المسيحي الكائن على جبل الزيتون شرقي المركز التقليدي فهو أمر حتمي أو تحصيل حاصل كما يبدو، لأنه يتعارض مع طقسي العبادة الرئيسيين في الدين اليهودي كما بينّا سابقاً.

وبهذه المزاعم والمطالبات أيضاً فإن الكيان الصهيوني يحاول فرض حضوره المعماري بين مفردات النسيج المعماري للمركز التقليدي، وبصفة خاصة داخل المسجد الأقصى (الحرم القدسي) لأن عناصره المعمارية، وتحديداً قبة الصخرة، هي الأظهر حضوراً والأقوى تعبيراً عن الهوية المعمارية العربية الإسلامية للمركز التقليدي لمدينة القدس. فالشخصية البصرية التي تتمتع بها قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى ككل في الفضاء البصري للمركز التقليدي لا تتوفر لأي مفردة معمارية أخرى (مبنى آخر) في النسيج المعماري لهذا المركز، بما فيها كنيسة القيامة بالرغم من قيمتها الدينية والتاريخية، وذلك لأن شخصيتها البصرية غير مستقلة، لاتصالها واندماجها مع باقي مفردات النسيج المعماري المحيطة بها، الذي أفقدها فضاءها البصري الذي تتشكل فيه الشخصية البصرية ومن ثم الهوية المعمارية.

ولهذا السبب فإن الكيان الصهيوني اليهودي عمد إلى المطالبة بنقل قبة الصخرة إلى خارج المركز التقليدي تارة، وإلى خارج القدس الكبرى تارة أخرى. ونظراً لتعذر هذين المطلبين عن التطبيق، لجأ على مزاحمتها في الفضاء البصري، سواء بالمطالبة بمشاركة بالحرم أم باقتراح مشاريع حول الحرم تهدف إلى تحجيم فضائه البصري ليفقد شخصيته البصرية، ومن ثم تفقد قبة الصخرة أيضاً شخصيتها البصرية رويداً رويداً حتى تتمتع بقيمة دينية وتاريخية فقط، وينحسر دورها في تشكيل الهوية المعمارية العربية الإسلامية، ويفقد المركز التقليدي قيمته الممثلة بالمباني الدينية وبصفة خاصة الحرم القدسي وجوهرته بل جوهرة القدس، قبة الصخرة المشرفة بشخصيتها البصرية الطاغية والمسيطرة. وهذا ما يهدف إليه الكيان الصهيوني اليهودي في هذه المرحلة حتى يهيأ الظروف لهدم كل رموز المركز التقليدي الدينية الإسلامية والمسيحية.

خاتمة:

عرض هذا الفصل لمحاولات الكيان الصهيوني تهويد المركز التقليدي لمدينة القدس ضمن ثلاثة محاور. عرض المحور الأول لدعاوى الكيان الصهيوني ومزاعمه الخالصة بحضورهم المعماري والعمراني في المركز التقليدي، وبين غايتها ومراميها في القضاء على الهوية المعمارية العربية الإسلامية للمركز التقليدي لمدينة القدس، من خلال طرح حضورهم المعماري فيه لمزاحمة الحضورين الإسلامي والمسيحي كمرحلة أولى تمهد لهدم رموز هذا الحضور الممثلة بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وطريق الآلام والكنائس المقامة على جبل الزيتون شرقي المركز التقليدي.

ثم تناول المحور الثاني التشكيك اليهودي بالوجود المعماري الديني المسيحي، خاصة فيما يتعلق بموقع كنيسة القيامة وطريق الآلام، وبيّن المحور مرامي وغايات الكيان الصهيوني اليهودي من هذا التشكيك المتمثل بهدم وإزالة رموز الديانة المسيحية من داخل المركز التقليدي. كما أظهر أن هذا التشكيك ما هو إلا تمهيد لمعركة قادمة مع الوجود المسيحي برمته وليس المادي المعماري فقط، وأن هذه المعركة القادمة وقوعها مرهون بنتائج المعركة الدائرة حالياً مع الوجود الإسلامي برمته؛ المعماري والبشري.

ثم عرض المحور الثالث الجزء المتعلق بالصراع مع الحضور المعماري الإسلامي، فبيّن كيف بدأ هذا الصراع بالتشكيك بالحضور العمراني والمعماري الإسلامي، وكيف انتهى هذا التشكيك إلى المطالبات بالاعتراف بالوجود اليهودي المعماري إلى جانب الحضور المعماري الإسلامي. وأظهر أن التشكيك بدأ بالادعاء في القرن الثامن الميلادي أن حائط البراق هو حائط المبكى. كما تحدث المحور كيف أشاعوا في القرن التاسع الميلادي أن قبة الصخرة هي الهيكل المزعوم، وكيف حول الصليبيون قبة الصخرة إلى كنيسة أسموها هيكل سليمان، وبيّن كيف تبنى يهود البندقية قبة الصخرة شعاراً لهم.

ثم تمّ الحديث عن المسجد الأقصى وحضوره الطاغي برمزيته الدينية وفضائه البصري ومبنييه المركزيين، ثم جاء تفصيل لقبة الصخرة المشرفة ومزاياها المتعددة وشخصيتها البصرية الطاغية على كامل النسيج المعماري للمركز التقليدي، وكيف شكلت بهذه الشخصية الهوية المعمارية العربية الإسلامية للمركز التقليدي لمدينة القدس وللمدينة بكاملها.

ثم عرض الفصل لمطالبات الكيان الصهيوني اليهودي في الحرم القدسي، وكيف انتقل من مرحلة التشكيك إلى مرحلة المطالبات التي يهدف من خلالها مزاحمة الحضور المعماري الإسلامي في الحرم القدسي تمهيداً للقضاء عليه وهدمه ليتفرغ بعد ذلك لمعركته مع الحضور المعماري المسيحي.

وفي عرض لهذا الفصل خرج الباحث بتوصية مفادها أن الوجود المسيحي البشري وحضوره المعماري بقاؤه مرهون في القدس بالوجود الإسلامي البشري وحضوره المعماري، لأنه هو الضمان منذ العهدة العمرية. وعليه، فإن تضامن المسيحيين العرب (ليس في القدس فقط بل في العالم العربي كله) هو العامل الأقوى في إفشال خطط الكيان الصهيوني بتهويد القدس، وهذا ما نرى بوادره بين المسيحيين والمسلمين المقدسيين.

الملاحق



المخطط رقم 1[*]

"الأسوار الثلاثة ليبوس (أورشليم) والحوض الديني"

هذا المخطط حسب المزاعم الكتابية اليهودية، التي يؤسس عليها الكيان الصهيوني مطالبته بتوسعة المركز التقليدي ليصبح بمساحة ثلاثة كيلومترات مربعة لتشمل حي البستان في أقصى جنوب المخطط حوالي بركة سلوام (سلوان) في موقع مدينة يبوس حسب المزاعم الكتابية والآثارية، وكذلك جبل صهيون في الجنوب الغربي. كما يظهر وادي القدرون (جهنم) شرقي المخطط ووادي الربابة غربيه، والواديان يشكلان حسب الزعم الصهيوني اليهودي الجزأين الشرقي والغربي من الحوض الديني المزعوم، والمقصود به تحقيق حضور معماري (أثري) يهودي داخل المركز الموسع، من خلال بعض القبور الأثرية الموجودة في وادي القدرون والتي لا صلة لها باليهود.

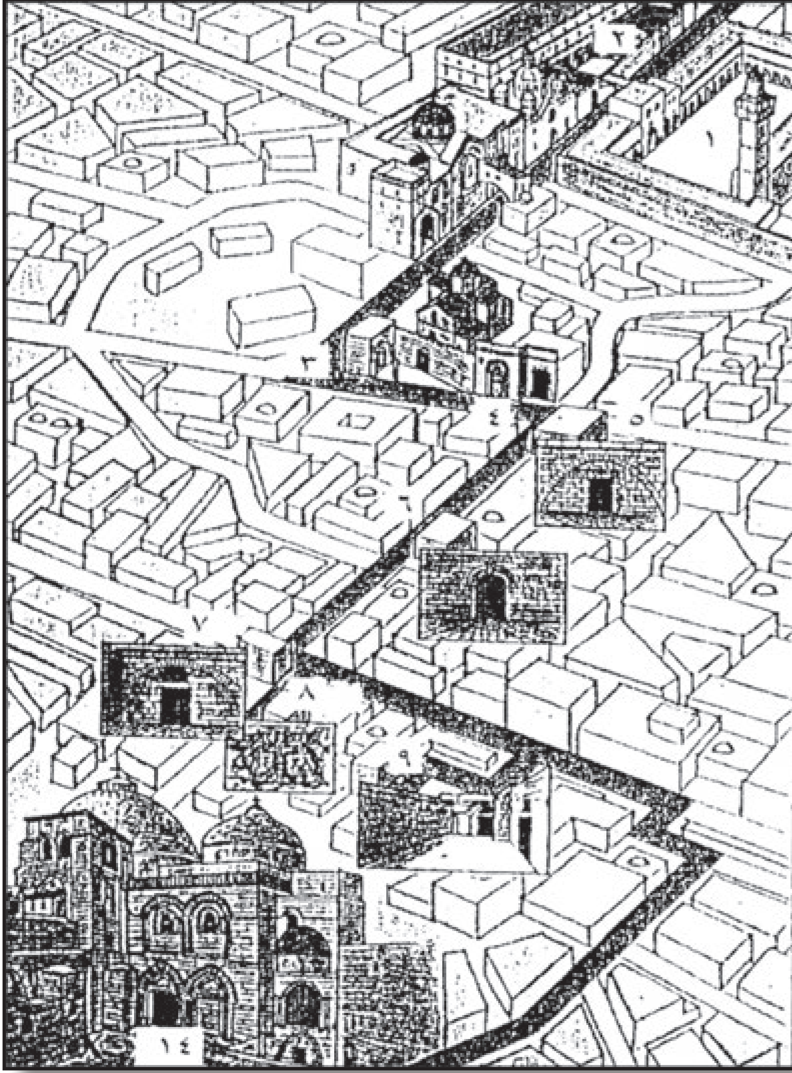
[*] يلاحظ موقع كنيسة القيامة خارج السور الثاني حسب رأي الكنيسة الكاثوليكية في الرد على الدعاوى اليهودية والبروتستنتية. نقلاً عن مصادر متعددة.



المخطط رقم 2

قسم من الحي الإسلامي الشمالي – خريطة الكولونيل البريطاني ويلسون
Wilson Map (1864-1865)

يوضح هذا المخطط الاختراقات المسيحية الأوروبية في الحي الإسلامي الشمالي، ويظهر في المخطط الاسم المستحدث لطريق السراي القديم، وهو طريق الآلام VIA DOLOROSA أسفل اسم الطريق الرسمي القديم TARIK AS-SARAI AL-KADIM، كما يظهر في المخطط النزل النمساوي Austrian Hospice.



المخطط رقم 3

مسار طريق السراي القديم (طريق الآلام المستحدث)

الأرقام من 1-9 تشير إلى الكنائس المسيحية الكاثوليكية التي يشكك اليهود في صحة موقعها، والرقم 14 يشير إلى كنيسة القيامة والمواقع الخمسة الباقية من الطريق وهي بداخلها. وقد بدأ الكيان الصهيوني اليهودي توزيع إخطارات الهدم على الموقع رقم 3 كما هو مبين بالمتن.



صورة رقم 1

قبة الصخرة المشرفة بشخصيتها البصرية الطاغية (من الشرق)،
ويظهر النسيج المعماري للمركز التقليدي.



صورة رقم 2

مقترح نقل قبة الصخرة إلى مدينة عكا في فلسطين المحتلة

(From the Next Jerusalem)



صورة رقم 3

مقترح نقل قبة الصخرة إلى مدينة نابلس في الضفة الفلسطينية المحتلة سنة 1967

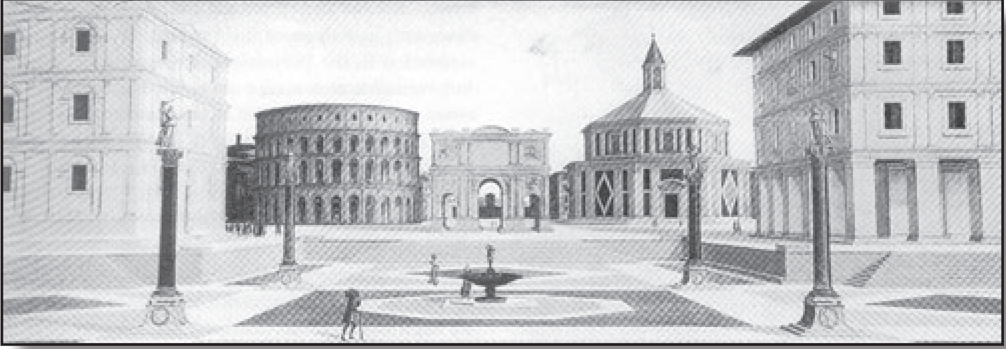
(From the Next Jerusalem)



صورة رقم 4

مقترح نقل حائط البراق إلى مدينة صفد في فلسطين المحتلة 1948

(From the Next Jerusalem)



صورة رقم 5

المدينة المثالية في أوروبا، ويظهر بها شكل قبة الصخرة المقلد.

بييرو ديلا فرانشيسكا Piero della Francesca 1470

(From real & Ideal Jerusalem)



صورة رقم 6

المدينة المثالية في أوروبا، ويظهر بها شكل قبة الصخرة المقلد في وضع مركزي.

معماري مجهول – القرن 15 ميلادي

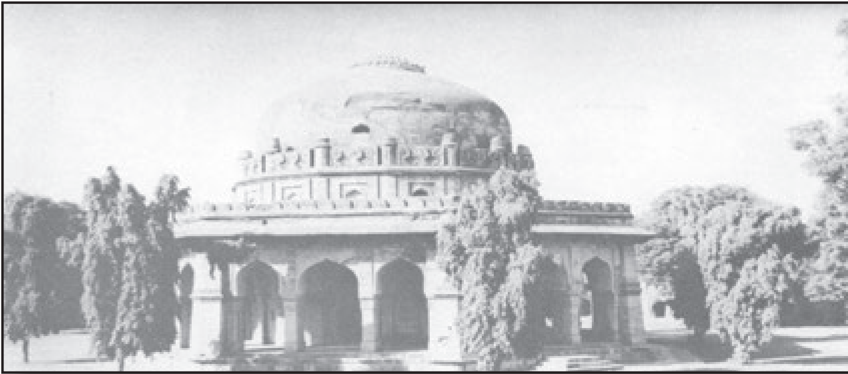
(From real & Ideal Jerusalem)



صورة رقم 7

مدخل تاج محل المقنطر، حيث تعمل القناطر على توجيه البصر باتجاه المبنى، وهو اقتباس مطور عن قناطر قبة الصخرة.

(تصوير الكاتب)

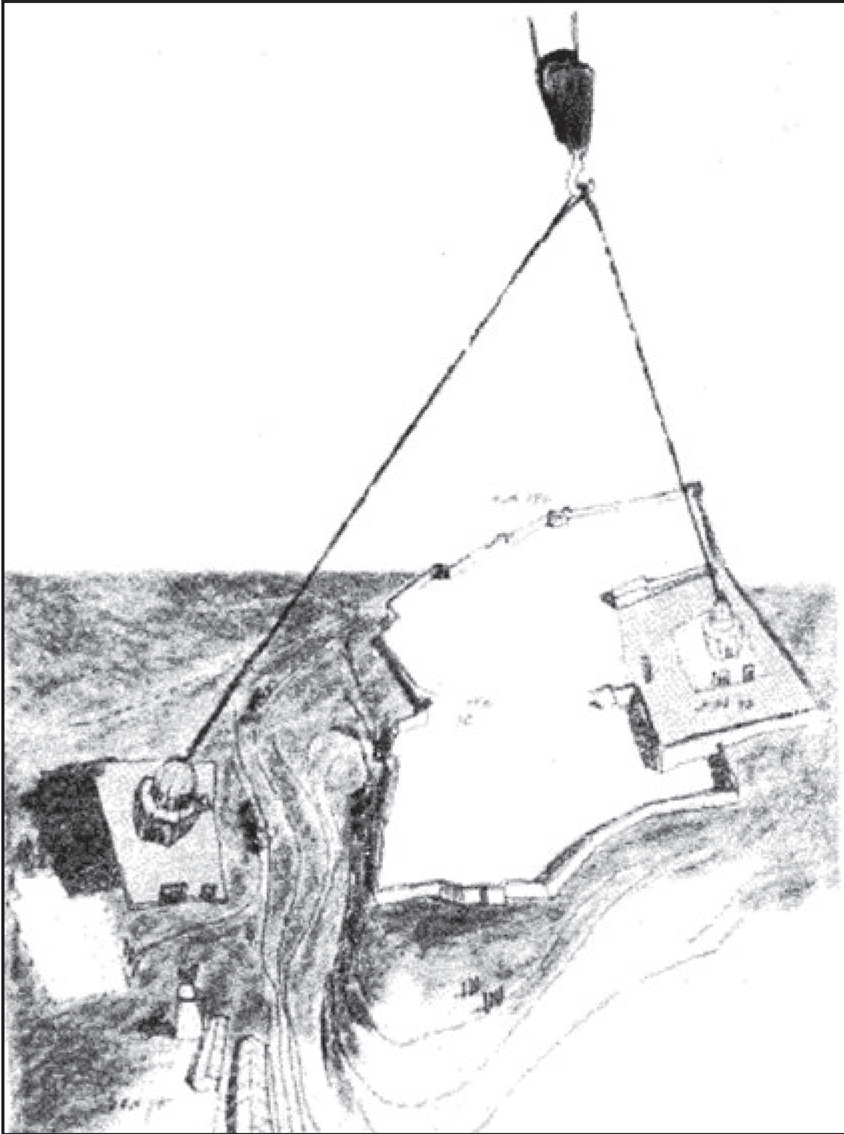


صورة رقم 8

ضريح سكندر لودي Sikandar Lodi سنة 1518

دلهي – الهند

(From The Architecture of India)



صورة رقم 9

مقترح نقل قبة الصخرة من المركز التقليدي إلى غرب القدس

(نقلاً عن جوهرة القدس – د. إبراهيم الفني)



صورة رقم 10–أ

قبة الصخرة باعتبارها الهيكل المزعوم

شعار منشورات دار جوستنياني اليهودية في مدينة البندقية – إيطاليا 1545-1552

(ترجمة الكتابات العبرية هو: "المجد لهذا البيت الأخير")

(From Real & Ideal Jerusalem)



صورة رقم 10–ب

قبة الصخرة باعتبارها الهيكل المزعوم

غلاف كتاب المشناة لموسى بن ميمون

منشورات دار جوستنياني اليهودية في مدينة البندقية – إيطاليا 1550-1551

(ترجمة الكتابات العبرية هو: "المجد لهذا البيت الأخير")

(From Real & Ideal Jerusalem)

هوامش الفصل الثاني

[1] See: I.W.J. Hopkins, *Jerusalem: A study In Urban Geography* (Grand Rapids, Michigan: Baker Book House, 1970), p. 96.

[2] See: *Ibid*., p. 97.

[3] See: Kathleen M. Kenyon, *Jerusalem: Excavating* 3000 *Years of History* (Germany: Thames and Hudson, 1967), p. 14, 28, 50-53.

[4] انظر: حسن عبيد عيسى، "التنقيبات الصهيونية تحت أسس الأقصى،" مجلة **المستقبل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 3610، آذار/ مارس 2009، ص 108-124؛ وانظر أيضاً:
See: M. Ben-Dov, *Historical Atlas of Jerusalem* (N.Y.: Continuum, 2002), pp. 324-362.

[5] انظر: هيرودوت (القرن الخامس ق.م)، **تاريخ هيرودوت**، ترجمة عبد الإله الملاح (أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: منشورات المجمع الثقافي، 2001)؛ وحسن عيسى، "التنقيبات الصهيونية تحت أسس الأقصى،" ص 108-124.

[6] انظر: بديع العابد، "التخطيط العمراني لمدينة القدس وأثر قبة الصخرة على النسيج المعماري للمدن الإيطالية،" **المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، العلوم الطبيعية**، جامعة العلوم التطبيقية، الأردن، المجلد 6، العدد 1، 2004، ص 14.

[7] انظر: بديع العابد، "الهوية المعمارية وأثرها في تحديد الهوية السياسية لمدينة القدس: قبة الصخرة أم الهيكل المزعوم،" **مجلة اتحاد الجامعات العربية للدراسات والبحوث الهندسية**، المجلد 8، العدد 1، 2001، ص 1-70.

[8] انظر: بديع العابد، "الهوية المعمارية،" ص 10-12.

[9] انظر: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية** (القاهرة: دار الشروق، 1999)، ج 5، ص 143-244.

[10] انظر: **المرجع نفسه**، ص 243-244؛ وإسرائيل شاحاك، "اللاهوت اليهودي والقدس،" **مجلة الكرمل**، مؤسسة الكرمل الثقافية، رام الله، العدد 65، 2000، ص 225؛ وبديع العابد، "الهوية المعمارية،" ص 48.

[11] انظر: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية**، ج 5، ص 243-244؛ ولمعرفة تفاصيل وشروط تقديم قربان البقرة الحمراء والعنزة الشاردة انظر: بديع العابد، "الهوية المعمارية،" ص 10-12.

[12] انظر: المراجع نفسها.

[13] انظر: بديع العابد، **المركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض** (عمّان: منشورات الدائرة الثقافية بأمانة عمّان، 2008)، ص 29-40.

[14] ورد ذكر هذا الموقع في تحقيق لمجلة الزمن: "الهيكل الثالث،" مجلة **الزمن**، العدد 103، السنة السابعة، ص 38-42.

[15] See: J. Wines, "Civilization Center: Sketch for a Public Space," M. Sorkin (editor), *The Next Jerusalem* (N.Y.: The Monacelli Press, 2002), pp. 216-224.

[16] انظر: مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 348-351.

[17] انظر: أرمون فرحان، **القدس في الوثائق الفاتيكانية** (بيروت: دار النهار للنشر، 1991)، ص 283-296.

[18] See: M.C. Boyer, "Memories of Contention: The Sacred Stones of Jerusalem," M. Sorkin (editor), *The Next Jerusalem* (N.Y.: The Monacelli press, 2002), p. 386.

[19] انظر: بديع العابد، **المركز التقليدي لمدينة القدس**، ص 29-40.

[20] See: P.V. Naredi-Rainer, "Between Vatable and Villalpando: Aspects of Postmedieval Reception of the Temple in Christian Art," Bianca Kuhnel (editor), *The Real and Ideal Jerusalem in Jewish, Christian and Islamic Art*, Journal of the Center for the Jewish Art, The Hebrew University of Jerusalem, vol. 23/24, 1997/1998, p. 218.

21 See: *Ibid*., pp. 218-301.

22 See: R. Ousterhout, "Flexible Geography and Transportable Topography," Bianca Kuhnel (editor), *The Real and Ideal Jerusalem in Jewish, Christian and Islamic Art*, Journal of the Center for the Jewish Art, The Hebrew University of Jerusalem, vol. 23/24, 1997/1998, p. 218.

23 انظر: بديع العابد، **المركز التقليدي لمدينة القدس**، ص 55-85.

24 See: M.C. Boyer, "Memories of Contention," p. 391, 419.

25 See: J. Wilkinson, *Jerusalem as Jesus Knew it: Archeology as Evidence* (London: Thames & Hudson, 1978), pp. 145-150.

26 See: *Ibid.*

27 See: M.C. Boyer, "Memories of Contention," pp. 391-419.

28 See: J.D. Dodds and others, "Displaced Meanings, Monuments, People," M. Sorkin (editor), *The Next Jerusalem* (N.Y.: The Monacelli press, 2002), pp. 22-35.

29 See: M. Gilbert, *Jerusalem Rebirth of a City* (London: The Hogarth press, 1985), p. 163; Bonechi & Stematzky, *Art and History of Jerusalem*, English edition (Italy: 1999), p. 57; and M.C. Boyer, "Memories of Contention," p. 391, 419.

30 انظر: جريدة **الرأي**، عمّان، 2009/5/1.

31 انظر: مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 11، 24.

32 انظر: **المرجع نفسه**، ج 2، ص 56.

33 انظر: بديع العابد، "التخطيط العمراني لمدينة القدس،" ص 21-34.

34 **المرجع نفسه**.

35 See: Grover Satish, *The Architecture of Islamic India* (1981), pp. 141-143.

36 انظر: بديع العابد، "التخطيط العمراني لمدينة القدس،" ص 34-36؛ وانظر:
S. Sabar, "Messianic Aspiraations and Renaissance Urban Ideals: The Image of Jerusalem in the Venice Haggadah, 1609," Bianca Kuhnel (editor), *The Real and Ideal Jerusalem in Jewish, Christian and Islamic Art*, Journal of the Center for the Jewish Art, The Hebrew University of Jerusalem, vol. 23/24, 1997/1998, pp. 300-303.

الفصل الثالث

العثمانيون ومدينة القدس
الحفاظ على الدور الثقافي والحضاري

(دراسة وثائقية)

العثمانيون ومدينة القدس
الحفاظ على الدور الثقافي والحضاري

د. محمد عيسى صالحية

مقدمة:

مكانة القدس في العقيدة الإسلامية أصيلة، عميقة الجذور، مقدسة مباركة بمحكم آيات التنزيل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء: آية 1)، ما كانت القدس عاصمة لدولة كبيرة ولا كانت مركزاً تجارياً أو صناعياً أو زراعياً، ولا ذات موقع استراتيجي مهم، وإنَّما مدينة مُقدَّسة، جليلة القدر عند المسلمين والمسيحيين واليهود، ومهوى أفئدة مئات الملايين في كل أنحاء الدنيا، ومقصد الحجاج والزوار والسائحين من أتباع الديانات الثلاثة، الإسلام والمسيحية واليهودية[1].

قدسية المدينة وأكنافها مستمدة عند المسلمين من مسجدها الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم. ومن البركة التي أنعم الله بها على كل ذرة من ترابها، وعلى كل أكنافها، وكانت ولا زالت أرض رباط وجهاد حتى يبعث الله الناس، يوم الساعة. وللمدينة تراثها الثقافي، ودورها في نشر العلوم الدينية؛ النقلية والعقلية، متميز مشهور معروف. وإذا ما تعرَّضت لعدوان أو أطماع شكلت أزمة للفكر العربي والإسلامي، لا يخرجه من رصف قيوده إلا الجهاد وثقافة الجهاد، فهي الذاكرة الحية للمسلمين.

دور العثمانيين في الحفاظ على هوية مدينة القدس وتراثها الحضاري والثقافي:

في الرابع من ذي القعدة 922هـ الموافق 1516/12/8م، قام السلطان سليم العثماني المتوفى سنة 926هـ/1520م، وهو في طريقه إلى مصر، بزيارةٍ إلى القدس، مع أنها لم تكن على الطريق الرئيسي للجيش العثماني، حيث أمَّ الأماكن المقدسة في المدينة، وزار مقامات الأنبياء. وكان العلماء والشيوخ والأعيان قد تقاطروا لاستقباله من كافة أنحاء فلسطين: القدس، ونابلس، وصفد، والخليل، وغيرها، وتسلم السلطان سليم مفاتيح المسجد

الأقصى، وأعلن عن ابتهاجه وشكره لله تعالى لدخول أولى القبلتين في ملكه، وأمر بتوزيع الهدايا والعطايا على الوجهاء والأعيان والشيوخ والعلماء وأعفاهم من الضرائب، ثم أنعم على أخفش زاده، شيخ الطائفة المولوية الصوفية بمبلغ 500 أقجة، يتناولها شهرياً من الصرة السلطانية[2]، وكان سلاطين بني عثمان يدعمون الطريقة المولوية المنسوبة لجلال الدين الرومي، التي حظيت بأهمية سياسية واجتماعية ودينية، وانتشرت تكاياهم في بلاد آسيا الصغرى وفارس ومصر وبلاد الشام منذ عهد السلاجقة، وكانت لهم مكانة في مدينة القدس. ويذكر أوليا جلبي Evliya Tschelebi أن عدداً كبيراً من الأعيان والعلماء والرجال الذين ينتمون إلى الطريقة المولوية، كان يتقاضى الواحد منهم 500 أقجة شهرياً من الصدقات (الصرة) السلطانية العثمانية[3]، فالقيم الإسلامية هي المرشد الأعلى لكافة سلاطين بني عثمان. وكانت مدينة القدس هي المدينة المقدسة الوحيدة التي زارها السلطان سليم، إذ لم يتسن له زيارة مكة والمدينة، وأمضى في القدس أياماً متعبداً وزائراً لأماكنها المقدسة، نقل خلالها الأهالي شكواهم من تسلُّط الأعراب عليهم ومهاجمة مدينتهم، وفقدان الأمن، وشح المياه في المدينة، وقلة مواردها الاقتصادية[4].

منذ ذلك الزمن 4 ذي الحجة 922 وحتى 3 ربيع الأول 1336هـ الموافق 1516/12/8–1917/12/9م، أي خلال 402 من الأعوام، أصبحت الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة والقدس تحت ولاية الدولة العثمانية، وغدت طريق الحج إلى تلك الأماكن في عهدتها، وأصبح العثمانيون المدافعين الرئيسيين عن الإسلام، وخاصةً بعد انتصارهم في معركة مرج دابق 922هـ/1516م، التي فتحت لهم الطريق للسيطرة على بلاد الشام، وموقعة الريدانية 923هـ/1517م، التي فتحت لهم الطريق للسيطرة على مصر، وإنهاء دولة المماليك ووراثة أملاكها بما في ذلك الحجاز.

لقد أولى العثمانيون الأماكن ذات المكانة الدينية في مكة والمدينة والقدس والخليل، فضلاً عن النجف وكربلاء والكاظمية جُلَّ العناية والرعاية[5]. كما شملت رعايتهم الأماكن المقدسة لأهل الذمة؛ النصارى واليهود، في المدينة المقدسة. وأطلق سلاطين بني عثمان على أنفسهم "خُدّام مكة والمدينة وثالث الحرمين وأولى القبلتين"[6].

كان تراث المدينة المقدسة الديني والثقافي والاجتماعي محور رعاية الدولة العثمانية، من خلال الحفاظ على المؤسسات التي ورثتها عن الدول الإسلامية المتعاقبة على حكمها، وإنشاء وإقامة العديد من المؤسسات طيلة عهودها في المدينة، وتوفير أسباب العيش والراحة لمجتمعها، وتطوير المدينة وتنميتها. وسيظهر من خلال الوثائق الرسمية

والسجلات العثمانية مدى الحرص الذي مارسته الدولة العثمانية للحفاظ على هوية المدينة وتراثها الحضاري والثقافي، وتمثل ذلك من خلال العديد من الأعمال والإجراءات التي قاموا بها في المدينة ومنها:

1. تحرير وإحصاء واردات ومصاريف المصادر في مدينة القدس:

حيث قامت الدولة العثمانية بتحرير وإحصاء واردات ومصاريف المصادر (الأقلام) الموقوفة على المؤسسات الدينية (القديمة)، وتلك التي أنشأوها، مثل أوقاف حرم خليل الرحمن، وصخرة الله المشرفة، والمسجد الأقصى، وجامع المغاربة والمساجد الأخرى، وأوقاف الأنبياء موسى ويونس ولوط، والزوايا والتكايا والخانقات والترب والرباطات وغيرها. وكذلك المؤسسات الثقافية من مدارس ومكاتب ودور القرآن ودور الحديث، والمؤسسات الحرفية، والقاعات والطواحين والأرحية والاصطبلات، والأفران والمعاصر، والحمامات والمصابن والمدابغ والمصابغ، والبيمارستانات والمؤسسات الاجتماعية مثل العمارة العامرة (تكية خاصكي سلطان). وأيضاً الأوقاف المحبوسة على المساكين والفقراء والمتصوفة سواء كانت قديمة موروثة أم حديثة أوقفها سلاطين بني عثمان أم موظفي الدولة العثمانية ورجالها من باشات ودفترداريه وأمراء وزعماء وسباهية، وكذا من أهل القدس، والقاطنين فيها من علماء وشيوخ وقضاة وقادة عسكريين. ولا يقتصر الإحصاء على المؤسسات الإسلامية والمسلمين، وإنما يشمل النصارى من سكان المدينة والأوقاف المحبوسة على المؤسسات الدينية النصرانية كالكنائس، وخاصة كنيسة القيامة (قمامة)، وكذلك الأديرة، مثل دير البنات الكائن ظاهر مدينة القدس[7].

وما زال أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول وأرشيف القيود القديمة بالمديرية العامة للطابو بأنقرة يحتفظ بعشرة دفاتر اختصت بتحرير وإحصاء مدينة القدس وقعت بين السنوات 932هـ/1525م وسنة 1222هـ/1807م، ولباقي ألوية فلسطين: نابلس، وصفد، وغزة وقضاء الرملة ونواحي القدس والخليل، 28 دفتراً[8]. والهدف من الإحصاء وإن كان تحديد الموارد والنفقات وتدقيقها وضبطها ومراقبتها، وجباية واجب الدولة الشرعي منها، فإنها تهتم بالدرجة الأولى بالحفاظ على مباني المؤسسات من صيانة وترميم وإصلاح وتجديد، وتنمية مواردها وإعمارها، وتدعيم دورها، بالإضافة إلى توفير الأسباب المؤدية إلى استمرارها في أداء دورها ورعاية القائمين على شؤونها من علماء وشيوخ ومشرفين وخدام وغيرهم.

2. إعمار مباني المؤسسات الدينية في المدينة وترميمها وإصلاحها وتجديدها:

من الملاحظ أن كافة سلاطين بني عثمان لم يشيِّدوا أيَّة مساجد كبرى بأسمائهم لا في القدس ولا في مدن فلسطين الأخرى، خلافاً لما عمَّروه من مساجد في إسطنبول أو البلقان، إعظاماً للمسجد الأقصى بمبناه الجنوبي (القبلي) وقبة الصخرة المشرَّفة، وترسيخاً للهوية الدينية لمدينة القدس.

ويعدّ عهد السلطان سليمان القانوني، أزهى عصور الدولة العثمانية بالنسبة لمدينة القدس، فقد قام بأعمال تعمير واسعة وشاملة شملت مسجد قبة الصخرة المشرفة والمبنى الجنوبي للمسجد الأقصى، وهما رمزان مهمان من رموز الهوية الدينية الإسلامية للمدينة، ومقصد المؤمنين والعباد من كافة أنحاء العالم الإسلامي للزيارة والحج، وبالتالي استمرارها في أداء وظائفها المختلفة. فقد أمر السلطان سليمان القانوني بإرسال المهندس خوجه سنان بصحبة اللالا مصطفى باشا والذي نقله من مصر لمثل وظيفته حاكماً على سورية لإعادة بناء القدس وتزيين الصخرة المشرفة، وتولى خوجة سنان الإعمار والترميم لكافة المباني الدينية في القدس، مستخدماً العمالة الفنية التي أحضرها من مصر[9]. فجدد عمارة قبة الصخرة وأعاد تبليطها وعمّر جدران الحرم وأبوابه، وجدّد قاشاني قبة السلسلة، وأنشأ مسجداً عند كنيسة الصعود (مصعد سيدنا عيسى عليه السلام) قرب الطور، وكان الإعمار لا يقتصر على المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وإنما يشمل كافة مساجد المدينة كالمسجد العمري ومسجد المغاربة ومسجد صلاح الدين ومسجد النبي صموئيل ومسجد الشيخ جراح وغيرها.

وتزودنا دفاتر أوقاف المسجد الأقصى في القدس والمسجد الإبراهيمي في الخليل المتعلقة بالواردات والنفقات، وكذلك دفاتر المحاسبة، بنماذج تفصيلية لعمليات إعمار وترميم وتجديد وإصلاح المسجد الأقصى بما في ذلك قبة الصخرة المشرفة عبر عصور الدولة العثمانية. وتبيِّن مدى رعاية كافة سلاطين بني عثمان لإعمار الحرم المقدسي، وتؤكد جديتهم في متابعة تنفيذ أعمال الإعمار، وتدقيقهم لإنجازه وفق الخرائط المعدَّة وبكل دقة من قبل المعمار باشي، رئيس المهندسين والفنيين وهيئة الإشراف والكشف. إذ كان يُعقد مجلس شرعي في نهاية كل أسبوع للنظر فيما تمَّ إنجازه، وضبط النفقات، كأجور المأمورين والنجارين والبنائين والحجارين والمبلطين والمزخرفين والنقاشين

والحدادين وغيرهم ومبايعات المواد اللازمة، ويُسجَّل في دفتر المحاسبة المحضرُ الشرعي، والذي يوقع عليه أكثر من عشرين عضواً من الهيئة الحاكمة في المدينة من مأمورين ونظار ومدراء وقضاة وأمراء ورؤساء الطوائف غير الإسلامية، من يهود ولاتين وأرمن وروم، ومأمور الأبنية[10]. وكان العديد من مواد البناء، كالحديد والفولاذ والرصاص والكربون والكتان والرخام والمرمر والنحاس والأخشاب، ترسل من إسطنبول وأزميت وبوللو وقوجلي بحراً إلى ميناء يافا، وتنقل إما بالعربات أو على ظهور الجمال إلى القدس. وقد بلغت أجرة نقل المواد (الكرستة) من 10 شوال 1120هـ حتى ربيع الأول من السنة التالية 28,838 قرشاً، وضبطت أوزان وأعداد المواد المرسلة وعدد العربات التي حملتها[11]، وكان ثمن الكرستة والنقلية للمواد التي وصلت في 1854/8/20م الموافق 1271هـ، هو 6,320 قرشاً وعشر بارات[12].

وأحياناً كانت الكرستة تُحوّل من بعض المدن التي سبق وأرسلت إليها إلى القدس، وذلك لأولويتها في الإعمار والإصلاح، فقد أرسل السلطان العثماني أمراً إلى دفتردار دمشق وبيلربي طرابلس (الشام)، جاء فيه:

> رصاص قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس بحاجةٍ إلى إصلاح، والذي سيكلف 6 آلاف فلوري، لكن صاحب الزعامة رئيس الفنيين، معمار باشي داود، في دمشق يطلب 2000 قطعة ذهبية. وعليه، فيجب دفع القيمة المطلوبة من خزينة دمشق، مع أخذ وثيقة تمسك من القاضي، متضمنة كيفية صرف المبلغ، وكيف تمَّ الإصلاح، وترسل إلى استانبول. كذلك، فإنَّ الرصاص الذي كان قد أرسل من استانبول إلى طرابلس لإصلاح المسجد الأموي في دمشق يحوّل إلى القدس، ويسلم إلى المذكور أعلاه، داود[13].

وفي أمرٍ آخر إلى قاضي القدس، استفسر السلطان عن الحديد والفولاذ والرصاص والكربون والرخام الذي كان قد أرسل من إسطنبول لإصلاح مبنى المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، والذي خُزن في القدس من أيام السلطان سليمان غير الموجود في مخازنه. وعلم السلطان من الخفية (المباحث)، أن بك القدس قد أخذها لاستعمالها في بناء بيته، وقال السلطان إنه يجب إعادتها فوراً وتغريم بك القدس بدل ما استعمله، وعلى القاضي استقدام البنَّائين والحجَّارين والمزخرفين والعُمَّال المهرة ممن لا يتوفرون في القدس، من مدينة دمشق، والبدء بالإعمار، وعليه تنفيذ الأمر بدون تأجيل أو تباطؤ[14].

وفي وثيقةٍ أخرى تاريخها 1140هـ/1735م، وحين كانت الدولة العثمانية تحت الأزمة الاقتصادية، كانت جملة مصاريف أوقاف الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى وجامع المغاربة بنظارة الحاج بشير آغا، آغا دار السعادة في مدة توليه الوقف عن سنة 1148هـ/1727م قد وصلت إلى ما مجموعه 201,330 قرشاً، وكان من ضمنها تعمير جلوس حمام الشفاء بتمامه، ونصف حمام العين، وتعمير جلوس حمام داود مع تعمير القضبان، وثمن نحاس وأجرة معلمين، هذا عدا عن حيثيات المصروفات والتي بلغت 21 بنداً[15].

أما في سنة 1195هـ/1780م، فقد أنفق على تعمير وإصلاح وترميم كافة الأماكن الدينية في المدينة المقدسة 6,529,280 قرشاً، وعلى إعمار حرم خليل الرحمن 30,954 قرشاً، وعلى إعمار مقام النبي عُزير 399,590 قرشاً، ومقام النبي داود 17,140 قرشاً، ومقام النبي موسى 80,260 قرشاً، ومقام سيدنا يونس 22,510 قرشاً، ومقام سيدنا عيص 28,710 قرشاً، ومقام سيدنا شمويل 32,920 قرشاً[16].

وفي سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، دوّن محضر لمجلس شرعي بتاريخ محرم سنة 1056هـ خاص بإصلاح وترميم وتعمير رباط الكرد، الواقع بباب الحديد ملاصقاً للسور. ويبين المحضر مدى الدقة والحرص في تنفيذ العمل، من حيث الكشف على البناء من قبل هيئة شرعية بصحبة الأستاذ حسن بن المعلم محمود بن نمر معمارباشي (أي رئيس المهندسين)، ومعاينته وتقدير المبالغ اللازمة للإصلاح. وقد احتاج إلى 10 قناطير شيد ثمنها 15 قرشاً، وعمل لمدة 15 يوماً، أجرة معلمين وفعول (عُمّال) وجبَّالين (يعملون في جَبْل الطين) ومؤنة وغير ذلك كانت كلفتها 25 قرشاً أسدياً (والقرش الأسدي يساوي $\frac{3}{4}$ قرشاً سلطانياً)، وثمن قصر مل (رماد مجبول بالكلس المطفأ) بلغت خمسة قروش. وأجرة معلم وفعول ودقاقات ومكانس وماء لمد القصر مل بلغت خمسة قروش، ونقل أتربة وكربلة كانت كلفتها خمسة قروش، وشيد للمرمات مع نقله كلفته خمسة قروش، فيكون المبلغ ستين قرشاً[17].

ولشمولية الإعمار والإصلاح والتجديد والترميم، فإن الباحث ينشر في الملحق رقم (1) من البحث، وثيقة عثمانية يعود تاريخها إلى الرابع من ربيع الثاني سنة 1121هـ/1709م صادرة من السلطان العثماني أحمد الثالث، باني المسجد الكبير المنسوب إليه في إسطنبول (1115-1143هـ/1703-1730م) أمر فيها بإجراء الإعمار

الكبير لكافة الأماكن الدينية، وخاصةً المسجد الأقصى والصخرة المشرَّفة في القدس، واشتملت الوثيقة على تفصيل دقيق لما يجب إعماره وإصلاحه في مبنى المسجد الأقصى والصخرة المشرَّفة وكافة الأماكن المباركة التي بداخل حرم المسجد الأقصى وذكرها فرداً فرداً. وكذلك جامع المغاربة والجامع العمري ومسجد الحنابلة والمنارات وسبيل قايتباي والأبواب والمدرسة الخاتونية والأروقة. وعُيِّن الحاج إبراهيم أفندي، معتمد الدولة العلية، وصحب معه من الديار الرومية أساتذة متفننين في صنعتهم مع آلاتٍ جديدة وكرستة لا يوجد مثلها في القدس، وكانت تكاليف الإعمار 264,699 قرشاً ومع النقلية من ميناء يافا إلى القدس فقد بلغت كلفة الإعمار 301,386 قرشاً[18].

وكان كل سلطان من سلاطين بني عثمان لا يتوانى عن إعمار وترميم الأماكن الدينية في المدينة المقدسة، وإن كانت أحوال الدولة الاقتصادية تؤثر في شمولية الإعمار أو محدوديته، وقد تكون أوسع في نطاق المسجد الأقصى وصخرته المشرفة، بينما تكون محدودة بما هو ضروري في غيرها. حتى إنَّ السلطان عبد العزيز ت 1291هـ/1874م اتهم بالإسراف والتبذير لإنفاقه الأموال الطائلة على أعمال التعمير في المسجد الأقصى، في حين أنَّ الدولة تعاني من أحوال اقتصادية متردية، والأطماع تحيقُ بها من الدول الأوروبية، والإنفاق في الدفاع عن الدولة وسيادتها أوجب من إعمار حتى أشرف المقدسات.

ومن الجدير بالذكر أنَّ عبد الله باشا، والي الشام، وفي أثناء زيارته للقدس، أمر بترميم المسجد الأقصى، فأحضر المهندسين والبنَّائين، ورمَّموا سقوف المسجد وسقوف أروقته، وجدَّدوا رصاصه والكاشاني، ونظفوا الأعشاب من ساحاته، وذلك على نفقته الخاصة ومن أمواله[19].

ولم تقتصر الرعاية على الأماكن الدينية للمسلمين، فإن الدولة العثمانية مدّت رعايتها للأماكن النصرانية الدينية. والدولة، وإن كانت لا تخصص الأموال لإعمار وترميم وتجديد وإصلاح تلك الأماكن وفقاً لأحكام الشريعة، ولكنها كانت توفر للقائمين عليها حرية إعمارها وتجديدها، وتوفير أسباب الحفاظ على أوقافها وحراستها. فأصدر السلطان سليمان فرماناً في ربيع الأول سنة 955هـ/1548م بترميم الأديرة، ودور السكن الخاصة برهبان دير السرب ودور أبناء الطائفة[20]. وبعث السلطان ملاحظةً لعوني أفندي، مأمور الجندرمة في القدس، حول إصلاح وإعادة بناء وترميم دير

مار سابا الواقع في منطقة صحراء القدس، والذي اعتاد البدو الاعتداء على المشتغلين فيه، فأمر بحراستهم والسماح لهم بترميم الدير وإصلاحه، ولكن دون إضافات على ما كان عليه منذ القديم[21]. كما أمر في الحكم نفسه، بإصلاح مقام (مصعد عيسى) قرب الطور، وحماية النصارى ومنع ابتزازهم من أيٍّ كان[22].

والسلطان أحمد الثالث أمر بترميم الجزء المتصل من كنيسة القيامة مع المسجد العمري، وبلغت تكاليفه 10,900 قرش[23]. وفي سنة 1271هـ/1854م سمح السلطان بتعمير قبة كنيسة القيامة، باستخدام أموال أوقافها التي بلغت 16,870 قرشاً[24].

أما حين وقعت الدولة العثمانية تحت طائلة الامتيازات، وصدر قانون تملُّك الأجانب سنة 1858، وقانون حماية الأجانب سنة 1874، وبدا نجم الدولة العثمانية باهتاً، فإنَّ العديد من الكنائس والأديرة قد أقيمت في القدس. ومن خلال وثائق معروضات الصدارة في قصر يلدز، وتصنيف جودت، وتصنيف الإرادات ودفاتر العينات، وتصنيف ابن الأمين، وتصنيف علي أميري، وتصنيف خط حمايون؛ فقد أنشئت كنيسة بروتستانتية في القدس بوساطة القنصلية الإنجليزية سنة 1261هـ/1845م. وأقيمت كنيسة للروم في عين كارم، وأخرى قرب نهر الأردن سنة 1298هـ/1880م. وخلال ربع قرن منذ سنة 1299هـ/1881م، أقيمت كنائس للروم الكاثوليك في القدس، وكنيسة أرثوذكسية للروس، وكنائس ألمانية بمناسبة زيارة إمبراطور ألمانيا، وزاد إعطاء الرخص لتعمير وتجديد وترميم كنيسة القيامة لطوائف اللاتين والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك والأرمن. وفي سنة 1325هـ/1907م أُقيمَ معبد ومسافر خانة على جبل الزيتون باسم إمبراطور ألمانيا.

3. تعظيم مكانة العلماء والشيوخ ورجال الدين:

إنَّ مكانة أرباب الوظائف الدينية في المدينة المقدسة كانت عالية، إكراماً للمدينة المقدسة وإعظاماً لشأنها، ومن أرباب الوظائف الدينية في المدينة، القضاة والمفتون ونقباء الأشراف والعلماء والمدرسون وشيوخ الحرم وسَدَنة الأماكن المقدسة عموماً.

ولقاضي القدس مكانة رفيعة، وله سلطات إدارية واسعة غير القضاء، جعلته رقيباً على الوالي والدفتردار والجند والأوقاف والجمارك والحسبة، وتسجيل العقود وتصديق الوثائق، ومراقبة الأسعار وتسجيل العقارات، وإحصاء النفوس، وإقالة رؤساء الطوائف الدينية، وله حق الإشراف على الأوقاف وتنفيذ شروط الوقف،

وتعيين المدرسين وموظفي الدولة ورجال الإفتاء. وتمتد صلاحيات قاضي القدس إلى جنين ونابلس وغزة والرملة ويافا، حيث يُعيَّنُ نواب الشرع الشريف فيها، والقضاة المحليين. وارتباط قاضي القدس مباشر بشيخ الإسلام في إسطنبول، ويتبيَّنُ من الفرمانات السلطانية والأحكام المرسلة من إسطنبول، ومن محاضر سجلات المحكمة الشرعية في القدس، مدى عُلُوِّ مكانة قاضي القدس ودرجة التقدير الرفيعة التي يحظى بها، والهالة التي تُضفى على شخصية متولي وظيفة القضاء في المدينة، فيخاطَب في الرسائل والفرمانات الموجَّهة إليه بعبارات مثل: مولانا وسيدنا، وعمدة النواب، وزبدة الفقهاء أولي الألباب، ودامت فضائله[25]. وأحياناً تتضمن ديباجة المخاطبة قُدوة قُضاة الإسلام، وذُخْر وُلاةِ الأنام، ومُحرِّر القضايا والأحكام، وخلاصة العلماء الأعلام، الحاكم الشرعي... إلخ. ومع أن الإطناب في افتتاحيات وديباجات الفرمانات العثمانية والرسائل كانت ظاهرة لازمة، وتثير نوعاً من الملل لما فيها سجع وإطناب وحذلقة ومبالغة، إلا أنَّها تبيِّن أهمية المخاطب في شخصه ووظيفته، وكان قاضي القدس موظفاً كبيراً، له جلّ الاحترام والتقدير[26].

كما أنَّ مفتي القدس، كان يحظى بالتقدير، ويخاطب بالعلاَّمة الأوحد والفهَّامة الأمجد، وعُمدة العلماء العظام[27]، ويحضر كافة المجالس الشرعية والاجتماعات التي تعقد في المدينة، ويدعى لكافة الهيئات والمجالس والإدارات المُشَكَّلة في المدينة، وغالباً ما يكون برفقة القاضي. وكذا نقيب الأشراف والذي يتولى رعاية أمور النقابة في القدس، وفق قوانينهم المرعية والحماية والصيانة للسادة الأشراف، فله نفوذ ديني كبير ودور اجتماعي وسياسي، ويخاطب بعمدة العلماء الأعلام، ونخبة الفقهاء والمدرسين العظام، وفرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية[28]، وكان للأشراف مخصصات مالية ترسل من إسطنبول أو يتقاضونها من عائدات الأوقاف[29]. وفي إسطنبول يقيم نقيب على أشراف الممالك العثمانية، وقد عُيِّن في بداية محرم الحرام سنة 1158هـ "عمدة السادات الكرام السيد عبد اللطيف أفندي قايمقاماً لنقابة أشراف القدس"[30]. وشيخ الحرم القدسي الشريف، والمسؤول عن مئات الموظفين والعلماء العاملين في الحرم المقدسي، المسجد الأقصى والصخرة المشرفة وساحاته وقببه والدور التابعة له، فقد كان له شأن عند المركز في إسطنبول، وتصدر الرسالة أو الفرمان بعبارات الإجلال والتعظيم، وتحوي أوصافاً، مثل قدوة المدرسين الكرام، وعمدة المحققين العظام، وصدر الموالي العظام،

ودامت فضائله وزيد علمه إلى غيرها من ألفاظ التقدير والاحترام[31]. وتعظيماً وتكريماً لأرباب الوظائف الدينية في المدينة المقدسة بصفة خاصة، وأهالي القدس الشريف والمدرسين والعاملين في المسجد الأقصى من أئمة ووعاظ وخطباء وسدنة، والعلماء والمجاورين والفقراء من المتصوفة أو الضعفاء والمساكين، فقد اعتاد سلاطين بني عثمان على إرسال هبة عرفت بالصُرّة السلطانية، وتوزع للعاملين في الحرم القدسي الشريف والمشتغلين في الخدمات الدينية في مدينة القدس وما حولها، وأصبحت الصُرّة السلطانية مؤسسة قائمة بذاتها لها رسومها وأنظمتها، وعُيِّن لها في إسطنبول أمين خاص يتولى الإشراف على كافة شؤونها، وخاصةً كيفية توزيعها على المستحقين، ولها سجلات ودفاتر خاصة بالأماكن الدينية في الولايات العربية في القدس ومكة والمدينة وكربلاء والنجف وغيرها.

وفي دفاتر المهمة توجيهات وأوامر سلطانية إلى قاضي القدس والناظر بضرورة مراعاة توزيع الصدقات السلطانية "الصُرّة" بالعدل لمستحقيها[32]، حيث تدفع بالعملات الذهبية، وتشمل أيضاً كميات من اللحم والخبز والمؤن المختلفة والخلع الفاخرة وطواقي الصوف. وقد وزعت صُرّة سنة 1205هـ/1790م على المشايخ والعلماء والمدرسين وخطباء المسجد الأقصى وأئمة الحرم وقُرَّاء القرآن والربعة الشريفة والوعاظ والصلحاء والمجاورين وفقراء حي باب القطانين (من الأرامل والعجائز، ومشايخ الروابط والخانقات، وحتى بنات العلماء الذين توفوا)[33].

وشملت الرعاية السلطانية أيضاً رجال الدين النصارى، وخاصةً البطارقة الذين تثبت صداقتهم للدولة العثمانية. فكانت تصدر رسائل من دائرة الرئاسة (ديوان الكتابة) في القصر السلطاني أو من رؤساء المابين السلطاني بمنح أوسمة ونياشين للبطارقة، جرَّاء ما أظهروه من صداقة وخدمة للدولة، وخاصةً في المرحلة المتأخرة من عهد الدولة العثمانية. فقد أنعم سنة 1257هـ/1841م على بطريرك (بطريق) القدس الموجود في إسطنبول بنيشان، وفي سنة 1303هـ/1885م، أنعم على كل من، مدير مكتب مناستر مار يعقوب، وبطريرك الروم نيقودسموس أفندي، وبطريرك الروم اليوناني؛ بنياشين سلطانية. وفي 8 صفر 1305هـ/1887م الموافق 1303/10/16 (رومي) صدر من قصر يلدز الأمر التالي:

قصر يلدز

دائرة الرئاسة (الديوان، الكتابة).

لأن الأرض التي سيقام عليها مبنى المكتب الإعدادي في القدس غير كافية، ولما كانت الحاجة مُلِحّة للتوسعة، فقد ورد من بطريق الروم في القدس الشريف رسالة، ولدى الاطلاع عليها، تبيَّن أنه يتبرع بعرصة (فناء أو ساحة)، عائدة إلى أرض البطريقية، وهي مجاورة لأرض المكتب، وقد قام بتقديم هذه الخدمة تعبيراً عن صداقته للدولة، هذا وقد صدرت إرادتنا الشريفة بقبولها وتكريمه بمناسبة ذلك، والأمر لمن له الأمر.

في 8 صفر 1305هـ 16 تشرين أول 1303 (مالي)

سر كاتب حضرت شهرياري ثريا[34]

ومنح سنة 1308هـ/1890م نيشان للطبيب مزاركحه؛ لجليل خدماته وتفوقه، ومثلها كثير في الأوراق والوثائق الرسمية العثمانية.

4. توفير الأمن والأمان على الأنفس والأموال في المدينة المقدسة:

كان أهالي القدس قد عرضوا شكواهم من تعديات البدو والأعراب على مدينتهم على مسمع السلطان سليم عند زيارته للقدس، وأوضحوا له خوفهم على أنفسهم وأموالهم حيث يتعرضون للقتل والاغتصاب، وتنهب بيوتهم وأسواقهم ودكاكينهم، وتحرق ممتلكاتهم. ولم تطل مدة السلطان سليم فقد توفي سنة 926هـ/1520م، وتولَّى السلطنة سليمان القانوني، فكانت مسألة توفير الأمن والأمان للمدينة المقدسة تحظى بالأولوية عنده، وبادر سنة 931هـ/1525م إلى الاتصال بالشيخ أبي غوش، مدير ناحية نعلين والذي يتبعه ثلاثين قرية ولديه قوات عسكرية رجّالة وخيّالة، وكلَّفه بمنع تعديات البدو على أطراف مدينة القدس من جهته، وحماية طريق السفر بين القدس وحيفا. وظلَّ شيخ أبي غوش، وأحفاده على ولائهم للدولة العثمانية يُنَفِّذ أوامرها مقابل أتاوة سنوية تُرسَلُ له ولأحفاده، وقد أرسلت إخطارات بمهام أمنية مكتومة لمدير ناحية نعلين من أحفاد شيخها جبر أبو غوش، تواريخها أوائل جمادى الأولى 1220هـ/1814م وصفر من السنة نفسها تُحذِّرُه من فتنة محمد باشا والي صيدا، وتطلب إليه التعاون مع الولاة المكلفين بإلقاء القبض عليه وسوقه إلى القصاص الشرعي[35]، وأرسل العمَّارين والبنَّائين والحجَّارة والعُمَّال إلى القدس وأمرهم بإعادة بناء سور المدينة القديم (الأجزاء العلوية)

وقد استغرق إكمال البناء أكثر من 13 عاماً (934-947هـ/1527-1540م)، وذلك بهدف حماية المدينة من العدوان الخارجي وغارات البدو واللصوص على المدينة وسكانها. ويعدّ بناء سور القدس من أكثر الأعمال العمرانية التي تمّت في المدينة[36]، إذ يبلغ طوله حوالي أربعة كيلومترات ومعدل ارتفاعه 12 متراً، وبني عليه 34 برجاً للحراسة والمراقبة، وجُدِّدت ورُمِمَّت وأُصلِحَت أبوابه؛ باب العمود وباب الخليل وباب المغاربة وباب الأسباط وباب الساهرة وباب النبي داود[37]، وحافظت الدولة على الأسوار وجنبتها من العبث بها أو إلحاق الضرر فيها[38].

من المعروف أنّ الدولة العثمانية قد عانت الكثير من تمردات البدو وكثرة غزواتهم لقوافل الحجاج والزوار إلى مكة والقدس والخليل، فكانت ترسل الحملات العسكرية لتأديب البدو، ولكنها لم تنجح في كبح اعتداءاتهم، لأنهم غالباً ما كانوا يفرون إلى أعماق الصحاري والمناطق الوعرة، لاعتمادهم خطة الكر والفر في غزواتهم. وقد تعرَّض كثير من القرى والمدن لتعديات البدو، وإلحاق الضرر بأموالهم وأنفسهم، وفي أغلب الأحيان لم تنجح أساليب الدولة في الاحتفاظ برهائن من أولاد أو زعماء القبائل البدوية في وقف غزواتهم. الأمر الذي أجبر الدولة على الاتفاق معهم، وتكليف بعض القبائل القوية والكثيرة العدد بحماية طرق القوافل، والحفاظ على سلامة المسافرين من حُجَّاج وزوّار وتُجّار، مقابل مبالغ مالية تدفع لشيوخهم أو زعمائهم[39].

ثمّ كان بعد ذلك ترميم قلعة القدس الواقعة في الجهة الغربية من المدينة، وإضافة العديد من المباني إليها، وشحنها بالعساكر والذخائر والمؤن وتعيين دزدار (قائد) لها بفرمان سلطاني، وأُوْكِلَ إلى حامية القلعة الدفاع عن المدينة من أي اعتداء أو عدوان. وقد أولى سلاطين بني عثمان اهتماماً خاصاً بالقلعة وعساكرها على مدى العصور، ورُمِمَّت القلعة سنة 1065هـ/1655م أيضاً، وجُدِّد بناء حائط الخندق سنة 1144هـ/1731م، وجُدِّد مسجدها 1151هـ/1738م، وكذلك منارتها التي بناها السلطان سليمان سنة 938هـ/1531م[40]. وكان في القلعة خمسة أبراج للمراقبة، أكبرها برج داود في الجهة الشمالية الشرقية وبرج غزة الكائن على حافة الخندق، وبها مخازن، وسجن في الجهة الغربية، وفي القلعة أيضاً النوبة خانة أي المكان الذي يتخذه ضارب النوبة بالقلعة ليتعلم الناس بالوقت في الليل للصلاة، ودور سكن للجنود تشتمل على اصطبلات لخيولهم[41]. ولم يكن هذا كافياً، فإن ازدهار المدينة واستقرار مجتمعها، وتأمين سلامة الحجاج والتجار والزوار إليها اقتضى ضرورة حراسة الطرق إلى المدينة المقدسة، سواء من

مدن بلاد الشام أم مدن الديار المصرية. ولذا، عملت السلطات العثمانية، السلاطين والصدور العظام وحكام الولايات العربية، على إقامة القلاع على تلك الطريق، لتتولى حماية المسافرين والتجار والحجاج والزوار. وكانت تلك القلاع مدناً صغيرة، بما فيها من أسواق وخانات وتكايا ومحطات استراحة للقوافل وبيوت ومخازن وقاعات وآبار ومستودعات. إضافةً إلى حصانتها، وتزويدها بالأسلحة النارية، من بنادق وحتى مدافع وعساكر خيالة ورجالة، وجنود يتناوبون الحراسة في أبراجها.

وخلال القرن 10 هجري/ 16 ميلادي أنشئت قلاع عند بيت جبرين وجنين ورأس العين (قرب الرملة)، وعند خان يونس والعريش وسعسع، لتحفظ الطريق بين دمشق والقاهرة، والطريق إلى القدس والخليل. وكانت هذه القلاع، قواعد عسكرية متقدمة، لمقاومة كل اعتداء، سواء من البدو أم اللصوص وقطاع الطرق أم العصاة والمتمردين، كبعض القبائل البدوية، ومنهم بني عطا على سبيل المثال، والدروز إبَّانَ عصيانهم على الدولة[42].

وفي أرشيف رئاسة الوزراء عدد من الأوامر والتعليمات، سُجِّلت في دفاتر المهمة، أصدر من خلالها السلطان أوامره لذوي الشأن في القلاع بلزوم تنفيذ ما يطلبه لتأمين السفر على تلك الطرق. ومنها:

- حكم إلى أمير القدس الشريف، بلزوم حفظ وحراسة لواء القدس الشريف من أيِّ ضررٍ أو أذىً يلحَقُ به من عُصاة العربان وأهل الفساد، ويوصيه بعدم إضاعة أو تبديد دقيقة واحدة في الحفظ والحراسة[43].
- أمر إلى دفتردار ولاية عرب بتزويد قلعة بيت جبرين بالبنادق والسلاح الثقيل وبكل ما يلزمها؛ لتكون خط حماية متقدم لمدينة القدس، كما زُوِّدت قلعة بيت جبرين بعساكر حوّلت من الشوبك، لزيادة فعالية القلعة في تعقب قطاع الطرق واللصوص والخونة والغدارين، الذين يعتدون على عابري الطرق إلى القدس والخليل[44]. وفي أمرٍ ثانٍ أضيف إلى محطة رأس العين، القريبة من الرملة والقدس، مئة منزل للخيالة وزُوِّدت بثلاثين عسكرياً يتولون الحراسة والمراقبة في أبراج القلعة[45].

كما عهد إلى آصف بك، وقد عُرِف بصرامته وشجاعته في ملاحقة البدو وقُطَّاع الطرق واللصوص، بحراسة الطريق بين القنطرة إلى حدود سنجقية القدس وغزة، ويتولى

حفظ النفوس وأحمال بضائع التجار وأمتعة وحاجيات المسافرين، ومُنِح حق استيفاء العوائد العرفية وجباية المتأخرات من الضرائب. كما طلب منه بناء برج الساعة عند الخان الأحمر، قرب قلنسوة بين قاقون وجلجولية، والذي كان يتخذ قاعدة آمنة لقطاع الطرق واللصوص، حيث أرسل إلى هناك مئات العساكر المجهزين جيداً، وأمّن الطريق إلى مصر[46].

كما نوَّه السلطان العثماني بأمره إلى دفتردار دمشق، بما قام به الصدر الأعظم سنان باشا، فقد أضاف مبانٍ جديدة، وعلى نفقته الخاصة، لتقوية قلعة سعسع وعيون التجار، وتأمين وصول قوافل التجار والحُجّاج والزُوّار والمسافرين إلى القدس والخليل[47].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كان سلاطين بني عثمان يجهزون الحملات العسكرية ويبعثونها لتأديب الجماعات البدوية وقُطّاع الطرق واللصوص، الذين اعتادوا على إلحاق الضرر بالمدينة المقدسة.

ففي أمر مرسل إلى بيلربي القدس، والذي سُلِّم إلى كتخداه (مساعده) همّت، يشيد السلطان بدوره في مهاجمة البدو الذين يعتدون على الحُجّاج زُوّار القدس والخليل، ويثني على معاقبتهم، وأخذ الرهائن المناسبة من أبناء وأخوة رؤساء القبائل والمقدمين وسجنهم في قلعة القدس. وقد دفع هذا الأمر شيوخ ورؤساء العساكر الالتماس باستعدادهم لحفظ الطرق، ودفع ما يترتب عليهم من ضرائب، فأصبحت الطرق آمنة، وبات هؤلاء العصاة يحترمون القانون والنظام، وحفظت هيبة الدولة، مما سمح بإعادة بدو القوادرية إلى وطنهم في نابلس بعد تشريدهم لسنوات[48].

وكان من أشدّ الإجراءات التي أمر السلطان بتنفيذها ضدّ البدو، المعروفين بالكالانية، الذين اتخذوا من منطقة النبي موسى، قرب أريحا والقريبة من القدس، ملجأ للإغارة على المدينة المقدسة، بعد أن تمكنوا خلال إحدى غاراتهم من قتل حاكم القدس محمد بك والآي بك (مساعده) وحراس القلعة، وكان عرب (البدو) الكالانية قد جمعوا أكثر من ثلاثة آلاف مسلح بمن فيهم اللصوص وقُطّاع الطرق، فباغتهم خداوري بك (حاكم القدس) مع 600 عسكري ذات صباح، وقتل منهم، وأسر ثلاثين، وجرح عشرين. وبناءً عليه، أمر السلطان العثماني الوزير سنان باشا، متولي دمشق، عدم إشراك خداوري بك وعساكره في أيِّ حملة، وتركه وعساكره لحماية الأرض المقدسة[49].

وفي محاولة من السلطنة لاستمالة البدو، فقد أمر السلطان العثماني، رئيس العساكر في قلعة القدس (بلوك باشي)، باستبدال الرهائن المحبوسين في القلعة من أبناء وإخوة رؤساء عشائر البدو المتمردة كل ستة أشهر أو سنة على الأكثر، استجابةً لطلب عائلاتهم، ورحمةً بزوجاتهم، على أن يستبدلوا برهائن مساوين لهم في الأهمية والمركز[50].

وفي خطوة لتثبيت الأمن والأمان للمدينة المقدسة وسائر مدن الولاية، فقد أصدر السلطان أمراً إلى بيلربي دمشق والقاضي والدفتردار بها، وبناءً على تنسيب قاضي دمشق، فإن قرية سعسع والتي بها محطة لاستراحة القوافل على طريق دمشق – القدس – الخليل – غزة – مصر تتعرض لهجمات البدو العصاة، وهم يهاجمون القوافل المتجهة إلى القدس، ويرغمون الحجاج والزوار على العودة. وبناءً على الفرمان السلطاني، فإن مئتي فلاح بعائلاتهم يريدون الإقامة هناك، ولذا فإن السلطان يأمر بتنفيذ رغبة الفلاحين، وإعفائهم من أيَّةِ تكاليف عُرفية؛ الضرائب بأنواعها، مقابل حماية وحراسة الطريق، لأن في ذلك راحةً وأماناً لأهل القدس وتنمية لمؤسساتها[51].

ولتأمين الطريق من غزة إلى حيفا والرملة، ومن الرملة إلى رأس العين، القريبة من القدس، فقد أبلغ السلطان العثماني، صاحب الدولة، الصدر الأعظم رضاه عن قبول تعهد شيخ البدو في المنطقة، المدعو أبو العويس بن عامر علي[52]، على رفع مكافأته من مستوى "تيمار" بـ 17 ألف أقجة إلى مستوى "زعامت" بـ 20 ألف أقجة، مقابل حفظ وحراسة الطريق بشكل مطلق، وتعهَّد الشيخ المذكور بكامل الحرص على حياة وأموال المسافرين والحجّاج والزُوَّار، وإذا ما وقع أي تعدٍّ، فإنّه يعاقب ويفقد حقه في الزعامت[53].

أما في داخل أسوار المدينة فكانت القوات العسكرية العثمانية من جنود إنكشارية وجندرمة وضبطية وحراس وعسس والسُكبان يتولون بسط الأمن والحماية. ولم تشهد المدينة حالات كبيرة من الفوضى والعبث بأمنها، أو تمردات وعصيانات، فيما عدا خوف الناس من تعدي السكبان[54] سنة 1016هـ/1607م على أسواق القدس ونهب دكاكينهم، فوزعت البنادق على السكان، ونظمت القوات العسكرية في الأسواق، وأمن التجار والأهالي[55].

وكانت الحادثة الأخطر، ثورة نقيب الأشراف محمد علي، حيث حاصر القاضي وقائد الحامية العسكرية سنة 1117هـ/1705م، وانضم إليه عددٌ كبيرٌ من سكان القدس والقرى المجاورة لعسف المظالم الضرائبية آنذاك. وقد استفحل أمرها حتى اضطر والي

الشام محمد باشا إلى تسيير حملة عسكرية إلى القدس لإخماد الثورة، وقد نجح في ذلك، وأبعد نقيب الأشراف من القدس، وذلك بعد أيام من ثورته[56].

وظلّ هذا الحال طوال العهد العثماني يراوح ما بين توفير الأمن والأمان للمدينة أو الإخلال به من قبل العصاة والمتمردين وقطاع الطرق واللصوص، ولفترات محدودة. ونقرأ في مرسوم صدر إلى نظارة مالية ولاية سورية سنة 1285هـ/1868م، يتعلق بإعمار مساكن للأهالي في المنطقة الواقعة بين القدس والبلقاء، وأنه أرسل مئة نفر من العساكر لإعمار داخل القلعة. ثم نجد مكاتبات بين ولاية سورية والقدس، لإسكان قبائل بين القدس وغزة، لما فيه من منافع للدولة والخزينة، وإنشاء دار للحكومة منه[57].

لقد بلغت ذروة العناية الأمنية بالقدس إبّان عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فأصبحت مركزاً مهماً للتطوير والنمو الحضري، فنمت المدينة من 699 دونماً في سنة 1841 إلى 4,130 دونماً سنة 1917، وأنشئت أحياء جديدة خارج السور، تضم الخانات والمهن المختلفة، والفنادق والمستشفيات والوكالات التجارية والبنوك ومكاتب التأمين والمنشآت الصناعية والأسواق المزدهرة، ورصفت الشوارع وأنيرت المدينة، وما ذاك إلا بسبب توفير الأمن والسلامة على الأنفس والأملاك، وبسط هيبة الدولة والاستقرار وتحسين الإدارة.

إنَّ توفير الأمن والأمان قد كان واحداً من أهم الأسباب في استمرار المدينة المقدسة في أداء دورها الحضاري والثقافي، وبالتالي حفظ تراثها الديني كمركز لقاء بين الحضارات والأمم[58].

وعلى الصعيد الداخلي أيضاً، فقد عمل رجال الإدارة العثمانية على تنفيذ تعليمات السلطان القاضية باحترام حرمة المدينة المقدسة، والتفتيش عن الفساق وارتكاب ما يخالف الشرع الشريف. فقد أصدر السلطان سليمان الحكم جليل القدر، والفرمان النافذ، فحدّد عقوبات الجنايات، مثل الزنا والضرب والشتم والقتل وشرب الخمر والسرقة والغصب والاعتداء أو الخطف[59]. وصدرت الأوامر إلى أمير لواء القدس وقاضي القدس بالتشدد في ملاحقة الفساد وأسبابه، وضرورة الحفاظ على الآداب العامة في المدينة. فبناءً على رغبة السلطان بحفظ الشرع، ومنع العنف والفوضى ونشر الأمن والقانون بين المسلمين في المدن والقرى في ممالكه، فإنّه يمنع منعاً باتاً إحضار النبيذ إلى القدس أو السماح للمسلمين بتعاطيه، ويحظر على غير المسلمين بيعه لأيِّ مسلم، ويُحذَّرون من

مغبَّة مخالفة الأمر السلطاني. وطلب من أمير اللواء والقاضي وجوب إجراء الكشوفات الخفيّة لملاحقة ذلك وضبطه، وإلا فإن القاضي سيعزل ويعاقب[60]. وأُعيد التأكيد على الحكم والأمر السابق بفرمان أرسل إلى أمير سنجق القدس الشريف وقاضي القدس، بتاريخ 3 ذو الحجة 972هـ الموافق 1565/7/1م، وجاء فيه:

حُكمٌ إلى أمير سنجق القدس الشريف وقاضي القدس الشريف

> ليس من رضاي الشريف، ارتكاب أمر يخالف الشرع الشريف في مدن وقصبات وقرى المسلمين الواقعة في ممالك سلطنتي التي أحكمها، وفي أيام سلطنتي السعيدة، منع الخمر منعاً باتاً من المسلمين، وقد علم أن البعض يحضر الخمر إلى القدس الشريف، وعند وصول حكمي الشريف، الواجب الاتباع وبالشكل اللازم، وتحذيره والتشدُّد على المراقبة والمنع والتقصي سراً، وإلا فالعزل والعقاب[61].

وفي حكم آخر يقضي السلطان بضرورة الحفاظ على طهارة المدينة من الملوثات والنجاسات، وعدم الإخلال بالآداب العامة. فقد أصدر السلطان فرماناً بمنع النساء من مضايقة المصلين في المسجد الأقصى، وحظر التبول والتغوط في ساحاته، ومنع نساء النصارى اللواتي يتوافدن لزيارة بعض المعالم المسيحية، من القيام بالأعمال المُخلّة بالشرع، ومنع نساء البدو من النوح ليلاً في شوارع المدينة، ومنع الفلاحين الذين يجلبون اللبن والحليب لبيعه في المدينة من عرضه في طرق الحرم، وضرورة حراسة أبواب الحرم وضرورة بقاء ساحات الحرم نظيفة، وينذر الفرمان بالعزل والعقاب إذا لم ينفذ الأمر السلطاني فوراً وبصورةٍ حازمة[62].

ويبدو أنه قد أقيم خمسة مقاهٍ في القدس، كانت مرتعاً لارتياد "المتسكعين وأهل الضلالة"، بحيث لا تخلو ليلاً أو نهاراً من الفسق والفساق، وبالتالي تلحق الضرر بالعباد، وتحول دون قيام المسلمين بالعبادة والطاعة؛ فطلب الأمر السلطاني ضرورة إزالتها، وإبلاغ السلطنة بتنفيذ الأمر وزمانه[63].

غيرَ أنَّ المدينة عرفت قُبيل سقوط الدولة العثمانية أنواعاً من المقاهي والصالونات السيئة، تمارس فيها القمار، ويتم تعاطي الحشيش والخمور، وأماكن أخرى كثيرة للتسلية والغناء والرقص، قدمت من خلالها العروض الغنائية، ووجد في أحياء المدينة عصابات من اللصوص المحترفين[64]. وكان كل ذلك في أواخر القرن 19، حيث زاد عدد

سكان المدينة نتيجة الهجرة والاختلاط مع القادمين من أوروبا الشرقية والغربية، وعانت الدولة من الضعف الاقتصادي والعسكري، وسريان الفساد إلى أجهزة الدولة المختلفة. واستحدث العثمانيون حينها رجال الآداب في محاولةٍ لكبح جماح الفُسَّاد والفُسّاق، ولكن أنَّى لهذا الفيض أن يزجره غيض الحرص على القيم والآداب الدينية.

وبالرغم من ذلك، فقد كان باستطاعة عبد الخالق زولي التظلم لدى مقام الصدارة الفخيمة، لأن المتنفذ سليم الخطيب قد غصبه قطعة أرضٍ حجرية كائنة في وقف آل تميم، مستأجرة منذ زمن آبائه وجدوده، ولم يستجب سليمٍ الخطيب لقرار نظارة العادلية في 1305هـ/1889م، بل ادعوا على عبد الخالق زولي بالجنون واختلال العقل. فرفع عبد الخالق شكواه إلى الصدر الأعظم في 1307هـ، فأمر بعد ذلك بأسبوعين، بالتحقيق والتنفيذ الفوري لقرار نظارة العادلية[65].

5. بسط السلم الاجتماعي ومراعاة حرية العبادة وتحقيق العدالة لأهل الذمة:

لما كانت القدس مقصد الحجاج والزوار من كافة أنحاء الدنيا، وحفاظاً على مكانتها الدينية والروحية لدى أتباع الديانات الثلاثة، فإنّ السلطات العثمانية، وبتوجيهات وفرمانات سلطانية، عملت على توفير كافة أسباب الراحة والطمأنينة والاستقرار لأهل الذمة في المدينة المقدسة سواء أكانوا من رعايا الدولة العثمانية أم من رجال الدين، بطارقة ومطارنة ورهبان ورعاة أديرة وكنائس وبيع وصوامع وكُنس، من أجل أداء وممارسة شعائرهم الدينية في أماكن تعبدهم في حرية دون المساس بهم أو بمقدساتهم. وتولت العساكر العثمانية ورجال الجندرمة والضبطية مرافقة الحجاج والزوار في تنقلاتهم خلال زيارتهم لتلك الأماكن، وحراسة قوافلهم وتأمين سلامتهم في الأنفس والأموال. كما عملت السلطات في المدينة على حل الإشكالات الدينية بين أتباع المذاهب المسيحية بعضهم البعض، أو منازعاتهم مع اليهود أو مع المسلمين.

ومما يستوجب ذكره بهذا الصدد التزام العثمانيين بشروط العهد الذي أعطاه المسلمون لأهل الذمة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، وفي عهد كافة حكام المسلمين حتى العهد العثماني. ويستفاد من محاضر تسجيل المنازعات والخصومات، التي كان ينظر فيها من قبل قضاة القدس، أن السلطان سليم وخلال زيارته للقدس ولقائه رؤساء الطوائف غير الإسلامية في المدينة قد سنَّ التشريعات

التي تنظم العلاقات بين المسلمين والنصارى واليهود في المدينة، وبين طوائف النصارى أنفسهم، وبين اليهود والنصارى. ومن أهم ما نبَّه إليه السلطان سليم، الحماية والأمن والصون لأهل الذمة، وتطبيق جميع العهود والمواثيق التي منحها المسلمون لأهل الذمة. وكمثال على ذلك: "التزام السلاطين بهذه العهود والمواثيق، فقد طرق مسامع السلطان أنَّ ثلاثة رهبان كانوا قادمين من الناصرة إلى ديرهم في بيت المقدس، فأخذهم أهل المزرعة، وربطوهم على غير وجه وذكر. وقد داخلنا العجب من فعلة أهل المزرعة، لأن للنصارى في بيت المقدس شروط، ولهم الحماية والصيانة"[66]. كما أخذت العهود على شيوخ عين كارم بعدم التعرُّض للروم والإفرنج واليهود والأرمن[67].

وفي مرسوم صادر عن السلطان بشأن حقوق طائفة الأرمن، تاريخه 1229هـ/1813م، نقرأ العبارة التالية: "وصدرت أوامرنا الشريفة أولاً وثانياً فحواها المنيف أنه مهما كان لهم من أيام حضرة مولانا السلطان الفاتح سليم خان يكون بيدهم، ولا أحد يتعارضهم، وتعيّن بذلك خواجكان (أي رجل علم وقلم في الديوان الهمايوني، السلطاني)". بمعنى أن السلطان سليم قد قرر وفقاً للعهود والمواثيق تنظيم قواعد العلاقات بين الطوائف غير الإسلامية، واستحدث دائرة في الديوان السلطاني، وعيَّن الموظفين المختصين لمتابعة شؤونهم، والنظر فيما يثور بينهم مستقبلاً[68].

ولم يكن تقليد الحماية مستحدثاً في العهود المتأخرة للدولة العثمانية، وإنما نُفِّذ منذ البدايات الأولى للتدخل العثماني في الولايات العربية، فقد عُيِّنَ رجلين من المسلمين لحماية رهبان دير السيق في القدس منذ سنة 941هـ/1524م[69].

وحين ضبطت أسلحة، كانت قد أخفيت في كنيسة القيامة، خلافاً للعهدنامه (وثيقة العهد)، إذ لا يجوز لأيِّ فرد من طائفة الكفار حيازة أيِّ شيء يتعلق بالأسلحة وضرورة ضبطه. أرسل السلطان أمراً إلى والي القدس يبلغه عن التجار الفرنجة، الذين يفدون إلى طرابلس ومن ثم إلى حلب ودمشق ويتخفون بزيِّ المسلمين ويذهبون إلى البصرة وهرمز، فيطلب التحرِّي عنهم، "إن كانوا من دار الحرب ويؤدون الخراج". وعليه، "يتوجَّبُ إرسالُ رجال الخفية (المباحث) بينهم، وعدم السماح لهم بركوب جياد عربية بل دواباً عادية وبغالاً. ثم إنهم يأتون إلى القدس بدعوى الزيارة ويعقدون صفقات تجارية وهم مختفون في مغارات كنيسة قمامة، وكذا يجب البحث عنهم، وكشف دخول الأسلحة إلى الكنيسة، وكل هذا واجب". ولكن شدَّد الأمر السلطاني على مسألة مهمة، وهي: "بحيث لا تتعارض هذه الإجراءات مع العهدنامه"[70].

ولما كان العدل أساس الملك، ولا ينتظم أمر الأمة بدونه، فنورد ثلاثة نماذج لوقائع جرت في مدينة القدس تعطي صورةً عن عدالة القضاء الإسلامي وموضوعيته، واجتهاد أولي الأمر في تحقيقه ونشره. فقد ادعى جماعة من أهالي القدس على طوني المترجم عند صوباشي القدس الشريف وعلى أحمد رئيس العسس وعلي وكريم وخليل وأحمد سزاني والذمي حنا والذمي قوسم؛ بأنهم يتعاطون الرشوة والسرقة والزنا والاعتداء على الأهالي. فطلب الأمر السلطاني المرسل في 29 محرم سنة 972هـ من الوالي والقاضي ضرورة إجراء المواجهة بين المدعى عليهم والمدعين والتحقيق، ولكن عند التعاطي في القضية يجب مراعاة جانب الحق بالكامل، وتوخي الحذر من الانحياز لأيِّ طرف أو محاباته، ومن التلفيق وشهود الزور، ويحُولون دون تدخُّل أيِّ أحد ممن ليست له علاقةٌ بالقضية[71].

والقضية الثانية، تبرئة طبيب يهودي جرَّاح من تهمة القتل الخطأ، وذلك في الدعوى التي أقامها محمد بن عبد الله العين كارمي على اليهودي الجرَّاح سلمون، والذي أجرى لصالح بن عبد الله، أخ المدعي، جراحةً في خصيته ومات، ويطلب دية أخيه لأن الطبيب قتله خطأً. وشهد له الشهود من الأطباء الجراحين بأنَّه ماهرٌ مشهورٌ في صنعة الجراحة، وله المعرفة التامة بها، وكان الحكم: ثبت لدى القاضي حسن أفندي بن عبد اللطيف أن هذا اليهودي الماهر في صنعة الجراحة، بإخبار أهل الخبرة من أهل صنعته من الثقاة المسلمين، بأنه ماهر كامل في معرفته هذه الصنعة، وأن كيس الخصيتين يضرب بالريشة عند الاقتضاء، وأن ما فعله اليهودي هو مقتضى الصنعة. فلم يكن فعله تعدي... إلخ. ومَنَعَ القاضي المدعي من التعرض للجرّاح سلمون منعاً شرعياً، وأحضر المدعي وأشهد على نفسه طائعاً مختاراً أنَّ أخاه صالح مات بقضاء الله وقدره من غير سبب الجراحة في كيسه، وأنه ليس له قبله حق مطلقاً، وأبرأ ذمته بخصوص ما ادّعاه البراءة الشرعية، فطلب اليهودي تحرير ذلك؛ فحُرِّرَ في 30 شوال 1198هـ[72].

وفي واقعة النزاع بين الأرثوذكس واللاتين على الدرج الشمالي في كنيسة المهد، كان الأمر السلطاني يطلب تحقيق العدالة في القضية دون شماتة (إشارة إلى العلاقات المتردية مع روسيا حامية الأرثوذكس)، أو تمييز أو انحياز، وإنما تشكيل مجلس للتحقيق، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه[73].

والأمثلة كثيرة تبيّن حرص الدولة العثمانية على تحقيق العدالة، دون أيِّ تدخُّلٍ من أصحاب النفوذ أو مراكز القوى.

ولضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية بأمان، فقد سنَّت الدولة التشريعات لتنظيم ذلك، فأوجبت عقوبة التعزير على من يدخل الأماكن المقدسة للمسلمين من النصارى[74]، وطلبت التشريعات من اليهود الصلاة في كُنُسهم، وحظرت عليهم الدخول إلى أماكن العبادة الخاصة بالنصارى أو الوقوف على أبوابها، ومن يخالف ذلك يدفع مئة سلطاني. وحين اشتكى النصارى من دخول أحد التراجمة اليهود إلى داخل كنيسة القيامة، أمر القاضي المسلم، بردّ الدعوى، لأن للضرورة أحكاماً[75].

وحين قام بحلواني الفرنجي البيكاري بالتشويش على أبناء طائفة الروم أثناء عبادتهم، وأخذ منهم شموعهم، تدخَّل القاضي المسلم، وأنذر البيكاري بدفع مئة سلطاني ذهباً إذا تكرّر منه ذلك[76].

وذات مرة حاول جرمانوس بن قسطنطين، بطريرك الروم، منع أبناء طائفة الإفرنج من الاحتفال بعيد سبت النور في كنيسة الجلجلة، داخل كنيسة القيامة، ورُفِعَت القضية إلى القاضي المسلم، الذي أصدر حكماً بالسماح لأبناء طائفة الروم بتأدية احتفالاتهم في عيد سبت النور والزيتونة.

وادعى جرمانوس سنة 974هـ/1564م بأن الفرنج يضايقون طائفته في كنيسة المهد، وطلب منعهم من دخولها، وثبت لدى القاضي المسلم بأنَّ دعوى جرمانوس كيدية إذ لم يستطع إثبات دعواه، فردّ القاضي الدعوى، وسمح لكل الزوار من المسلمين والنصارى بالدخول إلى كنيسة المهد للزيارة أو العبادة[77].

ومن اللافت للنظر إصدار السلطان أمراً إلى قاضي القدس يقضي بعزل محمد نسيبة، بوّاب باب كنيسة القيامة، لأنه يتلفظ مع النصارى الذين يزورون الكنيسة بألفاظ غير مرضية، مع التنبيه عليه وتحذيره من قبل الوزراء العظام، ولكنه كرَّر سلوكه، وطرق مسامع السلطان أنه رجع إلى أطواره السابقة. فطلب الآمر السلطاني من القاضي إبلاغ السيد محمد نسيبة بأن يده مرفوعة عن مقارشة (المشاركة والعمل) بوابة كنيسة القيامة، ولينصَّب أخوه وكيلاً أو أحد أقاربه بمعرفة الحاكم الشرعي في القدس، ويبلغ السلطان بالإجراء[78].

وكل هذه الوقائع تظهر حرص الدولة العثمانية على تمكين أتباع الديانات الثلاثة كافة من ممارسة شعائر دياناتهم بكل حريةٍ وأمنٍ واطمئنان، وما ذاك إلا تكريماً واحتراماً وتقديساً للمدينة الخالدة.

وعلى صعيدٍ آخر، فقد نفَّذت الدولة العثمانية العديدَ من الفرمانات والأوامر السلطانية التي تقضي بالتخفيف من الضرائب والأتاوات النقدية، التي كان يتكلفها الحجاج أو الزوار من المسيحيين واليهود عند زيارة المدينة أو التي يدفعها المقيمون منهم في المدينة. إذ كان النصارى واليهود يجبرون على تقديم هبات سنوية أو نصف سنوية لبعض العائلات في القدس، مثل عائلات الحسيني والخالدي والعلمي والدجاني، أو يدفعونها لشيوخ بعض القرى، مثل شيخ قرية العنب عثمان أبو غوش، أو لشيخ قرية بيت محسير، أو لشيخ بيت لحم. وكان يطلق على تلك الهبات اسم "عادة معتادة"، وتدفع مقابل حماية أهل الذمة[79]، وكانت متوارثة وتخضع للبيع والشراء. وقد ألغيت هذه العادة، بأمرٍ سلطاني منذ سنة 1230هـ/1814م، وأكد الإلغاء سنة 1247هـ/1831م. كما استجاب السلطان لرسالة تلغرافية بعث بها بطريرك روم القدس وتوابعها دميانوس يطلب فيها صدور الأمر السلطاني بإعفاء مؤسسات ومنشآت البطريركية، الكنيسة والمكتب التعليمي والمستشفى والدير، من الضرائب، وذلك وفق ما نَصَّ عليه القانوني العثماني، وحسب الامتيازات الدينية الممنوحة لغير المسلمين عند إنشاء مؤسساتهم[80].

كما ألغيت ضريبة الغفر التي كانت مفروضةً على الحجاج المسيحيين من قبل متسلمي القدس، وكذا ضريبة الإكرامية التي كان يأخذها كل متسلم حين دخوله مدينة القدس من أديرة الروم والكاثوليك والأرمن ومن اليهود، وكانت هذه الإكرامية تبلغ ألفي قرش[81].

أما النزاعات والمخاصمات بين الطوائف المسيحية فتعود في الأساس إلى الانشقاقات التي أصابت طائفة الروم الأرثوذكس، حيث انشق عددٌ من أتباعها ودعوا أنفسهم بالروم الكاثوليك وأصبحوا تابعين لبابا روما. والسريان والأرمن أيضاً انقسموا إلى أرثوذكس وكاثوليك وكذا انشقاقات الكنيسة اللاتينية في أوروبا. وفي العهد العثماني اشتدَّ الخلاف بين الروم الأرثوذكس واللاتين والأرمن والأقباط والأحباش والسريان، استمراراً للانقسامات التي وقعت في الكنيسة المسيحية في مجمع إفسوس Ephesus Assembly سنة 431 للميلاد، ثمّ في مجمع خلقيدون (خلقيدونية) Chalcedon Assembly وذلك سنة 451 للميلاد، والانقسامات التالية فيما بعد.

كانت الخلافات بين الطوائف المسيحية تتمحور حول الأمور التالية:

أ. حق أولوية الدخول إلى كنيسة القيامة، وإقامة الشعائر الدينية، ومنها تعليق القناديل في قبة الكنيسة حيث يوجد القبر المقدس حسب اعتقادهم.

ب. الإشراف على الخدمات اللازمة لهذه الكنيسة من إعمار وترميم وتجديد وإصلاح.

ج. الخلافات العقائدية المذهبية، وإدعاء كل طائفة صواب معتقدها دون الطوائف الأخرى، وكان افتراقهم العقائدي الفكري معقداً صعباً، عميق الجذور.

د. امتداد خلافاتهم وصراعاتهم إلى أماكن دينية أخرى، خارج القدس، وخاصةً إلى كنيسة المهد في بيت لحم. حيث تركَّز صراعُهم على الدرج الشمالي في الكنيسة، من أجل أولوية خدمته وترميمه والمرور عليه، وعلى الساحة الخارجية للكنيسة.

وكان يذكي الصراع، ويلهب نيران الفتنة عاملان:

أ. تدخلات القوى الأجنبية الخارجية، وخاصةً فرنسا وروسيا وإنجلترا؛ فقد بسطت فرنسا حمايتها على الطوائف اللاتينية المعتقد، وروسيا على الطوائف الأرثوذكسية، وبريطانيا على اليهود لعدم وجود كنيسة بروتستانتية في البداية، ولأن بعض المبشرين البروتستانت سعوا فيما بعد لتحويل اليهود إلى المذهب البروتستانتي. كما أنَّ بريطانيا بسطت أيضاً حمايةً مُقَنَّعة على الأقباط بعد احتلالها مصر، وأذكت الصراعات العقائدية بين الأقباط والأحباش، ودفعت الأقباط تارةً والأحباش تارةً أخرى لزيادة نفوذهم في كنيستي القيامة والمهد.

ب. الطوائف اليهودية الأجنبية وخاصةً الأشكناز بعد طردهم من أوروبا ومن الأندلس، وإقامة كثير منهم في منطقة جبل صهيون، وسعيهم بالدسيسة والخداع لإثارة عوامل الفتنة بين الطوائف النصرانية بعضها البعض من ناحية، وبين تلك الطوائف والمسلمين من ناحية أخرى، بدعوى أنَّ هذه الطوائف تعيش في بحرٍ من المسلمين، وتعاني الاضطهاد والحرمان من حقوقها، وبغرض تحقيق مكانةٍ لهم، وبالتالي للطوائف النصرانية في المشاركة في إدارة الولاية.

ولمواجهة تلك الصراعات والمنازعات والخصومات، فإنَّ سياسة الدولة العثمانية بُنِيَت على عِدَّةِ ركائز، وهي:

أ. اعتماد القوانين والأعراف التي نظمت العلاقات بين الطوائف الذمية من يهود ونصارى في المدينة، والشروط الإسلامية الممنوحة لأهل الذمة، والأعراف التي جرت في العهود الإسلامية المختلفة.

ب. التقريب بين أبناء الطوائف النصرانية، وحلّ خلافاتها باللجوء إلى القوانين العثمانية والاحتكام إلى القضاء الإسلامي في المدينة. وإن تعذَّرَ الحل، فرفع الشكاوى إلى السلطنة في إسطنبول، التي تبادر إلى تشكيل اللجان والمجالس للنظر في الشكاوى والتظلمات، ووضع الحق في نصابه على أساس تحقيق حرية العبادة وممارسة الشعائر. وإذا ما فشلت تلك الحلول، كان اللجوء إلى الإجراءات الشُّرطية، ولكن بأقل قدر ممكن من العنف أو الشدة، وفرض ترتيبات أمنية في أماكن الصِدَام، تحولُ دونَ الاحتكاك بين المتنازعين، وتحفظ هَيبَةَ الدولة وسيادتها في المدينة.

واللافت للنظر أن الدولة العثمانية، ومنذ وجودها المبكر في فلسطين، عمدت إلى عقد الاتفاقات المرضية بين الطوائف النصرانية والتقريب بينها، ففي 13 ذي القعدة 945هـ/1538م جرى الاتفاق بين الروم والأقباط برعاية الدولة العثمانية على أن يُمَكّن من الدخول إلى كنيسة القيامة من يصل إليها من الروم أو الأقباط أولاً[82]. ومن بنود هذا الاتفاق أيضاً تنظيم وضع القنديل في قبة كنيسة القيامة، وشمل طوائف الروم والأرمن والأحباش ووقَّعَه رؤساء تلك الطوائف؛ جرمانوس وعبد الله ويوحنا، على أن يقوم أمونة وميخائيل الجشيان بوضع القنديل في قبة كنيسة القيامة حيث يوجد القبر المقدس، وذلك يوم سبت النور، وأن يدورا حول القبة بعد ذلك، ثمّ يدخل البطريرك جرمانوس، رئيس طائفة الروم، وبعد خروجه تدخل الطوائف الأخرى[83].

وفي اليوم التالي، 14 ذي القعدة 945هـ/1538م جرى الاتفاق بين طوائف السريان والأحباش والأرمن على أنّ كتابهم واعتقادهم موافق لكتاب طائفة الأرمن واعتقادهم، وأن دينهم وقولهم وفعلهم في أعيادهم واحد. وهذه أول مرة في تاريخ تلك الطوائف النصرانية يتمّ الإقرار بعدم وجود خلافات مذهبية عقائدية جوهرية بينها، وتعمل على توحيد احتفالاتها الدينية[84].

غيرَ أنَّ هذا التقارب لم يدُم طويلاً، فقد تفجَّر الصراع بين طائفتي الروم الأرثوذكس واللاتين (الفرنج) الكاثوليك، وكانت بدايته بالاختلاف حول من له حق أولوية ترميم ما تصدَّع من أجزاء العتبة المعروفة بمغسل عيسى، وسقوط بعض رصاصه، وتكسّر

بعض بلاطه، الأمر الذي أدى إلى سقوط درابزين (سياج) الحديد الخاص به. وكان فاتسيو، رئيس طائفة الإفرنج، قد حصل على الموافقة لإجراء الترميمات والإصلاحات، خلال غياب جرمانوس، رئيس طائفة الروم الأرثوذكس، في زيارته إلى الأماكن الدينية الأرثوذكسية في عجلون، وكان فاتسيو الكاثوليكي قد وضع حجراً رخامياً فوق حجر العتبة القديم ورفعه بمقدار أربع أصابع ليخفي ما كتب عليه بأن الكنيسة هي وقف جد الروم الأرثوذكس، قسطنطين، الأمر الذي أدَّى إلى انقطاع الزوار للكنيسة من أتباع طائفة الروم الأرثوذكس، ورفعت القضية إلى القاضي سنان الحنفي، فأصدر حكمه بإزالة لوحة الرخام الكاثوليكية الجديدة[85].

وحين ثار الخلاف بين الروم الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك على الساحة الخارجية لكنيسة المهد إزاء حق أولوية تكنيسها، ومرور اللاتين من وسط مقبرة الروم الواقعة في الجهة الشرقية من كنيسة المهد، صدر فرمان سلطاني سنة 1063هـ/1652م ووضع الحلول لأسباب النزاع، وهي حق مرور اللاتين من وسط المقبرة، والطريق الموصلة والخاصة بدير اللاتين على المقبرة، والذي كان قد نتج عنه مصادمات واشتباكات، وأرسى المرسوم قواعد السلم الاجتماعي بين المتنازعين[86].

ومهما كان الحال، فإنَّ كل هذه المنازعات والخصومات ظلّت محدودة، ومحصورة في نطاقٍ ضيق، كنيسة القيامة وكنيسة المهد، وجرى تطويقها ووضع الحلول المناسبة لها، ولم تتحول إلى فتنة عامة، ولا شكلت عنصر قلق وتأزّم للدولة العثمانية، ولا امتدت إلى المناطق الأخرى التي يتواجد فيها أتباعُ تلك الطوائف في الناصرة أو حيفا أو يافا أو قرى رام الله أو صفد أو طبريا وغيرها.

لكن المشكلة تطورت وأصبحت تمثل خطراً على سيادة الدولة وهيبتها عندما بدأت أوروبا وضع خطتها إزاء ممالك الدولة العثمانية قيد التنفيذ، بحصولها على حقوق الحماية والامتيازات لأتباع تلك الطوائف. ففازت روسيا بحماية الروم الأرثوذكس، وفرنسا بحماية اللاتين، وبريطانيا بحماية اليهود والحبش والأقباط كما ذكرنا سابقاً. ومن ثمّ نشط القناصل بإثارة النعرات والعصبيات المذهبية، وخاصة قناصل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وألمانيا في مرحلة معينة. وكانت للحروب التي وقعت بين القوى الأوروبية والدولة العثمانية آثارها على نصارى البلاد المقدسة، حيث غدت الأديرة أماكن لتخزين الأسلحة، ولدى تفتيشها من قبل السلطات العثمانية تنشط

الدعاية الأوروبية وتثير الجماهير الأوروبية ضدّ الدولة العثمانية وسياستها بالتعدي على الأماكن المقدسة ومنعها لحرية العبادة[87].

وكانت البداية في زمن السلطان مصطفى الثالث، إذ وقعت فتنةٌ كبيرة سنة 1171هـ/1757م في كنيسة القيامة بين الروم الأرثوذكس واللاتين الإفرنج الكاثوليك، وقع على إثرها الكثير من الجرحى، ونهبت القناديل، ولما رفع الأمر للباب العالي، أمر بتسليم الأماكن المقدسة المسيحية في القدس إلى الروم، مما أوجد حنقاً عند الآخرين[88]. وفي حادثة أخرى جرت سنة 1270هـ/1853م، وقع شجارٌ بين الروم الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك استعملت فيه الآلات الحادة حتى الصلبان. ثمّ تبعه شجارٌ آخر بعد سنوات بين الروم الأرثوذكس والأرمن في كنيسة المهد، بسبب فرش الأرثوذكس سجادةً قرب مذبح الأرمن، ومنع الأرمن من الدوس عليها، الأمر الذي أدَّى إلى سفك الدماء، ودخول قوات الشرطة وحتى القوات المسلحة لفض الاشتباكات وإعادة الأمن والهدوء إلى مدينة بيت لحم[89]. بل إنَّ حرب القرم 1853-1856م بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، كانت شرارتها التذرع بسرقة نجمة فضية كان اللاتين قد وضعوها في كنيسة المهد، واتهم الأرثوذكس بسرقتها، فأعلنت روسيا القيصرية الحرب على الدولة العثمانية، وساندت فرنسا وبريطانيا الدولة العثمانية لأسباب أبعد من سرقة نجمة فضية، لا مجال للتفاصيل في هذا البحث. وقد استمرت الصراعات بين الطوائف النصرانية بتحريض من القوى الأوروبية.

في سنة 1302هـ/1885م وقعت مشاكل سياسية، وتمَّت مراسلات فيما بعد بين الإدارة المحلية في القدس وقناصل الدول الأجنبية والبطركيات، وتدخل فيها المركز في إسطنبول للحدِّ من تدخُّلات القناصل في شؤون الطوائف النصرانية. واتخذت الإدارة المحلية إجراءً بتعيين حُرّاس مناوبين عند أبواب الأماكن الدينية من أجل الحفاظ على الأمن ومنع التعديات، بل إنَّ المتصرف العثماني في القدس كان حريصاً على حضور كافة الاحتفالات الدينية في المدينة، لإظهار تقدير الدولة لاحتفالات رعاياها من أهل الذمة، ومنع الإخلال بالأمن والسلامة خلال الاحتفالات[90].

ونظراً لاستمرار حالات التوتر بين الطوائف النصرانية فقد اقترح متصرف القدس الشريف على الباب العالي اقتراحاً يقضي بإبطال مفعول الحماية والامتيازات، وضرورة عودة سيطرة الدولة العثمانية المباشر على الطوائف وليس الأجانب[91]. وطلب

في رسالته السماح لهم بتوزيع مبلغ 250 ليرة ذهبية على زعماء الأقباط وزعماء اللاتين المعروفين بتأثيرهم على الأقباط والأحباش، من أجل حلِّ النزاعات بينهم، ومنع تدهور الأوضاع وإثارة الصراعات[92].

أما أحداث الخلافات والمخاصمات والتعديات على الأماكن الدينية الإسلامية المقدسة أو على الأوقاف والأراضي الميري أو المملوكة أو مع الأفراد المسلمين؛ فالفصل فيها يكون لقاضي القدس الشرعي. حيث يعقد القاضي مجلساً شرعياً تستوفى فيه كل شروط العدالة والحرية والنزاهة التامة، فيحضره رئيس الطائفة المعنية وعدداً من عدول الطائفة، ويرد الحق إلى نصابه[93]، ويعود الهدوء ويسود التسامح وحسن الجوار والذي ما أفسده إلا التدخلات الأوروبية. وكذا مع اليهود، فالخلافات تُحالُ إلى القضاء، وكفى بالقضاء العادل ملجأ وملاذاً[94].

ومن ناحية أخرى، فإنَّ الدولة العثمانية، كانت تصدر تعليماتها وأوامرها بضرورة اتخاذ جانب الحذر والحرص ومراقبة أفعال الأجانب من أتباع الطوائف النصرانية واليهودية، وخاصةً التجار والزوار والحجاج. فقد أصدر الباب العالي أمراً في غرة محرم سنة 952هـ الموافق 1545/3/14م فيه تنبيه إلى بكلربكي الشام، يطلب مراقبة تجار البندقية الذين يترددون على البلاد المقدسة وسائر الولايات المحروسة، والحفاظ على أرجاء القدس الشريف وطرابلس والسواحل والقلاع وكافة الأماكن التابعة لولاية الشام، ولكن وفق العهدنامه السلطانية التجارية[95]. وتشددت الدولة في منح رخص البناء لإنشاء المؤسسات الأجنبية في المدينة المقدسة، ووضعت لوائح وتعليمات، وحددت الخطوات الواجب تنفيذها في حال التقدم بطلب من قبل الطوائف لترميم أو إصلاح أو تجديد البناء القائم أو عند إنشاء بناء جديد. إذ لا بُدّ من معرفة أصل ملكية الأرض، ومصادر تمويل شراء الأرض وإقامة البناء، وأهداف إنشاء المؤسسة وموظفيها ورواتبهم، وعدد الأفراد الذين سيقيمون فيها، وأعداد المنتفعين منها وتبعيتهم، وبعدها أو قربها من المؤسسات الإسلامية. وتؤلف اللجان وهيئات الكشف والتحري، ويكلف رجال من الخفية بالتحرِّي والبحث ورفع التقارير والتوصيات، قبل اتخاذ أيِّ قرارٍ بشأنها[96]. ومثالها: محاولة تحويل ديرٍ إلى كنيسة للرهبان الفرنسيس، فكان الإجراء المبدئي، تحديد ملكية الأرض وحدودها، وخريطة الموقع وخريطة البناء، ومعرفة صندوق الصرف، ووقوع الكنيسة قرب المؤسسات الإسلامية أو بعدها عنها، وتأثيرها ونشاطاتها، وتدقيق كل

ذلك من قبل نظارة الداخلية والخارجية والعدلية والأوقاف والدفتر الخاقاني والمالية، ويقترح الصدر الأعظم على السلطان إصدار الفرمان والأمر بذلك[97].

أما إجراءات الدولة العثمانية بشأن الأطماع اليهودية في الهجرة والاستيطان فقد أفردنا لها بحثين ناقشا، السكان والأرض في مدينة القدس 1275-1368هـ/1858-1948م. والآخر، إجراءات أكرم بك، متصرف القدس، ضدّ الهجرة والاستيطان وإقامة دولة لليهود في فلسطين 1906-1908، وقد عرض فيه إجراءات الدولة العثمانية القانونية والعملية لمنع الهجرة والاستيطان، ولكن المؤامرة الأوروبية والأمريكية كانت أعظم من قدرات الدولة العثمانية وإمكاناتها آنذاك، وتجاوزت طاقات أهل الأرض المقدسة والشعوب الإسلامية.

6. رعاية المؤسسات الثقافية والاجتماعية والصحية والخدمية ودعمها:

ويتمثل ذلك في الحفاظ على المدارس والمكاتب والخوانق والأربطة والزوايا والتكايا والمقامات ودور الأيتام والبيمارستانات ودور الإصلاح والخانات والحمامات. وكان في القدس أكثر من أربعين مدرسة، وأربعة مكاتب لتعليم الأطفال الأيتام، وأكثر من عشرين زاوية، ورباط وخانقاه وتكية، منها ما كان قد أنشئ في العصور السابقة للعهد العثماني، وبعضها قد أقيم في العهد العثماني، وكان لهذه المؤسسات أهمية كبيرة في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في المدينة المقدسة. والوظائف في هذه المؤسسات على نوعين: وظائف علمية، ووظائف إدارية؛ ويكون التعيين في الوظائف العلمية على الأغلب من السلطان، حيث تصدر براءات التعيين لتولي التدريس، حيث يختار واحد من كبار العلماء ذوي السمعة العالية، وتضمن البراءة نصائح وتوجيهات بِحثّ الطلاب (الفقهاء) على الاجتهاد والاشتغال بالعلوم، ويحدد راتب المدرس وأرزاقه.

ولما كانت تلك المؤسسات تعتمد على عائدات الأوقاف بصورةٍ رئيسيةٍ وعلى إكراميات السلطان (الصرة)، فإنّ السلطنة حرصت على تحرير وإحصاء أوقاف تلك المؤسسات. وقد سجل في الدفتر رقم 342، تاريخه 970هـ/1562م، أوقاف 13 مدرسة، و5 خوانق، و6 زوايا. ومن المدارس: ست مدارس حنفية وأربع مدارس شافعية وواحدة مالكية واثنتان مشتركة لتدريس المذاهب الأربعة، ومكتب محمد آغا لتعليم الأولاد ومكتب بايرام بك الواقع أسفل عقبة الست[98].

وتحفل الوثائق العثمانية بعدد كبير من البراءات والإرادات السلطانية بتعيين وظيفة مدرس أو شيخ لمدرسة أو زاوية أو تكية أو خانقاة، والنظر في هذا النوع من الوثائق يفيد باستمرار تلك المؤسسات في أداء وظائفها خلافاً لما انتهى إليه بعض الباحثين من خرابها وتوقفها عن أداء دورها في القدس. ومن البراءات التي وجدناها في الأرشيف العثماني، تعيينات خاصة، بالمدارس التالية: الصلاحية، والأحمدية، والتنكزية، والمنجكية، والميمونية، والجوهرية، والطولونية، والقادرية، والعثمانية، والخاتونية، والعلائية، والحنفية، والطشتمرية، والبيبرسية، والزينبية، والفارسية، والرشدية، والخاصكية، والدويدارية، والمكتب الإعدادي، ومكتب بيرام جاويش.

علاوةً على البراءات التي كانت تصدر لمدرسي المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وبعض نصوص هذه البراءات سجلت في سجلات المحكمة الشرعية في القدس[99]، ويشار إلى أن البراءات كانت تصدر لكافة المدارس التي تُعنى بالمذاهب الأربعة دون أفضلية للمدارس الحنفية، المذهب الرسمي للدولة العثمانية. وإن كان راتب وظيفة مدرس بالحنفية يكون فاضلاً، يتناسب ومكانته العلمية وعلو شأنه بين أهل المدينة، فقد صدرت براءة تعيين الشيخ أبو اللطف أفندي بن إسحق، مفتي السادات الشافعية في القدس سنة 1056هـ/1646م، بتوليه وظيفة التدريس بالمدرسة الحنفية بمرتب أربعين عثمانياً يومياً، يتقاضاه من عائدات أوقاف المدرسة، وهو مبلغ كبير إذا ما قيس بمرتبات أقرانه آنذاك[100].

وفي بعض الأحيان لا يقتصر صدور البراءة السلطانية على وظيفة التدريس، وإنما تشمل الوظائف الإدارية المهمة في تلك المؤسسات، مثل تولية النظارة والإشراف والوظائف الفنية التي تحتاج إلى خبرة واختصاص دقيق. فقد صدرت إرادة سلطانية موشحة بختم السلطان شاه أحمد بن إبراهيم خان في 13 جمادى الآخرة 1103هـ/1691م، من مقام أدرنه، بتعيين الشيخ فتح الله بن الشيخ صالح لوظيفة الأجزاخانة، ووظيفة مساح سرّ شريف في تكية خاصكي سلطان بأجرة بارة شامية يومياً عن كل وظيفة من وظيفتي الأجزاخانة ومساح شريف[101].

ولعل من فضائل الدولة العثمانية في القدس اللافتة للنظر، هي إنشاء كلية صلاح الدين الأيوبي سنة 1334هـ/1915م، والفضل في ذلك يعود إلى جمال باشا، قائد الجيش في بلاد الشام. حيث كان مبنى المدرسة الصلاحية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي

سنة 588هـ/1192م مهجوراً بسبب زلزال هدم أجزاءً منها سنة 1257هـ/1841م، وأمر السلطان عبد المجيد بتسليمها إلى الآباء البيض الكاثوليك في المدينة. وبالفعل فقد سلمها متصرف القدس كامل باشا سنة 1273هـ/1856م، لقاء مساعدة فرنسا للدولة العثمانية في حرب القرم واستجابةً لطلب فرنسا، وأُعيدَ بناؤها سنة 1295هـ/1878م، لتكون ديراً ومدرسة باسم القديسة حنة Saint Anne الإكليركية تابعة للرهبان الكاثوليك. فاستخلصها جمال باشا، الذي يلقبه بعض الباحثين العرب "بالسفاح"، وأعادها كلية باسم صلاح الدين الأيوبي، وجلب كافة مستلزماتها من ألمانيا، ووضع لها نظاماً عصرياً.

وكان تأسيس الكلية حلقة في سلسلة جهود الدولة العثمانية لبعث النزعة الإسلامية لدعم الدولة في مواجهة الأخطار الأوروبية التي تحدق بها، من خلال تخريج كوادر علمية كافية ومؤهلة على بث الروح الإسلامية، وإحياء لذكرى مدرسة صلاح الدين الأيوبي وامتداداً لها، وتقوية الشعور الديني ترسيخاً لكيان الدولة العثمانية ومقام السلطنة. وكانت الكلية مرتبطة مباشرة بمقام شيخ الإسلام وبوزارة الأوقاف في إسطنبول، وكانت كليةً دينية عصرية، تدرس العلوم الدينية واللغات العربية والتركية والفارسية والألمانية والفرنسية والإنجليزية والروسية، علاوةً على العلوم الحديثة من هندسة ورياضيات وفلك وجغرافيا حياتية، والفلسفة والحقوق والمالية والعلوم الطبيعية والرسم والخط والتاريخ. واختير لها أفضل الأساتذة من العلماء والشيوخ، أمثال جمال بك النيبال الحلبي، أستاذ القانون الدولي العام في كلية الحقوق بالأستانه، الذي عُيِّن مديراً لها، ورستم حيدر، خريج جامعة باريس سنة 1912 معاوناً للمدير، وكان يعمل مديراً لمدرسة التجهيز العربية بدمشق. ومن مدرسيها أيضاً محمد إسعاف النشاشيبي، وعبد العزيز جاويش، وخليل السكاكيني، وأمين العوري، وموسى البديري، وعبد الرحمن سلام، وعادل جبر، وأسعد الشقيري[102]. وظلّت المدرسة تقوم بدورها بكل همة ونشاط، وتبث الروح الإسلامية، وتؤهل كوادر عالية الكفاءة؛ حتى دهمها الاحتلال البريطاني في 1917/12/9، وصادرها وسلمها للآباء البيض، وما زالت تئن مع أبناء فلسطين حتى اليوم.

وكانت الدولة العثمانية ترى في نشر الثقافة الصوفية في المدينة المقدسة ترسيخاً للقيم الإسلامية الروحية، وتثبيتاً لوجودها السياسي، وكان سلاطين بني عثمان

يحرصون على دعم الطرق الصوفية بصورة عامة، وكنا قد أشرنا إلى إنعام السلطان سليم على شيخ الطريقة المولوية وأتباعها براتب مقداره 500 أقجة شهرياً. وكان في القدس العديد من زوايا الصوفية والتي تزيد عن 25 زاوية، منها الزاوية الهندية، أتباع الطريقة الرفاعية، والزاوية الوفائية والأدهمية والمهمازية والنقشبندية والبسطامية والقادرية، الأفغانية، والخانقاه الصلاحية، وزاوية القرمي والمغاربة والخلوتية التي أنشأها الأمير حاجي بك سنة 947هـ، ويلاحظ أن العديد من أبناء العائلات المقدسية قد انخرط في عضوية تلك الزوايا والخانقات. وفي سجلات الأوقاف، عدة وقفيات حبسها بعض سلاطين بني عثمان ورجال الإدارة على شيوخ المتصوفة وزواياهم، مثل نائب الناظر في القدس، قاسم بك بن قزل أحمد، فقد أوقف كرماً بما فيه من غراس على الشيخ علي الخلوتي سنة 937هـ/1530م[103]، وأوقف السلطان سليمان القانوني على: "قدوة الراشدين وزين الصالحين حضرت شيخ أحمد الدجاني"[104]. وكان أحمد الدجاني بن السيد أبو الوفا علي بن ياسين، من كبار شيوخ الصوفية، له مكانة عند سلاطين بني عثمان، وعلى الأخص عند السلطان سليمان، الذي كان الشيخ الدجاني قد بشَّره بأنه سيفتح جزيرة كريت لرؤيا وقعت له في منامه[105]. وتولى الدجاني فيما بعد مشيخة مقام النبي داود سنة 936هـ/1529م. وكان أن أمر السلطان العثماني بإيصال المياه إلى حمام مقام النبي داود لحاجة الشيخ أحمد الدجاني، المُلِّحة، وذلك استجابةً لشكوى الشيخ بعث بها مع الشيخ عيسى إلى مقام السلطنة[106].

فالمتصوفة في مدينة القدس بشكل عام كانوا يعدّون عناصر استقرار وأركان دعمٍ للدولة العثمانية، بما لهم من أثرٍ ديني روحي واجتماعي وسياسي في المدينة.

وعلى صعيدٍ آخر، فإن الدولة العثمانية أولت الخانات التي كانت في داخل المدينة أو ظاهرها رعايتها، إذ كانت منازل للمسافرين وأماكن لقضاء الأعمال التجارية ومخازن لبضائع التجار. وتلك الخانات تشتمل على غرف ومخازن ودكاكين وإسطبلات وحمامات ومصليات وأكنفة، وتتولى حراستها القوات العسكرية في المدينة وخارجها. وكان عدد الخانات في كل مدينة دليلاً على مكانة المدينة السياحية والاقتصادية، وكأنها الوكالات التجارية التي كانت معروفة في دمشق والقاهرة وجنوا وبيزا والبندقية. غير أن الأكثرية الساحقة من خانات القدس كانت مؤسسات وقفية، وكان في القدس منها 16 خاناً، زار أوليا جلبي في رحلته إلى القدس ستة منها[107]، وبعضاً منها ذُكِرَ باسم

وكالة، ومنها: خان السلطان (دار الوكالة)، وخان الغادرية، وخان تنكز، وخان سوق القطانين، وخان الزيت، وخان خاصكي سلطان. وكانت الرعاية العثمانية تشمل ترميمها وإصلاحها وعمارتها وتجديدها، وضبط أوقافها بكل دقة وحرص، وتعيين متولي إدارتها، وحراستها، وتأمين سلامة التجار والمسافرين وبضائعهم، والتدقيق في جودتها، ومراقبة أسعارها، وحسن استثمار مصادر أوقافها، حتى العناية بحيوانات ودواب التجار والمسافرين؛ كإطعامها وسقيها وتوفير بيطري لحذوها ومداواتها.

وكانت الكثير من خانات المدينة تُباعُ فيها السلع التجارية كالزيت والصوف والقطن وغيرها، وأخرى تقدم خدمات للأفراد واستبدال العملة، مثل خان الصرف، الذي يقع قرب المسجد الأقصى وكان معدّاً لاستبدال العملات[108].

كما أنّ الأربطة في المدينة، كالرباط المنصوري ورباط البصير ورباط الحموي ورباط النساء ورباط بيرام بك، لقيت العناية لاهتمامها بالعلوم الدينية إضافةً إلى كونها مأوىً للفقراء من الرجال والنساء، حيث يُقدّم فيها الطعام والشراب مجاناً، وينفق عليها من عائدات الأوقاف المحبوسة عليها. وكان رباط بيرام بك على سبيل المثال نموذجاً لما يقدمه من خدمات، فقد بلغت مصادر أوقافه 17 مصدراً، منها: حصص في قرى بني نعيم، وبيوت ومزارع، ومصبنة، ووقفية نقدية بمبلغ 50 ألف أقجة، وطاحون، ودار الوكالة بغزة، وكان يلحق به مكتبٌ لتعليم الأطفال[109].

وشملت العناية والرعاية مستشفيات المدينة وحماماتها، بقصد معالجة المرضى، وخاصةً الفقراء، وتوفير المياه للطهارة والوضوء. وكان في القدس 13 حماماً، مرتبطة بالحياة الاجتماعية لأهل المدينة، إذ تُعدّ كمنشآت حضارية يرتادها الناس في المناسبات الاجتماعية، مثل: حفلات الزواج والطهور والولادة. ومن تلك الحمامات حمام العين وحمام باب الأسباط وحمام الشفا وحمام العمود وحمام داود. ويعود اهتمام الدولة العثمانية بها لأن بعضاً منها كان وقفاً على الصخرة ومبنى المسجد الأقصى أو غيرها من الأماكن الدينية، فيشملها الإعمار والترميم والتجديد وتدقق أوقافها، وينظر في رواتب العاملين فيها[110]، وعائدات الحمامات ووجوه إنفاقها. وكذا شملت العناية العثمانية البيمارستان الصلاحي (دار الشفاء)، المخصص لمعالجة فقراء المرضى، وقد أجريت عليه ترميمات وتعميرات وتجديدات سنة 978هـ/1570م، وظلّ البيمارستان الصلاحي عامراً بأطبائه وموظفيه حتى سنة 1203هـ/1788م، ففي هذه السنة عُيِّنَ جرَّاح وحكيم باشي ليعمل في دار الشفاء بالبيمارستان الصلاحي[111].

وكان من أهم المنشآت الاجتماعية والثقافية في المدينة المقدسة العمارة العامرة أو تكية خاصكي سلطان، والتي سنفرد لها مساحةً في البحث نظراً لأهميتها واستمرارها في أداء دورها حتى أيامنا هذه.

تكية خاصكي سلطان (العمارة العامرة):

خاصكي سلطان، لقب يعني محبوبة أو محظية السلطان، أطلق على جارية السلطان سليمان الروسية الأصل، من بلدة روجاتينو، "الفائقة الجمال، ممشوقة القوام، الشقراء، أسيلة الخدين"، المعروفة بـ"روكسيلانا Roxelana". اشتراها وكلاء السلطان من تاجر تتري في أسواق إسطنبول، هي "ذات صنعة بديعة في الغناء والعزف على القيثارة يصاحبه تنقيل عجيب لقدميها". كنّاها خازن الكسوة في القصر السلطاني خُرَّم أي المرحة أو الضاحكة، أغرم بها السلطان سليمان القانوني فتزوجها، وأنجبت له خمسةً من الأبناء، ثلاثةً من الذكور وبنتان، ولتمكنها من قلب السلطان، فقد أوصلت اثنين من أبنائها، "سليم وبايزيد" إلى عرش السلطنة[112]، بطرق أغضبت رجال البلاط والجيش. ومع ذلك، فقد خلدت اسمها من خلال إنشائها العديد من المؤسسات الدينية والخيرية في إسطنبول وأدرنة ومكة والقدس، إذ بنت في إسطنبول جامعاً، وفي أدرنة جامعاً أيضاً، ومدرستين في إسطنبول، هما: خاصكي خرم وقاهرية، ومستشفى (طب خانة خاصكي خرم)، وحمامين، وتكية في سوق النشا في إسطنبول، وتكية خاصكي خرم في مكة قرب الكعبة، وتكية خاصكي سلطان في القدس الشريف. وكانت هي وراء بناء مجمع السليمانية بمرافقه العديدة، مسجد ومدرسة ومكتبة ومنشآت أخرى.

منذ سنة 959هـ/1551م، بدأ العمل ببناء منشأة خاصكي سلطان في القدس، التي تكوَّنت من مسجد عال ذو أروقة وقباب عالية وعمارة بمطبخ وفرن وبيت للمؤونة وحوش بأسواره وأنبار وكنف متعددة ومحطب وساحة واسعة ومبانٍ عالية مسقوفة، وقفتها على الفقراء والمساكين وزمرة الضعفاء والمحتاجين، بالإضافة إلى 55 غرفة، وقفتها على عامة أبناء السبيل وأصحاب السفر والرحيل[113]. والتكية قائمة في عقبة التكية بالقدس، بين باب الناظر وسوق باب خان الزيت.

ولكي تضمن خاصكي سلطان لهذه المؤسسات البقاء والاستمرار في أداء خدماتها، فقد أوقفت عليها أوقافاً كثيرة في ألوية القدس وغزة ونابلس وطرابلس. وتضمنت الأوقاف عائدات قرى أو أجزاء من قرى ومزارع وأراضي وخانات ودكاكين وطواحين

وحمامات وقيسارية، وبموجب شروط الوقفية عمل في التكية أكثر من خمسين موظفاً، وكان مطبخ التكية يقدم الأكل كل يوم لمئات من الناس، مرق بالأرز في وجبة الغداء ومرق بالحنطة في وجبة العشاء (أرز وسمن وحمص وبصل وحطب وملح ولبن حامض وحنطة). ويخبز الفرن ألفي رغيف من نوع خبز الفدولة البني، وزنه تسعين درهماً وزنياً (الدرهم 3.125 غم)، إضافةً إلى الحلوى وكميات فاضلة من اللحوم في أيام الجمع وليالي رمضان والأعياد وعاشوراء وأيام الرغائب.

وبعد وفاة خاصكي سلطان في رجب 966هـ الموافق نيسان/ أبريل 1558م، أوقف السلطان سليمان القانوني في السنة التالية لوفاتها أربع قرى ومزارع من ناحية صيدا على التكية، "صدقة عن زبدة سلاطين النسوان، زبيدة العهد والأوان"[114]. لقد كانت عناية السلطات العليا في إسطنبول بالتكية كبيرة، بحيث كفلت لها الاستمرار والبقاء، وضمان الغنى الكبير لأوقافها، لدورها في الحياة العامة في مجتمع مدينة القدس. وكان للمدرسة المدعوة بالخاصكية الملحقة بالتكية أهميتها في نشر الثقافة الدينية في المدينة، إذ كان يُعيَّنُ مدرسوها بموجب براءات سلطانية، ويحظون بمكانةٍ عاليةٍ في المجتمع[115].

وتمدُّنا الوثائق والفرمانات العثمانية، المتعلقة بالتكية، بتفصيلاتٍ دقيقة عن جميع أولئك الذين كانوا يتقاضون إعانات من التكية ومخصصاتهم اليومية، وأسماء التكايا والزوايا التي تزود يومياً بكمياتٍ من المؤن لتوزيعها على قاطنيها وعلى الفقراء، وأسماء العائلات المقدسية التي تتسلم ما خُصِّص لها من الخبز يومياً.

ولدى الباحث سجلين بخصوص مرتبات ومصارفات تكية خاصكي سلطان، المنصرفة بموجب الإرادة السَنِيّة إلى الأهالي والتكايا والرواقات وأصحاب المرتبات، بالقدس الشريف في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1846م/1264هـ[116]. فكانت جملة المصروفات 5,201 قرشاً و27 بارة، منها مرتبات 18 زاوية وخلوة ورواق وفقراء، ومرتبات أيتام ونساء مسكينات وعائلات فقيرة، ومرتبات 35 من علماء وشيوخ ومدرسين وأعيان ووجهاء والعاملين في التكية، ومن الشيوخ على سبيل المثال:

السيد علي الداودي، والشيخ محمود الدنف، والشيخ إسماعيل الدنف، والشيخ أحمد القطب، والسيد محمود الخالدي، والسيد شاكر القطب، والسيد حسني بدارة الحافظ، والسيد علي الموقت، وداود الأزهري، وعيسى العالم، وكلهم من أبناء العائلات

المقدسية. ومن المدرسين، صالح أفندي جار الله وأخيه الشيخ أحمد، ومحمد أفندي جاوى زاده، ومحمد علي أفندي، وموسى أفندي حسيني زاده[117].

وفي شهر آب/ أغسطس 1858م/1275هـ فقد كانت مرتبات ومصارفات تكية خاصكي سلطان بالقدس الشريف المنصرفة بموجب الإرادة السنية إلى: الفقراء والمجاورين والزوايا والرواقات وأصحاب المرتبات بالقدس الشريف عن الشهر المذكور 13,458 قرشاً و15 بارة، وهي كل ما صُرِف على التكية من مستلزمات المطبخ والرواتب والمساعدات للأسر والفقراء وغيرهم.

وعن شهر تشرين الأول/أكتوبر 1858م/1275هـ، صُرِفَ: 13,151 قرشاً و15 بارة، وكان يوزع كل يوم 81 رطلاً و6 أواقٍ من الخبز لجهات البر والإحسان المحددة سابقاً.

وقد التزم السيد محمد درويش قيمقام خاصكي سلطان بتقديم سند ممهور بتوقيعه، يفيد تسلُّمه المبلغ وصرفه وفق ما هو مُفصَّل في دفتر وقف التكية[118].

ويَرِد في دفتر مصارفات مرتبات أهل القدس الشريف: ذكر للأنواع التالية:

علايف جُزُؤ خانة (ربعة شريفة)، علايف تكية عامرة، مقطوع قرايا، بدل أخباز فقراء ومجاوري التكايا والرواقات والزوايا والنساء والأرامل والمرتزقة بتكية صاحبة الخيرات والمبرَّات المرحومة والمغفور لها، خاصكي سلطان عن واجب سنة 1278هـ/1861م. حيث بلغ مجموع علوفات قُرّاء الربعة الشريفة على روحها 134 علوفة، ومرتبات تكية خاصكي سلطان 119 علوفة، وحصص القرايا (القرى)، المشروحة في الوقفية وعددها 27 قرية، يدفع 4 علوفات، وبدل أخباز يصرف 376 قرشاً.

وقد بلغ عدد الأُسَر التي تلقّت مساعدات البر والإحسان من أوقاف التكية 533 عائلة، وبلغت المصروفات تلك السنة، عدا المصاريف الشهرية، 21,886 قرشاً، وهي واجبات إضافية يتصدق بها السلطان بموجب براءة سلطانية ترسل إلى قيمقام التكية[119].

وجاء في الوثيقة ملخصاً:

دفتر مصارفات ومرتبات أهل القدس الشريف عن علايف جزؤ خانة (ربعة شريفة) وعلايف تكية عامرة ومقطوع قرايا وبدل أخباز فقراء ومجاورين التكايا والرواقات والزوايا والنساء والأرامل والمرتزقة بتكية صاحبة الخيرات والمبرات المرحومة والمغفور لها خاصكي سلطان في القدس الشريف، طاب ثراها عن واجب سنة 1278هـ:

أ. عن مرتب علايف قُراء الربعة الشريفة عن روح المرحوم السلطان سليمان وخاصكي سلطان، وكان مقدار المرتبات 2,379 قرشاً وعشر بارات منها ما هو مخصص لأولاد الشيخ المتوفى، وعددها 135 علوفة.

ب. عن مرتبات تكية خاصكي سلطان: صرف 1,070، وعدد العلوفات 119.

حصص القرايا المشروحة في تصرف وقف خاصكي سلطان، ويدفع عنها المبالغ المرقومة بروجه مقطوع (مبلغ مقطوع) سنوي إلى أربابها المذكورين، وكانت توزع كما يلي:

- السيد أمين أفندي وعبد القادر أفندي وسعيد أفندي، ربع إنتاج قرية بيت لحم وربع قرية بيت جالا، بروجه مقطوع سنوي مقداره 450 أقجة.
- السيد الحاج صالح أفندي والسيد جار الله أفندي والشيخ داود وعبد الحي والشيخ أحمد أفندي ووفا أفندي، ربع قرية نعلين، بروجه مقطوع سنوي 150 أقجة.
- الشيخ سعيد أفندي والسيد عبد القادر أفندي والسيد شرف الدين والسيد أحمد أفندي موقت وعمر وعلي وعبد الله الموقت، ربع قرية الجيب، بروجه مقطوع سنوي 150 أقجة.
- السيد سليم أفندي الخالدي والسيد بدر الدين أفندي والشيخ درويش أفندي الداودي وعثمان وخليل أفندي شاكر وأولاد أحمد وعبد الغني الصلاحي ورشيد حدوقة وعبد اللطيف ويوسف سموم وأولاد الفقاعي، ربع قرية وحيه وربع قرية السافرية، بروجه مقطوع سنوي 155 أقجة.
- السيد خليل أفندي العفيفي والسيد يوسف والشيخ عبد الرزاق والسيد سليم أولاد العفيفي، ربع قرية كفر جنس، بروجه مقطوع سنوي 165 أقجة.

ج. مصارفات بدل خبز المرتزقة عن حساب كل خبز ثلاثة قروش، اعتباراً كل إرْدَب ستة قروش، يصرف في كل سنة، المصروفات: 4,775 مداً ورطلين وثلاث أوقيات، وبلغت 14,325 أقجة[120]، وأما كافة المصاريف فبلغت 21,886 قرشاً.

لقد أسهمت هذه المؤسسة الخيرية في سدِّ عَوَز الكثير من الأسر والأفراد، وحافظت على استمرارها في أداء دورها الثقافي والديني، بتوفيرها أسباب الحياة للمجاورين

والصوفية والدارسين الذي كانوا يرحلون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي شوقاً وحنيناً لمجاورة مسرى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وطلب العلم في معاهد القدس العلمية.

ونكبت أوقاف التكية إبّان الاحتلال المصري في حملة إبراهيم باشا، حيث صودرت مصادر أوقاف التكية، وخاصةً الأراضي والمزارع[121]، ووزعت على أتباعه ولكن الدولة العثمانية استعادتها. وكانت الكارثة الكبرى، التي أصابت التكية وعطَّلت دورها الاجتماعي والثقافي والديني، الاغتصاب الصهيوني لفلسطين سنة 1948، حين صادرت القرى والأراضي الوقفية العائدة لتكية خاصكي سلطان وخاصة في منطقة الرملة التي توجد فيها 16 قرية ومزرعة موقوفة عليها من مجموع 27 قرية في مناطق أخرى، صادرتها دولة كيان الاغتصاب الصهيونية.

ولم يعُد لوقف خاصكي سلطان اليوم سوى بضعة دكاكين في القدس القديمة بموظفٍ واحد، يعمل طبّاخاً للشوربة التي ما تزال تقدم بكميات قليلة قبل ظهر كل يوم. وتتولى دائرة الأوقاف في القدس صرف حوالي ألف دينار شهرياً لشراء المؤن ولوازم المطبخ من جريشة وكاز وأرز وسكر وبصل وكمون وعدس مجروش وسولار وحطب، وفي الأعياد تقدم وجبة خاصة، وفي رمضان تصرف كميات إضافية من الطعام والأرز، وتزاد كمية الجريشة في العطلة الصيفية للمدارس لازدياد أعداد المترددين على التكية. هذه المؤسسة الخيرية كانت صفحة مجيدة من تاريخ الدولة العثمانية لحفظ وصون تراث المدينة المقدسة الثقافي والديني.

7. الحرص على تزويد القدس بالمياه:

كانت القدس تعتمد على جمع مياه الأمطار في برك وآبار وصهاريج وخزانات وحياض لشرب سكانها، وتعتمد على عيون بعض الينابيع لري مغروساتها المحدودة. وكان يتمّ نقل الماء منها بالروايا والقرب إلى منازل الآهلين، وعلى بعض البرك التي تخزن فيها المياه. فلقد كانت المدينة تعاني شُحّاً في المياه ومصادره وخاصةً المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وظلّت أزمة المياه في المدينة تؤرِّق سلاطين بني عثمان في إسطنبول وموظفي الإدارة العثمانية في القدس، ويظهر ذلك من خلال المراسلات واقتراح الحلول، ومن ثمّ تنفيذ المشاريع لتوفير أكبر قدرٍ من المياه للمدينة من عيون الينابيع التي يمكن

سحب مياهها إلى القدس، ومن تلك العيون: عين نبع أرطاس وعين سلوان وعين بتير وعين قارة (على بعد 16 كم، شمال المدينة)، وعين الفوار وعين العروب وعين المريجيع الكائنات في قضاء الخليل، وحتى إيصال المياه من الوديان الجارية، كوادي القلط، قرب أريحا، شرقي القدس.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني، صدر الفرمان السلطاني بتعمير بركة السلطان الكائنة على طريق المحطة من جنوب باب الخليل[122]، على بعد مئة متر من سور القدس، وبرك سليمان وحفر بئر أزبك المجاور لها، وإنشاء قناة السبيل.

وكان إنشاء قناة السبيل أهم مشاريع المياه التي نفذت أيام السلطان سليمان القانوني، فقد عثر على مصادر مناسبة للمياه في الوديان والينابيع والبرك الواقعة جنوبي مدينة بيت لحم، بين القدس والخليل، وعلى بعد 23 كم من القدس. ففي وادي العروب سبع عيون، هي: فريديس، وعد المزرعة، والفوار، وعين البص، وعين البرادة، وعين قوزيبا، وعين الدلبة. وفي وادي البيار من أراضي الخضر خمسة ينابيع غزيرة والبالوع المسمى عين الخضر، هذه الينابيع الكائنة في وادي العروب ووادي البيار والبالوع يصب ماؤها في برك سليمان، ومنها يخرج الماء ويلتقي بمياه عيون أرطاس[123]، وتسيل كلها في قناة إلى القدس. وبرك سليمان هي البركة الفوقا، وترتفع 797 متر عن سطح البحر، والبركة الوسطى وترتفع 783 متر عن سطح البحر، والبركة التحتا وترتفع 768 متر عن سطح البحر. وقد بنيت بهندسة تُمكِّن من تسييل المياه من البركة الفوقا إلى البركتين؛ الوسطى والتحتا، ويجري الماء إلى القدس. ومع أنّ القناة قديمة، ولاقت العناية من حكام القدس المسلمين عبر العصور، غير أنَّها في عهد السلطان سليمان القانوني، كانت برك سليمان وقناة السبيل في حالة سيئة، فأمر بإعمارها سنة 943هـ/1536م، ولم يكتفِ بذلك بل حبس عليها الأوقاف للإنفاق من ريعها على تعمير القناة والبرك، فالوقفية رقم 58 من دفتر أوقاف وأملاك لواء القدس كانت:

وقف رآه آب (قناة الماء أو قناة السبيل) در قدس شريف (الكائنة في القدس الشريف)، برموجب أمر شريف عاليشان (بموجب الأمر الشريف العالي الشأن)، تاريخ أمر شريف في أواسط رجب سنة 934هـ. ومصادر الوقف:

- عن قرية بريكوت، تابع قدس شريف، حاصل 18ط: $\frac{1}{2}$ 2973 أقجة.

- مزرعة كفر عانا قرب ديرابان تابع (قدس شريف) تماماً، حاصل، قسم من الربع عن المغل وغيره: ثلاثة آلاف أقجة.
- دكان في وادي الطواحين بقرب سوق القطانين، 2 باب[124].

كما أوقف عليها أيضاً، قرية كفر طاب ومغلس وجنداس وترقوميا ونصف قرية القباب وغيرها. وفي 2 رجب 959هـ الموافق 1552/6/24م كان دخل أوقاف القناة يتراوح بين 9-10 آلاف أقجة سنوياً، وارتفع إلى 13 ألف أقجة، وكان يعمل في القناة عددٌ كبير من الموظفين؛ ناظر وكاتب وجابٍ وحارس على البرك ومشد[125].

وفي سجلات المحكمة الشرعية بالقدس، حجة تفيد بعقد مجلس شرعي في قبة السلسلة القائمة شرقي قبة الصخرة المشرفة، حضره جمهورٌ غفير من قضاة المسلمين وعلمائهم وأمرائهم وعلية القوم من سكان القدس، منهم؛ جعفر بك كاتب الولايات الشريفة السلطانية، وصالح أفندي بن القزويني والي القدس، ودرويش جلبي كاتب الدفتر الشريف، وأحمد جلبي كاتب الدفتر السلطاني، وأبو بكر الجماقي ترجمان كاتب الولاية، والقاضي صنع الله بن البدري، والقاضي شمس الدين بن ربيع، والقاضي سعد الدين العلم المالكي، والقاضي شمس الدين المصري، والعلامة بدر الدين الشافعي، والعلاّمة الكمالي، والشيخ أبو الفتح بن فتيان، والشيخ أبوالسعود العزي، وغير هؤلاء الأجلاّء.

في ذلك المجلس، قرَّر السيد محمد جلبي النقّاش، وأشهَدَ على نفسه أنَّه قد عمَّر قناة السبيل من برك سليمان إلى القدس وأنشأ بها القساطل وأجرى فيها ماء العيون، وأنه قد وقفها على عامة المسلمين، وعلى أوقاف عامة المسلمين، وعمَّر عليها السبل وأوقفها كذلك صدقة عن "مولانا الإمام الأعظم سليمان شاه، خلَّد الله خلافته"[126]. وذلك بتاريخ 10 صفر 948هـ. وعلى الجانب الآخر أمر السلطان سليمان بإنشاء الأسبلة وترميم القديم منها وتجديده وإصلاحه في كافة حارات المدينة وأحيائها ومنها؛ السبيل على بركة السلطان، ظاهر القدس، والسبيل بمحلة باب السلسلة، والسبيل لوضوء الحنفية، والسبيل لوضوء الشافعية بالمسجد الأقصى، والسبيل المعروف بالشادوران، والسبيل بمحلة باب القطانين، ومنه مدت قناة لتزويد حمام تنكز، والسبيل بمحلة باب الناظر، والسبيل تجاه باب الدويدارية والسبيل بباب الأسباط بمحلة باب حطة، ومنه

مدت قناة لتزويد حمام باب الأسباط[127]. هذا بالإضافة إلى الأسبلة التي أنشأها رجال الإدارة العثمانية في القدس، مثل سبيل باب المحكمة (سبيل قاسم باشا، والي القدس سنة 932هـ/1524م، الكائن على بعد 150متراً جنوب باب النبي داود)[128]، وسبيل طريق الواد، وسبيل باب العتم، وسبيل باب السيدة مريم، وسبيل الشيخ بدير الذي أُنشِئَ سنة 1153هـ/1740م، وسبيل مصطفى آغام متسلم القدس، وسبيل عبد الله الشوربجي بباب العمود، وسبيل الخزرجي بباب العمود أيضاً، وسبيل داود في جل العدار، وإعمار وترميم سبيل قايتباي، وسبيل الشعلان.

إنَّ تزويد مدينة القدس بالمياه بقيت حاضرةً في الذهنية العثمانية الرسمية، ففي سنة 1067هـ/1656م بمناسبة زيارة محافظ غزة حضرة حسين باشا مدينة القدس، ولِمَا رآه من "ضيق خطير وحصر حصير أصاب الناس بسبب قلة الماء الذي منه مادة الحياة، منه حياة الأنفس والحيوان وبه تقام شعائر الدين والإيمان، ويفتقر إليه كل إنسان، لا سيّما وأنَّ الماء الوارد إلى القدس لا يفي بحاجة السكان لازدياد أعدادهم وتوسع المدينة". ولمّا سأل المعمارية عن كيفية تزويد المدينة بكميات أكثر من الماء؛ اقترحوا عليه إدخال مياه عين ارطاس إلى قناة البرك ووصوله إلى القدس، وعهد إلى المعمارية والمعلمين والعمال والحجارين، وأنفق على المشروع من ماله الخاص ستة آلاف قرشاً أسدياً[129].

وفي دفاتر المهمة وردت ثلاثة فرمانات تتعلق بقناة السبيل وبرك سليمان:

الفرمان الأول:

كوغوشلار رقم 888

الصفحة 283أ، ب

تاريخه: 2 رجب 959هـ/24 حزيران 1552م

صادر إلى بكلربكي دمشق وقاضيها

ملخصه: عائدات أوقاف قناة السبيل من القرى والمزارع 9-10 آلاف أقجة، والملتزم الحالي قد أحيلت عليه بمقدار 13 ألف أقجة ورواتب موظفي القناة يستهلكون جزءاً كبيراً من العائدات، يجب تسريح من يمكن الاستغناء عن خدماته، وتزويد العمارة العامرة وتكية خاصكي سلطان بالماء الواصل من وادي البيار وليست من قناة السبيل لضرورتها لأهالي المدينة، وخُصص ألفا فلوري، لتغطية النفقات[130].

الفرمان الثاني:

دفتر المهمة رقم 7

الفرمان رقم: 1955

تاريخه: 26 صفر 976هـ/1568م

صادر إلى مراد باشا، والي دمشق

ملخصه: بسبب معاناة أهل القدس من شُحِّ المياه، ضرورة إيصال المياه من عين أرطاس إلى قناة السبيل وتكاليفه من 3-4 آلاف فلوري ويستفسر عن التكاليف ومعقوليتها، وكم لولي (أنبوب ماء يعادل 48 متراً مكعباً) يمكن جلبها[131].

الفرمان الثالث:

دفتر المهمة رقم 60

رقم الفرمان: 73-77

تاريخه: 28 رمضان 993هـ/23 أيلول 1585م

صادر إلى سليمان، الشاويش في البلاط

ملخصه: كان قد عُيِّن مباشراً على إصلاح البِرَك الخَرِبَة بين القدس والخليل، ولم ينفذ لاشتراكه في حملة ضدّ الدروز، والآن عليه تنفيذ المهمة دون إبطاء، ويتسلم الأموال من قاضي القدس التي حُوِّلت له سابقاً والمحفوظة في القلعة وأرسلت نسخ لذوي الشأن[132].

وتشير سجلات الأوقاف العثمانية إلى مداومة تعمير قناة السبيل وترميمها، وإجراء الإصلاحات عليها وصيانتها. ولأن مصادر المياه كانت تتعرض للخراب والتدمير من قطاع الطرق والأشقياء، مما حدا بالسلطان مراد الرابع 1032-1049هـ/1622-1639م إلى إقامة حرس قوي عند برك سليمان، حيث أنشأ قلعة مراد عند برك سليمان، وعيّن عليها دردراً (قائد الحرس) وأربعين جندياً، وشحنها بالمدافع والأسلحة والذخائر والمؤن والمياه وما يلزم لسكن الجند. وقامت هذه القلعة بدور مهم في حفظ الأمن وحراسة ينابيع المياه وقناة السبيل لمدة طويلة[133]. وتولى أمير الأمراء سنان باشا، محافظ القدس، ترميم قناة السبيل وعمارتها سنة 1077هـ/1666م[134]، وقبض 5,625 قرشاً أسدياً،

صرف منها جزءاً، وظل الباقي ديناً في ذمته أوفاه ورثته بعد موته، وأنفق على ما خصص له من مصالح قناة السبيل. ونقرأ في سجلات محاسبات الأوقاف، المحفوظة في الأرشيف العثماني، عن مصروفات ونفقات لمصالح قناة السبيل، وخاصةً في دفاتر سنة 1271هـ/1854م، حيث كانت تدفع النفقات للفنيين والمعماريين والعمال بصورةٍ دوريةٍ أسبوعية[135].

وفي العهد العثماني الأخير، عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1316هـ/1898م، مُدَّ أنبوب من الفخار حتى بيت لحم، ومنها إلى القدس، مُدَّ أنبوب حديدي وصار الماء يجري في قناةٍ حجرية. وكانت قد شكّلت هيئةً فنيةً من نظارة النافعة، وأرسلت من إسطنبول، ومنح امتياز توريد المياه إلى القدس من القناة إلى شركة ألمانية بكلفة قدرها 160 ألف فرنك، حيث يجلب المياه من عيون الفوار وعين قارة، بقوة ضخ لمدة 24 ساعة تبلغ 2-3 آلاف متر مكعب يومياً، وتكون القناة تحت الأرض، ويتمّ إنشاء أحواض وقساطل[136].

لقد بذل سلاطين دولة بني عثمان ورجال الإدارة العثمانية جُلَّ جهودهم لحلِّ أزمة المياه في المدينة المقدسة، لحيويته وضرورته لاستمرار الحياة في المدينة. وبدونه فلا حياة لإنسانٍ أو حيوان، ولا حفاظ على أداء الشعائر الدينية، وتفقد المدينة هويتها الدينية والاجتماعية.

8. تطوير المدينة في أواخر العهد العثماني:

زادت التدخلات الأوروبية في ولايات الدولة العثمانية، وعملت القوة الأوروبية على تقطيع أوصال الدولة وممتلكاتها، وتبنت أمم عديدة المقولات الأوروبية في الاستقلال والحرية، حتى الشعوب العربية خدعت بالأفكار الأوروبية. وأشاعت الدول والقوى الأوروبية عجز الدولة العثمانية عن تبني الفكر الإصلاحي، والأخذ بأسباب المدينة الحديثة، وإدخال التكنولوجيا العصرية إلى مؤسساتها وهيئاتها وولاياتها، ورسمت صورة سوداء قاتمة لأحوال الأمم والشعوب في ظلّ الدولة العثمانية، ووسمتها بالتخلف والتدهور في أوضاعها الاجتماعية والسياسية والثقافية؛ سلاطينها طُغاة قتلة، وأجهزتها إرهابية قمعية فلا عدالة ولا حرية، ونظامها الاقتصادي قائمٌ على النهب والاستغلال، فلا تحديث ولا تطوير ولا تقدم، لا في التعليم ولا في الصناعة أو الزراعة أو التجارة، وغيرها من النعوت والأوصاف التي وحدت وسائل الدعاية الأوروبية في انتقاصها من سياسات الدولة العثمانية.

ولعلَّ الباحث يتكأ على مقالين كتبهما كل من روث كارك Ruth Kark وانجن أكارلي Engin D. Akarli اليهوديان الصهيونيان، ففيهما يُلقى كثير من الضوء على ما قامت به الدولة العثمانية حتى في المراحل المتأخرة من عصرها، والتي كانت تئن آنذاك من هول ما يخطط لمصيرها، وسوقها إلى السقوط والاختفاء كمرحلة نهائية من تاريخها لتحقيق الأجندات الأوروبية والصهيونية المتعلقة بولايات الدولة العثمانية. وأهمية هذين المقالين، أنهما أرَّخا لحركة تطوير مدينة القدس ويافا، ومحاولات السلطان عبد الحميد الثاني لدعم العرب في قيادة الدولة العثمانية[137]، ودمج البلدان العربية في النظام العثماني سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. ويقرر كارك، أنه كان للدولة العثمانية دورٌ إيجابي في حركة تطوير مدينة القدس ويافا، وذلك للقيام بما يلي:

أ. توفير الأمن والسلامة على النفس والأملاك، وتحقيق الاستقرار، ومنع كافة أشكال الاضطهاد الديني، وتمتع الجميع بحرية العبادة وممارسة الشعائر.

ب. تحسين الأحوال الحياتية لكافة أهالي القدس ويافا، من خلال تنفيذ المشاريع الإنمائية، وتطوير البنية التحتية، ورعاية الزراعة والصناعة والتجارة.

ج. تحسين الإدارة، والأخذ بالأساليب الحديثة، وتعيين الأكفاء المؤهلين، من ذوي الأمانة والنزاهة والاجتهاد.

ويورد كارك نماذج من التطويرات التي أحدثتها الدولة من حيث النظافة والصحة والحماية والأمن، وبناء الطرق وحراستها وتنظيم المدينة وإقامة المنشآت وإدخال الهاتف والبريد، وتطوير التعليم بإدخال برامج حديثة هندسية وفنية، فأنشأت مصالح حكومية جديدة، وطوَّرت القضاء، وقضت على نفوذ المشايخ (سلاطين البر) والإقطاعيين، وأخمدت تمردات وتعديات البدو وقطاع الطرق واللصوص، ورصفت شوارع مدينة القدس، وأنشأت شبكة للمجاري، وفتحت عيادات طبية مجانية، وافتتحت سنة 1306هـ/1888م مسرحاً تمثل فيه الروايات العربية والتركية والفرنسية، وبنت مئات المدارس في قرى فلسطين، وبنت في سنة 1310هـ/1891م مستشفى تابعاً للبلدية، عرف بالمستشفى البلدي في حي الشيخ بدر، وأقامت منتزهاً عاماً في الميدان القريب من المسكوبية، تعزف فيه الفرق العسكرية الموسيقى مرتين في الأسبوع، وفي المناسبات والاحتفالات الدينية، وقامت في سنة 1311هـ/1892م ببناء سكة حديد بين القدس ويافا، وفي سنة 1312هـ/1893م، زودت المدينة بمستشفى عسكري ثانٍ أقيم في ساحة القشلة

بباب الخليل، وفي سنة 1318هـ/1900م شيّد برج الساعة في باب الخليل، وسبيل ماء جديد في باب الخليل أيضاً، وفي السنوات التالية، أقيم متحف للآثار وإصلاح وترميم وتجديد وإعمار الحمامات التركية، وفي سنة 1324هـ/1906م قرَّر رشيد بك، حاكم القدس آنذاك، بناء المدرسة الرشيدية، وأشرف على وضع برامجها التدريسية الحديثة، واختار لها أفضل الأساتذة، من خريجي المعاهد والجامعات المشهورة، بل وأحدث في المدينة ميداناً لسباق الخيل[138]. وكنا قد أشرنا إلى الكلية الصلاحية التي أنشأها جمال باشا، وانتشرت في المدينة الخانات والمطاعم والفنادق والمستشفيات والوكالات التجارية والبنوك والمنشآت الصناعية والأسواق الحديثة؛ فكانت المدينة مقصد الحجاج والزوّار والسيّاح من الهند والصين وآسيا الوسطى والتركستان وأوزبكستان وبخارى وسمرقند وطشقند وإيران وأفغانستان وبلاد النوبة والمغرب وشرق إفريقيا وغربها ومن الجزيرة العربية وتركيا، علاوةً على البلدان الأوروبية كافة. فالمدينة آمنة مستقرة، ونشاطها الاقتصادي قوي، جاذب للأموال والاستثمار، وأحياؤها وحدودها وسكانها في ازدياد[139].

أما السلطان عبد الحميد الثاني 1293-1327هـ/1876-1909م، فكانت لفترة حكمه أهميةٌ عظمى تتفوق على فترات العديد من سلاطين الدولة، وذلك لمحاولته تقوية الوحدة الإسلامية بين الأقطار العربية والإسلامية لتكون قوة مانعة للأطماع الأوروبية الغربية، فقد عظّم عبد الحميد مكانة رجالات الولايات العربية من أرباب الوظائف الدينية من علماء وشيوخ ومدرسين، وقرَّب إليه العديد من رجالات العرب كمستشارين وخبراء ونظار وصدور عظام أمثال، خير الدين باشا التونسي، وأحمد جودت باشا، وعزت باشا العابد، وأبو الهدى الصيادي، وعبد القادر القدسي، وشفيق الكوراني، ومحمود شوكت باشا[140] (الذي قاد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني). وأمر بتطوير التعليم بإنشاء المدارس الإبداعية ذات الأصول الجديدة والتي تدرس الطب والقانون والاقتصاد والإدارة والهندسة والعلوم العسكرية، وألحق بها العديد من الطلبة العرب ليكونوا كوادر مؤهلة لتولي الوظائف العمومية بعد تخرجهم.

وكان اهتمامه ورعايته لمدينة القدس الشريف علامة بارزة في تاريخ الدولة العثمانية، فقد تصدّى لمحاولات الصهيونية بالاستيطان في القدس، ورفض كل الإغراءات التي قُدِّمت له لإنقاذ اقتصاد الدولة إن وافق على قبول البرامج الصهيونية بشأن فلسطين

عامة، والمدينة المقدسة خاصة. وبالتالي، فقد أُسقط عن عرشه، وظل سجيناً منفياً في سالونيك ومحاصراً حتى وفاته. وما كان أمام القوى الأوروبية إلا الغزو العسكري للدولة العثمانية، وكانت القدس غنيمة الاحتلال البريطاني في 1917/12/9، حيث دخلت المدينة في عهود الظلام والتعسف والإرهاب والتشرد والطرد والهدم والقتل والإعدام، وسلمتها بريطانيا فيما بعد إلى الصهاينة حيث ما زالت فصول مأساتها مستمرة. والمقاومة ضدّ الاغتصاب غدت ثقافة واستراتيجية ومنهاجاً.

خاتمة:

وفي الختام، فإنَّ البحث يظهر بأن الدولة العثمانية، وفي مضمار جهودها للحفاظ على الدور الثقافي والحضاري لمدينة القدس الشريف ولتنشيط وتفعيل هذا الدور؛ قد قامت بما يلي:

- التزمت القيم الإسلامية التي أرسى قواعدها الدين الإسلامي الحنيف، وطبَّقت أحكام الشريعة بالعدل والمساواة بين كافة رعاياها دون الالتفات للمذهب أو العرق أو الطائفة.
- حافظت على الأماكن المقدسة في المدينة، وخاصةً المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، فأجرت عمليات الترميم والإصلاح والتجديد والإنشاء طوال وجودها في المدينة المقدسة. ولم يقتصر اهتمامها على هذين المعلمين المقدسين، بل شملت الرعاية كافة الأماكن الدينية في القدس وظاهرها، كما أولت أماكن العبادة عند الطوائف غير الإسلامية عنايةً بارزة.
- حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية كانت مكفولة، ووضعت التعليمات لتمكين أتباع الطوائف من أداء شعائرهم، وعدم تعكير صفو حريتهم.
- بسطت حالةً من التعايش والسلم بين فئات المجتمع من المسلمين وغيرهم، وأعملت سياسة التقارب بين الطوائف الأخرى من نصارى ويهود وتحقيق العدالة.
- أقامت العديد من المنشآت الثقافية والاجتماعية والصحية والخدمية، وكانت منشأة تكية خاصكي سلطان من أهم المؤسسات الخيرية في المدينة، والتي ما

زالت تقوم بجزء صغير من دورها الذي أراده سلاطين بني عثمان أن يكون كبيراً ومؤثراً.

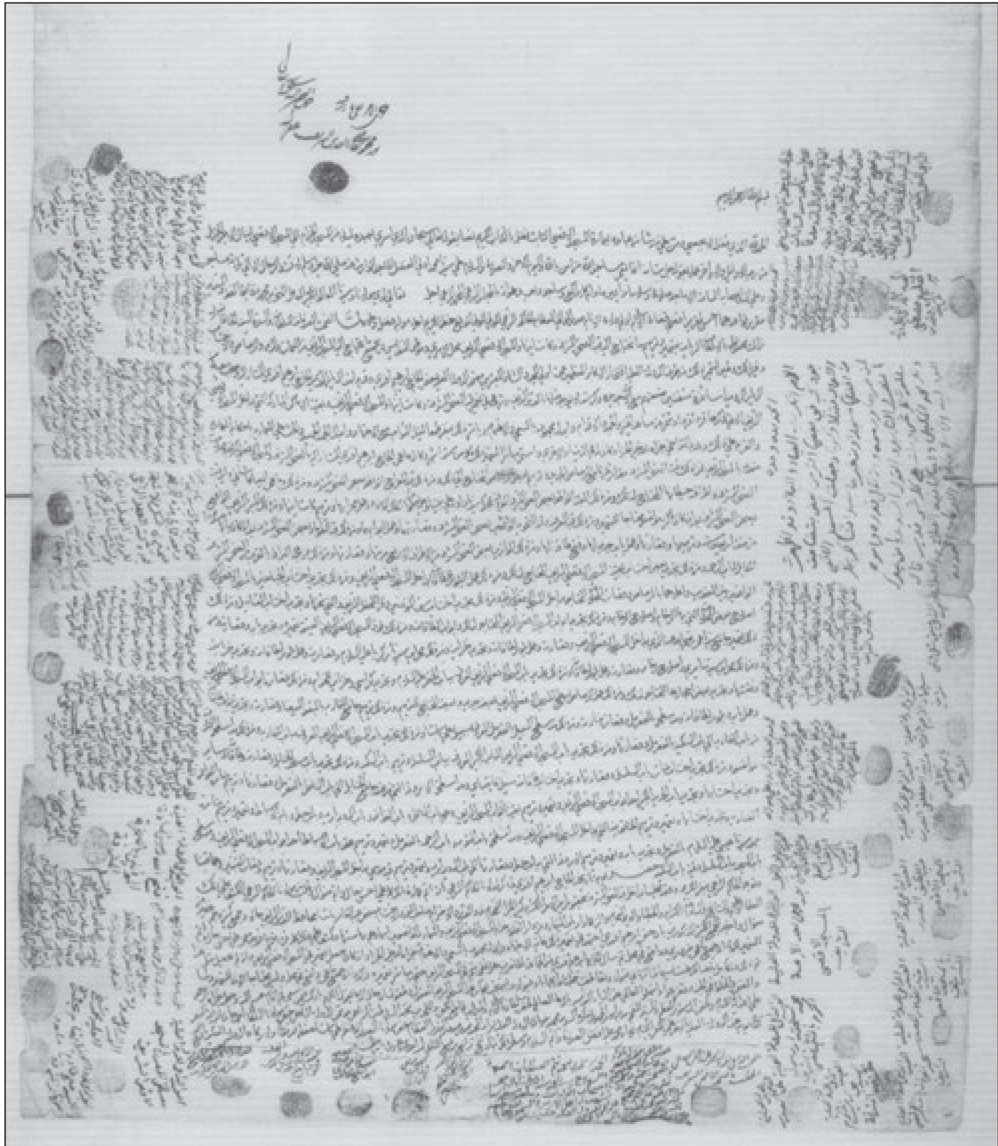
- رعت معاهد العلم في المدينة المقدسة، وأعظمت قدر العلماء وأرباب الوظائف الدينية، فغدت مدينة القدس رحلةً لطالبي العلم من مختلف أقطار العالم الإسلامي، ووصف علماء المدينة بفضلهم وأثرهم على ترقي الفكر الإنساني العالمي.
- عملت الدولة العثمانية على تطوير المدينة وتقدمها وازدهارها، وحلّت مشكلة من أعقد المشاكل التي كانت تواجهها، وهي قلة المياه وشحها في المدينة، وما زالت شبكة المياه العثمانية عاملة وفاعلة في المدينة حتى يومنا هذا.

وستظل مدينة القدس، عنوان الخلود السرمدي، حبها روحاني سماوي، والشوق والحنين لبيت المقدس لا يخمد ولا يفنى بل يتجدد أبداً ويتأكد. والقدس المحتلة اليوم إنما هي أزمة الفكر العربي والإسلامي، أسيرة الغصب والعدوان تنتظر صلاح الدين، المؤمن المجاهد، ليعيد لها دورها كمنارةٍ ثقافيةٍ وحضارية لكافة الأمم والشعوب.

وإلى الله المُشتكى، نِعْمَ المولى ونِعْمَ المعين والنصير

الملاحق

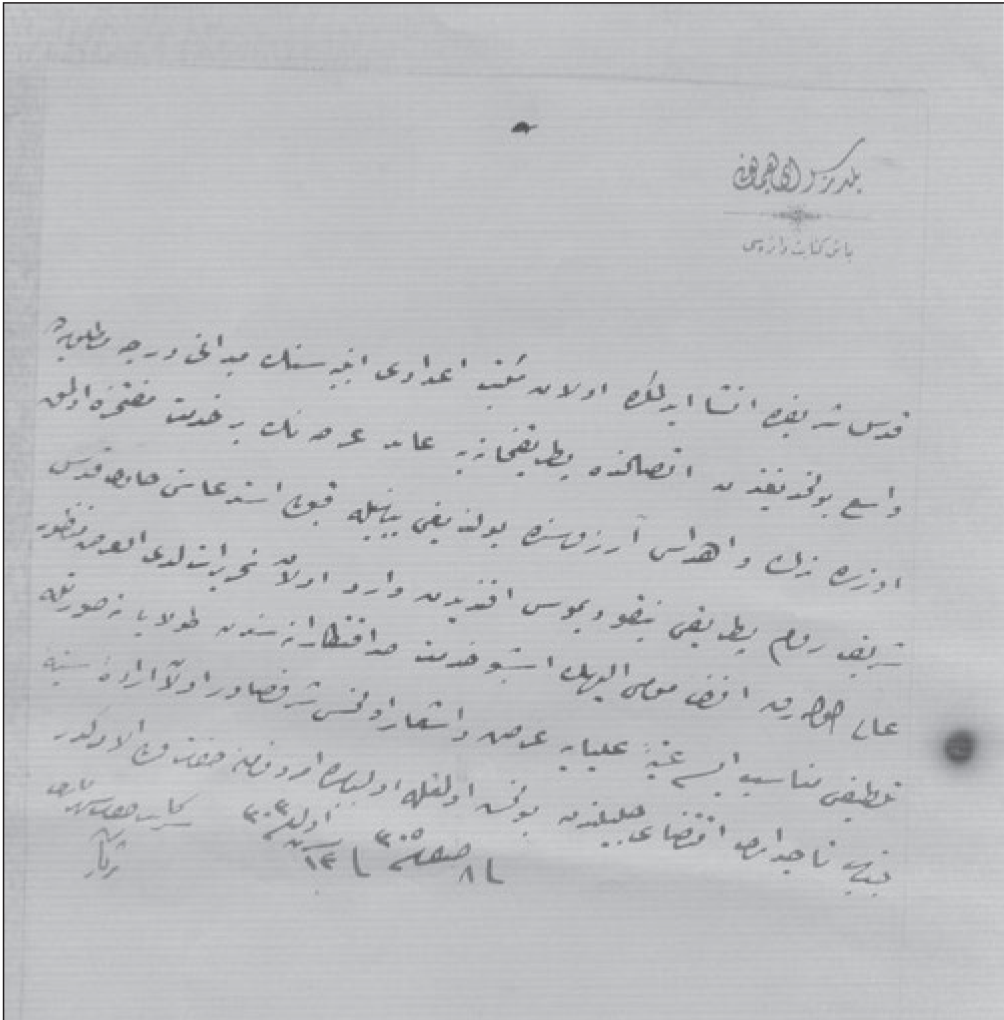
نماذج من الوثائق العثمانية



وثيقة إعمار الأماكن الدينيّة في مدينة القدس سنة 1120هـ/ 1708م

وثيقة نقل مواد البناء الكرستة من ميناء يافا إلى القدس، والتي أرسلت من إسطنبول

شكوى إلى الباب العالي من عبد الخالق زولي ضد من غصبه حقه في الأرض



وثيقة صادرة من السلطان تقضي بتكريم بطريارك الروم الأرثوذكس لصداقته للدولة العلية، انظر ترجمتها إلى العربية في البحث.

هوامش الفصل الثالث

[1] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 25-26.

[2] Evliya Tschelebi, "Evliya Tschelebi's Travels in Palestine, 1648-1650," translated by St. H. Stephan, *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, Ariel Publishing House, vol. 4-9, 1935-1949; and see also: Yucel Dagli, Seyit Ali Kahraman and Robert Dankoff, *Evliya Çelebi Seyahatname 9th Book* (Istanbul: 2005), p. 230.

[3] Evliya Tschelebi, "Evliya Tschelebi's Travels in Palestine," vol. 9, no. 1, 1939, p. 148; and Mehmet Önder, "Mevlana Jelaluddin Rumi and his Impacts on Arab Countries," *Studies on Turkish-Arab Relations, Annual*, 1986, pp. 199-206.

[4] Evliya Tschelebi, "Evliya Tschelebi's Travels in Palestine," vol. 9, no. 1, 1939, p. 149؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس** (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1961)، ص 264-265.

[5] كامل جميل العسلي، "نشأة مدينة القدس وعروبتها في التاريخ،" **الموسوعة الفلسطينية**، ص 797-833.

[6] أوليا جلبي، **سياحت نامه**، ص 13.

[7] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس: حسب الدفتر 342، تاريخه 970هـ/1562م** (عمّان: مطبعة الأسواق، 2002)، ص 174-176.

[8] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي ألوية، صفد، نابلس، غزة، وقضاء الرملة، حسب الدفتر 312 تاريخه 964هـ/1556م** (عمّان: مطبعة الأسواق، 1999)، ص 23-25؛ وانظر: نجاتي قطاش وعصام بينا رق، **الأرشيف العثماني**، ترجمة صالح سعداوي صالح (عمّان: الجامعة الأردنية، 1406هـ/1986م)، القدس، 357، خليل الرحمن، 348، صفد، 364، نابلس، 360. وانظر أيضاً:
Basbakanlik Osmanli Arsivi Reheberi, 2 vols., Istanbul, 2000.

[9] أوليا جلبي، **سياحت نامه**، ص 16.

[10] انظر على سبيل المثال: Ev.d.No.15767 محاسبة الأسبوع الحادي والخمسين.

[11] دفتر محاسبة أوقاف الحرمين الشريفين Ev.HMH.d.1619

[12] Evkaf Haremeyn MuHasebeciligi defterleri (Ev.HMH.d) Ev.d.No.15768.

[13] انظر: دفتر المهمة، إسطنبول، المجلد 29، رقم الحكم 33، 103، تاريخ شوال 987هـ/ ديسمبر 1579م.

[14] انظر: دفتر المهمة، المجلد 28، رقم الحكم 93، تاريخ 25 رجب 984هـ/ 18 أكتوبر 1576م.

[15] انظر: دفتر محاسبة المسجد الأقصى والصخرة المشرَّفة Ev.HMH.d.No.3768.

[16] انظر: دفتر المحاسبة Ev.HMH.d.

[17] سجل المحكمة الشرعية بالقدس رقم 136، سنة 1056هـ، ص 56، وسيشار إليه لاحقاً بـ س.ش.

[18] دفتر محاسبة الأوقاف (إعمار الأقصى والصخرة E.v.MHM.d.1619 والأماكن الأخرى بتاريخ 1121هـ/1709م).

[19] س.ش، 309، ذو القعدة 1239هـ/ يونيو 1823م، ص 15.

[20] س.ش، 31، 17 شعبان 963هـ/1555م، ص 366، و14 ذي القعدة 963هـ/1555م، ص 205.

[21] دفتر المهمة، كبجي، رقم 71، تاريخ 3 جمادى الثاني 1022هـ/ 23 يوليو 1613م، ص 340.

[22] دفتر المهمة، كبجي، رقم 71، تاريخ جمادى الثاني 1022هـ/ يوليو 1613م، ص 179.

[23] تاريخ 1121هـ/1709م Ev.HMH.d.1619.

[24] انظر تاريخ 29 كانون الأول 1271هـ/1854م Ev.d.No.1591.

[25] س.ش، 29، سنة 967هـ، ص 219-220؛ وكامل جميل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية** (عمّان: الجامعة الأردنية، 1983)، ج 1، ص 294.

[26] لمزيد من الاطلاع على الألقاب والكنى والإشادة بمناقب قاضي القدس، انظر سجلات المحكمة الشرعية في القدس التالية: س.ش، 136، سنة 1055-1056هـ، ص 334؛ وس.ش، 150، 2 صفر حتى رمضان 1065هـ؛ وس.ش، 142، سنة 1059هـ، ص 113؛ وس.ش، 171، سنة 1080-1081هـ، ص 196؛ وس.ش، 184، سنة 1092هـ، ص 226؛ وس.ش، 228، رمضان 1229هـ، ص 15؛ وكامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 313-314.

[27] انظر: س.ش، 271، سنة 1204هـ، ص 56.

[28] س.ش، 278، سنة 1211هـ، ص 70.

[29] انظر: س.ش، 271، سنة 1042هـ، ص 37؛ وس.ش، 271، سنة 1204هـ، ص 56؛ وس.ش، 278، سنة 1211هـ، ص 70.

[30] ورد اسمه في المصادر عبد اللطيف القدسي ولم يستخدم لقب الحسيني بل الحسن بن عبد اللطيف، وأضيف اللقب "الحسيني" بعد تبادل الهدايا بين عبد اللطيف القدسي (الحسيني فيما بعد) ورجال الإدارة في إسطنبول، حول إضافة اللقب وهداياه من صناديق الصابون وجرار ماء الورد والطواقي، انظر:

Butrus Abu-Manneh, "The Husaynis: The Rise of a Notable Family in 18th Century Palestine," David Kushner, *Palestine in the Late Ottoman Period* (Leiden: E.J. Brill, 1986), pp. 93-105.

[31] س.ش، 228، رمضان 1229هـ، ص 15.

[32] انظر: دفتر المهمة، رقم 7، رقم الحكم 2696، تاريخ 974هـ، ص 252.

[33] س.ش، 271، سنة 1205هـ، ص 131-132؛ وس.ش، 272، 1052هـ، ص 130-131، وكان مجموع ما وزع وفق الدفتر رقم 272، 6160.5 قطعة ذهبية.

[34] أوراق قصر يلدز، رقم الدوسيه 1054، ورقم التصنيف المتسلسل 82713.

[35] انظر: دفتر مهمة مكتومة، رقم 5، ص 31-32؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 266.

[36] أشرف على بناء السور، محمد جلبي النقاش في سنة 957هـ/1555م، انظر: س.ش، 23، أوائل رجب 957هـ/1550م، ص 524.

[37] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 307؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 361-362.

[38] قام محمد بن الهمام بحفر حفرة تحت السور غرب باب الأسباط، فحقق معه أمير لواء القدس والقاضي عبد الرحمن، وقاما بعقابه لهذا السبب، مخافة أن يتسبب الحفر بهدم السور، انظر: س.ش، 31، غرة رجب 963هـ/1555م، ص 331.

[39] Uriel Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615* (Oxford: The Clarendon Press, 1960), pp. 90-91.

[40] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 185؛ وأبو اليُمن مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (القدس: 1961)، ج 2، ص 55.

[41] س.ش، 31، 19 ذو الحجة 963هـ/1555م، ص 210؛ وس.ش، 15، 19 رمضان 949هـ/1542م، ص 92.

[42] انظر: دفاتر المهمة، المجلد 3، رقم 563، تاريخ 2 ربيع الأول 967هـ/ 2 ديسمبر 1559م، والمجلد 6، رقم 240، تاريخ 9 ربيع الأول 972هـ/ 15 أكتوبر 1564م، والمجلد 14، رقم 108، تاريخ 10 محرم 979هـ/ 4 يونيو 1571م.

[43] دفتر المهمة، المجلد 3، رقم 1025، تاريخ 27 رجب 967هـ/ 23 أبريل 1560م.

[44] Muhemme defter, KoGuslar, no. 888. Sahefa, 306b 20Receb 959 A.H./ 12 July 1552.

[45] دفتر المهمة، المجلد 40، رقم 9/747، تاريخ جمادى الأولى 987هـ/ يوليو 1579م.

[46] انظر: دفتر المهمة، المجلد 36، رقم 964، تاريخ 9 ربيع الثاني 987هـ/ 5 يونيو 1579م.

[47] انظر: دفتر المهمة، المجلد 46، رقم 375، تاريخ 11 شوال 989هـ/ 8 نوفمبر 1581م.

[48] انظر: دفتر المهمة، المجلد 26، رقم 190، تاريخ 19 ربيع الأول 982هـ/ 9 يوليو 1574م، والمجلد 42، رقم 387، تاريخ 991هـ/1583م.

[49] دفتر المهمة، المجلد 58، رقم 20، تاريخ 16 رجب 995هـ/ يونيو 1587م.

[50] دفتر المهمة، المجلد 28، رقم 54، تاريخ 19 جمادى الأولى 984هـ/ 14 أغسطس 1576م.

[51] دفتر المهمة، المجلد 46، رقم 247، تاريخ 6 رمضان 989هـ/ 15 أكتوبر 1581م.

[52] انظر: الفرمان السلطاني، دفتر المهمة، الأرقام 377، 381، 375، تاريخ 22 محرم 987هـ/ 22 مارس 1579م، صادر إلى بيك القدس وقاضيها وبيك غزة، تجديد تكليف الشيخ أبو العويس بن عامر علي، شيخ البدو في نقل القمح من قرى وقف خامنكي سلطان في الرملة إلى القدس، انظر:
Uriel Heyd, *Ottoman Documents*, no. 82, p. 132.

[53] دفتر المهمة، المجلد 1، رقم 103، تاريخ 18 جمادى الثاني 992هـ/ 17 يونيو 1584م.

[54] السكبان: عناصر محلية شابة من بين فلاحي الأناضول، كانوا يلحقون بالجيش لمساعدته في ضبط الأمن والحراسة، انظر: كامل جميل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية** (عمّان: الجامعة الأردنية، 1989)، ج 3، ص 39.

[55] س.ش، المجلد 3، ص 39، رقم 87، سنة 1016هـ، ص 419.

[56] س.ش، 203، سنة 1117هـ، ص 44؛ وكامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 2، ص 197-198.

[57] دفاتر مهمة مكتوم، 4335، أم 90021 (A.MKt MHM, 4335, IM90021)، تاريخ 15 شوال 1285هـ/1868م.

[58] Ruth Kark, "The Contribution of the Ottoman Regime to the Development of Jerusalem and Jaffa 1840-1917," David Kushner, *Palestine in the Late Ottoman Period* (Leiden: E.J. Brill, 1986), pp. 46-58.

[59] انظر: خليل ساحلي أوغلي (مترجم)، "قانون نامه آل عثمان،" مجلة **دراسات**، الجامعة الأردنية، المجلد 13، العدد 4، شعبان 1406هـ/1986م، ص 128-135.

[60] انظر: دفتر المهمة، المجلد 9، رقم 1344، تاريخ ذو القعدة 972هـ/ يوليو 1569م.

[61] انظر: دفتر المهمة، المجلد 6، رقم 1344، تاريخ 3 ذو الحجة 972هـ/ 1 يوليو 1565م، ص 608-609.

[62] انظر: دفتر المهمة، المجلد 5، رقم 191، تاريخ 4 صفر 973هـ/1565م.

[63] انظر: دفتر المهمة، المجلد 5، رقم 612، تاريخ 10 جمادى الأولى 973هـ/ 3 ديسمبر 1565م، ص 318.

[64] جريدة **لسان الحال**، 1894/10/17.

[65] انظر: صندوق، رقم H.R. To. 390, Gomlek Sira. No.100 تاريخ 1892/1/15. صورة الشكوى ملحقة بالبحث.

[66] س.ش، 290، رجب 1220هـ/ 14 أيلول 1806م، ص 233.

[67] س.ش، 291، 15 ذي الحجة 1222هـ/ 20 كانون الثاني 1808م، ص 81.

[68] س.ش، 298، سنة 1229هـ/1813م، ص 33-34.

[69] س.ش، 4، سنة 941هـ/1534م، ص 307؛ وس.ش، 4، 12 صفر 941هـ/1534م، ص 280.

[70] دفتر المهمة، طوب قابي، E./2321، رقم الحكم 359، تاريخ غرة محرم 952هـ/ 5 مارس 1549م، ص 146، أ، ب.

[71] دفتر المهمة، المجلد 6، رقم الحكم 104، تاريخ 29 محرم 972هـ/ 6 سبتمبر 1564م، ص 242.

[72] س.ش، 265، سنة 1198هـ، ص 34.

[73] معروضات مخصوصة Y.A.Hus.No.280/95 تاريخ 1321هـ/1902م.

[74] س.ش، 48، سنة 972هـ/1564م، ص 3.

[75] س.ش، 31، سنة 963هـ/1555م، ص 718.

[76] س.ش، 48، سنة 972هـ/1564م، ص 3.

[77] س.ش، 54، سنة 978هـ/1570م، ص 182؛ وس.ش، 48، سنة 972هـ/1564م، ص 14.

[78] س.ش، 228، رمضان 1229هـ/1813م، ص 15.

[79] س.ش، 299، 1 ذي القعدة 1230هـ/ 5 أكتوبر 1815م، ص 18.

[80] انظر: إرادة، أمور داخلية، 15 ربيع الآخر 1330هـ/ 13 كانون أول 1327 (مالي) .DH. ID. 122.19

[81] س.ش، 308، 13 شوال 1242هـ/ 30 مايو 1824م، ص 125؛ وس.ش، 315، 17 رجب 1247هـ/ 6 ديسمبر 1831م، ص 15.

[82] س.ش، 10، 13 ذي القعدة 945هـ/1538م، ص 503.

[83] المرجع نفسه، ص 502.
[84] س.ش، 10، 14 ذي القعدة 945هـ/1538م، ص 507؛ ومحمد سليم اليعقوب، **ناحية القدس الشريف**، ج 1، ص 53.
[85] س.ش، 31، 3 ربيع الأول 963هـ/1555، ص 16، 64؛ ومحمد اليعقوب، **ناحية القدس الشريف**، ج 1، ص 54.
[86] أوراق أكرم بك، ملف I/f.83، محفوظ في "أرشيف دولة إسرائيل"، تاريخه 8 مايو 1908م، مشكلة الأماكن المقدسة والحماية.
[87] س.ش، 79، أواسط شعبان 1007هـ/1598م، ص 530-531.
[88] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 2، ص 243.
[89] أوراق أكرم بك، ملف I/f.83، تاريخ 28 إبريل 1908م.
[90] Y.A.Hus.No.280/25 تاريخ 1321هـ/1903م.
[91] رسالة أكرم بك إلى السكرتير الأول، بتاريخ 28 إبريل 1908م، ملف I/f.83.
[92] المرجع نفسه.
[93] انظر: محب الدين الحموي، الرحلة الرومية (حادي الأظعان)، مخطوط جامعة ييل Yale، ورقة 1-6أ.
[94] انظر نماذج من عدالة القضاء الإسلامي: س.ش، 31، 16 جمادى الثاني 963هـ/1555م، ص 305.
[95] انظر: دفتر المهمة، طوب قابي، رقم E.132R1، رقم الحكم 385، ص 157.
[96] انظر: الوثيقة العثمانية رقم A.M.K.T. MVL, 93.30, Brahim Boazi, 0015 تاريخ 5 ربيع الثاني 1274هـ.
[97] انظر: الوثيقة العثمانية رقم DH.JD.117.11.35 تاريخ 28 شوال 1328هـ/ 19 تشرين الأول 1326 مالي. رسالة من الباب العالي، الصدارة، تحريرات قلمي رقم 1713 من الصدر الأعظم إلى السلطان بناءً على توصية مستشار الصدر الأعظم.
[98] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس**، ص 43-45.
[99] انظر على سبيل المثال: س.ش، 207، سنة 1122هـ، ص 247؛ وس.ش، 144، سنة 1083هـ، ص 324؛ وس.ش، 60، سنة 990هـ، ص 43؛ وس.ش، 165، سنة 1219هـ، ص 211؛ وس.ش، 366، سنة 1199هـ، ص 30؛ والأمثلة كثيرة.
[100] س.ش، 136، سنة 1055-1056هـ، ص 334.
[101] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 315.
[102] انظر، س.ش، 223، سنة 1141هـ، ص 260؛ وس.ش، 241، سنة 1170هـ، ص 15؛ وس.ش، 240، سنة 1169-1170هـ، ص 34؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 54-95.
[103] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس**، ص 137.
[104] **المرجع نفسه**، ص 151.
[105] أنجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، ج 3، ص 120-121؛ وكامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 2، ص 269-272.
[106] دفتر الأمور المهمة، رقم 3، الحكم رقم 1076، تاريخ 10 شعبان 967هـ/ 6 مايو 1560م.
[107] أوليا جلبي، **سياحت نامه**، إسطنبول، 1971، ص 250.
[108] انظر: محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس**، انظر الفهرس، ص 214، الخانات؛ وكامل جميل العسلي، **من آثارنا في بيت المقدس** (عمّان: 1982)، ص 39-95.
[109] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس**، ص 46، والوقفية رقم 87، ص 143-144؛ وس.ش، 125، سنة 1054-1055هـ، ص 597.
[110] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس**، رقم 342، تاريخ 970هـ، ص 72؛ وانظر أيضاً: دفتر الطابو رقم 289، تاريخ 961، ص 45-46 حمام العين.
[111] س.ش، 53، سنة 978هـ، ص 577؛ وس.ش، 269، سنة 1203هـ، ص 147؛ وكامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 3، ص 87، 90.
[112] كامل العسلي، **من آثارنا في بيت المقدس**، ص 14؛ وانظر:
Joseph v. Hammer Purgstall, *Geschichte des Osmanischen Reiches*, Band 3, Graz, pp. 350-351.

[113] انظر الوقفية: س.ش، 270، أواسط شعبان 964هـ، ص 18-49. ولدى الباحث نسخة أخرى صورها من مكتبة متحف التوب كابي في إسطنبول.

[114] س.ش، 270، أواخر شوال 967هـ، ص 49-50؛ وكامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 145-150.

[115] انظر: س.ش، 145، سنة 1060-1061، ص 354، المتعلق بتعيين الشيخ شرف الدين أفندي بن صالح الخالدي مدرساً في المدرسة الخاصكية الكائنة في تكية خاصكي سلطان بالقدس الشريف.

[116] انظر: دفتر الأوقاف رقم E.v.d.13504.

[117] EVKAF DEFterleri, Defter E.v.d. Defter No.13504/3.

[118] أرشيف رئاسة الوزراء، إسطنبول Evkaf Defter, Ev.d.16873

[119] Evkaf Defter, Ev.d.No.17753.

[120] Evkaf defterleri, defter Ev.d.No.17753.

[121] St. H. Stephan, "An Endownment Deed of Khasseki Sultan," *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. 10, no. 3, 1942, pp. 170-194.

[122] كامل العسلي، **من آثارنا في بيت المقدس**، ص 134-140.

[123] عيون أرطاس هي: عين عطاف، وعين الفروجة، وعين صالح، وعين البرك، انظر: عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 437-438.

[124] محمد عيسى صالحية، **سجل أراضي لواء القدس**، 124، سجل أملاك وأوقاف لواء الشام، 228/602، سجل أوقاف وأملاك رقم 78/522.

[125] دفاتر المهمة، الكوغوشلار، رقم 888، تاريخ 2 رجب 959هـ، ص 283، أ، ب.

[126] س.ش، 349، سنة 1281هـ، ص 123؛ ومحمد أسعد الإمام الحسيني، **المنهل الصافي في الوقف وأحكامه** (القدس: المطبعة الوطنية، 1982)، ص 115-116.

[127] س.ش، 349، ص 123؛ ومحمد حمزة الحداد، الأسبلة السليمانية الباقية بالقدس الشريف، جامعة الكويت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 23، الرسالة 199، 1423-1424هـ/2002-2003م، ص 16.

[128] عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي الشريف**، ص 99؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 226؛ وكامل العسلي، **من آثارنا في بيت المقدس**، ص 255-256.

[129] محمد أسعد الحسيني، **المنهل الصافي**، ص 113-115.

[130] Uriel Heyd, *Ottoman Documents*, pp. 146-147.

[131] *Ibid*., pp. 147-148.

[132] *Ibid*., p. 148.

[133] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 269.

[134] س.ش، 167، سنة 1077هـ، ص 277؛ وس.ش، 205، سنة 1119هـ، ص 24.

[135] انظر: دفاتر الأوقاف Ev.d. defter No. 1572, 15720. No. 15755, Ev.d. Avplirleri, Ev.d.15886.

[136] ملفات القنصلية الألمانية رقم 456/473، محفوظ في أرشيف دولة الكيان الإسرائيلي، أوراق أكرم بك I/f No.83 وأرشيف دولة إسرائيل (1323) I/f 83.

[137] Ruth Kark, "The Contribution of the Ottoman Regime to the Development of Jerusalem and Jaffa 1840-1917," pp. 46-58; and Engin D. Akarli, "Abdulhamid II'S Attempt to Integrate Arabs into the Ottoman System," David Kushner, *Palestine in the Late Ottoman Period* (Leiden: E.J. Brill, 1986), pp. 74-92.

[138] انظر: كيرك، تطوير مدينة القدس، ص 47-544.

[139] وليد العريض، "المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية،" ندوات القدس 5000 عام من الحقوق العربية، جامعة آل البيت، الأردن، المفرق، 1997/11/24، ص 826.

[140] Engin Akarli, "Abdulhamid II'S Attempt to Integrate Arabs into the Ottoman System," pp. 77-78.

الفصل الرابع

مؤسسات الوقف في القدس
النشأة والتطور

مؤسسات الوقف في القدس
النشأة والتطور

د. سامي الصلاحات

مقدمة:

إذا كانت فلسطين تشكل نموذجاً إسلامياً عريقاً في تعدد أوقافها وتنوعها بين جموع الدول العربية والإسلامية، فإن مدينة القدس هي الأخرى تعدّ اللؤلؤة الوقفية من بين مدن فلسطين وقراها، إذ تحتضن مدينة القدس أكثر من مئتي أثر وتراث إسلامي، ما بين مساجد وقباب وقصور وتكايا وزوايا ومدارس وأسبلة وأبواب ومؤسسات، تشترك في الغالب في أنها أوقاف أُقيمت منذ عشرات أو مئات السنوات، ومنها ما يصل إلى عصر النبوة الشريفة.

بل يمكن القول إن المدينة المقدسة هي مثال المدينة الوقفية في العالم، وفيها من أوقاف المسلمين وأوقاف غير المسلمين ما يؤكد، وبأحقية، أنها مهبط سماوي ومحل للرحمات والبركات. فأول أوقاف المسلمين في الفتوح الإسلامية كان في القدس وفي فلسطين، وهو وقف الصحابي الجليل تميم الداري، وهو عبارة عن منحة مُنحت له من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

كما تشير بعض الوثائق العثمانية إلى تولية الحاج بدر الدين أفندي عبد المعطي زاده نظارةَ وقف جده لأمه الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وهو وقفٌ يعود لسنة 123هـ/740م، وأن الوقف يشمل قرية نباله (بير نبالا شمالي القدس)، وبرج عرب والمقصود به قرية لفتا، وأرض صرعى؛ مما يؤكد أن الوقف استمر عبر قرون عدة[2].

ولعل السبب الرئيسي في وجود المئات من الأوقاف والأحباس الإسلامية في المدينة المقدسة، يعود إلى جملة من العوامل الأساسية، من أبرزها:

1. وجود عشرات النصوص الشرعية (قرآن وسنة) التي تؤكد مكانة هذه المدينة المقدسة، وهي بلا شك تشكل تواتراً معنوياً في بيان عظمة المكانة الشرعية لمدينة بيت المقدس، ولعل أبرز أوقاف المدينة هو المسجد الأقصى، والذي هو أولى القبلتين

وأحد المساجد الثلاثة الذي تشدُّ إليها رحال المسلمين، كما قال تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء: آية 1).

2. احتواء مدينة بيت المقدس وما حولها أضرحة الكثير من الأنبياء والرسل الكرام، وهناك أبنية وآثار إسلامية بناها خلفاء المسلمين وسلاطينهم وحكامهم وغيرهم.

3. وجود مقامات للعديد من الصحابة، ومن أبرزهم رضي الله عنهم قبر شداد بن أوس، وقبر عبادة بن الصامت، ومن الجدير بالذكر أن عدد الصحابة المدفونين في مقبرة مأمن الله بالقدس يبلغ حوالي 13 صحابياً[3].

4. وجود العشرات من زوايا الصوفية والتكايا، فهناك: الخانقاه الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في القدس، والخانقاه الداودارية، والخانقاه الفخرية، وزاوية الشيخ بدر الدين الحسيني بظاهر القدس، وفي القدس وحدها أكثر من 15 زاوية مثل الزاوية الختنية والزاوية الجراحية والزاوية الكبكية.

5. وجود العشرات من المدارس التاريخية الأثرية الإسلامية التي أنشأها المسلمون عبر التاريخ الإسلامي، كالمدرسة المأمونيّة، ومدرسة قايتباي، ومدرسة تنكز، والمدرسة العمرية، والمدرسة الأشرفية، والمدرسة المزهرية. بل يمكن القول إن التعليم في مدينة القدس قد استمر بفضل الأوقاف، في ظلّ هجمات المغول والصليبيين على الأمة الإسلامية، ويحفظ لنا التاريخ مدرسة النصرية الشافعية، ومدرسة أبي عقبة الحنفية اللتين شكلتا مصدر الإشعاع العلمي في هذه الحقبة. وأحصى الدكتور كامل العسلي عدد المدارس الموقوفة في بيت المقدس ابتداءً من القرن الخامس الهجري حتى القرن 12 هجري فوجدها حوالي سبعين مدرسة، منها أربعون في العصر المملوكي[4]. أي أن الحركة العلمية كانت تجري بشدة في المدينة، باعتبارها حاضرة من حواضر الإسلام ومركزاً من مراكز الإشعاع العلمي والثقافي، كما أن المدينة كانت محلاً لتوافد العديد من العلماء وطلبة العلم وتنقُّلهم بين طرائقها وأكنافها.

6. وجود أعداد كبيرة من نفائس المخطوطات والكتب والمؤلفات التي تعود إلى الحضارة العربية والإسلامية.

7. اهتمام حكام المسلمين ورجالاتهم بالعمارة الإسلامية، فقد اهتم سلاطين المماليك بالقدس وأنفقوا عليها الكثير من الأوقاف، لا سيّما في مجال ترميم المسجد الأقصى، وفي أسفل القبة تمّ نقش أسماء سلاطين المماليك الذين قاموا بترميم الصخرة، منهم: الظاهر بيبرس، والعادل كتبغا، والناصر محمد بن قلاوون، والظاهر برقوق، والأشرف برسباي 836هـ/1432م، وجقمق 852هـ/1448م، والأشرف قايتباي 872هـ/1467م... وغيرهم.

فالملك العادل مثلاً ولى ابنه عيسى على فلسطين فأقام في القدس، وأنشأ المدرسة المعظمية في القدس 606هـ/1209م، ووقف لها العديد من القرى، منها قرية علا السفلى وقرية علا الفوقانية ومزرعة دير السلام. والأمير سيف الدين منجك 762هـ/1360م أنشأ مدرسة اتخذها المجلس الإسلامي مقراً له. أما السلاطين العثمانيون الذين اهتموا بالقدس فمن بينهم سليمان القانوني، والسلطان محمود، والسلطان عبد المجيد، والسلطان عبد العزيز، والسلطان عبد المجيد الثاني، والسلطان عبد الحميد الثاني، كما قام المجلس الإسلامي الأعلى بترميم قبة الصخرة في سنة 1938[5].

8. أن الحركة الوقفية في القدس كانت حركة اجتماعية بامتياز، فقد شملت كل الفئات الاجتماعية، فالمرأة كان لها نصيب واضح في التعامل مع الأوقاف، سواء كانت واقفة مثل وقف سعادات بنت سعد الدين الحاجب 893هـ/1487م أم مشتركة مثل وقف مع رجل كوقف عائشة الرومية وزوجها السيد محمد الكتبي سنة 922هـ/1616م، أم ناظرة للوقف مثل صالحة بنت خليل، التي تولت وقف جدها المرحوم فرزان، وهو وقفٌ يعود إلى سنة 1205هـ/1790م[6].

بل أشهر أوقاف النساء هو وقف خاصكي خاتون زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني، والمعروفة بالتكية، وهو أضخم وقفية بالقدس مسجلة في المحكمة الشرعية، وتشمل هذه التكية مسجداً وعمارة كبيرة فيها مطبخ ضخم لإطعام الفقراء وحجرات لإقامة العلماء، ورباط خانة واسع، ويوجد لهذه الوقفية ثلاثون قرية ومزرعة في أربعة ألوية هي: القدس وغزة ونابلس وطرابلس.

كما أنه يوجد في القدس وقف مخصص للأرامل والمطلقات، وعلى سبيل المثال فقد أوقف الأمير الدكز على رباط النساء في القدس 730هـ/1329م.

هذه العوامل بلا شك عززت الأوقاف بطريقة مكثفة، ومن جيل إلى جيل، فكان أن تراكمت الأوقاف في المجتمع المقدسي، حتى صارت ثقافة للفرد وللمجتمع، باعتبار أن هذه الأوقاف وهي المئات من العقارات والأراضي الزراعية والبساتين كانت مخصصة للصرف على المدينة ومساجدها ودور العبادة والمدارس.

لقد شكلت ضخامة أوقاف القدس محل صعوبة لأي باحث ومتناوِلٍ لقضايا الأوقاف في فلسطين، فالدارس لأوقاف مدينة القدس يلمس معاناة البحث عند تناوله هذه الأوقاف، باعتبار أن الإحصائيات والبيانات المتعلقة بهذه المدينة مترامية الأطراف في أكثر من بلد عربي وإسلامي، بدءاً بالقدس ومروراً بالأردن وسورية ومصر وانتهاء بإسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية، حيث إن الأوقاف كانت مسجلة في هذه البلاد أو أن الواقفين أنفسهم كانوا من هذه البلاد، أو حتى من بلاد أخرى، وربطتهم بالقدس المكانة التي احتلتها في نفوسهم وفي نفوس المسلمين عموماً.

أولاً: وضع مؤسسات الأوقاف في القدس قبل الاحتلال الصهيوني:

امتازت أوقاف مدينة القدس، قبل الانتداب البريطاني والاحتلال الصهيوني، بدعم لا محدود من قبل الدول الإسلامية المتقدمة، بدءاً بالخلافة الراشدة ثمّ الأمويين والعباسيين مروراً بالأيوبيين والمماليك وانتهاءً بالسلطات العثمانية. كما أن من تولى الإشراف على المدينة لم يتوانَ في تقديم كافة التسهيلات والدعم لأوقافها، والتي كان لها الأثر الواضح على واقع ومعالم مدينة القدس إلى وقتنا المعاصر، حتى صار الأمر للعثمانيين في القرن 16 ميلادي. فبعد أن أنهوا حكم المماليك، أصدوروا قراراً بإيقاف أي بناء جديد لأي كنائس للنصارى أو معابد لليهود في المدينة خشية تغيير واقعها، مع الموافقة على ترميم وبناء القديم من أوقافها.

والذي فعله العثمانيون هو الذي قام به الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في 15هـ/636م عندما أثبت حقوق وأوقاف غير المسلمين في المدينة، مؤكداً على إسلامية هذه المدينة وتوحيدها الرباني.

ويمكن تلخيص واقع الأوقاف في فلسطين قبيل العهد العثماني بالتالي[7]:

1. إن الأوقاف في فلسطين كانت مقسمة بناء على التقسيم الإداري لفلسطين وبلاد الشام، فكانت فلسطين مقسمة إلى خمسة ألوية، وهي: صفد، والقدس، وغزة، ونابلس وعجلون، وهذه الألوية تتبع ولاية الشام. والجدول التالي يشير إلى حجم الأوقاف في مدينة القدس بالنسبة إلى باقي الألوية:

جدول 4/1: حجم الأوقاف في مدينة القدس بالنسبة إلى باقي ألوية فلسطين

اسم اللواء	عدد الوقفيات	عدد الأملاك	عدد مصادر الوقفيات	عدد مصادر الأملاك
القدس	90	11	89	17
ألوية (غزة، صفد، نابلس، عجلون).	143	81	255	91
المجموع	**233**	**92**	**344**	**108**

2. إن العديد من الوقفيات قد تمّ تدميرها بعد الاحتلال الصليبي، وتمّ الاستيلاء على البعض الآخر، لكن من المرجح أن الكثير من هذه الوقفيات قد عادت إلى أصحابها بعد الفتح الإسلامي، كوقف عبادة بن الصامت.

3. إن أنواع الأوقاف في القدس كانت متعددة ومختلفة، فمنها ما كان يُصرف على المسجد الأقصى، والآخر على الحرمين الشريفين، والآخر على جامع خليل الرحمن، وبعضها كان يُصرف على المقابر والزوايا وتعليم القرآن، بل كانت بعض القرى مخصصة للصرف على مصارف الأوقاف، كما فعل الفاتح صلاح الدين الذي تصدق بوقف على المنافع العامة بإنشاء بيمارستان (أي مستشفى) في القدس، وجعل قرية سلوان مخصصة للصرف عليها، وإن كان ناصر خسرو[8] أشار إلى وقف الفاطميين مستشفى في القدس في 437هـ/1045م.

فمن القرى التي تتبع مدينة القدس، وذكرت كأوقاف في المدينة هي: بيت جالا، وبيت صفافا، وتقوع، وبيت لحم، وبنى نعيم، وبني شجاع، وبيت ماسين، وبيت ساحور، وقبالة، وعجوّر، وعناتا، وبيت تعمر، وطيبة، وبيت سقاية، وفاعور، وعين كارم، وبيرة الكبرى، وعين قينية، وجيب الفجار، وديار عمار، ولفتا، وكفر نعمة، وحاصل، ودير السد، وعلار السفلى، وبتير، وعين سنية، وبريكات، وأم طوبى، وأبو مغيرة، ونجم، وعيساوية، وطور زيتا، وريحا، وساريس، والنجمة، وولجة[9].

ويكفي أن نقول إن العقارات التي كانت مخصصة للصرف على المدرسة الأشرفية التي وقفها السلطان المملوكي قايتباي، والتي تقع في رواق المسجد الأقصى بلغت 52 عقاراً[10].

4. إن طبيعة الأوقاف في مدينة القدس أنها "أوقاف عالمية"، بمعنى أن الكثير من الأقوام والجنسيات قد وقفوا ما يملكون في محيط المسجد الأقصى، كالمغاربة والهنود والأكراد، وحارة المغاربة خير دليل على واقع هذه المدينة.

5. إن الواقفين في مدينة القدس كانوا من فترات تاريخية مختلفة، فهناك أوقاف لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأوقاف للفاطميين وأوقاف للأيوبيين، وبالتحديد صلاح الدين الأيوبي، وأوقاف لأكراد وتركمان ومغاربة، وهؤلاء كانوا يمثلون مختلف الشرائح الاجتماعية، من علماء وقضاة وعساكر، بل ونساء كنّ يوقفن أموالهن في المسجد الأقصى.

فعلى سبيل المثال اهتم الفاطميون بأوقاف القدس، وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو بأن الفاطميين وقفوا الكثير من الأوقاف على القدس، بل حتى على مدينة الخليل ومسجد إبراهيم الخليل بالمدينة، إذ تمّ وقف العديد من القرى عليه، لكن ذهب الكثير من الوقفيات بعد الحرب الصليبية. وبعضهم اتخذ القدس مستقراً فتعددت جنسيات الواقفين في القدس، كما تشير وثائق الوقف، بين هنود وتركمان وأكراد وفرس وعرب ومغاربة، فهناك زاوية للهنود في باب الأسباط، ووقف باسم سعد الله الهندي إمام المسجد الأقصى 890هـ/1485م في باب حطة، وهناك أوقاف لجميع الطوائف والمذاهب الإسلامية، ولقد تحول الكثير من أتباع هذه المذاهب إلى المذهب الشافعي لكثرة الأوقاف المحبوسة عليه[11].

6. إن واقع وطبيعة الوقف في القدس كان أيضاً متنوعاً، فليس كله عقارات وأراضٍ، بل كان هناك البساتين والقرى المثمرة المخصصة للصرف على مصارف الأوقاف، وهناك الحمامات والطواحين والأقبية وغيرها، كما أن هناك وقف نقدي، كان يُؤتى به من تركيا ومصر للصرف على مصارف الأوقاف بالقدس[12].

والأوقاف الخيرية في مدينة القدس كانت تتبع إدارياً للدولة العثمانية، في حين كانت الأوقاف الذرية تدار بشكل مستقل من خلال العائلات الفلسطينية نفسها، فهناك العديد من الأوقاف تعود للأشراف، منها وقف الشريفة ست الأشراف بنت السيد محمد على

الفقراء المساكين وعلى القراء بمدرسة أرقطاي بصفد، وبعد الانقراض تُصرف على المسجد الأقصى 901هـ/1495م، ووقف سيدي أبو بكر ولد الشريف محمد علي على أبنائه وبناته 980هـ/1572م والوقف هو مزارع في القدس.

والعثمانيون أكدوا حقوق غير المسلمين وحرية تعبدهم بدون أي موانع أو عوائق، ويُحسب للسلطان سليمان القانوني، خلال فترة حكمه (1520-1566)، أنه عزز من دعم هذه المدينة المقدسة في عصره، وأكرمها بالعطايا كما كان يفعل مع الحرمين الشريفين، فغطى الجدران الخارجية للصخرة بالبلاطات الخزفية الفاخرة بدلاً من الموزاييك، مما زاد من جمال الصخرة، فضلاً عن ترميم كل أسوار المدينة، كما منح القانوني كنيسة مرقد عيسى عليه السلام الأجراس لتعلق بها بعدما كانت حتى سنة 952هـ/1545م خالية منها.

وعزز العثمانيون دور الأوقاف في المدينة، لا سيّما في عهد سليمان القانوني الذي أنشأ تكية خاصكي سلطان التي تعدّ من أشهر أوقاف المدينة.

ومما يجدر ذكره هنا أن الأوقاف في فلسطين والقدس قُسمت إلى قسمين أساسين، هما[13]:

الوقف الصحيح: وهي العقارات العائدة لشخص ما، والتي حصل عليها بالإرث أو الشراء ثمّ أوقفها وحكم القاضي بصحة الوقف، وهذا قائم ومبتوت به في السجلات الشرعية، من خلال ما يسمى في المحاكم الشرعية بـ"الوقفية" أو "حجة الوقف"، ومن أمثلة هذا الوقف في مدينة القدس، وقف أمونة بنت صالح السعدي ووقف يوسف فرنسيس الإفرنجي وغيرهم الكثير.

وهذا النوع من الأوقاف لا يجري عليه قانون الأراضي العثمانية، وإنما يُنظر فيها من خلال آراء الفقهاء والفقه الإسلامي.

الوقف غير الصحيح: فهي الأراضي المفروزة من الأراضي الأميرية التي أوقفها الأمراء أو السلاطين، بحيث تخصص منافعها مثل أعشارها ورسومها لجهة ما، وهذا القسم موجود بكثرة في القدس أيضاً.

وهذا القسم من الوقف يتحول إلى مؤسسات وقفية تصرف في أوجه الخير المختلفة كالمساجد والمدارس والمراكز الصحية، مثل أراضي وادي قدوم وصور باهر وساريس.

وهذا النوع من الأوقاف، كان ينطبق عليه قانون الأراضي العثمانية الذي قسمها حسب منافعها العامة، وتعود عوائد هذه الأوقاف إلى الخزينة العثمانية، ومن ثمّ تصرف على جهة المصرف الوقفي كالمدارس والمستشفيات ودور الأيتام.

والأغلب من أوقاف فلسطين كان يندرج تحت هذا النوع، لأن مساحات العقارات التي كانت مخصصة للسكان ضئيلة إذا ما قورنت بالمساحات الهائلة من الأراضي التابعة للخلافة العثمانية.

فضلاً عن ذلك، كان يُخشى تحويل الأراضي الأميرية إلى ملك للأفراد حتى لا تتحول إلى حيازة شخصية، وبالتالي يتمّ حرمان الدولة من عوائدها أو منافعها.

ولعل هذه النظرة مأخوذة من تصرفات بعض السلاطين الذين حرصوا على وقف أموالهم خشية الاستيلاء عليها بعد مماتهم[14]. وكانت السلطات العثمانية تسعى إلى تجديد البراءات السلطانية المخصصة للسكان لغرض تجديد الأوقاف الخيرية، غير أنهم سرعان ما قاموا بحلّ بعضها، وإعادة منافع هذه الأراضي "الوقفية غير الصحيحة" إلى خزينة الدولة، كما كان الحال في وقف خاصكي في فلسطين. وهذه الأراضي الوقفية غير الصحيحة لم يتمّ تسجيلها في دوائر الطابو بفلسطين لأنه لم يتمّ إصدار قرار بتسجيلها من النظارة الوقفية بإسطنبول، وبقي الحال كذلك حتى خروج العثمانيين من فلسطين، وبقيت أحقية استخدام هذه الأوقاف تظهر من خلال سندات التأجير والمعاملات التي كان يُعمل بها في فلسطين[15].

هذا التقسيم الإداري للأوقاف كان متفقاً مع ما تشهده بعض الدول الإسلامية المجاورة للقدس وفلسطين من إدراج للأوقاف حسب الغرض والمصرف[16].

وتوزعت معظم الأوقاف في القدس على مبنيي الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، يليها بالنسبة لدرجات الإفادة والكم الحرم الإبراهيمي، وبعدها ما يقع في دائرة القدس وأكنافها مثل المدارس ومبانٍ ملكية وجوامع كثيرة كانت منتشرة بالقدس بوجه خاص، بل يمكن اعتبار الوقف الذري نفسه وقفاً خيرياً إذا انقطع نسل الواقف أو تنازل أهله عنه.

وكانت إدارة المؤسسات الوقفية في القدس إبان العهد العثماني تتبع مديرية أوقاف صيدا حتى سنة 1259هـ/1843م، وهي السنة التي تمّ فيها تشكيل أول مديرية مستقلة

لأوقاف سنجق القدس، وعرفت بمديرية عموم الأوقاف، وكان يطلق على مديرها مدير عموم الأوقاف بالقدس الشريف[17].

وكانت مهمة هذه المديرية الإشراف على الأوقاف وإرسال تقارير سنوية مرفقة مع عائدات الأوقاف إلى إسطنبول عاصمة العثمانيين، ليقوم بعد ذلك القائمون على الأوقاف بإرسال المبالغ المناسبة لسد احتياجات هذه المديرية.

وفي أواخر العهد العثماني تعرضت فلسطين لحالة من عدم الاستقرار حيث غزتها جيوش نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte سنة 1799، كما سيطرت عليها جيوش محمد علي باشا (1831-1840)، وضعفت قبضة الدولة العثمانية على مناطقها مما فتح المجال لتدخل الدول الأوروبية ومحاولات الهجرة والاستيطان اليهودية الصهيونية. وتزخر دور الوثائق، خصوصاً المصرية، بما يثبت المحاولات اليهودية المستمرة بالاستيلاء على الأرض المقدسة وأوقافها[18].

واستمرت فلسطين تحت المناوشات والضغوط حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، والتي انتهت إلى الاحتلال البريطاني لجنوب ووسط فلسطين ودخول القدس في 1917/12/9م الموافق 24 صفر 1336هـ، ولتكون هذه المدينة تحت الإدارة البريطانية حتى قيام الكيان الصهيوني في 1368هـ/1948م.

كان البريطانيون على دراية واسعة بأهمية الوقف، فأصدروا عدة قرارات بشأن تنظيم الأراضي والحد من آليات الاستفادة من الأوقاف. فعلى سبيل المثال طلب وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزون Lord Curzon استشارة رئيس المنظمة الصهيونية حاييم وايزمن بخصوص القانون المقترح بشأن الأراضي في فلسطين، فكان ردّ الأخير على أهمية إيقاف أي إنشاء لأوقاف جديدة، وذلك لكي يكون للحكومة دور أكبر في السيطرة على الأراضي المنتشرة والشاسعة، وأن يكون لليهود كأفراد دور في الاستيطان وشراء الأراضي.

وقد أخذت سلطات الاحتلال البريطاني بهذا الرأي في 1919/9/13 كما جاء في تقرير الكولونيل فرنش Colonel French، وما جاء في كلام السيد غاربت Garbett الذي قال: "إن المنشور يجب أن لا يتضمن ترتيبات لأراضي الأوقاف، وهي المسألة التي قد تؤخر إنشاء حكومة فلسطين المستقبلية دون عناء"[19].

وفي سنة 1920 صدر قانون انتقال الأراضي، والذي أشار في أحد بنوده إلى إيقاف إنشاء أوقاف جديدة، ولما توجس اليهود من أن تكون الأوقاف عاملاً أساسياً في بقاء الأراضي والعقارات في أيدي العرب، لجأوا وبالتعاون مع المندوب السامي البريطاني إلى إصدار قانون استملاك الأراضي للجيش ولقوة الطيران في 1925/5/15، الذي يقضي باستملاك الأراضي لغرض تخصيصها للجيش وقوة الطيران، ولو كانت هذه الأراضي أراضٍ وقفية، فيعطى المتولي قيمة هذه الأرض، ويُدفع ثمنها إلى صندوق الأوقاف باسم الوقف المختص[20]. ثمّ ازداد الأمر سوءاً بصدور قانون نزع الملكية سنة 1926 الذي يقضي بنزع ملكية أي أرض لصالح المشرع البريطاني لغرض المنفعة العامة. علماً أن الأوقاف في الشريعة الإسلامية لا تُباع ولا توهب، وإنما عمد الفقهاء إلى صيغة الاستبدال بناءً على توجيه النُظار والمتولين.

وكانت الأوقاف في القدس معرضة أحياناً للغصب وسوء الاستخدام من قبل بعض النظار الذين تولوها وعملوا على الإشراف عليها، ومع مرور الوقت صارت بعض الأوقاف غير المسجلة تتحول إلى أملاك خاصة بأسماء المشرفين عليها، إلا أنه بعدما أصدرت حكومة فلسطين سنة 1934 قانون انتقال الأراضي والعقارات، دأبت مؤسسة الأوقاف إلى العمل على تسجيل عقاراتها وأراضيها، وذُكر أنه تمّ حصر 212 معاملة لإصدار كواشين لوقفيات القدس في تلك السنة[21]. وبسبب عدم وجود خرائط ومسوحات لغالبية العقارات الوقفية بالقدس، الأمر الذي أدى إلى تأخير تسجيل بعضها؛ عمدت مديرية الأوقاف إلى التعاون مع المساح القانوني السيد جمال أفندي هاشم لإجراء المسوحات على هذه العقارات. وكانت العقارات تُسجل بأسماء متولِّي الأوقاف باعتبار أن القانون يُسجل بأسماء الأشخاص وليس الجهات الاعتبارية كالأوقاف، ولم تعطَ خصوصية لجهة الأوقاف، لأن تسجيل الأوقاف بأسماء الأشخاص، وإن كانوا على درجة عالية من النزاهة والأمانة، قد يؤدي إلى ضياعها في حال تمّ توارثها كبقية من الميراث المخصصة للذرية، وهذا ما حدث فعلاً عندما كانت تُؤجر الأوقاف على طريقة الحكر، أو عن طريق آخر ورثة للناظر عند موته ما لم يُبيَّن ذلك.

أما إيرادات الأوقاف في القدس فتتمحور حول عدة مصادر من أبرزها الأعشار الوقفية، والعُشر هو زكاة المحصولات أو حصة تُقدّر على حاصل الأرض وغلتها تصرف للدولة العثمانية، من خلال حصة من عشرة حصص، أو حصة من ثماني من حصص، أي 12.5% من إجمالي ناتج الأرض، وكان هذا الريع يدعم خزينة الدولة

العثمانية، ثمّ صار الأمر يتمّ لحكومة الاحتلال البريطاني التي أدركت أهمية هذه الإيرادات وعظمتها. حتى أن المحتل البريطاني عمل على تعديل قانون ضريبة العُشر المعدل في 1920، وأعطى صلاحيات للأشخاص لجباية بدلات الأعشار ثمّ صرفها من خلال مبلغ متفق عليه للسلطات البريطانية، حيث بلغت قيمة الأعشار المجباة في سنة 1920/1919 بحدود 21 ألف جنيه مصري، وخصصت السلطات البريطانية 850 جنيهاً مصرياً بدل رسوم تحصيل[22].

وكان لبعض الأسر الفلسطينية المشهورة والمقيمة بالقدس دور بارز في عمليات الوقف الذري أو الخيري، ولعل الجدول التالي يشير إلى ذلك بقوة[23]:

جدول 4/2: دور العائلات الفلسطينية في عملية الوقف

الأسرة	عدد الوقفيات	النسبة المئوية
الدجاني	6	%4.34
الحسيني	10	%7.24
الخالدي	5	%3.59
العلمي	3	%2.15
الجاعوني	5	%3.59

ويبين الجدول التالي وجوه الإنفاق الخيري وعدد الأوقاف في مدينة القدس[24]:

جدول 4/3: عدد الأوقاف في القدس ووجوه الإنفاق

الموقف عليه	عدد الأوقاف	النسبة المئوية
مبنى الصخرة المشرفة	96	%47.52
مبنى المسجد الأقصى	21	%10.39
خليل الرحمن	7	%3.46
الجوامع	6	%2.97
الزوايا	22	%10.89
المدارس	17	%7.42
البيمارستانات	12	%5.94
الخوانق	4	%1.98
المقامات	4	%1.98
خاصكي سلطان	7	%3.46
السُبل	3	%1.48
الرواق المنصوري	1	%0.49
الصدقات الحكمية	2	%0.99

والخلاصة التي نراها هنا، إذا أردنا أن نحدد النشاط الوقفي في مدينة القدس أو حتى في فلسطين بصورة عامة، فإننا نعتقد أن المدينة كانت محلاً لاستقطاب الأوقاف منذ فجر الإسلام، وتعززت مكانتها مع الدول الإسلامية التي تناوبت على حكمها، ولا نبالغ إذا قلنا إن أوقاف القدس كانت الأوقاف الأبرز والأكثر وضوحاً من أي مدينة فلسطينية، بل وشكلت الأوقاف فيها بريعها وغلاتها نموذجاً للصرف على باقي مؤسسات المجتمع المدني ومصارف الوقف.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ثقل مركز الأوقاف في فلسطين كان في مدينة القدس للاعتبارات السابقة التي ذُكِرت، فقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الأوقاف في فلسطين تمثل 16% أو 17% من مساحة فلسطين الكلية، فإذا كانت مساحة فلسطين تبلغ حوالي 27 ألف كيلو متر مربع، فإن مساحة أراضي الوقف الخيري تبلغ نحو 4,320 كيلو متراً مربعاً موزعةً في أنحاء فلسطين، بمعنى أوضح بإمكاننا القول إن هناك دونماً من أصل 16 دونماً من أملاك الدولة، هو ملك للوقف الإسلامي، فضلاً عن الأعشار، وهو الوقف الذي يأخذ عُشْر ريع الأراضي المعشرة، أو زكاة المحصولات أو غلاتها، وهو نظام كان معمولاً به في العصر العثماني، حيث تلزم الدولة ضريبة على المحصولات الزراعية تدفع لخزينة الدولة[25].

ثانياً: وضع مؤسسات الأوقاف في القدس بعد الاحتلال الصهيوني:

لقد استفادت المدينة المقدسة من الدعم الإسلامي اللامحدود، ومن منح المسلمين وعطاياهم للأوقاف، حتى إن معظم أراضي مقابر الطوائف الدينية غير الإسلامية في القدس في الفترة العثمانية كانت ملكاً للمسلمين أو جارية في أوقافهم ومؤجرة لمدة زمنية متفاوتة للطوائف لدفن موتاهم، كمقبرة اليهود في رأس العمود بقرية سلوان في وقف الصلاحية، وكانت هناك مقبرة القرائين جارية في وقف الشيخ الثوري، ويوجد مقبرة للأرمن مستأجرة من وقف الشيخ الثوري أيضاً[26]. ولكن ما إن جاء البريطانيون والصهاينة حتى قاموا بعمل العكس، حيث أخذوا كل الحقوق ومنعوا أوقاف المسلمين من الانتشار، بل واستولوا عليها عياناً وجهاراً.

لقد كان الانتداب البريطاني مدخلاً مهماً لتسهيل استيلاء الصهاينة على أوقاف فلسطين عموماً، والقدس خصوصاً.

فعند اكتمال السيطرة البريطانية على كامل التراب الفلسطيني سنة 1918، تمّ تشكيل مجالس وقفية أخرى في نابلس وعكا على غرار ما تمّ في القدس سنة 1919، ليكون بذلك واقع المجالس الوقفية المُشَكَّلة في فلسطين ثلاثة، أولها في القدس، ثمّ في عكا ونابلس.

لكن مع التحول الذي أعلنه المحتل البريطاني بتحويل إدارته من الإدارة العسكرية إلى المدنية في 1920/7/1، تمّ تشكيل "لجنة الأوقاف العامة"، المكونة من سبعة أعضاء بريطانيين وثمانية من المسلمين، ويرأس هذه اللجنة المندوب البريطاني، وكانت مهمتها الإشراف على عموم الأوقاف في فلسطين، وتدقيق حساباتها وميزانياتها العامة.

لكن بعد عقد اجتماعٍ بالقدس بين مجموعة من العلماء والأعيان والمندوب البريطاني وعدد من كبار موظفي الحكومة في 1920/11/9، والتوصية بضرورة أن يكون للمسلمين دور أكبر في الإشراف على شؤونهم الإسلامية وأوقافهم، وافقت حكومة الاحتلال البريطاني على تشكيل لجنة لإعداد قانون بشأن إدارة الأوقاف الإسلامية، وفي أوائل آذار/ مارس 1921 أتمت اللجنة عملها، وأصدر المندوب البريطاني في 1921/3/12 نظاماً يقضي بتشكيل مجلس إسلامي أعلى يشرف على الأوقاف وسائر الأمور الشرعية في فلسطين. وفي 1921/12/20 أصدر المندوب السامي البريطاني نظاماً خاصاً جديداً بإنشاء المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى.

وفي 1922/1/9، ولدورة امتدت لمدة خمس سنوات، تمّ تشكيل هيئة المجلس برئاسة مفتي القدس الحاج محمد أمين الحسيني، وبعضوية الأعضاء:

1. عبد اللطيف صلاح عن نابلس
2. المفتي الشيخ محمد مراد عن حيفا.
3. عبد الله الدجاني عن قضاء يافا.
4. الحاج سعيد الشوا عن لواء الجنوب.

وكان مقر هذا المجلس في المدرسة المنجكية المجاورة للمسجد الأقصى، وكان له دور كبير في تعيين موظفي الأوقاف في عموم فلسطين، أما في حال عزل أي موظف فكان يجب أن يتم إعلام الحكومة. فضلاً عن ذلك، كان يتعين على المجلس إقرار الميزانيات الخاصة بإدارات الأوقاف في عموم مناطق فلسطين.

يوجد عدة دوائر تتبع المجلس، من أبرزها مديرية الأوقاف العامة، ومهمتها تنفيذ قرارات المجلس بخصوص الأوقاف، ومتابعة حالها في المناطق الفلسطينية، وتتكون عادة من مدير الأوقاف العام، ووكيل مدير الأوقاف، ومأمور الأوقاف ومساعد له، وكانت تتبع لهذه المديرية الإدارات التالية[27]:

1. **إدارات الأوقاف المحلية:** حيث إن المجلس كان يعمل بصورة إشرافية، ويترك مزوالة العمل في المناطق الفلسطينية إلى الإدارات المحلية، وهي (القدس، والخليل، ونابلس، وعكا، وغزة، ويافا).

وفي هذه المناطق، كانت هناك لجان عمل تشمل على الغالب رئيساً، ومأمور أوقاف، وأعضاء من المنطقة نفسها، وينصب عملها على الإشراف على أوقافهم المحلية، وجباية الريع الوقفي.

وكانت جباية الريع الوقفي تأخذ حظاً وافراً من اهتمام المجلس، كما هو الحال في باقي الدول العربية، حيث إن مورد الأوقاف من أهم الموارد المالية فيه، لذا ليس من الغريب أن يكون وزير الأوقاف في الدول المجاورة لفلسطين معنياً بمتابعة زيادة الريع الوقفي وجبايته[28].

ومع ذلك فإن معضلة الأوقاف في البلاد العربية هي أنها كانت مستغلة بصورة كبيرة، بحيث إن الكثير من الأملاك الوقفية كانت غير مستثمرة بالصورة الصحيحة أو كان ريعها زهيداً جداً مقارنةً بأسعار السوق المعتادة[29].

2. **ديوان المحاسبات:** وهو مختص بعملية الحسابات المتعلقة بالأوقاف وجباية الريع العام.

3. **دائرة الهندسة:** ومهتمها الكشف على مساحات الأراضي الوقفية، وبناء مشاريع الأوقاف في القرى والمدن، وترميم البنايات والإنشاءات الوقفية. ويُذكر أن المندس توفيق الجيوسي أول من تولى مهام مهندس أوقاف[30].

4. **دائرة المعارف الأهلية:** وكان جزء من عملها جباية إيرادات الأوقاف.

5. **دائرة تفتيش المدارس الإسلامية:** وكان جزء من مهامها أيضاً متابعة خرائط أراضي الأوقاف والتواصل مع المساحين لرسمها وتسجيلها رسمياً في دوائر الطابو.

وبعد وفاة موسى كاظم الحسيني زعيم الحركة الوطنية سنة 1934، صارت الزعامة للمفتي الحاج أمين الحسيني الذي قاد اللجنة العربية العليا وقاد الحركة الوطنية الفلسطينية التي أعلنت الإضراب في 1936/4/20، وقد أدت المعارضة المكشوفة للمفتي إلى قيام الحكومة البريطانية بعزله عن رئاسة المجلس الإسلامي وحل المجلس بتاريخ 1937/9/30، وحاولت القبض على المفتي لكنه هرب إلى خارج فلسطين. وبذلك خسرت أوقاف فلسطين مفتيها ورئيس مجلسها، مما حدا بالمحتل البريطاني إلى تشكيل لجنة تدير المجلس الإسلامي والأوقاف، واستمر هذا الحال حتى خروج المحتل البريطاني.

يمكن القول إنه بعد انتهاء العصر العثماني، صار واقع الأوقاف مبهماً وغامضاً في فترة الانتداب البريطاني، إلى أن تجلى بوضوح في فترة الاحتلال الصهيوني، إذ بدأت به ومن خلاله عمليات الاستئصال والسرقة في وضح النهار لكل الأوقاف، لا سيّما الوقف الإسلامي وهو الوقف الأكثر ضخامةً وتنوعاً ودخلاً للريع في المدينة.

وكان الحدث الأهم في صبيحة يوم الخميس الموافق 1969/8/21 هو إحراق المسجد الأقصى، على يد مسيحي متطرف اسمه مايكل دينس روهن Michael Dennis Rohan، وهو استرالي، حيث تمّ إحراق الجامع القبلي الذي سقط سقف قسمه الشرقي بالكامل، كما احترق منبر نور الدين زنكي الذي أمر ببنائه قبل تحرير المسجد الأقصى من الصليبيين، وقام صلاح الدين الأيوبي بوضعه داخل المسجد بعد التحرير.

إن احتلال الصهاينة لأبرز أوقاف المسلمين، وهو المسجد الأقصى، جعلهم يدخلون هذا الوقف جهاراً نهاراً بزعم حمايته وضبط الأمن. وقد تعرضت الممتلكات الوقفية في القدس إلى اعتداءات متكررة من قبل السلطات الصهيونية، من أبرزها[31]:

1. **استهداف الأراضي الوقفية مباشرة:** إذ يصل مجموع المساحة الوقفية للأراضي في منطقة القدس إلى 307,303 دونمات.
2. **دور الأيتام:** إذ يوجد 11 داراً موقوفة في القدس من مجموع 71 داراً.
3. **المقامات الأثرية:** هناك ثلاثة مقامات أثرية في القدس وحدها.
4. **المدارس الوقفية القديمة:** ويوجد في القدس نحو خمس مدارس قديمة ذات طابع أثري، ومعظمها تحول إلى مساكن، وبعضها قام الاحتلال بهدمه وإزالته.

وعمدت قوات الاحتلال إلى سلسلة من الإجراءات للحد من الأوقاف المقدسية، من أبرزها مواصلة مصادرة الأراضي، وبما أن الأوقاف هي في الأغلب الأعم عقارات وأراضٍ وبيوت وبساتين، فقد مسّها هذا الظلم. وللتدليل على نموذج وقفي ما زالت آثاره بادية للعيان، نذكر وقف مقبرة مأمن الله في القدس[32]. فالمقبرة هي وقف بامتياز، بأرضها والقبور التي فيها، وتقع في ظاهر بيت المقدس من جهة الغرب، وضمت رُفات بعض صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وشهداء هذه الأمة الذين جاؤوا من بلاد بعيدة للدفاع عنها، وفيها علماء وفقهاء وقضاة ومصلحين وغيرهم ممن شملتهم رحمة الله، وعاشوا في هذه المدينة المقدسة. إلا أن العدو الصهيوني، بسياسة مصادرة الأراضي التي انتهجها، صادر هذه المقبرة الوقفية، بزعم أنه ينوي إقامة ما يسمى "متحف التسامح في مدينة القدس".

ويؤكد تقرير أن المسلمين أقاموا في 1926/7/14 فندقاً، أُطلِق عليه اسم فندق بالاس Palace Hotel، وصار أشهر فندق في بيت المقدس للسائحين والزوار، وكان ريعه يذهب لتغطية مصروفات هذه المقبرة، لكن سرعان ما انتهى أمر هذا الفندق بعد اعتداء السلطات الصهيونية على عقارات المدينة المقدسة.

ولم يتبقَ لأرض المقبرة الوقفية سوى 19 دونماً من أصل 200 دونماً، بعدما قام العدو الصهيوني سنة 1967 بتحويل جزء كبير من المقبرة إلى حديقة عامة سميت بحديقة الاستقلال، وفي أواخر سنة 1985 أنشأت وزارة المواصلات موقفاً للسيارات على قسمٍ كبير منها.

ولعل عدم احترام الصهاينة للأوقاف الإسلامية، والتعجل في مصادرتها ووضع اليد عليها جاء من خلفية أن هذه الأوقاف هي بالحقيقة آثار وهوية وملكية تثبت أن هذه الأرض إسلامية بقدم أوقافها، بل والأموات المسلمين الذي أكدوا بدمائهم وقفية هذه الأرض.

ومن الإجراءات التي قام بها الاحتلال الصهيوني ضدّ أوقاف المدينة المقدسة، أنه مارس سياسة الجدار العازل، فأقام جداراً عازلاً يلف المدينة المقدسة من كل الجهات بحجة الأمن، وهو في الحقيقة إعلان حرب على أوقاف القدس، ومنع إقامة أي وقف إسلامي يعزز المدينة عربياً أو إسلامياً.

ومن السياسات والإجراءات التي قام بها الاحتلال الإسرائيلي كذلك، تحويل الأوقاف الإسلامية إلى أوقاف يهودية بحكم قوة الاحتلال والسلاح؛ فحارة المغاربة هي

حارة وقفية بامتياز، كانت للمسلمين المغاربة الذين يزورون بيت المقدس، إذ جاء في نصّ وقفها: "لا يبطله تقادم دهر، ولا يوهنه اختلاف عصر، كلما مرّ عليه زمان أكده، وكلما أتى عليه أوان بينه وسدده"[33].

وبعد احتلاله الأول للقدس في سنة 1948، قام المحتل الصهيوني بوضع اليد على غربي القدس وعلى أوقافها لا سيّما في قرية عين كارم. ثمّ قام بعد احتلاله شرقي القدس سنة 1967 بإجلاء سكان حي المغاربة في 1967/6/10، وهدم الحي، ثمّ حوله إلى ساحة لليهود للصلاة والتعبد عند حائط البراق أو "المبكى"، كما يسمونه.

وفوق كل هذا، يحاول العدو، ومن خلال الجماعات اليهودية المتعصبة، الاعتداء على المسجد الأقصى، وهو وقف إسلامي بامتياز، لبناء ما يسمى الهيكل الثالث على أنقاضه، إذ يلحظ على جنوده دخولهم صباح مساء ساحات المسجد الأقصى بحجة الأمن. وكل هذه المحاولات تأتي لتفريغ المدينة من مضمونها العربي والإسلامي، وإقامة المشروع الصهيوني الاستراتيجي، وهو جعل مدينة القدس سنة 2020 مدينة يهودية.

الوضع المالي لأوقاف القدس:

نظراً لكثرة الأوقاف وتنوع أغراضها واختلاف أحجامها، يمكن القول إن مدينة القدس استفادت بلا شك من الريع الذي كان يقدم لها من أوقافها، وهذا ما أدركه المحتل البريطاني ثمّ المحتل الصهيوني. ويتبين لنا بالأرقام أن الغلة التي كانت تأتي من الأوقاف كانت كبيرة، فضلاً عن أن أصول الأوقاف المقدسية يتجاوز بلغة الأرقام والحسابات ملايين الدولارات. فالغلة الوقفية بالقدس كانت تتم متابعتها وتؤخذ من عدة طرق، وهي[34]:

1. الدفاتر والحسابات:

وهي طريقة قديمة استخدمها المجلس الإسلامي الشرعي منذ سنة 1926 وبقيت حتى سنة 1948، وكانت حسابات دائرة الأوقاف تشمل 14 حساباً، فبلغ المقبوض مثلاً في سنة 1934 حوالي 274,698 جنيهاً.

2. الدورة المستندية:

وهي الخطوات المتتابعة التي يمر بها المستند المالي من البداية وحتى النهاية، بحيث إذا ما تمّ التجاوز عن إحدى الخطوات فإنه دليل على حدوث مخالفة مالية.

3. إيرادات الدائرة الوقفية الداخلية:

وهي التي تحصّل من خلالها إيجارات عقارات الأوقاف، والأحكار[35]، أو مبالغ الإشراف على الأوقاف الذرية وهي 10%، أو ما يتم استلامه من رسوم دخول المسجد الأقصى من قبل السياح الأجانب.

4. نفقات وإيرادات الدائرة في الموازنة الحكومية:

إذ إن النفقات التشغيلية كانت تأتي من الحكومة الأردنية، باعتبارها مشرفة على أوقاف القدس بناءً على ترتيبات إدارية تمت خلال احتلال الصهاينة للقدس سنة 1967.

5. التقارير والقوائم المالية:

وهي خلاصات الحساب الشهري، وهو ميزان المراجعة في المحاسبة المالية، وفي نهاية العام يتم تجميع خلاصات الحسابات الشهرية، لكي يتم الحصول على خلاصة الحسابات السنوية.

6. الوقف:

والأغلب الأعم أنه كان يتم استثمار الأوقاف عن طريق صيغة تقليدية وهي الإيجار، فكانت تطبق هذه الصيغة الاستثمارية على العقارات الوقفية في القدس، كما هو وارد في الجدول التالي[36]:

جدول 4/4: بدل الإيجار السنوي لعقارات وقفية في القدس سنة 1998

النوع	العدد	بدل الإيجار السنوي (بالدينار الأردني)
سكن	223	23,532
دكان	380	102,813
مخزن	64	19,133
مدرسة	3	4,470
مستشفى المقاصد	1	110
بنك	2	21,354
أرض	7	1,272
فندق	5	18,345

7. الحكر:

وهذه الصيغة كانت مفيدة للأوقاف في حال خراب العقار أو عدم الانتفاع به، فيرى القاضي بجواز أن يُستغل العقار ويُعطى مقابل ذلك أجرة مقدمة وأخرى مؤجلة. بيد أن هذه الصيغة على ما فيها من تنشيط للعقارات الوقفية كانت مدخلاً لضياع الأوقاف، واستغلالها ونقلها إلى أملاك خاصة، خصوصاً وأن القدس تعرضت لاحتلال لم يبقِ ولم يذر؛ فصارت أوقافها بيد أناس، والبعض منهم للأسف استغل غياب المؤسسة الوقفية، فحول ملكية هذه الممتلكات الوقفية من خلال صيغة الحكر إلى ملك خاص.

وفي سجلات الإدارة الوقفية بالقدس، نرى أنه بعقد الحكر تمّ الحصول على 252 جنيهاً أو 453 ديناراً أردنياً من أحكار وقفية بالقدس بلغت 638 حكراً[37].

8. الأعشار:

وهي زكاة محصولات الأراضي، وهي صيغة مالية لغرض جباية الأراضي المنتجة، وفي بيانات المجلس الإسلامي الأعلى تبين أنه في الفترة 1925-1947 بلغت نسبة قيمة الأعشار إلى مجموع الواردات 50.7%، مما يعني ثروة مالية كبيرة للأوقاف[38]. وبالمحصلة، يمكن أن نرى، ومن خلال وثائق المجلس الإسلامي الأعلى، أن وارداته في الفترة 1925-1947 كانت في تصاعد؛ كما يظهر في الجدول التالي، بالجنيه الفلسطيني[39]:

جدول 4/5: واردات المجلس الإسلامي الأعلى وقيمة الأعشار والإيجارات فيها

السنوات	الأعشار	الإيجارات	واردات مختلفة	مجموع الواردات
1925	28,312	13,900	6,305	48,517
1930	31,950	19,100	20,647	71,697
1935	45,415	15,312	16,496	77,223
1940	34,606	16,551	12,122	63,279
1947	30,000	32,089	60,258	122,347

وكانت أوقاف المدينة تزداد عدداً وتتنوع عطاءً في حال ازدادت قوة المسلمين وتضاعفت، وأصبحت حواضرهم ومنها مدينة القدس منارة علم وحضارة للآخرين، في المقابل، كانت أوقافها تتراجع عطاءً في ظلّ الفساد الإداري والفوضى والحروب، وضعف قوة المسلمين في إحكام قبضتهم عليها. كما حصل فترة الاحتلال الصليبي

حيث تمّ طمس الهوية الإسلامية ومصادرة كل الوقفيات والمنافع العامة، أما الفوضى وسوء الترتيبات الإدارية فإن آخر العصر العثماني شهد اضطراباً وسوء إدارة واضحة على مختلف المجالات ومنها ترتيبات الأوقاف، من خلال التلاعب بالإيرادات الوقفية، والاستيلاء على الأصول الوقفية من خلال النّظار والمتولين، وازداد الأمر سوءاً بدءاً من الاحتلال البريطاني وحتى الاحتلال الصهيوني.

خاتمة:

بعدما تعرفنا، ولو بصورة موجزة، على المسار التاريخي لنشأة الأوقاف وتطورها في مدينة القدس، نقف هنا لنختم دراستنا هذه بأهم التوصيات والنتائج، وهي:

- إن الأوقاف في فلسطين والقدس نشأت مع نشوء الدعوة الإسلامية، وبدأت مع بداياتها، فأول الأوقاف هو المسجد الأقصى، وقد ثبت ذلك بحجية قرآنية في الآية الأولى من سورة الإسراء.
- إن بعض الأوقاف في فلسطين والقدس لها من التاريخية والعطاء ما يجعلها باقية إلى الآن، كوقف تميم الداري، ووقف بعض الصحابة والمدارس والتكايا، بالرغم من الاعتداءات الصارخة للعدو الصهيوني.
- هناك عدة عوامل شرعية وتاريخية وحضارية جعلت من مدينة القدس محلاً بارزاً يوقف المسلمون من خارجها أوقافهم وأحباسهم عليها.
- شكلت الأوقاف جزءاً أساسياً من الهوية المقدسية للمجتمع الفلسطيني وللتراث والتاريخ والعادات، حتى إننا لا نستطيع أن نصف مفردة مقدسية بدون السؤال عن علاقتها بالأوقاف.
- إن العطاء الوقفي الحضاري الذي كان سائداً في مدينة القدس يكشف عن الدور الحضاري للأوقاف في دعم المجتمعات والأفراد، فالوقف المقدسي كان نموذجاً فريداً لطبيعة الوقف الإسلامي على مدار التاريخ الإنساني.
- شكلت الأوقاف الإسلامية بجانب أوقاف الآخرين في مدينة القدس تعايشاً سلمياً حضارياً كان هدفها الرقي بالإنسان وعمارة الأرض.

- على الرغم من العطاء الهائل الذي حصلت عليه المدينة المقدسة من الأمويين والعباسيين والأيوبيين والمماليك وانتهاءً بالعثمانيين من العطايا والأوقاف والمِنَح، وجدت حركة استئصالية عدوانية بدأت منذ الانتداب البريطاني إلى الاحتلال الصهيوني.
- كان للمجلس الإسلامي الأعلى دوراً أساسياً في حماية الأوقاف خلال فترة الانتداب البريطاني وبدايات الاحتلال الصهيوني، فضلاً عن دوره الإداري في تطويرها وتنمية أصولها وغلاتها.
- أخيراً، ما زال الصراع على الأوقاف في القدس مستمراً إلى يومنا هذا، لكن هناك نهضة وقفية إسلامية بدأت بالسريان في جسد الأمة، أصاب بعض شررها أهل فلسطين، الذين ما زالوا يتنادون لحماية أوقافهم والعمل على تطويرها وتنميتها بشكل مؤسسي.

الملاحق



قبر الصحابي شداد بن أوس بالقدس



دخول الجنود الصهاينة ساحات المسجد الأقصى



مقبرة مأمن الله





جعل مقبرة مأمن الله مكباً للنفايات والقاذورات والأوساخ

هوامش الفصل الرابع

[1] ويعدّ هذا الوقف الإسلامي الأول في فلسطين، الذي أوقفه الرسول، صلى الله عليه وسلم، مرتين في مدينة الخليل على تميم الداري وإخوته (وهم من لخم) مرة قبل الهجرة ومرة بعدها، وذلك كبشارة نبوية إعجازية تؤكد على هوية فلسطين الإسلامية قبل فتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. ففي المرة الأولى التي وفد فيها الداريون، سألوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أرضاً، فدعا بقطعة أدم (جلد) وكتب لهم كتاباً نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم... هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول الله للداريين، إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عيون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم، ومن فيهم إلى الأبد... شهد عباس بن عبد المطلب وخزيمة بن قيس وشرحبيل بن حسنة وكتب". ولما هاجر الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة قدم عليه الداريون، وسألوه أن يجدد لهم الكتاب فكتب ما نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم... هذا كتاب من محمد رسول لتميم بن أوس الداري: إن له قرية حبرون وبيت عينون، قريتهما كلهما وسهلهما وجبلهما وماءهما وحرتهما وأنباطهما وبقرهما، ولعقبه من بعده، لا يحاقّه فيهما أحد، ولا يلجهما عليهم أحد بظلم. فمن ظلم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين". وتميم بن أوس بن خارجة أبو رقية الداري انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان، ونزل بيت المقدس وكان إسلامه سنة تسع، ولم تكن "فلسطين" يومئذٍ بأيدي المسلمين، بل كانت بأيدي الروم، فأقطعهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، إياها بعد أن يفتحها الله عليه. فيكون هذا كالبشارة من النبي صلى الله عليه وسلم بفتحها. ولما فتحت في عهد عمر وفّى بوعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأوقفها تميم على ذريته وعلى خيرات حددها، فهو أول وقف في الإسلام في أرض فلسطين، وقد ذكر محمد بن أحمد المقدسي في كتابه **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: "... وجود دار ضيافة دائمة مع خباز وطباخ وخدام يقدمون العدس بالزيت لكل حاجّ أو زائر يمر بمدينة الخليل، وهذه الضيافة والإطعام من وقف تميم الداري رضي الله عنه". انظر: أحمد آق كوندوز، وثيقة تعرض لوقف نبوي في فلسطين ومفهوم الطابو ومسح الأراضي في الدولة العثمانية، ترجمة عامر الهنيني، نقلاً عن: www.osmanli.org.tr.

[2] زبيدة محمد عطا، **عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية** (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2007)، ص 41.

[3] انظر: مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس قبل الاحتلال الإسرائيلي وبعده** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007)، نقلاً عن: موقع وقفنا، الأحد 7 صفر الخير 1428هـ الموافق 2007/2/25، انظر:
http://www.waqfuna.com/book.php?subaction=showfull&id=1172395883&archive=&start_&from=&ucat=4

[4] انظر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي** (بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، 1983)، ص 94 وما بعدها، وانظر الجدول الكامل لكل المؤسسات التعليمية الوقفية في القدس، ص 107-111.

[5] زبيدة عطا، **عروبة القدس**، ص 31.

[6] **المرجع نفسه**، ص 81، 85.

[7] **المرجع نفسه**، ص 23، 141.

[8] ناصر خسرو هو رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي اعتنق المذهب الشيعي وعمل داعياً له، له كتاب الأسفار "السفرنامة" الذي دون فيه أخبار سفره في أرجاء العالم، وامتاز بوصف دقيق لبيت المقدس.

[9] زبيدة عطا، **عروبة القدس**، ص 142.

[10] المنظمة العربية للتربية، **ندوة مؤسسة الأوقاف**، ص 97.

[11] نقلاً عن: زبيدة عطا، **عروبة القدس**، ص 42 وما بعدها.

[12] المنظمة العربية للتربية، **ندوة مؤسسة الأوقاف**، ص 96.

[13] انظر: أحمد المرعشلي وأنيس الصايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 1، ص 177؛ وزياد عبد العزيز المدني، **الأوقاف في القدس وجوارها في القرن التاسع عشر الميلادي: 1800/1918م** (عمّان: د.ن، 2004)، ص 12، قارن مع:

Doris Behrens-Abouseif, *Egypt's Adjustment to Ottoman Rule: Institutions, Waqf and Architecture in Cairo* (New York: E.J.Brill, 1994), p. 49.

[14] انظر بتوسع بحثنا: سامي الصلاحات، "المال الوقفي بين العلماء والسلاطين،" **مجلة كلية الدراسات العربية والإسلامية**، الإمارات، السنة العاشرة، العدد 23، 2002.

[15] انظر: عبلة المهتدي، **أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني** (عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2005)، ص 55 وما بعدها.

[16] Gabriel Baer, *Studies In The Social History Of Modern Egypt* (Chicago: The University of Chicago Press, 1969), p. 80.

[17] انظر: عبلة المهتدي، **أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني**، ص 33.

[18] خصوصاً الرصيف الذي يؤدي إلى حائط البراق (الموقع المرتقب للسفارة الأمريكية في القدس هو وقف الخليلي الذي صادرته "إسرائيل" سنة 1948، ويعود أصله إلى الشيخ محمد بن الشيخ محمد الخليلي).

[19] انظر: عبلة المهتدي، **أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني**، ص 63.

[20] انظر: **المرجع نفسه**، ص 67.

[21] انظر: **المرجع نفسه**، ص 73.

[22] انظر: **المرجع نفسه**، ص 110.

[23] نقلاً عن: زياد المدني، **الأوقاف في القدس وجوارها**، ص 15.

[24] نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص 21.

[25] انظر بتوسع: جمعية الأقصى لرعاية المقدسات والأوقاف الإسلامية، **مشروع الأوقاف الإسلامية داخل الخط الأخضر، مسح عام لأملاك الأوقاف، المساجد المقامات والمقابر الإسلامية في منطقة جنوب فلسطين، داخل الخط الأخضر، الأوقاف الإسلامية تحت الاحتلال 1948-1985م**، سلسلة دراسات دائرة شؤون الوطن المحتل **(عمّان: دار ابن رشد للتوزيع، 1987)**، ص 5؛ وفتحي فوراني، **وثيقة دفاعاً عن الجذور** (عمّان: دار الجليل للنشر، 1985)، ص 16؛ وفائق نجيب الحسيني، **الوقف الإسلامي في فلسطين** (د.م: 1938)، ص 28؛ ومايكل دمبر، **سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين 1948-1988**، ط 2 (بيروت: مؤسسة الدراسات الإسلامية، 1992)، ص 25؛ ومحمود الصمادي، "الأوقاف الإسلامية في فلسطين،" مجلة **الفيصل**، الرياض، العدد 232، 1996، ص 36؛ ومحسن محمد صالح، **دراسات منهجية في القضية الفلسطينية** (ماليزيا: دار الفجر، 2003)، ص 80، 713؛ وفتحي فوراني، "الأوقاف والمقدسات الإسلامية في إسرائيل،" نقلاً عن موقع باقون، انظر: http://www.baqoon.com/w6/w6.htm؛ وإبراهيم عبد الكريم، "الاستهداف الصهيوني للأوقاف في فلسطين منذ عام 1948م،" مجلة **أوقاف**، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، السنة 5، العدد 9، تشرين الثاني/ نوفمبر 2005، ص 159؛ وعكرمة صبري، "أوضاع المقدسات الإسلامية والمسيحية في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين،" نقلاً عن:

http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Mokadassate/p4.php

[26] نقلاً عن: زبيدة عطا، **عروبة القدس**، ص 56.

[27] انظر: عبلة المهتدي، **أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني**، ص 42.

[28] Gabriel Baer, *Studies In The Social History Of Modern Egypt*, p. 91.

[29] عبد السلام العبادي، "إدارة الأوقاف الإسلامية في المجتمع المعاصر في الأردن وفلسطين،" في **أهمية الأوقاف الإسلامية في عالم اليوم** (لندن: 1996).

[30] انظر: عبلة المهتدي، **أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني**، ص 43.

[31] انظر: النشرة الإحصائية للأعوام 1989، 1993، 1998 الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية (الأردن: 1999)؛ ومحمد مرسي، "الاغتصاب الصهيوني للأوقاف الإسلامية في القدس الشريف،" مجلة **الحرس الوطني**، الرياض، العدد 288، 2006/4/1، نقلاً عن:
http://haras.naseej.com/Detail.asp?InNewsItemID=188588

[32] تقع مقبرة مأمن الله؛ والتي يسمّيها البعض ماملا؛ بمعنى ماء من الله أو بركة من الله، غربي مدينة القدس القديمة وعلى بعد كيلومترين من باب الخليل، وهي من أكبر المقابر الإسلامية في بيت المقدس، وتقدر مساحتها بـ 200 دونم، وعليها بناية أوقاف مبنيّة على جزء من أرض وقفها، واستصدر بها وثيقة تسجيل أراضي كوشان طابو ضمن أراضي الوقف الإسلاميّ. وذكر صاحب المفصّل في تاريخ القدس عارف عارف أنّ مقبرة مأمن الله أو ماملا وإنْ اختُلف في مصدر اسمها، فإنّها بلا مراء أقدم مقابر القدس عهداً وأوسعها حجماً، وأكثرها شهرةً، ولقد ساير تاريخَها تاريخ المدينة، وذُكِر معه مراراً، ففي هذا المكان دُفِن عددٌ كبير من الصحابة والمجاهدين أثناء الفتح الإسلامي سنة 636 للميلاد، وفيه عسكر صلاح الدين يوم جاء ليستردّ القدس من الصليبيين سنة 1187 للميلاد. وقد تكلم أكثر من واحد أنّ مقبرة مأمن الله تحتضن في ثرى جنباتها رفات الصحابة أمثال عبادة بن صامت، وقد ذكر المقبرة النابلسيّ في رحلته، فقال: "إنها بظاهر القدس من جهة الغرب، أكبر مقابر البلد، وفيها خلقٌ كثير من الأكابر والأعيان والشهداء والصالحين، وفيها عددٌ كبير من الصحابة والتابعين". ورجّح بعضهم أنّ تاريخ الدفن الإسلامي فيها يعود إلى ما قبل الصليبيين، وعندما احتلّ الصليبيون القدس وارتكبوا فيها مجزرة بشعة حيث قدّر عدد الشهداء في هذه المجزرة من الرجال والنساء والأطفال بـ 70 ألف شهيد، أمر الصليبيون من بقِي من المسلمين بدفن الشهداء في مقبرة مأمن الله، وقد وجدوا بها مقابر وأنفاق، فوضعوا جماجم الشهداء فيها، وقيل إنّ نفقاً ما يزال تحت الأرض في الوسط الغربي من المقبرة كلّه مليء بالجماجم وأنّ قطره نحو خمسة أمتار وله امتدادٌ يصل إلى أكثر من مئة متر. أحيطت المقبرة في أواخر العهد العثمانيّ بسور سنة 1318هـ/1902م، واستمرّ المسلمون في دفن موتاهم حتى سنة 1927 حيث أصدر المجلس الإسلامي الأعلى حظراً على دفن الموتى فيها بسبب اكتظاظها واقتراب العمران إليها. انظر: تقرير إخباري عن مقبرة مأمن الله في القدس، الأربعاء 2007/10/24، نقلاً عن موقع إسلام أون لاين، انظر:
http://www.islamonline.net/Arabic/index.shtml

[33] انظر بتوسع: عبد الهادي التازي، **أوقاف المغاربة في القدس: وثيقة تاريخية سياسية قانونية** (المغرب: مطبعة الفضالة، 1401هـ)، ص 15.

[34] انظر بتوسع: محمد إبراهيم ناصر الدين، **تحليل الإيرادات المالية لدائرة أوقاف القدس** (نابلس: دار الفاروق للثقافة والنشر، 2000)، ص 21.

[35] الحكر: عقد إجارة يقصد به استبقاء الأرض الموقوفة مقررة للبناء أو الغرس، أو لأحدهما لقاء أجرة معجلة وأخرى مؤجلة.

[36] نقلاً عن: محمد إبراهيم ناصر الدين، **تحليل الإيرادات المالية**، ص 49.

[37] نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص 59.

[38] نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص 63.

[39] بتصرف شديد: **المرجع نفسه**.

الفصل الخامس

الممتلكات والأوقاف المسيحية في القدس

الممتلكات والأوقاف المسيحية في القدس

أ. فادي شامية

مقدمة:

تجمع مدينة القدس كلّ الطوائف المسيحية في العالم تقريباً، لكن الكنيسة الأكبر والأوسع انتشاراً في المدينة هي الكنيسة الأرثوذكسية، التي تأسست في القدس سنة 52 للميلاد، والتي يتبعها أكثر من 51% من مسيحيّي فلسطين[1].

وتشكّل أملاك الطوائف المسيحية كلها ما يوازي 45% من مساحة البلدة القديمة للقدس، في حين تمتلك الكنيسة الأرثوذكسية وحدها ما نسبته 18% من مساحة الشطر الغربي للقدس، وحوالي 17% من الشطر الشرقي منها[2].

أولاً: الوجود المسيحي في القدس ضارب في عمق التاريخ:

إن الوجود المسيحي في القدس ضارب في عمق التاريخ، ولا عجب في ذلك، ففي بيت لحم القريبة من القدس، كانت ولادة السيد المسيح، وفي المدينة المقدسة كانت انطلاقة الدين المسيحي، الذي تعرض أتباعه للاضطهاد، الأمر الذي جعل من المسيحية عقيدة سرية إلى أن أُعلنت ديناً عاماً للإمبراطورية الرومانية الواسعة في عهد الإمبراطور قسطنطين، وزيارة أمه الملكة هيلانة للقدس سنة 320 للميلاد، حيث شيّدت كنيسة القيامة. وقد أنشأ قسطنطين مدينة القسطنطينية ورسم لهم بطريركاً مساوياً لبطاركة الإسكندرية وإنطاكية في المرتبة، وقد عُرف أتباع هذه الكنيسة بالروم الأرثوذكس، ويبدو أن أول من أطلق عليهم هذه التسمية هم المؤرخون العرب[3].

بعد انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية في القرن 11 ميلادي، صارت الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين تتبع بطريركية القسطنطينية، لكنها حافظت على صِلاَتها بروما، ثمّ أخذت الكنائس تستقل شيئاً فشيئاً لأسباب دينية أو سياسية أو قومية. وقد توزّع الأرثوذكس على عدة كنائس هي اليوم: الكنيسة اليونانية البيزنطية، والكنيسة الأرمنية، والكنيسة السريانية، والكنيسة القبطية في مصر، والكنيسة الحبشية في الحبشة. وجميع هذه الكنائس ممثلة الآن في القدس، وفي كنيسة القيامة خصوصاً، لكن أتباع هذه الكنائس قليلو العدد في المدينة، عدا أتباع الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية

التي يُعرف أتباعها باسم الروم الأرثوذكس، ويتبعها معظم مسيحيي فلسطين. وهي كنيسة مستقلة تنتمي إلى الكنائس البيزنطية التي تستعمل اللغة اليونانية، والتي تعود صيغة الصلوات فيها إلى تقاليد بيزنطية، حيث كانت تعرف في الماضي باسم الكنيسة الملكية، وكان اتباعها من اليونان والعرب المتأثرين بالحضارة اليونانية، وقد استقرت اللغة العربية فيها مع الفتح العربي لأن عدداً من بطاركة القدس وأساقفة الأبرشيات في فلسطين كانوا من السوريين أو الفلسطينيين، وكانوا يتقنون العربية واليونانية[4].

ثانياً: الكنائس والأديرة داخل البلدة القديمة:

لعل من الشواهد القوية على أقدمية الوجود المسيحي في القدس وحجمه؛ ذلك الكم الكبير من الكنائس والأديرة الموجودة في القدس، ولا سيّما في بلدتها القديمة، وفي مقدمتها **كنيسة القيامة** التي تُعرف عند الغربيّين بكنيسة القبر المقدس. وهي كنيسة أنشأتها الملكة هيلانة، أم الملك قسطنطين سنة 335 للميلاد، وبنت في المكان ثلاثة أبنية، أولها كنيسة الجُلجُلة في مكان الصّلب (حسب المعتقد المسيحي)، وتقع اليوم على يمين الداخل إلى كنيسة القيامة، وثانيها فوق القبر المقدّس، وهو المكان الذي يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح دُفن فيه، وثالثها فوق البئر التي وُجدت فيها الصلبان الثلاثة التي حُدّد مكان الكنيسة من خلالها، لكن الصليبيين الذين احتلوا القدس سنة 1099 للميلاد وحّدوا الكنيسة هندسياً على شكل صليب.

ويقوم على خدمة كنيسة القيامة وإقامة الصلوات فيها رعايا ثلاث من الطوائف الرئيسة في القدس، وهي: الطائفة الأرثوذكسية، والطائفة الكاثوليكية، والطائفة الأرمنية الأرثوذكسية. أما مفاتيح كنيسة القيامة فتتوارثها أسرتان مقدسيّتان مسلمتان، هما: أسرة نُسيبة وأسرة جودة، وذلك منذ الفتح العمري للمدينة، وهذا يعبّر عن طبيعة التسامح الإسلامي – المسيحي في المدينة المقدّسة[5].

ومن المعالم المسيحية في البلدة القديمة أيضاً:

1. **دير أبينا إبراهيم:** وهو للروم الأرثوذكس، ويقع في ساحة كنيسة القيامة من الجهة الجنوبية الشرقية. وقد تأسس سنة 335 للميلاد، وفيه كنيستان؛ إحداهما صغيرة تعرف باسم أبينا إبراهيم، والأخرى كبيرة تعرف باسم الرسل الإثني عشر[6].

2. **دير مار يوحنا المعمدان:** وهو للروم الأرثوذكس، ويقع جنوب ساحة عمر بن الخطاب، ويضم كنيستين؛ واحدة تحت الأرض طرازها بيزنطي بنيت سنة 450 للميلاد، والأخرى فوقها بنيت سنة 1048 للميلاد[7].

3. **دير العذراء:** وهو للروم الأرثوذكس، ويسمى أيضاً دير ستنا مريم، وقد بُني في عهد البطريرك إلياس الأول سنة 494 للميلاد، وهو يطلّ على ساحة كنيسة القيامة[8].

4. **بطريركية ودير الروم الأرثوذكس:** ويسمى أيضاً الدير الكبير أو دير قسطنطين، وقد أنشأه البطريرك إلياس الأول سنة 494 للميلاد، وقد مثّل مركز أديرة الروم الأرثوذكس في فلسطين، وهو يضم ثلاث كنائس هي: كنيسة القديسة هيلانة، وكنيسة القديسة تقلا، وكنيسة مار يعقوب. وفي الكنيسة الأخيرة معبدان صغيران؛ واحد باسم الشهداء الأربعين، والثاني باسم حاملات الطِّيب[9].

5. **دير البنات:** وقد بناه البطريرك إلياس الأول للروم الأرثوذكس، وفيه كنيستان؛ إحداهما أرضية تعرف باسم القديسة ميلانيا، والأخرى فوقها تعرف باسم مريم الكبيرة أو العذراء البكر[10].

6. **دير مار تادرس:** وهو للروم الأرثوذكس، يقع قريباً من دير الكازانوفا للاتين[11].

7. **دير مار كرالامبوس:** وهو للروم الأرثوذكس، ويقع قرب كنيسة القيامة، إلى الغرب من طريق الآلام[12].

8. **دير السيدة:** وهو للروم الأرثوذكس، ويقع على بعد بضعة أمتار من الخانقاه الصلاحية[13].

9. **دير مار أفتيموس:** وهو دير صغير للروم الأرثوذكس، ملاصق لدير السيدة[14].

10. **دير مار ميخائيل:** وهو دير صغير للأرثوذكس، يقع بباب الخليل[15].

11. **دير مار ديمتري:** وهو دير صغير للأرثوذكس، يقع في الحيّ المسيحي[16].

12. **دير القديسة كاترين:** وهو دير صغير للأرثوذكس، يقع قرب دير مار ميخائيل[17].

13. **دير السلطان:** وهو من الأديرة القديمة بالقدس، وقد احتله الرهبان اللاتين بعد استيلاء الصليبيين على المدينة، ولكن صلاح الدين الأيوبي أرجعه للأقباط الأرثوذكس بعد تحرير بيت المقدس، فعُرف من وقتها باسم دير السلطان. يلاصق هذا الدير سطح كنيسة القيامة من الجهة الشرقية، ولدير السلطان أهمية خاصة عند الأقباط لأنه طريقهم المباشر للوصول إلى كنيسة القيامة. وقد ادعى الأثيوبيون (الأحباش) ملكيتهم لهذا الدير بتشجيع من البريطانيين أثناء احتلالهم لفلسطين، وفي منتصف ليلة عيد الفصح في 1970/4/20 قام اليهود بتغيير مفاتيح الدير وتسليمها للأثيوبيين، وعلى الرغم من نيل الكنيسة القبطية حكماً قضائياً من المحكمة الإسرائيلية العليا بملكية الدير للأقباط سنة 1971، إلا أن سلطات الاحتلال ترفض تنفيذ القرار[18].

14. **دير مار أنطونيوس:** وهو فوق مبنى كنيسة القيامة، وترجع أهميته إلى أنه صار مقراً للبطريركية القبطية الأرثوذكسية منذ سنة 1912، وفيه تقع مساكن الرهبان الأقباط ومقر رئاسة الدير والكلية الأنطونية[19].

15. **دير مار جرجس:** وفيه كنيسة من هيكل واحد يقام فيها قداس كل يوم خميس للأقباط، بينما يقيم به الأرمن قداساً في يوم الاحتفال بعيد مارجرجس من كل عام[20].

16. **دير القديسة مريم:** وهو للراهبات القبطيات، ويقع قرب الباب الجديد[21].

17. **دير الحَبَش:** وهو ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب، وهو آخر ما تبقى لطائفة الأحباش الأرثوذكس في البلدة القديمة من أبنية دينية، ويعدّه الأقباط جزءاً من دير السلطان الذي تعود ملكيته لهم[22].

18. **دير القديس يعقوب الكبير:** وهو للأرمن، وفي هذا الدير تقع كنيسة الرسول يعقوب الكبير التي شيّدت سنة 1165 للميلاد في مكان مقتله. ويعتقد الأرمن أن رأس القديس يعقوب قطعت سنة 44 للميلاد بأمر من الملك هيرودوس أغريبياس الأول Herod Agrippa حفيد هيرودوس الكبير Herod the Great I، وبإيعاز من اليهود. ويضم الدير، فضلاً عن الكنيسة، مطبعة، ومنزلاً للغرباء، ومدارس للبنين والبنات، ومسكناً لطلبة اللاهوت، ومتحفاً صغيراً، وكنيسة أخرى تدعى مار ثيودور Saint Theodore. وفي الدير دهليز يمتدّ باتجاه باب النبي داود[23].

19. **دير الزيتونة:** وهو الدير الأرمني القديم **للراهبات الأرمنيات**، ويعرف أيضاً باسم دير مار آركنجل[24].

20. **كنيسة حبس المسيح:** وهو يقع في حارة السعدية، وقيد شيد في المكان الذي يعتقد أن السيد المسيح قد جلد وحبس به، وقد شيد الأرمن هذه الكنيسة على أطلال كنيسة قديمة كانت تعرف باسم كنيسة القديس بطرس في درب الآلام[25].

21. **دير يوحنا المعمدان:** وهو للأرمن الأرثوذكس، وهي تقع في الحي المسيحي مقابل دير الموارنة[26].

22. **بطريركية الأرمن الكاثوليك وكنيسة أوجاع العذراء:** وهما للأرمن الكاثوليك، وهي طائفة حديثة نسبياً في القدس، وقد جرى تشييد دير وكنيسة على قطعة الأرض المعروفة بـ"حمّام السلطان" في حارة الواد بالقرب من الزاوية الأفغانية سنة 1872[27].

23. **كنيسة القديس توما:** وهو للسريان الأرثوذكس، وتقع في موقع مواجه لقلعة القدس[28].

24. **دير العدس:** وهو للسريان، يقع في حارة السعدية قرب حبس المسيح[29].

25. **دير مارمرقس:** وهو من ممتلكات السريان الأرثوذكس، وقد شيد في المكان الذي يعتقد السريان أن السيد المسيح أقام في المكان عشاءه الأخير، وهو على بعد عشرين متراً، شمال شرقي كنيسة القديس توما[30].

26. **دير الكازانوفا:** وهو من مقدسات الإرساليات الكاثوليكية، يقع بالقرب من الباب الجديد[31].

27. **دير الموارنة:** بُني سنة 1895، وهو يعود للطائفة المارونية الكاثوليكية، ويقع في حارة الأرمن، بالقرب من باب الخليل[32].

28. **بطريركية اللاتين الكاثوليك:** التي تأسست سنة 1863، وهي تقع في أقصى غرب الحي المسيحي شمال قلعة القدس.

29. **دير المخلص:** ويسمى أيضاً دير اللاتين الكاثوليك، وقد أنشئ سنة 1559، وهو يقع شمال غرب الحي المسيحي، بالقرب من الباب الجديد[33].

30. **كنيسة القديسة حنا:** وهي للروم الكاثوليك، وقد بناها البيزنطيون في القرن الخامس الميلادي في المكان الذي يؤمن المسيحيون أنه منزل يواكيم وحنا، والد مريم العذراء ووالدتها، وقد تعرضت الكنيسة للخراب أثناء احتلال اليهود للقدس سنة 1967، وأعيد ترميمها[34].

31. **كنيسة القديسة فيرونيكا:** وهي تقع بالقرب من كنيسة أوجاع العذراء. تأسست سنة 1894، وهي للروم الكاثوليك وقد أقيمت في المكان الذي يعتقدون أن القديسة فيرونيكا مسحت فيه وجه السيد المسيح[35].

32. **كنيسة المخلص (الفادي):** وهي من ممتلكات البروتستانت، تأسست سنة 1898، بمناسبة زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني[36].

وإضافة إلى هذه الكنائس والأديرة، فإنه يوجد في البلدة القديمة للقدس طريق الآلام، الذي يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح قد سار عليه حاملاً صليبه، عندما ساقه الجنود الرومان إلى موقع صلبه، ويتكون من 14 مرحلة، تسعاً منها خارج كنيسة القيامة وخمساً داخلها، تبدأ من المدرسة العمرية حيث الموقع الذي أصدر منه الحاكم الروماني حكمه وصولاً إلى كنيسة القيامة[37].

ثالثاً: الكنائس والأديرة خارج البلدة القديمة:

لا يقتصر وجود الكنائس والأديرة التاريخية على البلدة القديمة، فثمة العديد من المعالم المسيحية المهمة والتاريخية خارج أسوار البلدة القديمة للقدس؛ نذكر أهمها:

1. **كنيسة الجثمانية (أرثوذكس):** وهي الكنيسة التي بنيت فوق "صخرة الآلام"، التي يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح عليه السلام، صلى وبكى عليها قبل أن يعتقله الجنود الرومان. ويعود تاريخ هذه الكنيسة إلى سنة 389 للميلاد، وقد دمرها الفرس سنة 614 للميلاد، ولكن الصليبيين أعادوا بناءها في القرن 12. وقد أعيد بناء هذه الكنيسة سنة 1924 على يد المعماري الإيطالي انطونيو بارلوزي Antonio Barluzzi، وقد أسهمت 16 دولة بتمويل بنائها، ولذلك صارت تعرف باسم "كنيسة كل الأمم". وتضمّ حديقتها ثماني أشجار زيتون من الفترة الرومانية[38]، واللوحة المرسومة على واجهة الكنيسة "لوحة يوم القيامة" للرسام الشهير ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci[39].

2. **كنيسة الصعود (أرثوذكس):** وقد بنيت سنة 392 للميلاد عن طريق إمرأة رومانية غنية، وقد دُمرت لاحقاً سنة 614 للميلاد على يد الفرس، فأعاد الرومان بناءها، ورُممت سنة 1102 للميلاد. ووفق الاعتقاد المسيحي فإن السيد المسيح صعد من هذا المكان إلى السماء[40].

3. **كنيسة مريم المجدلية أو الكنيسة الروسية (أرثوذكس):** وقد بُنيت سنة 1888 من قبل القيصر الروسي الكسندر الثالث Alexander III، وتقع على جبل الزيتون وتتميز بقبابها الذهبية[41].

4. **دير مار سابا (أرثوذكس):** وهي قديمة البناء، حيث يقال إن الذي بنى الدير هو القديس سابا سنة 484 للميلاد، وهي على مقربة من سلوان شرقي القدس، وتضم كنيسة أنشئت سنة 503 للميلاد[42].

5. **دير القديس تيودوسيوس (أرثوذكس):** وهو الواقع بين بيت لحم ودير مارسابا، وقد أنشئ سنة 484 للميلاد[43].

6. **دير المصلّبة (أرثوذكس):** يقال إن الذي بناه هو الأمير ماريام الكرجي أيام الملك قسطنطين سنة 330 للميلاد، وفي قول آخر إن الذي بناه هو الإمبراطور سوستنيانوس سنة 565 للميلاد[44].

7. **دير مار الياس (أرثوذكس):** وهو دير قديم أسسه هرقل ملك الروم سنة 610 للميلاد[45].

8. **دير الجليل (أرثوذكس):** ويعتقد المسيحيون أن السيد المسيح ظهر لتلاميذه بعد قيامه لأول مرة في هذا المكان، وهو يضم كنيسة قديمة يسميها الروم غاليليا ويسميها المقدسيون إيليا[46].

9. **دير القطمون (أرثوذكس):** وهو دير كبير فيه كنيسة تضم قبر القديس سمعان[47].

رابعاً: الكنيسة الأرثوذكسية:

1. أصل الكنيسة العربي والدور اليوناني:

يرأس الكنيسة الأرثوذكسية حالياً، وهي الأكبر كما ذكرنا، رجال دين يونان، على الرغم من أن أكثر من 90% من رعاياها هم من العرب[48]. لكن رئاسة الكنيسة من قبل

رجل دين يوناني لم تكن هي الأصل، فقد بدأت سيطرة رجال الدين اليونان على رئاسة بطريركية القدس عبر جمعيتهم القبر المقدس سنة 1534 في عهد السلطان العثماني سليم الأول. أما في الحقبة الممتدة من عصر المماليك إلى تاريخ سيطرة جمعية أو أخوية القبر المقدس على الإكليروس، فقد كان معظم الرهبان والأساقفة عرباً، وكان آخرهم البطريرك عطا الله المعروف باسم دوروتاوس الثاني Dorotheus II (1505-1534)، لكن الرهبان اليونان كانوا يتوافدون على القدس بكثرة أيام الدولة العثمانية. وقد كانت اليونان جزءاً من هذه الدولة في ذلك الحين، وكان مركز البطريركية الأرثوذكسية في القسطنطينية، وبطاركتها من اليونان، ورويداً رويداً شكّلوا أغلبية الرهبان والأساقفة في القدس، وتولوا مقاليد الحكم والسيطرة على البطريركية، من خلال جمعية القبر المقدس، وقد نقل البطريرك كيرلس الثاني Cyril II (1845-1872) مقر البطريركية من القسطنطينية إلى القدس[49].

في نهاية سنة 1908 حاولت الدولة العثمانية تصحيح الأوضاع في الكنيسة لكن تدخلات اليونان والروس أجّلت الإصلاحات، ثمّ جاءت الحرب العالمية الأولى (1914-1918) وانهيار الدولة لتقضي على عملية الإصلاح تلك[50].

اختيار البطريرك حالياً يكون من قبل أعضاء المجمع المقدس (السينودس Synod) في الكنيسة، الذي يضمّ 18 أسقفاً أو أرشمندريتاً (الأرشمندريت هو رئيس الدير) كلهم من اليونان حالياً، ويجب أن يكون البطريرك المنتخب واحداً من هؤلاء بحيث يرقّى إلى رتبة بطريرك، على أن يكون حاملاً للجنسية الأردنية[51]. ووفقاً للقانون الذي يحكم الكنيسة الأرثوذكسية اليوم، يصادق على هذا الانتخاب كل من الأردن والسلطة الوطنية الفلسطينية، باعتبار أن بطريركية القدس تشمل فلسطين التاريخية بكاملها والأراضي الأردنية، وقد جرت العادة أن ترحب اليونان بانتخاب البطريرك باعتباره يحمل جنسيتها، كما أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي تحتفظ لنفسها بحقّ الاعتراف بالبطريرك المنتخب، وهي غالباً ما تستعمل هذا الحق لابتزازه وحمله على تقديم تنازلات.

ولاية البطريرك المنتخب تكون مدى الحياة، حيث لا يجوز تنحيته إلا في حال شذوذه عن العقيدة الأرثوذكسية، أو إصابته بمرض يمنعه من القيام بواجباته الدينية، أو بتصويت ثلثي أعضاء المجمع المقدس على تنحيته[52].

ويساعد البطريرك في رئاسة الكنيسة مطران في الناصرة وآخر في عمّان، بالإضافة إلى المجمع المقدس أو السينودس (المكون من 18 عضواً برتبة أسقف أو أرشمندريت) مجلس مختلط مكوّن من 15 عضواً من العرب واليونان يُنتخب لمدة ثلاث سنوات، وفي دار البطريركية في القدس محكمة كنسية تنظر في شؤون الرعايا الأرثوذكس بموجب قانون الأحوال الشخصية، إضافة إلى مدرسة لاهوت تأسست سنة 1855، جميع طلابها من اليونان، ودير القديسة هيلانة، ومكتبة قديمة تحوي مخطوطات ثمينة[53].

2. أوقاف الكنيسة الأرثوذكسية والسيطرة الإسرائيلية:

تمتلك الكنيسة الأرثوذكسية ربع القدس القديمة البالغة قرابة كليومتر مربع، كما تمتلك أراضي شاسعة وأديرة ومقابر، خارج البلدة القديمة في القدس، فضلاً عن عقارات في مدن فلسطينية كبرى، لكن قسماً لا بأس به من هذه الأملاك سُرِّبت إلى اليهود المحتلين، عن طريق البيع أو الإيجار طويل الأمد لمدة 99 عاماً[54].

وهكذا فقدت الكنيسة الأرثوذكسية مقبرتها، وأراضي دير مارسابا في بيت لحم، وأراضي جبل أبو غنيم في القدس، التي تحولت إلى مستوطنة صهيونية كبيرة، باسم هارحوما Har Homa، وهي تكمل فصل القدس عن بيت لحم. كما فقدت أكبر مأوى لحجاج القدس من "المسكوب" أو أهل موسكو، وعليه يقوم اليوم معتقل المسكوبية سيء الذكر، وأراضي جبل أبي طور، وأخيراً ساحة عمر بن الخطاب في البلدة القديمة في القدس.

ويجدر التذكير بأن مقر رئيس دولة الاحتلال، والبيت الرسمي لرئيس الوزراء، ومبنى وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية، والمتحف الإسرائيلي، كلها منشآت رسمية إسرائيلية أُقيمت على أراضٍ تابعة للبطريركية الأرثوذكسية في غربي القدس، وهي أراضي حي النكفورية (الطالبية)، ودير أبو طور، وأبو غوش، ودير الصليب، وسلطات الاحتلال تريد منذ مدة أن تتملكها بصورة نهائية[55].

أما مبنى البرلمان (الكنيست) فقد أقيم على أرض "رحافيا" الواقعة غربي القدس بعد أن استأجرتها "هيئة أراضي إسرائيل" سنة 1952 من الكنيسة الأرثوذكسية، لمدة 99 عاماً، وبحسب العقد الذي أبرمت الصفقة بموجبه فإن لدولة الاحتلال الحق تلقائياً بتمديد مدة العقد. كما أن العقد يمنح رئيس المحكمة العليا في دولة الاحتلال حقّ تعيين

محكّم لوضع شروط تمديد العقد بما يراه مناسباً وبدون الرجوع للبطريركية التي في هذه الحالة عليها الالتزام القانوني بالقبول![56].

تجدر الإشارة إلى أن مجموع هذه الأراضي الواقعة غربي القدس تصل مساحتها إلى 520 دونماً (مبنى البرلمان، ومنزل رئيس دولة الاحتلال، ومنزل رئيس حكومتها، ومبانٍ حكومية وسكنية أخرى)، وتقدر قيمتها بأكثر من نصف مليار دولار. وقد عرض "الصندوق الدائم لإسرائيل" في 2008/5/9 تجديد استئجارها لمدة 999 عاماً بدلاً من 99 عاماً مقابل تسعة ملايين دولار فقط[57].

ومن الأراضي ذات الأهمية العالية التي "استأجرتها" بلدية الاحتلال لمدة 250 عاماً من البطريركية الأرثوذكسية؛ أرض الأنصاري التي تبلغ مساحتها أكثر من 25 دونماً، والواقعة على بعد مئات الأمتار فقط من المسجد الأقصى المبارك، وهي الأرض التي بدأت بلدية الاحتلال مؤخراً بإقامة "حدائق توراتية" عليها، في محاولة تهدف إلى إتمام السيطرة على ما يسمى بـ"الحوض المقدس" لتهويد القدس[58].

كما أنه من المفيد الإشارة إلى أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي صادرت أراضٍ وقفية مسيحية كثيرة قرب العيزرية وأبو ديس، شرق القدس، وهي الأراضي التي أقيمت عليها مستعمرة معاليه أدوميم Ma'ale Adumim الشهيرة، فضلاً عن تحويل بعضها إلى منتزهات وساحات سيارات، كما في أراضي الوقف بباب العمود في شارع الأنبياء في القدس[59].

ويتّهم المسيحيون العرب رئاسة البطريركية صراحة بأنها لم تكن أمينة على أملاك الكنيسة، حيث تمّ اكتشاف عمليات بيع وتأجير أراضٍ كنسية فلسطينية لمدة طويلة إلى السلطات الإسرائيلية منذ قيامها، وخاصة أيام البطريرك "فينادلتوس" في الخمسينيات من القرن الماضي، فضلاً عن مضايقة الشخصيات الوطنية داخل الكنيسة مثل الأب عطا الله حنا.

ويطالب المسيحيون العرب اليوم السلطتين الفلسطينية والأردنية بتعديل القانون الخاص بكنيستهم، بما يتيح رفع الهيمنة اليونانية عنها. وترى سلطات الاحتلال الإسرائيلي اليوم أن من مصلحتها الإبقاء على السيطرة اليونانية على الكنيسة الأرثوذكسية، وبغياب تحرك فاعل يمكنه تغيير واقع السيطرة اليونانية على الكنيسة الأرثوذكسية، فإن الوضع سيبقى خطراً من ناحية بيع أو تأجير أملاك هذه الكنيسة[60].

ومن الجدير بالذكر أن الأردن هو سلطة الوصاية قانوناً على المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس، ذلك أنه عندما فكّ الأردن الارتباط الإداري والقانوني بالضفة الغربية لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1988 لم يشمل ذلك الأوقاف والمقدسات، حرصاً من الأردن على الحفاظ عليها وخدمتها وصيانتها، وبطلب من الجانب الفلسطيني، وعند انتقال السيادة للفلسطينيين على المدينة المقدسة، فستنقل مسؤولية الأوقاف والمقدسات فيها من العهدة الأردنية الهاشمية إلى العهدة الفلسطينية[61].

3. صفقة باب الخليل وضياع الأملاك الأرثوذكسية:

بتاريخ 2005/3/18 كشفت جريدة معاريف Maariv العبرية النقاب عن صفقة سريّة بين الكنيسة الأرثوذكسية ومجموعتين يهوديتين استيطانيتين، تخلت الكنيسة بموجبها عن الأراضي التي يقوم عليها فندق إمبريال Imperial Hotel وفندق البتراء و27 محلاً تجارياً تملكها البطريركية الأرثوذكسية في ساحة عمر بن الخطاب بمنطقة باب الخليل في البلدة القديمة بالقدس.

وفندق إمبريال هذا، عقار عريق، تصل مساحته إلى 1,600 متر مربع وفيه 55 غرفة، وهو من معالم المدينة المقدسة، وتمّ فيه تنظيم الكثير من اللقاءات والفعاليات المهمة، وتديره حالياً عائلة الدجاني منذ سنة 1949، أما الفندق الثاني، فندق البتراء، فهو بإدارة عائلة قرّش[62].

وقد نشرت جريدة معاريف نفسها بتاريخ 2005/4/29 الوثائق الأصلية للصفقة، والتي أظهرت أن بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية إرينيوس الأول Irineos I أجَّر أراضٍ تابعة للكنيسة في القدس المحتلة لجهات يهودية بتاريخ 2004/8/16 لمدة 198 عاماً.

وبعد نشر ذلك الخبر بأيام، وتحديداً في 2005/5/15 ظهرت تفاصيل جديدة تبين أن الشخص الذي سُربت إليه أملاك الكنيسة الأرثوذكسية يُدعى متتياهو دان Mattityahu Dan، وهو ناشط في منظمة عطيرت كوهانيم Ateret Kohanim اليهودية، وقد قام في السنوات الأخيرة بشراء بيوت فلسطينية في الحيين الإسلامي والمسيحي، وفي الأحياء الفلسطينية الأخرى في البلدة القديمة في القدس.

والواضح أن البطريرك إرينيوس الأول، الذي انتخب بطريركاً في 2001/8/13، وجد في التعاون مع الاحتلال سبيلاً لتخفيف الضغط عليه، ولو كان ذلك على حساب أوقاف

الكنيسة الأرثوذكسية وأملاكها التاريخية في القدس. وقد شكلت الرسالة السريّة التي بعث بها رئيس وزراء الاحتلال السابق أريل شارون إليه في 2001/10/1 الحل السحري الذي يمكّنه من الاحتفاظ بموقعه. رسالة شارون كانت تطلب منه بوضوح إقصاء الأرشمندريت عطا الله حنا عن منصبه كمتحدث رسمي باسم الكنيسة الأرثوذكسية الفلسطينية، مقابل الاعتراف الإسرائيلي به، وقد نجحت خطة شارون وبدأ البطريرك إرينيوس الأول بالتنفيذ، فزار الكنيست بتاريخ 2001/10/26 للمشاركة في تأبين خاص أقيم للوزير الصهيوني رحبعام زئيفي Rehavam Zeevi الذي اغتالته المقاومة الفلسطينية، ولدى تصاعد الاحتجاج على تصرفه من قبل الأب عطا الله حنا الناطق باسم الكنيسة، ومروان الطوباسي رئيس اللجنة التنفيذية للطائفة العربية الأرثوذكسية في فلسطين، أقدم البطريرك على إقالة الأب حنا من موقعه بتاريخ 2002/7/3 متخذًا لنفسه مكتباً إعلامياً جديداً، وقد قام هذا المكتب الجديد بإصدار بيانات باسم البطريرك ترفض "العنف الفلسطيني، والعمليات الانتحارية".

بعد هذه السلسلة من الخدمات المجانية، حان موعد القيام بخطوة يكون ثمنها الاعتراف الإسرائيلي بالبطريرك، فكانت الرسالة السرية التي وجهها البطريرك إرينيوس الأول إلى شارون، والتي كُشف النقاب عنها في 2002/8/5 وهي الرسالة التي عرض فيها "شراء أراض وعقارات تابعة للطائفة العربية الأورثوذكسية" مقابل الاعتراف الإسرائيلي به على رأس الكنيسة الأورثوذكسية، وهو ما حصل فعلاً، فما إن وافق البطريرك على بيع فندقين و27 محلاً تجارياً في ساحة عمر بن الخطاب في البلدة القديمة للقدس حتى صدر الاعتراف الإسرائيلي به بعيداً عن الأضواء، حتى لا يثير أي شبهة، وقد بقي الأمر طي الكتمان إلى أن حصلت جريدة معاريف على وثائق البيع ونشرتها في آذار/ مارس 2005 مفجرة قنبلة إعلامية من العيار الثقيل، أطاحت بالبطريرك، وعززت من حضور الرموز الأرثوذكسية الداعية إلى تعريب الكنيسة[63].

تمثلت خطورة هذه الصفقة في كونها تستهدف إيجاد امتداد بين الوجود الاستيطاني اليهودي في تلك المنطقة، والبؤر الاستيطانية الأخرى الموجودة داخل القدس القديمة، وتحديداً في سوق الدباغة، حيث مبنى دير ماريوحنا، وفتح طريق جديدة لليهود المستوطنين باتجاه البلدة القديمة، عدا الطريق القائم حالياً من ناحية الحي الأرمني، وصولاً للحي اليهودي. أسفل الصورة.

البلدة القديمة في القدس



4. التنازل عن الأراضي شرط للاعتراف بالبطريرك:

أطاحت صفقة باب الخليل بالبطريرك إرينيوس الأول في 2006/5/5، الذي حاول الطعن بالقرار أمام محكمة العدل الأردنية العليا، لكنه خسر الدعوى بتاريخ 2005/10/20. انتخب ثيوفيلوس الثالث Theophilos III بطريركاً جديداً في 2005/8/23، وقد تعهد لدى انتخابه أن يحافظ على الأوقاف الأرثوذكسية، وأن يعمل جهده لاسترجاع ما فقدته الكنيسة في عهود أسلافه، ولا سيّما في عهد إرينيوس الأول. وشأنه شأن أسلافه لم يحظَ ثيوفيلوس الثالث باعتراف دولة الاحتلال، ذلك أن السياسة لدى الاحتلال تقوم على المعادلة الآتية: تسهيل تأجير الأراضي الأرثوذكسية وبيع المزيد منها يعني تسهيل صدور الاعتراف الإسرائيلي بالبطريرك وتسريعه.

وتشكّل معاناة ثيوفيلوس الثالث للحصول على الاعتراف به شاهداً واضحاً على صحة المعادلة التي أوردناها أعلاه، فمنذ انتخابه أعلن ثيوفيلوس الثالث أنه غير مكترث بعدم اعتراف سلطات الاحتلال به، لكنه وكأي بطريرك يوناني كان يريد هذا الاعتراف، تماماً كما يريد دوام السيطرة اليونانية على الكنيسة. هذان العاملان أسهما بشكل جدي في توتير علاقة ثيوفيلوس الثالث مع بعض أعضاء المجمع المقدس، ومع المطران عطا الله حنا على وجه التحديد.

في شهر أيار/ مايو 2007 تصاعدت الاحتجاجات ضدّ ثيوفيلوس الثالث، حيث شكّل اجتماع عمّان الذي عقدته أكثر من مئة شخصية أرثوذكسية من الأردن وفلسطين ذروة هذه الحركة، حيث طالب المجتمعون الحكومتين الفلسطينية والأردنية "بسحب اعترافهما بالبطريرك ثيوفيلوس الثالث بسبب فشله بالعمل من أجل إعادة بعض العقارات الأرثوذكسية التي سربت لمستوطنين يهود، ولعدم مساواة رجال الدين العرب أسوة باليونان من حيث الترقية والصعود في السلم الكنسي"[64].

وفي استجابة سريعة لهذا الطلب سحب مجلس الوزراء الأردني بتاريخ 2007/5/12 اعتراف الأردن بثيوفيلوس الثالث، بطريرك الروم الأرثوذكس في القدس والأراضي المقدسة[65]. وبعد شهر واحد على هذا القرار عاد مجلس الوزراء الأردني عن قرار سحب الاعتراف من البطريرك ثيوفيلوس الثالث مبرّراً ذلك "بأنّه قد تأكد للحكومة الأردنيّة إيفاء البطريرك بكل التزاماته التي تعهد بها عند توليه مهامه عام 2005"[66]. ويبدو أن البطريرك عمل بقوة بعد هذا التاريخ على استعادة أملاك صفقة باب الخليل، لكن دون جدوى حتى تاريخ إعداد هذا التقرير.

وعلى خطٍّ موازٍ، فقد سعى ثيوفيلوس الثالث لكسر معادلة الاحتلال القائمة على التفريط بالمزيد من الأملاك مقابل الاعتراف به، وهو ما أعلنه بوضوح في 2007/6/22[67]. كما وصل به الأمر مرة إلى التهديد باللجوء إلى محكمة العدل الدولية للحصول على الاعتراف الإسرائيلي به، وذلك عندما قال: "سألجأ إلى محكمة العدل الدولية، إنهم يحاولون ابتزازي... وقد جعلوني أفهم أنه إذا لم أصادق على صفقات عقارات مع مقربين من الحكم في إسرائيل فلن أحظى بالاعتراف كبطريرك للقدس"[68].

عندما زارت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كوندوليزا رايس Condoleezza Rice فلسطين المحتلة في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2007، اجتمع بها البطريرك

ثيوفيلوس الثالث وشرح لها معاناته، فوعدته بالتدخل لحلّ هذا الموضوع، وبالفعل فقد أوصت اللجنة الوزارية الخاصة لشؤون البطريركية اليونانية الأرثوذوكسية في دولة الاحتلال في 2007/10/28 بالاعتراف ثيوفيلوس الثالث بطريركاً بعد سنتين من الرفض. وبالفعل فقد صدر الاعتراف في 2007/12/16 بعد تدخل أمريكي واضح ومعاناة طويلة، لإفهام البطريرك الجديد أن الكلمة الأخيرة بشأنه هي لـ"إسرائيل"[69].

5. صفقات ومصادرات وحيلٌ أخرى:

قبل أن يفيق المقدسيون من صدمة الصفقة المشبوهة في باب الخليل، كشفت جريدة معاريف العبرية عن صفقة بيع جديدة لمتلكات تعود للطائفة الأرثوذكسية، بمشاركة البطريرك إرينيوس الأول ومساعده نيكولاس باباديميس Nicolas Papadinos، ووفقاً للجريدة فإن الأخير أقام في 2003/9/4 شركة خاصة، وبعد أسبوع ونصف من ذلك وقّع إرينيوس مع الشركة عقداً يتعلق بأرضٍ مساحتها 34 دونماً تملكها البطريركية قرب حي تلبيوت Talpiot في القدس، وقد تمّ تغيير أهداف الأرض مع سلطات التنظيم والبناء الإسرائيلية، وحصل باباديميس على 18% من حقوق البناء أو على مبلغ بقيمة هذه النسبة[70].

ولم يكن هذا كل شيء، فما تزال السياسة المتبعة من قبل سلطات الاحتلال بشأن الأملاك المسيحية هي نفسها، فالمهم هو الحصول على الأرض بغض النظر عن الوسيلة، التي تتنوع بين أن تكون إيجاراً طويل الأمد، أو بيعاً أو مصادرة، أو وضع يد بدعوى جعل الأرض منتزهاً أو موقف سيارات أو غير ذلك.

وعلى الرغم من أن انتخاب البطريرك ثيوفيلوس الثالث قد جعل الوضع أقل سوءاً، من ناحية تسريب الأملاك والأوقاف الأرثوذكسية لليهود، إلا أن عهده شهد الوقائع الآتية:

- في 2006/1/3 قامت مدرسة دينية يهودية "بشراء" عقار تابع للبطريركية الأرثوذكسية في البلدة القديمة للقدس، وادعت البطريركية أن العقد المبدئي كان قد أبرم سابقاً.
- وفي 2006/5/26 كشفت إسبوعية يروشلايم Yerushalayim التي تصدر في دولة الاحتلال عن صفقة جديدة تمس الأوقاف الكاثوليكية التابعة للفاتيكان هذه المرة،

حيث قامت هذه الكنيسة بتأجير 54 دونماً في التلة الفرنسية بالقدس القدس لمدة 999 عاماً، للمستثمر اليهودي موشيه ستولر Moshe Stoller لإقامة المشروع الاستيطاني بروش هجفعاه Brosh Ha'givaa، الذي يتضمن 300 وحدة سكنية. وقد ذكرت يروشلايم أن الصفقة أبرمت قبل أربعة أعوام، ولكن الإعلان عنها الآن جرى في أعقاب دعوى قدمها السمسار الصهيوني جيل نفتالي Gil Naftali ضدّ شركة كيم لوستيغمان Kim Lustigman التي تقيم المشروع، لأنه لم يأخذ نصيبه من الصفقة بعدما "أمّنها" من المؤسسة الكنسية "الآباء البيض" مالكة العقار[71].

- وفي 2007/11/15 كشفت محاكمة المستوطنَين اليهوديين؛ يعقوب رابينوفيتش Jacob Rabinowitz وديفيد مورغنشتاين David Morganstein، بتهمة بيع أراضٍ وهمية، أن الرجلين أجّرا أراضٍ عائدة للبطريركية الأرثوذكسية في القدس، مساحتها أكثر من 500 دونم للصندوق الوطني اليهودي (مؤسسة شبه حكومية مكلفة بشراء أراضٍ في القدس) بقيمة 20 مليون دولار، من خلال عملية احتيال بالتواطؤ مع البطريرك السابق إرينيوس الأول، أو أحد مساعديه[72].
- وفي 2008/6/6 أعلنت شركة "إفريقيا – إسرائيل" عن استئجار الشركة لأرض تملكها كنيسة السريان الأرثوذكس (يتخذ بطريرك كنيسة السريان الأرثوذكس من دمشق مقراً له) في شارع الأنبياء بالقدس حتى منتصف القرن 21، وينص مشروع البناء على إقامة مبنيين بتسعة طوابق يتضمنان 102 من الوحدات السكنية بالإضافة إلى المرافق الخاصة بالمشروع[73].
- وفي 2008/6/17 أعلنت بطريركية الروم الأرثوذكس عن تحقيقها "انتصاراً" في معركتها الدائرة منذ ثلاثة أعوام، بعدما انتزعت أمراً قضائياً من إحدى محاكم الاحتلال، يمنع بلدية الاحتلال في القدس من وضع يدها على قطعة أرض تعود ملكيتها للبطريركية في منطقة وادي حلوة، بضاحية سلوان، جنوب المسجد الأقصى المبارك[74]. لكن ما وصف بالانتصار تبدد سريعاً عندما أصدرت محكمة الصلح التابعة لدولة الاحتلال في مدينة القدس قراراً نهائياً بتاريخ 2008/7/1 مكّنت فيه بلدية القدس تحويل الأرض المذكورة (رقم 39 حوض 30125) إلى موقف سيارات مجّاني لسكان المنطقة المجاورة، وذلك استناداً لقانون "التصرف المؤقت" الصادر عن برلمان دولة الاحتلال سنة 1987، والذي يمنح بلدية الاحتلال

في القدس حقّ استخدام أي قطعة أرضٍ داخل المدينة للصالح العام دون المساس بملكيتها![75].

- وفي 2009/7/25 حاولت بلدية الاحتلال في القدس مصادرة نسبة كبيرة من أرضٍ تابعة لأملاك بطريركية الروم الأرثوذكس، مساحتها 43 دونماً بالقرب من قريةً بيت صفافا، جنوب مدينة القدس، بهدف "توسيع الشوارع وإقامة مرافق عامة"، لكن البطريركية تدخلت قضائياً فتأجل تنفيذ المشروع[76].

خامساً: اعتداءات مباشرة على الأملاك والأوقاف والمقدسات المسيحية:

منذ الاحتلال الإسرائيلي سنة 1967، للشطر الشرقي من القدس والضفة الغربية، تعرضت الأملاك والأوقاف والمقدسات المسيحية ورجال الدين المسيحي، ككل شيء آخر في القدس، للعديد من الاعتداءات والانتهاكات الإسرائيلية. وقد مسّت تلك الاعتداءات الكنائس والأديرة، كما انتهكت الحقوق اللصيقة بالإنسان، وقد تراوحت بين منع الصلاة، عبر منع المسيحيين الفلسطينيين من دخول القدس، وبين انتهاك حرمة الكنائس وسرقة محتوياتها.

ومن وقت لآخر يقوم رجال الشرطة والمستوطنون اليهود بالاعتداء على رجال الدين المسيحيين بالضرب والإهانة والشتم والبصق، في طرقات القدس وفي الكنائس! وقد حدث هذا أكثر من مرة، لا سيّما أثناء احتفال السريان بعيد الفصح، واحتفال الأقباط بأعيادهم[77].

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد اعتدت سلطات الاحتلال بتاريخ 2008/4/27 على المصلين المسيحيين ومنعتهم من الوصول إلى كنيسة القيامة لتأدية شعائرهم الدينية. كما أقدم مستوطن في 2008/10/28 على اقتحام كنيسة القيامة، واعتدى على عدد من الرهبان، وحطم عدداً من الصلبان الخشبية في أحد المحلات التجارية السياحية الملاصقة لكنيسة القيامة[78]. كما حصل اشتباك في 2009/4/18 بين فلسطينيين في محيط كنيسة القيامة وشرطة الاحتلال أثناء الاحتفال بـ"سبت النور"، بسبب محاولة سلطات الاحتلال منع الفلسطينيين المسيحيين من الدخول إلى الكنيسة، والسماح بدخول السياح الأجانب فقط[79].

وفي السياق عينه فإن تطاول القناة العاشرة في دولة الاحتلال على السيد المسيح والسيدة مريم العذراء في شهر شباط/ فبراير 2009 ما زال حاضراً، لكونه شكّل إساءة، ليس فقط للمسيحيين في القدس أو فلسطين، وإنما إلى الديانة المسيحية في جميع أنحاء العالم.

وفي مجال الاعتداء المباشر على الأوقاف ودور العبادة المسيحية، يُذكر أن الصهاينة احتلوا كنيسة نوتردام دوفرانس Notre Dame de France في القدس سنة 1948 لاستخدامها قاعدة لهجماتهم، وأن بطريرك اللاتين اضطر إلى إصدار أمر بإغلاق ثلاث كنائس في القدس بسبب انتهاكها ووقوع سرقة فيها سنة 1967، وأن ثلاثة من الصهاينة أقدموا على سرقة تاج السيدة العذراء في القدس، وبعد أن اتضح أمر هذه الجريمة أعاد الصهاينة التاج بعد سرقة لآلئ ثمينة منه. كما أنهم اعتدوا على دير الأقباط في القدس سنة 1970، وأحرقوا سنة 1973 المركز الدولي للكتاب المقدس على جبل الزيتون ثمّ أتبَعوا ذلك في العام التالي بإحراق أربعة مراكز مسيحية في القدس، وشنّوا حملة اعتداءات واسعة النطاق على المقدسات الإسلامية والمسيحية، من خلال زرع قنابل موقوتة في دور العبادة، منها كنيسة للروم سنة 1983. بالإضافة إلى أن سلطات الاحتلال قامت بتجريف قبور في ساحة كنيسة السيدة مريم في كنيسة الجثمانية بالقدس، وذلك لتعبيد طريق فوقها، وقد تمّ هذا الإجراء دون إعلام ذوي الموتى ليقوموا بنقل رفات موتاهم[80].

يذكر أيضاً أن مندوب منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) The United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (UNESCO)، المفوض العام بالعمل على حماية الممتلكات والآثار الثقافية في البلدان العربية، التي تعرضت للعدوان الإسرائيلي سنة 1967، قد أعلن سنة 1967، قائلاً: "إن السلطات الإسرائيلية اعترفت بضرب ممتلكات الأديرة وكنيسة القديس جورج وأسوار القدس بالقذائف"[81].

وفي إطار التضييق على المسيحيين أصدرت محكمة إسرائيلية قراراً في 2006/5/18 بعدم دخول أبناء الناصرة من الأرثوذكس إلى ملكهم المؤجر التابع للكنيسة الأرثوذكسية في "تلة نكفورية" غربي القدس.

وفي 2009/4/29 أصدرت بلدية الاحتلال في القدس أوامر هدم أبنية في بطريركية الأرمن الكاثوليكية في البلدة القديمة من القدس، الواقعة على طريق الآلام (المرحلتين

الثالثة والرابعة)، وهي مبانٍ يعود بناؤها إلى أكثر من 150 عاماً، مقامة على أرض مسجلة باسم ملك بلجيكا. وفي اليوم نفسه صدر قرار هدم مبنى صغير في دير مار يوحنا المعمدان للأرمن الأرثوذكس، وهو الدير الواقع في الحي المسيحي داخل البلدة القديمة للقدس.

وإضافة إلى ذلك فقد تعرضت بعض الأماكن الدينية المسيحية للحريق المتعمد؛ مثل حريق الكنيسة المعمدانية في غربي القدس في 2007/10/24، بعد حريقها الأول سنة 1982[82]، وغير ذلك كثير.

خاتمة:

إن الاحتلال الإسرائيلي، كما هو معروف عنه، لا يأبه للآخرين عندما يمضي في مشروعه. ومشروعه المعلن أن تكون القدس عاصمة أبدية لـ"دولة إسرائيل"، وهو يعلم أن الأرض ليست له، وأن أكثرها وقف، لذا فإنه يسعى بكل الوسائل لانتزاع هذه الأرض من أصحابها الأصليين.

ولعل أهم ما أشارت إليه هذه الدراسة المقتضبة، هو حقيقة أن الأراضي في القدس أكثرها تابعة للكنيسة، وتحديداً الأرثوذكسية، وهذا يعني أن من أراد المحافظة على القدس، عليه أن يحمي هذه الأوقاف الأرثوذكسية من التسرب إلى سلطات الاحتلال والمستوطنين.

المسؤولية في هذا المجال تقع على الفلسطينيين بالدرجة الأولى، وتحديداً على المسيحيين منهم، إذ يجب عليهم مواصلة الضغط لإصلاح الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وتحصينها بوجه الضغوط الصهيونية عليها، فالأرض في النهاية هي أرض فلسطينية، سواء كانت مملوكة للأوقاف الإسلامية أم المسيحية، وواجب الحفاظ عليها ينطلق من واجب الحفاظ على أرض فلسطين.

هوامش الفصل الخامس

[1] تقول الروايات المسيحية أنه انعقد ما بين سنة 51-55 للميلاد أول مجمع يجمع بين الحواريين (أتباع السيد المسيح) في القدس برئاسة يعقوب بن يوسف النجار، ويعدّ الأرثوذكس كنيستهم هي أم الكنائس كلها، ويعدّون أن وجودها سابق على انقسام مرحلة الكنيسة. انظر: http://www.holylight.gr/patria/enpatria.html

[2] مؤسسة القدس الدولية، **القدس: حصاد الأربعين** (بيروت: مؤسسة القدس الدولية، 2008)، ص 40؛ وانظر أيضاً: ياسر البنا، الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين... استعمار يحتاج لتعريب، إسلام أون لاين، 2005/5/17، في: http://www.islamonline.net/arabic/arts/2005/05/article09.shtml

[3] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 141.

[4] **المرجع نفسه**، ص 142-143.

[5] حسن مصطفى خاطر، **موسوعة القدس والمسجد الأقصى المبارك** (القدس: مؤسسة الرسالة بإشراف المجلس العلمي الفلسطيني، 2004)، ج 2، ص 249 وما بعدها؛ أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 3، ص 615.

[6] حسن خاطر، **موسوعة القدس**. ج 2، ص 261.

[7] **المرجع نفسه**، ص 262.

[8] **المرجع نفسه**، ص 263؛ ومؤسسة القدس الدولية، **القدس: معالم البلدة القديمة** (بيروت: مؤسسة القدس الدولية، 2007)، ص 21.

[9] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 264؛ ومؤسسة القدس الدولية، **القدس: معالم البلدة القديمة**، ص 22.

[10] **المراجع نفسها**.

[11] **المراجع نفسها.**

[12] **المراجع نفسها**.

[13] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 262؛ ومؤسسة القدس الدولية، **القدس: معالم البلدة القديمة**، ص 23.

[14] **المراجع نفسها**.

[15] **المراجع نفسها**.

[16] **المراجع نفسها**.

[17] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 262؛ ومؤسسة القدس الدولية، **القدس: معالم البلدة القديمة**، ص 24.

[18] حسب حديث للباحث مع الدكتور عبد الله معروف، ابن القدس والباحث في شؤونها.

[19] المرجع نفسه.

[20] المرجع نفسه.

[21] المرجع نفسه.

[22] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 278.

[23] **المرجع نفسه**، ص 277؛ وصقر أبو فخر، الأرمن في فلسطين - شعب واحد ونكبتان، موقع آزاد هاي نت (الأرمني)، 2006/3/12، انظر: http://www.azad-hye.net/article/article_view.asp?rec=34

[24] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 277؛ وصقر أبو فخر، الأرمن في فلسطين.

[25] **المراجع نفسها**.

[26] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 277.

[27] **المرجع نفسه**؛ وصقر أبو فخر، الأرمن في فلسطين.

[28] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 279.

[29] **المرجع نفسه**، ص 246.
[30] مؤسسة القدس الدولية، **القدس: معالم البلدة القديمة**، ص 27.
[31] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 246.
[32] **المرجع نفسه**، ص 280.
[33] **المرجع نفسه**، ص 269.
[34] **المرجع نفسه**، ص 246.
[35] **المرجع نفسه**.
[36] مؤسسة القدس الدولية، **القدس: معالم البلدة القديمة**، ص 29.
[37] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 281.
[38] Gethsemane and Church of All Nations, Jerusalem, in:
http://www.atlastours.net/holyland/gethsemane_and_church_of_all_nations.html
[39] Church of St. John the Baptist, Jerusalem, in:
http://www.sacred-destinations.com/israel/jerusalem-church-of-st-john-the-baptist.htm
[40] Chapel of the Ascension, Jerusalem, in:
http://www.sacred-destinations.com/israel/jerusalem-chapel-of-ascension.htm
[41] CHURCH OF SAINT MARY MAGDALENE, in:
http://www.christusrex.org/www2/baram/B-magdalene.html
[42] حسن خاطر، **موسوعة القدس**، ج 2، ص 263.
[43] **المرجع نفسه**، ص 264.
[44] **المرجع نفسه**.
[45] **المرجع نفسه**، ص 265.
[46] **المرجع نفسه**.
[47] **المرجع نفسه**، ص 266.
[48] ياسر البنا، الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين.
[49] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 1، ص 142.
[50] رؤوف سعد أبو جابر، **الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004)، ص 54.
[51] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 1، ص 143.
[52] محمد سلامة ذنيبات، دراسة حول أوضاع الكنيسة الأرثوذكسية، جريدة **الغد**، عمّان، 2005/8/19.
[53] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 1، ص 143.
[54] رؤوف أبو جابر، **الوجود المسيحي في القدس**، ص 55.
[55] http://www.rcja.org.jo/israel5.htm
[56] جريدة **الحياة الجديدة**، رام الله، 2008/4/13.
[57] جريدة **هآرتس**، تل أبيب، 2008/5/9.
[58] **الحياة الجديدة**، 2008/8/6.
[59] اللجنة الملكية لشؤون القدس، الجرائم والاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات، انظر:
http://www.rcja.org.jo/israel5.htm
[60] ياسر البنا، الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين.
[61] رؤوف أبو جابر، **الوجود المسيحي في القدس**، ص 160.
[62] مقابلة مع أبو الوليد الدجاني، مدير فندق إمبريال، موقع مركز الإعلام والمعلومات الفلسطيني، 2005/3/20، انظر: http://www.mic-pal.info/reportdetails
[63] زياد محمد، **كتاب القدس السنوي** (بيروت: مؤسسة القدس الدولية، 2007)، الفصل الثاني، ص 10-14.
[64] **الحياة الجديدة**، 2007/5/11.

[65] وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا)، رام الله، 2007/5/13.
[66] **الحياة الجديدة**، 2007/6/11.
[67] وكالة وفا، 2007/6/23.
[68] **الحياة الجديدة**، 2007/10/6.
[69] جريدة **القدس**، 2007/12/16.
[70] زياد محمد، **كتاب القدس السنوي**، الفصل الثاني، ص 18-19.
[71] **المرجع نفسه**، ص 19.
[72] انظر: **الحياة الجديدة**، 2007/11/15. وقد تمّ إدانة المستوطنين مع مستوطن ثالث بتاريخ 2008/3/31.
[73] جريدة **القدس**، 2008/6/6.
[74] **الحياة الجديدة**،2008/6/17.
[75] جريدة **القدس**، 2008/7/1.
[76] جريدة **الشرق الأوسط**، لندن، 2009/7/25.
[77] اللجنة الملكية لشؤون القدس، الجرائم والاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات المسيحية.
[78] جريدة **القدس**، 2008/10/29.
[79] **الحياة الجديدة**، 2009/4/19.
[80] نافذ أبو حسنة، الاعتداء على المقدسات المسيحية، موقع المركز الفلسطيني للإعلام، انظر: http://palestine-info.info/arabic/books/beet_maqdes/maqdes25.htm
[81] اللجنة الملكية لشؤون القدس، الجرائم والاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات المسيحية.
[82] جريدة **العرب**، الدوحة، 2007/10/25.

الفصل السادس

المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس

(الجذور التاريخية والتحديات الصهيونية)

المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس

د. سلامة الهرفي البلوي

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن القدس حبل وريد الأمة، وعاصمة وعيها، ورمز عزتها، ومأزر طائفتها المنصورة إلى يوم الدين، وقبل هذا وذاك هي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومنتهى مسرى المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومنطلق معراجه إلى سدرة المنتهى، ومدينة الأنبياء التي درج على ثراها إبراهيم وإسماعيل وإسحق وداود وسليمان وزكريا ويحيى عليهم السلام، وفيها تكلم عيسى في المهد، ونزلت عليه مائدة من السماء، ومنها رفع وإليها يعود في آخر الزمان[1]. لذا، وضعتها الأمة بين أهداب العيون، وفدتها بالمال والبنين، وتغنى بعشقها الشعراء، ورقصت بذكرها قلوب الزهاد والمتبتلين، فكانت محجاً للعلماء، وقبلة لطلبة العلم، وموطناً للزهاد والمرابطين على مرّ فترات التاريخ[2].

إن الحديث عن المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس إبان الحكم الإسلامي يقدم لنا تجربة فريدة في مجال التعايش بين الأديان السماوية الثلاثة، فلأول مرة في تاريخ المدنية الطويل تجاورت المساجد مع الكنائس النصرانية والكنس اليهودية في جو من المحبة والسلام، ولأول مرة في التاريخ أيضاً فتحت هذه المدينة المقدسة ذراعيها لكل الأجناس والأديان والطوائف للعيش فيها وممارسة شعائرهم بكل حرية.

لقد عاش في المدينة المقدسة عشرات الأجناس والطوائف والمذاهب والأديان والفرق، فكان هناك المسلمون بمذاهبهم الفقهية المتعددة، فضلاً عن أكثر من سبعين طريقة صوفية، وكان هناك الأرمن، والسريان، والأقباط، والأحباش، والموارنة، واليونان، والطليان، والروس، والإسبان، والعرب، والبربر، والفرس، والهنود، والأكراد، واليهود، والكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، لا بل لا يكاد صقع من أصقاع العالم إلا ومنه مجاورين في القدس ولهم فيها أوقاف تعليمية، فأي تعايش وتواصل وتعاون بين الأديان والأجناس مثل هذا؟ وأي تسامح وعدالة عاشتها المدينة تحت راية الإسلام؟.

ولعل التعايش يصل ذروته عندما يعهد النصارى للمسلمين بالإشراف على أقدس وقفية عندهم، ألا وهي كنيسة القيامة، حيث اتفق النصارى منذ 800 عام وحتى اليوم على إسناد مهمة الإشراف على هذه الكنيسة لأسرتين مسلمتين، هما: أسرة نسيبة وأسرة آل جودة، إذ تحتفظان بمفتاح الكنيسة وتقومان بفتحها والإشراف على شؤونها العامة.

إن الحديث عن المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس في هذه اللحظة التاريخية التي تتعرض فيها القدس لأشرس عملية نهب لتراثها، ومسخ لهويتها، وتزييف لتاريخها من قبل الصهاينة المحتلين؛ هو حديث عن معقل من معاقل الصمود والتحدي، ورمز من رموز شموخ الأمة أمام الظلم والطغيان، إنه حديث عن الجذور العربية الإسلامية للمدينة المقدسة الضاربة في أعماق التاريخ، تلك الجذور التي استعصت على كل أشكال الاجتثاث والاستئصال، واستمرت تمد عروق الأمة بالعزة والتضحية، وتبعث الأمل والهمة في الأجيال جيلاً بعد جيل.

إن التاريخ يحدثنا بأن حال القدس هو تجسيد لحال الأمة، فإذا كانت القدس بخير فالأمة بخير، وإذا كانت أسيرة فالأمة كلها كسيرة، لا بل إن الموقف من قضية القدس هو الذي يشير إلى إخلاص هذا وخيانة ذاك، فمن خانها خان الدين والأمة ومن نصرها نصر الدين والملة. كما يحدثنا التاريخ أيضاً بأن جرح القدس كان دوماً هو المحرك ليقظة الأمة، والدافع لمراجعة حساباتها، وتلمس مواطن التقصير، وتلافي عوامل الوهن والضعف والفرقة، فكما قال الشاعر الياس أبو شبيكة:

رب جرح قد صار ينبوع شعر   تلتقي عنده النفوس الظوامي

إن هذه الدراسة تهدف إلى سبر غور تجربة المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس، والحفر في مكوناتها وآلياتها التي تسمح في تفعيلها وإعادة الاعتبار لها، واستحضارها فكراً وتصوراً عند الحديث عن واقع المؤسسات التعليمية في القدس اليوم، مما يجعلنا أكثر وعياً للتحديات التي تواجهها، والعوائق التي تعترضها؛ من أجل تذليلها من خلال الاستفادة من الدرس التاريخي، إذ لا تستقيم صورة الحاضر إلا بالماضي، ولا ينبني المستقبل إلا بهما معاً. وبعبارة أخرى، جاءت هذه الدراسة محاولة متواضعة لاستنطاق تجربة القدس في مجال المؤسسات التعليمية والمكتبات، واستحضار عناصرها المؤثرة في مسيرة الأمة منذ أن فتحها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحتى اليوم على سبيل الإجمال والاختصار، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

س 1: هل كانت القدس، كما يدعي الصهاينة ومن حذا حذوهم، مهملة ومهمشة طوال القرون الأولى حتى أعاد لها صلاح الدين الأيوبي الاعتبار بعد تحريرها من الصليبيين؟

س 2: ما الدور الحضاري الذي قامت به المؤسسات التعليمية والمكتبات للحفاظ على الهوية العربية الإسلامية للمدينة المقدسة؟

س 3: هل توجد علاقة بين الوقف وازدهار المؤسسات التعليمية في القدس؟

س 4: ما أبرز التحديات التي تواجهها المؤسسات التعليمية في القدس اليوم؟ وما هي ملامح المشروع الصهيوني في "أسرلة" تلك المؤسسات؟

س 5: كيف يمكننا أن نسهم في دعم المؤسسات التعليمية في القدس؟

وقد جاءت الإجابة عن هذه التساؤلات في خمسة مباحث؛ تناول الأول منها تاريخ المؤسسات التعليمية في القدس، حيث تمّ تسليط الضوء على خصائص تلك المؤسسات، وأهم مخرجاتها. وأُفْرِدَ المبحث الثاني للواقع المأساوي للمؤسسات التعليمية في القدس اليوم، من خلال التركيز على وضع المباني المدرسية والغرف الصفية، وأوضاع المعلمين والطلبة، ومشروع "أسرلة" المؤسسات التعليمية والمتاحف إلى جانب نهب المخطوطات. وتحدث المبحث الثالث عن تاريخ المكتبات العربية العامة والخاصة ومكتبات المدارس والزوايا، وجُعِل المبحث الرابع لمكتبات الأديرة والكنائس والنوادي والجمعيات، وخُصِّص المبحث الأخير لنظام المكتبات، حيث سلط الضوء على الجهاز الإداري والفني للمكتبات، ونظام الاطلاع والاستعارة، ونظام التزويد، وقد ذيلت الدراسة بأهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها الدراسة.

أولاً: المؤسسات التعليمية:

1. لمحة عن تاريخ المؤسسات التعليمية في القدس:

لقد دأب الصهاينة، ضمن مشروعهم الهادف لتزييف الوعي العربي والإسلامي والعالمي بشأن مكانة القدس في الوجدان العربي والإسلامي، ومركزيتها في الفعل الحضاري للأمة؛ إلى ترويج شبهة مفادها بأن القدس لم تكن في بؤرة اهتمام الأمة في القرون الهجرية الخمسة الأولى، بدليل أن التأليف في فضائلها لم يظهر إلا بعد أن حررها

صلاح الدين الأيوبي من أيدي الصليبيين سنة 583هـ/1187م حيث ازدهرت المؤسسات التعليمية والأوقاف التي تغذيها وتساندها في أداء مهامها[3]، فهل تستقيم وتثبت هذه الدعوى أمام حقائق التاريخ؟.

إن القدس في الوجدان الحضاري الإسلامي ليست ككل المدن فحبها عبادة، وزيارتها سُنّة، والدفاع عنها فرض، والإيمان بعروبتها وحق المسلمين فيها عقيدة عند كل مسلم ومسلمة، فكيف يعقل أن تهمش طوال 500 سنة؟.

لقد فضح القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب التفسير والفقه والتاريخ والرحلة هذا الزور والبهتان، وأوضحت هذه المصادر بأن القدس كانت عروس المدائن، وبؤرة الاهتمام، ومحل الاحترام والتبجيل عند الأمة أفراداً وحكاماً، وأي شرف بعد شرف تكريم رب العزة لهذه المدينة بجعل اسمها قرآناً يتلى آناء الليل وأطراف النهار فقال تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء: آية 1)، وأي تقدير أكثر من أن تتحول زيارة هذه المدينة إلى لون من ألوان الطاعة والعبادة حيث قال صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى المسجد الأقصى وإلى مسجدي هذا"[4]، كما أن الإقامة فيها لون من ألوان الرباط في سبيل الله. فكيف تكون مهمشة وكتب التفسير والحديث والفقه قد أسهبت في الحديث عن فضلها وأجر الصلاة في مساجدها، وأحكام الإقامة فيها والإهلال للحج منها والمرابطة فيها.

وأي شرف لهذه المدينة أكثر من زيارة الخليفة الراشدي الثاني عمر رضي الله عنه لها مع كبار الصحابة، أمثال: أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وبلال بن رباح، وخالد بن الوليد، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأبو هريرة، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً، حتى أن كتب التراجم أحصت أكثر من 44 صحابياً زاروا القدس. واستمر تقاطر الصحابة والتابعين وعلماء الأمة وزهادها لزيارة القدس والإقامة فيها، فأوقفوا الأوقاف، وأنشأوا المرافق، وتركوا بصماتهم الثقافية والإنسانية التي ما يزال بعضها قائماً إلى يومنا هذا[5].

لقد كانت القدس محور اهتمام حكام المسلمين منذ أن فتحها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمنها أعلن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خلافته، وفيها تمت مبايعة

الخليفة سليمان بن عبد الملك بالخلافة، وتحت قبة الصخرة المشرفة كان عمر بن عبد العزيز يحاسب عماله، وعلى بناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة أنفق عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك الأموال الطائلة لتكون تلك المساجد منارات علم تشع على العالم الإسلامي، كما زارها من خلفاء الدولة العباسية: أبو جعفر المنصور والخليفة المهدي والمأمون[6]، وكل ذلك كان في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، فأين الإهمال والتهميش؟!.

أما بالنسبة لجهود علماء الأمة في خدمة تاريخ هذه المدينة المقدسة فهي كثيرة ومتعددة الجوانب والاهتمام، ولعل تفسير مقاتل بن سليمان ت 150هـ/767م من أقدم التفاسير التي تعرضت لذكر مدينة القدس عند تفسير سورة الإسراء. ويُذْكَر أن العلامة الرملي، الوليد بن حماد من أعيان القرن الثالث الهجري، قد كتب كتاباً في فضائل القدس. كما توسع المقدسي، محمد بن أحمد ت 380هـ/990م صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" من أعيان القرن الرابع الهجري في الحديث عن بيت المقدس. ثمّ هناك أبو المعالي المشرف بن المرجى بن إبراهيم الذي كتب في منتصف القرن الخامس في فضائل القدس، وقتل العلامة الرملي، أبو القاسم على يد الصليبيين عندما دخلوا القدس سنة 492هـ/1099م قبل أن يتمّ كتابه عن تاريخ القدس وفضائله[7].

وقد بلغ التأليف في فضائل القدس ذروته في القرن السادس الهجري بعد تحرير صلاح الدين الأيوبي للمدينة من براثن الغزاة الصليبيين سنة 583هـ/1187م، وهذا شيء طبيعي لأن الاحتفاء بهذا التحرير يقتضي تخليد فضائل تلك المدينة التي بذلت المهج والأرواح من أجل تحريرها، ومن أبرز تلك المؤلفات: فضائل القدس، لابن الجوزي ت 597هـ/1201م، والجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، لابن عساكر القاسم بن علي بن الحسين ت 600هـ/1204م، ومفتاح المقاصد ومصباح المراصد في زيارة بيت المقدس للقرشي عبد الرحيم بن علي ت 625هـ/1228م، وفضائل بيت المقدس، للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي ت 643هـ/1246م وباعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، لابن الفركاح إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري ت 729هـ/1329م، ومثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، للمقدسي أحمد بن محمد بن سرور ت 795هـ/1393م، وإتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى للسيوطي شمس الدين محمد، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين العليمي الحنبلي عبد الرحمن بن محمد ت 928هـ وغيرها[8].

وأخيراً فإن كتب التراجم تحفل بأسماء عشرات العلماء وأعيان الأمة الذين لم ينقطعوا عن زيارة القدس في القرون الخمسة الأولى، ناهيك عن عشرات المنجزات الحضارية التي أقاموها وما يزال بعضها قائماً حتى اليوم، وهذا كله يدحض دعاوى المغرضين بشأن مكانة القدس في وجدان الأمة وتاريخها منذ أن دخلت في عهدة المسلمين.

2. خصائص المؤسسات التعليمية في القدس:

إن المتأمل لتاريخ المؤسسات التعليمية في القدس في حقب التاريخ الإسلامي المتعاقبة يخلص إلى رسم مجموعة من الخصائص التي انفردت بها هذه المؤسسات، بل وتميزت بها عن كثير من المدن الإسلامية، ومن أبرز تلك الخصائص:

أ. عالمية المؤسسات التعليمية:

لقد أصبحت القدس بعد الفتح الإسلامي موئلاً للقراء ورواة الحديث الشريف، ومقراً للزهاد وطلاب العلم، ومزاراً للتقاة؛ فقصدها المسلمون من كل حدب وصوب لطلب العلم أو المجاورة أو الزيارة، وبعد بناء المسجد الأقصى فيها وفد إليها طلبة العلم للدراسة في مدارسها، من مراكش حتى السند ومن سمرقند إلى مصر، فمن علماء القرن الخامس الهجري على سبيل المثال: الكازروني (فارس)، والصاغاني (مرو)، وإسماعيل بن علي الاسترابادي (جرجان)، وأبو الحسن البصري (البصرة)، وقد ذكر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أنه كان في المسجد الأقصى في أواخر القرن الخامس الهجري 360 عالماً يدرس فيه.

ومن علماء القرن السادس: محمد بن الوليد الطرطوشي (طرطوشة – الأندلس)، وأبو بكر محمد بن أحمد الشاشي (الشاش – بلاد ما وراء النهر، طشقند اليوم)، وأبو حامد الغزالي (طوس – أوزبكستان اليوم)، وأبو بكر بن العربي (الأندلس)، وأبو عبد الله الديباجي العثماني (مكة)، وضياء الدين بن عيسى الهكاري (الموصل)، وابن جهبل، مجد الدين طاهر (حلب)، وياسين بن سهل القابسي الخشاب (قابس – تونس).

ودرس في مدارس القدس من علماء القرن السابع الهجري، ابن جماعة، برهان الدين إبراهيم (حماة)، وأبو عبد الله محمد العبدري (المغرب)، وعبد الرحيم بن عمر الباجريقي، وشهاب الدين محمد خليل الخويي (أذربيجان)، وابن انقيب، محمد بن سليمان بن الحسن (بلخ – أفغانستان)، ورشيد الدين الصوري (صور – لبنان)، وابن عساكر عبد الرحيم محمد بن الحسين (دمشق).

ووفد إلى القدس من الحبشة العلامة الزيلعي، ومن بخارى العلامة البخاري، محمد بن بهاء الدين وذلك في القرن الثامن، وهكذا استمر تدفق الطلبة والعلماء من كل أرجاء العالم الإسلامي إلى القدس في القرون التالية، مما أكسب معاهدها العلمية ومدارسها صبغة العالمية[9].

وفي المقابل كانت القدس أيضاً مهوى لأفئدة العديد من النصارى من مدن الشرق المختلفة، حيث كانوا يقصدونها لزيارة كنيسة القيامة وكنيسة المهد والأماكن المقدسة في فلسطين[10].

ولعل مسميات مدارس القدس تشي أيضاً بعالميتها لأنها تصرح بأسماء من أسسوها من أبناء العالم الإسلامي، فهناك المدرسة الصلاحية، والأشرفية، والفارسية، والموصلية، والعثمانية والخاتونية، والدوادارية، والطيلونية، والظافرية، والتنكزية، وغيرها[11].

ب. وقفية المؤسسات التعليمية:

إن المؤسسات التعليمية في القدس كانت مؤسسات وقفية تزدهر بازدهار الوقف وتضعف بضعفه، فنظام الأوقاف كان يمثل العمود الفقري لتلك المؤسسات. ولعل المتأمل لوثائق المتحف الإسلامي في القدس يجد 750 وثيقة معظمها وقفيات أوقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والثقافية[12]، كما ويدلنا سجل الأراضي العثمانية رقم 602 أنه يوجد 28 قرية منها 22 قرية تابعة لغزة و14 مزرعة وحمام ودكاكين ومعصرة وخان وفرن بغزة كانت كلها موقوفة من قبل السلطان المملوكي "قايتباي" على المدرسة الأشرفية التي تقع في الرواق الغربي لحرم بيت المقدس، لا بل إن هناك من يذكر أن هناك 52 عقاراً كان موقوفاً على هذه المدرسة[13].

ومن المدارس التي كانت غنية بأوقافها: المدرسة الفارسية، والمدرسة التنكيزية، والمدرسة الداودارية؛ حيث كانت قرى طولكرم، وبيت نبالا، وحجلا، وطبرس، وعين قينية قرب رام الله، إلى جانب العديد من الخانات والطواحين والدكاكين موقوفة عليها[14]. وهناك أيضاً المدرسة الصلاحية التي أوقف عليها صلاح الدين الأيوبي أوقافاً سخية كان منها سوق العطارين في القدس، ووادي سلوان، وحمام عام وخان وبئر أيوب وقرية نعليا وغيرها[15].

وتكاد معظم أرض فلسطين أن تكون وقفاً على المؤسسات التعليمية، وعلى رأسها المسجد الأقصى، حيث كان ينفق من هذه الأوقاف، على سبيل المثال في سنة 1058هـ/1648م، على 240 محراباً وسبع مدارس للحديث وعشر للقرآن وأربعين مدرسة وخانقاه لسبعين مدرسة صوفية، فضلاً عن 800 إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس، وخمسين مؤذناً، وعدد كبير من مرتلي القرآن الكريم للمصاحف الموقفة على الأقصى، والتي منها: ربعة سلطان المغرب أبو الحسن المريني، الذي عين لقراءتها عندما أوقفها سنة 745هـ/1344م صباح كل يوم 18 نفساً منهم 15 من حفاظ القرآن الكريم، على أن يكونوا من المغاربة المالكيين وخادمين من المسلمين وأوقفت على ذلك عدة مرافق في مدينة الرملة الفلسطينية[16].

في حين أحصى مؤرخ القدس وقاضيها مجير الدين العليمي الحنبلي مدارس القدس في سنة 900هـ، فبلغت ما يزيد على الخمسين يأتي على رأسها المدرسة الصلاحية والتنكزية والأشرفية، أما الرحالة التركي أوليا جلبي الذي زار القدس سنة 1081هـ/1671م فذكر أنه وجد أربعين مدرسة، وعشر دور للقرآن الكريم، وسبع دور للحديث، و18 سبيلاً[17].

لقد قدمت أوقاف القدس التعليمية خدماتها لشريحة كبيرة من الطلبة من مختلف أرجاء المعمورة، من المغرب حتى السند ومن سمرقند إلى مصر، فضلاً عن بلدان أوروبا المختلفة فكانت بحق عالمية في أهدافها إنسانية في خدماتها.

ولعل وقف تكية خاصكي سلطان الذي أوقفته زوجة السلطان سليمان القانوني سنة 959هـ/1551م من أهم الأوقاف الخيرية في فلسطين على العموم والقدس على الخصوص، التي دعمت طلبة العلم، حيث كانت تشتمل على مطبخ يوزع منه الطعام وعلى مسجد ورباط ومدرسة، وقد انتشرت أوقاف التكية في خمسة سناجق من بلاد الشام، وبلغ عدد القرى والمزارع الموقوفة على التكية 34 قرية ومزرعة[18]، فكانت مؤسسة اجتماعية متكاملة تقدم الطعام والمأوى والتعليم.

ج. ظاهرة الاهتمام بتعليم الأيتام في مدينة القدس:

انتشرت المدارس والدور الخاصة برعاية الأيتام في القدس، فكانت تخصص مرتبات شهرية للأيتام في المدارس الإسلامية الوقفية فضلاً عن الكسوة، كما هو الحال في المدرسة الباسطية للأيتام التي كان يتقاضى فيها الطالب 15 درهماً شهرياً في سنة 834هـ/1430م، وكان يُعطى اليتيم في عيد الفطر ثلاثين درهماً بدل كسوة[19].

ومن المدارس التي قدمت خدمات جليلة للأيتام؛ المدرسة التنزيقية التي بناها نائب حاكم سورية سنة 728هـ/ 1328م، إذ احتوت على أربع قاعات للمحاضرات والصلاة، فضلاً عن خانقاه لـ 12 متصوفاً، ومدرسة للأيتام، ومن ثم كانت الدراسة والصلوات والمدائح الصوفية وأعمال البر تمارس من تحت سقف واحد، كما اشتهرت في القدس دار الأيتام الإسلامية التي ما تزال قائمة حتى اليوم[20].

ولم تقتصر رعاية الأيتام على أوقاف المسلمين بل تعدتها إلى مختلف الطوائف الدينية، فكانت مدرسة "طالثيا قومي" الألمانية ميتماً خاصاً للبنات، وقد أدت خدمات كثيرة لسكان فلسطين. كما قامت "كلية شميدت" للبنات والتي تأسست سنة 1304هـ/1886م من قبل الجمعية الألمانية الكاثوليكية للأراضي المقدسة German Catholic Society of the Holy Land، وغايتها تعليم البنات العربيات وتدريبهن على الشؤون المنزلية حتى مستوى الثانوي العالي، وكان عدد الطالبات سنة 1365هـ/1945م يتجاوز 450 طالبة تعيش حوالي سبعين طالبة منهن في القسم الداخلي.

وهناك أيضاً دار الأيتام السورية التي أقامها القس يوحنا لودفيغ شنللر Johann Ludwig Schneller بتاريخ 1860/11/11 اعتماداً على المساعدات التي كانت تأتي إليها من ألمانيا، وكان طلابها من الفتيان والفتيات الأيتام، وقد اشتهرت بتعليم الصناعات كالنجارة والحدادة والخياطة والطباعة، وصنع الخزف وشغل الأحذية [21].

د. الاهتمام بالعلماء:

كان أهالي القدس لا يبخلون بأموالهم على العلماء الذين يفدون إليهم، وكانوا يشجعونهم على التدريس من خلال منحهم الجوائز المالية، فقد روى مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل، أن العلامة بكر بن سهل الدمياطي ت 289هـ/902م، المحدث والمفسر المعروف قدم إلى بيت المقدس، فجمعوا له ألف دينار حتى روى لهم التفسير.

هـ. التركيز على جودة التعليم:

من أجل المحافظة على جودة التعليم كانت مدارس القدس لا تقبل أعداداً كبيرة في صفوفها، لإتاحة الفرصة لتواصل الطالب مع مدرسه، ناهيك عن أن المدارس في القدس كانت تتكفل بكل نفقات الطلبة الدارسين ليتفرغوا للتحصيل، ففي الغالب لا يزيد عدد الطلبة في المدرسة الواحدة عن سبعين وفي المتوسط يتراوح عددهم بين 15-25 طالباً.

فعلى سبيل المثال تضمنت وقفية المدرسة الأشرفية مخصصات سبعين طالباً، والمدرسة المعظمية كان فيها 25 طالباً. والتنكزية 15 طالباً، ودار الحديث التنكزية 20 طالباً، والطازية 17 طالباً وكل ذلك في سنة 984هـ[22].

وكانت تتراوح مرتبات الطلبة الشهرية ما بين 7.5-45 درهماً بالإضافة إلى نصف رطل من الخبز، فعلى سبيل المثال: قسمت المدرسة التنكزية مرتبات الطلبة إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى للطلبة المتقدمين في الدراسة فيمنح 20 درهماً شهرياً ونصف رطل خبز يومياً، أما الطالب المتوسط فيمنح 15 درهماً شهرياً ونصف رطل خبز يومياً، ويعطى للطالب المبتدئ عشرة دراهم شهرياً ونصف رطل خبز يومياً[23].

أما المدرسة الأشرفية فكانت تمنح طلابها 45 درهماً شهرياً، في حين كانت المدرسة السلامية (الموصلية) تمنح طلابها 7.5 درهماً شهرياً، والحسنية كانت تمنح طلابها عشرة دراهم شهرياً بالإضافة إلى ربع رطل خبز يومياً. وكما هو معلوم فإن تفاوت مرتبات الطلاب يتفاوت بتفاوت الأوقاف الموقفة على تلك المدارس وما تدره من ربح، فكلما زادت الأوقاف المخصصة لمدرسة من المدارس زادت رواتب طلابها[24].

وقد اشترطت المدرسة التنكزية بأن تكون مدة الدراسة فيها أربع سنوات كما جاء في وقفيتها[25]، إلا أن الغالب أن مدة الدراسة تطول أو تقصر في معظم المدارس حسب هدف الطالب الوافد للقدس أو المقيم فيها، فهي مرتبطة بالانتهاء من المنهاج المخصص لهذا الفن أو ذاك.

لقد أدركت مدارس القدس بأن إكرام المدرس يمثل ركناً مهماً من أركان العملية التربوية وأساساً من أسس تجويد مخرجات التعليم، لذا نجد السلاطين والأمراء يحرصون على اختيار كبار العلماء ومشاهير الفقهاء لتولي مهام التدريس، وفي الوقت نفسه كانوا يخصصون لهم رواتب تكفل لهم العيش بكرامة. إلا أن الملاحظ أن رواتب المدرسين كانت تتفاوت حسب مكانة المدرس، وغنى وقفية المدرسة، ففي المدارس الكبرى كانت الرواتب مجزية. فناظر المدرسة الأشرفية على سبيل المثال كان يتقاضى 600 درهم شهرياً، وكان شيخها يتقاضى 510 دراهم في القرن التاسع الهجري، في حين كان راتب المدرس في المدرسة التنكزية 60 درهماً فضياً إلى جانب ثُلُثَي رطلٍ من الخبز يومياً، وفي سنة 837هـ كان راتب ناظر المدرسة الحسنية مئة درهم في الشهر ورطل خبز يومياً ورطل ونصف من الدبس كل شهر[26].

و. دور المؤسسات الثقافية في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية:

إن المؤسسات الثقافية المقدسية لعبت دوراً مهماً في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، حيث كانت قلعة شماء في وجه محاولة الصليبيين مسخ وجهها الحضاري إبان الحروب الصليبية، فحافظت على تدريس العلوم العربية فحفظت اللغة والدين.

ز. التنظيم في المؤسسات التعليمية:

إن المؤسسات التعليمية في القدس كانت غاية في التنظيم، ولقد كانت مدارس القدس على وعي تام بأهمية الخدمات المساندة للعملية التعليمية فكان هناك، إلى جانب نظار المدارس والمدرسين، نواب تدريس (معيدون)، وخَزَنَة (أمناء مكتبة) وكَتَبَة، وجُباة وبوابون، وفراشون، وكتاب لمراقبة الحضور والغياب، ومؤدبو أيتام، وفي بعض الأحيان كان عدد الموظفين في المؤسسة التعليمية يفوق عدد الطلبة. فقد ذكر الرحالة التركي أوليا جلبي أن هناك 800 إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس المجاورة، وكان هناك خمسون مؤذناً، وعدد كبير من مرتلي القرآن الكريم وكلهم يتقاضون مرتبات، إلى جانب وجود إمام ومؤذن لإقامة الصلوات الخمسة في كل مدرسة[27].

وقد ألحقت بمدارس القدس مساكن للطلبة والمدرسين لتكون مقراً دائماً لإقامتهم حتى ينهوا دراستهم، كما ضمت معظم المدارس خزانة كتب احتوت أمهات الكتب في مختلف الفنون[28].

ح. الخدمات التعليمية:

كانت الخدمات التعليمية في القدس تتركز في المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة والمساجد الصغيرة الأخرى، ثمّ المدارس والخوانق والزوايا، ثمّ الكتاتيب، ثمّ في توفير الكتب والمكتبات.

ط. مجانية التعليم:

إن جميع المدارس في مدينة القدس كانت مجانية ومفتوحة للجميع بغض النظر عن اللون أو الجنس أو المذهب.

ي. طبيعة المؤسسات التعليمية:

لقد كانت مؤسسات ذات حس إنساني مرهف تحرص على تهذيب مشاعر طلابها من خلال احتكاك طلابها بالأيتام الذين كانوا يدرسون بكتاتيب ملحقة ببعض المدارس والمساجد.

ومن أجل غرس فضيلة الرفق بالحيوان في نفوس الطلبة كان ينشأ بجوار بعض المدارس حوض سبيل ترده الدواب، وسقاية يشرب منها الناس أيضاً[29].

ك. التعايش في المؤسسات التعليمية:

إن المؤسسات التعليمية في القدس إبان الحكم الإسلامي تمثل تجربة فريدة للتثاقف بين الأجناس والتعايش بين الأديان على المستويين المحلي والعالمي.

3. من مخرجات مؤسسات القدس التعليمية:

أ. تخريج الآلاف من العلماء الذين تركوا بصمات واضحة في مسيرة الأمة الثقافية، فقد ذكر الأستاذ مصطفى الدباغ في موسوعته "بلادنا فلسطين" مجموعة كبيرة منهم، وكذلك احتفت بهم كتب التراجم الأخرى أمثال كتاب "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" لمحمد المحبي، وكتاب "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" لمحمد خليل المرادي، بالإضافة لما ذكره مؤرخو القدس، وعلى رأسهم مجير الدين الحنبلي.

ب. أبرزت المؤسسات التعليمية تألق الجوانب الخيرة والإنسانية في أبناء الأمة، من خلال هذا الكم الهائل من الأوقاف التي خصصت للإنفاق عليها من قبل أهل الخير من الرجال والنساء، ومن العرب وغير العرب، ومن الخلفاء والسلاطين والولاة وقادة الجند والحكام والإداريين والعلماء.

لقد شملت الأوقاف برعايتها كل شرائح الطلاب والعلماء الآتين لهذه المؤسسات، إلى جانب رعاية الأيتام وأبناء السبيل والغرباء، وحتى الحيوانات التي يستخدمها الطلبة والعلماء وزوار القدس. فقد كان في مدينة القدس 240 محراباً و28 سبيلاً و16 خاناً وأكثر من 170 مكتبة ملحقة بمدرسة ومسجد وكتّاب، و70 زاوية صوفية كلها كانت تقوم على تلك الأوقاف[30].

ج. قدمت مدارس القدس نماذج لعلماء مبدعين في التدريس والإنتاج العلمي، فمنهم على سبيل المثال الإمام أبو حامد الغزالي، الذي درس في المدرسة الناصرية بباب الرحمة من أبواب الحرم الشريف والتي عرفت فيما بعد بالغزالية، حيث كتب الغزالي الرسالة القدسية في قواعد العقائد، وهي محاضراته التي ألقاها على طلابه في تلك المدرسة. ومن العلماء أيضاً ابن جماعة، عفيف الدين (شيخ الصلاحية)، والقدسي، جمال الدين العجمي ت 1001هـ/1593م المدرس

بدار الحديث، وولده محمد جمال الدين بن محمد العجمي ت 1055هـ/1645م المدرس في المدرسة العثمانية، والديري المقدسي، طه بن صالح نجم الدين ت 1087هـ/1676م الذي درس في المدرسة الفارسية، والسروري المقدسي، محمد بن حافظ ت 1089هـ/1678م المدرس بالمدرسة التنكزية والمأمونية، أما الموقت، أحمد ت 1171هـ/1758م فقد اختص كما يدل اسمه بالميقات في المسجد الأقصى، إلى جانب تدريسه في المدرسة الأفضلية، وتولى أبو اللطف القدسي، السيد عبد الرحيم ت 1104هـ/1693م رئاسة علماء القدس والتدريس في المدرسة العثمانية، وبهاء الدين بن عساكر ت 600هـ/1204م ابن المؤرخ المشهور الذي ألقى مادة كتابه الأنس في فضائل القدس على طلابه في مدارس القدس[31].

د. أسهم علماء القدس إسهاماً فاعلاً في التنمية الإدارية والعلمية، فتولوا الوظائف في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فعلى سبيل المثال تولى السيد موسى الخالدي قضاء عسكر الأناضول، والشيخ أبو السعود مفتي الشافعية الذي توفي في إسطنبول سنة 1228هـ/1813م، وهناك عدد كبير من علماء القدس ذهبوا للتدريس في إسطنبول وبورصة وقونية وأدرنة، وتولوا القضاء في أماكن بعيدة مثل صوفية والبوسنة وغيرها إبان الحكم العثماني[32].

هـ. أسهم علماء القدس وأبناؤها ممن تشربوا العلم والعزة من مدارس القدس في تنوير الأمة بأخطار الاستعمار، فعلى سبيل المثال الشخص الذي كتب المنشور الذي أذاعته الحكومة العثمانية في جنوب سورية لإثارة الشعب ضدّ الفرنسيين هو السيد موسى الخالدي ت 1247هـ قاضي عسكر الأناضول[33]، أما الشيخ محمد بدير ت 1220هـ الذي قال عنه الجبرتي: هو الآن فريد عصره في الديار القدسية يبدي ويعيد ويدرس ويفيد، هو الذي كتب قصيدة تقع في 157 بيتاً تهجو الفرنسيين وقائدهم، وتمدح والي عكا أحمد باشا الجزار[34].

و. تحصين القدس بالمساجد، فقد تمّ بناء الكثير من المساجد إدراكاً من أبناء الأمة لدور المسجد في تحصين هوية القدس وتأكيد عروبتها وإبراز مكانتها في حياة الأمة، ومن أبرز تلك المساجد: المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، وجامع قبة موسى، وجامع المغاربة، وجامع كرسي سليمان، وجامع دار الأمام، وجامع خان الزيت، وجامع الخانقاه، وجامع القلعة، وجامع قنمبر، والجامع العمري، والجامع اليعقوبي، وجامع بني حسن، وجامع حارة الأرمن، وجامع الشيخ

لولو، وجامع البراق الشريف، وجامع خان السلطان، وجامع حارة النصارى، وجامع البازار، وجامع الزاوية النقشبندية، وجامع باب الغوانمة، وجامع حارة اليهود الكبير، وغيرها، وهذه الجوامع كلها تقع داخل سوار المدينة المقدسة، أما الجوامع التي تقع خارج السور فمنها: الجامع المسعودي، وجامع الشيخ جراح، وجامع وادي الجوز، وجامع حجازي، وجامع عكاشة، وجامع المطحنة[35].

ز. ازدهار المكتبات وتجارة الكتب، حيث وجد في القدس في الحقب الإسلامية المتعاقبة أكثر من 170 مكتبة ملحقة بمسجد أو مدرسة أو زاوية أو كتّاب تشتمل على آلاف الكتب[36].

ح. ازدهار الثقافة وتزايد عدد المثقفين، ويؤكد لنا ذلك المؤرخ والأديب العماد الأصفهاني حين وصف القدس في العصر الأيوبي بقوله: "فما ترى فيها إلا قارئاً باللسان الفصيح وراوياً للكتاب الصحيح ومتكلماً في مسألة... وذاكراً لحكم مذهبي وسائلاً عن لفظ لغوي ومعنى نحوي... أو ناشداً بنشيد..." وأكد هذا المعنى أيضاً الرحالة المشهور ابن بطوطة[37].

ط. تعدّ المؤسسات التعليمية اليوم، ممثلة بمدارسها العربية بمختلف أطيافها، قلعة المقاومة الأولى التي تذب عن عروبة القدس، وتقف سداً منيعاً أمام مخططات الصهاينة لتهويد الإنسان والأرض في ظلّ صمت عالمي وعربي وإسلامي جعل بدوي الجبل يصرخ قائلاً:

يا سامر الحي هل أشجتك شكوانا   رق الحديد وما رقوا لبلوانا

ثانياً: واقع المؤسسات التعليمية في القدس:

إن الواقع المأساوي الذي تعاني منه المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس اليوم، وما تواجهه من عمليات ممنهجة وخطط مدروسة لشل فعالياتها، وإلغاء دورها الحضاري والوطني في تعزيز الهوية، وتحصين الذات الفلسطينية من الاختراق الصهيوني، يذكرنا بالتمييز العنصري في جنوب إفريقيا، والاستعمار الفرنسي الاستيطاني في الجزائر، وبما قامت به النازية والفاشية والبلشفية من أعمال وحشية استهدفت الإنسان والمكان والهوية الثقافية، حيث أشعلت تلك الأيديولوجيات والعنصريات الحروب الكونية، وقتلت وشردت الملايين إلا أنها في نهاية المطاف هزمت جميعاً أمام إرادة الشعوب،

وسقطت الرايات العنصرية والإقليمية القائمة على إلغاء الخصوصية الثقافية والهوية الوطنية للشعوب.

أما تجربة الغرب مع الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وما قام به الصرب في البوسنة والهرسك، والخمير الحمر في فيتنام فتمثل صفحات سوداء في سفر التاريخ، ومعلماً من معالم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، إلا أن النموذج الأقرب لأنموذج الصهاينة في فلسطين هو أنموذج محاكم التفتيش الإسبانية التي ظهرت بعد طرد المسلمين من الأندلس سنة 1492، إذ تظهر المقاربة بين التجربتين بجلاء في الآليات والأدوات والأساليب والأهداف، فكلتاهما قامتا على مبدأ الاستئصال والإلغاء والطرد والإحلال، وعمل كل ما بالوسع لمسخ الهوية والثقافة للخصم من خلال سنّ القوانين والتشريعات لخدمة تلك الأهداف. فقد صادرت محاكم التفتيش الأرض، وطردت وقتلت الإنسان، وأحرقت وصادرت الكتب والمكتبات، واستولت على المساجد والمنازل والأوقاف، وفرضت الضرائب الباهظة على من بقي من المسلمين، وحرمت التخاطب باللغة العربية، وممارسة الشعائر الإسلامية، ولبس الملابس الإسلامية، ونزعت الأطفال من أمهاتهم لتتم تربيتهم على غير دينهم، وكل ذلك في ظلّ قرارات محاكم التفتيش الظالمة التي جعلت من محاربة الثقافة العربية والإسلامية هدفاً سامياً من أهدافها[38].

هذا ما حدث بالأمس في الأندلس نراه اليوم بأم أعيننا في فلسطين والقدس على وجه الخصوص، فقد بذلت الحكومة الصهيونية وما زالت تبذل كل ما بوسعها لمسخ الهوية الفلسطينية وتشويه الثقافة العربية والإسلامية في فلسطين والقدس على وجه الخصوص، ومحاولة اجتثاث ما هو مقدس، وتذويب الهوية وإلغاء الخصوصية لهذه المدينة الصابرة.

إن واقع المؤسسات التعليمية في القدس يشي بتواطؤ عالمي على تهويد المدينة المقدسة... واقع يفضح تخاذل القوى الكبرى على نصرة الحق ومساعدة الضعفاء... واقع يظهر تمرد الصهاينة على كل القيم والأعراف والمواثيق الدولية التي نصت على احترام الغالب لهوية وحضارة وثقافة المغلوب، وعدم المساس بثوابته الحضارية وثقافته الدينية والتربوية. ويمكن للباحث أن يشخص واقع المؤسسات التعليمية والثقافية من خلال النقاط الآتية: المباني المدرسية وبنيتها التحتية، أوضاع المعلمين، أوضاع الطلبة، مشروع تهويد المؤسسات التعليمية في القدس، تهويد المتاحف والمكتبات والمراكز الثقافية.

1. المباني المدرسية:

حسب إحصاء 2009/2008 يبلغ عدد مدارس القدس 147 مدرسة، يدرس فيها 87,908 طالباً وطالبة، ويقوم بتدريسهم 4,008 معلماً ومعلمة[39].

أما من الناحية الإدارية والتربوية فتشرف على مدارس القدس أربع جهات مختلفة هي: مديرية التربية والتعليم الفلسطينية، ووكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees in the Near East (UNRWA)، والتعليم الخاص، والبلدية والمعارف الإسرائيلية، مما يحد القدرة على وضع خطة استراتيجية لتطوير التعليم وقياس مخرجاته ورصد نقاط القوة والضعف فيه، ولعل الجدول الآتي يوضح توزيع تلك المدارس بين الجهات الأربعة المشرفة عليها وحصة كل جهة من الطلبة والمدرسين.

جدول 6/1: توزيع الطلبة والشعب والمعلمين في مدارس القدس بحسب الجهة المشرفة للعام الدراسي 2009/2008[40]

السلطة المشرفة	عدد المدارس	عدد الشعب	النسبة المئوية للشعب الدراسية	عدد الطلبة	النسبة المئوية للطلبة	عدد المعلمين	النسبة المئوية لعدد المعلمين	النسبة معلم/ طالب
المدارس الحكومية (الأوقاف)	38	473	%19.5	12,136	%13.8	732	%18.3	16.6/1
المدارس التي تشرف عليها بلدية القدس والمعارف الإسرائيلية	*50	1,094	%45	52,580**	%59.8	1700	%42.4	30.9/1
المدارس الخاصة والأهلية	51	762	%31.4	19,748	%22.5	1,429	%35.7	13.8/1
مدارس وكالة غوث اللاجئين	8	101	%4.2	3,444	%3.9	147	%3.7	23.4/1
المجموع العام	**147**	**2,430**	**%100**	**87,908**	**%100**	**4,008**	**%100**	**21.9/1**

* يشمل هذا الرقم طلبة مدارس المقاولات "سخنين" والذين يبلغ عددهم 3,818 طالباً يدرسون في 8 مدارس.
** يشمل هذا الرقم طلبة مدارس المقاولات "سخنين"، كما تعود أرقام أعداد الطلاب في مدارس البلدية إلى العام الدراسي 2008/2007، كون البلدية تنشر الأرقام الخاصة بها متأخرة سنة كاملة عن بقية الجهات.

2. وضع الأبنية والغرف الصفية:

تفيد التقارير الهندسية بأن معظم الأبنية المدرسية قائمة في بنايات قديمة لا تتوافر فيها الشروط الصحية أو المرافق التعليمية، وأن غالبيتها تفتقر إلى الترميم والصيانة الدورية، وغير مؤهلة لاستيعاب الطلبة بأعداد كبيرة، خاصة تلك الموجودة في البلدة القديمة.

ومن الملاحظ أن عدداً لا بأس به من تلك المدارس مستأجرة في بيوت لا تصلح بأن تكون مدارس، فهي تفتقر إلى المرافق التعليمية المناسبة، كالمكتبات والمختبرات وساحات الاصطفاف والمظلات والمرافق الصحية؛ لأنها مصممة أصلاً كغرف سكنية، وبالتالي لا تتوافر فيها الشروط التربوية المطلوبة. ناهيك عن الإيجارات السنوية التي تزيد عن 800 ألف دولار أمريكي، التي يتوجب على تلك المدارس دفعها؛ مما يثقل كاهلها ويجعلها عاجزة عن تقديم خدمات مميزة للطلبة.

كما تفيد التقارير التربوية أن الكثافة الصفية في مدارس القدس عالية جداً فنصيب الطالب يبلغ 0.5-0.9 متراً مربعاً بينما النسبة العالمية تتراوح بين 1.25-1.5 متراً مربعاً للطالب الواحد، مما يؤدي إلى ازدحام الطلبة في الفصول الدراسية وعدم توفر بيئة تعليمية جيدة.

إن مدارس القدس باعتراف المعارف الإسرائيلية بحاجة إلى 1,900 غرفة صفية حتى سنة 2010، وأمام هذا التحدي توسعت مدارس القدس في استئجار المنازل لاستيعاب الزيادة الطبيعية للطلبة، وزادت من نسبة المدارس التي تعمل على نظام الفترتين (الصباحية والمسائية)، وكل ذلك على حساب نوعية التعليم.

لقد حاولت مدارس القدس الاستغاثة بالمجتمع الدولي لمساعدتها في أداء رسالتها من خلال ترميم المدارس القديمة، واستئجار مدارس جديدة، فهرعت العديد من المؤسسات الدولية والعربية لمد يد العون إلا أن الذي قُدِّم لا يتناسب مع حجم التحدي، فعلى سبيل المثال مجموع ما أنفق على ترميم مدارس القدس من قبل المركز الفلسطيني لتطوير المشاريع الصغيرة Palestinian Center for Microprojects Development، الذي تأسس سنة 1995 بتمويل من الاتحاد الأوروبي European Union (EU)، لا يتجاوز 464.9 ألف دولار[41].

3. أوضاع المعلمين:

يبلغ عدد المعلمين في مدارس القدس 4,008 معلماً ومعلمة، يوجد نحو 18% منهم أي 732 يعملون في المدارس الحكومية والمدارس التابعة للأوقاف برواتب متدنية مقارنة مع زملائهم الذين يعملون في المدارس الخاصة والمدارس التي تشرف عليها سلطة الاحتلال، الأمر الذي وضعهم أمام تحدٍّ كبير بين رسالتهم الوطنية وبين ضغط حاجاتهم المعيشية، مما أدى إلى تسرب أعداد منهم إلى المدارس الخاصة أو تلك التي تخضع لإشراف الاحتلال، وقد انعكس سلباً على الواقع التربوي للمدارس الوطنية.

ولعل التحدي الأكبر الذي يواجه المدرسين والطلبة على حدٍّ سواء هو الاعتقال والطرد، مما ينعكس بشكل سلبي أيضاً على العملية التعليمية في المدارس التي يعتقل مدرسوها، وقد نشرت على سبيل المثال جريدة الدايلي ستار The Daily Star التي تصدر باللغة الإنجليزية في بيروت بتاريخ 1969/11/5 قائمة مطولة بأسماء الأشخاص الذين أبعدوا حتى ذلك اليوم من القدس، والذي يهمنا منها من له علاقة مباشرة بالمؤسسات التعليمية، فمنهم على سبيل المثال الشيخ عبد الحميد السائح رئيس محكمة الاستئناف ورئيس الهيئة العلمية الإسلامية بالقدس 1969/9/23، والسيد روحي الخطيب أمين القدس 1968/3/7، والمعلم سليمان حنا جريس 1968/11/25، والمعلمة عبلة طه 1969/6/9، والمعلم خليل حسن 1969/6/9[42]. وقد اعتقل بعد ذلك مئات المدرسين إبان الانتفاضة الأولى والثانية.

4. أوضاع الطلبة:

يقترب عدد طلبة مدينة القدس من ثلث عدد سكانها وفق إحصاء سنة 2004، فقد بلغت نسبتهم 31.5%، منهم 26.5% في سنّ التعليم الأساسي و4.5% في سنّ التعليم الثانوي، ويبلغ معدل التحاق المقدسيين في التعليم العام 74.3% وهذا أقل من معدل الضفة وغزة والبالغ 87.5%، أما معدل الالتحاق بالمرحلة الثانوية فهو 52.6% في حين يبلغ بالضفة وغزة 57%[43].

إن من أخطر التحديات التي تواجه التعليم في القدس هو تزايد تسرب الطلبة من المدارس، وخاصة في المرحلة الإلزامية، لما يترتب على هذه الظاهرة من مشكلات اجتماعية كانحراف الأحداث، وحرمان الأطفال من فرصة التعليم. لذا، قامت مديرية التعليم برصد هذه الظاهرة من خلال عدة دراسات على تسرب الطلبة من المدارس الحكومية والخاصة

ومدارس وكالة غوث اللاجئين، ووضعت التدابير اللازمة التي أثبتت نجاعتها، فقد أظهرت الدراسة أن نسبة التسرب في المرحلة الأساسية كانت 10.63% في العام الدراسي 1996/1995 وانخفضت في العام الدراسي 2004/2003 إلى 0.60% نتيجة للإجراءات الوقائية والعلاجية التي تقوم بها الوزارة للحد من هذه الظاهرة، لغرض إلزامية التعليم، والعمل على تحسين نوعية التعليم في مدارسها، وتجهيز المدارس بالمختبرات، وتعيين مرشدين تربويين فيها، فضلاً عن تزايد وعي سكان القدس بأهمية التعليم كجزء من عملية المقاومة والمحافظة على الهوية. أما في المرحلة الثانوية فيلاحظ أن نسبة التسرب قد زادت من 5.7 % في العام الدراسي 2002/2001 لتصل إلى 8.2% في العام الدراسي 2006/2005، وهو ما يعكس تزايد حالة القلق بشأن مشكلة التسرب كلما تزايد مستوى التعليم[44].

وقد أشارت الدراسات أن 43.5% من مجموع الطلبة المتسربين كان سبب تسربهم العوامل الاقتصادية، و25.8% كان سبب تسربهم تدني القدرة الدراسية.

أما بالنسبة لتسرب الفتيات فإن السبب الرئيسي لتسربهن هو الزواج المبكر والخطوبة ونسبة تلك الفتيات بلغت 45.9% من مجموع المتسربات، أما السبب الثاني فهو تدني المستوى الدراسي بنسبة 20%، والسبب الأخير هو الرسوب المتكرر بنسبة 11.8%.

وهناك عامل غير مباشر يدفع إلى تسرب الطلبة من التعليم بشكل عام، وهو مبالغة المدارس الخاصة في رفع رسومها إلى جانب اشتراطها مستوى معين من الدرجات، فالطالب الفقير والطالب المتوسط في التحصيل لا يجد له مكاناً للدراسة في تلك المدارس، ويجد صعوبة كبيرة في تحصيل مقعد في مدارس الأوقاف أو المدارس الحكومية في ظلّ التزاحم الشديد على المقاعد، لذا تشير الإحصاءات بأنه يوجد أكثر من تسعة آلاف طالب دون أي إطار تعليمي في القدس[45].

يلاحظ من المعلومات المتوفرة حول معدلات التسرب في العام الدراسي 1998/1997 أن معدلات التسرب في المدارس الحكومية (الأوقاف) في القدس أقل منها في المدارس الحكومية على مستوى الوطن، حيث تبلغ نسبة التسرب في مدارس القدس للذكور 2.03% والإناث 1%، في حين تبلغ على مستوى الوطن 2.6% للذكور و2.5% للإناث في كلا المرحلتين. كذلك الحال في المرحلة الأساسية، حيث تقل في مدارس القدس عنها على مستوى الوطن، إذ تبلغ في مدارس القدس للذكور 1.93% والإناث 0.77%، بينما

تبلغ على مستوى الوطن 2.4% للذكور و1.7% للإناث. وتنخفض أيضاً هذه النسبة في المرحلة الثانوية إلى حوالي الضعف للذكور وأكثر من ثلاثة أضعاف للإناث بالمقارنة مع المدارس الحكومية على مستوى الوطن. كما أن التسرب من المدارس الخاصة أقل منه في المدارس الحكومية في القدس، حيث إن النسبة في المدارس الخاصة في المرحلة الأساسية لا تتجاوز 0.2% للذكور و1.34% للإناث، وتبلغ في المرحلة الثانوية للذكور 0.3% وللإناث 1.7%[46].

ومما يزيد من معاناة طلبة القدس جدار الفصل العنصري، الذي قسم المدينة وعزل العديد من ضواحيها عنها، ناهيك عن الحواجز العسكرية الثابتة على جميع مداخل المدينة، هذا بالإضافة إلى المدارس المتضررة مباشرة بالجدار كالمدارس في بلدة الشيخ سعد، والمدارس في بلدة الزعيم شرقي مدينة القدس، والمدارس في مخيم شعفاط وعناتا، وكذلك مدارس الرام، وضاحية البريد، التي فصلها الجدار العنصري عن المدينة المقدسة وأعاق وصول الطلبة إلى مدارسهم سواء داخل الجدار أم خارجه، حيث يوجد 11 مدرسة خارج الجدار و27 مدرسة داخله من المدارس التابعة لمديرية التربية، مما يؤثر سلباً على المسيرة التعليمية ويسهم إسهاماً فاعلاً في تسرب الطلبة وتركهم لمدارسهم.

إن جرائم الاحتلال من قتل واعتقال وطرد، وجرح وتشويه، تخلف وراءها عدداً كبيراً من الأيتام، والمعاقين، وأطفال دون معيل ودون رعاية تربوية، ودون مدارس تحتضنهم وترعاهم اجتماعياً ونفسياً. لذا، لا يمكن إغفال هذه الشريحة من الطلبة المعاقين جسدياً أو حركياً أو نفسياً، إذ تفتقر مدينة القدس لمثل هذه المدارس المؤهلة لخدمة تلك الشرائح، فإذا أضيفت هذه الشرائح إلى شريحة الطلبة غير المأطرين في التعليم يظهر أمامنا حجم الكارثة الإنسانية والثقافية في فلسطين على العموم والقدس على وجه الخصوص.

5. مشروع تهويد المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس:

لقد أدرك قادة الحركة الصهيونية بأن صراعهم في فلسطين هو صراع ديني ثقافي حضاري، وأنه لا يمكنهم تهويد فلسطين والقدس على وجه الخصوص قبل تهويد الثقافة وتزييف الوعي لدى الأجيال، وطمس كل الآثار والمعالم التي تدل على عروبة القدس وإسلاميتها. لذا، نجد مؤسس الحركة الصهيونية يقول قبل قيام دولة الكيان الصهيوني بخمسين عاماً: "إذا حصلنا على مدينة القدس، وكنت لا أزال حياً وقادراً على القيام بأي عمل، فسوف أزيل كل شيء ليس مقدساً لدى اليهود فيها، وسوف أحرق جميع الآثار التي مرت عليها القرون"[47].

لقد أدرك الصهاينة بأن المصدر الأول للوعي والثقافة والمقاومة لدى الفلسطينيين هو القرآن الكريم، وأنه ما دام يتلى فكيانهم في خطر. لذا، كان من أول أولوياتهم عند قيام كيانهم البغيض سنة 1948 هو تزييف وتشويه هذا المصدر الذي يستعصي على كل تزييف لأنه محفوظ بحفظ الله تعالى، فقام الصهاينة بإصدار طبعة جديدة من القرآن الكريم، ونزعت منها جميع السور والآيات التي تتعرض لليهود، وعملت على توزيع هذه الطبعة على نطاق واسع في العالم الإسلامي وخاصة في إفريقيا، وبين عرب فلسطين داخل الخط الأخضر، ناهيك عن منع القراء والطلاب من تلاوة الآيات التي نزعت من الطبعات الأصلية[48].

أما الخطوة الثانية التي اتخذتها سلطات الاحتلال في اتجاه تزييف الوعي لدى الأجيال الفلسطينية هي إعادة طباعة الكتب المدرسية بعد شطب كل ما يتعلق بالأطماع الصهيونية، وألزمت مدارس القدس الثلاثين التي استولت عليها سنة 1948 بتدريس تلك المناهج[49].

وبعد أن استولت سلطات الاحتلال على كامل فلسطين، بما فيها القدس إثر حرب سنة 1967، شرعت في تنفيذ مشروعها الموسع في طمس وتهويد المؤسسات التعليمية بصورة متسارعة من خلال الإجراءات الآتية:

أ. الاستيلاء على المدارس الحكومية الأردنية في القدس معتبرة نفسها وريثة للحكومة الأردنية، وضمت المدارس إلى البلدية التي فرضت بدورها عليها تدريس المنهاج الصهيوني. كما استولت في آذار/ مارس 1968 على مدرسة البنات العربية المجاورة للحرم القدسي وحولتها إلى محكمة دينية عليا[50].

ب. في الفترة ما بين 1967-1969 هدم الصهاينة حي المغاربة في القدس الشرقية بما يحمله من إرث ثقافي وأوقاف ورموز ثقافية لا تقدر بثمن تؤكد عروبة وإسلامية القدس، ناهيك عن مصادرة 612 مبنى عربياً، و437 دكاناً عربياً وخمسة مساجد وأربع مدارس والعديد من المراكز الثقافية[51].

إن مصادرة الأوقاف الإسلامية ترمي إلى إضعاف المؤسسات الثقافية التي تقوم على ريع تلك الأوقاف، ناهيك عن طمس شاهد من شواهد عروبة القدس، ورمزاً من رموز إسلاميتها.

ج. أصدرت حكومة الاحتلال في سنة 1969 قانون الإشراف على المدارس، الذي يهدف إلى الإشراف الكامل على جميع المدارس الطائفية والأهلية منها، ويعدّ هذا القانون من الحلقات المبكرة لتهويد القدس.

د. محاولة فرض المنهاج الصهيوني على المدارس العربية في القدس من خلال الإجراءات والتدابير الآتية:

- منع بناء مدارس جديدة أو ترميم القديمة أو إضافة مبانٍ على ما هو قائم، وتعقيد إجراءات الترخيص التي تتطلب سنوات طويلة ومبالغ طائلة تصل إلى 20 ألف دولار؛ لإجبار الأهالي على إرسال أبنائهم للمدارس التابعة للكيان الصهيوني.
- تقديم مساعدات نقدية وعينية لبعض المدارس الخاصة، بهدف تبني تلك المدارس لسياسات العدو الصهيوني في التعليم.
- سمحت حكومة الاحتلال وبلدية القدس لشركات إسرائيلية مرتبطة بوزارة المعارف الإسرائيلية والبلدية بافتتاح مدارس عديدة في أنحاء مختلفة من القدس الشرقية لتدريس المنهاج الإسرائيلي.
- منع تدريس التربية الوطنية واستبدالها بمحتوى يشوه الحقائق الجغرافية والديموغرافية والتاريخية، كتحدٍّ سافر للمادة الرابعة من اتفاقية حقوق الطفل التي تنص على اتخاذ التدابير التشريعية والإدارية لحماية الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للأطفال، كما تتنافى مع المادة الثلاثين من الاتفاقية نفسها التي تكفل للطفل وأسرته التمتع بثقافتهم.
- دفع الطلبة إلى تقديم امتحان (البغروت) الإسرائيلي بدلاً من الثانوية العامة.
- حذف وشطب كل ما يقع في نطاق "اللاسامية"، وحذف احتفال المسلمين بالإسراء والمعراج في القدس، وحذف كل قصيدة فيها اعتزاز بالأمة العربية وتاريخ فلسطين، وكل تفسير للآيات والأحاديث النبوية فيها مساس باليهود، وكل خريطة جغرافية تظهر فيها حدود الأردن بحيث تشمل الضفة الغربية.
- منذ سنة 2000 قامت سلطات الاحتلال بإزالة شعار السلطة الفلسطينية عن إصدارات الوزارة التي توزع على مدارس القدس.

هـ. عدم تطبيق إلزامية التعليم على الطلبة العرب في القدس الشرقية أسوة بالمدارس الصهيونية غرب القدس.

و. تأخير تزويد مدارس القدس العربية بالكتب الدراسية لأكثر من شهرين في بداية كل عام.

ز. منع الفلسطينيين من حَمَلَة هوية الضفة الغربية من دخول القدس والتعليم في مدارسها، مما أدى إلى نقص حادّ في الخبرات والتخصصات لدى المعلمين، وذلك بعد استكمال بناء جدار الفصل العنصري

ح. المضايقات الاقتصادية، ونذكر منها:

- فرض ضرائب باهظة على المدارس، وهذه خطوة غير مسبوقة، حيث إن المدارس في كل القوانين الدولية لا تخضع لقانون الضرائب، فهي عقبة يضعها الاحتلال أمام تطور التعليم في المدارس العربية في القدس.
- حرمان المؤسسات التعليمية في القدس من الأموال التي تأتي للسلطة الفلسطينية، بناء على تفسير تعسفي لشرط من قبل البنك الدولي ينص على أن الأموال التي تأتي للسلطة الفلسطينية هي فقط للأراضي التي تقع تحت سيادة السلطة الفلسطينية، وبالتالي حرموا مدارس القدس من أموال السلطة.
- دفع رواتب عالية للعاملين في التدريس في المدارس التابعة للمعارف الإسرائيلية وبلدية القدس بالمقارنة مع معلمي المدارس الحكومية والخاصة، بهدف جذب المعلمين من المدارس الوطنية إلى مدارسها وتفريغ المدارس الوطنية من الكوادر المدربة.

ط. المضايقات الإدارية، ونذكر منها:

- رفض تعيين أي مسؤول عن التعليم الحكومي في القدس العربية من مفتشين ومشرفين وتربويين من سكان القدس، والإصرار على أن يكون المسؤولون عن هذا الجانب من عرب الداخل (1948)، وفق أسس ومعايير معينة تصب باتجاه تعميق الجهل والتخلف بين أبناء القدس العربية. فالعدو الصهيوني يدرك أن الكوادر العربية المقدسية تتمتع بمهنية عالية، وهي أقدر على التعامل مع

الواقع، وأكثر مقدرة على تشخيص المشكلات وتحليل الواقع التربوي وتذليل عقباته ودفعه إلى الأمام، وهذا ما تحاربه سلطات الاحتلال.

- تتعامل سلطات الاحتلال مع أبناء الأسر المقدسية باعتبارهم مجرد مقيمين، مما يعرض الطلاب المقدسيين لسحب هوياتهم، تحت ظروف معينة، ومن ذلك، سنّ قوانين جائرة تقضي بأن كل من أمضى سبع سنوات خارج القدس أو اضطر للسكن خارج القدس يفقد حقه في الإقامة في القدس بسحب وبشطب اسمه من الحاسوب وبطرده من المدينة.

ي. المضايقات الأمنية، ونذكر منها:

- اعتقال الطلبة: هناك سياسة مبرمجة لتجهيل الطاقات الشابة عن طريق الاعتقال، فهناك أكثر من 5,900 طالب وطالبة تمّ اعتقالهم منذ سنة 2000.
- المضايقات التي تمارسها سلطات الاحتلال والمستوطنين تجاه الطلبة من الاعتداءات ومحاصرة المدارس الوطنية، ووضع الحواجز المؤدية إليها؛ لدفع الطلبة إلى الانتقال إلى المدارس خارج القدس أو الانتقال إلى مدارس البلدية والمعارف الإسرائيلية.
- عزل الطلبة والمعلمين الفلسطينيين في القدس عن إخوانهم في الضفة الغربية وغزة وذلك منذ اتفاقية أوسلو Oslo Agreement سنة 1993، حيث منع كل من لا يحمل تصريحاً من دخول المدينة.
- ترويع السكان العرب والتضييق عليهم إدارياً وسياسياً واقتصادياً.

ك. نشر الفساد الأخلاقي في الأوساط العربية وترويج المخدرات في أواسط الطلبة، حيث استغلت سلطة الاحتلال أن 69% من الأسر المقدسية تحت خط الفقر، فقامت بتشجيع الطلبة في المرحلة الإعدادية والثانوية على العمل في الفنادق والمراقص والبارات والمصانع الإسرائيلية، على الرغم من أن ذلك محظور على الطلبة الإسرائيليين. وكل ذلك من أجل طمس الهوية الثقافية لأبناء مدينة القدس عن طريق نشر الجهل والرذيلة، لذا نجد رئيس اتحاد أولياء أمور الطلبة في القدس عبد الكريم الألفي يوجه نداء إلى الأمة يقول فيه: إن ما تقوم به بلدية القدس حيال التعليم في القدس الشرقية عبارة عن سياسة تجهيل ممنهجة، وإنه لا بدّ من الإسراع في إنقاذ الوضع الأكاديمي المتدهور في القدس.

كما نشرت جمعية "حقوق المواطن في إسرائيل" في حزيران/ يونيو 2008 تقريراً أوضحت فيه أن الأوضاع المتردية للتعليم في القدس أدت إلى تسرب 35% من طلبة المرحلة الإعدادية من مدارس القدس الشرقية[52].

6. تهويد المتاحف ونهب المخطوطات:

أ. تهويد المتحف الفلسطيني الأثري، فمنذ اليوم الأول لسقوط القدس بيد الصهاينة سنة 1967، وضع اليهود أيديهم على المتحف الفلسطيني الأثري، واعتبروه جزءاً لا يتجزأ من المتحف الإسرائيلي، وتمّ تغيير اللوحات العربية ووضع لوحات عبرية مكانها، بل ووُضعت على مدخل المتحف الفلسطيني الشمالي لوحة تخلد ذكرى الجنود الصهاينة الذين قتلوا في أثناء معركة القدس[53].

ب. نهب مخطوطات البحر الميت النادرة من المتحف الفلسطيني سنة 1967 بدعوى المحافظة عليها، ويعدّ هذا العمل انتهاكاً صارخاً للمادة الرابعة من اتفاقية لاهاي Hague Convention حول تهديد سلامة الممتلكات الثقافية، كما يعدّ سرقة لتلك الممتلكات[54].

ثالثاً: المكتبات العربية الإسلامية في القدس:

إن المتأمل لمكتبات بيت المقدس الوقفية يجد تجربة فريدة للتثاقف بين الأجناس والتعايش بين الأديان إبان الحكم الإسلامي للمدينة المقدسة، ذلك الحكم الذي كفل للجميع حرية العبادة والتعبير، فتفجرت الطاقات، وانطلق سكان المدينة المقدسة صفاً واحداً بملابس مختلفة لجعل مدينتهم أنموذجاً للمدينة الفاضلة التي يعيش فيها الجميع بأمن وسلام. ولعل ما تزخر به مكتبات القدس الشريف من ذخائر تتعلق بعقائد وأفكار وفلسفات المسلمين وغير المسلمين، والتي كتبت بالسريانية واليونانية والحبشية واللاتينية والعبرية والفارسية والتركية والأردية والعربية والإنجليزية والألمانية والروسية والأسبانية والإيطالية؛ فيه الدليل الدامغ على عالمية ثقافة هذه المدينة التي تشهد بسماحة الإسلام وعدالته، التي سمحت لهذه الطوائف والمذاهب بالتعبير عن معتقداتها وأفكارها باللغة التي تراها.

لقد عبر عشاق القدس عن عشقهم وحبهم لمدينتهم من خلال إهدائهم لمكتباتها نوادر المخطوطات والمصاحف والمؤلفات الثمينة في مختلف حقول المعرفة، لينتفع بها طلبة العلم الذين وفدوا إليها من مختلف أنحاء المعمورة، فانتشرت المكتبات في المساجد والزوايا والمدارس والأديرة والكنائس، حيث كانت في الغالب الأعم مفتوحة للجميع.

لقد عبرت مكتبات بيت المقدس عن عمق محبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لهذه البقعة المقدسة، خاصة بعد تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ/1187م، حيث تحولت القدس إلى جامعة عالمية مفتوحة زادت مكتباتها الوقفية عن 170 مكتبة ملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب، وهذا يجسد إحساس الأمة بأنها استردت شيئاً عزيزاً لديها. لذا، تسابق الحكام والرعية على إقامة هذه المكتبات والمرافق العامة لخدمة طلبة العلم والمجاورين الذين وفدوا إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، طمعاً في الأجر والثواب وتحصيل المعرفة في هذه البقعة المقدسة. وقد صور لنا العماد الأصفهاني الازدهار الثقافي الذي شهدته القدس بعد تحريرها من نير الصليبيين بقوله: "فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح وراوياً للكتاب الصحيح ومتكلماً في مسألة... وذاكراً لحكم مذهبي وسائلاً عن لفظ لغوي ومعنى نحوي.. أو ناشداً بنشيد".

ولعل مكتبات بيت المقدس الإسلامية من أبرز المؤسسات التي تمثل تظافر جهود الأمة الخيرة في خدمة المعرفة والثقافة لسكان هذه المدينة وروادها من مختلف الأجناس والأعراق.

أ. المكتبات العامة:

1. مكتبة المسجد الأقصى:

تعدّ هذه المكتبة من أهم المكتبات الإسلامية في المدينة المقدسة من حيث مقتنياتها العلمية الفريدة، ومخطوطاتها النادرة التي أهديت إليها من كبار العلماء والحكام وأثرياء الأمة، التي كانت تشتمل على أمهات الكتب في الحديث والتفسير والفقه والتاريخ والحساب والميقات والمنطق، فضلاً عن علوم العربية، إلى جانب مؤلفات المدرسين الذين عملوا في المسجد الأقصى على مدى العصور[55].

لقد كان المسجد الأقصى من أهم المعاهد العلمية في الحضارة الإسلامية، وعماد الحركة الفكرية في بلاد الشام، فقد كان ملتقى للعلماء وطلبة العلم من مختلف أرجاء

الدولة الإسلامية. ويروي حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، أنه في أواخر القرن الخامس الهجري كان يتواجد في المسجد الأقصى 360 مدرساً، إلى جانب مئات القراء الذين نطالع أسماءهم في سجلات المحكمة الشرعية في القدس، فضلاً عن وثائق الحرم القدسي الشريف ومحفوظات العائلات المقدسية، مما جعل مكتبة الأقصى تحتل مكانة خاصة في العالم الإسلامي[56].

ولعل من أوائل الإشارات الموجودة، والتي تتحدث عن خزانة المسجد الأقصى تعود إلى القرن الثالث، عندما أشار ابن الفقيه ت 290هـ/902م في كتابه "البلدان" أنه كان في المسجد الأقصى على عهده 16 تابوتاً من المصاحف المسبلة[57]. ويبدو أن نقطة التحول الكبرى في هذه الخزانة كانت في سنة 583هـ/1187م عندما حررت القدس من أيدي الصليبيين، وأحضر صلاح الدين الأيوبي من مكتبة دمشق العديد من المصاحف والكتب ووضعها في خزانة المسجد المحرر، وأوقف على هذه المصاحف الأوقاف لمداومة قراءتها في الصباح والمساء[58]. وسار على هدي صلاح الدين من جاء بعده من الحكام والسلاطين والولاة، الذين تباروا في تعزيز هذه الخزانة بالمصاحف والكتب إيماناً منهم بأن تعزيز هوية المدينة المقدسة بالثقافة الإسلامية لا يقل عن أهمية تحصين قلاعها وحصونها وأسوارها، فها هو السلطان أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف المريني، سلطان المغرب، يهدي إلى خزانة المسجد الأقصى مصحفاً شريفاً في غاية الروعة والجمال، قام بكتابته بيده وأوقف عليه أوقافاً لقراءته في المسجد الأقصى سنة 745هـ/1344م، هذا إلى جانب عشرات المصاحف التي أوقفها كل من سلاطين المماليك والعثمانيين مثل الظاهر جقمق، والأشرف أنيال، والأشرف بارسباي، والظاهر خشقدم[59]، والسلطان سليمان القانوني، والوزير العثماني سنان باشا، وناظر الحربية العثماني أنور باشا وغيرهم[60].

بعد صدور وعد بلفور سنة 1336هـ/1917م، ورعاية الحكومة البريطانية للهجرة اليهودية لفلسطين، شعر أبناء فلسطين وأبناء الأمة الإسلامية بالخطر الذي يتهدد الهوية الإسلامية لفلسطين وللمدينة المقدسة بشكل خاص، فقاموا بتأسيس المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين سنة 1340هـ/1921م، والذي كان من ضمن قراراته إنشاء مكتبة الأقصى لحفظ كنوز المدينة المقدسة من الوثائق والمخطوطات والكتب النادرة، وكان مقرها في بادئ الأمر في القبة النحوية[61]، تحت اسم دار كتب المسجد الأقصى، وذلك في 12 ربيع الأول سنة 1341هـ/1922م. وكانت المكتبة تشتمل في سنة 1927 حسب قول الأستاذ عارف العارف على 1,800 كتاب ومخطوط[62]، ثم نقلت إلى المدرسة الأسعروية

شمال المسجد الأقصى. وفي سنة 1929 صارت فرعاً من المتحف الإسلامي في القدس، ولكنها بقيت مغلقة أمام الجمهور حتى سنة 1976[63]، حين أعادت دائرة الأوقاف الإسلامية افتتاحها تحت اسم مكتبة المسجد الأقصى. وفي سنة 1978 نقلت من جديد إلى المدرسة الأشرفية السلطانية التي بناها السلطان الأشرف قايتباي في الحرم الشريف[64]، وفتحت أبوابها للجمهور، وقد ذكر أمينها أن عدد محفوظاتها حوالي 14 ألف مجلد[65].

وكانت موارد مكتبة الأقصى من بقايا كتب دار كتب المسجد الأقصى، ويبلغ عددها في السجلات حوالي أربعة آلاف كتاب معظمها فُقِد، ومكتبة الشيخ خليل الخالدي التي كان مجموع ما فيها حسب الحجة الوقفية 3,480 كتاباً و500 مخطوط، وصل منها 759 كتاباً ومئة مخطوط، ومكتبة الشيخ صبري عابدين التي كانت تشتمل على 442 كتاباً وصل مكتبة الأقصى منها 304 كتب. وقد تنادى علماء الأمة من مختلف أرجاء العالم العربي لدعم هذه المكتبة ذات الخصوصية في نفوس أبناء الأمة كونها تحمل اسم المسجد الأقصى، فأهدى إليها علماء مصر مثل أحمد زكي، ومحمود تيمور، وعلماء فلسطين مثل مي زيادة، وعلماء سورية مثل رفيق العظم، وعلماء العراق مثل رشيد عالي الكيلاني، والشاعر الرصافي وغيرهم، حتى بلغ عدد الكتب المطبوعة 20 ألفاً في مواضيع متنوعة مثل اللغة العربية والتاريخ والسير والآثار والفقه والأصول والتفسير والحديث وعلوم القرآن وأصول الدين والتصوف والفلسفة والمنطق والجغرافيا والحساب. أما عدد المخطوطات فيبلغ 1,500 مخطوط[66]، قام أمين المكتبة الأستاذ خضر إبراهيم سلامة بفهرستها في ثلاثة أجزاء، طبع الجزء الأول سنة 1980، وصدر الجزء الثاني سنة 1983 بدعم من مؤسسة آل البيت في الأردن.

وقد أثنى الأستاذ محمد كرد علي على مكتبة الأقصى وعلى ما تحويه من نوادر الكتب والمخطوطات فقال: "ومن أهم الخزائن في الشام خزانة المسجد الأقصى في القدس" وذكر من نفائسها كتاب "نشق الأزهار في عجائب الأقطار" للمؤرخ المصري ابن إياس ت 930هـ/1524م[67]، ومخطوط "تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم"، لأبي بكر الخطيب علي بن ثابت البغدادي ت 464هـ/1072م، ومخطوط "طبقات الشافعية" لتقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي ت 851هـ/1448م، ومخطوط كتاب "الأقاليم" للأصطخري ت 340هـ/952م، ويرجح أن المخطوط يرجع إلى القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الهجري[68].

وكان لخزانة المسجد الأقصى منذ فترة مبكرة من تاريخها أمناء يقومون عليها، وأوقاف منتشرة في معظم مدن فلسطين للإنفاق عليها، وعلى العلماء القائمين على التدريس وقراءة القرآن في المصاحف الموقوفة من قبل أهل الخير في الأمة، ولعل الناظر في كتب التراجم يلاحظ أن الأعلام من علماء الأمة كانوا يتولون أمانة خزانة المسجد الأقصى، منهم على سبيل المثال العالم الجليل شمس الدين محمد بن حبيب الغانمي المقدسي، الذي تولى وظيفة خازن الكتب في المسجد الأقصى في أواسط القرن التاسع الهجري[69]، واستمر هذا الحال حتى يومنا هذا مع شيء من التعديل في الواجبات والمهام.

وفي القرن العشرين كان من أشهر أمنائها عند التأسيس الأستاذ عادل جبر، والشيخ يعقوب البخاري[70]، ثم تعددت الهيئات والأشخاص من المشرفين على الحرم الشريف بما فيه من معالم ثقافية في أثناء الاحتلال الصهيوني.

لقد كان المسجد الأقصى جامعة مفتوحة بالمفهوم المعاصر، فقد كانت ساحاته ومحيطه يزدحم بالمؤسسات العلمية من مدارس وزوايا ومكتبات ودور حديث ونحو وقرآن، ورباطات وخوانق، والتي كانت تعقد فيها حلقات العلم والدروس الدينية، وعلوم اللغة والتاريخ والسير، وعلم الكلام والمنطق والعلوم الرياضية وغير ذلك من فنون العلم، مما انعكس بشكل واضح على مكتبته فتنوعت محتوياتها لتلبي رغبات الدارسين في مختلف حقول المعرفة، مما زاد من شهرتها وشيوع صيتها في أرجاء العالم الإسلامي، عن طريق روادها من طلاب العلم من مختلف أرجاء المعمورة.

2. مكتبة الشيخ الخليلي:

تأسست هذه المكتبة سنة 1138هـ/1725م، وهي أول مكتبة عامة يوقفها أحد سكان مدينة القدس لأبناء المدينة المقدسة، وكان فيها سبعة آلاف كتاب[71]، أوقفها شيخ الإسلام محمد الخليلي مفتي الشافعية بالقدس وأحد شيوخ الطريقة الصوفية القادرية، والذي نشأ في الخليل وتلقى العلم في الأزهر ثم جاء إلى القدس سنة 1104هـ/1695م، وسكن في المدرسة البلدية المجاورة للمسجد الأقصى، وكان وافر العلم وافر الغنى، كما أنه ألّف في الفقه الفتاوى الخليلية، وأجازه الشيخ عبد الغني النابلسي ولقبه بعلامة البلاد المقدسة، وقد توفي سنة 1147هـ/1734م.

وقد كانت خزانة كتبه فريدة ومتنوعة، كما أثنى عليها حسن عبد اللطيف الحسيني في تراجم أهل القدس بقوله: "وجمع مولانا خزانة علم فريدة من الكتب الصحيحة

المجيدة أوقافها وسبلها، وهي الآن نفع نافع لكل طالب، وصدقة جارية كافية للراغب"[72] وهي أول مكتبة عامة يوقفها أحد سكان القدس، ويكون بذلك رائداً من رواد هذا العمل الخالد إذ كانت مفتوحة الأبواب لكل الناس[73]، وكانت هذه المكتبة غنية بكتبها المتنوعة التي تخدم مختلف الدارسين في حقول المعرفة المختلفة، فقد أوردت وقفية الشيخ الخليلي ثبتاً بأسماء الكتب الموقوفة التي فيها، من مصاحف شريفة وكتب تفسير وحديث وفقه وأصول وتوحيد وتصوف وقراءات وفرائض وحساب وفلك ونحو ومعاني وبيان ومنطق وصرف وعروض وآداب وطب، فضلاً عن رسائل متعددة في علوم مختلفة. ويقدر عدد المجلدات بسبعة آلاف مجلد وقفها على نفسه مدة حياته ثم على أولاده وأحفاده ما تناسلوا، فإذا انقرضوا فعلى أقرب عصبات الواقف ما تناسلوا فإذا انقرضوا فعلى الزاوية المحمدية في صحن الصخرة وعلى فقهاء الشافعية، ووضع الواقف شروطاً كثيرة للحفاظ على الكتب بحيث لا تباع ولا توهب ولا ترهن ولا تهدى لأحد من الحكام والأعيان ولا تستبدل، فضلاً عن العناية بالكتب وترميمها وتجليدها وعدم إعاراتها إلا لطلبة العلم، ومن هذه الشروط أن تبقى الكتب تحت أيدي الموقوف عليهم في المدرسة البلدية ما داموا فيها، وكانت المدرسة البلدية بباب السلسلة قد أنشأها نائب السلطان الأمير سيف الدين منكلي بغا الأحمدي ت 782هـ/1381م وقد حولت من هذه المدرسة في سنة 1400هـ/1979م إلى مكتبة الأقصى[74].

3. المكتبة الخالدية العمومية:

تعدّ المكتبة الخالدية في القدس الشريف من أهم دور الكتب في فلسطين وأغناها، وقد كانت مدرسة آلت ملكيتها إلى السيدة خديجة الخالدي ابنة قاضي عسكر بر الأناضول موسى أفندي، والتي أوصت ولدها الحاج راغب الخالدي الديري المقدسي، رئيس المحكمة الشرعية بيافا، أن يقفها وينقل إليها كتب الأسرة الخالدية، فنفذ وصيتها سنة 1318هـ/1900م بمشورة ومساعدة بعض وجهاء عائلته؛ ياسين الخالدي، وموسى شفيق الخالدي، إلى جانب صديق العائلة الشيخ ظاهر الجزائري مؤسس المكتبة الظاهرية بدمشق، والشيخ أبي الخير الحبال الدمشقي، وخصصوا لها غرفة رحبة على جادة باب السلسلة في القدس الشريف، كما جرى الاتفاق أنه متى توفي أحد أفراد الأسرة تنقل كتبه إلى المكتبة الخالدية. وهكذا ضُمّت إليها كتب ضياء الدين باشا الخالدي، نائب القدس في مجلس المبعوثان العثماني 1295هـ/1878م، ومكتبة روحي بك الخالدي، الرئيس الثاني

لمجلس المبعوثان العثماني 1326هـ/1908م، ومكتبة نظيف بك الخالدي أحد مهندسي سكة حديد الحجاز، ومكتبة أحمد بدوي بك الخالدي وغيرهم[75].

وقد أوضح برنامجها (الفهرس) الذي صدر غداة تأسيسها، والذي يقع في 87 صفحة بقطع ربع عادي، الظروف التي تمّ بها تأسيس المكتبة وجعلها دار كتب عامة، مفتوحة الأبواب لجميع الطلاب من الصباح إلى المساء طوال أيام الأسبوع، شريطة ألا يخرج منها كتاب، وذلك حرصاً على المنفعة العامة[76].

ويتبين من مطالعة فهرست المكتبة أنها تحوي كتباً في مختلف الموضوعات، في التفسير والتجويد والقراءات والرسم والحديث والأصول، والفتاوى والفقه على المذاهب الأربعة، والفرائض والتوحيد والتصوف والمواعظ والحكم، والنحو واللغة والأدب والسياسة والقانون، والإدارة والفلك، والطب، والمناقب والسيرة، وعدد كبير من المجاميع في مختلف العلوم الدينية والدنيوية[77].

أما بالنسبة لتطور أعداد الكتب والمخطوطات فيها فقد تزايد بشكل مطرد، فكان عدد موجوداتها 1,318 كتاباً عند تأسيسها سنة 1900[78]، ليقفز سنة 1917 إلى أربعة آلاف كتاب، فقد زارها في هذا التاريخ العلامة عبد الله مخلص وأثنى عليها بقوله: "زرت هذه المكتبة سنة 1336هـ/1917م، فرأيت فيها نفائس المطبوعات ونوادر المخطوطات"، إذ بلغ عدد موجوداتها في هذا التاريخ أربعة آلاف مجلد، ثلثاها مخطوط والثلث من نوادر المطبوعات القديمة، فضلاً عما أهدي إليها من نفائس مطبوعات المستشرقين مثل الأستاذ مرجليوث Margoliouth وغيره[79]. واستمر عدد موجودات المكتبة ثابتاً حتى سنة 1928[80]، إلا أنه ازداد في سنة 1936 ليصل إلى سبعة آلاف كتاب، وهذا ما أكده فيليب دي طرازي والعالم القبطي جرجس فيلوثاوس عوض الذي زار المكتبة بتاريخ 1936/4/14، وأكد بأنها تشتمل على سبعة آلاف مجلد، ثلثها مخطوط، ومن تلك المخطوطات ما يبلغ عمره السبعة قرون[81]. وفي سنة 1945 زارها عارف العارف، وذكر بأنها تشتمل على 12 ألف كتاب بالعربية والفارسية والتركية والإنكليزية والفرنسية[82]، منها خمسة آلاف مخطوطة في العلوم المختلفة[83].

وكنتيجة للنكبات المتوالية التي تعرضت لها المدينة المقدسة منذ سنة 1948 بدأت موجودات المكتبة تتقلص وتتبعثر حتى بقي منها 5,980 كتاباً في إحصاء سنة 1973 منها 4,412 بالعربية والتركية والفارسية، و1,568 بالإنجليزية والفرنسية[84].

ويؤكد عبد الله مخلص بأن المكتبة الخالدية تحتوي على 48 مخطوطاً من أنفس المخطوطات وأكثرها ندرة في العالم، وذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب "المدهش" للحافظ أبي الفرج الجوزي ت 597هـ/1200م، ومخطوط: "الشعور بالعور" للشيخ صلاح الدين خليل أيبك الصفدي ت 764هـ/1362م، و"أنموذج العلوم" للمولى شمس الدين محمد حمزة الفناري ت 834هـ/1430م، الذي ذكر فيه أصول مئة علم، و"مختصر حياة الحيوان" لجلال الدين السيوطي ت 911هـ/1505م، وهو ملخص من حياة الحيوان الكبرى للدميري، و"إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى" للشيخ كمال الدين محمد أبي شرف الشافعي المصري ت 906هـ/1500م، ألفه في أثناء مجاورته بالقدس سنة 875هـ/1470م، و"مثير الغرام بفضائل القدس والشام" لشهاب الدين أبي محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم المقدسي ت 765هـ/1363م، و"الطبقات السنية في تراجم الحنفية" لتقي الدين بن عبد القادر الغزي التميمي الداري ت 1010هـ/1601م، و"حسن الاستقصا لما صح وثبت في المسجد الأقصى" لأحمد بن التافلاتي، وقد ألّفه سنة 1100هـ/1699م، و"قهوة الإنشاء" لابن حجة النحوي ت 837هـ/1433م وهو مجموع رسائله، و"شاناق في السموم والترياق" لشاناق الهندي، وقد نقله إلى العربية للخليفة المأمون، ابن سعيد الجوهري وهو في معرفة السموم والترياق الذي يدفعها، وهي نسخة ملوكية، وغيرها من المخطوطات في فنون العلم المختلفة[85].

هذا وقد تولى إدارة المكتبة مجموعة من الإعلام، منهم طاهر الجزائري، ثم الشيخ أمين الأنصاري وقد ظلّ مديراً للمكتبة زهاء نصف قرن، وتوفي في أوائل الخمسينيات، وبعد وفاته بقي مفتاحها في عهدة ابنه، وفي سنة 1967 تولى أمر المكتبة أحد أفراد الأسرة من آل الخالدي في القدس، وهي الآن بحاجة لإعادة إحياء وبحث من جديد، بعد أن تسرب إليها الإهمال[86].

4. مكتبة المتحف الإسلامي:

أسس المتحف سنة 1923 بمبادرة من المجلس الإسلامي الأعلى، حيث يعدّ أول متحف أسس في فلسطين، وقد أقيم في بادئ الأمر في الرباط المنصوري[87]، الذي كان قد أنشأه المنصور قلاوون سنة 681هـ/1282م، وفي سنة 1929 نُقِل إلى مقره الحالي وهو جامع المغاربة القديم في الجزء الجنوبي الغربي من الحرم القدسي[88].

وتحتوي مكتبة المتحف على مجموعة قيمة من المخطوطات والوثائق، فهنالك أكثر من 1,300 وثيقة تعود إلى الفترتين المملوكية والعثمانية، وهي تبحث في عدة مواضيع منها؛ محاضر بيع وشراء أراضي، وعقود زواج، ومحاضر حصر أرث، وقرارات تعين قراء في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها. ويذكر عارف العارف أنه في سنة 1928 كان عدد الكتب فيها 1,700 كتاب مخطوط[89]، وآخر ما اكتشف من وثائق هذا المتحف هي تلك الوثائق التي أصبحت تعرف باسم "وثائق الحرم القدسي الشريف"، والتي اكتشفت ما بين سنتي 1974-1976 في إحدى الخزائن التي كانت مغلقة ومهجورة منذ زمن بعيد في المتحف، وهي تشمل على 1,300 وثيقة تقع في 883 ورقة تغطي الفترة 604-886هـ ومعظمها يرجع إلى السنين العشرة الأخيرة من القرن الثامن الهجري، وهي عبارة عن مراسيم سلطانية تتعلق بالحرم القدسي الشريف، وقوائم تركات، وأوراق حسابات ووصولات، ومستندات مالية، وإقرارات ديون، ونفقات زوجات أو محاصيل زراعية، ووثائق قضائية، ومحاضر جلسات المحاكم، وعقود زواج وشراء وإيجار، ووثائق تتعلق بالأوقاف والوكالات والفنادق وغيرها، فضلاً عن 27 وثيقة باللغة الفارسية وهي من أقدم الوثائق في هذه اللغة[90].

ومن أهم موجودات المتحف المصاحف الأثرية التي تقدر بـ 650 مصحفاً، والتي تعود إلى مختلف الفترات الإسلامية، تمّ وقف معظمها على المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبعض المساجد القديمة في بقية المدن الفلسطينية، وهي مكتوبة بخطوط مختلفة كالكوفي والمغربي والنسخي والثلث. ويشمل المتحف على نسخة يتيمة من المصحف الشريف مكتوبة بالخط الكوفي على الرق، وهو عبارة عن الجزء الثاني من المصحف[91]، وقد كتب عليه "كتبه محمد بن الحسن ابن الحسين بن بنت رسول الله"[92].

وفي المتحف صندوق كبير يضم مصحفاً مخطوطاً على رق للمسجد الأقصى، كتبه بيده السلطان أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف المريني ملك المغرب، وهذا المصحف مجلد على الطريقة المراكشية، وصندوقه مزخرف بالميناء على الطريقة الأندلسية، وقد فقدت خمسة أجزاء من أجزائه الثلاثين في سنة 1932[93].

ومن الجدير بالذكر أن جامعة ماكجيل McGill University بكندا قامت بتصوير وثائق الحرم القدسي الشريف التي اكتشفت ما بين سنتي 1974-1976 على ميكروفلم، وأصبح الحصول عليها ميسوراً للباحثين، هذا وقد أعيد افتتاح المتحف في سنة 1980.

5. مكتبة متحف الآثار الفلسطيني:

أنشئ المتحف في بادئ الأمر في بناية تخص آل قطينة في منطقة سعد وسعيد، وفي سنة 1927 قدم الثري جون روكفلر إلى حكومة الانتداب البريطاني مبلغ مليوني دولار يصرف نصفه لبناء متحف، ويوقف الباقي من رعيه على صيانته، وقد وضع حجر الأساس سنة 1930، وتمّ البناء سنة 1935 في بستان كبير، ونقلت الآثار من المتحف القديم إلى البناء الجديد المكون من ثلاث صالات عرض، وأربع غرف في زواياه الأربعة ومختبر وغرف كثيرة للموظفين ومكتبة[94].

وتشغل بناية المكتبة جانباً من جناح المتحف الشرقي والجنوبي، وتتألف من طابقين سفلي وعلوي، وفي الطابق السفلي رتبت الكتب على رفوف معدنية، أما الطابق العلوي فيحتوي على غرفة للمطالعة، فيها المراجع والفهارس والمجلات والموسوعات، وقد زودت بمناضد مصنوعة من خشب البلوط[95]. وكان في مكتبة المتحف أكثر من 30 ألف مجلد سنة 1948، أغلبها في التاريخ والآثار، ومن بينها كتب نادرة ومخطوطات ذات قيمة تاريخية وأثرية، أهمها مخطوطات البحر الميت[96].

وقد وضع المتحف عند تأسيسه تحت إشراف هيئة دولية من العلماء من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وممثلين عن خمس دول عربية وواحد يمثل الجامعة العربية، ولم يحدث أن اجتمع الأخير في هذه اللجنة[97]. وفي سنة 1966 ألحق المتحف بدائرة الآثار الأردنية[98]، وبعد احتلال "إسرائيل" للقدس سنة 1967، أعلنت أن المتحف ملك لها، وأحلت محل اللوحات التي كانت تحوي التوضيحات باللغتين العربية والإنجليزية لوحات باللغة العبرية وحدها. كما جرى نهب المخطوطات النادرة حيث نقلت إلى المتحف الإسرائيلي، ومن بين هذه المخطوطات النادرة، مخطوطات البحر الميت، والتي هي عبارة عن نصوص من العهد القديم وكتابات من العهد الجديد لم تكن معروفة سابقاً مكتوبة بالعبرية والأرمية، وتلقي الضوء على جذور المسيحية وعلاقتها باليهودية[99]. هذا وتعد مكتبة هذا المتحف من أكثر مكتبات القدس تنظيماً، إذ كان لها فهرس أبجدي للمؤلفين وآخر للموضوعات، إلى جانب اتباعها نظام تصنيف خاص بها[100].

6. مكتبة الكلية العربية:

تأسست سنة 1930، وتعدّ من أكبر المكتبات الأكاديمية الرسمية، وحتى سنة 1946 كان فيها 7,122 كتاباً، وعندما نشب القتال بين اليهود والعرب في سنة 1948 بعثرت

كتبها ونهب اليهود بعض كتبها القيمة، وضمت إلى مكتبة الجامعة العبرية منها 55 مخطوطاً تبدأ في سجلات الجامعة العبرية برقم 80123 وتنتهي برقم 80178، وقد كتب عند المصدر – كتب المكتبة الإسلامية – القدس[101]. وقد نقل أمين المكتبة جودت القباني ما بقي من مقتنياتها إلى دار المعلمين في عمّان في أوائل الستينيات، ولا يوجد فهرس للتعرف على مدى الضياع الذي لحق بمحتوياتها[102].

7. سجلات المحكمة الشرعية في القدس:

تعدّ من أهم المكتبات الوثائقية في القدس، وقد كانت حتى سنة 1941 في مبنى المحكمة الشرعية القديمة بباب السلسلة الذي يعود إلى القرن الثامن الهجري، إلا أنها نقلت في سنة 1941 إلى مبنى الزاوية البخارية، حيث استقرت المحكمة الشرعية بعد نقلها من مبناها القديم، وبعد سنوات قلائل نقلت المحكمة والسجلات مرة أخرى إلى مبنى جديد بعمارة الأوقاف بباب الساهرة حيث توجد الآن.

وحسب إحصاء سنة 1982 يبلغ عدد سجلات المحكمة الشرعية 616 سجلاً تقع في حوالي مئة ألف صفحة، يبدأ السجل الأول في 14 شوال 936هـ، والذي يعدّ أقدم سجلات المحاكم الشرعية في البلاد العربية جميعاً. وتغطي هذه السجلات فترة طويلة من تاريخ القدس في العصر العثماني حيث بلغ مجموع سجلاتها 416 سجلاً تنتهي في سنة 1336/1335هـ. ولغة السجلات في معظمها هي اللغة العربية، ولكن هناك سجلات بكاملها كتبت باللغة التركية، مثل (السجلات 1-3، 6-7، 9، 11-12، 14، 17)، علماً بأن معظم السجلات المكتوبة باللغة التركية ترجع إلى القرنين الأولين من الحكم العثماني لفلسطين. ويتراوح عدد الصفحات لكل سجل من سجلات القرن 13 هجري/19 ميلادي ما بين 150-300 صفحة، وكانت الصفحة الأولى من كل سجل تحتوي على مقدمة يسجل فيها اسم القاضي وأول تاريخ جلس فيه للحكم. وكل وثيقة من الوثائق التي يحتويها السجل كان القاضي يوقع في أعلاها، وفي نهاية الوثيقة كان يوقع الشهود.

ويمكن تقسيم سجلات المحكمة إلى الأنواع التالية:

- سجلات الفرمانات والأوامر الصادرة من السلطة المركزية إلى الوالي أو القاضي أو غيره من كبار الموظفين، إلى جانب قرارات التعيين والإقطاعات، ومعظمها تعود للقرنين الأولين للحكم العثماني لفلسطين.

• سجلات المتروكات، وسجلات القسام العسكري والقسام العادي، وهي تتعلق بالتركات العسكرية والناس العاديين.

• سجلات الوصايا والوكالات:

وهذه السجلات تعد من أهم الوثائق للتأريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والسياسي لفلسطين في العصر العثماني، ويعود الفضل في ترقيمها وتجليدها وحفظها في خزائن حديدية لسماحة قاضي القدس عبد الحميد السائح رحمه الله[103].

ب. مكتبات المدارس والزوايا:

إن المتأمل لتأريخ القدس منذ تحريرها على يد صلاح الدين سنة 583هـ/1187م وحتى سقوطها بيد الصهاينة سنة 1967 يلاحظ أن هذه المدينة على صغر مساحتها وقلة عدد سكانها مقارنة بالحواضر الإسلامية الكبرى[104] قدمت لنا أكثر من 125 خزانة كتب ملحقة بـ 70 مدرسة و55 زاوية ورباط[105]، فضلاً عن عشرات المكتبات الخاصة والعامة ومكتبات المساجد التي أوقفها حكام وسلاطين المسلمين إلى جانب أهل الخير من أغنياء الأمة[106]. وقد بقي من هذا العدد الكبير حوالي أربعين مكتبة حتى سنة 1945، ذكرها عارف العارف في كتابه "المفصل في تاريخ القدس"[107].

وقد كانت خزائن الكتب في المدينة المقدسة تمثل بمحتوياتها الأطياف الفقهية السائدة من مالكية وشافعية وحنفية وحنبلية، فضلاً عن الاهتمامات الثقافية للنخبة، فقد تخصصت العديد من المدارس والزوايا بلون من ألوان الثقافة الإسلامية، وبالتالي انعكس هذا على محتويات خزائن الكتب الملحقة بها، فعلى سبيل المثال كان في القدس في أواخر القرن 11 هجري/17 ميلادي، أربعون مدرسة للفقه، وعشرة دور للقران الكريم، وسبعة دور للحديث النبوي الشريف، فضلاً عن المدارس التي تخصصت في النحو، وهي بحق تعكس توجهات النخبة المثقفة في القدس الشريف، وستحاول الصفحات القادمة تسليط الضوء على بعض هذه المكتبات منها:

مكتبة المدرسة النصرية التي أنشأها الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي في أواسط القرن 15 هجري/11 ميلادي، والتي عرفت فيما بعد باسم مكتبة المدرسة الغزالية لاعتكاف حجة الإسلام أبي حامد الغزالي فيها، حيث أتمّ تأليف كتابه الشهير "إحياء علوم الدين". والمدرسة تقع بالقرب من باب الرحمة الملاصق لباب التوبة شرقي ساحة الحرم، وقد جدد الملك المعظم عيسى بن أحمد بن أيوب بناءها وجعلها زاوية لقراءة

القرآن الكريم والاشتغال بالنحو، وزود مكتبتها بمجموعة من الكتب، من جملتها كتاب "إصلاح المنطق" لأبي يوسف بن إسحق بن السكيت، ويذكر مجير الدين الحنبلي أنه وقف على كراسة من هذا الكتاب وعلى ظهرها الوقف، وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة سنة 610هـ/1214م، وبسبب كثرة الكتب الموقوفة على مكتبة هذه المدرسة أمّها العلماء والطلاب على حدٍّ سواء طوال العهد الأيوبي وفترة طويلة من العهد المملوكي، ويبدو أن هذه المكتبة والمدرسة قد اندثرت وغدت أثراً بعد حين في أواخر القرن 9 هجري/15 ميلادي[108].

أما مكتبة المدرسة (الخانقاه)[109] الفخرية، وهي من المكتبات الكبيرة في ساحة الحرم الشريف بالقدس، والغنية بمخطوطاتها الدينية والفلكية، وكان عدد مجلداتها يقدر بنحو عشرة آلاف مجلد، غير أن أفراد أسرة أبي السعود التي كانت لها الولاية على الخانقاه قد اقتسموها بينهم فتبعثرت[110]. وكان القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ت 732هـ/1331م، والذي ينحدر من أصل قبطي قد أسلم وحسن إسلامه وأوقف هذه المدرسة والمكتبة الملحقة بها[111]، وقد استولت السلطات الإسرائيلية على الزاوية الفخرية في 1969/6/16[112].

ونصت الوقفية الخاصة بالمدرسة الأشرفية السلطانية على أنه كان في الحائط الشمالي للمدرسة ثلاث خزائن للكتب، كان يقوم عليها ثلاثة موظفين، أحدهم يسمى خادم الربعة الشريفة، وآخر يحمل لقب خادم المصحف، وثالث باسم مفرق الربعة الشريفة، وكان من جملة موجودات هذه المكتبة المصحف الذي وقفه السلطان قايتباي[113].

وفي رواق الحرم الشمالي تقع مكتبة المدرسة الأمينية، وهي عبارة عن غرفة مخصصة للكتب تدعى "الكتبية"، وضع فيها الشيخ محمد بن صالح الإمام، شيخ المدرسة في القرن 13 هجري كتبه، وفي سجلات المحكمة الشرعية بالقدس حجة وقف، وقف بموجبها الشيخ يحيى شرف الدين ابن قاضي الصلت ت 1040هـ/1630م، أحد أجداد عائلة الإمام والمدفون بالمدرسة، مجموعة كبيرة من الكتب على أولاده ونسله، ومن بعدهم على طلبة العلم من السادة الشافعية في القدس الشريف، وحجة الوقف هذه مؤرخة في 25 رجب 1007هـ/1598م[114].

ومن المدارس التي اشتهرت بمكتباتها في بيت المقدس المدرسة الصلاحية، التي أسسها صلاح الدين الأيوبي فور تحريره للمدينة المقدسة ووقفها في 13 رجب 588هـ[115]، فقد

عهد إلى تحويل الدار التي بناها فرسان المنظمة الصليبية العسكرية المسماة الإسبتارية إلى مدرسة كبرى هي المدرسة الصلاحية، يدرس فيها الفقه الشافعي، وزودها بالكتب[116]. وكانت وظيفة شيخ الصلاحية المشرف على المدرسة ومكتبتها وطلابها في قمة الوظائف الدينية في بيت المقدس، حيث كان يصدر أمر تعينه بمرسوم من السلطان المملوكي في القاهرة[117].

وكانت ملحقة بالمدرسة الغادرية خزانة كتب وقف بعضها شهاب الدين أحمد الأنطاكي سنة 945هـ/1538م، وفي الزاوية الشمالية للحرم كانت مكتبة المدرسة الجاولية التي وقفها نائب القدس الأمير علم الدين الجاولي 715هـ/1315م[118]. وتأتي بعد ذلك مكتبة المدرسة التنكزية، التي أنشأها الأمير تنكز الناصري ت 741هـ، نائب دمشق سنة 729هـ/1328م، والتي كانت مكتبتها من المكتبات الغنية بالكتب الفقهية على المذاهب الأربعة، لأن هذه المدرسة تميزت بتدريس المذاهب الأربعة، مما كان سبباً في ثراء مكتبتها[119]. وقد استولت القوات الإسرائيلية على هذه المدرسة في 1969/6/24 وحولوها إلى موقع عسكري. وإلى جانب المكتبات السابقة توجد عشرات المكتبات الأخرى[120]، والتي كانت تشكل محوراً للنشاط التعليمي كله، ولم يكن دورها يقتصر على الاستفادة منها في التعليم، بل امتد إلى الإفادة من كنوزها وذخائرها في البحث والتحقيق والدرس الشخصي، فهي كانت تمثل الوجه الحضاري المشرق للقدس، خاصة إذا علمنا أن هناك على سبيل المثال مئات الأوقاف للإنفاق عليها. فقد تبين من نشر دفتر واحد من دفاتر المحفوظات العثمانية هو الدفتر رقم 522 الذي حرر في القرن العاشر الهجري، أنه كان يوجد في القدس الشريف تسعون وقفاً إسلامياً، منها ما كان على المدارس وقراءة القرآن وبعض كتب السيرة والحديث وعلى عشرات الأغراض الحضارية الأخرى[121].

أما أشهر الزوايا التي أُلحق بها مكتبات: الزاوية النقشبندية، التي كان يؤمها الحجاج الوافدون من باكستان، وزاوية الهنود للحجاج القادمين من الهند، والزاوية القادرية للحجاج الواردين من أفغانستان، وفي كل زاوية مسجد وغرف نوم وخزانة كتب ولها أوقاف[122]، ومنها الزاوية البخارية (النقشبندية) بالقدس التي ما تزال فيها مكتبة حتى يومنا هذا[123].

ج. المكتبات الخاصة:

لقد أحصى صلاح الدين المنجد 15 مكتبة خاصة لبعض الأسر المقدسية العريقة، والتي تزخر بنفائس الكتب الإسلامية[124]، ومن أبرز هذه المكتبات:

1. مكتبة ابن جماعة:

الشيخ برهان الدين إبراهيم بن جماعة، خطيب المسجد الأقصى ومدرس المدرسة الصلاحية 725-790هـ/1324-1388م، وقد كانت مكتبته تزخر بنوادر الكتب والمخطوطات، وقال عنها ابن حجر العسقلاني: فيها من الكتب النفيسة ما يعز اجتماعه في أي مكتبة من المكتبات، فالشيخ برهان الدين كان يشتري النسخة من الكتاب التي إليها المنتهى في الحسن، ثم يقع له ذلك الكتاب بخط مُصنِّفه فيشتريه، ولا يترك النسخة الأولى؛ إلى أن اقتنى بخطوط المصنفين مالا يُعبَّر عنه كثرة[125].

2. مكتبة البديري:

نسبة إلى الشيخ محمد بن بدير القدسي ت 1220هـ/1805م، أحد علماء القدس الكبار، وهو ينحدر من أسرة البديري العريقة التي كانت لديها خزائن كتب محفوظة تبددت بعد أن اقتسموها، وآل قسم من محفوظاتها إلى الشيخ محمد البديري فجعلها في جناح خاص في داره التي أوقفها هي والمكتبة المعروفة باسمه بموجب حجة شرعية مؤرخة في 19 ذي الحجة 1205هـ/1790م. وكانت هذه المكتبة وما تزال بقية منها في دار الزاوية الوفائية المقابلة للمدرسة المنجكية (دار المجلس – دائرة الأوقاف اليوم) في باب الناظر، وتعرف باسم دار البديري، وكانت المكتبة تضم ألف مخطوط ما زالت منها بقية في حال يرثى لها، وهي بحاجة إلى الإنقاذ قبل أن تتلف كلياً. وقد صورها مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية[126]، كما جرى تصوير بعضها في الخمسينيات على يد معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية،وقد انتهت حياة المكتبة بنهاية صاحبها الشيخ موسى البديري.

3. مكتبة آل قطينة:

وتدعى أيضاً المكتبة الحنبلية لأن آل قطينة من العائلات الحنبلية القديمة، وقد تكون العائلة الحنبلية الوحيدة في القدس، ويرجع نسبهم إلى مجير الدين العليمي الحنبلي صاحب الأنس الجليل[127]. وتقع هذه المكتبة في سوق خان الزيت، ثمّ نقلت إلى بيت من بيوت آل قطينة بباب العمود، وقد ذكرها محمد كرد في خططه[128] وجرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية، وفيليب دي طرازي في خزائن الكتب العربية في الخافقين الذي قال إنها تشمل على أربعة آلاف مجلد في جملتها 800 مخطوط[129]، وأجمعوا على أنها كانت تشمل على مصنفات في الرياضيات والتاريخ والفلك والتنجيم والدراسات الإسلامية. وكانت كتب المكتبة موقوفة على المطالعين حتى أوائل القرن العشرين، ولكنها اختفت

وتفرقت مخطوطاتها بعد اغتصاب "إسرائيل" لفلسطين سنة 1948[130]، ويقال إن خليل يس قطينة أخذها معه سنة 1948، إلى دمشق، ولا يعلم عنها شيء بعد ذلك.

4. مكتبة الشيخ أحمد بن يحيى:

المشهور بالشيخ بالموقت، الذي ينحدر من أصول مغربية، وقد تولى الإفتاء للحنفية، فضلاً عن تدريسه في المسجد الأقصى ت 1171هـ/1757م. وقد وقف الشيخ الموقت كتبه بموجب وقفية مؤرخة في سنة 1181هـ/1767م، وجعلها صدقة جارية لطلبة العلم، وقد كانت تشتمل على كتب نفيسة، وقد بقيت منها بقية حتى أوائل القرن العشرين ثمّ تبعثرت، فنقل بعضها إلى المكتبة الخالدية، وأخذ بعضها الشيخ طاهر الجزائري إلى الظاهرية في دمشق[131].

5. مكتبة إسعاف النشاشيبي ت 1368هـ/1948م:

كانت في بيته في حي الشيخ جراح بشرق القدس، وكان فيها الكثير من النفائس والمخطوطات العربية والكتب الأجنبية، وقد سُرق معظم محتوياتها في سنة 1948، ولم يسلم منها سوى ما أهداه إسعاف النشاشيبي للمجمع العلمي العربي بدمشق من مخطوطات، والتي منها: ملخص من كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" تأليف عبد الرحمن العليمي نسخ سنة 1224هـ، و"تحرير المقال فيما ورد عن التعارض في حق الآل" للشيخ الكزبري الدمشقي، و"إعلام السائلين عن كتب المرسلين" لمحمد بن علي بن طولون، ورسالة أبي بكر الصديق لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بشأن البيعة، وغيرها[132]. قال يعقوب العودات بأنها مكتبة لا تشبهها مكتبة، أطبق عليها من لا خلاق لهم في نكبة 1948 عندما اجتاح بعض المرتزقة أحياء القدس العربية زعماً منهم أنها أحياء يهودية، فنهبوا مكتبة إسعاف وحملوها إلى مدينة الزرقاء بالأردن، وباعوها على مشهد مني بالرطل لأصحاب الأفران فذهبت طعمة للنيران[133].

6. مكتبة عبد الله مخلص:

وهذة المكتبة موجودة في حي الشيخ جراح، وقد كان عبد الله مخلص 1878-1947 من علماء التاريخ والآثار، وقد سكن عكا مدة طويلة، ثم انتقل إلى القدس وأصبح فيها مديراً عاماً للأوقاف، وكانت له مكتبة كبيرة في عكا بها من المخطوطات والكتب النادرة، فنقلها معه حيث كان يسكن في حي الشيخ جراح، وكانت تشتمل على 110 مخطوطات إلى جانب

أكثر من ثلاثة آلاف مجلد، وقد نقلت إلى دير القربان في سنة 1948، إلا أنها ضاعت تحت الأنقاض بعد أن نسف الصهاينة الدير[134].

7. مكتبة حسن بن عبد اللطيف الحسيني مفتي القدس ت 1226هـ/1811م:

كانت له مكتبة حافلة بالكتب أوقفها بموجب حجة شرعية مؤرخة في 1201هـ، مودعة في المحكمة الشرعية في القدس في سجل رقم 267[135]، تصرف فيها أخوال الورثة فبيعت بواسطة حسن الحشيم بائع الأشياء القديمة في القدس، ووصل منها ثلاث مخطوطات للسيد فهمي الأنصاري والأستاذ محمد البطراوي وتسرب بقيتها. ومن أبرز مقتنياتها كتابان في الطب والبيطرة، فضلاً عن الموضوعات الدينية واللغوية[136].

8. مكتبة الدكتور إسحق موسى الحسيني:

وهذه المكتبة موجودة في بيته في غرب القدس وكانت تضم زهاء أربعة آلاف كتاب، إلا أن هذه المكتبة قد احترقت في أثناء أحداث 1948. وبعد سنة 1948 أعاد الدكتور الحسيني إنشاء مكتبة جديدة في القاهرة، فكانت تضمّ زهاء خمسة آلاف كتاب، اشترت الجامعة الأردنية 1,500 كتاب منها، ونقل حوالي ألفين إلى القدس أهديت إلى مركز الدراسات الإسلامية فيها، وإلى مكتبة كلية الآداب للبنات، وبقي منها في القاهرة حوالي 1,500 كتاب[137].

9. مكتبة عبد الحي جار الله:

من المكتبات الخاصة التي اشتهرت في المدينة المقدسة في الفترة ما بين 1800-1830، وكانت تضمّ كتباً ومصنفات في مختلف الحقول، في النحو والتصوف والفلسفة، منها: "الأشباه والنظائر في النحو" لجلال الدين السيوطي، و"منارة الإبصار ومسارح الأفكار" لنزهة الرومي، و"تهافت الفلاسفة" لأبي حامد الغزالي، و"ديوان ابن الفارض" لعمر بن علي بن مرشد، و"منازل السابقين" لعمر بن مطرف الكاتب وغيرها[138].

10. مكتبة الشيخ حسام جار الله:

كانت هذه المكتبة تضمّ حوالي ألفي كتاب ومخطوطة في العلوم الإسلامية وعلوم العربية والأدب العربي، من بينها نسخة نادرة للقرآن الكريم مجلدة بجلد غزال، وكانت المكتبة محفوظة في خزائن، وقد سرقت سنة 1948[139].

11. مكتبة الشيخ سليمان أفندي المدرس:

كانت مكتبة حافلة بالمصادر الإسلامية من أبرزها: "المصابيح" لابن أبي داود السجستاني، و"البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة" لسراج الدين عمرو بن قاسم الأنصاري، كما اشتملت على بعض كتب الطب، وهي من المكتبات التي كانت عامرة في القرن 19[140].

12. مكتبة الشيخ محمد أفندي زادة:

وهو مفتي القدس في القرن 12 هجري ت 1152هـ/1739م وكانت مكتبته تعكس تنوع ثقافته، فقد كان فيها كتب دينية ولغوية، وفي العلوم والفلسفة والطب، منها كتاب "الرحمة في الطب" و"الحكمة" لمهدي بن علي المقري ت 815هـ/1412م[141].

13. مكتبة ابن قاضي الصلت:

وهو الشيخ يحيى شرف الدين بن محمد الشهير بابن قاضي الصلت 1040هـ/1630م، إمام المسجد الأقصى المبارك، أوقف كتبه سنة 1007هـ/1598م، والتي تضمّ الكثير من الكتب المشهورة في حقول مختلفة من الثقافة الإسلامية، حوالي مئة كتاب في الحديث والسيرة والتفسير واللغة والنحو والفقه والقراءات وعلم الكلام والفرائض والتاريخ والمنطق والجغرافية والتصوف والأخلاق والحساب وموضوعات أخرى متفرقة، وهي تعكس الثقافة العامة التي كانت شائعة لدى علماء القدس، وقد تفرقت هذه الكتب مع الزمن بين عدة مكتبات من أبرزها المكتبة الخالدية، ومكتبة المسجد الأقصى ومكتبة الشيخ محمد الخليلي[142].

14. مكتبة حسن الترجمان:

أسس هذه المكتبة حسن الترجمان الصالح، وكانت تشتمل على 900 مخطوط، فضلاً عن 2,600 كتاب[143].

15. مكتبة عارف العارف توفي سنة 1973:

من المكتبات الخاصة التي غدت بعد وفاته لاستخدام العامة، حيث تركت أمانة للورثة في المعهد العربي في أبي ديس، وسلمت للمعهد سنة 1979، وعدد كتبها 1,141 كتاباً باللغة العربية، وفيها 541 كتاباً باللغات الأخرى[144].

16. مكتبة شكي مكي:

وهي من المكتبات التي كانت تزخر بكتب الفقه والدراسات الإسلامية، ومن بين مقتنياتها: "جامع الفتاوى" للشيخ قرق الحميدي، و"المقصود لمن يتعاطى العقود" لأبي العباس أحمد بن عمر الباباني، و"ملتقى البحرين" للشيخ علاء الدين بن معروف وغيرها[145].

17. مكتبة الشيخ محب الدين محمد بن الدويك قاضي القدس:

وقد كانت تشتمل مكتبته على 150 كتاباً في التفسير والتصوف والأصول والقراءات والأدب والنحو، وهناك عدد من الكتب في الطب والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والمنطق[146].

18. مكتبة حسين أفندي نقيب الأشراف:

وقد كانت عامرة في القرن 19، ومن ضمن مقتنياتها كتاب "علم الكلام في علم الكرام" لزين الدين الملطي، و"تاريخ الخوارج" لمحمد بن قدامة[147].

19. مكتبة الشيخ عبد الله بن عبد الله النقرزان:

وهو من علماء القرن العاشر الهجري، وقد تضمنت تركته ستين كتاباً[148].

20. مكتبة محمد صنع الله الخالدي:

وقد كان رئيس كتّاب المحكمة الشرعية بالقدس ت 1140هـ/1727م وفي فهرست المكتبة الخالدية بالقدس مخطوط رقم 1457هـ عنوانه أسماء الكتب التي وقفها محمد صنع الله الخالدي على أولاده الذكور وأحفاده[149].

21. مكتبة الشيخ إمّت خليفة بن إبراهيم:

وهو من علماء القرن العاشر، وقد وقف كتبه على نفسه ثمّ على أولاده، فإذا انقرضوا آلت الكتب إلى مكتبة المدرسة الأرغونية في القدس، وعددها خمسون كتاباً[150].

22. مكتبة الشيخ شرف موسى الديري:

وهو إمام مسجد قبة الصخرة الشريفة سنة 984هـ/1576م، وقد ورد في حصر تركته أسماء أكثر من مئة كتاب جلها في الموضوعات الدينية واللغوية، وأكثرها من الكتب الشهيرة التي كانت متداولة في العالم الإسلامي[151].

23. مكتبة الشيخ عبد المعطي الخليلي:

وهو مفتي الشافعية بالقدس ومن علماء المسجد الأقصى ت 1154هـ/1741م وقد ورد ضبط تركته من الكتب في السجل 231 صفحة 65-66 لسنة 1154هـ/1741م من سجلات المحكمة الشرعية في القدس[152].

24. مكتبة فهمي الأنصاري:

تأسست سنة 1956 من نتاج رحلاته الخاصة في 36 دولة، وتحتوي مئتي مخطوطة دينية وأربع مخطوطات في الطب وثلاث في الفلك[153]، ومن نوادر مخطوطاتها: "واقعات المفتين" النسخة الأم، كما ورد فيها: "اشتراها الأنصاري من ورثة شموئيل سلمون"، ومن الغريب أنها كانت في الأصل لبدر يونس الحسيني؛ ومخطوطة "تذكرة الحاضر وزاد المسافر" لعبد الله بن جبريل بن عبد الله بن بختشيوع الطبيب المتوفي سنة 451هـ، وهي مخطوطة نادرة الوجود في العالم، وثلاث رسائل من رسائل إخوان الصفا، وهي الرسالة العاشرة القسم الثاني "الحاس والمحسوس"، والرسالة الحادية عشرة معنونة "بمسقط النطفة" والرسالة الثانية عشرة "في أن الإنسان عالم صغير". وقد ذكرت مجلة المقتطف سنة 1936 أن القسم الشرقي في جامعة برنستون Princeton University حصل على النسخ الأصلية من رسائل إخوان الصفا، وينقص منها الرسالة العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، وهي النسخ المحفوظة في مكتبة الأنصاري[154].

25. مكتبة خليل الجاعوني:

وكان من مقتنيات هذه المكتبة: "المختار في فروع الحنفية" لأبي الفضل محمد، و"الجامع الصغير في النحو" للشيخ محمد بن شرف الكرجي[155].

26. مكتبة محمد النعاجي:

ومن مقتنياتها: تفسير البيضاوي المسمى بـ"أنوار التنزيل" لناصر الدين سعيد البيضاوي، وكتاب في الحساب، وكتاب في الحديث تحت مسمى "الرحمة"[156].

27. مكتبة محمد نسيبة:

ومن ضمن مقتنياتها: "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار"[157].

28. مكتبة محمود اللحام:

وهي تقع بضاحية سلوان شرقي القدس، وتربو كتبها عن أربعة آلاف مصنف.

29. مكتبة مروان العسلي:

كانت تضم زهاء 4,500 مجلد في مختلف الموضوعات، وقد بيعت إلى جامعة الخليل[158].

30. مكتبة أحمد سامح الخالدي ت 1371هـ/1951م:

تحتوي على أكثر من مئة مخطوط عدا الكتب المطبوعة، ومن مخطوطاتها نسخة من كتاب "الأنس الجليل" مؤرخة في سنة 910هـ، وكتاب "الخميس" للديار بكري، وغير ذلك من الكتب القديمة النفيسة[159].

31. مكتبة الشيخ خليل جواد الخالدي ت 1360هـ/1941م:

كان للخالدي معرفة واسعة بالكتب، وقد تفوق بعلم المخطوطات فأحكمه ونبغ فيه حتى أصبح علماً من أعلامه، وتعهد مكتبات الأستانة واستنسخ كثيراً من نوادر مخطوطاتها، وجمع في خزائنه الخاصة زهاء خمسة آلاف مجلد عربي بينها ألف مخطوط[160]. وكان مجموع ما فيها حسب الحجة الوقفية 3,480 كتاباً و500 مخطوط، وصل منها 759 كتاباً ومئة مخطوط، وقد ذكر عارف العارف أنها محفوظة في صناديق مقفلة حتى سنة 1947، وقد ضمت إلى مكتبة المسجد الأقصى سنة 1978[161].

وهناك عدد كبير من المكتبات الخاصة الأخرى منها: مكتبة حسن صدقي الدجاني ت 1357هـ/1938م، وخليل السكاكيني ت 1373هـ/1953م، وخزانة آل أبي اللطف وغيرها[162]. ومن الملاحظ على مقتنيات هذه المكتبات أنها انصبت على النحو واللغة والتصوف والفقه، وقليل منها تطرق للخلاف أو كتب الفرق الإسلامية، ولعل هذا يفسر حرص المجاورين على وحدة المدينة المقدسة، وعدم إشغال أهلها بما يفسد روح التسامح التي كانت سائدة فيها[163].

رابعاً: المكتبات غير الإسلامية:

1. مكتبات الأديرة والكنائس في بيت المقدس:

لقد قدم تاريخ مدينة القدس في ظلّ الحكم الإسلامي النموذج الأمثل لروح التسامح السامية مع جميع الطوائف التي كانت تشارك المسلمين الحياة والعيش في ربوع المدينة

المقدسة، فقد كان في القدس أكثر من عشرين ديراً وكنيسة، ملحق بمعظمها مكتبات تشتمل على نفائس الكتب[164] والوثائق المتصلة بشؤون الطوائف المسيحية في مدينة القدس منذ العصر البيزنطي وحتى الآن.

وكما تسابق المسلمون من حكام ومحكومين في بذل الأموال ووقف الأوقاف لتعزيز الهوية الإسلامية للمدينة المقدسة، كذلك تبارت الجماعات والدول غير المسلمة في تعزيز وجودها في هذه المدينة المقدسة، مستفيدة من روح التسامح لدى المسلمين واحترامهم لأهالي الشرائع السماوية. وقد عكست مقتنيات وأوقاف الكنائس والأديرة والكنس في بيت المقدس عالمية هذه الأوقاف، وقدمت خير شاهد على سمو الحضارة الإسلامية التي كانت طوال تاريخها تقابل الإساءة بالإحسان، والغدر والخيانة بالصفح والعفو.

لقد شاركت الدول والأفراد من مختلف أنحاء أوروبا الغربية والشرقية في إثراء الحركة المكتبية في القدس، فضلاً عن نصارى ويهود العالم الإسلامي، مما يفسر هذا التنوع والتعدد في اللغات التي كتبت بها مقتنيات تلك المكتبات، والتي زادت عن 11 لغة منها اللاتينية، والسريانية، والحبشية، والروسية، والعبرية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والتركية، والعربية... وغيرها، ومن أبرز تلك المكتبات التي تعكس من خلال مسمياتها هذا التنوع والتعايش والتسامح في مدينة القدس ما يلي:

أ. مكتبة الفرانسيسكان:

تقع في الشمال الغربي من حارة النصارى في البلدة القديمة داخل أسوار القدس الشرقية. تأسست منذ تأسيس دير اللاتين سنة 1561، وكانت المكتبة في البداية مكونة من كتب الرهبان التي جلبوها معهم عند التحاقهم بالدير، ثم تطورت وأصبحت مكتبة عامة يمكن للباحثين من خارج الدير الاستفادة منها، مع أنها ليست معروفة للعامة.

يبلغ عدد كتبها اليوم 42 ألف كتاب وهي مكتوبة بلغات مختلفة مثل الإيطالية، والفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية، والألمانية، واللاتينية، والعربية، وتتناول موضوعات تتعلق بتاريخ الكنيسة واللاهوت والفلسفة، وكتابات السياح عن الأراضي المقدسة. كما تحتفظ بمجموعة من المخطوطات والوثائق النادرة والثمينة لا يسمح بالوصول إليها لأهميتها القصوى إلا بإذن خاص، فهي تعدّ من وجهة نظر بعض الباحثين من أغنى مكتبات العالم بما تحويه من الوثائق المتعلقة بالأراضي المقدسة، والتي حافظ عليها الرهبان منذ أكثر من سبعة قرون[165].

ولعل من أهم الوثائق التي اشتملت عليها مكتبة هذا الدير الوثائق المتعلقة بالفترة المملوكية والفترة العثمانية، وهي عبارة عن الفرمانات الصادرة عن حكام المماليك والعثمانيين والخاصة بالعلاقات بين هؤلاء الحكام والرهبان الفرانسيسكان، وتتكون هذه الفرمانات من مجموعتين؛ مجموعة عربية تتعلق بالرهبان وعلاقاتهم مع السلطة المملوكية منذ عهد بيبرس البندقداري حتى عهد قانصوه الغوري. والمجموعة الثانية هي مجموعة تركية تضم الوثائق المتعلقة بالرهبان الفرانسيسكان في ظلّ الحكم العثماني. ويبلغ عدد الفرمانات التركية 454 فرماناً، منها ما يتعلق بكنيسة القيامة والأديرة الأخرى.

وتضم هذه المكتبة من الوثائق التاريخية ما مجموعه 2,644 وثيقة مختلفة[166]، يرتقي تاريخ أقدمها إلى سنة 764هـ/1363م، في عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين سلطان مصر 764-778هـ/1363-1377م[167]. وهذه الوثائق والمخطوطات تشتمل ضمن ما تشتمل عليه: مراسيم سلطانية عامة، وحجج شرعية صادرة من قضاة القدس تتعلق بشؤون النصارى المدنية أو توثيق العقارات.

ويعدّ الأب ايوتيمو كاستلاني Eutimio Castellani أول من نبه لأهمية الوثائق العربية في هذا الدير، فقد انتهى في سنة 1822 من وضع فهرس للمجموعة العربية والتركية مصحوباً بتعريف موجز لكل وثيقة، ثمّ أعقبه الأب جيرولامو جولوبوفتش Girolamo Golubovich فنشر مرسومين صادرين من السلطان قايتباي في كتابه الذي طبع في سنة 1316هـ/1898م عن تاريخ رؤساء دير صهيون. وفي سنة 1341هـ/1922م تفرغ بعض علماء الفرانسيسكان لنشر فهرس مستوفٍ لتلك الوثائق بلغتها العربية مع ترجمتها إلى اللغة الإيطالية، وأخيراً قام الأب نوربرتو ريشاني Norberto Risani في سنة 1350هـ/1931م بنشر كل ما وقع تحت يده من مجموعات الوثائق العربية خلال الفترة الممتدة 764-885هـ/1363-1480م. غير أن التعريف بهذه الوثائق ونشر ما نشر منها إنما تمّ في إطار كتابة تاريخ الآباء الفرانسيسكان بالأراضي المقدسة، وعلاقاتهم بالسلطنتين المملوكية والعثمانية[168].

ب. مكتبة البطريركية الأرثوذكسية (دير الروم):

تقع في حارة النصارى قرب كنيسة القيامة إلى الشمال منها، وقد أسست في القدس سنة 451 للميلاد ويقيم فيها بطريرك الروم الأرثوذكسي منذ سنة 1846، وتعود محفوظات المكتبة إلى مجموعة من المكتبات، منها مكتبة دير مار سابا، ومكتبة دير

المصلبة، ومجموعة القبر المقدس، وقد ضمت بعضها إلى بعض في سنة 1865، وهي من أغنى المكتبات من حيث قيمة المخطوطات المحفوظة فيها والتي يبلغ عددها 2,400 مخطوطة محفوظة في 11 لغة منها: اليونانية والعربية والسريانية، وثلاث أرباع المخطوطات باللغة اليونانية إذ يبلغ عدد مخطوطاتها 1,800 مخطوط، وقد كتبت معظم المخطوطات بين القرن 5-18 ميلادي، ومن أهم هذه المحفوظات: عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرهبان والمسيحيين كافة، والعهدة العمرية، وعهد منسوب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وتأكيداً للعهدة العمرية من قبل السلطان سليم العثماني، وغيرها من الوثائق التي تؤكد امتيازات الروم الأرثوذكس في المدينة المقدسة[169]. ولقيمة هذه المخطوطات لا يسمح لأحد بالوصول إليها إلا بإذن خاص من البطريرك أو مساعده[170]، وقد وضع لها في سنة 1883 فهرس مطبوع[171]، وفي سنة 1897 نشر الوثائقي اليوناني أ. بابادوبولوس كيراميوس A. Papadopoulos-Kerameus، كتاباً في أربعة مجلدات سمّاه منتخبات من الوثائق المقدسية، وتغطي الوثائق فترة طويلة من العصر البيزنطي وحتى العصر العثماني، وفيه فهرس لمئات الوثائق العربية والتركية[172].

ج. مكتبة دير الأرمن (دير مار يعقوب):

بني هذا الدير سنة 1165، وفيه أكبر مجموعة من الوثائق الأرمنية القديمة في العالم، ويرجع بعضها إلى القرون المسيحية الأولى، وهي حافلة بالمعلومات والمصورات البديعة التي لا يباح الاطلاع عليها إلا بإذن خاص من البطريرك أو نائبه.

وقد أسست في الدير سنة 1929 مكتبة أرمنية ضخمة، فيها أكثر من 60 ألف مجلد، أما الوثائق التي يبلغ عددها 3,700 مخطوط فهي محفوظة في كنيسة مارثيودور التي بنيت في القرن 13 ميلادي في داخل الدير.

وتحتفظ مكتبة الدير بمجموعة من الوثائق المملوكية والعثمانية، والتي تتعلق بصورة عامة بحقوق الأرمن في الأماكن المقدسة، والممتلكات الدينية، وقضايا الحج والضرائب، فضلاً عن المراسيم التي أصدرها الحكام المسلمون للجالية الأرمنية[173].

د. مكتبة دير السريان (دير مار مرقص):

يقع هذا الدير في حارة الشرف بين حارتي الأرمن واليهود، وتعدّ مكتبته من أقدم المكتبات في القدس، وهي ما تزال حافلة بالمخطوطات والرقوق والوثائق، ومن ضمن مقتنياتها وثائق وفرمانات وأوامر سلطانية عديدة، جمعها وفهرسها يوسف اسطفان

السرياني بأمر من غبربيل أنطون مطران السريان بالقدس سنة 1925. وقد أشار إلى أن أقدم الوثائق الإسلامية يرجع تاريخها إلى سنة 825هـ/1421م، وأحدثها مؤرخ في سنة 1306هـ/1888م، وهي مكتوبة باللغة العربية وبعضها الآخر مكتوب باللغة التركية. ويقول الكونت فيليب دي طرازي إنه اطلع على فهرس المخطوطات المحفوظة بهذا الدير فوجدها 362 مخطوطاً، بينها عدد وافر مكتوب على رق الغزال، ومنها ما هو مزين بالصور الرائعة، منها صكوك وحجج قديمة وفرامين سلطانية ورسائل خطيرة، استند إليها بعض الباحثين في تواريخ المشرق ولا سيّما بيت المقدس[174].

هـ. مكتبة بطريركية اللاتين:

تقع داخل أسوار البلدة القديمة قرب الباب الجديد، تأسست سنة 1848، لخدمة الكهنة داخل الدير فقط، تضمّ 43 ألف مجلد منها ما هو نادر وقديم ومنها ما هو حديث وبلغات أجنبية مختلفة، خاصة باللغة الفرنسية، وهناك أيضاً المخطوطات والخرائط القديمة وأهمها الخرائط الفلسطينية[175].

و. مكتبة القديسة آن:

تقع داخل أسوار القدس في البلدة القديمة، قرب باب الأسباط، تأسست سنة 1883، وهي مكتبة خاصة لخدمة الباحثين في تاريخ الكنيسة الشرقية، وتشتمل على 40 ألف مجلد، معظمها باللغة الفرنسية بالإضافة إلى لغات أخرى كالإنجليزية والإيطالية واليونانية والألمانية والعربية. وتضمّ المكتبة شتى أصناف المعرفة إلا أن الصبغة الغالبة عليها هي الصبغة الدينية، وهناك مخطوطات عربية عن الطقوس الدينية تعود إلى القرن 17 ميلادي، وهي محفوظة بمكان خاص لا يسمح باستعمالها[176].

ز. مكتبة بطريركية الروم الكاثوليك:

تقع هذه المكتبة في القدس الشرقية قرب باب الخليل، وقد تأسست سنة 1890 لخدمة الرهبان داخل الدير. يوجد فيها حوالي ثلاثة آلاف كتاب بلغات مختلفة، تتضمن موضوعات متنوعة فمنها الكتب الدينية والفلسفية والتاريخية واللاهوتية[177].

ح. مكتبة كنيسة القديسة مريم:

ذكر بعض الحجاج المسيحيين الذين زاروا بيت المقدس في العصر المملوكي بأنه كان يوجد مكتبة رائعة بجوار كنيسة القبر المقدس [178].

وتأتي المكتبات السابقة فضلاً عن عشرات المكتبات الأخرى التي كانت ملحقة بالكنائس والأديرة، والتي منها على سبيل المثال: مكتبة القبر المقدس، ومكتبة دير الدومينيكان، والآباء البيض[179]. وقد أشارت الحجج الشرعية أنه كان في دير السلطان كتب بلغة الحبش[180].

2. مكتبات النوادي والجمعيات:

أ. مكتبة المركز الثقافي الفرنسي في القدس:

وقد تأسست هذه المكتبة سنة 1937، وكانت تشتمل على أربعة آلاف كتاب.

ب. مكتبة جمعية الشبان المسيحية:

وكانت هذه الجمعية قد أنشئت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1873، وفي سنة 1933 افتتحت لها فرعا في القدس في مبنى فخم أقيم لهذا الغرض، وقد بلغ عدد كتبها في سنة 1945 حوالي 22 ألف كتاب باللغتين العربية والإنجليزية.

ج. مكتبة المجلس الثقافي البريطاني:

وقد تأسست هذه المكتبة سنة 1944 وكان بها ستة آلاف كتاب.

د. خزانة الآثار الأمريكية.

هـ. مكتبة المجمع العلمي الأثيري البروتستانتي.

و. مكتبة دار الآثار البريطانية:

وقد تأسست هذه المكتبة سنة 1920.

إلى جانب المكتبات التي أنشأتها حكومة الانتداب، وألحقتها بدوائرها الرسمية، ومنها مكتبة دائرة الزراعة التي وضعت نواتها، وكذلك مكتبة دائرة المعارف في سنة 1920، ومكتبة العدل العليا سنة 1925، ومكتبة دائرة الإحصاءات، ودار الإذاعة، ودائرة المطبوعات سنة 1944[181].

فضلاً عن عشرات المكتبات الأخرى للبعثات الأجنبية المختلفة، والتي تقدم خير دليل على سماحة الإسلام والمسلمين الذين حفظوا حرية ممارسة العبادة وقاموا بنشر المعرفة.

خامساً: نظام المكتبات في القدس:

لا يكاد يختلف نظام المكتبات في المدينة المقدسة عن غيره من المكتبات في العالم الإسلامي، فكان يطلق على مكتبات القدس القديمة كما على سائر المكتبات الأخرى في المدن الإسلامية اسم الخزائن[182]. وكانت الخزائن تصنع عادة من الخشب، وفي بعض الأحيان من خشب البلوط الذي يتميز بالصلابة والجمال، وكانت لها أقفال تحفظ عند خازن المكتبة[183]. المكتبات بمختلف أنواعها عبارة عن قاعة مفروشة تحف بها خزائن الكتب، ولا توجد فيها أماكن محددة للمطالعة مزودة بالطاولات والمقاعد، بل تتم القراءة في أي مكان في المسجد أو الزاوية أو المدرسة أو السكن الملحق بتلك المباني.

واتصفت المكتبات الإسلامية بشكل عام بالترتيب والنظام حسب الإمكانات المتوفرة في ذلك الوقت، فكانت الكتب ترتب على رفوف الخزائن بعضها فوق بعض الصغير فوق الكبير أي أنها لم تكن تصف عمودياً وإنما كانت تبسط أفقياً[184]، وذلك لتنوع المواد التي كانت تكتب عليها هذه الكتب، فبعضها كان مكتوباً على رق الغزال والآخر على أوراق البردي، فصعّب اختلاف أنواع الورق وأشكاله وأحجامه صفها عمودياً، وقد خصص للمصاحف والربعات الشريفة صناديق مربعة الشكل على درجة عالية من الزخرفة والبهاء لتوضع فيها احتراماً وتعظيماً لشأن القرآن الكريم[185]، فضلاً عن أن معظم هذه المصاحف، خاصة المحفوظة في المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، كانت هدايا ملوكية من حكام وولاة وأثرياء العالم الإسلامي[186].

وكان ترتيب الكتب داخل خزائن الكتب يختلف من مكتبة إلى مكتبة، إلا أن التقسيم الموضوعي كان هو الأساس، فكانت المصاحف توضع على رأس هذه الموضوعات تليها كتب التفسير ثم الحديث الشريف والسيرة ثم كتب الفقه فالأصول والتوحيد والتصوف والقراءات والفرائض ثم كتب اللغة والأدب فالعلوم والحساب والمنطق والطب[187]. وكانت فهارس المكتبات ترتب في مجلد أو أكثر، وكانت هذه الطريقة متبعة في المكتبات الإسلامية عامة، وكانت بعض هذه المكتبات تثبت على باب غرفة الكتب نفسها قوائم تبين ما بداخلها من كتب[188].

1. الجهاز الإداري والفني للمكتبة:

أ. **خازن الكتب:** ويسمى أيضاً شاهد خزانة الكتب[189] أو خازن الكتب والربعات الشريفة[190] أو أمين المكتبة[191]. وكان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب التمتع بصفات

أخلاقية رفيعة، فضلاً عن الخبرة الفنية والعلمية العالية، فقد حرص الواقفون لهذه المكتبات على أن يتولى هذه الوظيفة أحد العلماء أو الأدباء ممن عرف بالثقة والأمانة واليقظة والذكاء والقدرة على القيام بخدمة الكتب مع معرفة ودراية بتنظيمها، وحرص على خدمة طلبة العلم وإرشادهم إلى ما يحتاجونه من الكتب[192]. وقد حددت وثائق الوقف المهام الواجب أن يقوم بها خازن الكتب بشكل مفصل، خاصة في العصر المملوكي، والتي يمكن تقسيمها على النحو التالي:

- المهام العامة: الإشراف على شؤون المكتبة، وتعيين الموظفين المؤهلين ومراقبة عملهم، وإدارة شؤون المكتبة المالية، والاهتمام بالبناء وصيانته وترميمه، وتزويد المكتبة بالسجاد والأثاث اللازم.
- المهام الفنية: وتبدأ هذه المهمة بتسلم الكتب وفق محضر خاص وحضور شهود على ذلك، وإحراز الكتب بالخزائن المحددة لها في المكتبة، ومن ثم تعهد هذه الكتب بالرعاية عن طريق الحرص عليها وحفظها من الضياع والأرضة والتلف والعث، وحبكها عند احتياجها للحبك، وترميم وتجليد ما يحتاج منها لذلك، وإصلاح ما تمزق منها، وإحلال الجديد مكان القديم، ونفضها من الغبار وتعهدها على العادة، هذا بالإضافة إلى فهرستها وتنظيم إعارتها[193].
- المهام الثقافية: مساعدة الباحثين والقراء في الوصول إلى الكتب والمعلومات التي يبحثون عنها، لذا كان يجري كما تقدم اختيار خازن الكتب من الأشخاص ذوي الاطلاع ومعرفة الكتب، حيث نجد أن بعض مكتبات بيت المقدس أدارها أعلام العلماء نذكر منهم على سبيل المثال: شمس الدين محمد بن أحمد بن حبيب الغانمي المقدسي، الذي كان يتولى خزانة كتب المسجد الأقصى في أواسط القرن التاسع[194]. ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الخليلي أمين مكتبة الصخرة في سنة 1010هـ/1601م، كما تولى أمانة كتب الصخرة في القرن 11 هجري الشيخ بشير الخليلي، وبعد وفاته تولى ولداه الشيخ إبراهيم والشيخ عبد الرحمن، وكان ذلك في 5 صفر 1060هـ/1651م[195]. وكان يصرف للخازن راتب شهري، وذلك من ريع الوقف المخصص للمكتبة التي يشرف عليها. وزيادة في الحرص على الكتب الموقوفة، نجد بعض الواقفين ينص على ضرورة عزل الخازن واستبدال غيره إذا ما بدت منه خيانة أو تقصير[196].

ب. النساخ: كان يعمل في مكتبات القدس العامة إلى جانب خازن الكتب مجموعة من الموظفين، منهم النساخ الذين كانوا يقومون بعدة مهام من أبرزها: استنساخ الكتب المهددة بالتلف، بشكل جزئي أو كلي أو الاقتصار على الصفحات التالفة أو التي مزقت لسبب أو لآخر في أثناء التداول والاستعمال، أو استنساخ الكتب النادرة والمهمة. وقد تخصص عدد من العلماء المشهورين في نسخ المصاحف الشريفة طلباً للأجر والثواب، لا بل إن بعض سلاطين المسلمين قاموا بنسخ عدد من نسخ المصحف الشريف وأوقفوها على كل من المسجد الحرام والنبوي والمسجد الأقصى. وقد حفظ لنا مؤرخ القدس والخليل مجير الدين الحنلبي أسماء عدة نساخ في مساجد القدس ومدارسها، منهم: قاضي القضاة أبو الخير محمد بن محمد بن عمران الغزي شيخ الحنفية ت 894هـ/1488م الذي نسخ العديد من المصاحف، وتاج الدين عبد الوهاب المؤدب ت 873هـ/1468م الذي اشتهر بحسن خطه، وشهاب الدين أحمد بن محمد الكردي الحلبي ت 881هـ/1476م[197]، ومنهم أبو العباس زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي 668هـ الكاتب المُجيد الذي كان متفنناً وسريعاً بالكتابة، حتى أنه كان يكتب في اليوم إذا فرغ تسعة كراريس[198]، ومحمد بن أحمد بن قدامة الجماعيلي الشهير بالشيخ أبي عمر ت 607هـ/1210م، كان سريع الكتابة وربما كتب في اليوم كراستين بالقطع الكبير[199]. ونسخ أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي (668هـ/1269م) كتاب "المغني" لابن قدامة عدة مرات، وكتب "تاريخ الشام" لابن عساكر مرتين[200].

ج. المترجمون: لقد اشملت مكتبات القدس بمختلف أنواعها على مؤلفات كتبت في أكثر من 11 لغة، منها: العربية والفارسية والحبشية واللاتينية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والروسية والأرمنية والسريانية والتركية، ومن أجل فهرستها والتعريف بها نجد أن هناك نخبة من المترجمين قد ظهروا في بيت المقدس، خاصة في مكتبات الأديرة والكنائس منهم: الأب ايوتيمو كاستلاني، والأب جيرولامو جولوبوفتش[201]، ويوسف اسطفان السرياني[202] وغيرهم. علماً بأن تنوع الطوائف والجاليات المقيمة في القدس من مختلف الأجناس والأديان والمذاهب قد ساعد على ازدهار حركة الترجمة في المدينة المقدسة وتبادل المؤلفات والكتب.

د. المناولون: ومهمة المناولين إحضار الكتب للقارئ، وكان يطلق عليهم "مفرقي الرقعة الشريفة" في المكتبات المدرسية، وكانت من مهامهم تفريق المصاحف الشريفة على الطلبة للقراءة فيها ثمّ جمعها، وكذلك من مهامهم المحافظة على مكتبة المدرسة[203].

□□. **المجلدون**: ومهمتهم تجليد الكتب وحبك ما يحتاج منها إلى حبك، ولم تكن مهمة المجلد مهمة خالية من الذوق والإبداع، بل كان يسهم بوضع لمساته الفنية في أثناء التجليد، من خلال الزخارف والرسومات التي يزين بها هذه الكتب، فيكتمل عمله مع عمل النساخ لإعطاء البهاء والرونق الذي تمتعت به المخطوطات الإسلامية[204].

2. مواعيد فتح المكتبة:

لم تحدثنا المصادر التي بين أيدينا عن مواعيد موحدة للدوام في مكتبات القدس، بل كان لكل مكتبة خصوصيتها التي تحددها وثيقة الوقف الخاصة بها، والتي في العادة تحدد مواعيد فتح المكتبة وشروط الانتفاع بها، فعلى سبيل المثال كانت المكتبة الخالدية العمومية تفتح أبوابها من الصباح إلى المساء طول أيام الأسبوع لجميع طلبة العلم، كما ورد في برنامجها المعلن سنة 1900[205]، وبعضهم كان يشترط فتح الخزانة يومين في الأسبوع لطلبة العلم، وهناك من يربط مواعيد فتحها بمواعيد الدروس التي تلقى بالمكان الذي أُلحقت المكتبة به سواء أكان مسجداً أم زاوية، أم مدرسة أم رباطاً[206]. وكذلك الحال بالنسبة للأديرة والكنائس، التي كانت في الغالب حكراً على الرهبان والقساوسة داخلها، إلا أن بعض المكتبات الملحقة بهذه الأديرة أخذت نظاماً عصرياً منذ مطلع القرن العشرين فأصبحت لها أوقات محددة تفتح أبوابها فيها خلال أيام الأسبوع.

3. نظام الاطلاع والاستعارة:

بما أن معظم المكتبات في القدس تقع تحت مظلة الأوقاف فكان الذي يتحكم في نظام الاطلاع والاستعارة هو ما تنص عليه وثيقة الوقف، والتي كانت تحدد بدقة النظام الذي يحكم التعامل مع الكتب الموقوفة. وفي أغلب الأحيان كان يسمح بالاستعارة الداخلية للكتب ولا يسمح بالاستعارة الخارجية، حرصاً على المصلحة العامة، كما نصّ بذلك برنامج المكتبة الخالدية على سبيل المثال[207]، بل إنه منع حتى الاطلاع الداخلي على من يعرف عنه التفريط، وهذا ما أكدت عليه وقفية الشيخ محمد الخليلي الذي اشترط في وقفيته أن لا تُعار الكتب "إلا لطلبة العلم المشهورين بالصلاح ممن هو مقيم في بيت المقدس، وعدم إعارة من اشتهر بتضييع الكتب أو تمزيقها"[208]، "والضن بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها كما قال السبكي"[209].

ويبدو أن المكتبات الملحقة بالزوايا والخانقاه، والتي كان يقيم فيها طلبة العلم بشكل مستمر، كان فيها مرونة أكثر في نظام الإعارة، ويرجح أن نظام الإعارة فيها لم يشذ عن

نظام الإعارة في المدن الإسلامية الأخرى التي كانت تسمح لطلبتها باستعارة الكتب لمدة شهر على الأكثر للانتفاع بها، وسمح لهم بأخذ الكتب إلى مساكنهم في تلك المدارس أو الزوايا أو الخانقاه. فقد جاء في إحدى الوقفيات:

> ومن حضر (أي الخازن) من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكورة لاستعارة شيء من الكتب المذكورة، سلم إليه إن كان ثقة، وإن كان يخشى منه منعه إلا أن يضمنه نفر من أهل الخانقاه المذكورة ولا يعير شيئاً من الكتب.... أكثر من شهر واحد.... وإذا كان المستعير من غير أهل الخانقاه المذكورة، سلم إليه ما يريد استعارته يطالع فيه نهاراً بالخانقاه المذكورة فيه، ثمّ يبيتها عند الخازن، ثمّ يستعيرها منه نهاراً[210].

وفي بعض مكتبات الأديرة لا يسمح الاطلاع على بعض المحفوظات إلا بإذن خاص من مسؤول الدير أو نائبه[211]. وبما أن معظم طلبة العلم المقيمين في المدارس والزوايا والخانقاه في القدس من الغرباء والفقراء، فقد كانت تعطى لهم الأولوية في الاستعارة في معظم المدن الإسلامية بما فيها القدس، فقد جاء في كتاب "معيد النعم ومبيد النقم" للإمام السبكي ما نصه: "وأن يقدم في العارية الفقراء، الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب، على الأغنياء"[212].

وزيادة في الحرص على الكتب وخوفاً عليها من الضياع شرط بعض الواقفين أن يقوم الخازن بكتابة أسماء من يطلب منه كراساً، ثم إذا أعاده مسح اسمه[213]، وهناك من اشترط ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته[214]. وقد غدا بمثابة العرف أن يطلب الواقف للكتب ثمناً رمزياً ممن يستفيد من الكتب هو في الغالب قراءة القرآن، أو دعاء يوهب لروح الواقف، وعادة ما يوضع هذا الشرط على الصفحة الأولى من الكتاب أو على جلد الكتاب أو في نهاية المقدمة أو نهاية الكتاب، وهي عادة جارية في كثير من البلدان الإسلامية حتى اليوم[215].

4. نظام التزويد:

لقد كان المورد المهم لتزويد المكتبات الإسلامية على مرّ فترات تاريخنا هو نظام الوقف للكتب، باعتبار وقفها من الأعمال الخيرية التي تكفر الذنوب[216]، وقد أوردت لنا كتب التراجم أسماء عشرات العلماء والفضلاء والسلاطين والأمراء الذين أوقفوا كتباً في المساجد والزوايا والخانقاه في بيت المقدس، والتي وضعت تحت تصرف طلبة العلم.

فقد كان في المسجد الأقصى في القرن الثالث الهجري 16 صندوقاً كبيراً من المصاحف المسبلة[217]، وعندما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس حمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات وربعات مُعظَّمات، ما تزال بين أيدي الزائرين "على كراسيها مرفوعة وعلى أسرتها موضوعة" على حد تعبير العماد الأصفهاني[218]. وجاء في العقد الفريد لابن عبد ربه ت 328هـ/940م قوله "وفي المسجد الأقصى سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد، ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها"[219].

وعلى مرّ الزمان كان السلاطين والأمراء والحكام والأتقياء عامة يتبرَّكون بوقف المصاحف والكتب في بيت المقدس، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الملك المعظم ت 656هـ/1258م الذي أوقف كتباً من جملتها "إصلاح المنطق" لأبي يوسف يعقوب بن إسحق بن السكيت، وقد اطلع مجير الدين الحنبلي ت 927هـ/1520م على كراسة منه بخط ابن الخشاب، وعلى ظهر الكراسة الوقف، وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة 610هـ/1213م[220].

وأهدى السلطان الملك الأشرف برسباي سنة 836هـ/1432م مصحفاً إلى المسجد الأقصى يعدّ من أثمن المصاحف التي وصلت إلى القدس، وهو مكتوب على ورق صقيل بالحبر الأسود، وبخط الثلث المتقن، ومُشَكّل الأحرف، ومتوسط عرض الحرف (حوالي أربعة ملمترات)، أما حركات وعلامات الوقف فعبارة عن دوائر ذهبية داخلها نقوش، وأسماء السور مكتوبة بالحبر الأبيض داخل مستطيل له خلفية ذهبية، وعلى طرفي المستطيل زخارف هندسية بألوان زرقاء وحمراء وبيضاء، وجميع ألفاظ الجلالة الواردة في المصحف مكتوبة بماء الذهب، ويبلغ طول المصحف 110 سم وعرضه 190 سم، وكان هذا المصحف قد أهدي إلى السلطان برسباي سنة 836هـ في أثناء مروره بدمشق وهو في طريقه إلى آمد، فأهداه بدوره إلى القدس الشريف، وخصص له قارئاً وخادماً، ووقفاً لذلك[221]. ومن السلاطين الذين وقفوا المصاحف والكتب في بيت القدس السلطان الأشرف إينال، الذي تولى السلطنة سنة 857هـ/1453م[222]، والظاهر جقمق الذي اعتلى العرش سنة 842هـ/1438م[223]، والسلطان سليمان القانوني، والوزير سنان باشا، وأنوار باشا العثماني وغيرهم[224].

وكتب السلطان المريني أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ت 752هـ/1351م، سلطان المغرب، بخط يده مصحفاً أهداه إلى المسجد الأقصى، ويقع في ثلاثين جزءاً

مكتوب على رق الغزال، وكل جزء يحويه جلد ناعم الملمس من رق الغزال مخيط بخيوط دقيقه من الذهب والفضة، وعلى كل الوجهين زخارف هندسية وكتابية، وكل وجه محاط بشريط زخرفي عبارة عن خيوط ذهبية وفضية متداخلة محددة من الداخل والخارج بزوجين من الخطوط الفضية، وقد كتب بخط مغربي جميل. كان مداده من فتيت المسك وعطر الورد، وربما أضيف إليها في بعض الأحايين الزعفران الشعري، لأن الخط يشتد سواده وإشراقه في بعض الصفحات ويصفر في البعض الآخر، وكل صفحة تتضمن خمسة سطور، ومما يؤسف له أن خمسة أجزاء قد فقدت فقام بكتابتها بعض المغاربة على ورق أبيض جيد، وأكملت به الربعة الشريفة في ذي الحجة الحرام سنة 1221هـ/1806م والتي تسمى في بيت المقدس بـ"ربعة سلطان المغرب"، وقد عين لقراءتها عندما أوقفها في أواخر ذي الحجة سنة 745هـ صباح كل يوم 18 نفساً، منهم 15 من حفاظ القرآن العظيم، على أن يكونوا من المغاربة المالكيين وخادمين من المسلمين، وأوقف على ذلك عدة مرافق في مدينة الرملة الفلسطينية[225]. وقد شاهد هذه النسخة عبد الله مخلص سنة 1341هـ/1825م، كما أشار إليها ابن خلدون في تاريخه[226]، وتعدّ من أروع المصاحف التي وردت إلى المسجد الأقصى وما زالت محفوظة في المتحف الإسلامي في القدس. وتحتفظ القدس بحوالي 650 مصحفاً تعود إلى الفترات الإسلامية، ومكتوبة بخطوط مختلفة؛ كالكوفي والمغربي والنسخي والثلث، ومعظمها كان وقفاً على المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وجزءاً منها كان وقفاً على بعض المساجد القديمة في المدن الفلسطينية الأخرى، حيث تعوّد حكام المسلمين والولاة والأمراء تخليد ذكرهم بوقف المصاحف وكتب التفسير عند توليهم الحكم أو زيارة القدس في المسجد الأقصى وقبة الصخرة وتعيين القراء لتلاوتها ووقف الأوقاف لخدمتها[227].

ومن العلماء الذين أوقفوا كتبهم على بيت المقدس الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي ت 490هـ/1096م[228]، ومنهم إمام النحاة والأصوليين إمام المسجد الأقصى المبارك الشيخ يحيى شرف الدين محمد بن قاضي الصلت ت 1040هـ/1630م، والذي كان يسكن هو وعائلته في المدرسة الأرمينية الكائنة في الرواق الشمالي لساحة الحرم، وفي الطابق الثاني من مبنى المدرسة كانت مكتبة الشيخ في إحدى الغرف التي أوقفها على طلبة العلم في 15 رجب 1007هـ. وتعدّ وقفية الشيخ الصلت وثيقة في غاية الأهمية للتأريخ الفكري والثقافي للمدينة المقدسة في القرنين 10 و11 هجري، فهي تعرفنا بالكتب التي كان يتداولها المثقفون من أهل القدس، فضلاً عن رسمها للجو الثقافي الذي كان سائداً في

تلك الفترة، وإلى جانب ذلك فهي تعكس لنا الاهتمامات الثقافية الخاصة لصاحبها، الذي يعدّ علماً من أعلام الدراسات الإسلامية والعربية في مدينة القدس. فقد أوردت الوقفية عناوين أكثر من مئة كتاب في فروع الثقافة الإسلامية المختلفة من حديث وسير وتفسير ولغة ونحو وفقه وقراءات وعلم كلام وفرائض، وتاريخ ومنطق وجغرافيا وتصوف وأخلاق وحساب...إلخ. ومن الملاحظ أنه قد أسهم في تأليف هذه الكتب الموجودة في مكتبة الشيخ علماء من 15 قطراً إسلامياً بمفهوم الأقطار اليوم (مصر، والعراق، والمغرب، واليمن، والأندلس، وفارس، وتركستان، وأفغانستان، وتركيا، وأوزبكستان، والشام، وغيرها)، فضلاً عن أن من بين هذه المؤلفات ما كان متداولاً في شتى حواضر العالم الإسلامي آنذاك، مثل تفسير البيضاوي، وتفسير الزمخشري، وصحيحي البخاري ومسلم وشروحهما، وكتب النووي والسيوطي والأسنوي وابن حجر العسقلاني. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على حركة تبادل الكتب وانتقالها بين طلبة العلم، والحرص على استنساخها وتوفيرها للطلبة. وقد قام المرحوم الدكتور كامل العسلي بتحليل هذه الوثيقة بدراسة إضافية[229].

ومن موارد مكتبات القدس، وخصوصاً مكتبة المسجد الأقصى، أن كثيراً من العلماء كانوا يحرصون على أن يرسلوا نسخة من مؤلفاتهم إلى المسجد الأقصى لتحفظ في خزائنه، ومن هؤلاء: الإمام موفق الدين أحمد بن يوسف الموصلي الكواشي المفسر ت 680هـ/1281م الذي أرسل نسخة من كلا مصنفيه: الكبير والصغير إلى القدس[230].

وهكذا تقدم لنا مسيرة المكتبات في القدس المثال الحي على ما بذله الأجداد في مختلف العصور من جهد في دعم مكانة المدينة المقدسة وتعزيزها لتقف منيعة صامدة في وجه كل طامع، فقد كان الوقفُ الداعمَ الأهم للثقافة والعلم، عندما كان الكتاب غالي الثمن في وقت لم تعرف فيه الطباعة، وكان نسخ الكتاب أو شراؤه لا يقوى عليه السواد الأعظم من طلبة العلم، فكانت الأوقاف الوسيلة الناجعة لتوفير المال والكتب لنشر المعرفة والكتب بين طلبة العلم، وتوفير العلم للجميع بطريقة مجانية، وفق نظام محكم نلمسه من خلال نصوص وقفيات الكتب والمدارس والزوايا[231].

خاتمة:

من خلال معالجة هذا الموضوع خرجت الدراسة بالملاحظات الآتية:

1. يعدّ تحرير المدينة المقدسة من الاحتلال الصليبي سنة 583هـ/1187م، على يد القائد صلاح الدين الأيوبي بداية الانطلاقة الكبرى للمؤسسات التعليمية والمكتبات في مدينة القدس، لأن صلاح الدين الأيوبي أدرك بثاقب بصره وبصيرته أن تحصين المدينة المقدسة بالثقافة والعلم لا يقل أهمية عن تحصينها بالقلاع والحصون والأسوار، فالصراع كما بدا له وللأمة صراع حضاري، لذا غدا تعزيز هويتها الثقافية ومرابطة العلماء وطلبة العلم فيها، وبناء المساجد والزوايا والرباطات والمكتبات؛ يشكل في نظر الأمة لوناً من ألوان الجهاد في سبيل الله.

2. تقدم لنا المؤسسات التعليمية والمكتبات في بيت المقدس دليلاً واضحاً وشاهداً حياً على مكانة المدينة المقدسة في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك من ملاحظة هذا الكم الهائل من الأوقاف على المكتبات ودور العلم بمختلف أشكالها، هذه الأوقاف التي أسهم فيها المسلمون حكاماً ومحكومين من مختلف أرجاء المعمورة، لا بل تكاد تكون معظم مدن فلسطين وقفاً على مدينة القدس. ولعل الناظر في سجلات المحكمة الشرعية في القدس يقدر هذه الحفاوة والمحبة التي يكنها أبناء الأمة الإسلامية لأولى القبلتين وثالث الحرمين، تلك المحبة التي جعلت حكام المسلمين يخطّون بأناملهم المصاحف لإهدائها إلى القدس، لا بل يندر أن نجد عالماً يشار إليه بالبنان لم يُهدِ بعض كتبه للمدينة المقدسة.

3. إن دراسة المؤسسات التعليمية والمكتبات في بيت المقدس تقدم لنا صورة حية عن الحركة العلمية والثقافية في المدينة المقدسة عبر تاريخها، وتوضح لنا تشابك العلاقات الثقافية لهذه المدينة مع بقية الحواضر الإسلامية. ولعل الناظر في تراجم علماء القدس يجد أنهم ينتمون إلى معظم حواضر العالم الإسلامي، فقد كانت القدس قبلة للعلماء وطلبة العلم، خاصة بعدما بدأت الحواضر الإسلامية الكبرى تتهادى بأيدي الإسبان والتتار.

4. إن تاريخ المؤسسات التعليمية والمكتبات في بيت المقدس يوضح بشكل جلي روح التسامح التي تميزت به الحضارة الإسلامية، وذلك من خلال محافظتها على

المؤسسات التعليمية والمكتبات للكنائس والأديرة، فكانت في الحفظ والصون شاهدة على سمو الروح الحضارية الإسلامية.

5. تعدّ مكتبة الشيخ الخليلي التي تأسست سنة 1138هـ/1725م أول مكتبة عامة يوقفها أحد سكان القدس.

6. إن المؤسسات التعليمية والمكتبات في القدس تعرضت منذ فترة مبكرة للعديد من عمليات النهب والتخريب على يد الصهاينة، بقصد طمس الوجه العربي الإسلامي لهذه المدينة، فضلاً عن عمليات النهب التي قام بها الرعاع في فترات الفوضى والاضطرابات أعقاب الأحداث الكبرى، التي تعرضت لها المدينة منذ مطلع القرن العشرين وحتى اليوم.

7. تعدّ سجلات المحكمة الشرعية، والتي تقع في حوالي مئة ألف صفحة في القدس، ثروة علمية ضخمة لا يستغني عنها أي باحث لتاريخ بلاد الشام، خاصة في فلسطين في العصر العثماني.

8. إن المؤسسات التعليمية والمكتبات الخاصة تقدم لنا صورة عن أشهر العائلات المقدسية والإسلامية التي كانت لها الريادة في مجال العلم والثقافة، فضلاً عن الاهتمامات العلمية للنخب.

9. تعدّ مكتبة الفرانسيسكان في القدس، من وجهة نظر بعض الباحثين، من أغنى المكتبات في العالم بما تحويه من وثائق تتعلق بالأراضي المقدسية، والتي حافظ عليها الرهبان منذ أكثر من سبعة قرون. كما أن مكتبة دير الأرمن، والتي تشمل على أكبر مجموعة من الوثائق الأرمنية القديمة في العالم والتي يرجع بعضها إلى القرون المسيحية الأولى، من المكتبات الفريدة في العالم.

10. إن قطاع التعليم في القدس العربية في الوقت الحاضر يعدّ من أوسع القطاعات؛ سواء من حيث الحجم السكاني الذي ينضوي تحته والمتمثل بأعداد الطلبة والجهاز التعليمي أم من حيث العدد الكبير من المؤسسات التربوية التي يشملها.

11. تعدّ مؤسسات التربية والتعليم اليوم أحد أبرز قلاع الصمود والتصدي لعمليات تهويد القدس.

12. إن تاريخ المؤسسات التعليمية والمكتبات في فترة الحكم الإسلامي تمثل تجربة فريدة للتثاقف بين الأجناس والتعايش بين الأديان على المستويين المحلي والعالمي، حيث كانت تلك المؤسسات مفتوحة للمغربي والكردي والمصري واليمني والشامي والأندلسي والهندي والفارسي وغير المسلم... في لوحة من التجاور والتعايش عزّ نظيرها.

13. تعدّ مدينة القدس من أكثر مدن العالم أوقافاً على المؤسسات الثقافية والمكتبات، إذ يوجد في كيلومتر مربع واحد، وهي مساحة المدينة القديمة داخل السور، أكثر من 274 مَعْلَماً وقفياً للمسلمين واليهود والنصارى. أما في المدينة داخل السور وخارجه فقد كان هناك 240 محراباً، و28 سبيلاً، و16 خاناً، وأكثر من 170 مكتبة ملحقة بمدرسة ومسجد وكتّاب، و70 زاوية صوفية، فضلاً عن 59 ديراً وكنيسة نصرانية، و14 كنيساً لليهود، ناهيك عن المستشفيات.

14. إن فلسطين تكاد تكون كلها وقفاً إسلامياً على المؤسسات الدينية والتعليمية والثقافية في بيت المقدس، فلا تكاد توجد مدينة أو قرية لا يكون فيها وقف للقدس، لا بل إن أوقاف القدس انتشرت في قارات العالم سواء للمسلمين أم لأهل الذمة.

15. يندر أن نجد حاكماً مسلماً منذ العصر الأيوبي، مروراً بالعصر المملوكي، وانتهاءً بالعصر العثماني؛ لم يترك أثراً وقفياً خيرياً في القدس، يخدم فيه مسجداً أو مدرسة أو كتّاباً للأيتام.

16. إن أوقاف القدس الثقافية، خاصة الإسلامية منها، حولتها إلى جامعة عالمية مفتوحة يقصدها طلبة العلم والعلماء من مختلف أرجاء المعمورة، خصوصاً بعد تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي.

17. كان للإنفاق السخي على المؤسسات التعليمية في القدس أثر كبير في انتشار التعليم في القدس.

18. إن أفضل الكفاءات العلمية كانت تدرس في مدارس الأطفال (الكتاتيب) في الحقبة الإسلامية، وهذه نظرة تربوية متقدمة، لم تلتفت لها المؤسسات التربوية المعاصرة إلا في فترة متأخرة.

19. إن من أخطر الأساليب التي اتبعها الصهاينة من أجل تهويد المؤسسات التعليمية في القدس تدمير الأوقاف الإسلامية والنصرانية عن طريق المصادرة أو الهدم أو تحويلها إلى ثكنات عسكرية أو ملاهٍ ليلية، لأنها ترى في تلك الأوقاف شهادة على عروبة فلسطين، وتذكرهم دوماً بأنهم لصوص وغرباء عن الأرض المقدسة، ناهيك عن كونها الشريان الذي يمد المؤسسات التعليمية بالحياة.

20. إن 43% من جموع الطلبة المتسربين من المدارس يعود سبب تسربهم إلى العامل الاقتصادي، ناهيك عن 69% من سكان القدس يقعون تحت خط الفقر، وهذا يتطلب دعماً عاجلاً من الأمة لأهالي القدس لتعزيز صمودهم.

توصيات:

1. الإسراع في تنفيذ توصيات اتحاد الجامعات الإسلامية والعربية في تخصيص مقرر يحمل اسم "تاريخ القدس"، ليكون متطلباً عاماً في الجامعات الإسلامية والعربية لتعريف أبناء الأمة بتجربة هذه المدينة الفريدة في التعايش والتسامح بين الأديان، وما ترتب عليها من أمن وسلام ورخاء إبان الحكم الإسلامي، فضلاً عن التأكيد على عروبة القدس وإسلاميتها.

2. إنتاج فيلم تسجيلي عن المؤسسات التعليمية في بيت المقدس، والتعريف بالدور الإنساني الذي قامت به عبر حقب التاريخ الإسلامي.

3. العمل على تأسيس جمعية دولية تشارك فيها الهيئات والجمعيات العربية والإسلامية وغير الإسلامية لحماية الإرث الثقافي لهذه المدينة، لأنه إرث إنساني، تجب المحافظة عليه، فضلاً عن تفعيل توصيات المنظمات الدولية التي نصت على اعتبار الإرث الثقافي في القدس إرثاً إنسانياً مهدداً بالخطر وتجب المحافظة عليه.

4. إبراز ما تتعرض له المؤسسات التعليمية في المدينة المقدسة من تهديد وأخطار من قبل الصهاينة في المحافل الدولية ووسائل الإعلام المختلفة.

5. العمل على توأمة مدارس القدس مع المدارس العربية والإسلامية لدعمها معنوياً ومادياً، لتعزيز صمودها أمام مخططات الصهاينة.

6. إحياء سُنّة الوقف في العالم الإسلامي لدعم المؤسسات التعليمية في المدينة المقدسة، إلى جانب إحياء أوقافها التي تعطلت عن تأدية دورها بسبب الإهمال أو قلة الموارد. وهذا يتطلب بثّ الوعي بين أثرياء الأمة لممارسة دورهم لتعزيز صمود أبناء القدس، والمحافظة على هوية أولى القبلتين وثالث الحرمين.

7. توجيه طلبة الدراسات العليا والباحثين لمزيد من الدراسات حول تجربة المؤسسات التعليمية الوقفية لهذه المدينة المقدسة، وما قامت به تلك المؤسسات من دور في بث ثقافة التعايش والسلم والمحبة بين البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومعتقداتهم.

8. إن مدارس القدس بحاجة لعمليات إنقاذ عاجلة، لترميم مدارسها وبناء مدارس جديدة لاستيعاب الطلبة الجدد، إلى جانب دعم كادرها التعليمي، وتعزيز صمود المدارس العربية أمام مخططات التهويد الصهيونية.

9. الاحتفال في كل عام بإحياء ذكرى شخصية من الشخصيات الإسلامية التي أسهمت في خدمة الحركة الثقافية في المدينة المقدسة.

10. إحياء مسميات المؤسسات التعليمية والثقافية والمكتبات المقدسية، من خلال إطلاق مسمياتها على أجنحة المكتبات الجامعية في الوطن العربي.

11. جمع التاريخ الشفوي للمدينة المقدسة، خاصة فيما يتعلق بتاريخ المؤسسات التعليمية في نصف القرن الماضي.

12. دعم وتطوير التعليم المهني في القدس.

13. العناية برياض الأطفال.

والحمد لله رب العالمين.

الملاحق

1. عدد سكان القدس حسب الجنس لسنة 2007[232]:

نوع التجمع	عدد الأسر	ذكور	إناث	كلا الجنسين
حضر	59,927	155,440	149,951	305,391
ريف	6,511	18,498	18,200	36,698
مخيمات	1,465	4,124	3,838	7,962
المجموع	**67,903**	**178,062**	**171,989**	**350,051**

2. عدد الطلبة الملتحقين بالتعليم الأساسي في محافظة القدس حسب الجنس سنة 2007[233]:

الجنس	ذكور	إناث	كلا الجنسين
المرحلة الأساسية (6-15) عاماً	14,293	13,718	28,011
المرحلة الثانوية (16-17) عاماً	2,550	2,523	5,073
المجموع	**16,843**	**16,241**	**33,084**

3. تطور عدد الطلبة في مدارس القدس حسب الجهة المشرفة خلال الأعوام الدراسية 1994/1995-2008/2009:

السنة	مدارس الأوقاف	مدارس المعارف والبلدية	المدارس الخاصة	مدارس الوكالة
1995/1994	4,921	18,796	10,181	2,424
1997/1996	7,037	21,912	11,994	2,445
1999/1998	8,386	25,097	13,327	2,978
2001/2000	9,892	27,617	11,706	2,787
2003/2002	11,142	35,273	11,926	3,135
2005/2004	11,796	37,881	13,489	3,548
2007/2006	12,132	49,983	15,649	3,647
2008/2007	12,431	*52,580	17,839	3,572
2009/2008	12,136	غير متوفر	19,748	3,444

* يشمل هذا الرقم طلاب مدارس سخنين الذين يُقدر عددهم بحوالي 3,818.

4. أسماء بعض مدارس القدس المعاصرة:

- مدرسة النهضة الإسلامية.
- مدرسة الفتاة اللاجئة الثانوية (ب).
- مدرسة شرفات.
- مدرسة دار الأيتام (د).
- مدرسة الدوحة الأساسية.
- مدرسة الروضة الحديثة.
- مدرسة دار الفتاة اللاجئة الأساسية (أ).
- مدرسة الثوري.
- مدرسة حسني الأشهب في الرام.
- مدرسة رياض الأقصى، صور باهر.
- مدرسة الأمة، ضاحية البريد.
- مدرسة صور باهر.
- مدرسة دار الأيتام الإسلامية، باب السلسلة.
- مدرسة الأيتام الإسلامية (ج).
- مدرسة الأيتام الإسلامية (د).
- مدرسة الأيتام الإسلامية الثانوية (الثوري).
- مدرسة دار الأيتام الإسلامية (أ)، البلدة القديمة.
- مدرسة دار الأولاد، القدس وادي الجوز وهي مدرسة خاصة.
- مدرسة جمعية جبل المكبر.
- مدرسة النهضة الأساسية، البلدة القديمة.
- مدرسة النهضة الأساسية، حارة النصارى.

- مدرسة النظامية القدس، بيت حنينا.
- مدرسة الشابات المسلمات، وادي الجوز.
- مدرسة الفتاة اللاجئة (أ)، وادي الجوز.
- مدرسة الفتاة اللاجئة (ج).
- مدرسة الروضة الحديثة، الشيخ جراح.
- مدرسة مار متري، البلدة القديمة وهي مدرسة خاصة.

هوامش الفصل السادس

[1] انظر: أبو اليُمن مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (عمّان: 1973)، ج 1، ص 232.

[2] هناك من يذهب أنه تتضاعف في القدس الحسنات والسيئات، **المرجع نفسه**، ص 230.

[3] هيثم الكيلاني وآخرون، **القدس والحال الفلسطيني وقراءات في الأمن القومي العربي** (عمّان: مؤسسة عبد الحميد شومان، 1999)، ص 121-122.

[4] البخاري، **صحيح البخاري** (بولاق: 1296هـ/1879م)، ج 2، ص 52-53؛ وورد الحديث أيضاً في الترمذي وأبو داود وهناك أكثر من 18 طريقاً لهذا الحديث؛ وابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ج 3، كتاب فضل الصلاة (20) باب مسجد بيت المقدس حديث رقم 1197.

[5] لأنها أرض رباط وموطن الطائفة المنصورة إلى يوم الدين، حسبما ورد في الحديث الصحيح؛ وانظر: سعيد بن عبد الرحمن بن موسى القزقي، **بيت المقدس في الحديث الشريف** (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 2003)، ص 179-192؛ ولمزيد من التفاصيل عن الأعلام الذين زاروا القدس انظر: مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 101، 269، 285-300؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 14، ص 4؛ وابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج 2، ص 137-140، 156-157، 210-211.

[6] عبد اللطيف الطيباوي، **القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام** (عمّان: وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، 1981)، ص 13؛ وانظر: Hayter Lewis, *The holy places Of Jerusalem*, p. 26.

[7] هيثم الكيلاني وآخرون، **القدس والحال الفلسطيني**، ص 121-122.

[8] انظر المقدمة في: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، **فضائل بيت المقدس** (دمشق: دار الفكر، د.ت)، ص 22-24.

[9] كامل جميل العسلي، **الطابع الإسلامي الدولي للعلماء الذين أموا القدس**؛ وعارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**، ص 109.

[10] نقولا زيادة، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى** (القاهرة: 1943)، ص 42-54.

[11] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 36-50.

[12] يوسف غوانمة، **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي** (عمّان: دار الحياة، 1982)، ص 107.

[13] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 50؛ وكامل جميل العسلي، "مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس،" من **ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي** (بغداد: المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون بالتعاون مع معهد البحوث والدراسات العربية، 1983)، ص 97.

[14] كامل العسلي، "مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس،" ص 98.

[15] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 50؛ وكامل العسلي: "مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس".

[16] **الموسوعة الفلسطينية** (بيروت: 1990)، القسم الثاني، ج 3، ص 302؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 376؛ وابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 302.

[17] عارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 267-269.

[18] كامل العسلي، "مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس،" ص 98.

[19] **المرجع نفسه**، ص 102.

[20] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني (بيروت: 1998)، ص 506-507.

[21] رؤوف سعد أبو جابر، **الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين** (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004)، ص 71-72.

[22] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 162.

[23] **المرجع نفسه**.

[24] **المرجع نفسه**.

[25] **المرجع نفسه**.
[26] **المرجع نفسه**، ص 159-168.
[27] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302؛ وكامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 376؛ وابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 302.
[28] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 162.
[29] **المرجع نفسه**.
[30] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 376؛ وابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 302.
[31] عبد اللطيف الطيباوي، **القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام**، ص 37-38.
[32] **المرجع نفسه**، ص 39.
[33] **المرجع نفسه**، ص 41.
[34] الجبرتي، **عجائب الآثار**، ج 2، ص 205.
[35] **المرجع نفسه**.
[36] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 287.
[37] العماد الأصفهاني، **الفتح القسي قي الفتح القدسي**، ص 151؛ وابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ص 55.
[38] سلامة محمد البلوي، "المثاقفة بين العرب والغرب التجربة الأندلسية نموذجاً،" مجلة **المؤرخ المصري**، العدد 29، 2006، ص 206-209.
[39] انظر: تقرير وضع التعليم في مدارس القدس العربية للعام الدراسي 2008/2007 من إعداد سعاد القدومي، نائب مدير عام التعليم العام في وزارة التربية الفلسطينية.
[40] انظر: **التعليم في القدس**، سلسلة التقرير المعلوماتي (6) (مؤسسة القدس الدولية: بيروت، 2009)، ص 22.
[41] http://www.moehe.gov.ps/publcations/quds rebort.doc
[42] نشرت جريدة **الدايلي ستار** The Daily Star التي تصدر باللغة الإنجليزية في بيروت بتاريخ 1969/11/5 قائمة مطولة بأسماء الأشخاص الذين أبعدوا حتى ذلك اليوم من القدس.
[43] تقرير وزارة التربية والتعليم الفلسطينية 2004/8/7.
[44] وحدة شؤون القدس، قطاع التعليم في القدس الشريف للعام الدراسي 2008/2007م، السلطة الوطنية الفلسطينية، وزارة التربية والتعليم العالي.
[45] انظر تقرير وضع التعليم في مدارس القدس العربية للعام الدراسي 2008/2007 من إعداد سعاد القدومي.
[46] http://www.moehe.gov.ps/publcations/quds rebort.doc
[47] محسن محمد صالح، **القضية الفلسطينية خلفياتها وتطوراتها حتى سنة 2001**، ط 2 (كوالالمبور: بترا، 2002)، ص 90؛ ورفيق النتشة وإسماعيل ياغي، **تاريخ مدينة القدس** (عمّان: دار الكرمل، 1984)، ص 157.
[48] علي الدجاني وعرفان نظام الدين، **القدس: إيمان وجهاد** (بيروت: 1971)، ص 43.
[49] **المرجع نفسه**.
[50] **المرجع نفسه**، ص 48.
[51] أسماء عبد الهادي فاعور، **فلسطين والمزاعم اليهودية** (بيروت: دار الأمة، 1990)، ص 195.
[52] عن تهويد القدس انظر على سبيل المثال: علي الدجاني وعرفان نظام الدين، **القدس: إيمان وجهاد**؛ ومحمد صالح يونس، **أوراق عن القدس** (جمعية الدعوة الإسلامية العالمية: 2002)، ص 133-178.
[53] أسماء فاعور، **فلسطين والمزاعم اليهودية**، ص 194؛ وروحي الخطيب، **تهويد القدس** (عمّان: مطبعة التوفيق، 1971)، ص 30.
[54] روحي الخطيب، **تهويد القدس**، ص32؛ وعن مخطوطات البحر الميت انظر: محمود العابدي، **مخطوطات البحر الميت** (عمّان: دائرة الثقافة والفنون الأردنية، 1967).
[55] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 287.
[56] عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**.
[57] أحمد بن محمد ابن الفقيه الهمذاني، **البلدان** (بيروت: عالم الكتب)، ص 100-101.

[58] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 1، ص 339.
[59] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 16، 96، 380-386، 443-445؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 376-377.
[60] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 377.
[61] كانت مدرسة للنحو والأدب أنشأها الملك المعظم.
[62] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449-450.
[63] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302.
[64] حاتم أبو هلال، "مكتبة المسجد الأقصى المبارك،" في **ندوة المكتبات في بلاد الشام 26–1992/10/28** (دمشق: مكتبة الأسد الوطنية، 1992)، ص 209-214.
[65] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302؛ وعن نفائس المخطوطات في دار كتب المسجد الأقصى انظر: أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق، المجلد 20، 1945، ص 240-241.
[66] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 451؛ و**موسوعة المدن الفلسطينية**، ط 1 (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، 1990)، ص 601-603؛ وعبد الجليل حسن عبد المهدي، **الحركة الفكرية في ظلّ المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي** (عمّان: مكتبة الأقصى، 1980)، ص 274، 275.
[67] محمد كرد علي، **خطط الشام** (بيروت: 1971)، ج 6، ص 195.
[68] **موسوعة المدن الفلسطينية**، ص 601-602؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 286.
[69] محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (القاهرة: 1355هـ/1936م)، ج 6، ص 301.
[70] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302.
[71] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449-450.
[72] حسن عبد اللطيف الحسيني، **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر**، تحقيق سلامة صالح نعيمات (عمّان: 1985)، ص 13.
[73] أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق، المجلد 20، 1945، ص 237.
[74] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص449؛ أحمد الخليلي، **وثيقة مقدسية تاريخية**، تحقيق إسحق موسى الحسيني وأمين أبو ليل (القدس: مطبعة دار الأيتام، 1979)؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات** (عمّان: مؤسسة آل البيت، 1990)، ج 3، ص 893؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 289-290؛ ومحمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 195-196.
[75] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين** (بيروت: 1947)، ج 1، ص 124؛ و**الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني**، ج 3، ص 305.
[76] كامل جميل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 170-178؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات** (عمّان: مؤسسة آل البيت، 1990)، ج 3، ص 894؛ و**موسوعة المدن الفلسطينية**، ص 601-603؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 287-288.
[77] **موسوعة المدن الفلسطينية**، ص 601-603؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 894.
[78] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، القسم الثاني، ج 1، ص 137.
[79] كامل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 170-178.
[80] محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 201.
[81] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 1، ص 143.

[82] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449.

[83] أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق، المجلد 20، 1945، ص 236-237، ولمزيد من التفاصيل انظر أيضاً: المجلد 21، 1946.

[84] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 305.

[85] كامل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 170-178؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 287-288.

[86] عبد الله مخلص، "نفائس الخزانة الخالدية في القدس الشريف،" **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق، المجلد 4، 1924، ص 409-413.

[87] أمين أبو ليل، "المكتبات الإسلامية في بيت المقدس،" من ندوة المكتبات في الأرض المحتلة، عمّان، المركز الثقافي الملكي، 11-1991/11/13، ص 3-4.

[88] الرباط المنصوري، أسسه المنصور قلاوون سنة 681هـ/1282م.

[89] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 77-78.

[90] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص449.

[91] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 39-47.

[92] مروان فايز أبو خلف، "المتحف الإسلامي – الحرم الشريف – القدس – تاريخه ومحتوياته،" **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام: فلسطين**، المجلد 1، ص 302-307.

[93] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 285.

[94] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص295.

[95] **المرجع نفسه**.

[96] **المرجع نفسه**، ص 78. لمزيد من التفاصيل عن هذه المخطوطات انظر: محمود العابدي، **مخطوطات البحر الميت** (عمّان: 1967).

[97] خيرية قاسمية، **قضية القدس**، ص55-58؛ ذكرت بأن المتحف أسس سنة 1930 واكتمل سنة 1948.

[98] فوزي غندور، "استطلاع عن مكتبة متحف الآثار الفلسطيني،" مجلة **رسالة المكتبة**، عمّان، المجلد 2، العدد 1، 1967، ص 24-28.

[99] **المرجع نفسه**.

[100] **المرجع نفسه**.

[101] أمين أبو ليل، "المكتبات الإسلامية في بيت المقدس،" ص 4؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 294.

[102] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449.

[103] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، المجلد 1، ص 10-15؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 303، وقد ذكرت أن عدد السجلات 660 سجلاً تغطي الفترة من 934هـ/1527م وحتى الآن.

[104] وصل عدد سكان القدس سنة 963هـ/1555م إلى 12,500 شخصاً، وفي سنة 1849 أصبح 11,682، وفي سنة 1871 أصبح عددهم 14,352، ووصلوا في سنة 1922 إلى 62,600، انظر: **الموسوعة الفلسطينية:** القسم الثاني، الدراسات الخاصة، ج 6، ص 802؛ و**القدس في التاريخ** (مجموعة بحوث)، ص 237، 279.

[105] أنشأ المماليك وحدهم حوالي أربعين مدرسة، منها على سبيل المثال أكثر من أحد عشر مدرسة حول الحرم، انظر: مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 33-49، 561-596؛ وعن مدارس القدس انظر أيضاً: **القدس في التاريخ** (مجموعة بحوث)، ص 219؛ ويوسف غوانمة، **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، ص 155-177؛ وعلي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ص 152.

[106] حرص الأيوبيون والمماليك والعثمانيون على تشجيع الأوقاف المتعلقة بالمؤسسات العلمية لتعزيز المذهب السنيّ، وللحرص أيضاً على الظهور أمام رعاياهم بمظهر الحماة للإسلام، المدافعين عن الثقافة الإسلامية.

[107] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449-450.

[108] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 34، 386؛ ومحمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 2، ص 119؛ و**موسوعة المدن الفلسطينية**، ص 600-601.

[109] الخانقاه: كلمة مركبة من أصل فارسي (خانكاه)، ومعناها دار التعبد لإيواء الصوفية المنقطعين للعبادة، ويذكر أن زيد بن صبرة هو أول من أقام في البصرة، في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، مسكناً لإقامة بعض المسلمين حتى يتفرغوا للعبادة طوال اليوم، إلا أن أول إشارة تدل على إقامة خانقاه في الإسلام كانت في حوالي القرن الرابع الهجري.

[110] أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" ص 238.

[111] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 34؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 451؛ وفيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ص 294؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 286.

[112] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449.

[113] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 168-169، 373؛ ومحمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 117.

[114] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 372؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، 286.

[115] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 179.

[116] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 286.

[117] تقي الدين المقريزي، **السلوك** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، القسم 1، ج 4، ص 525.

[118] سعيد عبد الفتاح عاشور، "بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك،" **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام: فلسطين**، المجلد 1، ص 100.

[119] علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ص 166؛ وكامل العسلي، **وثائق مقدسة تاريخية**، ص 117؛ ومحمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 117.

[120] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 385-398؛ ومحمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 116-124.

[121] **أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين**، نشرة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، إسطنبول، 1982، ص 20-56.

[122] عن ربط القدس وزواياها انظر: محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 148-150.

[123] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 286.

[124] زياد عبد العزيز المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ط 1 (منشورات بنك الأعمال، 1996)، ص 282-285.

[125] ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ج 1، ص 40.

[126] كامل العسلي، **وثائق مقدسة تاريخية**، المجلد 2، ص 291-293؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 288، 306؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 893؛ وفيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ص 294.

[127] أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" ص 238؛ وعن خزائن القدس انظر: محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 195-196.

[128] محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 6، ص 195.

[129] محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج 4، ص 125.

[130] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ص 293.

[131] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ص 894؛ وفيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 1، ص 143، ج 2، ص 475.

[132] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 451؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ص 893؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 288.

[133] **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق، المجلد 5، ج 2، عدد شباط، 1343هـ، ص 61، فقد جاء في هذا العدد: "أهدى أديب فلسطين إسعاف بك النشاشيبي أحد أعضاء المجمع العلمي إلى مكتبة المجمع مجموعة مخطوطات".

[134] يعقوب العودات، **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين** (عمّان: 1976)، ص 627.

[135] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 296، 306؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، 286؛ وأسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" ص 238؛ وفيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ص 294.

[136] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 893.

[137] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 288.

[138] **المرجع نفسه**، ص 306.

[139] زياد المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ص 282-285.

[140] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 306.

[141] زياد المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ص 282-285.

[142] حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص 836.

[143] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 290-291.

[144] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ص 293؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 306.

[145] أمين أبو ليل، المكتبات الإسلامية في بيت المقدس، دراسة مكتوبة باليد مقدمة إلى ندوة المكتبات في الأرض المحتلة، المنعقدة في المركز الثقافي الملكي، عمّان، 11-1991/11/13، ص 6.

[146] زياد المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ص 282-285.

[147] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 289.

[148] زياد المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ص 282-285.

[149] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 289.

[150] **المرجع نفسه**.

[151] **المرجع نفسه**.

[152] **المرجع نفسه**.

[153] أمين أبو ليل، المكتبات الإسلامية في بيت المقدس، دراسة مكتوبة باليد مقدمة إلى ندوة المكتبات في الأرض المحتلة، المنعقدة في المركز الثقافي الملكي، عمّان، 11-1991/11/13، ص7.

[154] المرجع نفسه.

[155] زياد المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ص 282-285.

[156] **المرجع نفسه**.

[157] **المرجع نفسه**.

[158] أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها،" المجلد 4، 1924، ص 239.

[159] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 306.

[160] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 1، ص 294.

[161] **المرجع نفسه**، ص293.

[162] أمين أبو ليل، "المكتبات الإسلامية في بيت المقدس،" ص 5.

[163] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 286.

[164] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 401-402.

[165] السيدة فيراكوسا، "مكتبات الأديرة في منطقة القدس وبيت لحم: دراسة حالة،" في **ندوة المكتبات في بلاد الشام 26-1992/10/28** (دمشق: مكتبة الأسد الوطنية، 1992)، ص 40.

[166] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 59-60.

[167] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 2، ص 477.

[168] أحمد سيد دراج، **وثائق دير صهيون بالقدس الشريف** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1968)، ص 17-21؛ وفيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ص476-477.

[169] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 54-58؛ وفيراكوسا، "مكتبات الأديرة في منطقة القدس وبيت لحم،" ص45-46؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 307.

[170] ذكرت فيراكوسا في بحثها: "مكتبات الأديرة في منطقة القدس وبيت لحم،" ص 45-46، أن هذه المكتبة تأسست سنة 1800 لخدمة الرهبان في الدير، وأنها تشتمل على 14 ألف كتاب، منها 500 باللغة العربية، والبقية باللغات الإنجليزية والألمانية واليونانية والروسية وغيرها.

[171] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 2، ص 475.

[172] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 307.

[173] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 65-67، 71-72؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 308.

[174] فيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 2، ص 478-479.

[175] فيراكوسا، "مكتبات الأديرة في منطقة القدس وبيت لحم،" ص 43-44.

[176] **المرجع نفسه**، ص 41.

[177] **المرجع نفسه**، ص 46-47.

[178] علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ص 171.

[179] **موسوعة المدن الفلسطينية**، ص 602.

[180] زياد المدني، **مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245هـ/1800-1830م**، ص 282.

[181] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 449-450؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 295.

[182] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 838.

[183] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 157 (وقفية الشيخ شرف الدين يحيى بن قاضي الصلت).

[184] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 291.

[185] كامل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 179-187؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 291.

[186] عز الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر، 1964)، ج 11، ص 364؛ والأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 142؛ وابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج 7، ص 266؛ ومجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 4، ص 96-98.

[187] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ج 1، ص 157 (وقفية الشيخ الصلت).

[188] *Encyclopedia of Islam*, vol. 2, p. 1046.

[189] محمد محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر** (القاهرة: 1980)، ص 255-256؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 835-836.

[190] علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ص 166.

[191] أطلق هذا الاسم على من يتولى مكتبة الصخرة المشرفة، انظر: **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 892.

[192] خيال محمد مهدي الجواهري، **من تاريخ المكتبات في البلدان العربية** (دمشق: وزارة الثقافة، 1992)، ص 112-115؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 835-836.

[193] خيال الجواهري، **من تاريخ المكتبات في البلدان العربية**، ص 112-115؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 731.

[194] تاج الدين عبد الوهاب السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم** (مصر: دار الكتاب العربي، 1948)، ص 11.

[195] محمد السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 6، ص 301.

[196] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 288.

[197] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 731، 737.

[198] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 191، 197-198، 240-241.
[199] يحيى بن محمود الساعاتي، "الوراقة دراسة في المفهوم والمصطلح،" بحث مقدم للدورة التدريبية الدولية الأولى التي عقدت تحت عنوان صناعة المخطوط العربي الإسلامي من الترميم إلى التجليد، بدعوة من مركز جمعة الماجد للتراث، وجامعة الإمارات العربية المتحدة، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) – الرباط (دبي: 1997/5/3-1997/5/15)، ص 104.
[200] المرجع نفسه، ص 113.
[201] برهان الدين إبراهيم بن محمد ابن مفلح، **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**، تحقيق عبد الرحمن العثيمين (الرياض: مكتبة الرشد، 1990)، ج 1، ص 131.
[202] أحمد سيد دراج، **وثائق دير صهيون بالقدس الشريف**، ص 17-21؛ وفيليب دي طرازي، **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 2، ص 476-477.
[203] فيليب دي طرازي: **خزائن الكتب العربية في الخافقين**، ج 2، ص 478-479.
[204] علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ص 116.
[205] خيال الجواهري، **من تاريخ المكتبات في البلدان العربية**، ص 112-115.
[206] كامل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 170-178؛ و**موسوعة المدن الفلسطينية**، ص601-603؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 287-288.
[207] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 838.
[208] كامل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 170-178.
[209] أحمد الخليلي، **وثيقة مقدسية تاريخية**، ص 33-34.
[210] تاج الدين السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ص 11؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 837.
[211] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 837.
[212] فيراكوسا، "مكتبات الأديرة في مكتبة القدس وبيت لحم،" ص 40.
[213] تاج الدين السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ص 11.
[214] **التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 836-837.
[215] تاج الدين السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ص 11.
[216] يوسف العش، **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ترجمة نزار أباظة ومحمد صباغ (بيروت: 1991)، ص 325.
[217] أفرد الخطيب البغدادي في القسم الرابع من كتابه القيم: **تقييد العلم**، تحقيق يوسف العش (دمشق: 1974)، ص 117-150، حول فضل الكتب وما قيل فيها. ولتسجيل وقف الكتب تطلب ثلاث صيغ: كتابة لائحة بالكتب في المحكمة، وكتابة شهادات الوقف على الكتب نفسها، وكتابة صيغ تخصص لإدخال الكتب في الوقف، انظر: يوسف العش، **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ص 326.
[218] ابن الفقيه الهمذاني، **البلدان**، ص 100-101؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 891.
[219] العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص 142؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 11، ص 364.
[220] أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج 3، ص 61.
[221] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 34؛ ويوسف العش، **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ص 276-277؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 286.

[222] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 96؛ ومروان أبو خلف، "المتحف الإسلامي – الحرم الشريف – القدس – تاريخه ومحتوياته،" ص 308؛ وسعيد عاشور، "بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك،" ص97؛ وسعيد عاشور، **بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته**، ص 512-513.

[223] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 96-99، 179-180.

[224] **المرجع نفسه**، ص 97، 179-180.

[225] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 377؛ وعن المصاحف التي أوقفها سلاطين المماليك انظر: مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 2، ص 96 وما بعدها.

[226] **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، ج 3، ص 302؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 376؛ و**التربية العربية الإسلامية: المؤسسات والممارسات**، ج 3، ص 891؛ ويوسف العش: **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ص 277؛ وكامل العسلي، **تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، ص 179-187؛ وابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 302؛ ومروان أبو خلف، "المتحف الاسلامي – الحرم الشريف – القدس – تاريخه ومحتوياته،" ص 308-310.

[227] ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج 7، ص 266.

[228] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 1، ص 95-100.

[229] يوسف العش، **دور الكتب العربية العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ص 276.

[230] كامل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية**، ص 152-165.

[231] انظر: عبد الجليل عبد المهدي، **الحركة الفكرية في ظلّ المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ص 270.

[232] الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، **التعداد العام للسكان والمساكن والمنشآت–2007: النتائج النهائية للتعداد، تقرير السكان، محافظة القدس** (رام الله، فلسطين: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، حزيران/ يونيو 2009)، في:
http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_PCBS/Downloads/book1574.pdf

[233] انظر **المرجع نفسه**.

[234] **التعليم في القدس**، ص 54.

الفصل السابع

دور المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس

دور المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس

د. ناجح بكيرات

مقدمة:

تعرضت المؤسسات الثقافية والتربوية في القدس، كشأن باقي القطاعات، للعدوان الإسرائيلي نتيجة الحرب التي شنتها "إسرائيل" على القدس وبقية الأراضي الفلسطينية سنة 1967، وحرص الاحتلال الإسرائيلي على تسديد ضرباته المتلاحقة إلى المواقع التي يتنامى فيها العقل ويتطور، ونعني المؤسسات الثقافية والتعليمية في القدس خاصة وفي فلسطين عامة.

فبعد أن صدرت موافقة الكنيست Knesset الإسرائيلي على الضم العسكري للقدس في حزيران/ يونيو 1967، سارعت "إسرائيل" إلى القيام بإلغاء القوانين الأردنية المتعلقة بالتربية والتعليم في المدينة، ووضعت أيديها على جميع المدارس الحكومية ومديريات التعليم الأردني، وطلبت من الموظفين والعاملين في الجهاز التعليمي الالتحاق بأجهزة التعليم الإسرائيلية شريطة أن يطبق فيها المنهاج الإسرائيلي، وأن تنفذ جميع تعليمات الجهات الإسرائيلية الرسمية المشرفة على التعليم، أي وزارة المعارف وبلدية القدس الإسرائيلية؛ فرفض مدير مكتب التربية وصحبه العمل تحت تلك الظروف[1].

لقد كان تحرك مواطني القدس ضدّ استيلاء الإسرائيليين على مؤسساتهم الثقافية والتعليمية مقاومة مجتمعية من الطراز الأول، وقد أدى هذا النضال إلى إجبار بلدية القدس على إعادة المناهج الأردنية إلى جميع المدارس، كما أدى هذا الاندفاع الجماهيري إلى الاهتمام بالتعليم والمؤسسات الخاصة وافتتاح مدارس خاصة، إلا أن الأمة العربية والإسلامية في ذلك الحين لم تكن على مستوى كافٍ من الوعي لدعم هذا النوع من التعليم.

وهناك مؤسسات تعليمية ذات تاريخ عريق قبل الاحتلال الإسرائيلي وقعت تحت وطأة هذا النظام، وبعضها حافظ على مسيرته وخصوصيته حتى اليوم، على الرغم من العقبات والقيود التي فرضت عليها، وأصبحت هذه المؤسسات تخضع إلى جهات متعددة مشرفة على التعليم في القدس.

تعدّ مدينة القدس واحدة من المدن العالمية الثقافية، وعاصمة للثقافة العربية لسنة 2009، وذلك بسبب ما حوته من مقدسات ومؤسسات ثقافية وتعليمية ومدارس، فهي خزانة التاريخ ومدينة العلم والعلماء، ولكن الاحتلال هو الذي خطط لتهويد المدينة منذ سنة 1948 وحتى الآن، ورفض إقامة أية مؤسسة ثقافية، بل واستولى على العديد منها.

فنحن ما زلنا نذكر الكلية العربية على أرض جبل المكبر التي خرّجت قادة العمل السياسي والأكاديمي في الوطن العربي، والتي حُوِّلت اليوم إلى كلية لتدريب النخبة من الجيش الإسرائيلي. كما أن "إسرائيل" قد استولت على مكتبة القدس العامة في شارع الزهراء، وعلى المتحف الفلسطيني وغيرت اسمه إلى متحف روكفلر Rockefeller Museum، وحولت التنكزية إلى مقر لجيش الدفاع، والبكرية إلى جمعية للمعاقين حركياً، وقيدت المسارح وراقبت الصحف، وأغلقت مراكز البحث وحاولت أن تنشئ مراكز شبابية بمواصفات إسرائيلية مثل مركز بيلي والمركز الجماهيري.

ولكن القدس معطاءة لم تجف بعد والخير والبركة فيها باقيان إلى يوم القيامة، ونحن في هذا البحث سنحاول أن نلقي الضوء على بعض هذه المؤسسات التي ما زالت شامخة في المدينة، على الرغم من كل ما جرى. ويبين الجدول التالي توزيع المؤسسات التي سنلقي عليها الضوء في هذه الدراسة:

جدول 7/1: المؤسسات التعليمية والثقافية في القدس قبل سنة 1967

اسم المدرسة	الجهة المشرفة	سنة التأسيس
الرشيدية	وزارة المعارف الإسرائيلية	1906
العمرية	بلدية القدس	1918
دار الأيتام	الأوقاف الإسلامية	1922
الإبراهيمية	المدارس الخاصة	1931
المأمونية	وزارة المعارف الإسرائيلية	1937
دار الطفل	المدارس الخاصة	1948
ثانوية الأقصى الشرعية	الأوقاف الإسلامية	1958
المعهد العربي	المدارس الخاصة	1965

أولاً: المدرسة الرشيدية:

من أراد أن يتعرف على مستوى الحياة العلمية في القدس في عصر السلطان عبد الحميد الثاني (1879-1909) فلا بدّ له أن يمر على الأثر التاريخي الشاهد على ذلك إلى الآن، ألا وهو المدرسة الرشيدية، فهي من أحسن مدارس الحكومة في عصرها في البلاد قاطبة. حيث ظهر بعد إعلان الدستور في أواخر الحكم العثماني سنة 1908 شيء من التنظيم في التعليم، وأخذت الدولة على عاتقها مسؤولية التعليم، وظهرت المدارس الابتدائية والإعدادية والسلطانية، وكانت مدتها تختلف من المدينة عن القرية أو البلد، وكانت الصورة بشكل عام تسير على النحو التالي:

1. ابتدائي ومدته ست سنوات.
2. إعدادي ومدته ثلاث سنوات.
3. سلطاني ومدته ثلاث سنوات.



المدرسة الرشيدية تأسست سنة 1906

وينعقد التعليم الابتدائي في القرى وفي الأقضية، والتعليم الإعدادي في المتصرفيات، والتعليم السلطاني في الولايات، وكانت القدس متصرفية.

ويمكن تقسيم أنماط التعليم في تلك الفترة إلى ثلاثة مسارات:

1. **الكتاتيب:** وفيها يتولى التدريس معلم أو شيخ، والكتّاب مكون من غرفة واحدة، ويقتصر التعليم فيه على القراءة والكتابة وحفظ القرآن والحساب.

2. **المدارس الحكومية:** وتبنت الحكومة العثمانية التعليم مبدئياً، وبدأ الطلاب بدخول المدارس والتعلم فيها، وأصبح قيام نواة التعليم.

3. **المدارس الخاصة:** وتقسم إلى قسمين:

- المدارس الوطنية.
- المدارس التبشيرية[2].

في سنة 1920 قامت حكومة الانتداب البريطاني بتصنيف المدارس على النحو التالي:

1. مدارس الحضانة وبساتين الأطفال حتى السادسة من العمر.
2. التعليم الابتدائي الأول: 6-11 عاماً، ومدته خمس سنوات.
3. التعليم الابتدائي الثاني: 11-13 عاماً، ومدته سنتان.
4. التعليم الثانوي الأول: 13-15 عاماً، ومدته سنتان.
5. التعليم الثانوي الثاني: 15-17 عاماً، ومدته سنتان[3].

والمدرسة الرشدية في القدس هي التي سميت في الانتداب بالمدرسة الرشيدية[4]، ومن أجل التعرف على هذه المدرسة فلا بدّ من الوقوف على النقاط التالية:

1. موقع مدرسة الرشيدية:

على بعد خمسين متراً من باب الساهرة ومن الجهة الشمالية لسور القدس أقيمت الرشيدية بمبناها الرائع والذي ما زال حتى اليوم؛ حيث يحدها من الجنوب الشارع العام الذي يفصل بين سور البلدة القديمة والمدرسة، ومن الشمال فندق الأراضي المقدسة، ومن الشرق المتحف الفلسطيني قديماً المعروف باسم روكفلر، ومن الغرب الشارع العام الذي يفصل بينها وبين مؤسسة البريد العامة.

2. وصف المبنى:

يتكون مبنى الرشيدية من ثلاثة طوابق يصعد إليها بدَرَج عريض من الساحة الخارجية وطابعها يأخذ شكل المباني المعلقة العثمانية المتأخرة، ويفضي الدرج إلى ساحة واسعة مسقوفة وعلى يمين الساحة مدخل إلى غرف صفية متعددة وكذلك على يسارها.

والطابق العلوي يفضي إلى ممر وعلى جانبيه أيضاً غرف صفية كبيرة، وهي مسقوفة بالقرميد على شكل مثمن ثُبّت حجره الأساس في أعلى الواجهة الجنوبية للمبنى. هذا هو المبنى العثماني الأصلي، ومع توسع الرشيدية تمّ إضافة مبنيين؛ كل مبنى مكون من طابقين فيهما أكثر من عشرين غرفة صفية، وأمام هذه المباني الثلاثة ساحة واسعة للطلاب.

3. مراحل نمو الدراسة وتطورها في الرشيدية:

أ. المرحلة الأولى (1908-1948):

ذكر العارف أن للرشيدية في تسميتها قولين: الأول أنها بنيت على يد متصرف القدس رشيد بك سنة 1906 في زمن السلطان عبد الحميد، والثاني أنها بنيت في زمن السلطان محمد رشاد سنة 1908 وأن اسمها رشادية وإنما حرفت مع الزمن. والأرجح القول الأول لعدة اعتبارات منها، أن تاريخ الحجر المثبت في أعلى المبنى يعود إلى سنة 1906، وكذلك عرفت المدارس الابتدائية الحكومية بالرشيدية والسلطانية في تلك الفترة[5].

إن بدايات المسيرة التربوية التعليمية في مدرسة الرشيدية كانت سنة 1909 أي بعد ثلاث سنين من وضع حجر الأساس، وكانت الدراسة فيها أولية وفيها قسم للتعليم الثانوي، وقصدها العديد من الطلبة من داخل فلسطين وخارجها، ثم تطورت بعد الحرب العالمية الأولى فأصبحت مدرسة ثانوية كاملة، وعرف هذا النوع من المدارس بالمدارس السلطانية (المكتب السلطاني)[6]. ثم تطور التعليم في المدرسة بعد المرحلة الثانوية بسنتين أخريين، حتى صارت تؤهل خريجيها الحاصلين على الشهادة الثانوية (المتريكوليش) لدراسة الطب والهندسة، وذلك بدراسة مواد خاصة تحضيرية، بحيث كانت السنتان الدراسيتان في المدرسة تعادلان السنة التحضيرية في كليات الطب والهندسة والحقوق[7].

وتشير سجلات المدرسة إلى أن بعض الأكاديميين الذين تلقوا علومهم في المدرسة الرشيدية في السنوات التحضيرية لكلية الطب والهندسة والحقوق أتموا دراستهم في جامعة إسطنبول، أمثال حسام الدين أبو سعود سنة 1938، الذي اشتهر كطبيب على مستوى الوطن، وعلي النشاشيبي الطبيب البيطري، وفي سنة 1916 نجد المهندس نظيف الخالدي الذي أسهم في بناء سكة حديد الحجاز. وتخرج منها أيضاً رشدي الإمام الحسيني سنة 1913 وقد عيّن مهندساً لدى المجلس الإسلامي الأعلى في القدس، وكذلك المهندس راغب النشاشيبي سنة 1915 رئيس بلدية القدس في عهد الانتداب.

كما تخرج منها عدد كبير في مجال الحقوق، وكانوا طلاباً فيها منهم: عارف بكر الدجاني، طاهر علي الأفغاني، وعبد الكريم الكرمي، ويوسف الخالدي، ومصطفى الخالدي[8].

ذكرت مجلة المدرسة أنها كانت تضم في جنباتها كوادر تربوية مؤهلة، أمثال الشيخ إبراهيم العوري، ومحمد حسن زلاطيمو، وفوزي محي الدين النشاشيبي، وزهير الشهابي، وياسين الخالدي.

وامتازت الرشيدية أيضاً بوجود الصفوف الثالث والرابع والخامس الثانوي، وهو ما ميزها عن بقية الثانويات في فلسطين، فكان الطلاب يكملون الصف الثاني الثانوي في أي مدرسة في فلسطين كغزة ويافا وحيفا والناصرة والخليل ونابلس، ثم يأتون إلى الرشيدية ليكملوا تحصيلهم العلمي ويستعدون لدخول الجامعة[9].

ومن المديرين الذين تقلبوا على إدارة المدرسة الرشيدية خلال هذه الفترة شريف النشاشيبي، وعارف البديري، ومحمد هادي الحاج جبر، وحسن عرفات. ومن أشهر أساتذتها الشيخ ضياء الدين الخطيب، وحسن الكرمي، وشكري المهندي، وجلال زريق، وإحسان هاشم، ومحمد عبد السلام البرغوثي، وحسام الأموي، وعثمان بدران، وإسحق موسى الحسيني، وفؤاد الترزي، ومحمد العدناني، وممدوح الخالدي، وعبد الحافظ كمال، وعبد الملك الناشف، ووصفي العنبتاوي، وحسني الأشهب، وبدر الفاهوم، وسليم كاتول، وأنور الخطيب[10].

وتشير الدراسات إلى أن المنهج في المدرسة الرشيدية كان يتبع الحكومات الحاكمة، لكونها مدرسة حكومية، ففي الفترة التركية كانت تطبق عليها مناهج التعليم الابتدائي

والثانوي، وبعد دخول القوات البريطانية أصبح المنهج فيها مزيجاً بين المنهج المصري والآخر التركي، ثم وضع منهاج مؤقت للمدارس الابتدائية سنة 1920 كانت ملامحه الرئيسية تلك المستعملة في مصر والمتأثرة إلى حد ما بالنظام الفرنسي. ثم تطور المنهاج في العام التالي ليصبح أكثر ملائمة لحاجات البلد، واستقر المنهاج سنة 1924 حيث أدخلت اللغة الانجليزية والفيزياء والكيمياء والرياضيات والتاريخ، حيث كان التعليم بالتنافس والتزاحم بين الطلاب، ومقياس الذكاء هو مقدار التفوق في تحصيل العلم، وكان البرنامج الدراسي الفلسطيني موضوعاً على هذا الأساس، وكان متميزاً عن جميع البرامج الدراسية في العالم العربي، وكان يشرف على الامتحان النهائي مجلس التعليم العالي الفلسطيني[11].

ب. المرحلة الثانية (1948-1967):

خلال حرب 1948 تعطلت الدراسة في المدرسة الرشيدية شأنها شأن بقية مدارس القدس وفلسطين، ومع بداية العهد الأردني كانت المدرسة من ضمن المدارس التي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم الأردنية، وأصبحت هي المدرسة الوحيدة التي تتقدم لامتحان الدراسة الثانوية الأردنية من مجموع المدارس الحكومية المتواجدة آنذاك. وفي سنة 1964 بلغ عدد طلابها 950 طالباً وكان فيها ثلاثون شعبة و28 معلماً، وأشرف على إدارتها أساتذة أكفاء، كان منهم يوسف جلاجل، وتوفيق أبو السعود، والسيد أحمد عودة، وعبد اللطيف الحسيني، ومحمد القيمري. وبقيت الرشيدية تؤدي دورها بشكل ممتاز، وحصدت جوائز عديدة على مستوى الخريجين، كان منهم: عبد الرحيم بربر سنة 1957، وأحمد فهيم جبر سنة 1958، والدكتور عدنان أحمد رشيد كمال، والدكتور عدنان محمد زعيتر سنة 1959، والمهندس سعد الدين سليمان عويس، والذي يعمل حالياً أستاذاً في جامعة تكساس في الولايات المتحدة، وقد تخرج منها سنة 1962، والمحامي بشارة خوري سنة 1963. وفي سنة 1965 خرجت الرشيدية كوكبة من الطلبة في معظم المجالات المهنية والصحية، كان لهم أكبر الأثر في خدمة مجتمعهم المقدسي، منهم على سبيل المثال: هاشم سالم الزبن، ونافذ حمدي النوباني، وعبد الله سلامة القنبر، وأسطى بندلي زكاك، ومصطفى عثمان يغمور. ومن المعلوم أن الرشيدية كانت تطبق المنهاج الأردني المعتمد في كل مدارس المملكة الأردنية[12].

ج. المرحلة الثالثة (1967-2009):

تأثرت المدرسة الرشيدية بهزيمة سنة 1967، حيث سيطرت القوات العسكرية على المدرسة وجعلتها في الأيام الأولى للحرب مقراً للجيش الإسرائيلي، ثم أخلتها ووضعت وزارة المعارف الإسرائيلية وبلدية القدس يدها على المدرسة، استناداً إلى قرار ضم القدس بعد احتلالها واعتبارها جزءاً من أملاكها. وبما أن المدرسة كانت من المدارس الحكومية قبل سنة 1967، فلم يكن بالإمكان مقاومة هذا القرار، والذي أخذ بتطبيق المنهاج الإسرائيلي على أهلنا في الخط الأخضر، ومن أهداف هذا المنهاج:

1. عدم الاعتراف بعروبة فلسطين واعتبار العرب أقلية سكانية.
2. إدخال مواد تهدف إلى إيجاد جيل لا يعرف هويته ووطنه، وغرس مفاهيم السلام كوسيلة لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي.
3. إيجاد جيل ضعيف علمياً وسلوكياً وتكريس مفاهيم الدونية والعجز لدى العرب.
4. إيجاد جيل من الطلبة يعطي الولاء بشكل كامل لـ"دولة إسرائيل".

ونتيجة لذلك، ضعف الإقبال على المدرسة الرشيدية في السنوات الأولى للاحتلال (1967-1973)، ونتيجة لجهود التربويين والمخلصين في القدس وضغط الأهالي ومقاومتهم لهذا الوضع بدأت مرحلة تطبيق المنهاج الأردني في الفترة 1973-1981 في مدارس البلدية والمعارف الإسرائيلية بعد تدقيق المنهاج، وإبقاء شرط تدريس اللغة العبرية وكتاب "مدنيات إسرائيل". وقد تمّ ذلك على مراحل؛ بدأت بالثانوي، ثمّ الإعدادي، ثم الابتدائي، وبقي الأمر كذلك حتى سنة 1994 حيث طبقت الرشيدية المنهاج الفلسطيني بعدما حذفت المعارف والبلدية الإسرائيلية التي تشرف على المدرسة شعار السلطة عن غلاف الكتب وأبقت على تدريس اللغة العبرية والمدنيات[13].

ونتيجة لتطبيق المنهاج الأردني ثم الفلسطيني واستقرار المدرسة وارتفاع رواتب موظفيها، ظهر تحسن في استيعاب أعداد إضافية من الطلاب حتى وصل إلى درجة الإشباع. فبعدما وصل عدد طلابها في سنة 1971 إلى 250 طالباً أصبح عددهم اليوم ألف طالب. والملاحظ لخريجي مدرسة الرشيدية منذ سنة 1967 وحتى الآن نسبة التسرب الكبيرة بين الطلبة حتى وصلت إلى حوالي 20%، وهذا بسبب عدم الاهتمام بالإشراف

التربوي، وعدم وجود نظام في متابعة وتقييم أداء المعلمين، والحريات الزائدة الممنوحة للطلبة الأمر الذي يمنع متابعتهم ويسهم في رفع نسبة التسرب.

وعلى الرغم من كل ما سبق يُشْهد لمشروع التطوير الشامل في الرشيدية، والذي بدأ العمل به منذ سنة 2000، أنه حقق نتائج وإنجازات مختلفة نورد منها:

1. دعم ومواصلة العمل مع قيادة تربوية جديدة وقوية من خلال شخص المدير.
2. تطوير ودعم الطاقم الإداري المشارك.
3. مشروع الأخ الكبير، والذي يشمل عشرة من الأساتذة يقومون بدور الأخ الكبير لقرابة 140 طالباً.
4. دعم الفعاليات المختلفة، وإقامة دورات إضافية ومكثفة لرفع مستويات التحصيل العلمي[14].

ويشهد لمديري الرشيدية الذين تعاقبوا على إدارتها في هذه الفترة الإخلاص والخبرة والريادة، كان أشهرهم الأستاذ راتب الرابي، والذي نال شرف إدارة هذه المدرسة في الفترة 1967-1983، ثم الأستاذ سعد الدين السراج، ثم شحادة الطزمي، وفي سنة 2001 تولى إدارتها أسعد عويس وما زال يديرها حتى اليوم. وتجدر الإشارة إلى أنه يوجد في المدرسة الرشيدية اليوم 24 شعبة، وأربعون معلماً، وألف طالب، وامتازت المدرسة بفريقها الرياضي ونشاطاتها وفعالياتها التي لا تنقطع.

ثانياً: المدرسة العمرية:

تعدّ المدرسة العمرية من المدارس المهمة في تاريخها وموقعها، حيث شغلت حيزاً مهماً في تاريخ المدارس حول المسجد الأقصى المبارك، وللتعرف على هذه المدرسة لا بدّ من العودة إلى أصولها وجذورها والتعريف بها، وذلك من خلال النقاط التالية:

1. موقع مدرسة العمرية:

إلى الشمال من المسجد الأقصى وعلى الزاوية الشمالية الغربية عند باب الغوانمة، تربض مدرسة العمرية اليوم، والتي نسبت إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تيمناً بفتحه القدس، حيث إنها توجد على الرواق الشمالي للمسجد الأقصى وتطل

عليه؛ فالأقصى حدها الجنوبي، وحاكورة المدرسة الملكية حدها الشرقي، والطريق العام المسمى بطريق المجاهدين أو طريق الآلام حدها الشمالي، والطريق الفرعي المؤدي إلى الأقصى والمعروف بطريق باب الغوانمة حدها الغربي.



المدرسة العمرية تأسست سنة 1918

2. وصف المبنى:

تشكل العمرية اليوم بناء مستطيلاً من الشرق إلى الغرب، بطول يبلغ مئة متر وعرض يبلغ ستين متراً. وهذا المستطيل يتألف من عدة أبنية تعود إلى فترات تاريخية مختلفة؛ فهناك الطبقة الأرضية التي تعود إلى العهد الروماني وقد طمرت تماماً فلا يظهر منها شيء سوى ما قام به الاحتلال الإسرائيلي في سنة 1996 من فتح نفق أسفلها. وهناك البناء الأيوبي حيث ما زال قبر "درباس الهكاري"[15] موجوداً حتى اليوم في العمرية. ويوجد أثر من العصر المملوكي وما زالت آثار ثلاث مدارس اندمجت في العمرية موجودة، وهي المدرسة الجاولية والمدرسة المحدثية والمدرسة الصبيبية. وهناك البناء العثماني والذي جدد في عهد الانتداب البريطاني على يد المجلس الإسلامي الأعلى.

ويُصْعَد إلى بوابة العمرية بدرج عريض من طريق المجاهدين، حيث تفضي إلى بوابة واسعة وجميلة، ثم إلى فناء وساحة محاطة بالأروقة والغرف الصفية. والغرف الجنوبية للمدرسة تطل نوافذها مباشرة على المسجد الأقصى وساحاته، وبما أنها في موقع مرتفع فلك أن تشاهد المسجد الأقصى بمبانيه بأروع منظر. والمدرسة العمرية مبنية من الحجر، مع اختلاف في فترات العمارة.

3. مراحل تطور المدرسة العمرية:

أ. المرحلة الأولى (1285-1952):

ومن أهم ما يميز هذه المرحلة هو تعدد المدارس في المنطقة نفسها وتتابعها حيث كانت كما يلي:

1. المدرسة الجاولية:

أنشأها الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاول الشافعي سنة 683هـ/1285م، وهو من أمراء المماليك التابعين للسلطان محمد بن قلاوون. ولّي عدة مناصب، منها نيابة غزة والساحل، ونيابة القدس، ونظارة الحرمين؛ الحرم الأقصى والحرم الإبراهيمي، ومن المحتمل أن بناءه لهذه المدرسة كانت في أثناء توليه منصب ناظر الحرمين (715هـ/1315م-720هـ/1320م).

وتتألف المدرسة من غرفتين صغيرتين بينهما رواق، ولكل غرفة شباك يطل على المسجد الأقصى، وللرواق شباكين يطلان على المسجد الأقصى أيضاً.

2. المدرسة المحدثية:

أنشأها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة 762هـ/1361م إلى الغرب من المدرسة الجاولية، وقد بنيت من طابقين، الطابق الأول مطمور حتى اليوم. وكانت المدرسة تشرف على المسجد الأقصى، ولها درج يؤدي إلى المسجد، لكنه أغلق في العصر العثماني لأسباب أمنية، لأنها تحولت إلى ثكنة عسكرية.

3. المدرسة الصبيبية:

أنشأ هذه المدرسة ابن نائب القلعة الصبيبية (بانياس)، الأمير علاء الدين بن علي بن محمد، وذلك في سنة 800هـ/1398م. وتحتل الجزء الشرقي من المدرسة العمرية اليوم، وتشمل القاعة والأبنية أسفلها، وتمتد جنوباً باتجاه المسجد الأقصى. أما عن استخداماتها فقد كانت داراً للنيابة في العصر المملوكي، وفي أوائل العهد التركي استخدمت داراً للحاكم باسم "السرايا"، وفي أواخر العهد التركي استخدمت قشلاقاً (مركز شرطة) وموقعاً للجيش العثماني.

وفي موقع المؤسسة العمرية تأسست كلية روضة المعارف سنة 1918 على يد الشيخ محمد الصالح والشيخ حسن أبو السعود وإسعاف درويش وعبد اللطيف الحسيني، وكان فيها قسم ابتدائي وآخر إعدادي وثالث علمي وفيها قسم داخلي، ففي سنة 1918 بلغ عدد طلبة القسم الخارجي 72 طالباً والداخلي 17 طالباً، وقد ازداد عددهم في سنة 1932 ليصبحوا في القسم الخارجي 237 طالباً وفي الداخلي 70 طالباً[16].

بادر المجلس الإسلامي الأعلى بعد تأسيسه سنة 1922 إلى مساندة كلية روضة المعارف ودعمها على الرغم من أنها لم تكن تابعة له مباشرة، ففي سنة 1925 تكفل المجلس بالإنفاق على 25 طالباً فيها منهم خمسة طلاب في القسم الداخلي، وابتعث ستة طلاب آخرين منهم للدراسة في مصر[17].

وتماشياً مع سياسة المجلس الإسلامي في محاربة المدارس التبشيرية، وتحذير الأهالي من إيفاد أبنائهم إليها، وضرورة الإقبال على المدارس الوطنية والإسلامية؛ فقد تبنى المجلس بشكل كامل سبع مدارس في فلسطين هي: مدرسة دار الأيتام بالقدس، ومدرسة البنات في القدس، ودار العلوم الإسلامية ومدرسة النهضة ومدرسة البستان وجميعها في يافا، ومدرسة الفلاح في غزة، والمدرسة الأحمدية في عكا.

أما المدارس التي كانت تحصل على مساعدة سنوية من قبل المجلس فهي كلية روضة المعارف والإبراهيمية في القدس، ومدرسة النجاح الوطنية في نابلس، ومدرسة الإصلاح ومدرسة الهداية المتواجدتان في الخليل، ومدرسة البنات الإسلامية في الناصرة، وجمعية الشبان المسلمين في الرملة.

وفي سنة 1933 بلغت الإعانة لروضة المعارف 540 جنيهاً فلسطينياً، وبلغ عدد الطلاب 302 وعدد الشعب 10 والمعلمون 14 معلماً[18]، وأفادت السجلات بأن كلية روضة المعارف في القدس أصبحت مدرسة ثانوية منذ سنة 1930، واستمر المجلس في دعمها حتى سنة 1948، وفي سنة 1944 أنفق عليها 650 جنيهاً[19].

امتازت الكلية بحرصها على اختيار أساتذتها، فكان منهم نديم الملاح، وأمين الحسيني، ويوسف ياسين، وهاني أبو مصلح، ونقولا زيادة، وراسم الخالدي وغيرهم كثير. وخرّجت الكلية صفوة الوطنيين، وخيرة رجالات الدول العربية في لبنان وفلسطين والأردن وسورية، منهم: أمين إسماعيل الحافظ، وحازم نسيبة، وعبد الله غوشة، ورشاد الشوا، ومحيي الدين الحسيني، وعوني الدجاني وغيرهم كثير.

واستطاع الشيخ محمد سليمان الصالح، وهو رئيس الكلية، أن يطور كلية الروضة؛ فأقام فيها مسرحاً للتمثيل وقاعة للندوات، واستضافت الكلية العديد من الشعراء والعلماء، وعُقِدَت على منابرها الخطب السياسية والمناظرات، وفيها انعقد المؤتمر الإسلامي الأول سنة 1931، ومؤتمر علماء فلسطين الأول سنة 1935، ومؤتمر علماء فلسطين الثاني سنة 1936[20]. وأدخل الشيخ محمد الصالح العديد من اللغات في منهاجها، ويُذكر أن معظم المواد كانت تدرس باللغة الإنجليزية باستثناء مادة اللغة العربية والتربية الإسلامية.

وحين احتُلَّت فلسطين من قبل البريطانيين استأجرها الشيخ محمد الصالح من الأوقاف واستعملها كمدرسة لتعليم الأولاد باسم "روضة المعارف" وكان ذلك سنة 1924، وبقيت كذلك حتى سنة 1938، حيث استولى عليها البريطانيون وحولوها إلى مركز للشرطة، وبقوا حتى أواخر الانتداب البريطاني. وحينما دارت رحى الحرب في فلسطين سنة 1948 أصبحت المدرسة مقراً لجيش الإنقاذ العربي، ثم مقراً لقائد القدس الأردني، ثم مقراً لعدة دوائر إدارية في بداية العهد الأردني، وفي سنة 1952 عادت مدرسة ومشعل نور من جديد.

ب. المرحلة الثانية (1952-1967):

يتضح من خلال أرشيف المدرسة العمرية أنها عادت في العهد الأردني مدرسة ابتدائية وإعدادية، وبلغ عدد طلابها في سنة 1964 حوالي 800 طالب، وسجلت المدرسة تطوراً ملحوظاً في نشاطها الأكاديمي والرياضي. واستمر حضور بعض الطلبة من العالم العربي للدراسة فيها؛ حيث خصص قسم داخلي للمبيت. وخلال الاطلاع على الأرشيف ظهر أن شخصيات كبيرة ومهمة كانت قد زارت المدرسة، كان منهم الملك حسين بن طلال، ورؤساء ووزراء وشخصيات دعوية بارزة[21].

ج. المرحلة الثالثة (1967-2009):

تعرضت المدرسة العمرية كبقية المدارس الحكومية إلى ضمها لجهاز التربية والتعليم التابع لبلدية القدس، على الرغم من أن المدرسة وقفية وعلى رواق المسجد الأقصى بشكل مباشر، وقامت بلدية القدس ووزارة المعارف الإسرائيلية بتقسيم المبنى إلى قسمين وجعله عمرية (أ) وعمرية (ب)؛ حيث كان يدرس فيها قسمي الابتدائي والإعدادي. وبقي يطبق في المدرسة المنهاج الإسرائيلي حتى سنة 1975، وبعد تلك السنة تعافت العمرية قليلاً، وبدأت بتطبيق المنهاج الأردني، وأخذت تتواصل مع المجتمع المحلي بطبيعة موقعها الحساس، فهي المدرسة الوحيدة التي تتمتع بهذا الموقع، حيث يستغل طلابها ساحات المسجد الأقصى في كثير من الأحيان للقيام بنشاطاتهم[22].

وفي مقابلة مع مدير المدرسة الحالي الأستاذ علي جاد الله سنة 2009 تحدث عن تطور ونمو الدراسة في العمرية، حيث أصبحت الآن مدرسة واحدة تبدأ الدراسة فيها من الروضة وحتى الصف السادس الابتدائي. ويبلغ مجموع الطلاب فيها 1,050 طالباً وفيها 34 شعبة و80 موظفاً. وفي سؤال حول الصعوبات التي تواجه العمرية اليوم تحدث المدير عن طبيعة السكن في البلدة القديمة والوضع الاقتصادي الخانق، والذي أدى إلى تسرب الكثير من الطلبة بالإضافة إلى غياب دور الأهل. وأشار إلى أنه لا بدّ من وجود مراكز تعليمية وتربوية لمساعدة المدرسة بعد انتهاء الدوام، وأكد أنه على الرغم من الصعوبات التي يواجهها فإنه يعشق العمرية لموقعها وتاريخها، وبالتالي فقد حاول هو وبقية أسرة المدرسة أن يجعلوا من العمرية منارة علم، وأن يوفروا خدمة خاصة لفئة الذكور بالذات في البلدة القديمة.

فبعد إنهاء الطلاب المرحلة الأساسية في المدرسة، ينتقلون للدراسة في مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية، ولمدارس الضواحي مثل الطور وسلوان وبيت حنينا. فسمعة العمرية اليوم وخدماتها معروفة، وهي صرح مهم أيضاً ليس فقط للتعليم بل لكل الزائرين من كل أنحاء العالم، وفيها مكتبة مفتوحة ومختبر، وتعقد فيها مسابقات للموهوبين والمتميزين. وامتازت المدرسة أيضاً بفتحها ثلاثة صفوف للتعليم الخاص وهي لتقوية الضعاف في مستوى التحصيل العلمي. كما أن الرعاية الصحية متوفرة في المدرسة بشكل يومي، ففيها طبيب عام وممرض وعيادة أسنان وتقدم الخدمات لجميع الطلبة مجاناً. وتفتح المدرسة يومياً من الساعة السابعة صباحاً وحتى الخامسة مساءً، ويوم الجمعة تفتح من الساعة الثانية ظهراً وحتى الساعة الرابعة للزوار وللحجاج المسيحيين حيث تمثل المدرسة في اعتقادهم المرحلة الأولى في طريق الآلام[23].

ويتهدد العمرية اليوم من أسفلها الحفريات والنفق المشؤوم، والذي يدعى بنفق حشمونائيم، والمباني العلوية فيها بحاجة إلى ترميم؛ كما أن الجدار الحديدي الذي تمّ وضعه على سطوح العمرية أعاق حركتها والاستفادة من سطحها، إذ لا يخرج إليه إلا بإذن من الشرطة الإسرائيلية.

ثالثاً: دار الأيتام الإسلامية:

تعدّ هذه الدار في القدس من المؤسسات الرائدة والفريدة في مجالها الخيري والتعليمي والصناعي في آن واحد، فقد جاء في بيان المجلس الإسلامي الأعلى سبب إنشاء هذه الدار حين قال "وهي المنشأة الخيرية الأولى من نوعها، والتي أسست على أحدث أسلوب في هذه البلاد العربية الإسلامية"[24].

1. موقع دار الأيتام:

تقع في الجهة الغربيّة من المسجد الأقصى على بعد مئتي متر من باب القطّانين وباب المجلس، وبجانبها تماماً من الجهة الشّرقيّة تكيّة خاصكي سلطان[25]، وهي كائنة في الحيّ الإسلامي من البلدة القديمة في محلّة الست طنشق، حيث إنّ مبنى المدرسة أصلاً كان داراً للسّت طنشق[26].





مدرسة دار الأيتام الإسلامية تأسست سنة 1922

2. وصف المبنى:

المبنى في أصله مملوكي وأضيفت له بعض الغرف العثمانية، وله أكثر من مدخل، أجملها الذي يطل على عقبة السرايا، فهو من الحجر الأبلق وفيه المقرنصات الرائعة، وفيه أكثر من ستين غرفة موزعة على ثلاثة طوابق. والمبنى مربع الشكل وفي وسطه ساحات سماوية مكشوفة، والغرف الأرضيّة كبيرة وضخمة ولها منافذ عدة على معظم الطرقات التي تحيط بالمبنى. أما الغرف العلوية فهي أقل مساحة وأكثر عدداً، ولكن المبنى جميعه فيه تهوية جيّدة، وما زال المبنى قائماً حتى اليوم، وقد رمّم أكثر من مرّة، وهو موزع حالياً بين مدرسة دار الأيتام الثانوية ومدرسة دار الأيتام الصناعية، ولكل منهما مدخل يختلف عن الآخر[27].

3. مراحل نمو الدراسة في دار الأيتام:

أ. المرحلة الأولى (1922-1948):

جاء في سجلات المجلس الإسلامي أن المجلس الإسلامي قرر في 1340هـ/1922م افتتاح دار الأيتام؛ من أجل رعايتهم وتربيتهم التربية المستقيمة، وتهذيبهم على مكارم الأخلاق، وتعليمهم العلوم المفيدة، وتخريجهم في الصناعات المتنوعة التي يفتقر إليها المسلمون[28]. وأن الدار ستكون للذكور والإناث والمكفوفين، وأن رسالتها اجتماعية علمية إنسانية، وغايتها جمع شتات المسلمين وبخاصة الأيتام الذين أوصى الله تعالى بهم بقوله ﴿ألمْ يجدكَ يتيماً فآوى﴾ (سورة الضحى: آية 6)، وقوله صلى الله عليه وسلم "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين"، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى[29].

وبالتالي، لاقى افتتاح هذه المدرسة ترحاباً واسعاً من الأهالي في فلسطين، التي كانت ترزح تحت الاحتلال البريطاني، وتكثر فيها المؤسسات التبشيرية (التنصيرية) والأجنبية، حيث لم يكن هناك مؤسسات وطنية تقوم برعاية مثل هؤلاء الأيتام.

ولقد أشار بيان المجلس إلى طريقة تشغيل هذه الدار حيث جاء فيه: "وينفق المجلس الإسلامي الأعلى على هذه المدرسة من ميزانية الأوقاف العامة ومن تبرعات المحسنين"[30].

وفي سنة 1924 بلغ عدد طلاب الدار 170 طالب وطالبة، تتراوح أعمارهم بين 5-16 عاماً، وتمّ تقسيم الذكور إلى قسمين؛ قسم الصّغار وهم الذين لا تتجاوز أعمارهم

12 عاماً، حيث تمّ توزيعهم على الصفوف لتلقي التعليم والتربية في المنهاج الذي اختطه المجلس في حينه، والذي اعتمد على تدريس اللغة العربية، والقرآن والحساب، والتربية الرياضية. وأما القسم الثاني وهو قسم الكبار فقد تمّ توزيعهم على الصناعات المتوفرة في المدرسة، كلٌّ حسب استعداده وميله.

وتمّ تقسيم البنات أيضاً إلى قسمين؛ الصّغيرات ووزعن على صفوف مثيلة لصفوف الذكور، والكبيرات فتمّ تعليمهن الأشغال النسوية والتدريب المنزلي[31].

وخلال عشرة أعوام توسّعت الدّار واشتهرت، وكثر طلاّبها، وأصبحت محطَّ أنظار جميع البلدان في فلسطين وخارجها، فقد بلغ عدد طلابها 229 من الذكور، و39 من الإناث.

وقد أخذت المدرسة تنمو نمواً ملحوظاً، وازداد الإقبال عليها؛ مما جعلها تؤسّس مدرسة خاصة بالإناث بجانب مدرسة الذكور ضمت حوالي 120 طالبة، وافتتحت مصانع جديدة للطلبة. وجاء في بيان المجلس الإسلامي سنة 1944 بأن المدرسة أصبحت تضم الأقسام التالية:

1. قسم الدراسة الأكاديمية وفيه 155 طالباً.
2. قسم الصناعة وفيه 70 طالباً.
3. قسم الإناث وفيه 45 طالبة.
4. قسم الموسيقى والكشافة وفيه 35 طالباً[32].

ب. المرحلة الثانية (1948-1967):

تأثرت المدرسة سنة 1948 جراء الأحداث التي حصلت، حيث تعطلت الدراسة في تلك السنة، وعادت إلى استئناف وضعها مع بداية سنة 1949 لتركز على الصناعات فيها، فطورت قسم الخياطة للرجال وصناعة التجليد وصناعة الأحذية والدهان والتنجيد والطباعة والأثاث والخيزران.

وقد اشتهرت المدرسة بصناعاتها على مستوى العالم العربي والإسلامي، وأصبحت الفرق الكشفية التي تخرجت من دار الأيتام هي من خيرة الكوادر والقادة في بعض الجيوش العربية، ولم تهمل الدار المكفوفين والعجزة من الرعاية والتعليم، فعلمتهم صناعة المكانس والكراسي الخيزرانية والفراشي وغيره من الصناعات اليدوية البسيطة والتي قد اشتهروا بها[33].

ومن خلال أرشيف المدرسة وجدنا بأن العاملين في هذه الدار كان عددهم عند التأسيس 12 موظفاً و11 معلماً للصناعة، منهم المدير وطبيب وسبعة من المعلمين والمعلمات ومديرة المنزل ومحاسب ومأمور مؤن، وازدادت أعداد العاملين مع تطور الدار واحتياجاتها حتى وصل عددهم في سنة 1967 إلى 85 عاملاً[34].

ومن أشهر المدراء الذين تولوا إدارة المدرسة منذ تأسيسها وحتى سنة 1967: الأستاذ جميل وهبة، ثم الأستاذ عمر التميمي، ثم غازي الجعبري والذي استمر إلى ما بعد 1967. وكان راتب المدير ما بين 15-20 جنيهاً، أما المعلمين والمعلمات فتتراوح رواتبهم ما بين 8-12 جنيهاً، وكانت رواتب الأذنة والخدم والحراس لا تزيد على ستة جنيهات[35].

وركزت الدار على القسم الداخلي للأيتام واهتمت بهم، فهم في النهار موزعون على الأقسام التعليمية والصناعية، وحال انتهاء دوامهم يعودون إلى البيت الداخلي المخصص لهم في المدرسة نفسها، حيث توفر لهم الطعام والشراب والملبس وجميع السبل التي تكفل لهم المعيشة الكريمة، وكان يصرف على الدار من ريع الأوقاف، ومن تبرعات المحسنين[36].

ج. المرحلة الثالثة (1967-1980):

حاول الاحتلال في سنة 1967 إغلاق الدار، واعتقل عدداً من معلميها والأستاذ حسني الأشهب الذي نقل مكتب التربية من واد الجوز إلى دار الأيتام، ويشهد للرجل قدرته الفائقة ونجاحه في المحافظة على هوية التعليم في القدس حتى يومنا هذا، على الرغم من رحيله في سنة 1995.

أصبحت دار الأيتام بعد الحرب علماً للعلم والتعليم في القدس، وذلك بسبب موقعها في داخل البلدة القديمة وقربها من المسجد الأقصى؛ فأساتذتها وطلابها هم الوقود للمظاهرات والاحتجاجات والتواجد في داخل المسجد الأقصى المبارك. وبالتالي، تعرضت الدار لكثير من المضايقات والإغلاقات من قبل الاحتلال الإسرائيلي، إلا أن النخب من المعلمين الذين تمّ تعيينهم في المدرسة، وكان يرفض الاحتلال توظيفهم في كادره، أدى إلى تخريج أفواج قوية وصلبة، وشاء الله أن أكون واحداً من الذين نهلوا من نبع هذه المدرسة.

وشهدت المدرسة بعد سنة 1967 تطوراً ملحوظاً جديداً، حيث أصبحت قسمين منفصلين؛ مدرسة ثانوية تعليمية، ومدرسة صناعية، ولكل منهما مديرها ومنهاجها الخاص بها.

وتوسعت المدرسة الثانوية في مباني التكية وغرفها حتى وصل عدد الشعب في سنة 1975 إلى 23 شعبة صباحية و23 شعبة مسائية، واستمر الدوام في المدرسة على فترتين صباحية ومسائية حتى سنة 1998. وفي المقابل توسعت المدرسة الصناعية للأيتام في مباني الست طنشق، وضمت في مبانيها القسم الداخلي للأيتام، وبقي يديرها غازي الجعبري حتى سنة 1995.

وصل عدد طلاب المدرسة الثانوية في سنة 1976 إلى 900 طالب، وحصدت المدرسة نتائج مشرفة وعالية في امتحان الثانوية العامة، وتعاقب على إدارتها كل من محمد صيام، وعبد المحسن جابر، وبدر الشرباتي.

د. المرحلة الرابعة (1980-2009):

لم يعد بإمكان مدرسة الأيتام الثانوية الاستمرار في مبانيها، وذلك بسبب الإقبال الشديد عليها والسمعة العلمية التي حازتها، مما دعا مكتب التربية في القدس إلى تأسيس مدارس جديدة كفروع لدار الأيتام، ويمكن إجمال هذه المدارس من خلال الجدول التالي:

جدول 7/2: فروع مدرسة دار الأيتام في القدس

اسم المدرسة	المدير الحالي	سنة التأسيس	مجموع الشعب	عدد العاملين	عدد الطلبة	الموقع الحالي	نوع المدرسة
دار الأيتام الإسلامية الأساسية أ	محمد فهد الشلالدة	2003	6	14	194	واد الجوز	ذكور
دار الأيتام الإسلامية الأساسية ب	كفاح عبد الكريم	1980	5	9	120	باب السلسلة	إناث
دار الأيتام الإسلامية الأساسية ج	نادية سمير عرفات	1980	7	12	217	الشيخ جراح	إناث
دار الأيتام الإسلامية الأساسية د	سميح رزق محمود جفال	1981	7	14	183	شارع الزهراء	ذكور
دار الأيتام الثانوية	مازن جمجوم	1922	16	28	420	عقبة التكية	ذكور

ومن خلال مقابلة مع مدير دار الأيتام الثانوية الحالي، الأستاذ مازن جمجوم، تخصص برمجة وتحليل نظم؛ أفاد بأن المدرسة بعد سنة 1987 انحدر مستواها العلمي نتيجة الانتفاضة، وأغلقت لفترات طويلة، كما أن أساتذتها وطلبتها تأثروا بشكل كبير من جدار الفصل العنصري، الذي حرم مئات الطلبة من الوصول إلى المدرسة إلا بتصاريح، وبشكل غير منتظم، ونتج عن ذلك تسرب عدد من الطلبة، والانتقال إلى مدارس بديلة، وتدني التحصيل العلمي والنتائج المدرسية فيها. كما أشار إلى أن الغرف الصفية ضيقة وبحاجة إلى ترميم مع الإشارة إلى أنها رممت قبل حوالي عشر سنوات. وأوضح جمجوم أن عمل الطلاب مع آبائهم في المحلات التجارية أوجد فئة من الطلبة الميسورين، الذين ينظرون إلى المعلم نظرة الفقير الذي لا يتجاوز راتبه 700 دولار، وينظرون إلى التعليم على أنها مهنة لا فائدة منها ولا فائدة من التعلم.

وركز جمجوم في مقابلته على نقص الكفاءات العلمية من المعلمين، حيث اجتذبت مدارس بلدية القدس ووزارة المعارف الإسرائيلية إليها معظم الكفاءات بسبب مستوى المرتبات الشهرية لديها. إلا أن المدير أطلعني إلى الخطط والإرشادات والخطوات التي قام بها وسيقوم بها؛ من أجل النهوض في المدرسة، وإعادة دورها الريادي لها، وكان من أهمها تشكيل هيئة مناصرة للمدرسة، وعقد اجتماع شهري مع أولياء أمور الطلبة، ووضع ضوابط وقوانين تحدّ من تسرب الطلبة، ومطالبة وزارة التربية والتعليم بتحسين رواتب المعلمين والانتظام في دفعها، ومحاولة إيجاد طريقة لدعم مستوى الدخل للعاملين ورفعه، وكذلك ترميم الغرف الصفية وتحسينها. وحين السؤال عمن أدار المدرسة ولمن تتبع حالياً خلال هذه الفترة أجاب جمجوم بأن المدرسة نتيجة عدم استقرارها والظروف التي تعرضت لها؛ فقد تداول على إدارتها كل من إبراهيم الخواجا، وسميح جفال، ومحمد فوزي سنقرط، وعبد الرحيم بربر، ومحمد أبو الخيران، وإبراهيم شاور، وحالياً مازن بدوي[37].

وتتبع المدرسة لمكتب التربية والتعليم بالقدس، والذي بدوره يتبع لوزارة التربية والتعليم، أما بالنسبة للمدرسة الصناعية فقد تمّ افتتاح فرع لها في العيزرية في سنة 1984 بإشراف وزارة الأوقاف الأردنية، حيث تمّ بناء أكثر من ستة آلاف متر مربع لتوسيع الدار، واستيعاب أكبر عدد ممكن من الطلبة. وبعد فكّ الارتباط في سنة 1988، وتسلم السلطة الوطنية إدارة شؤون الفلسطينيين في المناطق المحتلة، تمّ إسناد أمر الدار وإدارتها بقسميها إلى وزارة الأوقاف الفلسطينية، ويشرف على إدارتها اليوم بعد غازي الجعبري الأستاذ تيسير الرجبي، وما زالت الدار قائمة حتى اليوم.

رابعاً: الكلية الإبراهيمية:

في سنة 1931 قام ثلاثة من أهل الخليل، هم الشيخ راشد القواسمي والشيخ عز الدين الشريف والأستاذ إبراهيم عبد المعطي؛ بافتتاح مدرسة بالقدس سموها المدرسة الإبراهيمية تيمناً باسم النبي إبراهيم عليه السلام، وفي سنة 1932 اشترى نهاد أبو غربية حصة الشيخ عز الدين الشريف، وفي سنة 1936 اشترى نهاد بقية الحصص لتصبح المدرسة ملكاً له[38].

1. موقع الكلية الإبراهيمية:

تقع الكلية الإبراهيمية حالياً في مدينة القدس على طريق الطور المؤدية إلى جبل الزيتون في محلة الصوانة، على بعد كيلومتر واحد من المسجد الأقصى المبارك.



الكلية الإبراهيمية تأسست سنة 1931

2. وصف المبنى:

بناؤها الحالي الذي يمتاز بالضخامة والجمال، يدخل إليه من بوابة ضخمة واسعة من الجهة الجنوبية حيث تؤدي إلى ساحة واسعة مسقوفة، والمدرسة مكونة من ثلاثة طوابق، وفيها أكثر من أربعين صفاً دراسياً، كل صف لا تقل مساحته عن 49 متراً مربعاً وفيها تهوية بشكل جيد، ومزودة بخمس وحدات صحية، وفيها ملاعب مختلفة ومساحة خارجية تستخدم كموقف للسيارات، وتمّ الانتهاء من بنائها سنة 1983[39].

3. مراحل نمو الدراسة وتطورها في الكلية الإبراهيمية:

أ. المرحلة الأولى (1931-1948):

تحدث الدكتور صبحي غوشة عن هذه المرحلة لكونه أحد طلاب المدرسة الإبراهيمية فقال: "كانت المدرسة الإبراهيمية تبعد عن منزلنا أكثر من 2 كم، وكان مقرها في دار نسيبة في حي "سعد وسعيد" أو المصرارة. وكان علينا أن نقطعها سيراً على الأقدام في الشتاء والصيف"[40].

وقد امتازت الإبراهيمية بأساتذتها وكفاءاتهم العلمية ومشاركتهم في الحركة الوطنية؛ فكان مدرس اللغة الإنجليزية فيها ومواد أخرى الأستاذ بهجت أبو غربية، ومدرس الرياضة أحمد العيساوي، ومدرس اللغة العربية الشيخ ياسين البكري، ومدرس القرآن الكريم الشيخ فارس إدريس، ومدرس الرياضيات إبراهيم عوض، ومعظم هؤلاء الأساتذة لهم سجل حافل في المقاومة الشعبية بالقدس تحدث عنها صبحي غوشة بإسهاب في كتابه أنغام الحياة[41].

وفي سنة 1937 انتقلت الإبراهيمية من حي سعد وسعيد إلى حي باب الساهرة على الشارع الذي يعرف الآن بشارع صلاح الدين، وأصبحت تنمو سنوياً بمعدل صف دراسي جديد إلى أعلى، وفي سنة 1938 أصبحت المدرسة الابتدائية كاملة. لم يتوقف سير المدرسة هنا بل أخذت تنمو باستمرار إلى أن جاءت سنة 1945 فأصبحت ثانوية كاملة، وأصبح اسمها الكلية الإبراهيمية، ووصل عدد طلابها في تلك السنة إلى 800 طالب[42].

ب. المرحلة الثانية (1948-1983):

استمرت الكلية سائرة وتنمو حتى جاءت سنة 1948 والتي عرفت بسنة النكبة، وفيها كانت الكلية في أوج مجدها فقد كان عدد طلابها يزيد عن ألف طالب، منهم 85 طالباً داخلياً ويقوم بالتعليم فيها عدد من خيرة الأساتذة[43]. ونتيجة للمعارك التي دارت بين العرب واليهود في تلك السنة حيث أخذت القنابل تتساقط قرب الكلية وفي ساحاتها، أخذ الوضع يتدهور وبدأ عقد الكلية بالانفراط، مما اضطر عدداً كبيراً من الطلاب الداخليين إلى ترك الكلية والسفر إلى أهلهم، مما أدى إلى انخفاض عدد الطلبة، وتوقف عدد كبير منهم عن الحضور، ومع ذلك بقيت الكلية مفتوحة لمن أراد الدوام فيها[44].

ونتيجة لهذه الأوضاع قرر الأستاذ نهاد أبو غربية، صاحب المدرسة ومديرها، استئجار بناية من دائرة الأوقاف الإسلامية، كانت مدرسة في السابق، وتقع عند باب الملك فيصل والمعروف بباب العتم وهو أحد أبواب المسجد الأقصى الشمالية.

تمّ نقل الطلاب إلى البناية الجديدة، واستمر الدوام في هذه البناية حوالي السنتين، وفي سنة 1950 عادت الكلية الإبراهيمية إلى بنائها في باب الساهرة على شارع صلاح الدين بكل أقسامها، وصار التدريس على المنهج الأردني. وفي سنة 1955 أدخلت الكلية نظام التعليم المختلط (بنين وبنات)، واعتمدت الدراسة المسائية على المنهاج المصري، وأصبحت الكلية في تلك الفترة تسير على منهاجين؛ أردني ومصري، وكان للطالب مطلق الحرية في اختيار المنهاج الذي يريده.

كان طلاب المنهاج المصري يتقدمون كل سنة لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة المصرية، وكانت نتائج الإبراهيمية دائماً جيدة، وبلغ عدد الذين خرجتهم الكلية على المنهاج المصري (بنين وبنات) خلال 11 عاماً 3,618 طالباً وطالبة؛ 3,212 من الذكور و406 من الإناث، وقد التحق الكثير منهم بالجامعات المصرية كل على حسب معدله وتخصصه[45].

في سنة 1958 ساءت العلاقات بين مصر والأردن، فقام حسن الكاتب حاكم القدس العسكري باعتقال مدير المدرسة نهاد أبو غربية، ثم نفاه إلى معتقل الجفر، وتمّ إصدار أمر بإغلاق الكلية، ثم تولت زوجة نهاد أبو غربية السيدة نديرة أبو غزالة متابعة قضية النفي والإغلاق، فذهبت إلى عمّان وقابلت رئيس الوزراء الأردني في حينه سمير باشا

الرفاعي، وبعد المقابلة اتصل رئيس الوزراء بوزير التربية والتعليم، ثم صدرت الأوامر بفتح الكلية والإفراج عن الأستاذ نهاد أبو غربية بعد سبعين يوماً من اعتقاله، ثم عاد نهاد أبو غربية إلى إدارة الكلية كما كانت حتى سنة 1967[46].

ج. المرحلة الثالثة (1967-1983):

قررت بلدية القدس الإسرائيلية أن تفرض على المدارس الخاصة السير حسب المنهاج الإسرائيلي في مدارسها، وبما أن الكلية الإبراهيمية هي واحدة من المدارس الخاصة بالقدس، طلب مديرها من بقية المدارس الخاصة الاجتماع من أجل أخذ قرار إزاء ما يجري. وخلال الاجتماع تمّ الاتفاق على عدم الاعتراف بالاحتلال الإسرائيلي ولا بمنهاجه، والإبقاء على المنهاج الأردني، وتمّ تشكيل كيان مستقل يكون مرجعاً لجميع المدارس الخاصة في القدس، وفعلاً شكلت لجنة باسم "لجنة المدارس الخاصة" واختاروا لها:

1. الأستاذ نهاد أبو غربية، رئيس الكلية الإبراهيمية، رئيساً.
2. المهندس حسن القيق، مدير المدرسة الصناعية بالقدس، أمين سرّ اللجنة.
3. الآنسة علية نسيبة، مديرة المدرسة النظامية، أمينة الصندوق.

وخلال متابعة الأرشيف وجدنا بأن اللجنة قامت بحلّ الكثير من المشاكل، وحافظت المدارس الخاصة على هويتها ودورها.

ازداد عدد الطلاب في الإبراهيمية نتيجة ضم البلدية للمدارس الحكومية لها، وبلغ عدد طلابها في سنة 1980 حوالي 1,300 طالب وطالبة وكان ذلك في المبنى نفسه بشارع صلاح الدين[47].

د. المرحلة الرابعة (1983-2009):

حرص الأستاذ نهاد خلال فترة طويلة على شراء أرض في محلة الصوانة، وكان يشتريها قطعة قطعة ويضمها إلى بعضها حتى أصبحت مساحتها عشرة دونمات، عرفت فيما بعد باسم أرض الكليّة الإبراهيمية، ومع دخول الاحتلال في سنة 1967 صادرت الحكومة الإسرائيلية جميع أراضي الصوانة غير المبني عليها، وكانت أرض الكلية من جملتها.

طرحت البلدية على الأستاذ نهاد تعويضاً مالياً فرفض، وبعد متابعة ومحاكم ومحامين وقضايا استمرت أكثر من ست سنوات سمحت بلدية القدس بتحرير الأرض، شريطة أن تبنى عليها مدرسة، وبدأ الأستاذ نهاد بتكليف المهندس عدنان الحسيني بوضع الخرائط اللازمة، وفي سنة 1978 حصلت المدرسة على رخصة البناء، وباشروا بالعمل فوراً حتى انتهى في سنة 1983[48].

في شهر أيلول/ سبتمبر 1983 بدأ التدريس في هذه المدرسة، وتمّ افتتاح القسم الابتدائي والإعدادي والثانوي من الصف التمهيدي حتى الثاني عشر. وحسب إحصائية الطلبة للعام الدراسي 2009/2008 يتضح أن عددهم بلغ 1,299 طالباً، ويوضح الجدول التالي عدد الطلبة في كل مرحلة.

جدول 7/3: عدد طلبة الكلية الإبراهيمية حسب المرحلة الدراسية[49]

المرحلة	عدد الشعب	ذكور	إناث	المجموع
الأساسية	22	582	288	870
الإعدادية	11	247	89	336
الثانوية	4	55	38	93

تولت نديرة أبو غزالة، زوجة نهاد أبو غربية، مع المديرة وداد الأيوبي الإشراف على القسم الابتدائي والإعدادي، وتولى الأستاذ نهاد إدارة القسم الثانوي، وفي سنة 2005 تولى الشيخ يوسف أبو سنينة إدارة القسم الثانوي وما زال حتى الآن، وفي سنة 2008 بلغ عدد الطلبة فيها 1,250 طالباً وطالبة.

وفي سنة 1983 أيضاً افتتحت كلية مجتمع باسم "كلية المجتمع الإبراهيمية"، والتي تشغل الجناح الشمالي من مبنى الكلية الأم، وابتدأت بتدريس ثلاثة تخصصات؛ تربية الطفل وإدارة الأعمال والمحاسبة. وكان عدد الطلبة في التخصصات الثلاثة المذكورة 202 من الذكور والإناث، وخرجت الكلية حتى الآن 23 فوجاً، معدل كل فوج حوالي 45 طالباً وطالبة، ويدير الكلية الأستاذ عبد الغفار بدر[50].

وفي سنة 2004 تمّ افتتاح معهد للتكنولوجيا الذي يمنح درجة البكالوريوس في الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات، وحمل اسم "معهد وجدي نهاد أبو غربية التكنولوجي الجامعي"، ووجدي وهو الابن الوحيد لنهاد توفي في عام افتتاح المعهد نفسه. وقد قام كل من الدكتور بديع السرطاوي والدكتور لبيب عرفة بإعداد برامج كاملة لتدريسها في

المعهد، تهدف إلى إيجاد كوادر بشرية مؤهلة ومتميزة في مجال الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات[51]. واعتمد المعهد أنظمة الدراسة الجامعية، أي 133 ساعة معتمدة موزعة على أربع سنوات أكاديمية، وفي المعهد حالياً حوالي 150 طالباً وطالبة.

امتازت الإبراهيمية عن غيرها باستقلالها التام، وبنشاطاتها المجتمعية وإصداراتها، والقيادة الفردية لها منذ تأسيسها وحتى وفاة صاحبها ورئيسها الأستاذ نهاد أبو غربية في 2009. ولقد حلّت بعد رحيله زوجته نديرة أبو غزالة، فهي صاحبة الكلية ورئيستها، وما زال عطاء الإبراهيمية مستمراً حتى اليوم.

خامساً: المدرسة المأمونية:

تعدّ المأمونية من أشهر مدارس القدس؛ فلها ماضٍ عريق، وتاريخ حافل. ومن خلال اطلاعنا على سجلات المدرسة وجدنا بأن أصل المأمونية هي "المدرسة الميمونية" نسبة إلى أبي سعيد ميمون الخازندار، الذي جاء مع صلاح الدين، ومع مرور الزمن تمّ قلب الياء إلى همزة فأصبحت المأمونية.

1. موقع مدرسة المأمونية:

تقع المأمونية على بعد 500 متر من باب الساهرة خارج السور شمالاً، وعند تقاطع شارع الزهراء بشارع ابن خلدون تقف بناية المأمونية منذ سنة 1937 وحتى الآن.

2. وصف المبنى:

على يسار المار من شارع الزهراء، وقبل انتهائه بأمتار، تدخل من بوابة متواضعة إلى فناء واسع يشتمل على حديقة واسعة وملاعب متعددة الأهداف، ثم ندخل إلى بناية مكونة من ثلاثة طوابق حجرية على شكل زاوية متعامدة، في كل طابق 16 غرفة ما بين كبيرة وصغيرة.

3. مراحل تطور ونمو الدراسة فيها:

أ. المرحلة الأولى (1197-1937):

يرجع تاريخ ميلاد المدرسة الحقيقي وتأسيسها إلى سنة 593هـ/1197م في العهد الأيوبي، بعد استرجاع القدس من الصليبيين على يدي البطل صلاح الدين الأيوبي

سنة 583هـ/1187م، وكان الذي أسسها هو فارس الدين أبو سعيد بن ميمون بن عبد الله القصري سنة 593هـ/1196م، وأوقفها في جمادى الأولى من السنة نفسها[52].



المدرسة المأمونية تأسست سنة 1937

وقد مرت المأمونية عبر التاريخ بتقلبات وأحوال متغيرة، فبعدما عرف مكانها في داخل سور المدينة في المكان الذي يعرف اليوم باسم القادسية، انتقلت إلى خارجها واستخدمت في الفترة العثمانية سنة 1892 مدرسة للذكور، بعدما كانت مدرسة ميتة لفترة طويلة، وأطلق عليها اسم تركي وهو "قدس شريف مكتب إعداديسي"[53].

وفي فترة الحرب العالمية الأولى (1914-1917) تعطلت فيها الدراسة، ثم أعادت حكومة الاحتلال البريطاني افتتاحها لتكون أول مدرسة للبنات في القدس. وفي سنة 1937 جددت حكومة الاحتلال بناية المأمونية الجديدة، وهي هذه المدرسة الحالية، ونقلت إليها جزءاً من طالبات المدرسة المأمونية القديمة داخل السور، ولم نعثر خلال

اطّلاعنا على تاريخ وسجلات هذه المدرسة على عدد الطلبة أو عدد الطالبات أو المعلمات أو المنهاج الذي كان يدرس خلال هذه الفترة.

وفي سنة 1947 توسعت المدرسة لتصبح أول مدرسة ثانوية كاملة للبنات في القدس، إلا أن حرب سنة 1948 عطلت الدراسة فيها، وأعيد نقل طالباتها إلى المأمونية القديمة داخل السور، وتحولت المأمونية الجديدة إلى مدرسة ثانوية للبنين، وحملت اسماً جديداً "مدرسة القدس الثانوية"، ثم عادوا في سنة 1950 لتحويلها إلى مدرسة ابتدائية شاملة سميت باسم "المدرسة المركزية"[54].

ب. المرحلة الثانية (1948-1967):

خلال العهد الأردني تمّ إلغاء جميع الإجراءات التي قامت بتحويل المأمونية إلى مدرسة للذكور أو ابتدائية، واتخذ قرار نقل طالبات المأمونية من داخل السور إلى مقرها الحالي، وأصبحت المأمونية في سنة 1960 من أكبر الصروح العلمية المتميزة بين مدارس القدس؛ فقد ضمت حوالي أربعين شعبة من الصف الأول وحتى الثانوية العامة، وبلغ عدد طالباتها 850 طالبة في سنة 1967.

ج. المرحلة الثالثة (1967-2009):

خضعت المدرسة، مثل مدرسة الرشيدية لكونها مدرسة حكومية، إلى وزارة المعارف الإسرائيلية وبلدية القدس، وطبق عليها نظام المنهاج الإسرائيلي؛ مما أدى إلى تراجع عدد الطالبات فيها، وقلة الكوادر التعليمية. ومع بداية السبعينيات أعيد العمل بالمنهاج الأردني، واستقال مدير المدرسة جميل أبو طعمة الذي عينته وزارة المعارف، وتمّ تعيين طاقم للمدرسة في سنة 1976 يتكون من المديرة غدير ناصر الدين وأربعين معلمة، ودبت الحياة من جديد في المدرسة، وأصبحت تتطور تدريجياً. وقد بلغ عدد الطالبات في تلك الفترة حوالي 700 طالبة، واقتصرت المدرسة على المرحلة الثانوية، وأنشئت مكتبة خاصة بها، وركزت الإدارة على الفعاليات اللامنهجية، وجهزت مختبراً علمياً يتناسب مع المستوى العلمي لهذه المرحلة، وخاصة في مجال الفيزياء والكيمياء والأحياء. كما أدخل القسم المهني، حيث أصبحت الطالبات يتعلمن مهنة الخياطة بطريقة حديثة على أيدي معلمات مختصات، واحتوى القسم على 27 مكنة خياطة لكافة الاحتياجات، وجهزت المدرسة أيضاً بثلاثة مطابخ من أجل التدبير المنزلي، ووضع برنامج لتنمية الثقافة والتوعية لدى الطالبات[55].

ثم تطورت المدرسة في سنة 1998 ليصبح فيها 53 صفاً و1,651 طالبة، تمّ توزيعهم على أربعة مبانٍ، وأصبح طاقمها المدرسي يتألف من 101 من المعلمات، إضافة إلى خمس نائبات، ومركزة طبقة، و12 مركزة موضوع، ومركزة للتربية الاجتماعية، وأربع سكرتيرات، وقيمة مختبر، ومستشارة تربية؛ وأصبح التعليم في المدرسة يتضمن الأكاديمي (علمي وأدبي) والمهني (تجاري وخياطة).

واستطاعت المدرسة أن توفر للطالبات جواً تعليمياً ومعلمات متخصصات، ووسائل متطورة منها الحاسوب؛ حيث يوجد في المدرسة خمسة مختبرات للحاسوب فيها 119 جهازاً عدا عن الأجهزة الموجودة في الإدارة والسكرتارية وغرفة المعلمات. كما أن المختبر العلمي مجهز بأجهزة حديثة، إضافة إلى وسائل التعلم المسموعة والمرئية، أما المكتبة في المدرسة فقد حوت آلاف الكتب وخاصة الحديثة منها، ويوجد في قسم الخياطة 37 ماكينة، بالإضافة إلى الاهتمام بقسم التدبير المنزلي حيث تمّ تطوير المطابخ بشكل حديث[56].

وفي مقابلة مع مديرة المدرسة حالياً، غدير ناصر الدين، أشادت بالنتائج التي حصلت عليها طالبات المدرسة، حيث قالت بأنه يتقدم لامتحان الثانوية العامة 400 طالبة في الفرعين العلمي والأدبي، وأن نسبة النجاح لا تقل عن 80%. وأشارت إلى أن المدرسة اليوم وصل عدد طالباتها إلى 2,054 طالبة، تمّ توزيعهن على 72 شعبة، وطاقم المدرسة يضم 143 معلمة وموظفة في سبعة مبانٍ موزعة حول سور القدس. وركزت المديرة على التحسن الملموس في سلوكيات الطالبات، من خلال إنشاء نادٍ ثقافي، والإذاعة الصباحية، وإصدار مجلة الحائط، والمجلة السنوية التي تصدر باسم "قطوف دانية" والتي صدر منها خمسة أعداد. وتحدثت المديرة عن كثير من النشاطات التي تقوم بها الطالبات في المجتمع المحلي، والمشاركة في المناسبات الدينية والتاريخية والاجتماعية، ولهذا كله أصبحت المأمونية تتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة في المجتمع، وسجلت الطالبة بيان رجوب المرتبة السابعة على مستوى الضفة الغربية في الفرع الأدبي، والطالبة عزة حجازي المرتبة الأولى على مستوى الضفة في الفرع التجاري سنة 2001، واحتلت الطالبة شيار جبر المرتبة الثانية على الفرع العلمي بمعدل 99.2 سنة 2003، هذا وما زالت بلدية القدس ووزارة المعارف والثقافة تشرف على المدرسة المأمونية. والجدول التالي يوضح فروع المدرسة وعدد طلابها وشعبها:

جدول 7/4: فروع المدرسة المأمونية وصفوفها وعدد الشعب الدراسية

اسم المبنى	الصف	عدد الشعب
المبنى الرئيس	الثاني عشر	15 شعبة
مبنى خولة	الحادي عشر	19 شعبة
مبنى القدس	العاشر الأساسي	12 شعبة
مبنى السكاكيني	العاشر الأساسي	13 شعبة
مبنى الرشيد	العاشر الأساسي	6 شعب
مبنى الخياطة	العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر	3 شعب

سادساً: دار الطفل العربي:

دأبت مؤسسة دار الطفل العربي منذ تأسيسها سنة 1948 على يد المرحومة هند الحسيني[57]، رائدة العمل التطوعي، على الاعتناء بتربية الطالبات الفلسطينيات اليتيمات منهن والمحتاجات تربية سليمة، فدار الطفل التي بدأت بصفي حضانة تطورت وتوسعت إلى أن أصبحت نواة لجامعة القدس حالياً، ومن خلال اطلاعنا على دور هذه المؤسسة وجدناها مرت في المراحل التالية:

1. المرحلة الأولى (1948-1967):

تقول هند الحسيني:

> في سنة 1948 حين كان ما يزيد على خمسة وخمسين طفلاً وطفلة، من بقايا حادثه دير ياسين المؤلمة، يعيشون في دار الطفل المكونة من غرفتين في سوق الحصر بالبلدة القديمة، كنت أقيم حينها في دير راهبات صهيون، إذ كان الوصول من بيتنا ظاهر باب الساهرة إلى داخل السور غير مأمون، وكانت قذائف القنابل وطلقات الرصاص من القناصة اليهود في النوتردام دوفرانس كثيراً ما تصيب المارة!! ذهبت كعادتي في كل صباح من الدير إلى مقر دار الطفل في سوق الحصر، فوجدت الأطفال في هلع شديد من جراء أصوات القنابل وأزيز الرصاص، وعليه قررت أن أنقل ثيابي من غرفتي في الدير وأن أبقى قرب الأطفال أشاركهم عيشهم وأهدئ روعهم. إلا أن رئيسة الدير الأم ماري تاريز جودلين، أبت إلا أن آتي بالأطفال إلى الدير، حيث الأمان والمتسع لنا جميعاً،

وهكذا كان. ولن أنسى ما حييت ذاك المنظر المضحك المبكي أثناء الانتقال فلقد أراد الصغار أن يمسكوا بيدي، كأن التصاقهم بي سيحميهم من الأذى!! والله وحده أعلم كم يداً صغيرة كانت تمسك يدي. بالإضافة إلى من أمسك منهم بأطراف ثوبي!! أما الكبيرات فقد حملن الأمتعة من فراش وأغطيه وغير ذلك مما كنا نملك آنئذ!! وعلى هذا الحال وصلنا الدير ونزلنا فيه...

وفي تلك الليلة بالذات وقعت قنابل الهاون ومزقت سقف إحدى الغرف التي كان الأطفال ينامون فيها بسوق الحصر شر ممزق، ولا أظن واحداً منهم كان قد نجا من الموت أو العاهة، لو بقي تحت ذلك السقف؛ مما جعلني أبكي بانفعال شاكرة الله الذي قدر ولطف!! هذه إرادته سبحانه وتعالى، وهي بدون شك التي أرادت لهذه المؤسسة الوجود والبقاء، ومن يدري فلعل واحدة أو واحداً من أولئك الأبرياء سيكون له شأنه في هذه الدنيا[58].



مدرسة دار الطفل العربي تأسست سنة 1948

عندما هدأت الحرب نقلت هند الأطفال من الدير إلى بيتها الذي تعيش فيه، ثم بنت بجانب بيتها بناية أنهيت في سنة 1961، واستطاعت هند أن تشكل هيئة إدارية لدار الطفل تألفت من: أنور الخطيب، وباسمة فارس، وزوجة محمد النقيب الحسيني، وإليزابث ناصر، وزوجة وفيق يونس الحسيني، وزوجة أنور نسيبة، وزوجة مصطفى النجار، وهند الحسيني.

وتشير سجلات الدار إلى أن عدد الطلاب ارتفع من 55 طالباً وطالبة في سنة 1948؛ ليصل في سنة 1963 إلى 480 طالباً وطالبة، بينهم 300 يتيم ويتيمة، وزعوا على ثلاثة مبانٍ محاطة بملاعب واسعة في مكانها الحالي، وموزعين على ثلاثة أقسام هي:

أ. قسم الحضانة وبستان الأطفال.

ب. قسم الدراسة المؤلف من صفوف ابتدائية وإعدادية وثانوية.

ج. قسم المهن المؤلف من:

- فرع الخياطة والاقتصاد المنزلي.
- فرع أعمال السكرتارية.
- فرع الهوايات والأشغال اليدوية.
- نادٍ رياضي ثقافي ومكتبة[59].

ومن خلال اطلاعي على أرشيف الدار تبين بأنه في الفترة 1961-1967 شهدت دار الطفل تطوراً ونمواً ملحوظاً في نشاطها الأكاديمي والعمراني، ففي الوقت الذي ازداد فيه عدد الطلاب تمّ بناء طابق ثانٍ في العمارة التي بنتها هند الحسيني في سنة 1961، وفتحت صفوف جديدة، وأثثت قسم الخياطة والتدبير المنزلي، وأرسلت ثماني طالبات من المؤسسة إلى ألمانيا الغربية للتخصص فيما يلي:

أ. مهنة التمريض العالمي: وأرسلت لدراستها ناريمان الدجاني، ونوال كنعان، ونائلة الشرقاوي، وأمية نزال، وحياة أبو غربية.

ب. التدريب على تعليم الأطفال في دور الحضانة: وأرسلت لدراستها مرتا الجرجوعي، وليلى شفيق.

ج. التخصص في التدريب المنزلي: وأرسلت لدراسته ألين عوض، وكان ذلك تحت رعاية مديرة ومؤسسة الدار الآنسة هند الحسيني[60].

وفي سنة 1966 تمّ بناء الطابق الثالث، وضمت الأرض المجاورة لها لتصبح مساحة دار الطفل تزيد على 11 دونماً، وأقيم العديد من النشاطات والفعاليات، وكان ذلك بفضل الله أولاً، ثم التبرعات السخية التي قُدِّمت لهذه الدار على مستوى رسمي، تمثل بقداسة البابا والملك حسين بن طلال والملك الحسن الثاني ملك المغرب وأمراء وشيوخ الخليج العربي والوزارات، وعلى مستوى شعبي تمثل في جمعيات عربية وأجنبية وأشخاص من داخل فلسطين وخارجها وقد وصل مجموع التبرعات في سنة 1966 إلى 66,693.4 ديناراً أردنياً، وكانت الدراسة تسير وفق مناهج وزارة التربية والتعليم الأردنية وتدرس اللغة الإنجليزية كلغة ثانية من الصف الأول الابتدائي فما فوق، كما تدرس الألمانية كلغة ثالثة للصف الخامس الابتدائي فما فوق، وبالنسبة للدورات التدريبية فكانت بإشراف وزارة الشؤون الاجتماعية الأردنية[61].

لمع نجم دار الطفل في العالم العربي والغربي، مما دعا برئيسة الدار ومديرتها بالمشاركة في مؤتمر خبراء التدريب سنة 1953 في لبنان، وحلقة الدراسات الاجتماعية سنة 1952 في دمشق، وحلقة الدراسات الاجتماعية سنة 1956 في عمّان، والحلقة الدراسية عن المرأة الريفية سنة 1959 في بريطانيا.

وحصلت مديرة الدار ورئيستها على وسام من البابا بولس السادس Pope Paul VI سنة 1964 في القدس، وأقامت هند متحف المطرزات والثياب الشعبية في سنة 1960 ليصبح فيه الآن حوالي 3,200 قطعة[62].

2. المرحلة الثانية (1967-1994):

شكلت حرب سنة 1967 أمراً واقعاً جديداً على الدار، فبالإضافة إلى الطلاب المقيمين فيها من المهاجرين والأيتام في الضفة الغربية، ضمت طلاباً وأيتاماً جدد من فلسطينيي 1948 مثل: يافا وحيفا والناصرة، وضمت أيضاً عدداً ليس بسيطاً من أيتام قطاع غزة، ومع أن هذا الأمر حمّل الدار عبئاً جديداً، إلا أنها كانت المكان الوحيد الذي اجتمع فيه الشمل الفلسطيني بخارطته الطبيعية.

وسارت الدار على سياستها قبل سنة 1967، ولم يستطع الاحتلال التدخل بها؛ ولأنها مدرسة خاصة التزمت دار الطفل بالمسار الذي سارت فيها الإبراهيمية ودار الأيتام وغيرها من المدارس الخاصة، وبقيت على المنهاج الأردني، وتطورت المدرسة لتصبح عدّة مدارس تشكلت سنة 1986 على النحو التالي:

- المدرسة الإعدادية والثانوية 335 طالبة في 12 شعبة.
- المدرسة الابتدائية 220 طالبة في 8 شعب.
- رياض الأطفال 150 طالبة في 3 شعب.
- الحضانة 50 طفلة في شعبتين.
- قسم الخياطة والتدبير المنزلي 55 طالبة في شعبتين.
- قسم الطباعة عربي وإنجليزي 24 طالبة في شعبة واحدة، وبلغ المجموع الكلي 934 طالبة[63].

ومع هذا التوسع والوضع الجديد الذي أصبحت فيه دار الطفل، ورحيل بعض أعضاء مجلس الأمناء أو نزوحهم؛ تمّ تشكيل مجلس أمناء جديد مكون من: إليزابث حنا ناصر، وأمينة محمد النقيب، ونزهة أنور نسيبة، وماهرة محمد الدجاني، وسلفيا سلمان برشودم، ووداد رشيد النشاشيبي، وسميرة محمد جاد الله، ورنا الإمام الحسيني، وأمل غالب النشاشيبي، وعايدة نور الدين، وآية جوهرية شاكر، ولينا أمين مجج. وتمّ انتخاب هيئة إدارية لإدارة كافة أقسام دار الطفل مكونة من: أنور الخطيب المستشار القانوني، وهند طاهر الحسيني مؤسسة الدار ورئيستها والمنفذة لقرارات الهيئة الإدارية، وسميحة سليم الحسيني نائبة الرئيس، وهداية وفا الدجاني أمينة الصندوق، وعائشة أحمد التيجاني أمينة السر[64].

في سنة 1971 بنيت عمارة خاصة بقسمي الحضانة وبساتين الأطفال بدعم من الجمعية اللوثرية الألمانية وبكلفة 100 ألف دينار أردني، وارتفع عدد الطالبات إلى حوالي ألف طالبة، وتمّ توزيعهن على النحو التالي؛ 291 طالبة داخلي، 40 طالبة يتيمة خارجي، 403 طالبات حالات اجتماعية خارجي، 293 طالبة أخرى ليكون المجموع 997 طالبة، ويقوم على العمل في المؤسسة 86 موظفاً وموظفة، بلغت رواتبهم 2,500 دينار أردني بالشهر الواحد[65].

وفي سنة 1982 اشترت إدارة دار الطفل قصرَ أديب العربية الراحل محمد إسعاف النشاشيبي، وتمّ تأسيس مركز الأبحاث الإسلامية في القصر، وحصدت دار الطفل نتائج في الثانوية العامة، والتحق العديد من الطالبات الخريجات في جامعات الوطن وجامعات عربية خارج الوطن. وفي سنة 1986 تمّ استحداث قسم الكمبيوتر، واستحداث قسم

الخدمة الاجتماعية، وتوسيع القسم العلوي من دار مركز التراث الشعبي الفلسطيني، واستحداث مشغل لترميم وتجليد الكتب القديمة. وكذلك تمّ توسيع كلية الآداب للبنات، وهي كلية جامعية ونواة جامعة القدس، وقد ضمت الأقسام التالية:

أ. قسم اللغة العربية 138 طالبة.

ب. قسم اللغة الإنجليزية 87 طالبة.

ج. قسم الخدمة الاجتماعية 100 طالبة.

ليكون مجموع طالبات الكلية في تلك السنة 315 طالبة، وتمّ تخريج الفوج الأول من طالبات الكلية في السنة نفسها وبلغن 144 خريجة في معظم الأقسام.

ومنحت دار الطفل لطالباتها أكثر من 136 منحة، وقدم البنك الإسلامي خمس منح لطالبات دار الطفل، ونالت المدرسة خمسة كؤوس في مسابقات رياضية متنوعة، واستمرت مؤسسة دار الطفل العربي حتى رحلت هند الحسيني سنة 1994 في أداء خدماتها وتطويرها وتوسيعها إلى أن أصبحت مؤسسة ضخمة مكونة من ستة مبانٍ بأقسام متعددة متمسكة بهدفها الرئيس، وهو خدمة الشعب الفلسطيني من النواحي الإنسانية والتربوية والثقافية[66].

3. المرحلة الثالثة (1994-2009):

على الرغم من مراهنات الكثير بعد وفاة هند الحسيني على عدم مقدرة مؤسسة دار الطفل على الاستمرار بعد رحيلها، إلا أن بقاء المؤسسة وخدماتها تطورت خلال هذه الفترة بشكل ملحوظ، حيث تمّ التركيز على أهداف المؤسسة من جديد، وكانت على النحو التالي:

أ. العناية باليتيمات والمحتاجات من بنات شعبنا وتوفير الحياة الكريمة لهن.

ب. تأسيس مدارس التعليم وتثقيف بناتنا وتدريبهن.

ج. توفير الجو الملائم لحركة المرشدات والنوادي والنشاطات اللامنهجية.

د. المحافظة على الثقافة العربية والتراث الشعبي الفلسطيني.

بعد وفاة هند الحسيني تمّ تأسيس مجلس أمناء جديد، تولت رئاسته الآنسة ماهرة الدجاني، وضم عضوية كل من: نجوى ارشيد، ورنا الإمام، وهداية الدجاني، وسلفيا

برشودم، ورحاب العيساوي، ورولا عودة، وسميحة الحسيني، وزكية عبد الرزاق، وندى بركات، ونزيهة الخالدي، والمحامي وليد العسلي مستشاراً قانونياً للمؤسسة[67].

وخلال عشرة أعوام من استلام ماهرة الدجاني رئاسة المجلس تمّ تطوير القسم الداخلي، وإدخال برنامج الأمهات البديلات؛ حيث توزع الطالبات على معلمات يقمن معهن في المبيت نفسه، وتمّ تزويد القسم بكل ما يلزم من مطبخ حديث وأثاث وأسِرّة وشبكة كهرباء وشبكة مياه ساخنة ومرافق صحية حديثة وأماكن وساحات ألعاب مسقوفة، إلى أن أصبح هذا القسم أنموذجاً يحتذى به على مستوى الوطن. وتمّ أيضاً تطوير الحضانة والروضة والمدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، كما أنها حصدت المركز الأول والثاني في معظم المسابقات التي كانت تجري بين مدارس القدس في المسرح، والخطابة، والخط الكوفي، وحفظ القرآن الكريم، والصناعات الغذائية، والمقالة، والقصة، والتصوير الفوتوغرافي، والحاسوب وغيره[68]. وفي 1998/4/25 احتفلت دار الطفل بيوبيلها الذهبي لتأسيس المؤسسة.

أثّر الجدار العازل بشكل كبير على عدد الطالبات في القسم الداخلي، حيث تقلص العدد إلى 150 طالبة في سنة 1998، وتقلص أكثر في سنة 2005 ليصل إلى 802 من الطالبات، بينما ازداد إقبال الطالبات على القسم الخارجي ليصل عدد الطالبات إلى 1,500 طالبة تمّ توزيعهن على 45 شعبة.

وفي 1999/7/15 أقيم حفل افتتاح دار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب، التي تتبع دار الطفل العربي، وتمّ إعادة تنظيمها وتأهيلها وتطويرها وتزويدها بأجهزة وقارئة ميكروفيلم Microfilm، وصورة مخطوطات الدار، وتعاونت مع الجامعة الأردنية في هذا المجال، وحصلت الدار على نسخة ميكروفيلم لسجلات المحكمة الشرعية. وأصبحت دار إسعاف اليوم تقيم سلسلة من المحاضرات الشهرية، ومعارض تراثية وتشكيلية، وعُيِّن بشير بركات مديراً لدار إسعاف، وما زال حتى يومنا هذا، وقد تمّ تطوير باقي الأقسام، وإدخال برنامج الحاسوب فيها، مما جعل المؤسسة تحافظ على ماضيها وحاضرها ومستقبلها[69].

وفي مقابلة مع رئيسة مجلس أمناء الدار، السيدة ماهرة الدجاني، أفادت أنه على الرغم من هذه الإنجازات والتطورات إلا أن الدار بدأت تعاني من الأزمة المالية منذ سنة 2001 حيث قلّ الدعم الخارجي بل وانقطع في بعض الأحيان، بالإضافة إلى ارتفاع مستوى

المعيشة ورواتب العاملين وضريبة المسقفات (الأرنونا) التي تفرض على الدار سنوياً، إلا أن الدار استطاعت التغلب على هذه المشكلة من خلال رفع أقساط الطالبات من جهة والاعتماد على المجتمع المحلي من جهة ثانية.

وهناك مشكلة أخرى وهي عدم حصول الموظفين الذين يحملون هوية الضفة الغربية على تصاريح دخول لمدينة القدس، مما أجبر المؤسسة على تعيين موظفين بديلين لتسيير العمل الأمر الذي حمّل المؤسسة مصاريف إضافية، علماً أن هناك أكثر من ثلاثين عاملاً في المؤسسة من بين 140 عاملاً فيها يحتاج إلى مثل هذه التصاريح. وأفادت ماهرة الدجاني أنها ماضية في مشروع بناء قدرات لموظفيها وتطويرهم من خلال تبادل الخبرات، والدورات وورشات العمل، كما وتسعى إلى بناء قدرات طالباتها في النواحي الأكاديمية والإبداعية والمهاراتية، وفي هذا المجال تحدثت عن نتائج امتحان الثانوية العامة للأعوام الثلاثة المنصرمة، وبينت أن نسبة النجاح في الفرع العلمي كانت 100% وفي الأدبي 90%، وذكرت بعض أسماء طالباتها مثل آلاء مازن نسيبة 97.6، وربى توفيق أبو لافي 97.4، وإيمان وهبة 97.3، وكنّ في المراكز الثانية والثالثة والخامسة على الترتيب في الفرع العلمي، وهناك هديل عبد الفتاح بكري بمعدل 97.7، المركز الخامس في الفرع الأدبي على محافظة القدس[70].

سابعاً: المعهد العلمي الإسلامي: مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية[71]:

في سنة 1958 قيّض الله للعلم الشرعي من يعطيه شهادة ميلاد جديدة في مدينة القدس، وكانت الولادة الطيبة في المسجد الأقصى المبارك على يد المرحوم الشيخ محمد عادل الشريف، خطيب المسجد الأقصى المبارك آنذاك، وأحد علماء الأزهر الشريف. فقد بادر الشريف، رحمه الله، إلى التشاور مع المرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطيّ، قاضي القضاة ورئيس مجلس الشؤون الإسلامية في عمّان وقتئذ، من أجل إنشاء معهد للعلم الشرعي في المسجد الأقصى المبارك، وذلك لسدّ النقص في الوظائف الدينية الشاغرة، كالإمامة والتدريس والخطابة. وثابر الشريف بدعم وتشجيع من الشنقيطيّ لتنفيذ الفكرة النبيلة، فكانت ثمرة تلك الجهود إنشاء أول معهد لتعليم العلم الشرعيّ في العصر الحديث في القدس وما حولها، وحمل اسم "المعهد العلميّ الإسلامي"، وكان ذلك

في أواخر صيف 1958، قد عُرِف المعهد فيما بعد باسم مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية. ويمكن إلقاء الضوء على المعهد وتطوره من خلال النقاط التالية:

1. موقع المعهد العلمي الإسلامي:

يقع المعهد على يمين الداخل من باب الأسباط في الرواق الشمالي للمسجد الأقصى، وحدوده باب الأسباط شرقاً، والمدرسة القادسية غرباً، وساحة الغزالي خارج الأقصى شمالاً، وساحات المسجد الأقصى الداخلية جنوباً.



مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية تأسست سنة 1958

2. وصف المبنى:

يتكون المبنى من أروقة المسجد الأقصى الشمالية، وتمّ إغلاق واجهة الرواق بالإسمنت وفتح في كل واجهة باب وقطعت من الداخل كغرف صفية، وتفضي جميع أبواب الصفوف إلى ساحة المسجد الأقصى، وتهوية هذه الغرف سيئة وبحاجة إلى ترميم وتطوير.

3. مراحل نمو وتطور الدراسة في المعهد:

أ. المرحلة الأولى (1958-1960):

جاء في سجلات المعهد العلمي الإسلامي أنّ سماحة قاضي القضاة ورئيس مجلس الشؤون الإسلامية الشيخ محمد الأمين الشنقيطيّ قرّر تأسيس معهد علميّ إسلاميّ في المسجد الأقصى المبارك، يؤمّه الطلاب الراغبون في العلم والدين، وأن يتمّ قبول الطلاب ابتداءً من 1958/9/1. وتمّ الإعلان عن تأسيس المعهد العلمي الإسلامي وفتح باب التسجيل في محرّم 1378هـ الموافق أيلول/ سبتمبر 1958م، غير أنّ الدراسة في المعهد لم تبدأ حتى 19 ربيع الأول 1378هـ الموافق 1958/11/1م.

تضمّن قرار إنشاء المعهد العلميّ الإسلامي الإشارة إلى أن مقرّه هو المسجد الأقصى المبارك. واتّخذ المعهد في بداية الأمر من المنطقة الشرقية في المسجد والمعروفة بمحراب زكريا مقراً للتدريس. ثمّ انتقل المعهد في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1959 إلى الجهة الجنوبية الغربية من ساحة المسجد الأقصى المبارك، في المنطقة الواقعة شرق المتحف الإسلامي حالياً والمعروفة باسم "مسجد النساء"، وذلك استجابة لطلب من مدير المعهد، حيث دام التدريس هناك مدّة عام آخر. وفي سنة 1960 انتقل المعهد العلميّ الإسلاميّ إلى مقرّه الجديد الدائم في باب السلسلة، على الحائط الغربي للمسجد الأقصى المبارك والمعروف باسم "المدرسة التنكزية".

أما أهداف المعهد العلميّ الإسلاميّ كما جاءت في سجلاته فكانت:

1. بث الروح الدينية في صفوف الجيل لطرد القلق والإلحاد الناشئ عن التيارات الفكرية المادية.
2. تعليم الشريعة الإسلامية للمسلمين لتمكينهم من إقامة شعائرهم الدينية بشكل صحيح.
3. ملء الفراغ الكبير في حقول الوعظ والإرشاد ووظائف المحاكم الشرعية. وذلك لتلافي النقص من حملة العلم الشرعي، والحصول على فئة منهم لتعيينهم أئمة وخطباء ومرشدين في مساجد المملكة والقوات المسلحة الأردنية.

وعندما قرّر إنشاء المعهد العلميّ الإسلاميّ، عهد قاضي القضاة ورئيس مجلس الشؤون الإسلامية إلى فضيلة الشيخ محمد عادل الشريف، أمين الفتوى بالقدس وقتئذ،

بإدارة المعهد والإشراف عليه، وتمّ تعيين الشيخ يوسف العلميّ والشيخ جميل الخطيب مدرّسين فيه. وقد ورد اسم الشيخ مصلح السلواني كمدّرس في المعهد الإسلامي إضافة إلى اسم الشيخ جميل الخطيب، ولم يرد اسم الشيخ يوسف العلمي[72].

وقد قام مجلس الشؤون الإسلامية في بداية الأمر، في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1958 بتخصيص مبلغ ستة دنانير أردنية شهرياً لمدير المعهد الإسلامي، ومبلغ أربعة دنانير أردنية لكلّ من المدرّسَيْن؛ الشيخ جميل الخطيب والشيخ مصلح السلواني. وفي شهر نيسان/ أبريل 1960 تقرر رفع راتب المدير إلى ثمانية دنانير شهرياً، وراتب كل مدرّس إلى ستة دنانير شهرياً[73].

بدأ المعهد سنته الدراسية الأولى بتاريخ 1958/11/1 واستمرت حتى أواخر أيار/ مايو 1959. وجاء في تقرير لمدير المعهد العلمي الإسلامي سنة 1959 أن السبب في تأخر بدء الدراسة حتى ذلك التاريخ هو تأخر إعداد الكتب والقرطاسية والتصليح وظروف أخرى. وكان عدد طلاب السنة الأولى في المعهد عشرة طلاب، وكانت مدّة الدراسة في المعهد ثلاث سنوات، يحصل الطالب في نهايتها على شهادة تؤهله للتقدّم لإشغال إحدى الوظائف في المدارس، أو المحاكم الشرعية، أو المساجد، أو لمتابعة دراسته في المعاهد الدينية وكليات الشريعة في البلاد الشقيقة.

وكان يشترط فيمن يلتحق بالمعهد العلمي الإسلامي أن يكون حاصلاً على شهادة الثالث الإعدادي كحدّ أدنى، وقد أخذ المعهد على عاتقه قبول المتخرّجين من الصفوف الإعدادية حسب النظام المعمول به وقتئذ. وكان بعض الملتحقين في السنة الأولى قد أتم الصف الأول الثانوي أو الصف الثاني الثانوي، وكان بعضهم حاصلاً على شهادة "المترك". وتقدّم للمعهد في سنته الأولى ما يزيد عن ثلاثين طالباً من مختلف مدن ومناطق المملكة الأردنية وقتئذ، فتمّ قبول عشرة طلاب فقط. وفي السنة الثانية تمّ قبول 12 طالباً آخرين، بينما انسحب طالبان من السنة الثانية فأصبح عدد طلاب المعهد عشرين طالباً.

واشتمل منهاج الدراسة في بدايته على الموادّ والعلوم الشرعية (القرآن والتفسير والحديث والفقه والتوحيد والسيرة والوعظ والثقافة الإسلامية)، واللغة العربية، والتاريخ الإسلامي فقط. وبعد بضع سنوات من بداية الدراسة في المعهد العلمي الإسلامي، ارتأت إدارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن يكون منهاج المعهد وافياً بالغرض الذي أنشئ المعهد من أجله، مؤدياً الرسالة المنوطة به، مصطبغاً بالصبغة

الإسلامية، بالإضافة إلى بعض العلوم الأخرى التي تؤهل الطالب لدخول الجامعات، ومعادلة شهادة المعهد بشهادة الدراسة الثانوية الأردنية العامّة. وعليه، قامت لجنة من ذوي الاختصاص بوضع المنهاج المطلوب، مستنيرة بمنهاج القسم الثانويّ في الجامع الأزهر في القاهرة، باعتباره النموذج الذي يسار على دربه. وتضمن منهاج المرحلة الثانوية في المعهد مقرّرات ومواد موزّعة على 36 حصة أسبوعية للصف الأول الثانوي، و37 حصة أسبوعية للصف الثاني الثانوي، و39 حصة أسبوعية للصف الثالث الثانوي؛ مشتملة على تلاوة القرآن وحفظه والتفسير، والحديث الشريف ومصطلح الحديث وتراجم الرواة، والتوحيد والمنطق والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع، والوعظ والإرشاد والثقافة الإسلامية والأحوال الشخصية، والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والعام والجغرافية، واللغة العربية واللغة الإنجليزية، والاجتماع والفلسفة[74].

وتشجيعاً لطلاب العلم الشرعي واستجابة لطلب مدير المعهد العلمي الإسلامي، عملت إدارة الشؤون الإسلامية على توفير لوازم الطلاب من الكتب والقرطاسية، إضافة إلى صرف مبلغ مالي بلغ ثمانية دنانير أردنية لكل طالب سنوياً بدل ملابس وتوفير جبّة وعمامة، وإكرامية نقدية شهرية مقدارها 3.5 دنانير أردنية لكل منهم. وتبين سجلات المعهد العلمي الإسلامي أن إدارة الشؤون الإسلامية، ومن خلال إدارة المعهد، كانت تتابع انتظام الطلاب في الدراسة فتصرف الإكرامية النقدية للمنتظمين. أما من يستنكف عن الدراسة فكان يلزم برد المبالغ التي قبضها من المعهد العلمي الإسلامي، تماشياً مع التعهد المبرم بين الطالب وإدارة المعهد حين قبول الطالب في المعهد.

ب. المرحلة الثانية (1960-1967):

مع إطلالة العام الدراسي الثالث من عمر المعهد العلمي الإسلامي، أتمت دائرة الشؤون الإسلامية تهيئة المقر الدائم الجديد للمعهد، وهو المكان المعروف بالمدرسة التنكزية، فانتقل المعهد إليه من مسجد النساء حيث بدأ التدريس فيه في العام الدراسي 1961/1960.

ويعدّ إحياء التعليم في المدرسة التنكزية واستخدامها لتعليم العلم الشرعي إحياء لتراث كبير في بيت المقدس، ويذكر الحنبلي أن المدرسة عظيمة، ليس في المدارس أتقن من بنائها، وقد عمّرها ووقفها الأمير سيف الدين تنكز سنة 729هـ/1329م أيام حكم المماليك في بلاد الشام[75]. ويذكر العسلي أنّ المدرسة كانت تضم مدرسة للفقه وداراً

للحديث وخانقاه للصوفية ومكتباً للأيتام ورباطاً للنساء، واستمر التدريس فيها حتى أواخر القرن 11 هجري على الأقل، ثم تحوّلت إلى محكمة أيام العثمانيين حتى أضحت تعرف بالمحكمة الشرعية. وفي عهد الاحتلال البريطانيّ، سكنها مفتي القدس. وفي سنة 1960 عادت مدرسة شرعية فاحتضنت طلاب المعهد العلمي الإسلامي[76].

تابع المعهد العلمي الإسلامي التدريس في مقرّه الجديد وفق نظام دراسة مدّته ثلاث سنوات دراسية، يدرس خلالها الطالب المواد والعلوم الشرعية، ونظراً لأهمّية إعداد الطالب وتهيئته، كان لا بدّ من دراسة موادّ أخرى نحو اللغة العربية والمباحث الضرورية في التربية وعلم النفس. وحرصاً على شمولية ودقة المناهج المقررة، وبناءً على قرار من قاضي القضاة ورئيس مجلس الشؤون الإسلامية، تشكّلت في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1961 لجنة لتنقيح مناهج المعهد العلمي الإسلامي وتطويرها، ضمّت عدداً من العلماء منهم: الشيخ عبده هاشم والشيخ عبد العزيز الخياط والشيخ محمد عادل الشريف والشيخ تيسير ظبيان. وأكّد مجلس الشؤون الإسلامية في كتبه الرسمية على أنه يجب أن تحصر المعاهد الدينية التابعة له اهتمامها بالتعليم الديني، نظراً للحاجة الماسّة إلى رجال مختصّين بالدين ليملأوا المراكز الشاغرة في المساجد والمؤسسات الدينية. واستمرّ سعي مجلس الشؤون الإسلامية المشرف على المعهد العلمي الإسلامي في رفع مستوى التعليم في المعهد وتحسين حالة طلابه، كما تمّ في سنة 1963 تشكيل لجنة لهذا الغرض، ضمّت رئيس محكمة الاستئناف الشرعية وقتئذ الشيخ عبد الحميد السائح، وعضوية كل من مدير التربية والتعليم في القدس، ومدير دار الأيتام الإسلامية، ووكيل مدير المعهد العلمي الإسلامي.

وخلال هذه المرحلة من مراحل تطوّر المعهد العلمي الإسلامي، تمّ تنظيم شروط قبول الطلاب وأعدادهم المقبولة، نظراً لازدياد الإقبال على المعهد. فكان يشترط فيمن يتقدم للالتحاق بالمعهد إكمال مرحلة الدراسة الإعدادية بنجاح، وإجراء مقابلة، وتقوم إدارة المعهد بعدها باختيار العدد المطلوب من الطلاب، شريطة تعهّدهم بالعمل في الوظائف التي تُحدّد لهم أو إكمال تعليمهم الشرعيّ في الأماكن التي يتمّ تنسيبهم إليها.

ولمّا كان قبول الطلاب يعتمد على المخصّصات الواردة من إدارة الشؤون الإسلامية، كان لا بدّ من التقيّد بقبول عدد معين من الطلاب. وقد بلغ مجموع الطلاب الملتحقين خلال الأعوام الدراسية 1961/1960 و1962/1961 و1963/1962 حوالي 33 طالباً كلّ عام.

وكان يصرف للطالب مبلغ من المال ارتفع ابتداءً من 1960/9/1 إلى أربعة دنانير أردنية شهرياً خلال مدّة الدراسة فقط، إذ يتوقف الصرف أثناء العطلة الصيفية (ملاحظة: صرفت المخصّصات للطلاب أثناء العطلة الصيفية سنة 1959).

وتشير سجلات طلاب المعهد العلمي الإسلامي إلى أنّ طلابه كانوا يفدون للدراسة فيه، لارتباطه بالمسجد الأقصى المبارك، من مختلف مدن المملكة وقتئذ: إربد وأريحا وبيت لحم والقدس والخليل وعمّان وعجلون وبيت ساحور ومادبا. وتكشف الوثائق عن حرص إدارة المعهد على المساعدة في توفير مكان لسكن الطلاب الوافدين في غرف ساحة الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، إذ لم يكن هناك سكن داخلي للطلاب في المدرسة التنكزية. كما حرصت إدارة المعهد على توفير الرعاية الصحية لطلابه في المستوصف الإسلاميّ والمستشفى الحكوميّ في مدينة القدس حين الضرورة.

انتظم التدريس في المعهد العلميّ الإسلامي بعد سنة 1960 بشكل أفضل مما مضى. وفي العام الدراسي 1961/1960 أنهى ثمانية طلاب في السنة الثالثة دراستهم في المعهد، بعد تقدّمهم لامتحان الشهادة الثانوية العامّة للمعهد، واختبارهم من قبل هيئة المعهد سنة 1960 بناء على اقتراح مجلس الشؤون الإسلامية بأن يتمّ امتحان الطلبة عند تخرجهم من قبل هيئة المعهد وأحد العلماء المعروفين الذي يختاره سماحة قاضي القضاة.

وفي نهاية العام الدراسي 1962/1961 تخرج من المعهد ستة طلاب، فيما نجح وتخرّج عام 1963/1962 ثمانية طلاب. وقد حصل عدد من الخرّيجين على منح وبعثات دراسية لمتابعة تعليمهم الشرعيّ في الجامعات العربية. ففي سنة 1961 التحق ثلاثة من خريجي المعهد العلمي الإسلامي بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة على نفقتها، كما التحق طالب آخر بها سنة 1962. وفي سنة 1963 ابتعث طالبان إلى كلية الشريعة في جامعة بغداد، وطالب إلى كلية الشريعة في جامعة دمشق، وطالبان إلى جامعة الأزهر في القاهرة[77].

وفيما يتعلق بإدارة المعهد العلمي الإسلامي، فقد شهدت سنة 1962 استقالة مدير المعهد ومؤسّسه فضيلة الشيخ محمد عادل الشريف، الذي استقال أيضاً من خطابة المسجد الأقصى المبارك. وعقب ذلك تمّ تعيين الشيخ عبد القادر قدور مديراً رسمياً للمعهد ابتداءً من 1962/11/1[78].

ج. المرحلة الثالثة (1967-1970):

شكّلت هزيمة سنة 1967، واحتلال الجيش الإسرائيلي للقسم المتبقي من مدينة القدس مساء الأربعاء 1967/6/7، وسقوط المسجد الأقصى أسيراً في يد الصهاينة اليهود؛ نكسةً لكلّ معالم الحضارة والقداسة والعلم. ومن المعالم التي سعى الاحتلال في خرابها في المدينة المقدسة وأعمل فيها مبضعه مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية؛ فالاحتلال أولاً قد تسبب في حرمان المدرسة من مديرها ومعلميها، ثانياً: حال بينها وبين قدوم طلاب العلم الشرعي من المدن المختلفة الراغبين بشدّ الرحال إلى المسجد الأقصى والمرابطة والتعلّم فيه، وثالثاً: استباح حرمتها فعبث في أثاثها وسجلاتها، ثمّ رابعاً: أخرجها ظلماً وعدواناً من مقرّها.

ذكرت الدراسة آنفاً أنّه استقر المقام بمدرسة ثانوية الأقصى الشرعية (المعهد العلمي الإسلامي آنذاك) في المدرسة التنكزية بباب السلسلة، والتي تطلّ على ساحة البراق الشريف الذي يسميه اليهود بالمبكى. ومع بداية العام الدراسي 1968/1967 وجدت المدرسة نفسها أمام واقع جديد تمثّل في نزوح مديرها وبعض العاملين فيها وتشرّدهم بسبب الحرب، وفي جملة من التهديدات الإسرائيلية بالاستيلاء على مبنى المدرسة، ثمّ دخول الجيش الإسرائيلي إلى المبنى والاستيلاء على بعض محتويات المدرسة، خاصة وأن مبنى المدرسة التنكزية كان يضم مكاتب المؤتمر الإسلامي العام.

وعلى الرغم من تلك الظروف فقد قام مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية بتعيين الشيخ عكرمة صبري، الذي كان معلماً للغة العربية في المدرسة، مديراً لها. وبادر الشيخ صبري إلى لمّ شمل المدرسة، واستعادة ما أمكن من محتوياتها وأثاثها المستباح، واستئناف الدراسة في مطلع العام الدراسي 1968/1967. وتمّ قبول وتسجيل طلاب جدد للصف الأول الثانوي من مدن الضفة الغربية المختلفة، وقد وفد بعضهم من قطاع غزة رغبة في التعليم الشرعي، خاصّة وأن المعهد الديني في غزة توقّف برهة من الزمن. وقد بلغ عدد طلاب المدرسة لذلك العام الدراسي 21 طالباً، منهم 15 طالباً في الصف الأول الثانوي وستة طلاب في الصف الثاني الثانوي، بينما توقّف الصف الثالث الثانوي في ذلك العام. أما نظام الدراسة والمنهاج فلم يطرأ عليهما أي تغيير يذكر، إذ استمرّ تدريس المنهاج المزدوج للمواد الشرعية، ومنهاج المرحلة الثانوية الذي يقود للتقدم لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة للفرع الأدبي. كما استمرّ صرف الإكرامية النقدية للطلاب لتشجيعهم على العلم الشرعي وسدّ بعض نفقاتهم.

وفي العام الدراسي اللاحق 1969/1968 التحق بالمدرسة عدد آخر من الطلاب من مدن فلسطين المختلفة وصل إلى 22 طالباً، وأصبح عدد طلاب المدرسة لذلك العام 45 طالباً. وفي صيف سنة 1969 قام الجيش الإسرائيلي بالاستيلاء على مقرّ المدرسة وحال دون الوصول إليها، بحجة قربها من حائط البراق، وتهديدها لأمن الزوار اليهود، وتحقيقاً للسياسة الإسرائيلية التي بدأت منذ اللحظات الأولى لاحتلال بقية المدينة المباركة، والمتمثلة بالاستيلاء على الأوقاف والعقارات الإسلامية، وإحكام السيطرة على المرافق والمباني المجاورة للمسجد الأقصى والمطلة على حائط البراق الشريف.

وقد كان من نتيجة الاستيلاء على مبنى المدرسة التنكزية التسبب في إرباك المسيرة التعليمية لمدرسة ثانوية الأقصى الشرعية بشكل مؤقت، وتشتت طلابها والانشغال بإنقاذها. غير أنّ ذلك لم يفتّ من عضد إدارتها، ولم يوهن عزيمتها. فعقب الإجراء التعسفي الظالم للجيش الإسرائيلي، ارتحل الطلاب والمعلمون إلى مبنى مدرسة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالبلدة القديمة في القدس والتابعة لإدارة الأوقاف الإسلامية، وداوموا فيها دواماً مسائياً، وأتموا فيها عامهم الدراسي 1970/1969، وكان عدد الطلاب لذلك العام 42 طالباً، موزعين على ثلاثة صفوف.

ونظراً لتشتت طلبة مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية بفعل هزيمة سنة 1967، وعدم تمكّن طلابها القاطنين في الضفة الشرقية (شرق الأردن) من الالتحاق بها للعام الدراسي 1968/1967، وظروف الهزيمة القاسية بشكل عام، فلم تنتظم الدراسة في الصف الثالث الثانوي الشرعي في المدرسة للعام الدراسي 1968/1967. وعليه فلم يتخرّج أيّ طالب من مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية لذلك العام الدراسي. أما في العامين الدراسيين 1969/1968 و1970/1969 فقد تخرّج من المدرسة سبعة طلاب وعشرة طلاب على الترتيب[79].

د. المرحلة الرابعة (1970-1991):

تعدّ سنة 1970 بداية مرحلة استقرار وازدهار لمدرسة ثانوية الأقصى الشرعية ومسيرة التعليم الشرعي في القدس. كما أنّ الفترة التي تلت تلك السنة شهدت تأسيس مجموعة من مؤسسات التعليم الشرعي في المدينة المقدسة، انطلاقاً من مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية: إدارة، ومعلمين، وخرّيجين.

بعد ضيافة قسرية لغرف وصفوف مدرسة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس استمرت عاماً دراسياً كاملاً، انتقلت مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية سنة 1970 إلى مقرّها الجديد الحالي، الواقع إلى الجهة الشمالية الشرقية من ساحات المسجد الأقصى المبارك، في الأروقة الممتدة ما بين باب الأسباط وامتداداً حتى باب شرف الأنبياء (باب الملك فيصل) الذي يسميه المقدسيون بالباب العتم. ويذكر العسلي سنة 1981 أن تلك المنطقة كانت مكاناً لمدارس إسلامية مملوكية قديمة اندثرت، ومنها: المدرسة الطولونية والمدرسة الفنارية والمدرسة الغادرية والمدرسة الحسنية. وقد قسّمت تلك الأروقة إلى غرف للتدريس والإدارة ومكتبة ومصلى صغير، إضافة إلى غرف لسكن طلبة المدرسة، وصالة للطعام. وتمّ إجراء الترميمات اللازمة، وتزويد المكان بالاحتياجات الأولية من أثاث ولوازم لبدء الدراسة. وانتظمت الدراسة في المقر الجديد ابتداءً من العام الدراسي 1971/1970، وما زالت هناك حتى الآن.

سارت مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية، خلال هذه الفترة، خطوات حثيثة بعد أن قام مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية بالقدس بتعيين عدد من المدرسين الجامعيين لتدريس العلوم الشرعية والمواد الأخرى التي يدرسها الطلاب كاللغة الإنجليزية والعلوم والرياضيات والتاريخ والجغرافية، وهي المواد المطلوب دراستها للتقدم لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة. وقد أخذت إدارة الأوقاف على عاتقها مسؤولية تأمين المعلمين ودفع أجورهم. وقد استوعبت المدرسة في صفوف إدارتها وهيئاتها التدريسية المتعاقبة عدداً من خريجي ومبتعثي المدرسة الذين أتموا تحصيلهم الجامعي في الجامعات العربية.

وتشير الإحصائيات إلى أن المدرسة سجلت نسبة نجاح مقدارها 100% لطلابها المتقدمين لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة (التوجيهي)، ولامتحان الشهادة الثانوية الشرعية العامة لسنوات عديدة في هذه الفترة من عمر المدرسة.

وقد بلغ عدد المستفيدين من تلك المنح خلال هذه الفترة أكثر من خمسين طالباً أتموا تعليمهم الجامعي الشرعي في جامعة الأزهر الشريف، وجامعة قطر والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وجامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة، وجامعة الملك سعود في الرياض، والجامعة الأردنية في عمّان، وكلية الدعوة وأصول الدين في القدس.

هـ. المرحلة الخامسة (1991-2009):

تعدّ سنة 1991 سنة مهمة في تاريخ التعليم الشرعي في المدارس الشرعية في القدس ومدن الضفة الغربية. فقد عُدّلت مراحل الدراسة في مدارس الضفة الغربية المحتلة بحيث أصبحت تنقسم إلى مرحلتين؛ أساسية مدتها عشر سنوات، وثانوية مدتها سنتان، وذلك تماشياً مع قانون التربية والتعليم الأردني الجديد (المؤقت) رقم 27 لسنة 1988. وكان من نتيجة ذلك أن تقلّصت المرحلة الثانوية إلى سنتين بدلاً من ثلاث سنوات، فكان لا بدّ للمدارس الشرعية أن تتجاوب مع ذلك النهج، فأصبح التعليم الثانوي الشرعي سنتين اثنين فقط. ومن ناحية أخرى فقد أدخل التعليم الأساسي الشرعي ضمن التعليم الشرعي لأول مرة في سنة 1991، وتبنّت إدارة الأوقاف الإسلامية في القدس مناهج التعليم الشرعي للصفوف السابع والثامن والتاسع والعاشر الأساسية المقررة من قبل وزارة التربية والتعليم ووزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردنيتين في عمّان. وابتداءً من العام الدراسي 1992/1991 أصبحت مدة الدراسة في ثانوية الأقصى الشرعية ست سنوات. ويقبل الطالب في الصف السابع الأساسي بعد إتمامه الصف السادس الأساسي بنجاح، ويتابع دراسته لإنهاء المرحلة الأساسية فالمرحلة الثانوية الشرعية في المدرسة.

تطورت أهداف التعليم الشرعي في مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية خلال هذه الفترة، وذلك نظراً لإدخال المرحلة الأساسية العليا (الصفوف السابع حتى العاشر) فيها. حيث أصبح التعليم الشرعي في المدرسة يهدف إلى:

1. تعميق الثقافة الإسلامية لطلاب المرحلة الأساسية، ونشر الوعي الديني لديهم.
2. ترغيب طلاب المرحلة الأساسية للاتجاه إلى مسار التعليم الثانوي الشرعي.
3. تهيئة الطلاب للالتحاق بالتعليم الشرعي الجامعي.

ويمكن تفصيل هذه الأهداف كما جاءت في دليل منهاج المواد الشرعية للمرحلة الأساسية، ودليل منهاج المواد الشرعية للمرحلة الثانوية، اللذين وضعهما الفريق الوطني للتعليم الشرعي، بإشراف وزارة التربية والتعليم ووزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردنيتين في عمّان في 1990 و1991 على النحو التالي:

يهدف منهاج المواد الشرعية في مرحلة التعليم الأساسي في المدارس الشرعية إلى تحقيق:

- تعميق العقيدة الإسلامية عند الطلبة، وتقوية القيم والاتجاهات الإسلامية لديهم، بما يمكّن من إيجاد جيل مؤمن متميّز في هويته وانتمائه للإسلام، ومتفاعل مع المجتمع بروح من التفاؤل والثقة بمستقبل هذا الدين وهذه الأمّة.
- توثيق صلة الطلبة بالقرآن الكريم، تلاوة وفهماً وحفظاً.
- توثيق صلة الطلبة بالحديث النبوي الشريف، فهماً وحفظاً.
- ترسيخ محبة الله تعالى[80].

ويبلغ عدد طلاب مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية اليوم مئتي طالب، وعدد المعلمين 15 معلماً، إضافة إلى مراسل وحارس، وكان يديرها حتى 2009/8/30 الأستاذ زهير الجعبة، ويديرها اليوم الأستاذ الدكتور ناجح بكيرات إضافة إلى رئاسته قسم المخطوطات في المسجد الأقصى المبارك. ويشرف على متابعة المدرسة قسم التعليم الشرعي في مديرية الوعظ والإرشاد في دائرة الأوقاف، والذي بدوره يتبع لوزارة الأوقاف الأردنية في عمّان.

ثامناً: المعهد العربي:

هو مؤسسة تربوية تعليمية اكتسبت قيمتها من خلال رسالتها ودورها وموقعها وما خرّجته من أجيال، إذ يعتبر المعهد العربي أحد أفضل المدارس في منطقة القدس وفي فلسطين بشكل عام، وهو يوفر التعليم الأكاديمي للبنين من الصف السابع حتى الصف الثاني عشر، مع أعلى مستوى من المهنية والانضباط. ومن أجل إلقاء الضوء على سير المعهد ونموه وتطوره لا بدّ من الوقوف عند النقاط التالية:

1. موقع المعهد العربي:

يقع المعهد العربي على أراضي بلدة أبو ديس، وهي من ضواحي القدس، وتبعد عن مركز المدينة المقدسة خمسة كيلومترات. ويقع مبنى المعهد على تلة مشرفة على القدس ومطلة على بيت لحم عن مساحة 198 دونماً.



المعهد العربي تأسس سنة 1957

2. وصف المبنى:

يتألف المبنى الرئيسي للمعهد من طابقين، ويحتوي على عشرين غرفة تدريسية ومكتبة ومختبر وغرفة للهيئة التدريسية، كما توجد للمعهد مبانٍ ملحقة تحتوي على الإدارة والاستعلامات والعيادة الطبية وقاعة للاجتماعات، وجميع مباني المعهد من الحجر، وهو يمتد بشكل طولي من الشرق إلى الغرب ويدخل إليه من بوابة رئيسية تفضي إلى ساحة مكشوفة، وقد زينت جدران المبنى برسومات، وانتصب فيها أمام مبناها الجديد شعار المعهد (إقرأ) بعمل فني رائع.

وعلى بعد حوالي 500 متر من المبنى الرئيسي هناك مبنى السكن الداخلي لإيواء طلاب أيتام من مختلف أنحاء فلسطين، ويحيط بالمعهد اليوم مباني جامعة القدس وملاعب ومدرجات ومواقف سيارات أنشئت جميعها على أراضي المعهد العربي.

3. نمو المعهد العربي والتعليم فيه وتطورهما:

أ. المرحلة الأولى (1957-1967):

نشأت فكرة تأسيس المعهد العربي في غمرة الأحداث الجسام التي حلّت بالعالم العربي، وخاصة في فلسطين سنة 1948، وتشريد آلاف من سكانها، واستشهاد عدد كبير منهم، ووجود عدد كبير من الأيتام، وعدد مماثل من الأطفال المشردين. حيث رأى نفر من أهل البر والخير من أبناء الكويت والبلاد العربية المقيمين في الكويت أن أبناء هؤلاء الشهداء الأبرار، والذين ضحوا بأرواحهم من أجل الدفاع عن أولى القبلتين؛ يتركون بدون معين ولا عائل يرعى مستقبلهم ويؤمن لهم الحياة الكريمة التي يستحقونها، فقام هذا النفر من أهل الخير بتشكيل أول مجلس أمناء للمعهد العربي في الكويت بتاريخ 1957/6/17، وفيما يلي أسماء أعضاء مجلس الأمناء، الذي كان يرأسه فخرياً سعادة الشيخ صباح الأحمد الصباح الذي أصبح أميراً للكويت فيما بعد، وعضوية كل من: أحمد سلامة، وإسماعيل أبو عبده، وبدر الخالد البدر، وبدر الشيخ يوسف، وبدر السالم، وجمال هاشم، وجميل صالح، وحيدر الشهابي، وخالد العدساني، ودرويش المقدادي، وزهير الكرمي، وعبد العزيز حسين، وعبد العزيز الشايع، وعبد المحسن القطان، وعبد اللطيف الصالح، وعبد الله عبد اللطيف العثمان، وعبد المجيد مصطفى، ومحمد البحر، ومحمد عبد المحسن الخرافي، ومحمد محمود نجم، ونصف اليوسف النصف، وسعيد بريك، ويعقوب الحمد، ويوسف إبراهيم الغانم، ويوسف الأحمد الغانم، ويوسف الفليج.

وانتخب هذا المجلس لجنة تنفيذية أناط بها مهمة إخراج فكرة هذا المشروع إلى حيز الوجود وتألفت هذه اللجنة من: نصف اليوسف النصف رئيساً، وعبد العزيز حسين نائباً للرئيس، والحاج يوسف الفليج أميناً للصندوق، وزهير الكرمي أميناً للسر، وخالد العدساني ويعقوب الحمد وسعيد بريك أعضاء في اللجنة.

وعهد إلى لجنة فرعية في الأردن مهمتها مساعدة اللجنة التنفيذية واختير لرئاستها السيد روحي الخطيب[81].

وقد اختارت اللجنة التنفيذية مدينة القدس مقراً للمعهد العربي، لتوسطها في قلب العالم العربي، ولكونها موطن المقدسات الإسلامية، ودعماً لأهل هذه المنطقة. وتشير السجلات إلى أن أهالي قرية أبو ديس تبرعوا بنصف أرض المعهد، وتمّ شراء النصف الآخر بواسطة أهل الخير في الأردن وأمانة القدس[82].

ويذكر أن وزارة الأشغال الكويتية انتدبت عدداً من المهندسين لفترات متفاوتة، للعمل على إتمام التصميمات والمخططات التي شرعت بإعدادها اللجنة التنفيذية. كما وتمّ إقرار نظام أساسي مبسط للمعهد، مكون من سبع مواد أساسية حملت اسم المعهد العربي بالأردن، وبينت غاية المعهد وهي رعاية أبناء الشهداء واللاجئين العرب، وأن سنوات الدراسة فيه خمس سنوات مقسمة على مرحلتين؛ السنتان الأوليان تحضيرية، والسنوات الثلاثة المتبقية تخصصية، ووضع النظام شروط القبول في المعهد، وهيئة المعهد ومجلس الإدارة واختصاصاته، وأشار النظام إلى طموح مجلس الأمناء في المستقبل إنشاء مدرسة ثانوية للبنات ومدارس ابتدائية ومتوسطة ورياض أطفال وحضانة[83].

أشارت مجلة المعهد إلى أن عملية إنشاء المعهد لم تبدأ فعلياً إلا في سنة 1965 حينما وضع حجر الأساس بحضور الملك حسين، واستمر العمل لمدة سنتين إلى أن نشبت حرب في 1967/6/5 وقد وصل البناء إلى مراحله الأخيرة، حيث احتلت "إسرائيل" مدينة القدس والضفة الغربية، وهنا بدأت مرحلة جديدة من مراحل المعهد العربي.

ب. المرحلة الثانية (1967-1981):

شكلت هزيمة 1967 واقعاً جديداً على المعهد العربي، فالبناء ضخم وواسع وجاهز وفي الوقت نفسه فارغ ليس به أحد، وعلى الفور، قام مجلس الأمناء والذي كان يرأسه الشيخ سعد الدين العلمي باستقدام طلبه من المشروع الإنشائي في مدينة أريحا للحيلولة دون استيلاء سلطات الاحتلال الإسرائيلي على مبنى المعهد، وهكذا انتظمت الدراسة في المعهد للعام الدراسي 1968/1967[84].

وطُبق في المعهد المنهاج الأردني، شأنه شأن المدارس الخاصة، وكان يخضع لسياسة لجنة المدارس الخاصة من حيث الإشراف التربوي، ولكن ما يميز المعهد عن غيره من المدارس الخاصة هو سياسته التربوية المتميزة واستقلاله المالي؛ مما أكسبه مصداقية وسمعة لدى المجتمع المقدسي والفلسطيني.

ويسير المعهد وفق أنظمة ولوائح وقوانين معينة تؤدي إلى الانضباط المسلكي، مما جعل انتظام الدراسة فيه تشكل نسبة 99%، وجعل من طلابه الأوائل في امتحان الثانوية العامة على مستوى الوطن، ففي العام الدراسي 1980/1979 حصل الطالب هيثم محمد الديك على معدل 96% ليكون الأول على الضفتين، وفي العام الدراسي 1983/1982 حصل الطالب نبيل محمد نصار على معدل 97.5% ليكون أيضاً الأول على الضفتين، وفي العام الدراسي 2003/2002 حصل الطالب محمد دوفش على معدل 98.7% ليكون الأول على ضواحي القدس، وفي العام الدراسي 2004/2003 حصل الطالب معتز مجدي البكري على معدل 98.3% ليكون الأول على ضواحي القدس، وفي العام الدراسي 2008/2007 حصل الطالب توفيق عماد أبو الرب على معدل 98.3% ليكون الأول على ضواحي القدس، ناهيك عن عشرات الأسماء من الذين كانت معدلاتهم فوق 95% وفي جميع السنوات الدراسية بلا استثناء. وأصبح طلاب المعهد غراساً طيبة، وأشجاراً وارفة في المجتمع الفلسطيني.

وقد أدار المعهد في هذه الفترة الأستاذ راتب الأنصاري، والأستاذ عبد الرحمن عواد، والأستاذ قسطندي أبو حمود، والأستاذ فوزي جابر.

ج. المرحلة الثالثة (1981-2009):

امتازت هذه المرحلة بتطوير المعهد للمبنى الأصلي والقسم الداخلي، واستلم إدارة المعهد الأستاذ علي أبو راس، فأصبح المعهد يستوعب في قاعاته التدريسية نحو 500 طالب موزعين على الصفوف من السابع حتى الثاني عشر، ووصل عدد الموظفين إلى أربعين موظفاً بما فيهم الهيئة التدريسية. ومنذ سنة 1972 وحتى الآن تم تخريج أكثر من ثلاثة آلاف طالب، وفوج الخريجين لهذا العام 2009/2008 هو الفوج الـ 38 من طلبة الثانوية العامة، والمجتمع المقدسي يفخر بطلاب المعهد الذين شقوا طريقهم في الحياة بكل عزم وإصرار. وتوضيحاً لتطوير العملية التربوية وعدد الطلبة خلال الفترة الماضية والتي تليها نرفق بعض الإحصائيات[85]:

جدول 7/5: عدد طلبة المعهد العربي في الفترة 1970-2009

السنوات الدراسية	السادس	السابع	الثامن	التاسع	العاشر	الحادي عشر الأدبي	الحادي عشر العلمي	الثاني عشر الأدبي	الثاني عشر العلمي
1980–1970	46	627	659	688	945	512	349	488	287
1990–1980	–	556	589	618	868	394	429	339	380
2000–1990	–	712	697	660	859	279	488	222	434
2009–2000	–	704	707	695	796	304	447	295	413
المجموع الكلي	**46**	**2,599**	**2,652**	**2,661**	**3,468**	**1,489**	**1,713**	**1,344**	**1,514**

وفي سنة 1988 تمّ تشكيل مجلس أمناء جديد للمعهد برئاسة جميل عثمان ناصر، وبعد وفاته في سنة 2008 عهد إلى عدنان رشيد المناصرة برئاسة المجلس الحالي. ومن مرافق المعهد المهمة مبنى الأيتام (القسم الداخلي) وهو سكن يستوعب مئة طالب، وقد أنشئ بالتزامن مع إنشاء المدرسة لإيواء الطلاب الأيتام من أبناء فلسطين، وقد بوشر بتقديم الخدمات للطلاب في هذا القسم عقب حرب حزيران/ يونيو 1967. ولأهمية هذا القسم نشير إلى ما يلي:

1. مرافق القسم الداخلي:

يضم القسم الداخلي قاعة كبيرة لنوم الطلاب، تتسع لما يقرب مئة سرير، ومزودة بخزائن لحفظ أمتعة الطلاب، وقاعتين أصغر حجماً للمطالعة وممارسة النشاطات المختلفة، وغرفاً لنوم المشرفين وبعض المعلمين، ومكتباً لمراقب القسم، وغرفة استراحة للموظفين، ومطبخاً وقاعة طعام، ومسجداً وعيادة، ومخزنين لحفظ المواد التموينية ولوازم الطلاب العامة.

2. الإشراف على القسم الداخلي:

يتم تسيير الأمور في القسم الداخلي من قبل طاقم مكوّن من: مراقب القسم الداخلي، ومشرفين اجتماعيين، وعاملي خدمات، وطباخين. حيث يتولى المراقب وضع برامج العمل لموظفي القسم والطلاب وبرنامج التغذية، ويتابع تنفيذ ذلك ويتولى تزويد القسم بكل متطلباته المستجدة، وهو على اتصال مباشر مع مدير المعهد في عمله. ويتولى المشرفان الاجتماعيان متابعة نشاطات الطلاب طيلة أيام الأسبوع، بما في ذلك أيام

العطل الرسمية الأسبوعية، حيث يتم توزيع الإشراف بينهما بشكل متساوٍ بما يخدم مصلحة الطلاب، ويتخصص أحدهما في علم النفس والآخر في علم الشريعة. ويقوم المطبخ بإعداد الطعام وتقديمه للطلاب، في حين يتولى عاملا الخدمات أعمال التنظيف وغسل الملابس وأشكال الخدمة المختلفة. ويحق للطالب الالتحاق بالقسم الداخلي إذا كان يتيماً أو في درجته، علماً أن المعهد يضم صفوفاً من السابع إلى الثاني الثانوي بفرعيه العلمي والعلوم الإنسانية.

وفي مقابلة مع مدير المعهد أشار إلى كفاءة العاملين الذين بلغ عددهم أربعين موظفاً، وأنهم أصحاب كفاءات وتخصصات وخبرة وامتازوا بالتضحية والعطاء. وتحدث بأن طلابه في سنة 2009 قد بلغ عددهم 467 طالباً، موزعين على 15 شعبة. وحول الأزمات التي مرت على المعهد بيّن الأستاذ علي أن المعهد في عطاء متواصل على الرغم من الصعوبات والعوائق، وأن المعهد لم يتأثر إلا في بداية سنة 1990 حينما مرّ بأزمة مالية خانقة، إلا أن دولة الكويت الشقيق والمحسنين هناك وعلى رأسهم الأستاذ زهير الكرمي[86] لم يتوانوا في مدّ يد العون لهذه المؤسسة؛ مما دعاها للسير في مهمتها التربوية واحتضان شريحة مهمة في المجتمع الفلسطيني، هذه الشريحة التي فقدت حنان الأبوة والأمومة أو كلاهما.

النتائج والتوصيات:

1. يجب المحافظة على هوية المؤسسات التعليمية في القدس واستمرارها ودعمها، فهي جزء لا يتجزء من تراث وهوية الأمة. ولقد حاربت السلطات الإسرائيلية هذه المؤسسات وحاولت تهويدها وامتنعت عن تقديم الخدمات لها.

2. يجب القيام بعمل جاد وخطة استراتيجية ومرحلية واضحة لدعم هذه المؤسسات.

3. رفع المستوى المعيشي للعاملين في هذه المؤسسات.

4. توحيد هذه المؤسسات تحت مرجعية واحدة على الرغم من خضوع بعضها لنفوذ الاحتلال ودوائره.

هوامش الفصل السابع

[1] علاء البيطار، **الممارسات الإسرائيلية في حقل التعليم في القدس 1967-1997** (عمّان: لجنة يوم القدس، 1996).

[2] وجيه محمد عيسى كبها، **وقفة مع التربية والتعليم العربي في إسرائيل** (باقة الغربية، فلسطين: دار الأماني للطباعة والنشر، 2001)، ص 3.

[3] حسن الكرمي، **التعليم في فلسطين** (عمّان: لجنة القدس، وكالة التوزيع الأردنية، 1994)، ص 32.

[4] **المرجع نفسه**، ص 31.

[5] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس** (القدس: مطبعة المعارف، نشر فوزي يوسف، 1967)، ص 308.

[6] عبد الله عبد السلام القشطان، **التعليم في فلسطين** (عمّان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 1988)، ص 75.

[7] أرشيف المدرسة، مجلة الرشيدية، 2002، ص 4.

[8] أرشيف المدرسة، مجلة الرشيدية، ص 5.

[9] أرشيف المدرسة، مجلة الرشيدية، ص 5.

[10] أرشيف المدرسة، مجلة الرشيدية، ص 7.

[11] حسن الكرمي، **التعليم في فلسطين**، ص 33.

[12] أرشيف المدرسة، مجلة الرشيدية، العدد 1، 2002، ص 20.

[13] اعتدال الأشهب، التعليم في مدينة القدس واقع وتحديات، جمعية لجنة العلوم والثقافة، القدس، 2007.

[14] أرشيف المدرسة، مجلة الرشيدية، العدد 1، 2002، ص 23.

[15] درباس الهكاري: هو من الهكارية الذين قدموا مع صلاح الدين الأيوبي حين فتح القدس، وكان رجلاً صالحاً، توفي في 600هـ/1204م ودفن في المدرسة الجاولية، والتي هي جزء من المدرسة العمرية الآن.

[16] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 444.

[17] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، القدس، 1925، ص 7.

[18] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس ن 1933.

[19] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس ن 1944.

[20] السيدة نعيمة محمد الصالح، **أبحاث الندوة الخامسة** (عمّان: لجنة يوم القدس، 1995)، ص 223.

[21] أرشيف المدرسة، نشرة خاصة، 1966.

[22] أرشيف المدرسة، مجلة القدس في العيون، 2008، ص 20.

[23] مقابلة مع علي جاد الله، مدير المدرسة العمرية، 2009/6/27.

[24] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس الإسلامي، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، 1923، ص 22.

[25] تكيّة خاصكي سلطان: مبنى عثماني تعني الرباط، حيث يقيم به أهل الذكر وأبناء السبيل وزوار المسجد الأقصى، وقد بنتها زوجة السلطان سليمان القانوني في سنة 1856 وهي أكبر مؤسسة خيرية أنشئت في القدس على الإطلاق.

[26] الست طنشق: هي طنشق بنت عبد الله المظفرية أصلها من كردستان، وهي سيدة ثرية جداً جاءت إلى القدس بصحبة أخيها بهادر، وبنت فيها قصراً لا مثيل له في القدس، عرف فيما بعد بالسرايا، توفيت سنة 1398 ودفنت بجوار قصرها.

[27] زيارة ميدانية، 2009/4/15.

[28] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس 23.

[29] محمد إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1971)، ج 2، ص 117.

[30] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس 1942، ص 15.

[31] المرجع نفسه، ص 23.

[32] أرشيف المسجد الأقصى، بيان المجلس 1944، ص 16.

[33] رسالة دار الأيتام الصناعية في مدينة القدس في ثلث قرن من عام 1922-1955، القدس، دار الأيتام، 1970، ص 4.
[34] أرشيف المدرسة، سجل الموظفين، 1967.
[35] المرجع نفسه.
[36] رسالة دار الأيتام، 1970، ص 9.
[37] مقابلة مع مازن جمجوم، مدير مدرسة الأيتام الثانوية، 2009/4/24.
[38] أرشيف الإبراهيمية، نشرة بعنوان: الكلية الإبراهيمية بين الماضي والحاضر، 1998.
[39] أرشيف المدرسة، مجلة الكلية الإبراهيمية، القدس، العدد 4، 2006.
[40] صبحي سعد الدين غوشة، **أنغام الحياة**: **شمسنا لن تغيب**، ط 2 (القدس: مركز السرايا، 1994)، ج 1، ص 16.
[41] **المرجع نفسه**، ص 18-19.
[42] أرشيف المدرسة، الإبراهيمية صرح شامخ، ص 8.
[43] المرجع نفسه، ص 12.
[44] المرجع نفسه.
[45] المرجع نفسه، ص 15.
[46] المرجع نفسه، ص 16.
[47] المرجع نفسه، ص 21.
[48] المرجع نفسه، ص 24.
[49] أرشيف المدرسة، إحصائية الطلاب 2009/2008.
[50] أرشيف المدرسة، مجلة الكلية الإبراهيمية، القدس، العدد 4، 2006، ص 16.
[51] أرشيف المدرسة، مجلة الكلية الإبراهيمية، ص 20.
[52] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ص 239.
[53] **المرجع نفسه**، ص 239.
[54] أرشيف المدرسة، المأمونية بين الماضي والحاضر، ص 2.
[55] أرشيف المدرسة، نشاطات وفعاليات، ص 1-2.
[56] أرشيف المدرسة، نشرة 2008.
[57] هند الحسيني: هي هند محمد صالح الحسيني ولدت في القدس سنة 1916 وتوفيت سنة 1994، أنهت دراستها في مدرسة البنات الإسلامية في باب الملك فيصل سنة 1932، وأنهت دراستها الثانوية بالكلية الإنجليزية للبنات في القدس سنة 1936. عملت مدرسة حتى سنة 1945، ثم التحقت بالعمل الاجتماعي لتشكل منظمة جمعية التضامن الاجتماعي النسائي. في سنة 1948 أسست جمعية دار الطفل العربي وقادتها حتى أصبحت كلية جامعية عرفت باسمها، وتعدّ من رائدات العمل التعليمي والاجتماعي بالقدس.
[58] أرشيف الدار، دار الطفل العربي، البيان السنوي 1963-1964، ص 5.
[59] أرشيف الدار، دار الطفل العربي، البيان السنوي 1964.
[60] أرشيف الدار، بيان عام 1965، ص 8.
[61] أرشيف الدار، تقرير المحاسبين القانونيين خضر ورمضان وشركاؤهم، القدس، 1964، ص 9.
[62] أرشيف الدار، في وداع هند الحسيني، اللجنة التحضيرية، ص 6.
[63] أرشيف الدار، تقرير عام 1986، ص 6.
[64] أرشيف الدار، التقرير العام لسنة 1986، ص 2.
[65] أرشيف الدار، التقرير العام لسنة 1975، ص 5.
[66] أرشيف الدار، التقرير العام لسنة 1986، ص 14.
[67] أرشيف الدار، عشر سنوات من الإنجازات 1995-2005، ص 4.
[68] أرشيف الدار، عشر سنوات من الإنجازات، ص 22.
[69] أرشيف الدار، عشر سنوات من الإنجازات، ص 38-40.

[70] مقابلة مع ماهرة الدجاني، رئيسة مجلس أمناء دار إسعاف النشاشيبي.

[71] محمد عبد القادر عابدين، **تاريخ التعليم الشرعي في مدينة القدس** (القدس: مركز القدس العربي، 1998)، ص 45. ملاحظة: من باب الأمانة العلمية الدكتور عابدين هو أحد طلابها ومن ثم عمل مدرساً فيها، وبعد أن دونت ملاحظاتي عن المدرسة لم أجد خيراً مما دونه الدكتور عابدين، فأبقيت مقاله هذا كما هو مع بعض الإضافات والحذف ليتلاءم مع دراستي.

[72] أرشيف إحياء التراث الإسلامي، سجلات المدرسة الشرعية، القدس، وثيقة تحت 13/58/136/1/75.

[73] الوثيقة نفسها.

[74] أرشيف المدرسة، منهاج الدراسة في المعهد العلمي الإسلامي، 1963.

[75] أبو اليُمن مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (بيروت: دار التراث، 1954)، ج 1.

[76] كامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**.

[77] أرشيف المدرسة الشرعية، دليل المعهد الشرعي وثانوية الأقصى الشرعية، د.ت، ص 10.

[78] أرشيف المدرسة، دليل المعهد، ص 25.

[79] محمد عابدين، **تاريخ التعليم الشرعي**، ص 55

[80] **المرجع نفسه**، ص 59.

[81] أرشيف المعهد العربي، نبذة عن مشروع المعهد العربي بالأردن، آذار/ مارس 1966، ص 5.

[82] المرجع نفسه، ص 7.

[83] المرجع نفسه، ص 14.

[84] أرشيف المعهد، مجلة اقرأ، القدس، أيار/ مايو 2008، العدد 2، ص 3.

[85] أرشيف المعهد، إحصائية عام 2009.

[86] زهير الكرمي: ولد سنة 1922 في دمشق، وتخرج سنة 1937 من الجامعة الأمريكية، وعمل مدرساً في خضوري طولكرم، وهو شخصية أكاديمية من الطراز الأول، اشتهر في العالم العربي والعالمي من خلال برنامجه التلفزيوني العلم والحياة، كان مع النخبة التي فكرت في إنشاء المعهد العربي سنة 1957، وهو الذي حمل هم إنشاء كلية العلوم والتكنولوجيا سنة 1981 بجوار المعهد العربي، ويعمل الآن متطوعاً وأميناً للسر لجمعية أصدقاء المعهد، وممثلاً ورئيساً لمكتب ارتباط جامعة القدس في عمّان.

الفصل الثامن

التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي للقدس

التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي للقدس

أ. إبراهيم عبد الكريم

مقدمة:

تَفرِض التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي الخاص بالقدس ظلالها الثقيلة على مشهد المدينة، بمختلف مكوناته. وتتجلى هذه الحالة بالعديد من المفردات والصيغ التي يتمّ توظيفها في منحى طمس الهوية العربية والإسلامية للقدس، وتقديمها كـ"مدينة يهودية"، عبر القيام بعملية تهويد مبرمجة تمس جميع المعالم والرموز المتعلقة بالتراث الحضاري والثقافي للمدينة.

وفي محاولة لتكوين صورة عن المنطلقات والمساعي المتعلقة بذلك، تظهر حاجة لتتبّع الخطوط التي تسير وفقها عملية تهويد القدس، بالتركيز على بنية الخطاب الصهيوني – الإسرائيلي، وتعبيراته العملية والسياسية والدعائية الرامية لاجتثاث المدينة من مسار التطور التاريخي الطبيعي لحضارتها وتراثها الثقافي، ووضعها في مسار مغاير تحدّده الصهيونية و"إسرائيل".

أولاً: تشكيل التاريخ اليهودي ونفي هوية القدس العربية الإسلامية:

دَرَج الفكر الديني اليهودي – الصهيوني على تقديس ما يسمى "أرض إسرائيل"، وتمّ التركيز على أن مصدر قداستها يعود إلى ما ورد بشأنها في التناخ (العهد القديم) Tanakh. وتتفق جميع الكتابات اليهودية على أن النواة الأساسية لهذه القداسة تتمثل في مدينة القدس، التي تحتل مكانة مهمة في جميع هذه الكتابات[1]. وتبين متابعة المؤلفات اليهودية والصهيونية حول القدس، أنها تضمنت تكوين تاريخ قديم متخيَّل للقدس، يشمل تحديداً زمنياً لأحداث ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، عبر تقديم رواية التناخ على أنها سردية واقعية، تمّت فيها عملية مطابقة قسرية بين المرويات والجغرافيا الفلسطينية عموماً، والمقدسية بوجه خاص. وتعمّدت الكتابات اليهودية

والصهيونية ربط أهمية القدس التاريخية انطلاقاً من هذه المطابقة، وفق منهجية تلحّ على يهودية "أورشليم"[2] (القدس) ونفي عروبة المدينة وتهميش طابعها الإسلامي. وانسجاماً مع ذلك، أضفت المخيلة اليهودية على القدس جمالاً منقطع النظير، حتى قيل في التلمود Talmud البابلي: "لقد منّ الله على العالم بعشر حفنات من الجمال، أهدى تسعاً منها إلى أورشليم، والباقي إلى سائر العالم" (التلمود البابلي، رسالة قيدوشين 49:2)[3].

وفي سياق الإجابة على تساؤل علماء الآثار والمؤرخين؛ لماذا اكتسبت القدس مكانتها العميقة، وكيف أصبحت مدينة كبرى؟ يجزم صهيونيان بارزان، هما؛ تيدي كوليك Teddy Kollek (الذي ترأس بلدية القدس المحتلة في الفترة 1965-1993) والجنرال السابق موشيه بيرلمان Moshe Pearlman (مؤسس ومسؤول دائرة الناطق الإعلامي باسم الجيش الإسرائيلي في الفترة 1948-1952) أن أهمية "أورشليم" بحسب تعبيره، ترجع إلى ما أوجده التاريخ القديم فيها، وإلى الحضارة العبرية التي أنجبت الملوك – الفلاسفة وأنبياء العهد القديم الذين جعلوا أورشليم مركزاً لهم. فمن أورشليم خرجت أفكارهم إلى العالم كله وغيّرته، كما أعلن إِشَعْيَاءَ Isaiah "من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم تعلن كلمة الرب" (إِشَعْيَاء 3:2). بالإضافة إلى أن الأطروحات الأولى، ومفاهيم الخير والشر، ومحبة الخَلق، وعدالة القانون؛ كانت هي المبادئ الثورية للعبريين الأوائل، وكانت أورشليم هي مركز الإشعاع الذي انطلقت منه[4].

رداً على هذه المزاعم، يبيّن محمد إدريس، أستاذ الدراسات الإسرائيلية، أن هناك الكثير من:

> المغالطات التاريخية والدينية في وجهة النظر اليهودية، فلم تكن أورشليم مهبط وحي أو مصدر شريعة، فالتوراة نزلت على موسى في سيناء، وجرى وضع أسس التلمود في بابل. بل إن المدارس الفقهية الأورشليمية التي ظهرت بين بقايا اليهود الذين تركهم البابليون فيها، أو فيما بعد، لم تكن في قوة مدارس اليهود في بابل، ومن ثم ظلّ التلمود البابلي مسيطراً على الفقه اليهودي حتى الآن[5].

ويتضمن التوصيف الصهيوني التقليدي للارتباط المصطنع بين القدس واليهود تشديداً على "مركزية القدس" في تاريخهم، والادعاء أنه "على مدى ألفي سنة كانت القدس بالنسبة للشعب اليهودي المدينة الخالدة الأبدية ومركز الحياة الدينية والروحانية،

وصورة تطلعات الشعب الوطنية، وأنه رغم قدسية المدينة عند الأديان الثلاثة، إلا أن أحداً لا يشك في أن الثقل الكبير بها هو للديانة اليهودية"[6]. وهناك تذكير دائم بأن المدينة ظلت تتردد على ألسنة اليهود في المنافي، بعبارة "العام القادم في يروشلايم"، وتحولت إلى شعار لهم على مرّ العصور والأجيال، وتسميتها يروشلايم (مدينة السلام)، والادعاء بأن "أحد معاني هذا الاسم يرتبط بالوراثة (يروشاه بالعبرية) التي أورثها الله لشعب إسرائيل، وجعلها مكاناً لإقامته. ثم عزو قدسية البلاد إلى أبدية هذه المدينة كعاصمة لشعب أبدي، وورود ذكرها في التوراة نحو 670 مرة"[7].

وشددت الأدبيات الصهيونية على أن يروشلايم "كانت ولا تزال وستبقى أقدس مقدسات شعب إسرائيل، وأنها قلب الأمة الذي لا يمكن فصله عن جسدها"، وذلك بالتساير مع ترسيخ مكانتها في الذاكرة اليهودية، كقيمة روحية، تمتزج بالتطلع إليها. حيث اعتاد اليهود في صلواتهم التوجه إليها وترديد القسم: "إذا نسيتك يا أورشليم نسيت يميني، وليلتصق لساني بحلقي إذا لم أذكرك، وإذا لم أزر القدس في أفراحي"[8]. وتعبيراً عن المعاني السياسية والعملية لـ"أورشليم" في حياة اليهود، بالمنظورين الجمعي والفردي، ذهب موتي جولاني Motti Golani أحد المؤرخين الصهيونيين، إلى أنه "لا وجود للصهيونية دون أرض صهيون (القدس)"[9]، وخاطب أحد زعماء الصهيونية مندوباً من المندوبين السامين البريطانيين الذين حكموا البلاد حتى قيام "إسرائيل" بعبارات يراد لها أن تظهر شدة ارتباط اليهود بالقدس، عبر القول: "عندما كان أجدادك يلعبون مع القردة في غابات لندن وأكسفورد، كان أجدادنا يستمعون إلى العظات النبيلة حول الأنبياء في شوارع أورشليم"[10]. وقال أحد الكتاب الإسرائيليين "عندما بنى آباؤنا أورشليم، كان آباء الكيان الفلسطيني يقفزون إلى الأشجار"[11]، في كناية عن الدونية حسب سلّم التطور الدارويني.

ولتعزيز الوحدة العضوية بين الديني والدنيوي لـ"أورشليم"، دعا حكماء المدراش Midrash (وهو تأويل الرابينيين للعهد القديم، وهو لا يفسر النصّ آية آية بل يأخذ شكل التوسيع والإسهاب) والتلمود إلى التمسك بـ"أورشليم الأرضية" (السفلى) المدينة التي يمكن تطبيق قسم من التعاليم نظرياً وعملياً فيها، معتبرين أن "أورشليم السماوية" هي الغاية، وأن "المدينة الأرضية" هي الطريق والدرج اللذان يؤديان إليها، وأن البوابة ليست سوى بيت الله، وهذه هي "بوابة السماء" (حسب سفر التكوين)[12]. وتحدث

الصهيونيون عن بداية الارتباط بين اليهود والقدس منذ فترة الملك ديفيد (داود عليه السلام)، وصولاً إلى بناء "الهيكل الثالث" الذي يتطلعون إلى بنائه مكان الحرم القدسي. ومن الأمثلة التي تنتمي إلى ذلك، تأكيد يسرائيل ميداد Yisrael Medad، رئيس جماعة جبل الهيكل El Har HaShem Society، بأن "أورشليم هي عاصمة إسرائيل الأبدية حسب التوراة"، ويورد ميداد الأفكار المتوارثة لدى اليهود بهذا الخصوص، حيث يقول:

> اشترى ديفيد بيدراً وأقام به المذبح حين حدد القدس كمدينة لمملكته، بعد سبع سنوات من تتويجه ملكاً في الخليل، وكان في البيدر حجر كبير هو "حجر الشرب" (الكأس)، وفي هذا المكان، في أرض موريا، ربط إبراهيم ابنه الوحيد إسحق، وبعد ذلك أقام فيه الملك شلومو [سليمان عليه السلام] بيت المقدس [الهيكل] الأول [الذي يقال إن الملك البابلي نبوخذ نصر دمره سنة 587 ق.م]. وبعده جاء عيزرا [Ezra] وحشمونئيم، ثم بنى هيرودوس الهيكل الثاني، الذي أصبح مثاراً للفخر.

ويقال إنه دمر من قبل الرومان سنة 70 للميلاد. ويشير ميداد إلى أن "اليهودي في كل أماكن وجوده يتجه أثناء الصلاة نحو أورشليم، وفي نهاية كل مراسيم زواج يكسر الزوج الكأس ويعلن عن ولائه لأورشليم، هذه المدينة التي تجمع كل اليهود معاً، وتؤم الجماهير ساحة المبكى كل ليلة التاسع من آب في التقويم العبري وبأعداد متزايدة". ويعبر ميداد عن الحلم الصهيوني الجمعي بأن "الخلاص يتمّ عندما يُبنى في هذا المكان الهيكل الثالث"[13]. وتوضيحاً لموضوع "الخلاص"، يبين البروفيسور يسرائيل شاحاك Israel Shahak أن مهمة اليهود، حسب اعتقاد المسيائيين (المؤمنين بمسيح اليهود المنتظر)، هي تحضير أفضل الشروط للمسيا القادم قريباً، من خلال مصادرة أراضي العرب في القدس، كما أن لطرق الضغط المختلفة على الفلسطينيين هدفاً لاهوتياً، حيث من المفضل حسب الشريعة اليهودية (الهالاخاه Halakhah) ألا يقيم غير اليهود في القدس، ويجب عدم السماح بوجود ديانة أخرى غير اليهودية في القدس، كما كان الأمر عليه قبل سنة 70 للميلاد. ويعتقد المسيائيون أنه كلما قلّ عدد غير اليهود في القدس ازداد الرب سروراً، أو تسارعت بداية الخلاص لتتحول إلى خلاص كامل[14].

ثانياً: الهيكل اليهودي: الفكرة والموقع الموهوم:

ارتباطاً بالتاريخ والمكان، تنبع خطورة فكرة "الهيكل اليهودي" من كونها تمس هوية القدس في الصميم، بحضارتها وثقافتها العربية الإسلامية، حيث تصرّ الأوساط اليهودية والصهيونية أن الهيكل يعدُّ حقيقة لا جدال بشأنها، وتقدمه على أنه مبنى كان قائماً في الماضي، وظلّ يرمز عند اليهود إلى ما يسمى "الروح الوطنية" ويؤكد بقاء الشعب اليهودي على أرضه[15].

وينظر اليهود إلى الهيكل على أنه رمز ينطق دوماً بحضور إله اليهود "يهوه" حضوراً ملوكياً وسط شعبه، واعتبروه المكان المفضل للصلاة لاستقطاب الإسرائيليين، ولا سيّما في أوقات المحن. ووجدت القيادات اليهودية والصهيونية ضالتها المنشودة في جعل فكرة الهيكل اليهودي في القدس باعثاً ومحرِّضاً على حشد الطاقات الذاتية والتحالفية لبناء المشروع اليهودي الصهيوني في فلسطين. واتخذ الهيكل بعداً سياسياً عبّر عنه ديفيد بن جوريون David Ben-Gurion، أول رئيس حكومة لـ"إسرائيل"، بتأكيده أنه "لا معنى لإسرائيل دون القدس، ولا معنى للقدس دون الهيكل"[16].

وبغية تجذير الهيكل في الذاكرة اليهودية، وطمس هوية الحرم القدسي ومعالمه، وتهيئة الأذهان لإزالته، قامت الأوساط الصهيونية بتكوين صورة ذهنية للهيكل، تتضمن تفاصيل دقيقة جداً عن بنائه وعن معالمه الخارجية وتقسيماته الداخلية، وترجمتها إلى مخططات وأشكال تمثيلية ورسوم متخيلة. وانتشرت مع هذه المؤلفات نماذج مصغرة للهيكل، اشتهر منها النموذج الذي صممه البروفيسور اليهودي ميخائيل آفي يونا Michael Avi-Yona[17]. وجرى بناء "صيغة ذهنية" جامحة حول الهيكل، فشبَّه اليهود مكانته بمكانة القلب في العهد القديم، خاصة وأن الحديث عن الهيكل يحتل أكثر من ثلث سفر الخروج والجزء الأخير منه بكامله. وتغنت المنشورات اليهودية والصهيونية بجمال الهيكل ومكانته، حتى إن الموسوعة اليهودية Encyclopaedia Judaica، التي يفترض فيها مراعاة ولو الحد الأدنى من المعايير العلمية للتأليف، اعتبرته أضخم مبنى عرفه الإنسان، وأعظم معبد ظهر في التاريخ، من حيث تأثيره وقوته، ونشرت الموسوعة مخططات الهيكل طبقاً لرواية التناخ[18]. ويجمع الصهيونيون على أن هار هابيت (جبل البيت) هو المكان الأقدس للشعب اليهودي وليس فقط للمتدينين، وأن الهيكل الذي خرب مرتين، هو الرمز الأساس ليس للدين فقط، بل للسيادة اليهودية أيضاً، وأن جبل البيت

هو رمز الحياة اليهودية التي ازدهرت ونمت هنا، وأن كوتيل همعرافي (الحائط الغربي)، وأهميته التاريخية، هو رمز الخراب، والتهاوي واحتلال "أرض إسرائيل" على يدي أجانب[19].

وهناك المئات من المؤلفات المشهورة التي يجري عرضها في واجهات المكتبات اليهودية والغربية، بإخراج فني متميز، فضلاً عن عدد كبير جداً من المواد الدعائية، التي تجترُّ الرواية التناخية، وتسعى إلى إيجاد دلائل لها على الأرض، عبر تطويع التاريخ واستنطاق الآثار على الطريقة اليهودية، مع ربط تعسفي مصطنع بين نصوص التناخ وجغرافية القدس، على طريق إقامة الهيكل مكان الحرم القدسي.

ومن هذه المصادر مثلاً "الموسوعة اليهودية"، وموسوعة "الصهيونية وإسرائيل" Encyclopedia of Zionism and Israel، اللتان تسهبان في إيراد مثل تلك التفاصيل. يُضاف إليهما كمٌّ هائل من الكتب التي تحذو حذوهما أو تشكل رديفاً لهما في مقولاتهما التضليلية، ومنها مثلاً: مجلدان لموسوعة الحفريات الأثرية في ما يسمى "أرض إسرائيل"، ومجلدات "المدينة القديمة" للمؤرخ الإسرائيلي زئيف فلنائي Ze'ev Vilnai، وكتاب ايلي شيلر Eli Schiller وجدعون بيجر Gideon Biger "القدس: المدينة القديمة" الذي يورد عشرات المخططات التي تترجم الرواية التناخية عبر مطابقة قسرية مع جغرافية القدس. ومن الكتب الخطيرة المصوّرة حول القدس، كتاب مئير بن دوف "القدس في مرآة الأجيال" الذي يحشد فيه مئات الصور والمخططات المصممة استناداً إلى الرواية التناخية حول القدس، فيسهب في الحديث عن أسماء القدس حسبما وردت في العهد القديم، ويتحدث عن "يروشلايم وبيت ديفيد في عهد الهيكل الأول"، ثم من داود إلى تسدكياهو Tzidkiyahu 1000-586ق.م. ويدعي أن الانقلاب الكبير وقع في تاريخ القدس مع احتلال داود لها، وعندها قرر أن يجعل عاصمة المملكة فيها، وكل ما حدث في أعقاب هذا القرار أوصل القدس إلى مكانتها المتميزة بين مدن العالم كله، وأصبحت منبع الحضارة، والعاصمة المقدسة للعالم الغربي. كما يتحدث المؤلف عن المعبد (الهيكل الأول) الذي بناه شلومو (سليمان)، وفق الرؤية التناخية، ويورد مخططاً له ينطبق تقريباً على مكان الحرم القدسي الحالي، ويتحدث بالتفصيل عن روعة هذا المبنى ودوره، ويتحدث عن أن هيكل شلومو (هيكل سليمان)، مع نهاية عملية البناء، أصبح في القدس أحد المباني الرائعة الضخمة الذي استخدم مشعلاً روحانياً حضارياً لحياة المدينة، وقد ترك المعبد

أثره على كل ما حدث منذ ذلك الوقت في القدس، وهو الذي حدد نوع المدينة ومكانتها الخاصة. ثم يتحدث عن خراب الهيكل الأول وتدميره على يد ملك بابل نبوخذ نصر، وينتقل إلى القدس في أيام الهيكل الثاني (تحت الحكم الفارسي واليوناني والروماني). ويركز على أيام شمعون باركوخبا Shimon Bar Kokhba وتمرده ضدّ أدريانوس Adrianus، وعن استمرار حياة اليهود في القدس، ويقدم لمحات عن حياتهم تحت الحكم البيزنطي والروماني[20].

ويلاحظ أن هذه المؤلفات وسواها مليئة بالأفكار المسبقة والغيبية، التي جرى ترتيبها وفق نمط ذهني مغرق في عنصريته، استناداً إلى اعتبارات سياسية تسعى لحيازة التفهُّم والتأييد العالمي لدعاوى "الحق التاريخي" التي تنادي بها الصهيونية، خلافاً لكل القوانين والمواثيق والأعراف الدولية. ويمكن القول إن موضوع الهيكل برمّته لا يعدو أن يكون واحداً من الإنشاءات الأيديولوجية السياسية، حيث لم يُعرف في الروايات المختلفة أن النبي موسى قد دخل فلسطين، ولم تذكر هذه الروايات أنه بنى هيكلاً، وحسب معجم "اللاهوت الكتابي" لم يكن للعبرانيين هيكل في "زمن الآباء"، أي في عهود من يسمونهم إبرام وإسرائيل (إبراهيم ويعقوب عليهما السلام). ويشير المعجم إلى أن "المعبد الأمثل الذي كان في عهد داود هو خيمة الاجتماع"[21].

يُذكر أن الأوساط اليهودية والصهيونية تتباين في تحديد الموقع المتصوَّر الموهوم للهيكل اليهودي، ومن الروايات المتعددة بشأن هذا الموقع، أنه يقوم:

1. مكان المسجد الأقصى.
2. مكان قبة الصخرة حيث يقع حجر الأساس للهيكل.
3. شمال قبة الصخرة.
4. في جبل صهيون.
5. في الكنيس الكبير الموجود حالياً في شارع جورج الخامس.
6. فوق جبل جرزيم في منطقة نابلس حسب اعتقاد الطائفة السامرية. بيد أن تلك الأوساط تتفق على حذف الطابع العربي والإسلامي للقدس، وتكاد التوصيفات الصهيونية تجمع على أن الهيكل المزعوم كان يقوم مكان الحرم القدسي.

ثالثاً: معبد هيرودوس شاهد على عروبة المكان:

تتفق الموسوعات والقواميس والمراجع التي تُعنى بالشؤون اليهودية والإسرائيلية على أن هيرودوس باني المعبد (القصر) في القدس لم يكن يهودياً، بل كان أدومياً من ناحية أبيه وأمه. والأدوميون هم قبائل عربية ورد ذكرها في السجلات المصرية القديمة خلال عصر الأسرة 12، التي حكمت بين 2000-1788ق.م، وأشهر من عرف منهم أيوب عليه السلام، وهو من أنبياء العرب، وورد ذكره في القرآن الكريم أربع مرات. وكان الأدوميون من ألد أعداء اليهود، وحاربوهم في مختلف العصور، وفي عهد الرومان تمكن ملكهم هيرودوس الأدومي العربي من تأسيس دولة الهرادسة في أوائل العهد الروماني[22].

ويؤكد قاموس "الكتاب المقدس" الأصل العربي لهيرودوس، فيذكر أن هيرودوس كان اسماً لعدد من حكام فلسطين وملوكها، أو بعض أجزائها أو بعض المناطق القريبة منها. وفي العهد الجديد "الأناجيل" ذُكر أربعة أشخاص بهذا الاسم، وكان ذلك أثناء الحكم الروماني على فلسطين. ومن هؤلاء الأربعة هيرودوس الكبير (الابن الثاني لأنتيباتر Antipater الأدومي الأصل) وكانت أمه أدومية، لذلك فهو لم يكن يهودياً. وقد بنى أماكن كثيرة في فلسطين لتخليد اسمه، ومنها قيصرية على شاطئ المتوسط، وحصَّن القدس، وزيَّنها بالملاعب والقصور[23].

وتذكر موسوعة "الكتاب المقدس" أن الرومان هم الذين منحوا هيرودوس لقب "ملك يهودا"، وأنه كان ملك في الفترة ما بين 37-4ق.م، وكان اليهود يكرهونه، وقتل منهم أفراد الأسرة الحشمونية الذين اعتبرهم مصدر خطر على ملكه. كما تذكر هذه الموسوعة أن الملك هيرودوس بدأ في بناء هيكل جديد في "أورشليم"، وأراد أن يكسب رضى رعاياه، ويدهش العالم الروماني بفخامة بنائه الذي تمّ في سنة 9ق.م واستمر الهيكل قائماً حتى سنة 70 للميلاد حيث دمره الرومان. وهذا هو الهيكل الذي زاره السيد المسيح، وورد ذكره في "العهد الجديد"[24].

رابعاً: حائط البراق (حالة دراسية):

طبقاً للتخمينات اليهودية، وسَّع هيرودوس ساحة المعبد بمقدار ضعفي المساحة السابقة، حتى أصبحت تشمل سوراً تبدو بقاياه ماثلة للعيان في الحائط الغربي (المبكى) وأجزاء من الحائط الجنوبي والشرقي للحرم القدسي. وقد بقي من عهد هيرودوس في هذا الحائط 16-22 مدماكاً (صفاً)، بما في ذلك خمسة مداميك مكشوفة. وفي الزاوية الشمالية الشرقية هناك 11 مدماكاً على سطح الأرض، ترتفع على نحو يشبه البرج. أما في الزاوية الجنوبية الشرقية فيوجد 14 مدماكاً تحت سطح الأرض، وهناك حجر منحوت طوله سبعة أمتار ويزن أكثر من مئة طن[25].

أما في كتاب "المدينة القديمة"، للمؤرخ الإسرائيلي زئيف فلنائي، فيتمّ وصف الحائط بأن طوله الأصلي يبلغ 58 متراً، وارتفاعه 20 متراً، ويضم 25 مدماكاً من الحجارة، السفلية منها هي الأقدم. ويبلغ عمق الحائط المدفون تحت سطح الأرض نحو ثلث الحائط الظاهر فوقه. بينما يرتفع الرصيف الموجود أمام الحائط حالياً نحو 708 أمتار عن مستوى سطح البحر، وهذا أخفض مكان من أرض مدينة القدس القديمة الحالية[26].

ويرد في "الموسوعة اليهودية" تعريف للحائط بأنه "جزء من جدار جبل الهيكل الذي ظلّ معطلاً منذ تدميره الثاني في سنة 70 للميلاد، وأنه أضحى أكثر الأماكن قدسية في العادات والشعائر اليهودية، بفعل قربه من جدار الهيكل ومن مقدسات جبل الهيكل". وتضيف: "إن هذا الجزء خصص للبكاء على انهيار المعبد اليهودي وعلى منفى شعب إسرائيل، وإن أهميته تكمن في كونه يشكل شمعة تضاء من أجل إحياء الموروث الديني اليهودي في القرن العشرين، ويؤجج ذكريات المجد الإسرائيلي القديم، ويبعث الأمل في استعادته"[27].

ومن جهتها تورد موسوعة "الصهيونية وإسرائيل" تعريفاً للحائط بأنه الجزء المتبقي من الجدار الذي كان يحيط بأكمة جبل الهيكل في القدس، بعد إتمام التوسيعات التي جرت على الساحة الخارجية للمعبد بأمر من هيرودوس ملك يهودا! وبوصفه الجزء المتبقي من الهيكل الثاني، بات يمثِّل أكثر الجوانب قداسة بالنسبة لليهود، لدرجة أن هذا الحائط أضحى منذ قرون خلت مزاراً لأداء الشعائر والمناسك اليهودية، وأداء الصلوات[28].

وجاء في نيو ستاندارد جويش انسايكلوبيديا The New Standard Jewish Encyclopedia أن الحائط الغربي يشكل بؤرة استقطاب لليهود من جميع أنحاء العالم، وأن هذا الحائط "عاد إلى السيادة اليهودية" سنة 1967 لأول مرّة منذ فترة الهيكل الثاني، وأن عالم الآثار الإسرائيلي بنيامين مازار Benjamin Mazar الذي نقَّب في المكان منذ سنة 1968 اكتشف بعض الآثار القديمة هناك دون أن تذكر هوية هذه الآثار[29]، في إيحاء جلي المرامي.

وفي ظلّ سعي اليهود والصهيونيين لإبراز الارتباط بالحائط الغربي والهيكل، ينفرد هذا الحائط بمكانة خاصة لديهم، ضمن محاولات إيجاد رموز دينية أو تاريخية للبرهنة على صلتهم المزعومة بأرض فلسطين، خاصة وأن لهذا الحائط تأثيراً كبيراً على الجموع اليهودية بمثوله المادي وبنيانه الرائع الأخَّاذ. والملاحظ بالمقابل، حسبما تذكر "الموسوعة اليهودية"، أن المصادر المتعددة التي تتحدث عن اليهود في القدس خلال العهود السابقة للقرن 16 ميلادي لم تذكر شيئاً عن تقديس اليهود للحائط الغربي بالتحديد، وأن التجمع اليهودي من أجل العبادة آنذاك كان يجري في جبل الزيتون إبّان العهد المسمى فترة الجيونيم Geonim (رؤساء المدارس اليهودية في القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية). وفي القرن 11 ميلادي ذكر مصدر يهودي أن المعبد اليهودي الكبير كان مبنياً في محاذاة الحائط الغربي، أما بنيامين "حاكم" توديلا Benjamin of Tudela (ولاية يهودية مزعومة في القرن 12 ميلادي) فقال: إن قدسية المكان ليست في الحائط الغربي، وإنما تمتد إلى بوابة الرحمة شرقي الحائط. وفي القرن 13 ميلادي، كان هناك سكوت أو إغفال مطلق للحديث عن قدسية الحائط الغربي، حيث لم يشر إليه نحمانيدس Nahmanides الذي وضع وصفاً مفصلاً لموقع الهيكل سنة 1267 للميلاد، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخ الديني اليهودي استوري هافرحي، الذي وضع العديد من المؤلفات في العقود الأولى من القرن 14 ميلادي. أما مصادر القرن 15 ميلادي فقد كانت أشد فقراً في الحديث عن الحائط الغربي، ولم تورد أي وصف للقدس، ومن أبرز هذه المصادر: رحلات ميشولم من فولتيرا، وعوفاديا Ovadia من بيرتينورو، وسواها. ومع أن عوفاديا ذكر الحائط الغربي، لكنه لم يأتِ حينها بأي إشارة تبيّن مكان عبادة يهودية في الحائط[30].

ولدى تأمل التسميات المتداولة للحائط، أول ما يستدعي الانتباه ذلك الفارق الكبير في المعنى بين حائط البراق وحائط المبكى أو الحائط الغربي الذي يعبِّر عن واحد من أبعاد الصراع العربي – الصهيوني حوله، ذلك أن للتسمية مدلولاً يتعلق بهوية هذا الحائط، التي يريد كل من الطرفين الإسلامي واليهودي تكريسها. فبالنسبة للمسلمين، يرتبط حائط البراق بمعجزة الإسراء والمعراج الخالدة في العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، كونه يشكل في التراث الإسلامي مربطاً للبراق الذي أقلَّ الرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والذي أقله أثناء عودته، بعد معراجه إلى السماء. ومن المعروف تاريخياً وبالتواتر والتوارث لدى أهل القدس والمسلمين عامة أنه يوجد محل يسمى "البراق" عند باب المسجد الأقصى المدعو بـ"باب المغاربة" ويجاوره مسجد البراق، الذي هدمه الصهاينة سنة 1968، الملاصق للجدار الغربي للحرم القدسي. أما تسمية حائط المبكى فقد جاءت من واقع قيام اليهود بالبكاء والنواح عنده في العصور المتأخرة، على خلفية ادعاءات متفرقة منها: إن الحائط المذكور هو جزء من بقايا معبدهم القديم. لكن، في ضوء العرض الخاص بهيرودوس وهيكله، يبدو جلياً أن المزاعم اليهودية الصهيونية حول حائط البراق تفتقر إلى أي منطق أو دليل، إذ لا علاقة لليهود بهذا الهيكل، على افتراض صحة اسمه، ناهيك عن التحفظات المتعلقة بصحة المعلومات الواردة بشأن "السرد الروائي" الذي تعتمده المؤلفات اليهودية والغربية، والذي وضع أساساً بما ينسجم مع التصورات الواردة في التناخ المكتوب في فترات متباعدة من قبل أحبار اليهود، والذي يعج بالمحتويات الأسطورية[31].

وهكذا، بعد نسبة حائط البراق لما يسمى "التاريخ اليهودي"، راحت اليهودية والصهيونية تنسجان الأساطير حول علاقة اليهود بالحائط، في عمل واضح من أعمال التزوير والتضليل التي يعمدون إلى إدخالها في عقول البسطاء والسذَّج، سواء من بني جلدتهم أم سواهم. وجرى اصطناع واضح لقدسية الحائط عند اليهود في أزمنة متأخرة، سار مع محاولة الاستيلاء على المكان، لا فرق في ذلك بين انتزاع ملكية الأراضي من الفلسطينيين وتهجيرهم من بلادهم بالقوة الغاشمة، وبين اغتصاب حائط البراق الذي يعدُّ ملكاً إسلامياً ومعلماً بارزاً من معالم الحرم القدسي الشريف.

ولبيان بعض تفاصيل اللحظات الأولى لترجمة هذا الاغتصاب إلى حيز الفعل، يروي الصحفي الإسرائيلي عوزي بنزيمان Uzi Benziman في كتابه "القدس: مدينة دون سور" أنه في 1967/6/8، توجه إلى ساحة "الحائط الغربي" ديفيد بن جوريون وتيدي

كوليك رئيس بلدية القدس الغربية، برفقة يعقوب يناي Ya'acov Yannai مدير سلطة الحدائق الوطنية، ووقف الزعيم المسن بن جوريون أمام الحائط المقدس وبكى بمرارة، وبعد أن هدأ، أمر أحد الجنود المكلفين بالحراسة لكي يزيل من على الحائط لوحة "البراق" التي وضعت عليه في فترة الحكم الأردني. وقال يناي لرئيس البلدية: "يجب العمل على تنظيف المنطقة، ويجب أن نمنح الحائط رونقه". واستجاب كوليك، وتوجه إلى الجيش الإسرائيلي وإلى جهات أخرى، وبعد أيام تمّ إخلاء الحي السكني وهدمه (حي المغاربة) المجاور للحائط الغربي، وأقيمت في أسفل الحائط ساحة كبيرة مساحتها 20 ألف متر مربع، وكانت إزالة لوحة "البراق" من أكثر الأعمال التي رمزت لتبدل السلطة على الحائط[32].

خامساً: تشويهات المستشرقين اليهود والصهاينة لهوية القدس وحضارتها وتراثها:

ضمن منظومة من التشويهات والاعتداءات التي تمس هوية القدس الحقيقية وحضارتها وتراثها، تصدّر المستشرقون اليهود المحاولات الصهيونية الرامية للتهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، وتأكيد أهميتها ومركزية النظرة إليها في التصورات اليهودية الصهيونية. ومن الإسهامات المتميزة التي تفضح تلك التشويهات، دراسة غنية قدمها الدكتور حسن عبد الرحمن سلوادي، عميد كلية الآداب في جامعة القدس، وتبين هذه الدراسة أن المستشرقين يعزون قداسة القدس في الإسلام إلى عوامل لا تنبع من صميم الديانة الإسلامية، وإنما هي مجرد تقليد لما تقرر بشأن هذه القداسة في الأصول الدينية والتصورات العقدية في الديانة اليهودية، وأجهد العديد من المستشرقين أنفسهم في تأويل النصّ القرآني، وعمدوا إلى التشكيك في صحة الأحاديث النبوية والرواية الإسلامية التي تربط القدس الشريف بالإسلام، بهدف التشويش على مكانة المدينة وقداستها لدى المسلمين، كما في حادثة الإسراء والمعراج. فيزعم المستشرق إسحق حسون Isaac Hasson أن علماء المسلمين لم يتفقوا جميعاً على أن المسجد الأقصى هو مسجد القدس، إذ رأى بعضهم أنه ممر في السماء يقع مباشرة فوق القدس أو مكة، وهو يستعين بذلك بما كتبه المستشرق الفرنسي ديمومبن الذي حاول التمييز بين القدس السماوية والقدس السفلى. ويقرر المستشرق اليهودي حسون أن معظم

الأحاديث التي تتناول فضائل بيت المقدس وتتحدث عن منزلتها في الإسلام قد وضعت في أيام بني أمية، وهو بذلك يريد أن يقول إن القداسة التي أنيطت بالقدس قد نجحت وترسخت نتيجة للتطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة[33].

ويوضح د. سلوادي أن المستشرقين اليهود أثاروا مجموعة من القضايا التي تتصل بتاريخ القدس وحضارتها منذ بداية فتحها على يد المسلمين سنة 637 للميلاد، حتى سقوطها في يد الإنجليز سنة 1917، وكان الهدف من إثارة هذه القضايا التدليل على أن المدينة لم تكن لها أية مكانة مميزة في الإسلام، ولم تكن لها أهمية تذكر من الناحيتين الاستراتيجية والإدارية. ومن القضايا التي أثارها المستشرقون قضية فتح المدينة، حيث شككوا في الرواية التي تؤكد قدوم عمر بن الخطاب لتسلّم بيت المقدس بطلب من صفرونيوس. ويوردون روايات عديدة متناقضة حول الشخص الذي تسلم المدينة وعقد الصلح مع أهلها ويرجح المستشرق اليهودي غويتاين رواية كارل بروكلمان في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية" والتي تنصّ على أن المدينة سُلّمت إلى قائد مغمور لم يبرز بشكل خاص في القتال هو خالد بن الفهمي، وكان شرط الاستسلام واضحاً وهو فتح البلاد لسلطة المحتل. ولعل أشد الروايات انتقاصاً من مكانة المدينة رواية هربرت يوسه التي تؤكد أن عمرو بن العاص هو الذي فتح المدينة وتسلّمها من أهلها، لأن عمرو لم يدخل الإسلام إلا في السنة الثامنة للهجرة، كما أنه لم يكن من أكابر الصحابة، وذلك لا يتناسب والمكانة التي تحتلها المدينة التي أخذت تسمو شيئاً فشيئاً، وتتطلب أن يكون فاتحها شخصية إسلامية مرموقة[34].

وتطلع المستشرقون لعزل المدينة المقدسة عن هويتها العربية الإسلامية، بالتدليل على أن الفتح العربي كان مرحلة عابرة في تاريخ المدينة، وأن الوجود العربي فيها كان ثمرة من ثمار هذا الفتح الطارئ. وبالمثل، حاول المستشرقون اليهود التهوين من منزلة القدس أيام الغزو الصليبي، حيث ذهب بعضهم، مثل عمانوئيل سيفان، إلى القول إن احتلال المدينة وسقوطها في يد الفرنجة سنة 1099 للميلاد لم يكن له صدى في أرجاء العالم العربي والإسلامي، وكذلك تفريط ملوك المسلمين بها والتنازل عنها للملوك الصليبيين، مثلما فعل الملك الكامل حين سلّمها وبيت لحم إلى الملك الصليبي فردريك الثاني Frederick II في سنة 1129 للميلاد دون أن يكون لهذا الحدث ردّ فعل يتناسب مع أهميته وخطورته. ويدعي عمانوئيل سيفان أن اللاجئين المسلمين الذين هربوا من

المناطق المحتلة تركوا لنا مراثي كثيرة، بيد أن احتلال القدس لا يذكر فيها أبداً. ويتساءل: كيف يمكن تفسير هذا السكوت الغريب بالنسبة إلى المدينة الثالثة في قدسيتها بالنسبة للإسلام؟! ثم يجيب سيفان: لا شك أن تقلبات الزمن تقدم لنا تفسيراً جزئياً، فالمدينة تعرضت للاحتلال على يد السلاجقة الذين انتزعوها من يد الفاطميين سنة 1071 للميلاد، وأعاد الفاطميون احتلالها سنة 1098 للميلاد، أما الاحتلال الصليبي الذي جاء بعد سنة من ذلك فقد اعتبر تغييراً جديداً للحكام. ويجزم سيفان أن الرأي العام الإسلامي ظلّ يبدي لا مبالاة إزاء مصير القدس على امتداد النصف الأول من القرن 12 ميلادي، ويدعي الكاتب أن من أسباب المكانة الضعيفة لفكرة قدسية القدس في أذهان المسلمين عامة، معارضة قسم كبير من رجال الدين والقضاء المسلمين، بشدة، المكانة المحترمة التي أعطاها الصوفيون للقدس. وباعتقاده، تكشفت القوة التي اكتسبتها فكرة القدس فقط في عهد الأيوبيين ورثة صلاح الدين، وتحولت الفكرة إلى قوة دافعة للأزمات الداخلية ضمن السلطنة[35].

ولكن د. سلوادي يؤكد أن حوادث العهد الصليبي الأيوبي عززت مكانة القدس، وأن ردود الفعل التي أعقبتها أثبتت أن للقدس مكانة لا تعادلها سوى مكانة مكة والمدينة. وتحدثت المصادر القديمة عن دعوة للجهاد ضدّ الصليبيين وتخليص القدس من أرجاسهم، ومنها وصف ابن كثير، وهو من المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة، لردود الأفعال، بقوله: "سنة 492هـ أخذت الإفرنج بيت المقدس، وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى الطرق مستغيثين على الإفرنج إلى الخليفة، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد". وهذا هو ما حدث بعد تسليم الملك الكامل المدينة المقدسة للصليبيين، وما أحدثه من دور هائل وصفه مجير الدين الحنبلي، بقوله: "إن المسلمين حين سمعوا بأنباء تسليم المدينة غضبوا واشتد بكاؤهم"[36].

كما عني المستشرقون اليهود بالبحث عن أي خبر أو إشارة تسعفهم في اختلاق دور تاريخي لليهود في التصدي للعدوان الصليبي، وتشكيل ذلك الدور وصياغته بطريقة توحي أنهم أصحاب الأرض، وأنهم تعرضوا للعدوان ودافعوا عن البلاد مثلما فعل العرب. فهم يتحدثون عادة عن اليهود الذين مكثوا في فلسطين دفاعاً عن مدنهم وقراهم التي هاجمها الصليبيون، ويركزون الحديث على مقاومة اليهود القاطنين في المقدس واستبسالهم في الدفاع عن المدينة[37]. وعلى سبيل المثال، جرى التوسع في الحديث عن

"الاستيطان اليهودي في القدس خلال الحملات الصليبية"، وتمّ التركيز على أن "اليهود كانوا بين المدافعين عن المدينة، وكان حي اليهود أحد الهدفين الأساسيين للهجوم الصليبي"[38]. لكن د. سلوادي يؤكد أن "اليهود في تلك الفترة لم يكونوا مؤهلين للقيام بدور المقاومة التي تحاول الدعاية الصهيونية اختلاقه لهم، لأنهم لم يكونوا يعيشون في كيان سياسي مستقل، ولم يكونوا يملكون الجيوش أو الوسيلة العسكرية التي تمكنهم من التصدي للعدوان الصليبي، ولم يشاركوا المسلمين عبء التصدي والمواجهة، بل هناك شواهد دالّة على تواطؤ العديد منهم مع القوات الطارئة"[39].

وزعم اليهود والمستشرقون أن القدس لم تكن سوى مدينة صغيرة معزولة ومهملة لم تشد إليها الأنظار، وذلك للتقليل من أهميتها الإسلامية من الجوانب السياسية والثقافية والديموغرافية. فكتب المستشرقان موشيه معوز وشلومو غويتاين أن القدس "لم تلعب في الإسلام دوراً مركزياً ثقافياً، بل كانت مدينة جانبية لا تأثير يذكر لها". وذهبت المستشرقة حافا لاتسروس يافيه، من الجامعة العبرية بالقدس، إلى أنه على الرغم من قدسية القدس في الإسلام، لكن لم تقطنها إلا أعداد قليلة نسبياً حتى نهاية القرن 19 ميلادي، وأنها لم تثر انتباه رجال الدين والسياسة العربية إلا في عشرينات القرن العشرين ميلادي بعد ظهور النزاع حول حائط المبكى. وأورد دروري أحد المستشرقين اليهود عبارة على لسان الرابي عوفاديا حين زار القدس سنة 1488 للميلاد، يقول فيها "إن القدس مدينة خربة مهجورة". وقد استشهد دروري بهذه العبارة بطريقة توحي أنها حقيقة مسلم بها. مع العلم بأن الفترة التي زار بها هذا الرابي القدس كانت المدينة تعج بالإنشاءات العمرانية كالمساجد والمدارس والزوايا والأربطة والمباني السكنية وشبكات المياه التي أقيمت بتوصية من سلطان المماليك قايتباي، والتي ما تزال حتى يومنا هذا شاهداً على المجهودات العمرانية الضخمة التي نهض بها المماليك في القدس الشريف[40].

وفي سياق الأحكام الجاهزة التي تنطوي عليها مقولات الاستشراق الصهيوني حول تاريخ القدس، يرى المستشرقون الصهاينة أن المصادر العربية الإسلامية بشأن القدس في الفترة الأولى التي تلت الفتح متناقضة متضاربة ومنمطة، أي أنها على شكل نماذج من القصص الشعبية التي أخذها الإسلام إما من الأديان الأخرى وخصوصاً اليهودية، أو تلك التي اتخذت شكل النمط والنموذج المشابه للأدبيات والأساطير الشعبية. وأن

القدس لم تتمتع بأية مكانة خاصة لا على المستوى الديني ولا على المستوى السياسي في العصور العربية الإسلامية الأولى، ولم تكتسب القدس مكانتها إلا بعد مضي قرون عديدة.

سادساً: تركيز صهيوني على هامشية القدس لدى المسلمين:

انتهج معظم الباحثين والمهتمين الصهاينة طرائق المستشرقين اليهود في ازدراء المكانة المركزية للقدس وتراثها الحضاري والثقافي لدى العرب والمسلمين، مع نفي أو تجاهل أي وجود عربي وإسلامي في القدس، مادياً وحضارياً وثقافياً، حتى ليقول أحد المفكرين الإسرائيليين البارزين إنه "لم يتكون أي شيء في هذه المدينة قبلنا ولا بعدنا، ومنذ أن تركناها لم يخرج منها أي دين أو نبوءة أو فكرة مثالية، وهذا برهان على انتمائنا لها وانتمائها إلينا، نحن الذين أوجدنا هذه المدينة والآخرون هم الذين دنسوها"[41]. وكان هناك من قال منهم مثلاً: "إن القدس لم تذكر أبداً بالقرآن، ولكن التاريخ الحديث ينسب أهمية بالغة للمسجد الأقصى بأنه القدس، حتى لو لم يكن هناك مسجد في القدس في ذلك الزمان، ولم تكن هناك أي قدسية خاصة للقدس قبل احتلالها، حتى القرن السابع، وهي لم تكن معروفة باسم الأقصى"[42].

سابعاً: هوية القدس وحضارتها وتراثها في مناهج التعليم الإسرائيلية:

انسجاماً مع التوجهات الصهيونية التقليدية، يصرّ واضعو المناهج والبرامج التعليمية الإسرائيلية على تقزيم الوجود الإسلامي والعربي في القدس، من خلال ما يدسونه من سموم داخل الكتب. وتركزت المنطلقات التي اعتمدوها في هذا المنحى على مجموعتين من المفاهيم والمصطلحات؛ إحداهما تتعلق باليهود، والأخرى تتعلق بالعرب والمسلمين. ويمكن إجمال ذلك بما يلي[43]:

1. تمثّل "أورشليم" رمز الاستعلاء والتفوق العرقي اليهودي على بقية الشعوب؛ لأنها تعدّ مَجْمَع صفوة الأمة اليهودية من أنبياء اليهود وملوكهم وقادتهم عبر

التاريخ، ولأن اليهود يرون في أنفسهم أنهم الشعب الذي انتقاه الله وجاء بهم وغرسهم في جبل ميراثه، حيث بنى فيها داود ملكه وبنى سليمان بيت الرب.

2. التنكر للوجود التاريخي العربي والإسلامي في المدينة المقدسة، واعتبارها مدينة يهودية خالصة يقترن وجودها التاريخي بوجود المؤسسات والمعابد والهياكل اليهودية، وأن الحضور التاريخي لليهود فيها لم ينقطع على الرغم مما تعرضت له من ترميم هدم، حيث لم تلبث هذه المعابد والقصور والهياكل اليهودية أن أعيدت لها أمجادها في مراحل متعددة في التاريخ، وخاصة بعد إعادة توحيد القدس وجعلها عاصمة أبدية لـ"دولة إسرائيل" الحديثة بعد عدوان حزيران/ يونيو 1967.

3. اعتبار الفتح العربي الإسلامي للمدينة المقدسة احتلالاً، وأن الخليفة عمر بن الخطاب قاد جيش المحتلين.

4. "أورشليم" قبلة أنظار اليهود وبؤرة تتجمع حولها اليهودية، وما المسيحية والإسلام سوى عقيدتين تأثرتا باليهودية التي تعتبر القدس محورها ومعقد رجائها.

5. اعتبار سائر المعابد والكنائس والمساجد في القدس أماكن أثرية يهودية أبدية بناها المسيحيون والمسلمون على أنقاضها، كما هو الحال بالنسبة للحرم القدسي الشريف الذي بُني كما يدَّعون على أنقاض هيكل سليمان في جبل الموريا، الذي اشتراه سيدنا إبراهيم وهيأه النبي داود فيما بعد ليكون مقراً في عاصمته "أورشليم".

6. وصف العرب أهالي مدينة القدس بأنهم مخربون ودخلاء، وأن عملية طرد الغزاة من الصليبيين، على يد القائد صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، جاءت بفعل أعمال تخريبية تدميرية قام بها الأيوبيون والمماليك المسلمون.

7. استغلال أي فرصة لزرع الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، بالادعاء أن القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي طرد غالبية المسيحيين من القدس بعد أن سيطر عليها سنة 1187 للميلاد وأعاد لها طابعها الإسلامي، في حين سمح لليهود بالعودة إلى القدس بعد أن حرمهم منها الصليبيون.

8. جاء احتلال القدس من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي سنة 1967 "نعمة" على أهلها، لأن القدس شهدت في عهد الاحتلال سائر مظاهر التقدم والتطور الحضاري الذي تتبناه الصهيونية دائماً، كما جاء هذا الاحتلال لتخليص القدس من "العبث والتخريب العربي" حين كانت خاضعة للسلطة العربية.
9. اعتبار العرب الفلسطينيين في القدس مجرد طوائف منقسمة على نفسها، وكأنها لا تنتمي إلى شعب واحد، فالمسلمون مقسمون إلى اتجاهات ومذاهب، والمسيحيون إلى طوائف وجماعات.
10. الإيحاء بتواصل الوجود اليهودي الديموغرافي في القدس، حيث تغلّب دائماً العنصر اليهودي على العنصر العربي سكانياً.
11. الدعوة الدائمة إلى تطويق القدس بالمستوطنات اليهودية لضمان السيطرة اليهودية الدائمة على مدينة القدس وضواحيها.

يتمّ تشريب المنطلقات التربوية الصهيونية التي مرّ ذكرها، حول القدس وتاريخها وتراثها الثقافي، بصورة تفصيلية، ضمن العديد من الكتب التعليمية الإسرائيلية عن القدس والضفة الغربية، وفيما يلي بعض الحالات الدراسية:

1. كتاب "يروشلايم يهودا فشومرون"، تأليف اليعيزر فيتكين:

صدر هذا الكتاب سنة 1984، عن قسم المناهج الدراسية في وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية. وسار المؤلف فيتكين، من خلال اختيار اسم الكتاب، على النهج ذاته الذي يتبعه المؤلفون اليهود للكتب الدراسية التعليمية المقررة، من حيث التنكر للوجود التاريخي العربي الإسلامي. وتدرّج المؤلف في تسلسله التاريخي للوصول بالطالب إلى محصلته الأخيرة وهي ديمومة الوجود اليهودي واستمراره وتواصله على أرض فلسطين، وقد تناسى المؤلف في أثناء طرحه "المادة العلمية" الحقب التاريخية العربية الكنعانية واليبوسية في هذه المدينة، منذ 3500ق.م وحتى القرن 13ق.م، بالنسبة للتاريخ الفلسطيني القديم في هذه المنطقة. وهذه مقتطفات مما ورد في هذا الكتاب تتعلق بموضوع البحث[44]:

- "إن جعل أورشليم عاصمة لإسرائيل لا يعزى إلى قوة الإعلان عن مركزها ومكانتها، بل بسبب تاريخ اليهود التراثي فيها".

- "احتلال العرب المسلمين أرض إسرائيل تمّ في 638 للميلاد. فبسطوا نفوذهم على أورشليم وطبعوها بطابعهم. والخليفة عمر بن الخطاب كان قائداً لجيش المحتلين، وبعد أن استتب الحكم للعرب، قام المسلمون بتنظيف موقع الهيكل المقدس الذي كان مغطى بالزبالة والقاذورات ليقيموا فيه مبناهم الرائع قبة الصخرة والمسجد الكبير".
- "يرى بعضهم أن الآثار والمواقع العربية والإسلامية التاريخية لم تكن أصيلة ذات جذور تاريخية، إنما أقيمت على أنقاض الآثار والمواقع اليهودية والرومانية القديمة كالمسجد والآثار التي اكتشفت عند الحائط الغربي الجنوبي في جوار المسجد الأقصى".
- أورد المؤلف صورة الصخرة المشرفة المقامة، حسبما يقول، في منطقة الهيكل المقدس، أما الصخرة فكان يطلق عليها حجر الأساس (حجر الزاوية) كما ورد في تقاليد "إسرائيل"، حسب أقوال النبي حزقيال Ezekiel. وأراد المؤلف البرهنة على أن قدسية القدس "أورشليم" مردها النظرة اليهودية القدسية لهذه المدينة وليس للعرب المسلمين بقوله: "إن المسلمين، حسب تقليدهم الإسلامي، هم فقط الأحفاد الحقيقيون لإبراهيم، وإن الصخرة نسبت إلى مكان المذبح الذي عليه ربط إبراهيم إسحاق، لذلك أقام المسلمون هناك بناءهم الضخم الذي يعدّ استمراراً لهيكل سليمان، ويرمز البناء إلى انتصار الإسلام على الأديان والمعتقدات الأخرى".
- لم يخصص المؤلف سوى خمس صفحات (42-46) للحديث عن التاريخ العربي والعربي الإسلامي في القدس، إذ اقتصر حديثه على أن الآثار والمواقع العربية والإسلامية التاريخية لم تكن أصيلة ذات جذور تاريخية، إنما أقيمت على أنقاض الآثار والمواقع اليهودية والرومانية القديمة كالمسجد والآثار التي اكتشفت عند الحائط الجنوبي في جوار المسجد الأقصى، حيث اكتشفت آثار لقصر أحد ملوك بني أمية.
- أفرد المؤلف أربعة فصول كاملة للحديث عن المستوطنات الصهيونية في ضواحي القدس العربية المحتلة والضفة الغربية.

2. "يروشلايم يهودا فشومرون"، تأليف رنا هفرون:

صدر هذا الكتاب سنة 1983، عن مؤسسة عام عوفيد في تل أبيب، وفق منهاج التعليم الجديد لوزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية. وفيه تركز المؤلفة على "أورشليم"، عبر التعرف على البنية العمرانية وتطورها التاريخي، في ضوء المخططات الهندسية اليهودية، باعتبارها "عاصمة إسرائيل الأبدية". والتركيز على ما يعدّ تواصلاً تاريخياً لليهود في أرض فلسطين وخاصة في القدس، للتدليل على التاريخ الطويل المقدس لليهود، المعبر عنهم بهيكلهم وآثارهم الماثلة للعيان والتي من أهمها حائط المبكى. وتقول: أما المسلمون فقد بنوا على جبل الهيكل المقدس المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة[45].

3. كتاب "دروس في التاريخ":

صدر هذا الكتاب سنة 1987 عن مؤسسة فلن – معلوت للنشر، وهو مخصص للتاريخ القديم والوسيط ومقرر للمرحلة الثانوية، ويدرّس في المدارس الرسمية الحكومية، ويعدّ من الكتب المدرسية المطوّرة. ويتضمن الكتاب محاولات كثيرة للتشويه والتحريف في التاريخ الإسلامي والعربي، مثل الإيحاء بأن الإسلام في معتقداته متقلب سياسياً لا يستقر على أصول وثوابت، فقد ورد فيه أن أسباب بناء مسجد قبة الصخرة منع المسلمين من الهجرة والحج إلى مكة، حيث يمكن للناس الطواف حول قبة الصخرة بدل الطواف حول الكعبة المشرفة، وتحويل الناس عن تأثرهم بروعة بناء كنيسة القبر المقدس. ووصف الكتاب "الإسراء والمعراج"، إحدى العقائد الإسلامية البارزة، بالحكاية أو الأسطورة[46].

4. كتاب "وقائع تاريخ شعب إسرائيل"، تأليف ب. أحيا وم. هرباز:

صدر هذا الكتاب سنة 1972، عن مركز المناهج التعليمية في وزارة المعارف الإسرائيلية، وهو مقرر لدراسة "تاريخ شعب إسرائيل" للصف السابع الأساسي. وقد ورد فيه مثلاً أنه حتى "يضمن محمد عدم معاداة اليهود له، وقّع معهم اتفاقية تقضي بأن يتوجه المسلمون في صلاتهم نحو مدينة القدس، ولكن عندما ساءت العلاقة بين محمد واليهود أجبر رجاله بأن يتخذوا الكعبة قبلة لهم في الصلاة بدل مدينة القدس". ويحاول الكتاب أن يبين أن اليهود ساعدوا العرب أثناء الفتح الإسلامي لفلسطين، مدعياً بأنهم فرحوا بمجيء المسلمين، خاصة أنهم كانوا يكرهون خيانة القيصر الروماني هرقل Hercules وغدره ومطاردته المستمرة لهم، وأنه بمجرد دخول المسلمين إلى القدس شرع اليهود

بإرشاد القواد المسلمين إلى أماكن وجود القوات الرومانية وتمركزها، والسبل التي توصل إلى تجمع القوات البيزنطية. ويورد الكتاب أن "الخليفة عمر بن الخطاب كان قد عيّن عدداً من اليهود في وظائف مختلفة"، وأنه مكافأة لهم على مساعدتهم ووقوفهم مع العرب خلال الفتح الإسلامي سمح الخليفة عمر بن الخطاب لسبعين عائلة يهودية أن تسكن في مدينة القدس. ولكن لدى مطالعة نصّ العهدة العمرية لأهل القدس (للبطريرك صفرونيوس) نجد أنها لم تخلُ من ذكر إسكان سبعين عائلة يهودية في مدينة القدس فحسب، بل على العكس أجابت العهدة صفرونيوس إلى طلبه فمنعت سكنى اليهود في القدس[47].

ثامناً: الإجراءات الإسرائيلية لتغيير مكانة القدس:

اعتمدت "إسرائيل" سياسة الخطوات التدريجية المتتابعة في السيطرة على القدس، وتدمير تراثها الحضاري والثقافي، استكمالاً للواقع الاستيطاني اليهودي الذي فرضته الصهيونية حتى سنة 1948، خارج أسوار القدس، في المنطقة التي سميت القدس الغربية، وضمّ الشطر الغربي للمدينة رسمياً سنة 1950، بعد اتفاقية الهدنة الإسرائيلية – الأردنية سنة 1949. وتطلعت "إسرائيل" إلى التهام منطقة القدس بكاملها، إلى أن انتقلت عملية احتلال القدس إلى مرحلة جديدة، بعد حرب حزيران/ يونيو 1967. ففي هذه المرحلة اتخذت "إسرائيل" العديد من الخطوات السياسية الرامية لضم القدس الشرقية المحتلة، عبر الاعتداء على هويتها وجغرافيتها وتاريخها، ومن أبرزها:

1. أقر الكنيست في 1967/6/27 تعديلاً لقانون القضاء والإدارة الإسرائيلية بإدخال فقرة فيه تتضمن سريان هذا القانون على "كل منطقة من أرض إسرائيل تحددها الحكومة بموجب أمر". كما أقر الكنيست في التاريخ ذاته والجلسة ذاتها تعديلاً لقانون البلديات الانتدابي الصادر سنة 1934 ويتضمن التعديل إدخال فقرتين على هذا القانون؛ تنصّ الأولى على أنه يحقّ لوزير الداخلية، بناء على رأيه الخاص، توسيع حدود بلدية ما بإعلان إدخال منطقة محددة في قانون القضاء والإدارة، وتتضمن الثانية أنه حيثما وسع وزير الداخلية منطقة بلدية ما، من حقه أن يعين أعضاء إضافيين من سكان المنطقة المضمومة[48].

2. أصدر وزير الداخلية الإسرائيلي في 1967/6/28 أمراً إلى رئيس بلدية القدس المحتلة بتوسيع مجال بلدية القدس، بحيث يضم منطقة تنظيم أمانة القدس التي وقعت تحت الحكم الأردني[49]. وفي اليوم التالي أصدرت سلطات الاحتلال أمراً يقضي بحلّ مجلس أمانة القدس، ومصادرة أملاكه[50]. وتمّ إبعاد أمين القدس إلى عمّان، وأصبحت الأراضي بحوزة الحارس الإسرائيلي لأملاك الغائبين واعتبرت أملاك دولة، وتمّ إلغاء القوانين الأردنية ووضعت بدلاً منها تشريعات وقوانين إسرائيلية[51].

3. صدر في تموز/ يوليو 1967 أمر حكومي يحدد "أورشليم مدينة واحدة، غير قابلة للتقسيم، وهي عاصمة دولة إسرائيل". وأقر الكنيست في 1980/7/30 قانوناً يذكر أن "أورشليم الكاملة الموحدة هي عاصمة إسرائيل، ويكون فيها مقر رئيس الدولة والكنيست والحكومة والمحكمة العليا"[52].

4. نفّذت سلطات الاحتلال الإسرائيلي عمليات متعددة لتهويد القضاء النظامي والشرعي الإسلامي، فأغلقت جميع المحاكم النظامية في المدينة، ونقلت مقر محكمة الاستئناف العليا من القدس إلى مدينة رام الله، ودمجت محاكم البداية والصلح في القدس بالمحاكم الإسرائيلية المماثلة القائمة بالجزء المحتل سابقاً من المدينة، ونقلت إليها جميع سجلاتها وأثاثها، وطلبت من القضاة والموظفين الفلسطينيين تقديم طلبات للالتحاق بوزارة العدل الإسرائيلية، وفصلت القضاء النظامي القائم بالقدس عن شؤون الضفة الغربية وألحقته كلياً بالقضاء الإسرائيلي. وشمل التجاهل لقرارات المحاكم الإسلامية وأعمالها عدم الاعتراف بشهادات الزواج والطلاق والإرث والوصاية والوقف وغيرها، مما له علاقة بالأحوال الشخصية اليومية للسكان[53].

5. في مجال تهويد التعليم العربي، قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي، منذ أيام الاحتلال الأولى، بوضع أيديها على جميع المدارس الحكومية ومكاتب مدير التعليم الأردني في المدينة، وأعلنت أن عملها هو إخضاع التعليم في جميع المدارس الحكومية لبرامج التعليم التي تطبقها على المدارس الفلسطينية في المناطق المحتلة منذ 1948. كما أعلنت في الوقت ذاته إلغاء برامج التعليم الأردنية وجميع الكتب المدرسية الخاصة بها، وطلبت من مدير التعليم الأردني وموظفي مكتبه، وجميع

مديري مدارس القدس ومديراتها ومعلميها ومعلماتها، الالتحاق بأجهزة التعليم الإسرائيلية الخاضعة لوزارة المعارف ولبلدية القسم المحتل سابقاً من المدينة. وكان في القدس عند الاحتلال الإسرائيلي ثلاثون مدرسة حكومية عربية، منها 18 للبنين، و12 للبنات، فضلاً عن 14 مدرسة طائفية وأهلية. وقد قامت سلطات الاحتلال العسكري الإسرائيلي بهدم مدرسة "بنات الأقصى" الواقعة في حي المغاربة، كما قامت بتطويق المدرسة الصناعية الثانوية التابعة للجنة اليتيم العربي، الواقعة قرب مطار القدس، بالمصانع من جهاتها الأربعة، وأغلقت الطريق الموصلة إليها، وفجرت الألغام حولها وألحقت بها تصدعات، بقصد الضغط على إدارتها وإرغامها على التنازل عنها ومبادلتها. وسنّت سلطات الاحتلال "قانون الإشراف على المدارس" لسنة 1969، وكان بمجمله حلقة جديدة من حلقات التهويد الإسرائيلية للقدس. وكانت برامج التعليم الإسرائيلي تستبعد كل ما ينمّي روح الانتماء للحضارة الإسلامية، وتستدرج الطلاب، وبخاصة الجيل الجديد منهم، إلى الابتعاد عن ثقافتهم وقيمهم الإسلامية، بهدف محو شخصيتهم وهويتهم الأصلية، وعندها يسهل صهرهم كلياً في بوتقة الشخصية اليهودية الإسرائيلية[54].

6. نظمت سلطات الاحتلال احتفالات ومهرجانات وعروضاً ثقافية وفنية تحت شعار "أورشليم – 3000 عام" ابتدأت أواخر سنة 1995 حتى نهاية سنة 1996، في مسعى واضح لإنكار الأصل العربي والطبيعة العربية الإسلامية لحضارتها، والزعم بأن المدينة أسست كعاصمة لليهود على يد الملك داود.

7. بذلت "إسرائيل" جهوداً مستميتة، أواخر سنة 2000، لتسجيل ما يسمى جبل داود (جبل صهيون) كمكان أثري يهودي في اليونسكو، واتخذت اليونسكو في حزيران/ يونيو 2001 قراراً بعدم الموافقة على هذا التسجيل، بفعل التحرك العربي، وتمّ فصل الأسترالي الذي ضلّل أمين عام منظمة اليونسكو في الموضوع[55].

8. بعد إخفاق محاولات التوصل إلى تسوية مع السلطة الفلسطينية حول القدس وسواها في كامب ديفيد Camp David وطابا Taba، أقر الكنيست "قانون أساس القدس" بالقراءة الثالثة وبأغلبية 84 عضواً ومعارضة 19 عضواً، وينصّ هذا القانون على أنه "لن تنقل لأي جهة خارجية ذات طابع سياسي سلطوي، أو إلى

أي جهة خارجية شبيهة بذلك، سواء بشكل دائم أم لفترة محدودة، أي صلاحية تتعلق بمجال القدس"[56]. والمعنى العملي لذلك، هو أن كل حكومة توافق على نقل مناطق تابعة للقدس، مثل العيزرية وأبو ديس وغيرهما إلى السلطة الفلسطينية ستكون بحاجة إلى أغلبية 61 عضو كنيست على الأقل، من أجل إلغاء بنود في القانون المذكور.

9. بدأت الحكومة الإسرائيلية، منذ أواخر 2007، بتسجيل عقارات في البلدة القديمة في القدس المحتلة في سجلات الطابو، مرسّخة بذلك ملكية يهودية لعدة عقارات من الناحية القانونية الفعلية. وبحسب معطيات معهد القدس للدراسات الإسرائيلية تبلغ مساحة الحي اليهودي حوالي 133 دونماً، ويشكل 15% من مساحة البلدة القديمة، كذلك "تمتلك"؟! "إسرائيل" أربعين دونماً أخرى في البلدة القديمة وتقع خارج الحي اليهودي. وخلال الأعوام الماضية اشترت الجمعيات الاستيطانية اليهودية أراضٍ في البلدة القديمة، بينها أراضٍ تقع خارج الحي اليهودي أيضاً، وخصوصاً في الحي الإسلامي[57].

ضمن هذه الوقائع وسواها، يرى المفهوم الإسرائيلي في القدس "ضرورة جيوسياسية لإسرائيل"، حسب شاؤول كوهين Shaul Cohen، الأستاذ في جامعة كلارك الأمريكية، لكن الإسرائيليين يلاحظون أنه يتطور في المدينة نظام جيوسياسي مزدوج، ذو نوعين أو طرازين؛ فمن جانب ثمة نظام فرعي للنظام الجيوسياسي الإسرائيلي العام، ومن الجانب الآخر ثمة نظام خاص بنوعه يربط بين "إسرائيل" والضفة الغربية[58]. وفي ظلّ خصوصية النظام الثاني، الذي يرتبط بتحديات التهويد، يكتسب كل رمز فلسطيني (عربي أو إسلامي) في القدس الشرقية قدراً فائق الأهمية. ويصير مجرد وجود أي مؤسسة وطنية فلسطينية أو أي نشاط فلسطيني هناك في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمثابة قوة ضاغطة باتجاه تقرير مصير القدس، خلافاً للتوجهات الإسرائيلية. وهو ما يفسّر بعض أوجه السعي الإسرائيلي المحموم لتعطيل هذه القوة، عبر حظر المؤسسات التابعة للسلطة الفلسطينية في القدس الشرقية، واستخدام شتى وسائل التضييق على المواطنين العرب ضمن هذه المدينة وهيئاتهم وفعالياتهم.

تاسعاً: المعالم العربية والإسلامية بين التدمير والطمس والتهويد:

اتخذت سلطات الاحتلال العديد من الإجراءات الرامية إلى إزالة المعالم الحضارية والثقافية والدينية الخاصة بالعرب والمسلمين في القدس، أو طمسها وتهويدها، مثل تدمير حي المغاربة في 1967/6/10 وترحيل أهله، وإزالة مسجد حي الشرف، وتحويل مسجد النبي داود إلى كنيس، وإزالة الكتابات القرآنية والزخارف وسرقة التحف الفنية والأثرية التي كانت موجودة فيه، وتحويل جزء من مسجد النبي صموئيل شمال غرب القدس إلى كنيس. ولجأت سلطات الاحتلال كذلك إلى طمس مقابر المسلمين وإزالة عظامهم، كما جرى لمقبرة باب الرحمة "الأسباط"، حيث أتت حفريات الجرافات الصهيونية على مئات القبور وتبعثرت عظام الموتى بحجة التطوير والأعمار، وكذلك ما حدث في مقبرة مأمن الله العريقة، حيث سيطر اليهود على هذه المقبرة وتوقفت عملية دفن الموتى، وتناقصت مساحتها التي لم يتبقَ منها سوى 19 دونماً بعد أن كانت 136 دونماً، وهي تستخدم اليوم كمقر رئيسي لوزارة التجارة والصناعة الصهيونية[59]. ويجري العمل حالياً على إقامة ما يسمى "متحف التسامح" على جزء كبير من هذه المقبرة.

وقامت سلطات الاحتلال بإزالة آثار القرى العربية المقدسية وطمسها، واستخدام حجارتها في بناء المستوطنات اليهودية، وكل من يسير في قرى القدس من المصرارة وباب العمود حتى المالحة ومستشفى هداسا، يرى بشكل واضح أن أجزاء الكثير من الأسوار بنيت من حجارة القرى العربية، حيث نجد ذلك في مساحات الجامعة العبرية ومستشفى هداسا ومنطقة محنيه يهودا والمالحة وغيرها، إذ تتجنب بلدية القدس الصهيونية أحياناً البناء بالإسمنت المسلح لأسباب جمالية، ولكي يخيل للزائر أن هذا السور بُني قبل مئات السنين، ولكي يعملوا على إعادة استخدام هذه الآثار في تركيب تاريخ يهودي مزور. وامتدت عمليات السرقة والتخريب الصهيونية للآثار لتبيد مناطق بأكملها، كما هو الحال في قرية طليلية الواقعة بين بيت إكسا وبيت حنينا، حيث أقيمت عليها مستوطنة راموت Ramot إلى الشمال من القدس، كما بنيت مستوطنة جفعات زئيف Givat Ze'ev إلى الشمال من قرية الجيب على أنقاض عدد من الخرب، وتمّ كذلك تدمير خربة عين الدوير على أراضي الجيب وبيتونيا لتوسيع جفعات زئيف، وتعدّ قرية الجيب من

أغنى مناطق القدس في موجوداتها الأثرية وقيمتها العلمية، فهي تحتوي على آبار ومدرجات وعيون محفورة بالصخر وأقبية وأواني فخارية وأدوات صناعة الزيت والعنب، وقد تعرض هذا الموقع لسرقة وإهمال وعبث خطير[60].

وفي مجال الدعاية الصهيونية، يقوم أدلاء السياحة اليهود بدور تضليلي سافر، مشبع بالتزييف والتزوير، خلال إرشادهم السائحين عن القدس، فهي حسبما يدَّعون "مدينة ديفيد وشلومو"!!، والعرب "احتلوها" وبنوا مقدساتهم على أنقاض كُنس اليهود ومقابرهم ومنازلهم، وهو ما يترك آثاراً خطيرة ضدّ كل ما هو عربي إسلامي في المدينة المقدسة[61].

عاشراً: تهويد الأسماء العربية الإسلامية المقدسية وتزويرها وطمسها:

تعبيراً عن الإدراك الإسرائيلي التام لأهمية التسمية ودلالتها الخاصة بمعالم فلسطين، حرصت "اللجنة الحكومية للأسماء" على إشراك العديد من المؤسسات والهيئات والفعاليات الإسرائيلية في عملية التسمية. وكان ما يخص القدس لا يخرج عن هذا السياق، وقد روعي في عملية التسمية عدد من الاعتبارات، تتعلق بالتاريخ المزعوم أو المتصوّر وبالقراءة المقولَبة أو التحريفية لمعطيات علم الآثار والتنقيبات القديمة والجديدة، كما تتعلق بدواعٍ اجتماعية وسياسية وجغرافية، بطريقة تتضح فيها عملية استبعاد الأسماء العربية شكلاً ومضموناً. وقد توزّعت التسميات الصهيونية للمعالم الفلسطينية، والمقدسية ضمناً، وفق أنماط متعددة؛ تناخية وتلمودية ورموز صهيونية ومحرّفة عن العربية ومترجمة إلى العبرية وحسب طبيعة المكان وحاخامات وأدباء وزعماء إسرائيليين أو أجانب[62].

وغنيّ عن البيان أن لكل اسم من الأسماء العربية والإسلامية المستبدلة دلالة وتاريخاً، ترتبط كلها بتاريخ العرب والإسلام في القدس، وأن إزالة هذه الأسماء تعتبر إزالة للدلائل وللتاريخ العربي والإسلامي، كما تعتبر جريمة واعتداء بالغين على حضارة القدس وتاريخ وثقافتها. ويوضح الجدول التالي عدداً من الأسماء المهوّدة في القدس القديمة[63]:

جدول 8/1: نموذج لبعض الأسماء العربية التي يتم تهويدها في القدس

الاسم العبري	الاسم العربي	الموقع
شاعر هأريوت (أي الأسود)	باب الأسباط	وسط السور الشرقي للمدينة
شاعر هزهاف (أي الذهبي)	باب الرحمة	وسط السور الشرقي للمدينة
شاعر هحداش (أي الجديد)	باب الجديد	عند الزاوية الشمالية الغربية للسور
شاعر يافو	باب الخليل	وسط السور الغربي للمدينة
شاعر هيرودوت	باب الساهرة (الزهور)	وسط السور الشمالي
شاعر تسيون	باب النبي داود	في الجزء الجنوبي الغربي للسور
شاعر شخيم (أي نابلس)	باب العمود (باب دمشق)	السور الشمالي لمدينة القدس القديمة.
هكوتل همعرافي	حائط البراق	الجزء الجنوبي من السور الغربي للحرم القدسي
شارع المظليين	طريق سليمان (القانوني، باني سور القدس)	خارج السور، من باب العمود حتى ساحة اللنبي غرباً
جبعات همفتار	تل الشرفة أو المشارف	خارج السور، ويضم القسم الغربي من هضبة الشيخ جراح
رحوب بيتي محسي	باب المغاربة	داخل السور
رحوب هكاي	طريق الواد	داخل السور، من باب العمود حتى ملتقى شارع باب السلسلة
عقبة يهودا هاليفي	عقبة أبو مدين الغوث	بين حائط البراق والحي اليهودي
مشجاف لداخ	حارة الشرف	داخل السور
حباد	سوق الحصر	داخل السور
حيفر حاييم	عقبة درويش	داخل السور
سوليه هالكوت	عقبة غنيم	داخل السور
هآحيم	طريق الفرير	داخل السور
دير شاعر هيرؤت	طريق المجاهدين	داخل السور
هار أوفل	جبل المكبر	خارج السور
هار هتسوفيم	جبل المشارف (سكوبس)	خارج السور
ميدان عودة صهيون	ساحة باب الخليل	خارج السور

أحد عشر: السياسة الإسرائيلية إزاء الحرم القدسي:

منذ البدايات الأولى للاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية، خضع الحرم القدسي في المدينة القديمة إلى حالة سميت تالياً "الحالة الراهنة أو الوضع القائم" Status Que. وفي السنوات اللاحقة، قامت الترتيبات، الإدارية (الوظيفية) على السماح للمسلمين بإدارة شؤون الحرم والزوايا والتكايا والمقامات التابعة للأوقاف الإسلامية، ولوحظ أن هذه الترتيبات لم تكن تعاني قصوراً ذاتياً، وإنما كانت عرضة للقيود والضغوط والإرغامات الإسرائيلية.

ولاعتبارات سياسية وعملية بالدرجة الأولى، تحاشت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة وضع الحرم القدسي في مركز الصراع مع المسلمين، بانتظار استكمال الظروف المناسبة للانقضاض عليه وبناء ما يسمى "الهيكل الثالث" المزعوم هناك[64]. لذا، حظرت تلك الحكومات على اليهود تأدية الصلاة الجماعية في الحرم، بينما سمحت المحكمة الإسرائيلية العليا لأي فرد يهودي تأدية صلاة صامتة فيه دون استفزاز لمشاعر المسلمين[65].

كانت مسألة الإدارة الفلسطينية للحرم، وما تزال، تواجه رفضاً واضحاً، من قبل المؤسسات الحاخامية الإسرائيلية، ولم يسبق لمجلس الحاخامية أن اعترف بهذه الإدارة. وفي صيف سنة 2000، بحث المجلس طلبات تليين الموقف الديني اليهودي الذي يحظر دخول يهود إلى الحرم في الوضع الراهن، لكنه أحجم عن تقديم رأي محدد بهذا الشأن، وشدد في المقابل على أن "جبل البيت هو من أكثر المواقع المقدسة بالنسبة للشعب اليهودي على الأرض"[66].

وبعد اندلاع انتفاضة الأقصى، أخذت الأوساط الإسرائيلية تتحدث عن استغلال الظروف لإجراء تغييرات في الحالة الإدارية الراهنة للحرم القدسي، وكمثال دعا الرئيس الإسرائيلي موشيه كتساف Moshe Katsav إلى تطبيق ترتيبات جديدة في الحرم القدسي على غرار الترتيبات التي فرضتها "إسرائيل" في الحرم الإبراهيمي بالخليل، أي تقاسم المكان، وتنسيق توقيت صلاة المسلمين واليهود فيه[67]. وظهرت دعوات لمسؤولين إسرائيليين لإنشاء منطقة عازلة داخل الحرم، مقابل حائط البراق، يحظر على أي شخص دخولها، بحجة القضاء على ظاهرة قذف الحجارة من هناك على اليهود الموجودين في ساحة المبكى، ودرست المحكمة الإسرائيلية العليا مسألة إغلاق الحرم القدسي أمام المسلمين[68].

وفي الوقت ذاته قررت المحكمة السماح للجماعة اليهودية المتطرفة المسماة "أمناء جبل البيت" بوضع حجر الأساس للهيكل بالقرب من السور الجنوبي للحرم على بعد خمسين متراً من باب المغاربة، في خطوة رمزية، يجدد اليهود من خلالها إصرارهم على إقامة معبد يهودي في الحرم القدسي[69]. والملاحظ أن هذه الجماعة تقوم سنوياً بتقريب موقع حجر الأساس نحو الحرم، في محاولة لجعل هدفهم النهائي في متناول اليد.

وحيال الردّ الإسلامي العنيف الذي قوبلت به الخطوة الجديدة، ركّز الحاخام الشرقي الأكبر في حينه، الياهو بكشي دورون على "أن الشعب الإسرائيلي لم يوقف ولو ليوم واحد صلواته من أجل إعادة بناء بيت المقدس، والعودة إلى عبادة الله فيه، وأن أنبياء بني إسرائيل قدموا هذا الوعد. إلا أنه حسب العقيدة اليهودية قد ينفذ الوعد بعد انتهاء الحرب وسيادة السلام، وأن الله وحده سيختار المكان والزمان المناسبين لتنفيذه"[70].

اثنا عشر: الحفريات الإسرائيلية كوسيلة لاستبدال هوية القدس:

على خلفية السعي إلى وضع "تاريخ يهودي" للقدس، جرى البحث عن أدلة مادية تستخدم في تغيير معالم المدينة وتاريخها وتراثها الثقافي، وكان مصطلح "جغرافية القدس المقدسة" هو منهج "شركة تطوير القدس الشرقية" الذي طرحته "إسرائيل"، كي يكون طعماً لجمع العامة حول هذه الفكرة المهمة لليهود، عن طريق استثمار ميثولوجياتهم الدينية التي جمعها أحبارهم وسجلوها في العهد القديم[71]. ولم يبقَ موقع في المدينة إلا وتعرض للحفريات الإسرائيلية، التي أجري بعضها بهدف إضعاف البنية التحتية للأبنية والمساكن والمقدسات الإسلامية، وهو ما أدى إلى إصابتها بأضرار خطيرة، إضافة إلى وجود مئات من المنازل التي سقطت أرضياتها وتصدعت جدرانها، بينما تمنع سلطات الاحتلال أي ترميم فيها[72].

وكان لمنطقة الحرم القدسي النصيب الأكبر من عمليات التنقيب والحفريات الصهيونية، توافقاً مع الإنكار الصريح لهوية الحرم القدسي. ويمكن تحديد العديد من الاعتبارات الصهيونية الخاصة، التي تمّ الاستناد إليها في هذه العمليات، وفق المنحيين الرئيسيين التاليين[73]:

1. **المنحى الأيديولوجي والسياسي:** يتمّ البحث عما يسمى "بقايا الهيكل"، بغرض توثيق ارتباط اليهود بالقدس وفلسطين. لذا، يشكل إثبات وجود الهيكل مركز الاستقطاب الذي يجمع حوله التبريرات الصهيونية لقيام دولة اليهود، وفي معرض السعي إلى توحيد العقل والشعور الجمعي اليهودي تجاه المكان، يكتسي البحث عن بقايا الهيكل لدى اليهود والصهيونيين طابع القداسة، ويتمّ إبراز الحفريات للعثور على تلك البقايا بأنها أعمال لامتلاك كنز أثري لا تضاهيه، بالنسبة لهم، أي لُقَىً أثرية مهما عظمت أهميتها[74].

2. **المنحى النفعي:** تتطلع "إسرائيل" إلى توظيف الحفريات حول الحرم القدسي في اتجاهين رئيسيين؛ أولهما إلغاء الوجود العربي والإسلامي في القدس، عبر إزالة المباني والمعالم التاريخية ذات المحتوى الروحي والثقافي بالنسبة للعرب والمسلمين. وثانيهما إيجاد قوة جذب مادية لتوجيه الزوار من "إسرائيل" ودول العالم إلى المكان، لمشاهدة "آثار الماضي اليهودي". والمقصود هنا، في الواقع، آثار أعطيت شهادة ميلاد جديدة مزوَّرة، دون أي اكتراث بثوابت التاريخ، ودون أي احترام لهويتها الأصلية.

لم تكن أعمال الحفريات والتدخلات في تاريخ المنطقة وليدة السنوات التي أعقبت احتلال القدس الشرقية في حزيران/ يونيو 1967، وإنما جاءت تطبيقاً لفكرة نشأت منذ السنوات الأولى لظهور الحركة الصهيونية. وكثيراً ما كان التعبير عن هذه الفكرة يرد في تصريحات الزعماء الصهاينة تحت ستار معرفة التاريخ الحقيقي لتلك المنطقة، بيد أن تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية الأول، كان واضحاً تماماً في بيان الهدف الحقيقي المخطط له، بقوله: "إذا حصلنا يوماً على القدس، وبقيت حياً وقادراً على القيام بأي شيء، فسوف أزيل كل شيء ليس مقدساً فيها [يعني ليس مقدساً لدى اليهود] وسوف أحرق الآثار التي مرت عليها قرون". وبعد أكثر من ثلاث سنوات على احتلال القدس الشرقية، صرح زيرح فارهفيك، وزير الأديان الإسرائيلي، أن وزارته تسعى بواسطة عمليات الحفريات التي تجريها إلى "الكشف الكامل عن حائط المبكى، بهدف إعادة هذه الدرة الثمينة إلى سابق عهدها". ووصف تلك الحفريات بأنها "عمليات تاريخية ومقدسة، غايتها الكشف عن الحائط، وهدم وإزالة المباني الملاصقة له، رغم العقبات التي كانت تقف في الطريق"[75].

وفي سنة 1971 قال موشيه ديان Moshe Dayan، وزير الحرب الإسرائيلي "يجب العمل على كشف وإعادة ترميم كل ما يتعلق بأيام الهيكل الثاني، وأفضّل أن أرى السور كما كان في عهد الهيكل الثاني، ويمكن تصوير بقية الآثار وتخليدها وإزالتها، لأنها تخفي وتمنع عنا رؤية الصورة الكاملة كما كانت في حينها"[76] على حد زعمه.

وبالإضافة إلى ذلك، تعدُّ الأنفاق والقنوات التي تشقها أو تعبث بها سلطات الاحتلال في القدس القديمة إحدى الوسائل الرامية إلى إعادة كتابة تاريخ هذه المدينة بالمفاهيم والمصطلحات اليهودية (الصهيونية)، وإلى إيجاد متغيرات جديدة من شأنها أن تزيد المؤثرات السلبية على أساسات الحرم القدسي والمباني المجاورة له، بهدف الإسراع بتهويد القدس.

وفي الممارسة العلمية، لم يكتفِ القائمون بالحفريات الإسرائيلية بالتحيّز وغياب الموضوعية في دراسة الآثار المكتشفة، بل أدّوا أعمالاً تخريبية بحقّ الأمكنة المدروسة. ويمكن تلخيص محتوى النهج اللاموضوعي والتدميري، الذي اعتمده المنقبون الإسرائيليون إزاء حضارة القدس وتاريخها وتراثها الثقافي، بالنقاط الرئيسة التالية:

1. الاستناد إلى المرويات التناخية والمؤلفات اليهودية بشأن تاريخ القدس، فمثلاً يؤكد بنيامين مازار في دراساته المنشورة أن أخبار الهيكل وردت في كتب التناخ والمشنا (متن التلمود) Mishnah وكتاب "حرب اليهود" لصاحبه يوسيفوس فلافيوس Josephus Flavius (37-100) للميلاد. ومع أن مازار يشير إلى أن الحفريات الإسرائيلية وصلت إلى الأساس الصخري للقدس القديمة، ولم تعثر على أي دليل مادي حول وجود الهيكل اليهودي. لكن مازار يصر على تحديد موضع الهيكل مكان الحرم القدسي[77]. وبالمثل، يورد مئير بن دوف في مؤلفاته نموذجاً مرسوماً بعناية فائقة لما يسمى هيكل شلومو (هيكل سليمان)، ومقاطع ومناظر من مختلف الجهات لهذا الهيكل. ويظهر في رسومه المتخيلة أن قبة الصخرة بنيت على موقع الهيكل، وأن مبنى المسجد الأقصى بني على موقع الاستراحة الملكية[78]. وفي هذا وسواه، يخالف مازار وبن دوف وأمثالهما، أبسط قواعد البحث العلمي؛ وهي قاعدة التزام الموضوعية، وبدلاً من هذا الالتزام المفترض يتمّ الانسياق وراء تصورات غيبية عن آثار يهودية، عبر إقحام مقصود للتاريخ اليهودي في المكان، لتحقيق أهداف ومكاسب سياسية.

2. الطمس المقصود للآثار الإسلامية المكتشفة، وتغيير معالم المكان وتزوير هويته الأصلية؛ ومن الشواهد المسجلة في هذا الخصوص، إفادة الكاتب الإسرائيلي داني رابينوفيتش Danny Rabinowitz في مقال نشره صيف 1998، يبين فيه أنه عمل في سنة 1968، كمتطوع في حفريات حائط المبكى، وكان مما أسفرت عنه هذه الحفريات مبان أموية. ويروي رابينوفيتش أنه حين عاد إلى الموقع في بداية السبعينيات لم يجد لهذه المباني أي أثر، حيث أزيلت من المنطقة بكاملها من أجل إفساح المجال للحفريات للوصول إلى طبقات البيت الثاني[79]، على حد قوله. ولاحظت أوساط علمية غربية الأمر ذاته، ففي رسالة نشرتها في جريدة التايمز اللندنية The Times في 1972/8/17، أشارت عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينيون، رئيسة مدرسة الآثار البريطانية في القدس، إلى أن إتلاف الأبنية الإسلامية على طول سور الحرم القدسي يعدّ جريمة كبرى، وأن على الرأي العام العالمي تقديم كل دعم لإيقاف هذه الأعمال البربرية[80]. وذكرت المتطوعة الإيرلندية باولا غيرانتي، التي عملت مع البروفيسور الإسرائيلي يعقوب بيلج في الحفريات حول الحرم القدسي، أن علماء الآثار الإسرائيليين لا يسعون سوى إلى الكشف عن التاريخ اليهودي للقدس، ويتعمدون طمس معالم العصور التاريخية الأخرى[81]. وروى شاب فلسطيني، عمل في أواسط التسعينيات في حفريات الجهة الجنوبية الغربية للحرم القدسي، لحساب سلطة الآثار الإسرائيلية، أن مئات الآثار الإسلامية اكتشفت أثناء الحفريات، تمّ التحفظ عليها، ورفضت هذه السلطة تسليمها إلى الأوقاف الإسلامية. وفي حالات كثيرة تعمَّد المسؤولون الإسرائيليون تخريب السراديب وأعمدة القصور التي عثروا عليها[82].

3. الامتناع الإسرائيلي المتشدد عن إشراك أوساط علمية عالمية، غير يهودية أو محايدة، في الحفريات حول الحرم القدسي. وهو ما يؤكد أن سلطات الاحتلال تسعى إلى تكييف الآثار المكتشفة واستنطاقها لإثبات المقولات اليهودية (الصهيونية). ويعترف بعض الإسرائيليين أنه في حالة حفريات "حاخامية الحائط"، كما في غيرها من الحفريات، لم يسمح لأي عالم آثار مستقل بالمشاركة في عمليات التنقيب، أو حتى بالدخول إلى أمكنة معينة، ولم تنشر رسمياً نتائج التنقيب بصورة علمية، ولم تعرف بالضبط وبالتفصيل الآثار المكتشفة، كما لم يعرف كم من الأشياء المهمة التي ألقيت مع أكوام الأتربة التي نقلت من أماكنها[83].

وبين الإسهامات البحثية الغربية المحايدة التي تسلط الضوء على طبيعة الحفريات

الإسرائيلية، ثمة أهمية لتأكيدات البروفيسور روبي دونسيل، في دراسة نشرها ضمن مجلة ملفات الآركيولوجيا الفرنسية، عدد شباط/ فبراير 1999، والتي ذكر فيها أن الإسرائيليين لم يسمحوا لأحد أن يقوم بعمل يرون أنفسهم قيّمين عليه، وبالتالي لم يتمكن الغربيون من غير اليهود من المشاركة في الحفريات الجارية. ولاحظ دونسيل أن الإرادة التي كانت عند عدد من المستكشفين والباحثين خلال القرن 19 ميلادي في تفسير التوراة، حلّت محلها بعد سنتي 1948 و1967 إرادة لتمثيل وإثبات الوجود الإسرائيلي عبر إعادة اكتشاف جذوره[84].

4. التجاهل الإسرائيلي المتعمد لنتائج الحفريات التي توصلت إليها البعثات الغربية، وخاصة في مواقع حفريات المدرستين الفرنسية والبريطانية، وذلك في الفترة 1961-1967. وهو ما دفع بعض علماء الآثار للتشكيك بالتوجهات الإسرائيلية، من حيث ضعف الأسس العلمية لهذه التوجهات، وكان في مقدمة هؤلاء رولاند ديفو مدير المدرسة التوراتية الفرنسية، وكاثلين كينيون المتخصصة البريطانية بالآثار الفلسطينية.

تنطوي هذه الخصائص على مؤشرات واضحة بشأن الأهداف المشبوهة والتطلعات المغرضة التي يعمد القائمون بالحفريات الإسرائيلية إلى بلوغها. وبهذا، لا تفترق المهمة التي ينفذها هؤلاء عن مجمل الأداء الصهيوني العام، بل تنسجم معه وفق عملية التقاسم الوظيفي للأدوار.

ثلاثة عشر: سقوط التاريخ التناخي: شهادات علماء إسرائيليين:

أجمعت التقارير والدراسات التي تضمنت نتائج الحفريات حول الحرم القدسي، قبل سنة 1967 وبعدها، على انعدام وجود أي أثر للهيكل اليهودي في المكان. وارتبك المنقبون الإسرائيليون إزاء حقائق الصمت المطلق لنتائج الحفريات بشأن ما يسمونه "العصور اليهودية" في القدس. وقد كانت الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي من الاتساع والعمق على نحو بات معه من المتعذر قبول أي توقع مستقبلي بالعثور على آثار للهيكل المزعوم، بمعنى أنه لو كانت هذه الآثار موجودة فعلاً لأمكن اكتشافها. وفي ظلّ هذه الحقيقة اتضح للقائمين بتلك الحفريات أنهم يبحثون عن سراب.

ومن المفيد التوقف هنا عند إفادات علمية مهمة حول هذا السراب. ففي دراسة تاريخية مهمة، نشرتها جريدة هآرتس Haaretz في 1999/10/29 لمجموعة من علماء الآثار الإسرائيليين، تمّ التأكيد على أنّ المكتشفات الأثرية في العقدين الأخيرين تثبت أنّ حكايات التوراة وقصصها تتناقض علمياً مع الحقائق التي اكتشفها علماء الآثار الإسرائيليون، وكان على رأس المشتركين في هذه الدراسة العلمية الباحث زئيف هيرتسوغ Ze'ev Herzog، الأستاذ في قسم آثار وحضارة الشرق الأوسط القديم في جامعة تل أبيب، والذي فنّد بعض الأباطيل التي وردت في العهد القديم، مثل الصعوبة التي واجهها الباحثون في الاتفاق بينهم على الفترة الأثرية التي تتوافق مع "عهد الأجداد"، فبناءً على النصّ التوراتي أقام شلومو (سليمان) الهيكل المقدس في سنة 480 للميلاد منذ الخروج من مصر، وكذلك فإن التسلسل التاريخي منذ هجرة إبراهيم عليه السلام إلى أرض كنعان، لم تسفر الحفريات الكثيرة التي أجراها علماء الآثار في "إسرائيل" عن توافق مع هذا التسلسل التاريخي[85].

ويُبيّن هرتسوغ أن مراحل تكوّن "شعب إسرائيل" كانت مغايرة تماماً لما يوصف في العهد القديم، وأنه على ضوء الآثار المحفوظة من العهود السابقة واللاحقة أصبح واضحاً أن القدس في عهد ديفيد وشلومو (داود وسليمان) كانت مدينة صغيرة، وربما كان فيها قلعة ملك صغيرة، إلا أنها لم تكن إطلاقاً عاصمة الإمبراطورية الموصوفة في العهد القديم. وبرأيه، إن علم آثار "أرض إسرائيل" يستكمل في آخر القرن العشرين عملية انتقاله للاستقلالية العلمية، وهو مستعد للاصطدام مع مكتشفات البحث التوراتي والتاريخ القديم كأساس متساوي القيمة، ولكن بالمقابل تحدث ظاهرة مثيرة هي تجاهل الأمر من قبل المجتمع الإسرائيلي[86].

وضمن تقرير نشرته مجلة جيروزاليم ريبورت The Jerusalem Report شكك عالم الآثار يسرائيل فنكلشتاين Israel Finkelstein من جامعة تل أبيب، والمعروف بأبي الآثار، بوجود أي صلة لليهود بالقدس، وأكد أن علماء الآثار اليهود لم يعثروا على شواهد تاريخية أو أثرية تدعم بعض القصص الواردة في العهد القديم، بما في ذلك قصص الخروج والتيه في سيناء وانتصار يوشع بن نون على كنعان. وشكك في قصة ديفيد (داود)، الشخصية التوراتية الأكثر ارتباطاً بالقدس، حسب معتقدات اليهود، مبيناً أنه لا يوجد أساس أو شاهد إثبات تاريخي على وجود هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له، والذي سيأتي المسيا (المسيح المنتظر) من صلبه للإشراف على بناء

"الهيكل الثالث". بالإضافة إلى أن شخصية ديفيد (داود) كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحّد مملكتي "يهودا وإسرائيل" هو مجرد وهم وخيال، لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل شلومو بن ديفيد (سليمان بن داود) مشكوك فيه أيضاً، حيث يقول العهد القديم إنه حكم إمبراطورية تمتد من مصر حتى نهر الفرات، على الرغم من عدم وجود أي شاهد أثري على أن هذه المملكة المتحدة المترامية الأطراف قد وجدت بالفعل في يوم من الأيام، أما فيما يتعلق بهيكل شلومو (هيكل سليمان) فلا يوجد أي شاهد أثري يدل على أنه كان موجوداً بالفعل[87]. ويعكس هذا التقرير حالة الإرباك الموجودة لدى علماء الآثار الإسرائيليين، مع العلم أن المسلمين يؤمنون بوجود داود وسليمان عليهما السلام كما وردا في القرآن الكريم والسنة النبوية.

في الوقت ذاته، اعترف مئير بن دوف مثلاً، أن الحفريات الأثرية حول الحرم القدسي كشفت عن أبنية مهمة تعود إلى العهد الأموي، وقدمت إثباتات مكتوبة وموثقة، وأظهرت بقايا ضاحية كبيرة بدأ أبناء عبد الملك (الوليد وهشام) ببنائها. وتمكن بن دوف من رسم مخططات لمقاربة الواقع، تتضمن مقر دار الإمارة والقصور الأموية حول الحرم القدسي، وبعض النقوش والزخارف واللُّقَى، استناداً إلى الآثار التي تمّ العثور عليها[88]. وكمتابعة للموضوع، أجرت جريدة القدس الفلسطينية في 2001/9/28 مقابلة مع مئير بن دوف نشرتها تحت عنوان "عالم إسرائيلي: هيكل سليمان أكذوبة"، جاء فيها ما يلي: لقد فجّر عالم الآثار الإسرائيلي مئير بن دوف قنبلة دوّى صداها في المنطقة، حيث كشف النقاب عن أنّه لا يوجد آثار لما يسمى بجبل الهيكل تحت المسجد الأقصى، مناصراً بذلك الأصوات السابقة التي كشفت عن ذلك، ولا سيّما علماء الآثار الإسرائيليين بقسم التاريخ بالجامعة العبرية. وفي هذا اللقاء تحدّث مئير بن دوف قائلاً إن هيكل هيرودوس لم تكن له أيّ علاقة بالصخرة، حيث كان هذا الهيكل مرتفعاً بخمسة أمتار. وأضاف: "جاء المسلمون إلى هذه الديار وبنوا على تلك الصخرة التي وجدت في تلك المنطقة التي ليس لها أي علاقة مع الهيكل، كما أنّ الصليبيين هم الذين أطلقوا على الصخرة اسم صخرة الهيكل". وتابع بن دوف قائلاً:

> إذا قمنا بإجراء حفريات أسفل تلك المنطقة فإننا سنجد آبار مياه متشعبة، وقد رأينا قنوات مائية خلال مسيرة الحفريات، والدراسة التي أجريناها خلال 25 عاماً الماضية استنتجنا منها أنّه لا يوجد هيكل هناك (أي لا توجد بقايا من ذلك الهيكل)، وإذا قمت بالحفر فإنك لن تستطيع إطلاقاً أن تجد أيّة بقايا للهيكل

> تدل على تلك الفترة، مما يؤكد بأنه إذا ما تمّ الحفر خارج السور من الجهة الشرقية فإنّه من الممكن أن يتمّ العثور على كتابات أو قطع أثرية، لكن في الداخل أو أسفل منطقة الحرم القدسي فلا توجد أيّة بقايا أثرية أو غيرها[89].

وعلى المسار ذاته، لم يكن أمام بنيامين مازار وميريام روزن-أيالون Myriam Rosen-Ayalon مفراً من الاعتراف بالهوية الإسلامية للآثار المكتشفة، إلى جانب الآثار العائدة للعهدين الروماني والبيزنطي[90].

ويمكن إدراج ثنائية "الصورة – الواقع" بشأن الحفريات حول الحرم القدسي، في عداد ما أسماه أحد الكتاب الإسرائيليين "قولبة وجه القدس القديمة منذ سنة 1967 بمزيج هش من المصالح والتفسيرات التاريخية والإجراءات العلمية وجدول الأفضليات والمصالح الاقتصادية"[91]. وقد أكد رافي غرينبرغ، عالم الآثار والمحاضر في جامعة تل أبيب، أنّ بعض المواقع الأثريّة وعلماء الآثار يُستَخْدَمون كسلاح في معركة السيطرة السياسيّة والدينيّة على القدس، وأنّه لا توجد أيّة حاجة علميّة ملحّة للعديد من الحفريّات التي تتمّ في البلدة القديمة، والغالبية العظمى من هذه الحفريّات ناتجة عن ممارسة ضغوطات من قبل جهات غير مهنيّة وعقائديّة متطرّفة[92].

نحن إذن أمام واقع قائم يفرض وجوده وتاريخه وتسلسله بمعطياته المادية... واقع يعبِّر عن الهوية الحقيقية للقدس ولمنطقة الحرم القدسي ضمناً. وعلى الرغم من رغبة القائمين بالحفريات الإسرائيلية بتجنب الإفصاح عن هذه الهوية، إلا أن ما عثروا عليه أقوى من أي مقولات أو أسانيد يحاولون ترويجها. ويمكن النظر إلى نتائج الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي من زاوية دلالتها البالغة على حقيقة راسخة، وهي أنه كلما تعمق البحث والتنقيب الأثري، تكون الحصيلة تعمّق الهوة بين آثار القدس والرواية اليهودية التناخية.

أربعة عشر: وجود عربي إسلامي عريق وصمود يتحدى التهويد:

على الرغم من أن الأشواط المديدة التي قطعتها عملية تهويد القدس، إلا أن هذه العمليات لم تتمكن من إنجاز هدفها الاستراتيجي، بدليل بقاء عدد كبير نسبياً من المواطنين العرب في المدينة ومجالها الإداري، وصمود العديد من المعالم العربية والإسلامية أمام

الهجمات الصهيونية المتواصلة التي حاولت سلطات الاحتلال تذويبها أو تدميرها. ففي القدس ما يزال يقاوم التهويد ما ينوف عن مئتي معلم أثري ينتمي إلى الحضارة العربية والإسلامية، منها 46 مدرسة تاريخية، و39 زاوية وضريحاً وتربة، و25 مسجداً، و22 سبيلاً وحماماً، و35 قبة ومحراباً وباباً، و34 طريقاً قديمة وأثرية، و18 طريقاً مقدساً عند المسيحيين، و19 كنيسة وبطريركية، و9 أسواق قديمة، و8 أبواب، وعدد كبير من القباب والتكايا والخانقات والأروقة والمقابر الجماعية التي تضم تسعة قبور للصحابة وعشرات القبور للمجاهدين والعلماء والقادة والأعيان... إلخ[93].

خاتمة:

تشكل التوجهات والممارسات الصهيونية إزاء التراث الحضاري والثقافي الخاص بالقدس، أحد مظاهر موجات الغزو الخارجي التي تعرضت لها المدينة على مدى تاريخها العربي الإسلامي الطويل. ويتلخص هذا الأمر عبر تشكيل التاريخ اليهودي، ونفي هوية القدس العربية الإسلامية، وتسويق فكرة الهيكل اليهودي وتحديد موقعه الموهوم مكان الحرم القدسي، واصطناع القداسة لحائطه الغربي (البراق)، الذي يعدّ جزءاً من معبد هيرودوس الأدومي العربي. ويتمّ في هذا المنحى الانتساب اليهودي المزور للقدس، التي يشوه المستشرقون والمؤرخون اليهود والصهاينة هويتها، مع تركيز صهيوني على "هامشية القدس" لدى المسلمين، وتعكس مناهج التعليم الإسرائيلية هذا التشويه. وتتجسد عدوانية المشروع الصهيوني وهمجية الاحتلال عبر الإجراءات الإسرائيلية إزاء القدس، وعمليات التدمير التي تتعرض لها المعالم العربية والإسلامية، ومحاولات الطمس والتهويد والتزوير للأسماء العربية الإسلامية المقدسية، وانتهاج سياسة مبرمجة إزاء الحرم القدسي، والقيام بحفريات مغرضة في القدس، في محاولة لاستنطاق الآثار العربية الإسلامية للمدينة. ولكن شهادات العديد من العلماء الإسرائيليين تثبت سقوط التاريخ التناخي والمزاعم الإسرائيلية، فضلاً عن إثبات حقائق الوجود العربي الإسلامي العريق للقدس وصمودها الذي يتحدى التهويد، بانتظار تحرير هذه المدينة الأسيرة.

هوامش الفصل الثامن

[1] يوسي كاتس ويهوشع بن آرييه، **محكريم بيجيوغرافية هيسطوريت يشوفيت شل إيرتس يسرائيل** (أبحاث في الجغرافية التاريخية للاستيطان في أرض إسرائيل) (القدس: إصدار ياد بن تسفي ومعهد دراسة تاريخ الكيرين كايميت ليسرائيل، 1991)، ص 15. (بالعبرية)

[2] أورشليم التي يحاول الصهيونيون اليوم عدّها من الأسماء العبرية، هي كلمة كنعانية عربية أصيلة. لمزيد من التفاصيل حول أسماء القدس منذ أقدم عصورها حتى الآن، انظر مثلاً: فيصل صالح الخيري، دلالة أسماء القدس على عروبتها، موقع جمعية الأقصى لرعاية الأوقاف والمقدسات الإسلامية، 2002/10/9، في:
http://www.aqsa-mubarak.net/default.asp?cat_id=80&page_id=235

[3] موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، هذه هي إسرائيل، أورشليم القدس، انظر:
http://www.altawasul.com/mfaar/this%20is%20israel/jerusalem

[4] Theodore Kolek et Moshe Pearlman, *JERUSALEM: Ville Sacrée de l'humanité, Quarante siècles d'histoire*, Traduction de Clair Poole (Paris: Fayard, 1968), p. 12, 15.

[5] محمد إدريس، أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، موقع نداء القدس، انظر:
http://www.qudsway.com/images/books/file_203242627.doc

[6] شموئيل سيجف، **ملحماه فشلوم بمزراح هتيخون** (حرب وسلام في الشرق الأوسط) (تل أبيب: مطبعة طبراسكي محدودة الضمان، 1968)، ص 181. (بالعبرية)

[7] يونا كوهين، العاصمة الأبدية للشعب الأبدي، جريدة **هتسوفيه**، 1989/6/2، ص 5.

[8] دافيد سيتون، **يروشلايم بتولودوت عام يسرائيل** (القدس في تاريخ شعب إسرائيل) (القدس: إصدار بمعرخا، 1968)، ص 95. (بالعبرية)

[9] أورئيل بن عمي، القدس – مع وبلا، جريدة **عل همشمار**، 1990/2/9، ص 13.

[10] Avraham B. Yehoshua, "Jerusalem," *The Jerusalem Quarterly*, Institute of Jerusalem Studies (IJS), Jerusalem, no. 19, Spring 1981, p. 7.

[11] يوئيل ماركوس، لينسوا القدس، **هآرتس**، 1994/6/3، ص 4.

[12] موشي إيدال، "القدس في الفكر اليهودي خلال القرن الثالث عشر،" يهوشع برافر وحجاي بن شماي، **القدس: العهد الصليبي الأيوبي** (القدس: دار يتسحاق بن تسفي، 1991)، ص 264، 270. (بالعبرية)

[13] يسرائيل ميداد، "أحقاً جبل الهيكل بيدنا،" مجلة **نتيف**، مركز أريل للدراسات السياسية، العدد 6، تشرين الثاني/ نوفمبر 2000؛ ونشرة المصدر الاستراتيجي، القدس، العدد 11، السنة الثانية، كانون الثاني/ يناير 2001، ص 25-37.

[14] يسرائيل شاحاك، "اللاهوت اليهودي والقدس،" مجلة **الكرمل**، العدد 65، خريف 2000، ص 227.

[15] David Ben Gurion (editor), *The Jews in their Land*, translated from Hebrew (London: Aldus Books, Jupiter Books, 1974), p. 54.

[16] روحي الخطيب، **المؤامرات الإسرائيلية على القدس** (عمّان: أمانة القدس، 1975)، ص 41.

[17] M. Avi - Yonah and E. Krasling, *La vraie Histoir de la Bible* (Paris: Mouton la Maye, 1962), p. 54, 133.

[18] *Encyclopaedia Judaica*, vol. 15, Temple, second edition (Jerusalem: Keter Publishing House Ltd., 1973), pp. 942-990.

[19] ران بيرتس، جبل الهيكل في أيدينا؟، جريدة **معاريف**، 2004/7/29.

[20] مئير بن دوف، **يروشلايم بروئي هدوروت** (القدس في مرآة الأجيال) (القدس: إصدار كارتا، 1991)، ص 24، 33، 36-37، 51، 88. (بالعبرية)

[21] **معجم اللاهوت الكتابي** (بيروت: دار المشرق، 1993)، ص 827-828.

[22] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ط 2 (بيروت: دار الطليعة، 1973)، القسم الأول، ج 1، ص 500.

[23] **قاموس الكتاب المقدس**، ط 10 (القاهرة: دار الثقافة بالاتفاق مع رابطة الإنجيليين بالشرق الأوسط، 1995)، ص 1008.

[24] **موسوعة الكتاب المقدس** (بيروت: دار منهل الحياة، 1993)، ص 330، 333-334.

[25] **إنسكلوبيديا لحفيروت أرخيولوجيوت بإيرتس يسرائيل** (موسوعة الحفريات الأثرية في أرض إسرائيل) (القدس: شركة بحوث أرض إسرائيل وآثارها، دار نشر مسادا، 1975)، ج 1، ص 208. (بالعبرية)

[26] زئيف فلنائي، **يروشلايم بيرات يسرائيل... هعير هعتيكا** (القدس عاصمة إسرائيل... المدينة القديمة) (القدس: منشورات آحي عوفيد، 1970)، ص 310. (بالعبرية)

[27] *Encyclopaedia Judaica*, vol. 16, Western Wall, third edition (Jerusalem: Keter Publishing House Ltd., 1974), p. 467.

[28] *Encyclopedia of Zionism and Israel*, vol. 2 (New York: Herzl Press, Mc Graw-Hill, 1971), p. 1215.

[29] Cecil Roth and others, The New standard Jewish Encyclopedia (London: W.H.Allen, 1975), p.1956.

[30] *Encyclopaedia Judaica*, vol. 16, p. 468.

[31] إبراهيم عبد الكريم، **حائط البراق... الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي** (طرابلس، ليبيا: القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، 2001)، ص 7-8، 16.

[32] عوزي بنزيمان، **يروشلايم عير ليلو حوماه** (القدس: مدينة دون سور) (القدس وتل أبيب: إصدار شوكن، 1973)، ص 25. (بالعبرية)؛ ونداف شرغاي، بالإجمال يدور الحديث عن خلافات بسيطة: أين قيد النبي محمد بُراقه، الحلقة الثانية، **هآرتس**، 2001/1/15، ص 3/ب.

[33] حسن عبد الرحمن سلوادي، المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام، بحث مقدم لمسابقة جمعية القدس للبحوث والدراسات في غزة، انظر: جمعية الأقصى لرعاية الأوقاف والمقدسات الإسلامية، 2002/10/9، في: http://www.aqsa-mubarak.net/default.asp?cat_id=80&page_id=233؛ وانظر: المركز الفلسطيني للإعلام، في: http://www.palestine-info.info/arabic/alquds/muslims/almustash.htm

[34] المراجع نفسها.

[35] عمانوئيل سيفان، "قدسية القدس عند الإسلام في فترة الحملات الصليبية،" يهوشع برافر وحجاي بن شماي، **القدس: العهد الصليبي الأيوبي** (القدس: دار يتسحاق بن تسفي، 1991)، ص 287-288، 296. (بالعبرية)

[36] حسن سلوادي، المستشرقون اليهود.

[37] المرجع نفسه.

[38] انظر الفصل المخصص للاستيطان اليهودي في القدس خلال الحملات الصليبية في: يهوشع برافر وحجاي بن شماي، **القدس: العهد الصليبي الأيوبي** (القدس: دار يتسحاق بن تسفي، 1991)، ص 194. (بالعبرية)

[39] حسن سلوادي، المستشرقون اليهود.

[40] المرجع نفسه.

[41] يسرائيل إلداد، المدينة المفروضة والمرغوبة، **هآرتس**، 1987/5/28، ص 9.

[42] يسرائيل ميداد، "أحقاً جبل الهيكل بيدنا."

[43] انظر: سمير سمعان وآخرون، **العرب في مناهج التعليم الإسرائيلية** (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 2004)، ص 47-48.

[44] النصوص الواردة مأخوذة من خلال قراءة مقارنة من: إبراهيم أبو جابر، "العرب في المناهج الدراسية الإسرائيلية،" مجلة **شؤون دولية**، مركز الدراسات المعاصرة، أم الفحم – فلسطين، العدد 10، 2005، ص 79 وما بعدها؛ وانظر: سمير سمعان وآخرون، **العرب في مناهج التعليم الإسرائيلية**، ص 50-59.

[45] سمير سمعان وآخرون، **العرب في مناهج التعليم الإسرائيلية**، ص 67-68، 71.

[46] خليل السواحري وسمير سمعان، **التوجهات العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلية** (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004)، ص 23، 29.
[47] **المرجع نفسه**، ص 30.
[48] *Laws of the State of Israel*, vol. 12, no. 5727, Government Printer, Israel, 1967, p. 75-76.
[49] شموئيل سيجف، **ملحماه فشلوم بمزراح هتيخون**، ص 189.
[50] روحي الخطيب، **تهويد القدس** (عمّان: لجنة إنقاذ القدس، 1970)، ج 1، ص 54.
[51] فاروق أبو الرب، القدس بين الواقع والوضع النهائي، جريدة **القدس**، 1999/8/21، ص 20.
[52] تقرير موتي بسوك، جريدة **دافار**، 1993/7/2، ص 2؛ و**الوقائع الإسرائيلية، كتاب القوانين**، مطبعة الحكومة، النسخة العربية، 1980/8/5، ص 316.
[53] روحي الخطيب، **تهويد القدس**، ج 1، ص 34-35.
[54] **المرجع نفسه**، ص 16-17.
[55] الفضائية المصرية، "موضوع الساعة،" الساعة 21:00، 2001/8/8.
[56] تقرير جدعون آلون، **هآرتس**، 2000/11/28، ص 2.
[57] إسرائيل تسجل عقارات في القدس القديمة في الطابو، موقع المشهد الإسرائيلي، 2008/3/11، نقلاً عن **هآرتس**، انظر: http://almash-had.madarcenter.org/almash-had/viewarticle.asp?articalid=3826؛ والحكومة الإسرائيلية تبدأ بتسجيل ما يسمى بـ"أملاك يهودية" في القدس المحتلة في دائرة التسجيل (الطابو)، موقع عرب48، 2008/3/11، في: http://www.arabs48.com/display.x?cid=6&sid=7&id=52658
[58] شاؤول كوهين، "يروشلايم همأحدوت بورات جيئوبوليتي،" (القدس الموحدة ضرورة جيوسياسية) بحث في **يهودا فشمرون – محكريم بجيوغرافيه بيشوفيت** (يهودا والسامرة – فصول في الجغرافية الاستيطانية) (جامعة تل أبيب وجامعة بار إيلان، 1977)، ص 457. (بالعبرية)
[59] دراسة حديثة تحذر من خطر التزوير الحضاري والتاريخي الصهيوني في القدس للباحث سعيد يقين من جامعة بيرزيت في دراسة بعنوان: "الحركة الصهيونية وخطر التصفية والتزوير الحضاري والتاريخي في منطقة القدس،" موقع جمعية الأقصى لرعاية الأوقاف والمقدسات الإسلامية، 2002/10/9، انظر: http://www.aqsa-mubarak.net/default.asp?cat_id=81&page_id=240؛ وانظر الدراسة الأكاديمية التي تحذر من خطر التزوير الحضاري والتاريخي الصهيوني في القدس، في: http://www.palestine-info.info/arabic/alquds/tahweed/altazweer.htm
[60] المراجع نفسها.
[61] المراجع نفسها.
[62] للتفاصيل انظر مثلاً: شكري عرّاف، **المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والمسميات العبرية** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2005)؛ وإبراهيم عبد الكريم، **تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية (دراسة ودليل)** (دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 2001).
[63] روحي الخطيب، **تهويد القدس** (عمّان: أمانة القدس، 1971)، ج 2، ص 88-89؛ وانظر أيضاً: روحي الخطيب، "تهويد القدس،" **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، ج 6 (بيروت: 1990)، ص 796-895.
[64] عالج الباحث هذه المسألة في دراستين منفصلتين: إبراهيم عبد الكريم، "تهويد الحرم القدسي... دراسة توثيقية في الذرائع والوقائع،" مجلة **شؤون عربية**، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، العدد 96، كانون الأول/ ديسمبر 1998، ص 123-149؛ وإبراهيم عبد الكريم، "المضامين السياسية للصراع حول القدس الشرقية،" مجلة **التعاون**، الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، الرياض، العدد 58، كانون الأول/ ديسمبر 2003، ص 147-180.
[65] نداف شرغاي، القدس واختلاط الدين والسياسة، جريدة **القدس**، 2000/6/19، ص 12، نقلاً عن **هآرتس**.
[66] تقرير نداف شرغاي، **هآرتس**، 2000/7/4، ص 6.
[67] جريدة **القدس**، 2001/4/11، ص 3.
[68] تقرير شموئيل ميلتمان، **معاريف**، 2001/7/5، ص 8.

[69] تقرير سائدة حمد، جريدة **الحياة**، لندن، 2001/7/26، ص 4.

[70] جريدة **القدس**، 2001/7/30، ص 1.

[71] إبراهيم الفني وطاهر النمري، تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين حول القدس والمسجد الأقصى المبارك، جريدة **القدس**، 2002/2/15، ص 18.

[72] سعيد يقين، "الحركة الصهيونية وخطر التصفية والتزوير الحضاري والتاريخي في منطقة القدس."

[73] إبراهيم عبد الكريم، "الحفريات الإسرائيلية حول الحرم القدسي... الأيديولوجيا — المجريات — النتائج،" مجلة **التعاون**، الأمانة العامة، مجلس التعاون لدول الخليج العربية، العدد 54، كانون الأول/ ديسمبر 2001، ص 261-287.

[74] ايلي شيلر وجدعون بيجر، **يروشلايم: هعير هعتيكا** (القدس: المدينة القديمة) (القدس: دار أريل، 1988)، ص 55-58. (بالعبرية)

[75] روحي الخطيب، **تهويد القدس**، ج 2، ص 41-42، 59.

[76] روحي الخطيب، **المؤامرات الإسرائيلية على القدس**، ص 24.

[77] For more details see: B. Mazar, *The Mountain of the Lord* (New York: 1975).

[78] مئير بن دوف، **يروشلايم بروئي هدوروت**، ص 36.

[79] داني رابينوفيتش، اختبار النضوج الأثري، **هآرتس**، 1998/8/27، ص 1.

[80] روحي الخطيب، **المؤامرات الإسرائيلية على القدس**، ص 24-25.

[81] تقرير، جريدة **القدس**، 1997/4/2، ص 3.

[82] عبد الرؤوف داود، حفريات جديدة تهدد أساسات المسجد الأقصى، **الحياة**، 1996/7/14، ص 1.

[83] إيلي تافور، شحنة متفجرة دينية تحت الحرم، ملحق جريدة **يديعوت أحرونوت**، 1981/9/4، ص 7.

[84] رلى الزين، ملفات الأركيولوجيا تضيء جوانب تراث غائبة، **الحياة**، 1999/3/8، ص 16.

[85] صالح الرقب، **الهيكل اليهوديّ {المقدَّس} خرافات بلا حدود** (غزة، فلسطين: مركز النور للدراسات والأبحاث، 2002)، انظر: http://www.drsregeb.com/index.php?scid=33&flage=15

[86] زئيف هرتسوغ، الاكتشافات الأثرية تدحض الادعاءات التوراتية حول تاريخ بني إسرائيل، جريدة **القدس**، 1999/10/30، ص 23.

[87] عالم آثار إسرائيلي يشكك بوجود أية صلة لليهود بالقدس، جريدة **القدس**، 2000/11/13، ص 6؛ والانتهاكات الإسرائيلية للمسجد الأقصى منذ سنة 1967، موقع المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات (ملف)، في: http://www.malaf.info/?page=show_details&Id=153&CatId=89table=pa_documents

[88] مئير بن دوف، **يروشلايم بروئي هدوروت**، ص 104-108.

[89] الانتهاكات الإسرائيلية للمسجد الأقصى منذ سنة 1967، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات.

[90] رزق صفوري، جريدة **القدس**، 1996/10/3، ص 12.

[91] داني رابينوفيتش، اختبار النضوج الأثري، **هآرتس**، 1998/8/27، ص 1/ب.

[92] غصون ريّان، المساحة غير المهنية في علم الآثار الإسرائيلي، المشهد الإسرائيلي، 2007/5/10، في: http://almash-had.madarcenter.org/almash-had/viewarticle.asp?articalid=3473

[93] **نشرة البيدر**، جامعة بيرزيت، العدد 23، 2000/6/5، ص 3.

الفصل التاسع

التراث الثقافي لمدينة القدس في المعاهدات والقرارات الدولية

التراث الثقافي لمدينة القدس في المعاهدات والقرارات الدولية

د. رياض حمودة ياسين

مقدمة:

سيتناول هذا الفصل التراث الثقافي لمدينة القدس في بعض الاتفاقيات الدولية ذات الطابع الثقافي وقرارات الأمم المتحدة United Nations (UN) (الجمعية العامة General Assembly of the United Nations ومجلس الأمن Security Council واليونسكو).

حرص الباحث في هذه الدراسة على تتبع وملاحقة القرارات الدولية ذات الصلة بالتراث والممتلكات الثقافية في مدينة القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي، وذلك من خلال رصد القرارات في الهيئات المعنية في الأمم المتحدة منذ سنة 1947 وحتى 2008، خاصة بالنسبة لليونسكو، ثم تتبع الفقرات المتعلقة بالممتلكات الثقافية للقدس في المعاهدات والاتفاقات الدولية ذات الصلة.

من المهم ابتداءً تحديد التراث الثقافي، إذ سيلاحظ أن القانون الدولي يتعامل مع "الممتلكات الثقافية" أكثر من تعامله مع "تراث ثقافي" في مفاهيمه العامة. ويمكن القول بأن "الممتلكات الثقافية" ترتبط بالتراث الثقافي للمجتمعات، وتصنف غالباً إلى ممتلكات ثقافية منقولة، مثل الكتب والمخطوطات والقطع الأثرية، وممتلكات ثقافية غير منقولة، مثل التماثيل والأبنية المعمارية التاريخية والأثرية والمواقع الثابتة الفريدة بصورة عامة[1].

ويمكن تعريف "الممتلكات الثقافية" في الاتفاقيات الدولية، فالمادة (1) من اتفاقية لاهاي سنة 1954 تُعرفها من خلال تحديد ثلاثة أصناف من الممتلكات: الأول يشمل جميع الممتلكات المنقولة وغير المنقولة التي لها أهمية كبرى في التراث الثقافي لأي شعب، بما في ذلك المباني المعمارية، والأماكن الأثرية والدينية، ومجموعة المباني التي تكتسب بتجمعها قيمة تاريخية أو فنية، وإنتاجات الفن، والمخطوطات والكتب، والأشياء الأخرى ذات القيمة الفنية التاريخية أو الأثرية، وكذلك المجموعات العلمية والمواد الأرشيفية أو نسخ الممتلكات المذكورة آنفاً. والصنف الثاني من الممتلكات يشمل المباني والممتلكات

التي لا تتمتع في حدّ ذاتها بالخصائص المنصوص عليها في الفقرة السابقة. فيما تنسب إلى الصنف الثالث المراكز التي تحتوي على مجموعة كبيرة من الممتلكات الثقافية المبينة في الفقرتين السابقتين، والتي يطلق عليها اسم "مراكز الأبنية التذكارية"[2].

وفي الديباجة الأولى والمادة (1) من "اتفاق رويرش"، الذي تبنته الدول الأمريكية بتوقيعها اتفاق واشنطن Washington Agreement في 1935/4/15، تَدْخُلُ في عداد الممتلكات الثقافية التشكيلات الفنية والأثرية والتاريخية كلها[3]. ويعدّ هذا الاتفاق أول وثيقة قانونية تنظم مسائل حماية الممتلكات والمؤسسات الثقافية[4]، على أنه قد يكون هناك اتفاقيات قبله مثل اتفاقية برن Berne Convention لحماية المصنفات الأدبية والفنية سنة 1886[5]، وكذلك اتفاقيتي لاهاي سنتي 1899 و1907 فيما يتعلق منها بحماية الممتلكات الثقافية في أوقات الحرب، ومن ثم اتفاقية سان جيرمان Treaty of Saint-Germain الموقعة سنة 1919، ومعاهدة الويبو وهي اختصار للمنظمة العالمية للملكية الفكرية The World Intellectual Property Organization (WIPO) ومقرها في جنيف بشأن حقّ المؤلف[6]، وحقّ الأداء والتسجيل الصوتي[7]، وتعدّ اتفاقية لاهاي سنة 1954 لحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح، الوثيقة القانونية المكملة لجهود "ميثاق رويرش"[8].

وعقدت برعاية اليونسكو اتفاقيات دولية أخرى، يمكن تصنيفها ضمن نطاق الاتجاه لآلية الحماية الدولية للممتلكات الثقافية، مثل اتفاقية حظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة سنة 1970، والأهم هي اتفاقية صيانة التراث العالمي والثقافي سنة 1972[9]، فقد حددت هذه الاتفاقية واجبات الدول الأعضاء على نحو منفرد وجماعي لضمان صيانة التراث العالمي والممتلكات الثقافية. وبفضل هذه الاتفاقية حقق التعاون الدولي التعاضد والتضامن في مجال صون التراث الثقافي والطبيعي للإنسانية[10]. وهناك الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلة سنة 1979، التي تشكل امتداداً لاتفاقية برن المبرمة سنة 1886 بشأن حماية المصنفات الأدبية والفنية، والتي أعيد النظر فيها أكثر من مرة، حيث كان آخرها في باريس سنة 1979، وغيرها من الاتفاقيات ذات الصلة[11].

وعلى الرغم من أن الوثائق والتوصيات لا تملك القوة القانونية الملزمة، إلا أن بإمكانها أن تلعب دوراً مهماً في تطوير التنظيم الدولي في هذا المجال.

كما يمكن أن نتذكر أهم توصيات اليونسكو بهذا الخصوص، والمتمثلة في[12]:

1. التوصية الخاصة بتطبيق المبادئ الدولية في مجال الحفائر الأثرية سنة 1956.
2. التوصية المتعلقة بالتدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة سنة 1964.
3. التوصية الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية المنقولة سنة 1978.
4. التوصية بشأن إحدى الوسائل لتيسير دخول المتاحف للجميع سنة 1960.
5. التوصية بشأن المحافظة على جمال المناظر الطبيعية والمواضع على الطابع المميز بها سنة 1962.
6. التوصية بشأن صون الممتلكات الثقافية التي تهددها الأشغال العامة والخاصة سنة 1968.
7. التوصية بشأن التبادل الدولي للممتلكات الثقافية سنة 1976.
8. التوصية بشأن صون المناطق التاريخية ودورها في الحياة المعاصرة سنة 1976 وغيرها.

وهناك إعلان اليونسكو بشأن التدمير المتعمد للتراث الثقافي أعقاب مأساة تدمير تماثيل في أفغانستان سنة 2003 ليمثل تذكيراً بأهمية المحافظة على التراث العالمي[13].

أما اتفاقية اليونسكو سنة 1970 بشأن التدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة، فقد اشتملت على تعريف مفصل لمفهوم الممتلكات الثقافية، إذ نصّت المادة (1) من الاتفاقية على أن الممتلكات الثقافية هي "الممتلكات التي تقرر كل دولة، لاعتبارات دينية أو علمانية، أهميتها لعلم الآثار، أو ما قبل التاريخ، أو الأدب أو الفن أو العلم"[14].

ويدخل كل ما سبق في عداد الممتلكات الثقافية بغض النظر عن مصدر هذه الممتلكات أو مالكها، أي أن الاعتبار الأساسي هو القيمة التاريخية أو الفنية للممتلكات[15]. وتعدّ الأماكن الدينية المقدسة من أهم الممتلكات الثقافية[16].

أولاً: التراث الثقافي للقدس في الاتفاقيات الدولية:

تعدّ "إسرائيل" وفقاً لأحكام القانون الدولي قوة محتلة، قامت باحتلال القدس وباقي الأراضي العربية المحتلة بالاستناد للقوة، والاحتلال معرف تعريفاً واضحاً في المادة (42) من اتفاقية لاهاي سنة 1907[17]، التي يفترض أن تلتزم بها "إسرائيل".

فاتفاقية لاهاي لسنة 1907 لا تجيز للدولة المحتلة مصادرة الأملاك الخاصة، ففي المادة (56) تعدّ الدولة المحتلة بمثابة مدير للأراضي في البلد المحتل، وعليها أن تعامل ممتلكات البلد معاملة الأملاك الخاصة. وقد جاء النصّ ليحدد هذه المؤسسات فاشترط "معاملة ممتلكات البلديات، وممتلكات المؤسسات المخصصة للعبادة والأعمال الخيرية والتربوية، والمؤسسات الفنية والعلمية كممتلكات خاصة عندما تكون ملكاً للدولة، ويُحظر كل حجز أو تدمير أو إتلاف عمدي لمثل هذه المؤسسات والآثار التاريخية والفنية والعلمية، وتُتخذ الإجراءات القضائية ضد مرتكبي هذه الأعمال"[18].

ويلاحظ من نصّ المادة (56) بأنها جاءت بعبارة بالغة الأهمية، وهي أن الممتلكات والمؤسسات الوارد ذكرها في هذا النصّ تبقى من قبيل الممتلكات الخاصة، حتى وإن كانت مملوكة للدولة. حيث تفيد هذه العبارة بأنه لا يمكن لأطراف النزاع الاعتداء أو تدمير أو إتلاف هذه الممتلكات، وذلك لأنها ممتلكات خاصة لا يجوز الاعتداء عليها، فالممتلكات الخاصة محمية من أي اعتداء أو أي هجوم عليها سواء أكان كلياً أم جزئياً.

كما اشتملت معاهدة جنيف Geneva Convention في الاتفاقية الرابعة منها بشأن حماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب، المؤرخة في 1949/8/12، وحسب المادة (49) بأنه لا يحقّ لسلطة الاحتلال نقل مواطنيها إلى الأراضي التي احتلتها، أو القيام بأي إجراء يؤدي إلى التغيير الديموغرافي فيها[19]. كما نصّت المادة (53) على أنه لا يحقّ لقوات الاحتلال تدمير الملكية الشخصية الفردية أو الجماعية، أو ملكية الأفراد أو الدولة التابعة لأي سلطة في البلد المحتل[20].

ونصّت المادة (64) من اتفاقية جنيف لسنة 1949على حماية المدنين في زمن الحرب، وأنه يتحتم على المحتل إبقاء القوانين الجنائية الخاصة بالأراضي المحتلة نافذة، ما لم يكن فيها ما يهدد أمن دولة الاحتلال، أو يعدّ عقبة في سبيل تطبيق هذه الاتفاقية[21]. كما تؤكد المادة (43) من لائحة لاهاي الملحقة باتفاقية لاهاي الرابعة لسنة 1907 على ضرورة المحافظة على الأنفس والأملاك[22].

فالسيادة القانونية الدائمة على الإقليم المحتل لا تنتقل من دولة السيادة الأصلية إلى دولة الاحتلال، إلا بطريقة الاتفاق والتنازل، أو بطريقة الضم والإخضاع. وبالتالي، تصبح جميع الإجراءات المتخذة من قبل "إسرائيل" ومن ضمنها القضاء على الآثار العربية الإسلامية باطلة ولاغية في ظلّ القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة، ولا يمكنها منح الدولة القائمة بالاحتلال أية سيادة على الإقليم الخاضع تحت سيطرة الاحتلال، فاحتلالها لتلك الأراضي إنما يمنحها سلطة مؤقته ومحدودة، للأغراض العسكرية فحسب.

ونصّت المادة (1) من الباب الأول "أحكام عامة" من اتفاقية جنيف الرابعة على "أن يتعهد الأطراف السَّامُون المتعاقدون باحترام وضمان احترام هذه الاتفاقية في جميع الأحوال"[23]. كما أن المادة (27) من الاتفاقية تنصّ أيضاً على "حماية حقوق الأشخاص المحميين بموجب أحكام هذه الاتفاقية، وحماية شرفهم، وحقوقهم العائلية، وعقائدهم الدينية، وعاداتهم وتقاليدهم، ومعاملتهم معاملة إنسانية"[24]. كما تؤكد المادة (29) من الاتفاقية ذاتها على مسؤولية السلطة القائمة بالاحتلال تجاه الأشخاص الذين تحميهم الاتفاقية[25]. ويستفاد من هذه المادة أن المسؤولية عن أية انتهاكات لحقوق السكان الواقعين تحت الاحتلال لا تتوقف عند الطرف المحتل رسمياً، حيث تضمنت اتفاقيات جنيف بنوداً تتعلق بضرورة صيانة البنية الحضارية والثقافية للأراضي المحتلة[26].

وجاءت اتفاقية لاهاي سنة 1954، لتختص بحماية الممتلكات الثقافية في حالة نشوب نزاع مسلح، وقد اشتملت على بروتوكولين؛ الأول صدر سنة 1954، والثاني صدر سنة 1999، وقد صادقت "إسرائيل" على الاتفاقية وبرتوكولها الأول في 1957/10/3، وأصبحت منضمة بتاريخ 1958/4/1[27].

وخلفية هذه الاتفاقية جاءت نظراً لما تمثله هذه الأعيان من قيمة ثقافية وروحية كبيرة بالنسبة للسكان المدنيين، فقد أقر المؤتمر الدبلوماسي بلاهاي سنة 1954 اتفاقية لحماية الأعيان والممتلكات الثقافية بصفة عامة، وحمايتها ضد العمليات العسكرية بصفة خاصة، حيث أبرزت ديباجة هذه الاتفاقية دوافع إبرامها، مبينة أهمية الملكية الثقافية بقولها: "إن الأضرار التي تلحق بالممتلكات الثقافية التي يملكها أي شعب، كأن تمس التراث الثقافي الذي تملكه الإنسانية جمعاء، فكل شعب يساهم بنصيب في الثقافة العالمية. فلهذا، المحافظة على التراث الثقافي فائدة عظمى لجميع شعوب العالم، وأنه ينبغي أن يكفل لهذا التراث حماية دولية"[28].

ومن الجدير بالذكر أن ديباجة اتفاقية لاهاي سنة 1954 تمّ تعزيز مبادئها بالبروتوكول الثاني سنة 1999، الذي لعب دوراً مهماً في الحماية القانونية للملكية الثقافية، وقوّى نقاط الضعف في اتفاقية لاهاي سنة 1954، ونذكر على سبيل المثال دور التقوية التي أضافها بروتوكول 1999، وذلك ما نصّت عليه المادة (10) من البروتوكول، الذي أبدل نظام الحماية الخاصة في اتفاقية لاهاي سنة 1954 إلى نظام الحماية المعززة[29].

وعلى الرغم من نظام الحماية المعززة للممتلكات الثقافية والدينية، إلا أن الممتلكات الثقافية والدينية كانت وما تزال تنتهك حمايتها في النزاعات المسلحة؛ دولية كانت أو غير دولية، وفي نزاعات ذات طابع دولي أو في حالة الاحتلال العسكري.

هذا وقد استقرت جميع الاتفاقيات الدولية والمتمثلة بالمادة (56) من لوائح لاهاي سنة 1907 والمادة (53) من اتفاقية جنيف سنة 1949، والمادة (47) من اتفاقية لاهاي سنة 1954؛ من أن وجود نوع من الممتلكات العامة كالمنشآت المتخصصة للأعمال الخيرية والعبادة والتعليم والآثار التاريخية تدخل في عداد الممتلكات الخاصة، التي لا يجوز لسلطات الاحتلال الاستيلاء عليها أو انتهاك حرمتها بطريقة أو بأخرى[30].

ونذكر من هذه الانتهاكات والاعتداءات على الممتلكات الثقافية والدينية، التي تعتبر من قبيل جرائم الحرب، العدوان الإسرائيلي المستمر المتمثل في أعمال الحفر الواقعة في الجهه الغربية من المسجد الأقصى وفي ساحة البراق وفي أماكن أخرى أثرية من مدينة القدس المحتلة منذ احتلالها القسم المتبقي من المدينة المقدسة سنة 1967 وحتى يومنا هذا؛ في محاولة منها لطمس المعالم العربية والإسلامية عن المدينة، وإخفاء الآثار التي تؤكد عروبة المدينة[31].

ويتمثل الخطر المحدق والحقيقي، الواقع على المدينة المقدسة، في عبث سلطات الاحتلال الإسرائيلي بتراث المدينة الثقافي والحضاري والهادف إلى طمس معالم السيادة الفلسطينية عنها، من خلال المخططات الإسرائيلية الهادفة إلى تهويدها منذ عشرات السنين، والتي أخذت منعطفاً خطيراً بعد احتلال ما تبقى من المدينة بعد سنة 1967، وتتالت المخططات تباعاً حتى أصبحت خطراً داهماً على المدينة يوشك أن يوقع كارثة كبيرة بالمدينة وبتاريخها وبثقافتها وبمنجزها الحضاري؛ حيث تقوم سياسة سلطات الاحتلال الإسرائيلي في هذا المجال بمحاولة نفي الوضع القائم، وإثبات الواقع الخرافي الزائف، من خلال محاولة تهويد كل الآثار الفلسطينية ليس في القدس الشريف فحسب

بل في كامل الأراضي الفلسطينية المحتلة. وما زالت أعمال الحفر أسفل المسجد الأقصى المبارك متواصلة بهدف إزالة وطمس الآثار العربية الإسلامية الواقعة حالياً في ساحة البراق، وهدم مسجد البراق، وحفر الأنفاق، التي تعمل على زعزعة وخلخلة أساسات المسجد الأقصى سعياً لبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه.

ثانياً: تراث القدس الثقافي في الأمم المتحدة:

1. قرارات الجمعية العامة:

تميزت مدينة القدس من بين مدن الأرض قاطبة بمكانتها الجليلة في تاريخ العلاقات الدولية بصفة عامة، وعلى صعيد التنظيم الدولي بصفة خاصة، فلم تحظ مدينة بمثل ما حظيت به القدس من اهتمام المجتمع الدولي بها، ولم يكن أساس هذا الاهتمام ثروات اقتصادية تتمتع بها المدينة أو لاعتبارات التوازن الدولي في المنطقة، بقدر ما كان الاهتمام بسبب هويتها الدينية[32].

وللقدس أهمية دينية بالغة لمعتنقي الإسلام والمسيحية واليهودية، مما يكسبها طابعاً عالمياً، وينعكس هذا في النصوص الأساسية التي خصصتها الجمعية العامة لحماية الأماكن المقدسة دون تمييز أياً كان. وتنعكس هذه الصفة العالمية أيضاً في النصوص المتعلقة بجعل القدس كياناً مستقلاً لا يخضع لسيطرة قومية محددة[33]. وهنا يلاحظ بأن القرار 181 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 1947/11/29 قد أعطى القدس خصوصية من خلال ما ورد في المادة (3) من الجزء الأول منه بحيث "تنشأ في فلسطين الدولتان المستقلتان؛ العربية واليهودية، والحكم الدولي الخاص بمدينة القدس"[34]. فقرار التقسيم أوصى بأن يجعل لمدينة القدس كياناً منفصلاً Corpus Separatum خاضعاً لنظام دولي خاص، وتتولى الأمم المتحدة إدارته، ويعين مجلس وصاية ليقوم بأعمال السلطة الإدارية نيابة عن الأمم المتحدة. فالقدس تخضع ككيان منفصل لسلطة دولية[35]، أي أن تكون القدس ضمن نظام حكم دولي خاص، تقوم على إدارته الأمم المتحدة.

والاعتراف هنا بخصوصية القدس له أكثر من دلالة، فهناك اعتبار للمدينة بحيث لا تكون ضمن أي نزاع سياسي وعسكري، كونها تحتفي برمزية دينية وسياسية

وثقافية. فالتدويل تنظيم لا يهدف إلى الاستقلال وتقرير المصير حسب رغبات أبناء المنطقة المدولة، وإنما يهدف إلى رعاية المصالح المشتركة بالنسبة للوضع الاستراتيجي أو الأهمية الدولية ذات الطابع الإنساني أو الديني أو الاقتصادي للمنطقة المدولة[36].

ويعدّ قرار التدويل أول بيان أعلنت فيه الجمعية العامة مبادئ تتعلق بالمركز القانوني الدولي لمدينة القدس. وتضمن الفصل الأول من القرار عنواناً مفرداً للأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية، إذ أكد القرار على أهمية أن "لا تنكر أو لا تمس الحقوق القائمة المتعلقة بالأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية"، بحيث تضمن حرية الوصول والزيارة والمرور لجميع المواطنين في الدولة الأخرى (الدولة العربية أو الدولة اليهودية) وفي مدينة القدس، كذلك صون الأماكن المقدسة والأبنية والمواقع الدينية[37]. هذه الأبنية هي التراث الثقافي للمسلمين والمسيحيين على حدّ سواء. كما أوصى البند (ج) من القرار في الجزء الثالث أن تقوم سلطة إدارية حكومية تعمل على حماية المصالح الروحية والدينية الفريدة الواقعة ضمن مدينة العقائد السماوية الكبيرة الثلاثة المنتشرة في أنحاء العالم (الإسلام والمسيحية واليهودية) وصيانتها، والعمل لهذه الغاية بحيث يسود النظام والسلام (السلام الديني خاصة) مدينة القدس[38].

ومن المهم الإشارة إلى "نظام مدينة القدس"، الذي أقره مجلس الوصاية في اجتماعه الـ 81 الذي انعقد في 1950/4/4، مستنداً إلى قرار التقسيم المذكور حسبما ورد في مقدمة النظام، حيث إن مجلس الوصاية معني بحماية المصالح الروحية والدينية الفريدة القائمة في المدينة للديانات السماوية الثلاثة[39]. والأهم من ذلك أن نظام مجلس الوصاية تضمن في المادة (38) نصوصاً واضحة لحماية الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية، كما تضمن في المادة (39) تشريعاً ينصّ على حفظ الآثار القديمة في مدينة القدس[40].

وبعد أن لم تنفذ أحكام قرار التقسيم، اتخذت الجمعية العامة القرار 194، الذي تضمن، بالإضافة إلى الأحكام المتعلقة بالعودة، الإعلان في الفقرة الثامنة أن الجمعية العامة: "تقرر أن منطقة القدس يجب أن تتمتع بمعاملة خاصة منفصلة عن معاملة مناطق فلسطين الأخرى، ويجب أن توضع تحت مراقبة الأمم المتحدة الفعلية"[41]. والتوافق الأساسي بين هذا القرار وقرار تقسيم فلسطين هو أن كل منهما ينصّ على مركز مستقل للقدس ووضعها تحت مراقبة الأمم المتحدة.

وفي القرار 303 المؤرخ في 1949/12/9، أشارت الجمعية العامة إلى كلا القرارين 181 و194 في الفقرة الأولى من الديباجة[42]، وتنصّ الفقرة الأولى من منطوقه على أن الجمعية العامة تقرر فيما يتعلق بالقدس:

أن تعيد، لذلك، إعلان غايتها في وجوب وضع القدس في ظلّ نظام دولي دائم، يجسد ضمانات ملائمة لحماية الأماكن المقدسة، داخل القدس وخارجها، وأن تؤكد بالتحديد الأحكام التالية من قرار الجمعية العامة 181 (د–2):

1. ينشأ في مدينة القدس كيان منفصل تحت حكم دولي خاص، تقوم على إدارته الأمم المتحدة.
2. يعين مجلس وصاية ليضطلع بمسؤوليات السلطة الإدارية.
3. تضم مدينة القدس بلدية القدس الحالية، بالإضافة إلى القرى والمراكز المحيطة بها.

وفي الفقرة الثانية من منطوق هذا القرار طلبت الجمعية العامة من مجلس الوصاية أن يتمّ إعداد النظام الأساسي للقدس واضعاً في اعتباره "المبادئ الأساسية لنظام الحكم الدولي للقدس المبينة في قرار الجمعية العامة 181 (د–2)"، وأن "يمضي فوراً في تنفيذه". ونصّ النظام الأساسي الذي اعتمده مجلس الوصاية بتاريخ 1950/4/4 في جملة أمور على حماية الأماكن المقدسة وحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية لجميع الناس في المدينة[43]، ولم يطرأ أي تغيير على المركز القانوني الأساسي الذي توخته للقدس قرارات الجمعية العامة الثلاثة التي ذكرت تواً. بمعنى أن هذا القرار أكد بأنه تقع على مجلس الوصاية مسؤولية الانتهاء من إعداد النظام الدولي لمدينة القدس وعرضه على الجمعية العامة للشروع في تطبيقه فوراً ودون إبطاء، وأن يقوم مجلس الوصاية بإدارة المدينة مع ضرورة وضع نظام يكفل الضمانات الملائمة لحماية الأماكن المقدسة داخل المدينة وخارجها.

ونصّ القرار رقم 185 بتاريخ 1948/4/26 على أن الجمعية العامة تعتبر حفظ النظام والأمن في القدس مسألة ملحة تعني الأمم المتحدة ككل، وهي تطلب من مجلس الوصاية أن يدرس، مع سلطة الانتداب والأطراف المعنية، الإجراءات الملائمة لحماية المدينة وسكانها[44].

وصدر القرار رقم 187 بتاريخ 1948/5/6، ووردت فقرة في القرار تؤكد على أنه تقرر اتخاذ إجراءات أخرى لحماية مدينة القدس وسكانها[45].

واشتمل القرار رقم 194 بتاريخ 1948/12/11 على عدة بنود من بينها "تقرر وجوب حماية الأماكن المقدسة"[46]، كذلك تضمن القرار "وجوب منح سكان فلسطين، جميعهم، أقصى حرية ممكنة للوصول إلى مدينة القدس بطريق البر والسكك الحديدية وبطريق الجو"[47].

وأعادت الجمعية العامة، بعد احتلال "إسرائيل" الشطر الغربي للمدينة، التأكيد من خلال قراراتها، قرار رقم 303 بتاريخ 1949/12/9[48]، وقرار رقم 356 بتاريخ 1949/12/10[49]، وقرار رقم 468 بتاريخ 1950/12/14؛ على الوضع الدولي الخاص لمدينة القدس والحفاظ على الأماكن المقدسة[50]. بمعنى أن "إسرائيل" باحتلالها الشطر الغربي للمدينة سنة 1948 تكون قد اعتدت على المجتمع الدولي، لأن القرار الدولي وضع القدس ضمن نظام دولي خاص.

وبعد ذلك لم تدرج الجمعية العامة موضوع القدس في دورتها السابعة سنة 1952، فقد قدّم الأمين العام للأمم المتحدة تريغفي لي Trygve Lie، المعروف بولائه للصهيونية، جدول أعمال الدورة السابعة دون الإشارة إلى بند "قضية فلسطين". وهكذا لم تتناول الجمعية العامة موضوع القدس منذ سنة 1952، لتبدأ مرحلة جديدة لقضية القدس في الجمعية العامة سنة 1967[51].

وبعد العدوان الإسرائيلي في حزيران/ يونيو 1967 ضمت "إسرائيل"، بموجب قانون بلدي إسرائيلي، ذلك الجزء من القدس الذي كانت تسيطر عليه الأردن سابقاً. وفي 1967/7/4 اتخذت الجمعية العامة القرار 2253، الذي ينصّ على أن الجمعية العامة:

> إذ يساورها شديد القلق للحالة السائدة في القدس، نتيجة للتدابير التي اتخذتها إسرائيل لتغيير مركز المدينة؛
>
> 1. تعتبر أن تلك التدابير باطلة.
>
> 2. تطلب إلى إسرائيل إلغاء جميع التدابير التي صار اتخاذها، والامتناع فوراً عن إتيان بأي عمل من شأنه تغيير مركز القدس.

وبعد عشرة أيام اتخذت الجمعية العامة القرار 2254، الذي أعلن، بعد الإشارة إلى القرار 2253 والإحاطة بعدم الالتزام به، أن الجمعية العامة:

1. "تأسف جداً لتخلف إسرائيل عن تنفيذ قرار الجمعية العامة 2253 (دإط–5).
2. تكرر الطلب الذي وجهته إلى إسرائيل في ذلك القرار بإلغاء جميع التدابير التي صار اتخاذها، والامتناع فوراً عن إتيان بأي عمل من شأنه تغيير مركز القدس"[52].

وهناك غموض بيّن في هذين القرارين، فالفقرة الوحيدة في ديباجة القرار 2253 تشير إلى "مركز المدينة" بينما تشير الفقرة الثانية من منطوق كل من القرارين السابقين إلى "مركز القدس". ويمكن تفسير هاتين العبارتين على أنهما تشيران إلى المركز القانوني للقدس، بوصفها كياناً مستقلاً أو تشير إلى مركز المدينة.

يمكن تفسير العبارة المطلقة "جميع التدابير التي صار اتخاذها" الواردة في الفقرة الثانية من منطوق كل من القرارين سالفي الذكر على أنها تعني مطالبة "إسرائيل" بإلغاء التدابير التي اتخذتها، بدون إشارة محددة إلى الوقت الذي اتخذت فيه هذه التدابير. وبناء على هذا التفسير فإن من شأن التدابير الإسرائيلية، التي ينبغي إلغاؤها، أن تتضمن ما اتخذ منها عقب غزو الجزء الغربي من القدس في أثناء العمليات الحربية الكثيفة في سنتي 1947 و1948، وكذلك ما اتخذ منها عقب غزو الجزء الشرقي من المدينة سنة 1967. المهم أن القرار تضمن مطالبة "إسرائيل" إلغاء كافة التدابير المتخذة لتغيير وضع مدينة القدس، وبالتحديد مركز المدينة[53].

وأشار القرار رقم 3005 الصادر بتاريخ 1972/12/15 إلى الطلب بالتحقيق في السياسات والممارسات الإسرائيلية، خاصة ما يتعلق منها بـ"نهب التراث الأثري والثقافي للأقاليم المحتلة"، و"المساس بحرية العبادة في الأماكن المقدسة الموجودة في الأقاليم المحتلة"[54]. وأكد القرار رقم 113/33 بتاريخ 1978/12/18 في الفقرة (ج) إدانة الممارسات والسياسات الإسرائيلية فيما يتعلق بـ"مصادرة الممتلكات العربية الخاصة والعامة في الأراضي المحتلة ونزع ملكيتها"، وأشار بند آخر إلى إدانة "نهب الممتلكات الأثرية والثقافية"[55].

وتضمن قرار الجمعية العامة رقم دإط – 2/7 بتاريخ 1980/7/29 ما يشير إلى مطالبة "إسرائيل بالامتثال بشكل تام لجميع قرارات الأمم المتحدة المتصلة بالطابع التاريخي لمدينة القدس الشريف"[56]. وتضمنت الفقرة (ج) من القرار رقم 122/35 بتاريخ 1980/12/11 إدانة لـ"إسرائيل" لممارساتها في مصادرة الممتلكات العربية الخاصة والعامة، في الأراضي المحتلة، ونزع ملكيتها. وأشار القرار إلى ممارسات أخرى من بينها نهب الممتلكات الأثرية والثقافية[57].

واشتمل القرار 169/35 بتاريخ 1980/12/15 في الفقرة (أ) على مطالبة "إسرائيل" بالامتثال امتثالاً تاماً لجميع قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالطابع التاريخي لمدينة القدس الشريف[58]. وأكدت الفقرة (هـ) من القرار[59]، على أن الجمعية العامة إذ تضع في اعتبارها المركز الخاص للقدس والحاجة، بوجه خاص، إلى حماية وصون البعد الروحي والديني الفريد للأماكن المقدسة في المدينة... وإذ تشجب إمعان "إسرائيل" في تغيير الطابع المادي لمدينة القدس الشريف وتكوينها الديموغرافي وهيكلها المؤسسي ومركزها... تقرر بأن كل التدابير والإجراءات التشريعية والإدارية التي اتخذتها "إسرائيل"، السلطة القائمة بالاحتلال، والتي غيرت أو تتوخى تغيير طابع ومركز مدينة القدس الشريف، وبخاصة "القانون الأساسي" المتعلق بالقدس الذي سنّ مؤخراً، وإعلان القدس عاصمة لـ"إسرائيل"، باطلة أصلاً ويتعين إلغاؤها[60]. وهذا معناه أن الجمعية رفضت الإجراءات التي من شأنها تغيير طابع القدس ومركزها.

واشتمل قرار الجمعية العامة رقم 15/36 بتاريخ 1981/10/28 على ما يؤكد قلق الجمعية العامة من الإجراءات الإسرائيلية في القدس إذ جاء فيه:

> وإذ تضع في اعتبارها الحاجة إلى حماية وصون الطابع والبعد الروحيين والدينيين الفريدين لمدينة القدس الشريف، وإذ تعرب عن أشد القلق لأن إسرائيل، السلطة القائمة بالاحتلال، تمعن في المضي في أعمال الحفر في المواقع التاريخية والثقافية والدينية للقدس، وفي تغيير معالم هذه المواقع، وإذ تلاحظ مع الجزع أن الأعمال الجارية في الحفر وتغيير المعالم تهدد بصورة خطيرة المواقع التاريخية والثقافية والدينية للقدس، فضلاً عن صورتها العامة، وأن هذه المواقع لم تتعرض قط من قبل لما تتعرض له اليوم من خطر، وإذ تلاحظ مع الارتياح والموافقة قرار لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة إدراج مدينة القدس القديمة وسورها في قائمة التراث العالمي، وإذ تلاحظ مع التقدير التوصية الصادرة عن المجلس التنفيذي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في دورته الثالثة عشرة بعد المائة بأن تعجل لجنة التراث العالمي بإجراءات إدراج مدينة القدس القديمة وسورها في قائمة التراث العالمي المعرض للخطر.

وقد اتخذت الجمعية القرارات التالية:

أ. تحكم بأن أعمال الحفر والتغيير في المنظر العام وفي المواقع التاريخية والثقافية والدينية للقدس تشكل انتهاكاً صارخاً لمبادئ القانون الدولي، والأحكام المتصلة بالموضوع من اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب المعقودة في 1949/8/12.

ب. تقرر أن هذه الانتهاكات التي ترتكبها "إسرائيل" تشكل عقبة خطيرة في سبيل تحقيق سلام شامل وعادل في الشرق الأوسط، فضلاً عن أنها تشكل تهديداً للسلم والأمن الدوليين.

ج. تطالب بأن تكفّ "إسرائيل" فوراً عن جميع أعمال الحفر وتغيير المعالم التي تقوم بها في المواقع التاريخية والثقافية والدينية للقدس، وخاصة تحت وحول الحرم الشريف (المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة) الذي تتعرض مبانيه لخطر الانهيار[61].

وتضمن قرار الجمعية العامة رقم 120/36 بتاريخ 1981/12/10 في الفقرة (د) من البند الخامس مطالبة "إسرائيل" بأن تمتثل امتثالاً تاماً لجميع قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالطابع التاريخي لمدينة القدس الشريف، وترفض سنّ الكنيست الإسرائيلي "قانوناً أساسياً" يعلن القدس عاصمة لـ"إسرائيل"[62]، وكررت هذا المطلب في الفقرة (هـ) من القرار[63]. كما جاء بوضوح في الفقرة (ج) من القرار رقم 147/36 بتاريخ 1981/12/16 أن الجمعية العامة تدين بشدة الإجراءات الإسرائيلية بما فيها عمليات الحفر، وتغيير معالم الأراضي الطبيعية، والأماكن التاريخية والثقافية والدينية، خاصة في القدس، واعتبرتها بمثابة جرائم حرب[64].

كما أدانت الفقرة (ج) من القرار رقم 88/37 بتاريخ 1982/12/10 إجراءات "إسرائيل" الهادفة إلى مصادرة الممتلكات العربية، وعمليات الحفر وتغيير معالم الأراضي الطبيعية والأماكن التاريخية والثقافية والدينية، وبخاصة في القدس، وأدانت نهب الممتلكات الأثرية والثقافية[65]. وجاء كذلك المضمون نفسه في القرارات رقم 180/38 في الفقرة (ج) بتاريخ 1983/12/19[66]، والفقرة (د) من قرار الجمعية العامة رقم 79/38 بتاريخ 1983/12/15[67]، والفقرة (د) من قرار الجمعية العامة رقم 95/39 بتاريخ 1984/12/14[68]، وقرار رقم 146/39 في الفقرة (ج) بتاريخ 1984/12/14[69]، والفقرة

(د) من قرار الجمعية العامة رقم 161/40 بتاريخ 1985/12/16[70]، والفقرة (د) من قرار الجمعية العامة رقم 63/41 بتاريخ 1986/12/3[71]، والفقرة (د) من قرار الجمعية العامة رقم 160/42 بتاريخ 1986/12/8[72]، والقرار رقم 209/42 الفقرة (د) بتاريخ 1987/12/11[73]، والفقرة (أ) من قرار الجمعية العامة رقم 58/43 بتاريخ 1988/12/6[74]، والفقرة (أ) من قرار الجمعية رقم 48/44 بتاريخ 1989/12/8[75]، وقرار الجمعية العامة رقم 74/45 بتاريخ 1990/12/11[76]. وكذلك جاءت إدانة قرار الجمعية في الفقرة (أ) رقم 47/46 بتاريخ 1991/12/9[77].

وأكدت عدّة قرارات للجمعية العامة على ضمان حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية، وكان ذلك في القرار رقم 176/43 بتاريخ 1988/12/15[78]، والقرار رقم 42/44 بتاريخ 1989/12/6[79]، والقرار رقم 68/45 بتاريخ 1990/12/6[80].

ونصّ كل من القرارين رقم 64/47 بتاريخ 1992/12/11 في الفقرة (د)[81]، والقرار رقم 158/48 بتاريخ 1993/12/20 في الفقرة (د)، على ضمان حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية[82].

ونصّ القرار رقم 87/49 بتاريخ 1994/12/16 في الفقرة (أ) على أن التدابير التي اتخذتها السلطات القائمة بالاحتلال، والتي غيرت أو توخت تغيير طابع ومركز مدينة القدس الشريف، وبخاصة ما يسمى "القانون الأساسي" المتعلق بالقدس وإعلان القدس عاصمة لـ"إسرائيل"؛ لاغية وباطلة ويجب إلغاؤها فوراً[83].

ونصّ القرارن رقم 78/49 الفقرة (أ) و(ب) بتاريخ 1994/12/16[84]، والقرار رقم 22/50 في الفقرة (أ) و(ب) بتاريخ 1995/12/4 على إدانة سياسة "إسرائيل" في فرض قوانينها على القدس والجولان السوري[85].

ونصّ القرار رقم 29/50 بتاريخ 1995/12/6، وفي عدّة فقرات، على إدانة الممارسات الإسرائيلية التي تمس حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة، والرجاء من الأمين العام أن يتخذ الخطوات المناسبة لحماية وإدارة الممتلكات والموجودات وحقوق الملكية للاجئين العرب[86].

ونصّ القرار رقم 27/51 بتاريخ 1996/12/4[87]، والقرار رقم 37/53 بتاريخ 1998/12/2[88]، والقرار رقم 37/54 بتاريخ 1999/12/1[89]، والقرار رقم 50/55 بتاريخ 2000/12/1[90]، وكذلك القرار رقم 31/56 بتاريخ 2001/12/3[91]، والقرار رقم 111/57

بتاريخ 2002/12/3[92]، والقرار رقم 22/58 بتاريخ 2003/12/3[93]، والقرار رقم 32/59 بتاريخ 2004/12/1[94]؛ على إعلان أن قرار "إسرائيل" بفرض قوانينها على مدينة القدس باطلٌ ولاغٍ.

وأكد القرار رقم دإط – 3/10 بتاريخ 1997/7/15 على أن جميع الإجراءات الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة لا يمكن الاعتراف بها[95].

وأكد القرار رقم دإط – 4/10 بتاريخ 1997/11/13 على أن جميع الإجراءات الإسرائيلية غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأرض الفلسطينية المحتلة لا يمكن الاعتراف بها، وأدان "إسرائيل" لاستمرارها في بناء مستوطنة جديدة في جبل أبو غنيم جنوبي القدس الشرقية المحتلة[96].

ونصّ القرار رقم دإط – 5/10 بتاريخ 1998/3/17 على إعادة تأكيد مطالبة "إسرائيل" بالتوقف عن القيام بالأعمال غير القانونية في القدس الشرقية المحتلة وبقية الأراضي العربية المحتلة[97].

ونصّ القرار دإط – 6/10 بتاريخ 1999/2/9 على الطلب من "إسرائيل" الوقف الفوري والكامل لأعمال البناء في مستوطنة جبل أبو غنيم، والطلب من الدول الأعضاء وقف المساعدة والدعم للأنشطة الإسرائيلية غير القانونية في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس[98].

وجاء القرار رقم 78/54 بتاريخ 1999/12/6 ليؤكد من جديد أن المستوطنات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس والجولان السوري المحتل، غير قانونية[99].

ونصّ القرار دإط – 13/10 بتاريخ 2003/10/21 على مطالبة "إسرائيل" بوقف وإلغاء تشييد الجدار في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك في القدس الشرقية وحولها[100]. فجدار الفصل العنصري يؤثر على مجمل التكوين التاريخي للمشهد الحضاري من مواقع ومعالم أثرية، مثل الحقول الزراعية والطرق التاريخية وعيون المياه ومقالع الحجارة القديمة والمدافن المغلقة والمقابر المفتوحة، إضافة إلى القرى التقليدية الفلسطينية والمدن التاريخية، والتشكيل التاريخي لاستخدام الأراضي.

وتظهر النتيجة المباشرة لبناء جدار الفصل العنصري في تدمير العديد من المواقع والمعالم الأثرية والتقليدية، مثل مصانع الشيد وآبار المياه المنتشرة، والمثال البارز ما حصل في منطقة السواحرة الشرقية في القدس، عندما تمّ الكشف عن دير بيزنطي تمّ التعاطي معه بشكل سريع بفكّ الأرضيات الفسيفسائية ونقلها إلى مستودعات دائرة الآثار الإسرائيلية. كما أن عملية بناء الجدار سوف تسهم في تدمير الآلاف من الحقول الزراعية التاريخية، مما يعني تدمير نظام تاريخي لاستخدامات الأرض المنتشرة بمحاذاة الجدار[101].

منذ سنة 1967 أتى الاستيطان بشكل مباشر على ما يزيد على 924 موقعاً ومعلماً أثرياً ضمن المخطط الهيكلي للمستوطنات في الضفة الغربية، واليوم بعد المباشرة في بناء الجدار، وبعد الانتهاء منه من المفترض أن يصل عدد المواقع والمعالم الأثرية، حسب نتائج الخرائط البريطانية المنشورة سنة 1944، الواقعة خلف الجدار حوالي 4,264 موقعاً ومعلماً أثرياً؛ منها 466 موقعاً، تشمل خِرْبات وتلال، أي ما نسبته 47% من مجمل المواقع الأساسية في الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية[102].

وأكد القرار رقم 292/58 بتاريخ 2004/5/6 على حقّ الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره والسيادة على أرضه، وأن الوضع في الأرض الفلسطينية المحتلة منذ سنة 1967، بما فيها القدس الشرقية، ما يزال وضع الاحتلال العسكري[103].

ونوه القرار رقم 59/32 لسنة 2005 بخصوص القدس إلى أن الإجراءات الإسرائيلية الأحادية لتغيير هوية القدس والأماكن المقدسة تعتبر باطلة وغير شرعية. كما أن إعلان "إسرائيل" أن القدس بشطريها هي عاصمة موحدة لـ"دولة إسرائيل" حسبما نصّ القانون الأساسي الصادر عن الكنيست سنة 1980 هو أمر غير قانوني ومرفوض[104]، وجاء نصّ القرار رقم 60/41 لسنة 2006 بالمضمون نفسه[105]. أما القرار 60/70 فأكد على أن جدار الفصل في الأرض الفلسطينية، بما فيها القدس الشرقية، غير قانوني، وأضراره الاجتماعية والاقتصادية تتعارض مع حقوق الإنسان وفقاً لما جاء في اتفاقية جنيف الرابعة[106].

وجاء القرار رقم 61/26 لسنة 2007 ليؤكد بطلان إجراءات "إسرائيل" كدولة احتلال في تغيير وضعية مدينة القدس وهويتها، ويفند الادعاء الإسرائيلي بأن القدس الموحدة هي عاصمة "إسرائيل" وفق القانون الأساسي الصادر عن الكنيست الإسرائيلي

سنة 1980. كما أكد القرار على أن مسألة القدس وحماية روحها الفريدة الثقافية والدينية مكفول ومصان في قرارات الأمم المتحدة[107]، وقد أكد القرار رقم 84/62 لسنة 2008 أيضاً على ذلك، مع الإشارة إلى بطلان شرعية جدار الفصل في الأرض الفلسطينية بما فيها القدس[108].

2. تعليق على قرارات الجمعية العامة:

كان بند القضية الفلسطينية هو البند الوحيد الذي أدرج على جدول أعمال الدورة الاستثنائية الأولى للجمعية العامة للأمم المتحدة التي عقدت في نيسان/ أبريل 1947 بناء على طلب الوفد البريطاني باعتباره ممثلاً للدولة المنتدبة، وبموجب نصّ المادة (10) من ميثاق الأمم المتحدة، واستمر إدراج هذا البند مع القضايا التي تفرعت عنه، ومنها قضية القدس أو الوضع الدولي لمدينة القدس في جدول أعمال الجمعية العامة خلال خمس دورات متعاقبة، حتى أصبحت نوعاً من العرف درجت عليه الأمم المتحدة، وخاصة جمعيتها العامة[109].

يمكن من خلال استعراض قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة قراءة تاريخ الانتهاكات الإسرائيلية للأماكن التاريخية والأثرية والدينية ومصادرة الأملاك الثقافية من قبل "إسرائيل" الدولة المحتلة. وينبغي ملاحظة أن هناك مرحلتين للتعامل مع قضية القدس، الأولى منذ سنة 1948 وحتى 1967، إذ كان الحديث مركزاً على ما قامت به "إسرائيل" من اعتداءات على النظام الدولي والمساس بقرار 181 الذي اعتبر القدس كياناً دولياً غير خاضع لأي قومية. فالقرارات قبل سنة 1967 بهذا المعنى كانت تخص الجزء الذي تمّ احتلاله من قبل "إسرائيل"، وأعني ما يسمى الشطر الغربي من القدس. أما المرحلة الثانية فتضم قرارات الجمعية العامة بعد 1967، إذ كانت تختص بالإجراءات الإسرائيلية في الجزء الغربي من القدس الذي احتلته "إسرائيل" سنة 1967، ومن هنا كان هناك تَحوّلٌ في تعامل الجمعية العامة مع قضية القدس.

ولقد شكل القرار 181 لسنة 1947 أساساً لكل قرارات الجمعية العامة التي صدرت بعده، كما يلاحظ بأن المركز القانوني للقدس في الأساس جاء من فكرة تدويل المدينة، واعتبارها كياناً دولياً منفصلاً.

كما يلاحظ بأن هذه الفقرات من قرارات مطولة للجمعية العامة للأمم المتحدة بخصوص القدس. وسيتبين أنه، وبعد أوسلو 1993، لم يعد هناك اهتمام من قبل

الجمعية العامة بإصدار قرارات فيها وضوح بخصوص الإجراءات التعسفية الإسرائيلية في الأرض المحتلة بما فيها القدس. كما يلاحظ أن قرارات الجمعية العامة ظلت تتحدث عن الأراضي المحتلة في فلسطين بما فيها القدس، أي أن الحديث كان مخصصاً ومعتبراً للقدس، لأن المدينة وفق قرارات الجمعية العامة، ومنذ قرار التقسيم، ما زالت كياناً منفصلاً تمّ احتلاله بعدوان إسرائيلي، وكانت أوصاف "إسرائيل" في هذه القرارات بأنها سلطة احتلال، يفترض أن تراعي ما جاء في الاتفاقات الدولية، خاصة ما جاء في اتفاقية لاهاي 1907 واتفاقية جنيف 1949.

ركزت قرارات الجمعية العامة على مسؤولية سلطات الاحتلال تجاه المواقع والأماكن التراثية، خاصة الدينية منها، في المحافظة عليها وعدم المساس بها، كما ركزت على السماح لأهل الديانات بممارسة شعائرهم بوصفه حقّاً طبيعياً مكفولاً لهم. ويلاحظ بأن قرارات الجمعية العامة ذهبت أبعد من ذلك عندما استنكرت مصادرة الممتلكات الثقافية، وأدانت الحفريات الإسرائيلية التي على ما يبدو لم يكن الهدف منها البحث عن الآثار، وإنما تخريب المعالم وهدمها بما يؤثر على سلامة الموقع، ويهدد أصالة المدينة وخصوصيتها. كما ركزت القرارات على أن الإجراءات الإسرائيلية حاولت تغيير مركز المدينة وطابعها، وأكثر من ذلك؛ فقد اعتبرت القرارات سنّ "إسرائيل" للقانون الأساسي من خلال الكنيست على أنه باطل ولاغٍ من حيث الأساس.

وبما أن القدس جزء من الأراضي المحتلة، فإنه يسري عليها كل القرارات التي طالبت بضرورة تطبيق اتفاقات جنيف على الأراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس، كذلك هو الأمر بالنسبة للعديد من القرارات التي أصدرتها الجمعية العامة بخصوص حقّ الشعب الفلسطيني في تقرير المصير.

3. قرارات مجلس الأمن:

يلاحظ بأن قرارات مجلس الأمن بشأن فلسطين والقدس تركزت على الناحية السياسية، غير أن بعضها اختص بالحديث عن بعض الجوانب ذات الصلة بالنواحي الثقافية.

فهناك، ومنذ فترة مبكرة، القرار رقم 50 الصادر بتاريخ 1948/5/29 تحت عنوان "الدعوة إلى حماية الأماكن المقدسة ووقف العمليات العسكرية لأربعة أسابيع"[110]. لكن يمكن القول عموماً بأن مجلس الأمن لم يتخذ قراراته الرئيسية بشأن القدس إلا بعد

سنة 1967، إذ يشير قرار مجلس الأمن 252 المؤرخ في 1968/5/21 إلى قراري الجمعية العامة 2253 و2254 وينصّ في الفقرات الثلاثة الأولى من منطوقه على أن مجلس الأمن[111]:

1. يأسف لامتناع إسرائيل عن الامتثال لقراري الجمعية العامة المذكورين أعلاه.
2. يعتبر أن جميع التدابير والإجراءات التشريعية والإدارية التي اتخذتها إسرائيل، بما في ذلك نزع ملكية الأراضي والممتلكات الموجودة عليها، التي تنزع إلى تغيير المركز القانوني للقدس، باطلة ولاغية ولا يمكن أن تغير ذلك المركز.
3. يدعو إسرائيل بإلحاح إلى أن تلغي جميع التدابير التي اتخذتها بالفعل، وأن تمتنع فوراً عن القيام بأي عمل آخر من شأنه أن يغير مركز القدس.

وتبين الفقرة الأولى المنقول نصّها أعلاه باتفاق قرار مجلس الأمن مع العبارات المطلقة الواردة في قراري الجمعية العامة 2253 و2254 وتشير الفقرة الثانية، المنقول نصّها أعلاه إلى بطلان جميع التدابير والإجراءات التشريعية والإدارية التي اتخذتها "إسرائيل"، أي دون تحديد وقت اتخاذها. وأبرز سمات الفقرة الثانية هي أنها تتخذ "المركز القانوني للقدس" كقاعدة، وتنصّ على أن الترتيبات التي ترمي إلى تغييره باطلة ولاغية. والمركز القانوني الوحيد المنصوص عليه للقدس هو وصفها بأنها كيان مستقل[112].

فهذا القرار دعا "إسرائيل" إلى إلغاء جميع إجراءاتها لتغيير وضع القدس، بما في ذلك مصادرة الأراضي والأملاك[113].

وامتنعت "إسرائيل" عن الالتزام بأحكام القرار 252، وفي 1969/7/3 اتخذ مجلس الأمن القرار 267[114]، الذي يشير إلى قراره 252 وقراري الجمعية العامة 2253 و2254، وتنصّ الفقرات الخمسة الأولى من منطوقه على أن المجلس:

1. يؤكد من جديد قراره 252 لسنة 1968.
2. يأسف لامتناع إسرائيل عن إظهار أي اعتبار لقرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن المذكورة أعلاه.
3. يشجب بأشد العبارات جميع التدابير المتخذة لتغيير مركز مدينة القدس.
4. يؤكد أن كل التدابير والإجراءات التشريعية والإدارية الإسرائيلية

التي ترمي إلى تغيير مركز مدينة القدس، بما فيها نزع ملكية الأراضي والممتلكات الموجودة عليها، باطلة ولاغية ولا يمكن أن تغير ذلك المركز.

5. يطلب بإلحاح مرة أخرى من إسرائيل أن تلغي فوراً جميع ما اتخذته من تدابير قد ترمي إلى تغيير مركز المدينة، وأن تمتنع في المستقبل عن الإتيان بأية أعمال يحتمل أن يكون لها مثل هذا الأثر.

وتؤكد الفقرة الأولى المنقول نصّها أعلاه من جديد القرار 252، الذي يتضمن قاعدة "المركز القانوني للقدس" الذي هو الكيان المستقل[115].

وجاء القرار رقم 271 بتاريخ 1969/9/15 ليبدي ملاحظة المجلس للغضب العالمي الذي سببه إحراق المسجد الأقصى، ودعوة "إسرائيل" إلى إلغاء جميع الإجراءات التي من شأنها تغيير وضع القدس[116]، ويمس بتراث الإنسانية. ولذلك، يقرأ هذا الاعتداء على أنه تهديد للسلام والأمن الدوليين، وقد عرف أن أهم اختصاصات مجلس الأمن هي حفظ السلم والأمن الدوليين[117].

وأبدى مجلس الأمن في قراره رقم 298 بتاريخ 1971/9/25 الأسف لعدم احترام "إسرائيل" قرارات الأمم المتحدة الخاصة بإجراءاتها لتغيير وضع القدس[118]. ففي هذا القرار بلورة ضرورة اللجوء إلى فكرة الإنسانية بما تعنيه من أن تلك المقدسات ليست مملوكة لجيل بعينه، وإنما كل جيل يعدّ مسؤولاً عنها، وعن إدارتها لحساب الأجيال المقبلة. ولعل من أهم الجرائم ضدّ الإنسانية وأخطرها هو انتهاك حرمة الأماكن الدينية المقدسة[119].

واتخذ مجلس الأمن القرار رقم 298 بتاريخ 1971/9/25[120]. وتشير الفقرة الأولى من ديباجته إلى قراري مجلس الأمن 252 و267، كما تشير إلى قراري الجمعية العامة 2253 و2254، وتصفها بأنها تتعلق بالتدابير والإجراءات التي اتخذتها "إسرائيل" بهدف تغيير مركز القطاع الذي تحتله "إسرائيل" من القدس. وتنصّ الفقرات الأربعة الأولى من منطوق القرار 298 على أن مجلس الأمن:

أ. يؤكد من جديد قراريه 252 سنة 1968 و267 سنة 1969.

ب. يأسف لامتناع "إسرائيل" عن احترام القرارات السابقة التي اتخذتها الأمم المتحدة فيما يتعلق بالتدابير والإجراءات التي اتخذتها "إسرائيل"، والتي ترمي إلى تغيير مركز مدينة القدس.

ج. يؤكد بأوضح العبارات الممكنة أن جميع الإجراءات التشريعية والإدارية التي اتخذتها "إسرائيل"، لتغيير مركز مدينة القدس، بما في ذلك نزع ملكية الأراضي والممتلكات، ونقل السكان، والتشريع الذي يهدف إلى ضم القطاع المحتل؛ لاغية كلياً ولا يمكن أن تغير ذلك المركز.

د. يطلب بإلحاح من "إسرائيل" أن تلغي جميع التدابير والإجراءات السابقة، وأن لا تتخذ تدابير جديدة في القطاع المحتل من القدس قد ترمي إلى تغيير مركز المدينة أو تخل بحقوق السكان ومصالح المجتمع الدولي بإقامة سلام عادل ودائم.

وهكذا يتبين أن القرارات تتحدث عن "مركز المدينة" بحيث إن على "إسرائيل" أن لا تتخذ أية إجراءات من شأنها تغيير مركز المدينة، وعدم اتخاذ تدابير جديدة في القطاع المحتل من المدينة، فالقطاع المحتل يشير بوضوح إلى القطاع من القدس الذي احتلته "إسرائيل" عقب العمليات العسكرية الحربية المكثفة في حزيران/ يونيو 1967[121]. فهذا القرار جاء مختلفاً عن القرارات السابقة التي كانت تنصّ على إدانة وشجب جميع الإجراءات الإسرائيلية التي من شأنها الإخلال بمركز المدينة، أو بما يؤدي إلى تغيير في ذلك، أي الإبقاء على الوضع القانوني للمدينة عشية صدور قرار التقسيم وهو التدويل، ولكنه يؤكد في هذا القرار على أن الممارسات الإسرائيلية وإدانتها من قبل الأمم المتحدة تسري فقط على "القطاع المحتل" من المدينة، وهو القطاع الذي احتلته "إسرائيل" في حرب 1967، وكأن ما حصل ويحصل في الجزء المحتل من القدس سنة 1948، أي القدس الغربية، أصبح حقّاً مكتسباً لـ"إسرائيل" تمارس عليه كل مقتضيات السيادة التي تمارسها الدول على إقليمها[122].

وجاء القرار رقم 476 بتاريخ 1980/6/30 لينصّ على إعلان بطلان الإجراءات التي اتخذتها "إسرائيل" لتغيير طابع القدس، وشجب استمرار "إسرائيل" في تغيير المعالم المادية للقدس[123].

ونصّ القرار رقم 478 بتاريخ 1980/8/20 على عدم الاعتراف بـ"القانون الأساسي" بشأن القدس، ودعوة الدول إلى سحب بعثاتها الدبلوماسية منها، ولوم "إسرائيل" أشد اللوم لمصادقتها على "القانون الأساسي" في الكنيست[124].

ونصّ القرار 672 بتاريخ 1990/10/12 عن القلق من "الحالة في الأراضي العربية المحتلة والإعراب عن الجزع لأعمال العنف في الحرم الشريف وغيره من الأماكن المقدسة في القدس، ومقتل أكثر من 20 فلسطينياً وجرح 150 من المصلين والمدنيين"[125].

ونصّ القرار رقم 1073 بتاريخ 1996/9/28 على دعوة "إسرائيل" للوقف والتراجع عن جميع الأعمال التي أدت إلى تفاقم الوضع بعد فتح النفق في مدينة القدس[126].

ونصّ القرار رقم 1322 بتاريخ 2000/10/7 على شجب التصرف الاستفزازي الذي حدث في الحرم الشريف في القدس في 2000/9/28، وأعمال العنف التي وقعت فيه بعد ذلك وفي غيره من الأماكن المقدسة[127].

ويلاحظ بأن جميع القضايا المتفرعة عن قضية فلسطين بلا استثناء، وبالذات قضية القدس وحفظ الأماكن المقدسة فيها، وإقرار النظام الدولي بها، ابتداء من سنة 1947، وجميع شكاوى الحكومات العربية ضد "إسرائيل"، والتي نظر فيها مجلس الأمن منذ سنة 1949 وإلى سنة 1966؛ قد أُدرجت جميعها تحت بند "قضية فلسطين"، في الوقت نفسه الذي طوت به الجمعية العامة هذا البند منذ سنة 1952.

وعلى الرغم من استمرار مجلس الأمن بمناقشة بند "قضية فلسطين" على جدول أعماله تحت هذا البند طوال هذه الفترة؛ فإن هذا البند بدأ يختفي من جدول أعمال المجلس منذ حزيران/ يونيو 1967 حيث بدأت تناقش القضايا المتفرعة عنها، القدس بالذات، تحت عنوان "الوضع في الشرق الأوسط"[128]، ولا يدل هذا الأمر على التخبط الذي تعمل فيه الأمم المتحدة فحسب، بل يدل دلالة واضحة على أصابع التآمر داخل المنظمة، التي تلاحق قضية فلسطين والقدس بالذات، ولغاية واحدة هي طمس هذه القضية[129]. وهكذا طمست قضية القدس في الجمعية العامة في وقت مبكر قبل أن تشطب في مجلس الأمن، وزيادة على ذلك فقد صدر قرار مجلس الأمن التاريخي رقم 242 بتاريخ 1967/11/22 تحت عنوان "الوضع في الشرق الأوسط" وما كانت الغاية إلا إبعاد أي حديث عن القدس أو حتى عن قضية فلسطين، وكل ما ذكر بشأن القضية "أن مجلس الأمن يؤكد ضرورة إيجاد تسوية عادلة لقضية اللاجئين" (راجع هذا القرار أعلاه) وهذا معناه أن قضية فلسطين والقدس اختزلت في إطار الأمم المتحدة بوصفها قضية للاجئين، بحيث إن هذا القرار رسخ المنحى الذي سارت فيه الأمم المتحدة واتضح بخلو جدول أعمال الجمعية العامة من قضية القدس وفلسطين منذ سنة 1952، ورسخ تغييب قضية فلسطين والقدس من جدول أعمال مجلس الأمن منذ سنة 1967.

4. قرارات اليونسكو:

جاء في الميثاق التأسيسي لمنظمة اليونسكو (الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) أن المنظمة تهدف إلى الإسهام في صون السلم والأمن بالعمل، عن طريق التربية والعلم والثقافة على توثيق عرى التعاون بين الأمم... ولهذه الغاية فإن المنظمة أخذت على عاتقها العمل من أجل تعزيز التعارف والتفاهم بين الأمم بتنشيط التربية والاتصال، وحفظ المعرفة وانتشارها، ولا سيّما بالسهر على صون وحماية التراث العالمي[130]. ولذلك، ينتظر من المنظمة أن تكون ذات رسالة أخلاقية حيادية وبعيدة عن التسييس[131]، ومن المتوقع أن تحظى الأهمية الروحية الثقافية والدينية للقدس بالأولوية في منظمة اليونسكو، باعتبارها معنية بالتراث الثقافي والإنساني العالمي[132].

وقرارات اليونسكو هي الأكثر تعبيراً عن التراث الثقافي لمدينة القدس، ومنظمة اليونسكو عادة لديها اجتماع مهم كل عامين يسمى "المؤتمر العام"، يعدّ أهم هيئة في المنظمة الدولية، لأنه يرصد خطوط سياسة المنظمة والنهج العام الذي تسلكه[133]، ويصدر عنه قرارات مهمة، وعادة تشمل التراث الثقافي لمدينة القدس، ويمكن تلخيص القرارات على النحو التالي:

نصّ القراران رقم 7.91 بتاريخ 1956/11/30[134]، والقرار 15م/3.342 لسنة 1968 على التوصية بحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح[135].

وجاء في القرار 15م/3.343 لسنة 1968 نصّ على "دعوة إسرائيل إلى المحافظة على الممتلكات الثقافية خصوصاً في القدس القديمة"[136].

وقرار 17م/3.422 بتاريخ تشرين الثاني/ نوفمبر 1972 على "دعوة إسرائيل بصورة مستعجلة إلى الكفّ عن تغيير معالم القدس وعن الحفريات الأثرية"[137].

وقد جاء هذا القرار بناء على قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم 2253 بتاريخ تموز/ يوليو 1967، وهناك القرار رقم 18م/3.427 بتاريخ 1974/11/20 والذي نصّ على "إدانة إسرائيل لموقفها المناقض لأهداف اليونسكو، وتنفيذ قرارات المؤتمر العام والمجلس التنفيذي بشأن حماية الممتلكات الثقافية في القدس"[138].

وقرار رقم 19م/4.129 لسنة 1976 الذي نصّ على "توجيه نداء رسمي لإسرائيل بالامتناع فوراً عن الحفائر الأثرية والتدابير التي تغير طابع مدينة القدس"[139].

وقرار رقم 20م/14.1 بتاريخ 1978/11/27 والذي نصّ على "دعوة المدير العام إلى اتخاذ جميع التدابير اللازمة لتطبيق القرارين 18م/13.1 و19م/15.1 بشأن المؤسسات التعليمية والثقافية في الأراضي العربية المحتلة"[140].

وقرار 20م/7.6 بتاريخ 1978/11/28 على "إدانة إسرائيل لتغيير معالم القدس التاريخية والثقافية وتهويدها"[141].

وجاء القرار 21م/4.14 بتاريخ 1980/10/27 لينصّ على "الإعراب عن القلق بشأن التغييرات في طابع القدس الثقافي والديني ودعوة الدول الأعضاء إلى رفض أي اعتراف بالتغييرات التي تدخلها إسرائيل على طابع القدس ووضعها"[142].

والقرار 22م/11.8 لسنة 1983 الذي نصّ "على دعوة الدول إلى اتخاذ جميع التدابير لإنهاء إجراءات إسرائيل بتهويد القدس، ويشكر لجنة التراث العالمي على إدراج مدينة القدس القديمة وأسوارها في قائمة التراث العالمي المعرض للخطر"[143].

والقرار 22م/11.16 بتاريخ 1983/11/25 الذي نصّ على صون التراث الثقافي والذاتية الثقافية للشعب الفلسطيني[144].

وقرار 23م/11.3 لسنة 1985 الذي "لفت انتباه الدول الأعضاء إلى حالة التدهور التي تمس جزءاً كبيراً من التراث الإسلامي، ويحث الدول الأعضاء على مساندة جهود هيئة الأوقاف بالمساهمة طوعاً في تمويل أعمال الصون في مدينة القدس واستنكار الاعتداءات على الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس"[145].

والقرار 23م/11.6 بتاريخ 1985/11/8 الذي نصّ على صون التراث الثقافي والذاتية الثقافية للشعب الفلسطيني[146].

وقرار 24م/11.6 لسنة 1987 الذي نصّ على دعوة المدير العام إلى مواصلة ضمان التطبيق الصارم لقرارات اليونسكو المتعلقة بصون التراث الثقافي للقدس، ما دامت المدينة تحت الاحتلال، وشجب الاعتداءات على الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس[147].

وقرار رقم 25م/3.6 لسنة 1989 والذي نصّ على:

> اعتبار أعمال الاعتداء والتدمير والتغيير التي يعاني منها التراث الثقافي للقدس إساءة إلى الذاكرة الجماعية للشعوب، ودعوة المدير العام إلى تكليف ممثله الشخصي تقديم تقرير عن حالة التراث الثقافي والديني بالقدس

في مجموعة، ودعا إلى شجب التغييرات الإسرائيلية للمواقع الثقافية والتاريخية في القدس، والدعوة إلى تقديم الدعم المالي للأوقاف[148].

وقرار رقم 26م/3.12 بتاريخ 1991/11/6 والذي نصّ على "دعوة سلطات الأوقاف الإسلامية في القدس إلى تشكيل مجلس مؤلف من شخصيات عالمية مشهود لها بالكفاءة على الصعيد الدولي لتقديم المشورة فيما يتعلق بأعمال الحفريات، وشجب التغييرات في القدس ولا سيّما تلك التي تهدد الأبنية التاريخة والدينية"[149].

وقرار 27م/3.8 بتاريخ 1993/11/13 والذي نصّ على "إعداد دراسة جامعية للتخصصات عن مشروع لحصر الممتلكات الثقافية وترميمها في مدينة القدس، والحفاظ على طابعها السكاني في انتظار المفاوضات الجارية"[150]. والأهم أن هذه الدورة جاءت بقرارات أهم على صعيد تأكيد دور اليونسكو بعد انطلاقة عملية السلام والمفاوضات، خاصة في مجال الحفاظ على التراث الحضاري والتاريخي لمدينة القدس، من خلال مواصلة الجهود لتطبيق قرارات اليونسكو الخاصة بالقدس، واحترام الميثاق التأسيسي للمنظمة، واتفاقية حماية التراث الطبيعي والثقافي سنة 1972[151].

وتضمن القرار رقم 28م/3.14 بتاريخ 1995/11/15 ما يشير إلى عمليات التنقيب في المنطقة المجاورة للحرم الشريف، والتغييرات التاريخية والمعمارية لحرم المدينة القديمة، ودعوة المدير العام إلى إعداد خطة شاملة لإنقاذ الممتلكات الثقافية في مدينة القدس[152].

وتضمن القرار رقم 29م/22 بتاريخ 1997/11/12[153]، والقرار رقم 30م/28 بتاريخ 1999/11/16[154]، والقرار رقم 32م/39 بتاريخ 2003/10/17 التذكير بقرارات اليونسكو السابقة بشأن صون التراث الثقافي لمدينة القدس الشرقية[155].

وتضمن القرار رقم 31م/31 بتاريخ 2001/11/2 شكر المدير العام لمنظمة اليونسكو على الجهود التي يبذلها لصون الممتلكات الثقافية والتاريخية لمدينة القدس القديمة[156].

وجاء في الدورة 33 لسنة 2005 تذكير بقرارات سابقة تتعلق بتسجيل القدس على لائحة التراث العالمي المهدد بالخطر، وإجراءات صون تراثها وقيمتها الثقافية الاستثنائية، وكل الجهود الرامية إلى المحافظة على تراثها، ويشير إلى العقبات التي تحول دون صون تراثها جراء الإجراءات الإسرائيلية، كما دعا إلى تكثيف الجهود الرامية إلى إنشاء مركز لصون المخطوطات الإسلامية في المدرسة الأشرفية بالحرم القدسي الشريف[157]، وقد أكدت الدورة 34 للمؤتمر العام لسنة 2007 ذلك مرة أخرى[158].

5. قرارات المجلس التنفيذي لليونسكو:

وعند الحديث عن اليونسكو لا بدّ من الإشارة إلى أن هناك قرارات يتخذها المؤتمر العام الذي يعقد مرة كل سنتين، وهناك جلسة المجلس التنفيذي وهو بمثابة مجلس إدارة للمنظمة[159]، وتعقد له ثلاث دورات سنوياً في حال انعقاد المؤتمر العام، ودورتان في حال عدم وجود مؤتمر عام[160]، ويصدر عن المجلس التنفيذي قرارات مهمة بشأن القدس، منها:

القرار رقم 82 م ت/4.4.2 لسنة 1969 الذي تضمن الطلب من السلطات الإسرائيلية المحتلة المحافظة على الأملاك الثقافية[161].

وتضمن القرار رقم 83 م ت/4.3.1 لسنة 1970 الإعراب عن القلق الشديد لانتهاكات "إسرائيل" للميثاق المتعلق بالمحافظة على الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح[162]. وتضمن القرار رقم 83 م ت/4.3.1.1 لسنة 1970 إدانة حريق المسجد الأقصى[163].

وتضمن القرار رقم 88 م ت/4.3.1 لسنة 1971 دعوة "إسرائيل" إلى المحافظة على الممتلكات الثقافية، خصوصاً الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية في القدس القديمة[164]. وهذا معناه أن "إسرائيل" تنتهك المقدسات المسيحية أيضاً، فقد جرت العادة في القرارات أن تتمّ الإشارة إلى المقدسات الإسلامية، وأحياناً يتمّ تخصيص للحرم الشريف أو المسجد الأقصى، أما هذا القرار فيؤشر بوضوح على أن "إسرائيل" تنتهك المقدسات المسيحية أيضاً.

وجاء في القرار رقم 89 م ت/4.4.1 بتاريخ حزيران/ يونيو 1972 الأسف على استمرار الحفريات الأثرية الإسرائيلية في القدس[165].

وأوصى القرار رقم 90 م ت/4.3.1 بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 1972 رفع مشكلة الحفريات الأثرية الإسرائيلية في القدس إلى المؤتمر العام[166].

وأوصى القرار رقم 92 م ت/4.5.1 لسنة 1973 الطلب من "إسرائيل" أن تحترم بدقة معالم القدس التاريخية[167].

وتضمن القرار 94 م ت/4.4.1 بتاريخ 1974/6/24 إدانة "إسرائيل" لخرقها المستمر لقرارات الأمم المتحدة واليونسكو بشأن مدينة القدس[168].

قرار رقم 107 م ت/4.5.7 لسنة 1979 والذي تضمن دعوة المدير العام لمنظمة اليونسكو إلى مواصلة جهوده لمنع "إسرائيل" من تغيير وضع مدينة القدس[169].

ونصّ القرار رقم 113 م ت/19 بتاريخ 1981/9/15 إلى 1981/10/7 الدعوة إلى صيانة الممتلكات الثقافية في مدينة القدس[170].

وأدان القرار رقم 114 م ت/5.4.2 لسنة 1982 "إسرائيل" لرفضها المتكرر تنفيذ قرارات اليونسكو المعنية بالقدس[171].

ونصّ القراران رقم 116 م ت/5.4.1 لسنة 1983[172]، ورقم 120 م ت/5.3.1 لسنة 1984[173]، على إدانة "إسرائيل" لسياسات الضم التي تلحق الضرر بالطابع الثقافي والديني لمدينة القدس.

ونصّ القرار رقم 121 م ت/5.4.1 لسنة 1985 على الطلب من "إسرائيل" تنفيذ توصيات المجلس التنفيذي لليونسكو الخاصة بالقدس[174].

واستنكر القراران رقم 125 م ت/5.4.1 لسنة 1986، والقرار رقم 127 م ت/5.4.1 بتاريخ 1987/10/15[175] الاعتداءات على الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس[176].

وأيضاً هناك القرار رقم 130 م ت/5.4.1 بتاريخ 1988/11/8 الذي تضمن شجب الحوادث الأخيرة التي وقعت في مدينة القدس القديمة المحتلة، ودعوة المدير العام إلى إيفاد ممثلين لوضع تقرير بشأن صون المواقع التاريخية هناك[177].

وكذلك القرار رقم 131 م ت/5.4.1 بتاريخ 1989/6/21 الذي شجب إجراءات "إسرائيل" لتغيير التراث الثقافي في مدينة القدس القديمة[178].

وشجب القرار رقم 135 م ت/5.3.1 بتاريخ 1990/10/25 التغييرات الإسرائيلية في التراث الثقافي للقدس وفي المدينة القديمة[179].

وشجب القرار رقم 140 م ت/5.5.1 بتاريخ 1992/10/29 التغييرات الإسرائيلية في القدس، والدعوة إلى تقديم الدعم المالي لصون المواقع الأثرية الإسلامية[180].

وهناك القرار رقم 142 م ت/5.5.1 بتاريخ 1993/10/22 الذي دعا "إسرائيل" إلى إصلاح الأضرار التي أصابت الآثار الإسلامية بسبب حفر النفق تحت الحرم الشريف[181].

وهناك القرار رقم 145 م ت/5.5.1 بتاريخ 1994/11/4 الذي دعا المدير العام لمنظمة اليونسكو إلى صون التراث الديني والثقافي والتاريخي للقدس، والحفاظ على طابعها السكاني[182].

ونوه القرار رقم 147 م ت/3.6.1 بتاريخ 1995/10/20 إلى قرارات سابقة لليونسكو متعلقة بالتراث الديني والثقافي والتاريخي لمدينة القدس، والانتباه إلى عمليات التنقيب الجديدة في المنطقة المجاورة للحرم الشريف[183].

وشجب القرار رقم 150 م ت/3.4.3 بتاريخ 1996/10/31 قيام "إسرائيل" بفتح نفق يمتد بمحاذاة الحائط الغربي للحرم الشريف[184]. ويعدّ هذا القرار مهماً لأنه يتصل بتغيير الطابع الديني أو الثقافي أو التاريخي أو السكاني للمدينة أو يخل بتوازن الموقع[185].

وهناك القرار رقم 152 م ت/3.3.1 بتاريخ 1997/6/4 بشأن قرارات سابقة لليونسكو متعلقة بصون التراث الديني والثقافي والتاريخي لمدينة القدس[186].

وتبنى القرار رقم 152 م ت/3.7.1 بتاريخ 1997/10/17 توصية المؤتمر العام باعتماد مشروع قرار يذكر بقرارات اليونسكو السابقة، المتعلقة بصون التراث الثقافي لمدينة القدس الشرقية، ودعوة المدير العام إلى تنفيذ أعمال ترميم قبة الصخرة بالتعاون مع دائرة أوقاف القدس[187].

وهناك القرار رقم 155 م ت/3.5.1 بتاريخ تشرين الثاني/ نوفمبر 1998 بشأن تنفيذ قرارات سابقة لليونسكو، متعلقة بصون التراث الديني والثقافي والتاريخي لمدينة القدس، ودعوة المدير العام إلى اتخاذ التدابير اللازمة لصون معالم القدس القديمة وسماتها وممتلكاتها الثقافية[188].

ونوه القرار رقم 156 م ت/3.5.1 بتاريخ حزيران/ يونيو 1999 بشأن تنفيذ قرارات سابقة لليونسكو، متعلقة بصون التراث الديني والثقافي والتاريخي لمدينة القدس[189].

ونوه القرار رقم 159 م ت/3.4.1 بتاريخ أيار/ مايو 2000 بشأن تنفيذ قرار سابق لليونسكو متعلق بصون التراث الثقافي لمدينة القدس[190].

وشجب القراران رقم 160 م ت/3.5.1 بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 2000[191]، ورقم 161 م ت/3.4.2 بتاريخ حزيران/ يونيو 2001، الاستعمال المفرط للقوة وأعمال العنف التي بدأت منذ 2000/9/28 في ساحة الحرم الشريف، وجدّد الطلب من "إسرائيل" تنفيذ قرارات اليونسكو بخصوص القدس[192].

ونوه القرار رقم 162 م ت/3.5.3 بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 2001 إلى قرارات سابقة لليونسكو متعلقة بالقدس، وشكر المدير العام على الجهود التي يبذلها لصون الممتلكات الثقافية والتاريخية لمدينة القدس القديمة[193].

ونصّ القرار رقم 164 م ت/3.5.3 بتاريخ أيار/ مايو 2002 على الطلب من المدير العام لليونسكو أن يواصل جهوده من أجل تنفيذ جميع القرارات السابقة المتعلقة بالقدس[194].

وجاء القرار رقم 165 م ت/3.5.1 بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 2002 بشأن تنفيذ قرارات سابقة لليونسكو، متعلقة بالقدس، وشكر المدير العام لمنظمة اليونسكو على الجهود التي يبذلها لصون الممتلكات الثقافية والتاريخية لمدينة القدس القديمة[195].

ونوه القرار رقم 166 م ت/3.4.1 بتاريخ نيسان/ أبريل 2003 بشأن قرارات سابقة لليونسكو، متعلقة بصون مدينة القدس القديمة، ودعم مبادرة المدير العام للمنظمة المتعلقة بإعداد خطة عمل شاملة لصون المدينة[196].

ونصّ القرار رقم 167 م ت/3.6.1 بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 2003 بشأن قرارات سابقة لليونسكو، متعلقة بصون مدينة القدس القديمة، ودعم مبادرة المدير العام المتعلقة بإعداد خطة عمل شاملة لصون المدينة[197].

وجاء القراران رقم 169 م ت/3.7.1 بتاريخ نيسان/ أبريل 2004[198]، والقرار رقم 170 م ت/3.6.1 بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 2004، بشأن تنفيذ قرارات سابقة لليونسكو متعلقة بصون مدينة القدس القديمة[199].

يلاحظ بأن قرارات المجلس التنفيذي اتخذت من الاتفاقيات الدولية مرجعاً لقراراتها، خاصة أحكام اتفاقية وبروتوكول لاهاي لسنة 1954 بشأن حماية الممتلكات الثقافية في حالة وقوع نزاع مسلح، وبالأحكام ذات الصلة من اتفاقية جنيف 1949، لكن الأهم أن مرجعية قراراته أضيف إليها مرجعيات أخرى بعد السبعينيات، أهمها: اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي أصدرتها اليونسكو سنة 1972. ولعل المرجعية الأهم في مطلع الثمانينيات هي أن تراث البلدة القديمة في القدس أصبح مدرجاً ومسجلاً على لائحة التراث العالمي منذ سنة 1981، وفي قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر منذ سنة 1982؛ بمعنى أن مرجعية قرارات اليونسكو بصورة عامة أصبحت أكثر غنى فيما يخص تراث مدينة القدس الثقافي. كما يلاحظ على قرارات المجلس التنفيذي بأن العديد

منها جاء ليذكر المنظمة الدولية بأهمية تنفيذ قرارات سابقة لها، بما يؤشر على أمرين؛ الأول: أهمية القرارات السابقة لليونسكو بوصفها مرجعية أساسية وثابتة ومستمرة. الثاني: أن "إسرائيل" لم تكن لتمتثل لقرارات اليونسكو بشأن المحافظة على تراث المدينة القديمة.

وجاء قرار المجلس التنفيذي رقم 171 م ت/64 لسنة 2005 ليذكر بقرارات تسجيل القدس على لائحة التراث العالمي المهدد بالخطر، وإجراءات صون تراثها وقيمتها الثقافية الاستثنائية، ويشير إلى العقبات التي تحول دون صون تراثها جراء الإجراءات الإسرائيلية. كما دعا إلى تكثيف الجهود الرامية إلى إنشاء مركز لصون المخطوطات الإسلامية في المدرسة الأشرفية بالحرم القدسي الشريف[200]، وقد أكد القرار 172 م ت/19 لسنة 2005 على ذلك أيضاً[201].

وجاء قرار رقم 174 م ت/14 و174 م ت/48 لسنة 2006 ليؤكد ما جاء في القرارين السابقين مع الإشارة إلى التقدم المحرز في صون مركز المخطوطات بالمدرسة الأشرفية[202]. وأشار كذلك القرار رقم 15/175 لسنة 2006 إلى أهمية المحافظة على تراث مدينة القدس، واستنكار الإجراءات الإسرائيلية التي تنال من طابع المدينة، وشكر المدير العام على جهوده بالنسبة لمركز المخطوطات بالمدرسة الأشرفية[203]، وكذلك جاء القراران رقم 175 م ت/14 ورقم 176 م ت/20 لسنة 2007 بالمضمون نفسه.

أما القرار رقم 177 م ت/20 جاء ليؤكد على ما جاء بالقرارات السابقة، مع الإشارة إلى أهمية أن لا تتخذ "إسرائيل" أي إجراء أحادي بالنسبة لتصميم طريق باب المغاربة إلا بالتنسيق مع الأطراف المعنية، وأن تقتصر على عملية التدعيم والتثبيت فقط[204].

وجاء في القرار رقم 179 م ت/59 لسنة 2008 ما يذكر بالقرارات السابقة، مع الإشارة إلى شكر مؤسسة ليفنتس Leventis Foundation على إسهاماتها السخية في ترميم كنيسة يوحنا المعمدان للروم الأرثوذكس. كما أكد على أهمية التنسيق واللقاءات بين الأطراف المعنية بتصميم طريق باب المغاربة[205].

وجاء في القرار رقم 181 م ت/10 لسنة 2009 ليؤكد حالة صون التراث الثقافي لمدينة القدس، ويعرب عن القلق مجدداً من الإجراءات الإسرائيلية التي تحول دون المحافظة على تراث المدينة الثقافي والطبيعي[206].

ثالثاً: التراث الثقافي لمدينة القدس في لجنة التراث العالمي في اليونسكو:

تمّ تسجيل القدس وتراثها على لائحة التراث العالمي على مرحلتين؛ اعتماداً على اتفاقية سنة 1972 التي أطلقتها اليونسكو لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، فإنه يسمح للدول المصادقة على الاتفاقية تقديم ملفات لترشيحات لمواقع تراثية ثقافية وطبيعية ليتمّ إدراجها على ما يسمى لائحة التراث العالمي، باعتبار أن هذه المواقع لها فرادة وخصوصية تاريخية لمجتمع ما، فهي بهذا المعنى تصبح عالمية السمة. ومن هنا، قدمت المملكة الأردنية الهاشمية ملفاً كاملاً مصوراً عن القدس (البلدة القديمة بأسوارها باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية) إلى اليونسكو بتاريخ 1980/12/16، وقد بذلت الأردن في حينها جهوداً دبلوماسية مكثفة أثمرت عن تسجيل تراث المدينة على لائحة التراث العالمي في شهر أيار/ مايو 1981، حيث اتخذت لجنة التراث العالمي قراراً بذلك بموافقة ثلثي الأصوات.

وجراء المخاطر التي تهدد تراث مدينة القدس بسبب الاحتلال، قدمت المملكة الأردنية الهاشمية ملفاً آخر يطلب إدراج تراث القدس على لائحة التراث العالمي المهدد بالخطر، ووافقت لجنة التراث العالمي على المطلب الأردني، بموجب قرار ثلثي أعضاء لجنة التراث العالمي سنة 1982[207].

وفي اجتماع لجنة التراث العالمي الـ 28 الذي عقد في بكين بالصين في تموز/ يوليو 2004 قدمت السلطات الإسرائيلية طلباً لشطب القدس من قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر، وتقدمت بطلب لتسجيل النقب ضمن قائمة التراث العالمي. لكن جهود المجموعة العربية حالت دون ذلك، وبقيت القدس على لائحة التراث المهدد بالخطر[208]. وكررت "إسرائيل" المحاولات تباعاً في اجتماعات لجنة التراث العالمي في ديربان Durban سنة 2005 بجنوب إفريقيا[209]، وسنة 2006 بلتوانيا[210]، وقد نصّ قرار لجنة التراث العالمي التي عقدت في كرايست شيرش Christ Church بنيوزيلندا صيف 2007 على الطلب من "إسرائيل" وقف الحفريات في طريق باب المغاربة، وإبقاء القدس على لائحة التراث المهدد بالخطر[211]، بعد أن قامت بهدم التلة المؤدية لباب المغاربة في شباط/ فبراير 2007. وفي دورة لجنة التراث العالمي التي عقدت في كيبيك Quebec – كندا صيف 2008 تمّ رفض طلب "إسرائيل" بتسجيل القدس على لائحتها التمهيدية في لجنة التراث العالمي، كما ورد

في قراراتها بأن "إسرائيل" ليست بمفردها مخولة بعمل تصميم لطريق باب المغاربة، وعليها أن تراجع سلطات الوقف والمملكة الأردنية الهاشمية بهذا الخصوص[212].

خلاصات:

- إن سلطات الاحتلال قامت باقتراف العديد من الجرائم على الممتلكات الثقافية والتاريخية والدينية، مخترقة بذلك الحماية الخاصة المكرسة لهذه الأماكن بموجب الأحكام والاتفاقيات الدولية. فالقدس مدينة محتلة بتعريف القرارات والمواثيق الدولية، و"إسرائيل" باعتداءاتها على الممتلكات الثقافية تكمل شخصيتها الاحتلالية ومروقها على القانون الدولي والمواثيق الإنسانية.

- إنّ الاعتداء على الأملاك الثقافية من أماكن دينية وأثرية وتاريخية في أكثر من موضع وأكثر من قرار بمثابة جرائم حرب، فقد اعتبرت أحكام المادة (147) من اتفاقية جنيف الرابعة تدمير واغتصاب الممتلكات الدينية والثقافية والتاريخية بصورة لا تقتضيها الضرورات الحربية الأكيدة من قبيل المخالفات الجسيمة، التي كُيِّفَت بنصّ المادة (85) من البروتوكول الإضافي الأول بأنها جرائم حرب. وهذا ما أكدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في القرار رقم 147/36 بتاريخ 1981/12/16 الفقرة السادسة بأن الاعتداء على الأماكن التاريخية والثقافية والدينية هي من قبيل جرائم الحرب، حيث نصّت على أن "حالات الخرق الخطير من قبل إسرائيل لأحكام اتفاقية جنيف هي جرائم حرب وإهانة للإنسانية".

- أدركت الحكومات الإسرائيلية أن طمس المعالم الثقافية للسكان العرب، وتغيير هوية الأرض، والعبث بشخصية المدن والقرى الفلسطينية وتزييفها لصالح تراث آخر؛ مهم في استكمال حلقات مشروعها التهويدي لاستبدال روح المكان وأصالته لصالح هوية أخرى. فـ"إسرائيل" مثلاً غيّرت أسماء الأمكنة، وتحاول بزيفها الدعائي الميثولوجي إيجاد ممتلكات ثقافية بديلة موهومة على الأرض العربية، ويتطلب ذلك سرقة الممتلكات العربية الثقافية. والأكثر من ذلك هو أن "إسرائيل" تعمل في أكثر من محفل على تسجيل مواقع عربية على أنها إسرائيلية بعد تغيير ملامحها، والمثال بالنسبة لمدينة القدس القديمة المسجلة على لائحة التراث العالمي

المهدد بالخطر، التي تحاول "إسرائيل" شطبها عن لائحة التراث بوصفها موقعاً عربياً فريداً وتقديمها على أساس أنها مدينة إسرائيلية وأن تراثها يهودي.

- على الرغم من تأجيل البحث في قضية القدس للمفاوضات النهائية، إلا أن الحكومة الإسرائيلية ما زالت ملزمة بتطبيق أحكام اتفاقية جنيف الرابعة، ولا سيّما في الأراضي المحتلة.

- إن مدينة القدس القديمة وأسوارها تتمتع بالحماية بموجب اتفاقية سنة 1972، المتعلقة بحماية التراث الثقافي والطبيعي في العالم، وبأن اسمها يرد على قائمة التراث العالمي المعرض للخطر على لوائح التراث العالمي لدى اليونسكو. وأن تغيير أي معالم سيضر بالمحافظة على الممتلكات الثقافية، وخصوصاً في القدس القديمة، التي باتت مهمة المحافظة عليها مسؤولية دولية. ومن هنا فحماية الممتلكات الثقافية في مدينة القدس ومنع إجراء الحفائر الأثرية والتدابير التي تغير طابع مدينة القدس منذ سنة 1967؛ سيحافظ على الطابع المميز لمدينة القدس القديمة، وما تقوم به "إسرائيل" من حفر سيضر بالآثار الإسلامية، ومنها أعمال الحفر في المنطقة الغربية من المسجد الأقصى وباب المغاربة، التي تعدّ مناقضة بشكل صريح للقانون الدولي والشرعية الدولية.

- إن مشكلة صون التراث الثقافي لمدينة القدس الشريف لا يمكن فصلها عن طابعها السياسي وخلفيتها التاريخية.

هوامش الفصل التاسع

[1] *The Conservation of Cultural Property* (Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (UNESCO), 1968), p. 19.

[2] راجع المادة الأولى من اتفاقية لاهاي سنة 1954 في: **القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية: مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى** (جنيف، سويسرا: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 1996)، ص 30.

[3] Emil Alexandrov, *International Legal Protection of Cultural Property* (Sofia Press, 1979), p. 9; Hudson, *International Legislation* (New York: 1950), p. 56; and see:

رشاد عارف السيد، **المسؤولية الدولية عن أضرار الحروب العربية الإسرائيلية** (عمّان: دار الفرقان، 1984)، ج 2، ص 208. وقد أشارت اتفاقية لاهاي إلى ميثاق واشنطن في مقدمة سبقت الاتفاقية كمرجعية مهمة، راجع ذلك في مرجعية الاتفاقية.

[4] علي خليل الحديثي، **حماية الممتلكات الثقافية في القانون الدولي** (عمّان: مطابع الدستور، 1999).

[5] راجع معاهدة برن، صادرة عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، جنيف، 1998، ص 3.

[6] راجع معاهدة الويبو بشأن حقّ المؤلف لسنة 1996، صادرة عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، جنيف، 2003، ص 5.

[7] راجع معاهدة الويبو بشأن الأداء والتسجيل الصوتي لسنة 1996، صادرة عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، جنيف، 2003، ص 5.

[8] انظر الفقرة الثانية من المادة (36) في: **القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية: مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى**، ص 43.

[9] ميشيل كونيل لاكوست، **مسيرة نحو غاية جليلة: اليونسكو 1946-1993** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995)، ص 131، 322.

[10] أحمد الصياد، **اليونسكو: رؤية للقرن الحادي والعشرين** (بيروت: دار الفارابي، 1999)، ص 221-222.

[11] انظر: مقدمة اتفاقية برن، ص 3؛ وانظر:

Conventions and Recommendations of Unesco: Concerning the Protection of the Cultural Heritage (Paris: UNESCO, 1983), p. 5.

[12] للزيادة انظر الاتفاقيات والتوصيات التي أقرتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) بشأن حماية التراث الثقافي.

[13] راجع هذا النصّ المنشور في: اليونسكو، تقرير عن تطبيق اتفاقية لاهاي سنة 1954 الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية في حالة نشوب نزاع مسلح وبروتوكوليها لسنتي 1954 و1999: تقرير عن الأنشطة من 1995-2004، ص 55-57.

[14] راجع وثائق المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو، الدورة 16، قرارات، باريس، 1970، ص 4.

[15] مجموعة مؤلفين، **القانون الدولي الإنساني** (بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية، 2005)، ج 2، ص 28.

[16] مصطفى أحمد فؤاد، **الأماكن الدينية المقدسة في منظور القانون الدولي: دراسة للانتهاكات الإسرائيلية بالأماكن المقدسة في فلسطين** (الإسكندرية: منشأة معارف، 2007)، ص 35-36.

[17] **القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية: مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى**، ص 24.

[18] **المرجع نفسه**، ص 26.

[19] الاتفاقية الرابعة من اتفاقيات جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب المؤرخة في 1949/8/12، راجع هذه الاتفاقية في: **اتفاقيات جنيف المؤرخة في 12 آب/ أغسطس 1949** (جنيف، سويسرا: منشورات اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 2003)، ص 204.

[20] **المرجع نفسه**، ص 206.

[21] **المرجع نفسه**، ص 210.

[22] **القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية: مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى**، ص 25.

[23] الاتفاقية الرابعة من اتفاقيات جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين وقت الحرب المؤرخة في 1949/8/12، راجع هذه الاتفاقية في: **اتفاقيات جنيف المؤرخة في 12 آب/ أغسطس 1949**، ص 183.

[24] **المرجع نفسه**، ص 196.

[25] **المرجع نفسه**، ص 196-197.

[26] مثل المادة (54)، **المرجع نفسه**، ص 206.

[27] اليونسكو، تقرير عن تطبيق اتفاقية لاهاي لعام 1954، ص 36-39.

[28] **للاطلاع على نصوص هذه الاتفاقية انظر: القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية: مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى**، ط 2 (جنيف، سويسرا: اللجنة الدولية للصليب الأحمر: الشعبة القانونية، أيلول/ سبتمبر 2001)، ص 29-45**.**

[29] اليونسكو، تقرير عن تطبيق اتفاقية لاهاي لعام 1954، ص 35.

إن نظام الحماية الخاصة الواقع تنظيمه في المواد من (8-11) من اتفاقية لاهاي 1954، الذي يتضمن إمكانية وضع عدد محدود من المخابئ لحماية الممتلكات الثقافية المنقولة ومراكز الأبنية التذكارية والممتلكات الثقافية الثابتة ذات الأهمية الكبرى لم يحقق النتائج المتوقعة منه، الأمر الذي دفع المعنيين بحماية الممتلكات الثقافية للسعي نحو إيجاد نظام جديد يكفل الحماية الفعلية للممتلكات الثقافية في فترات النزاع المسلح، وقد تمخضت هذه الجهود عن تضمين بروتوكول (1999) نظاماً جديداً يعرف بـ"الحماية المعززة". حيث حددت المادة (10) من البروتوكول الثاني (1999) الشروط الموضوعية اللازمة لوضع أي ممتلك ثقافي تحت نظام الحماية المعززة وتتمثل هذه الشروط فيما يلي:

- أن تكون هذه الممتلكات تراثاً ثقافياً على أكبر درجة من الأهمية بالنسبة للبشرية.
- أن تكون هذه الممتلكات محمية بتدابير قانونية وإدارية مناسبة على الصعيد الوطني، على نحو يعترف لها بقيمتها الثقافية والتاريخية الاستثنائية، وتكفل لها أعلى مستوى من الحماية.
- ألا تستخدم لأغراض عسكرية أو كدرع لوقاية مواقع عسكرية، وأن يصدر الطرف الذي يتولى أمر مراقبتها إعلاناً يؤكد على أنها لن تستخدم على هذا النحو.
- وفضلاً عن هذه الشروط الموضوعية السالفة الذكر، حددت المادة (11) من البرتوكول الثاني (1999) الشروط الإجرائية اللازمة لإدراج ممتلكاً ثقافياً على قائمة الممتلكات الثقافية ذات الحماية المعززة. حيث إن إقرار الحماية المعززة ليس مطلق، وإنما قد يتمّ فقدان هذه الحماية إذا توفرت أسباب فقدان الحماية المعززة الواردة بالفقرة الأولى للمادة (13) من البروتوكول الثاني (1999).

راجع بروتوكول 1999 من اتفاقية لاهاي المنشور في: اليونسكو، تقرير عن تطبيق اتفاقية لاهاي سنة 1954، ص 42-53.

[30] J. Robinson, "Transfer of Property in Enemy Occupied Territory", A.J.I.L., vol. 39, 1954, p. 219.

[31] راجع بعض الأمثلة على الانتهاكات والحفريات، رياض حمودة ياسين، **موجز تاريخ القدس** (عمّان: منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2005)، ص 64.

[32] رائد فوزي داود، **فكرة التدويل في القانون الدولي وتطبيقاتها في ضوء قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بمدينة القدس** (أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2003)، ص 105.

[33] وليم ثوماس ماليسون وسالس ف. ماليسون، **تحليل لقرارات الأمم المتحدة الرئيسية المتعلقة بقضية فلسطين** (نيويورك، الأمم المتحدة: 1979)، ص 55-56؛ و**قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1993)، ص 4؛ وراجع: الأمم المتحدة، الوثائق الرسمية للجمعية العامة، الدورة الثانية، 16 أيلول/ سبتمبر – 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1947، القرارات ص 131-132؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997** (بيروت: مجلس القدس العالمي، 1998)، ص 54.

34 سامي مسلم (جمع وتصنيف)، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الوثائق والدراسات – أبو ظبي، 1973)، ص 4-13؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة منذ عام 1947** (عمّان: منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، 1995)، ص 3.

35 كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني (نيويورك: 1998)، ص 620.

36 سالم الكسواني، **المركز القانوني لمدينة القدس** (عمّان: جمعية عمال المطابع، 1978)، ص 163.

37 سامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 8.

38 محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 32.

39 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 349.

40 **المرجع نفسه**، ص 357.

41 الأمم المتحدة، الوثائق الرسمية للجمعية العامة، الدورة الثالثة، وثيقة الأمم المتحدة A/810، 21 أيلول/ سبتمبر – 12 كانون الأول/ ديسمبر 1948؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 63.

42 الأمم المتحدة، الوثائق الرسمية للجمعية العامة، الدورة الرابعة، القرارات، وثيقة الأمم المتحدة A/1251، 20 أيلول/ سبتمبر – 12 كانون الأول/ ديسمبر 1948.

43 الأمم المتحدة، الوثائق الرسمية لمجلس الوصاية، الدورة الثانية، الجزء الثالث، المرفق ص 4-24، وثيقة الأمم المتحدة (1948) T/118/ Rev .2.

44 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 16؛ وانظر: سامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 13؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 31.

45 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 17؛ وسامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 14؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 31.

46 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 18؛ وانظر: سامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 15؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 33.

47 سامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 15؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 34.

48 **القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 68.

49 **المرجع نفسه**، ص 70.

50 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 24-25، 27؛ وسامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 20؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 36-38.

51 رائد داود، **فكرة التدويل في القانون الدولي**، ص 156.

52 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 92؛ والأمم المتحدة، الوثائق الرسمية للجمعية العامة، الدورة الثانية والعشرون، (دإط-5)، الملحق 1؛ وانظر: سامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 74؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 39؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 72.

53 نزار أيوب، **الوضع القانوني لمدينة القدس** (رام الله، الضفة الغربية: مؤسسة الحقّ، 2001)، ص 75.

54 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 135؛ وانظر: محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 46.

55 محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 56.

56 **المرجع نفسه**، ص 66.

57 **المرجع نفسه**، ص 72.

[58] **المرجع نفسه**، ص 78.
[59] **القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 75.
[60] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ص 205؛ وانظر: محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 80.
[61] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 213؛ وانظر: محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 84-85.
[62] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 234؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 89.
[63] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 234؛ وانظر: محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 90-91؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 79.
[64] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 234؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 97.
[65] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ص 43؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 118.
[66] **القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 93.
[67] محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 142.
[68] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 179؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 164.
[69] **القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 98.
[70] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 240؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 188.
[71] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 298؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 212.
[72] محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 244-245.
[73] **القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 118.
[74] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ص 97؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 280.
[75] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 168؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 318.
[76] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 221؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 343.
[77] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 269؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 371.
[78] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 120؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 292.
[79] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 150؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 309.
[80] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 202؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 331.
[81] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ص 12؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 401.

[82] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 92؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 438.
[83] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 134؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 454.
[84] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 137؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 155.
[85] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 154.
[86] **المرجع نفسه**، ص 168.
[87] **المرجع نفسه**، ص 206.
[88] **المرجع نفسه**، ص 302.
[89] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد السادس** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية)، ص 12.
[90] **المرجع نفسه**، ص 69.
[91] **المرجع نفسه**، ص 121.
[92] **المرجع نفسه**، ص 188.
[93] **المرجع نفسه**، ص 235.
[94] **المرجع نفسه**، ص 295.
[95] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 248.
[96] **المرجع نفسه**، ص 250.
[97] **المرجع نفسه**، ص 292.
[98] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد السادس**، ص 3.
[99] **المرجع نفسه**، ص 44.
[100] **المرجع نفسه**، ص 226.
[101] مجموعة مؤلفين، **القانون الدولي الإنساني**، ج 2، ص 192-193.
[102] أخذت هذه المعلومات من المؤسسة الفلسطينية لدراسة المشهد الحضاري، القدس، جمال برغوث ومحمد جرادات، راجع: مجموعة مؤلفين، **القانون الدولي الإنساني**، ج 2، ص 192-193.
[103] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد السادس**، ص 275.
[104] United Nations (UN), General Assembly, session 59 , 13/1/2005, see: www.un.org
[105] United Nations, General Assembly, session 60 , 10/2/2006.
[106] United Nations, General Assembly, session 60 , 2006.
[107] United Nations, General Assembly, session 61 , 2007.
[108] United Nations, General Assembly, session 62 , 2008.
[109] جورج طعمة، "قضية فلسطين على جدول أعمال الأمم المتحدة،" مجلة **شؤون فلسطينية**، بيروت، العدد 38، تشرين الأول/ أكتوبر 1974، ص 8-9.
[110] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 176؛ وسامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 105؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 473؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 175.
[111] الأمم المتحدة، الوثائق الرسمية لمجلس الأمن، السنة الثالثة والعشرون.
[112] وليم ماليسون وسالس ماليسون، **تحليل لقرارات الأمم المتحدة الرئيسية**، ص 55-56.
[113] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 199؛ ونزار أيوب، **الوضع القانوني لمدينة القدس**، ص 77؛ وسامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 123؛ وانظر: محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 486؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 183.
[114] United Nations, UN Security Council, Resolutions, 1969, in:

http://daccessdds.un.org/doc/RESOLUTION/GEN/NR0/250/90/IMG/NR025090.pdf?OpenElement

[115] جرى تأكيد قرار مجلس الأمن 252 من جديد أيضاً جنباً إلى جنب مع القرار 267 في الفقرة الأولى من منطوق قرار مجلس الأمن 271 المؤرخ في 1969/9/15، والذي يشير في الفقرة الأولى من ديباجته إلى الضرر البالغ الذي ألحقه الحريق بالمسجد الأقصى المقدس في القدس في 1969/8/21 في ظلّ الاحتلال العسكري الإسرائيلي، كما ورد في الفقرة الأولى من ديباجة القرار.

[116] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 203؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 489؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 186.

[117] مصطفى فؤاد، **الأماكن الدينية المقدسة في منظور القانون الدولي**، ص 158.

[118] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 205؛ وسامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 123؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 491؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 188.

[119] مجموعة مؤلفين، **القانون الدولي الإنساني**، ج 2، ص 20-21.

[120] الأمم المتحدة، الوثائق الرسمية لمجلس الأمن، السنة السادسة والعشرون.

[121] وليم ماليسون وسالس ماليسون، **تحليل لقرارات الأمم المتحدة الرئيسية**، ص 56-58.

[122] خليل إسماعيل الحديثي، "قضية القدس في الأمم المتحدة،" **القدس في الخطاب المعاصر**، ط 2 (الأردن: جامعة الزرقاء الأهلية، 2001)، ص 137-138.

[123] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 287؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 502؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 190.

[124] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 288؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 504؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 192.

[125] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 340؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 513؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 194.

[126] **القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 197.

[127] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد السادس**، ص 355.

[128] رائد داود، **فكرة التدويل في القانون الدولي**، ص 157.

[129] جورج طعمة، "قضية فلسطين على جدول أعمال الأمم المتحدة،" ص 10-11.

[130] المادة الأولى من الميثاق، راجع:

UNESCO, Manual of the General Conference, 2002 edition, Paris, p. 8 (Article I), in: http://unesdoc.unesco.org/Images/0012/001255/125590e.Pdf

[131] عزيز الحاج، **اليونسكو ضوء في آخر النفق** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987)، ص 11. لمزيد من النقاش حول هذه المسألة راجع: حسن نافعة، **العرب واليونسكو**، سلسلة عالم المعرفة 135 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص 46-49.

[132] مصطفى فؤاد، **الأماكن الدينية المقدسة في منظور القانون الدولي**، ص 165.

[133] المادة الرابعة من الميثاق، راجع:

UNESCO, Manual of the General Conference, 2002 edition, p. 10 (Article IV).

[134] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 248.

[135] **المرجع نفسه**، ص 249؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 211.

[136] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 249؛

وسامي مسلم، **قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين: 1947-1972**، ص 151؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 525؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 211.

[137] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 249؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 526؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 212.

[138] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 255؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 529؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 215.

[139] محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 531.

[140] **المرجع نفسه**، ص 538.

[141] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 350؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 542؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 218.

[142] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 354؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 222.

[143] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 432؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 548؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 224.

[144] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 433.

[145] **المرجع نفسه**، ص 436؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 550؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 227.

[146] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 437.

[147] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 441؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 524؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 229.

[148] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 441؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 554؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 231.

[149] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 448؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 556؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 233.

[150] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 485؛ ومحمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة**، ص 558.

[151] عدنان نصراوين، **اليونسكو ومهمة بناء حصون السلام في عقول البشر** (عمّان: مطابع الدستور، 1997)، ص 91.

[152] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 489.

[153] **المرجع نفسه**، ص 491.

[154] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد السادس**، ص 473.

[155] **المرجع نفسه**، ص 478.

[156] **المرجع نفسه**، ص 475.

[157] United Nations, General Conference, session 33, 2005.

[158] United Nations, General Conference, session 34, 2007.

[159] راجع المادة الخامسة من الميثاق، انظر:
UNESCO, Manual of the General Conference, 2002 edition, p. 14 (Article V).

[160] المادة الخامسة من الميثاق، انظر:
UNESCO, Manual of the General Conference, 2002 edition, p. 15 (Article V).

[161] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 266.

[162] **المرجع نفسه**، ص 267؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 235.

[163] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 268؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 237.

[164] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 271؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 237.

[165] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 272؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 239.

[166] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 272؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 240.

[167] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 273؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة**، 1947-1997، ص 241.

[168] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الأول 1947-1974**، ص 273؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 245.

[169] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 366؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 246.

[170] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثاني 1975-1981**، ص 367؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 247.

[171] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 440؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 249.

[172] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 444؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 252.

[173] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 445؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 254.

[174] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 447؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 255.

[175] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 453؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 260.

[176] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الثالث 1982-1986**، ص 448؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 258.

[177] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 457؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 264.

[178] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 459؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 265.

[179] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الرابع**، ص 467؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 269.

[180] **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 495.

[181] **المرجع نفسه**، ص 498؛ والقدس: **القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 270.

182 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 503؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 273.
183 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 505؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 276.
184 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 508؛ و**القدس: القرارات الدولية الكاملة، 1947-1997**، ص 279.
185 عدنان نصراوين، **اليونسكو ومهمة بناء حصون السلام**، ص 93-94.
186 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد الخامس 1992-1998**، ص 510.
187 **المرجع نفسه**، ص 511.
188 **المرجع نفسه**، ص 513.
189 **قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي: المجلد السادس**، ص 480.
190 **المرجع نفسه**، ص 482.
191 **المرجع نفسه**، ص 483.
192 **المرجع نفسه**، ص 485.
193 **المرجع نفسه**، ص 487.
194 **المرجع نفسه**، ص 490.
195 **المرجع نفسه**، ص 491.
196 **المرجع نفسه**، ص 494.
197 **المرجع نفسه**، ص 495.
198 **المرجع نفسه**، ص 498.
199 **المرجع نفسه**، ص 499.
200 United Nations, Executive Board, session 171, 2005.
201 United Nations, Executive Board, session 172, 2005.
202 United Nations, Executive Board, session 174, 2006.
203 United Nations, Executive Board, session 175, 2006.
204 United Nations, Executive Board, session 177, 2007.
205 United Nations, Executive Board, session 179, 2008.
206 United Nations, Executive Board, session 181, 2009.
207 راجع الوثيقة الخاصة بهذا في قرارات لجنة التراث العالمي لدى اليونسكو لسنة 1982، الدورة السادسة، الوثيقة رقم CLT-82\CONF.015\3
208 راجع قرار لجنة التراث العالمي، الدورة 28، المنعقد في بكين بالصين صيف 2004، ورقم القرار الذي بقيت بموجبه القدس تحت لائحة التراث المهدد بالخطر (28COM 7 A.28). يمكن مراجعة هذا القرار على موقع اليونسكو الإلكتروني وتحت عنوان "لجنة التراث العالمي".
209 راجع قرار لجنة التراث العالمي، الدورة 29، المنعقد في ديربان بجنوب إفريقيا صيف 2005، ورقم القرار الذي بقيت بموجبه القدس تحت لائحة التراث المهدد بالخطر (29COM 7 A.31). يمكن مراجعة هذا القرار على موقع اليونسكو الإلكتروني وتحت عنوان "لجنة التراث العالمي".
210 راجع قرار لجنة التراث العالمي، الدورة 30، المنعقد في لتوانيا صيف 2006، ورقم القرار الذي بقيت بموجبه القدس تحت لائحة التراث المهدد بالخطر (30COM 7 A.34). يمكن مراجعة هذا القرار على موقع اليونسكو الإلكتروني وتحت عنوان "لجنة التراث العالمي".
211 راجع قرار لجنة التراث العالمي، الدورة 31، المنعقد في نيوزيلندا صيف 2007، ورقم القرار 31COM 7 A.18. يمكن مراجعة هذا القرار على موقع اليونسكو الإلكتروني وتحت عنوان "لجنة التراث العالمي".
212 قرارات لجنة التراث العالمي، الدورة 32، صيف 2008، كيبيك – كندا، القرار رقم 32COM 7A.18.

الفصل العاشر

القدس في الموسوعات العالمية

القدس في الموسوعات العالمية

د. رياض حمودة ياسين

مقدمة:

يأتي هذا البحث في سياق الإحاطة والاهتمام بكل ما يعني القدس ويكتب عنها، وخاصة في نوعية من الكتابات تقدم نبذة مختصرة لمدخل ما يفترض أن يتحرى الموضوعية والحيادية، لأن مخاطبه ليس شخصاً بعينه بل موجه لكل شرائح المجتمع في كل شعوب العالم.

تتوافر الموسوعات عادة في المكتبات الكبرى ومراكز الدراسات والأبحاث والمعلومات التي غدت في عصر العولمة إلى جانب الفضائيات مركز جذب لصانعي القرار والسياسيين وحتى الأكاديميين وطلبة العلم، نظراً لكونها توفر مادة جاهزة مختصرة مركزة، موثقة أحياناً وغير موثقة أحياناً أخرى. لكنها تشكل طريقة سهلة ومبسطة للحصول على معلومة جاهزة من أكثر من جانب، وقد ترقى للشمول أحياناً، وقد تعين على تكوين فكرة حول موضوعة ما. فالموسوعات ذات قيمة علمية وثقافية هائلة، لذا تحرص المكتبات على اقتنائها.

هذه الموسوعات تمثل في بعض الأحيان وجهة نظر ثقافية ما، وقد تتضمن نقاطاً توفيقية يجمع عليها عدد من الباحثين ينتمون إلى بلد أو ثقافة ما. فالموسوعة أحياناً تمثل تعبيراً عن رأي ثقافي حيال موضوعة ثقافية أو سياسية. وهنا، لا نتحدث عن المداخل الثابتة التي لا يمكن أن يكون فيها هامش للأخذ والرد، بل عن تلك المداخل التي فيها هامش كبير للتداخل المعرفي، بحيث يكون لها في كل حقل خصوصية ما، هذا ناهيك عن تأثير الأيديولوجيا في كتابة بعض المداخل لا سيّما ذات الطابع السياسي كما هو الحال في موضوعنا.

وفي هذه الدراسة تمّ استعراض نماذج عديدة من الموسوعات الشهيرة المتوفرة في المكتبات وبعض المواقع الإلكترونية، حيث تمت دراسة مادة القدس في 23 موسوعة متوفرة، وهي غالباً تمثل الموسوعات الرائجة واسعة الانتشار في دور الكتب ومراكز البحث والدراسات.

وسيُلاحظ أن الموسوعات، لا سيّما العالمية منها، اكتسبت ثقة عالمية كمصادر ومراجع علمية، لكن هذا لا يحول دون أن يكون بعضها قد يجافي الصواب والحقيقة في جوانب معينة، وذلك لأسباب أيديولوجية أو سياسية أو نحوها. ومن المداخل التي لحق بها هذا الحيف في عدد من الموسوعات مدخل (القدس)، وفي هذه الدراسة يرصد الباحث ما اشتملت عليه هذه الموسوعات من مغالطات مقصودة أحياناً وأخطاء غير مقصودة أحياناً أخرى. وقد تمّ التركيز على الجانب التاريخي والآثاري والسياسي في الدراسة أكثر من الجوانب الأخرى، التي قد لا يستطيع الباحث الإحاطة بها؛ لأنها تحتاج إلى هامش واسع من البحث والتخصصية في جوانب عديدة، وقد اقتصر الباحث على قراءة الجوانب التي قد يكون من المفيد توجيه النقد لها لا سيّما وأنها تجاهلت حقائق مهمة عن مدينة القدس، وتعمدت تقديم تاريخ المدينة لخدمة أيدولوجيا سياسية معينة.

قامت منهجية البحث على دراسة مادة القدس في الموسوعات من خلال دراسة كل موسوعة على حده، وذلك للكشف تماماً عن مادة كل منها ومعلوماتها، وسيلاحظ أن هناك تكراراً في بعض المعلومات والمغالطات التي قصد الباحث تكرارها في دراسة كل موسوعة، حرصاً على الموضوعية والمنهجية العلمية، فالتكرار قد يكون مبرراً في هذه الحالة، إذ إن الباحث وجد هذه المنهجية أكثر فائدة، فكل موسوعة بالمحصلة تمثل بحثاً خالصاً قد يحمل طابعاً معيناً.

أولاً: الموسوعات العامة:

1. الموسوعة البريطانية (للصغار) Britannica Junior Encyclopedia:

عند تصفح هذه الموسوعة وقراءة مادة القدس بعناية، فإن المدقق والفاحص لما ورد في مادتها يلاحظ ما يلي:

أ. عندما حددت موقع القدس ذكرت أنها في "إسرائيل" والأردن[1]، وهذا كان حسب الوضع السياسي القائم قبل سنة 1967 على الرغم من أن هذا الوضع لا يتضمن حدوداً دولية[2].

ب. ذكرت الموسوعة أن القدس تقع في التلال اليهودية[3]، وهذه تسمية يهودية والتسمية العربية لها هو جبال القدس.

ج. أوردت أن الحد الدولي بين "إسرائيل" والأردن يجري عبر المدينة ويقسمها إلى قسمين[4]، وهذا ليس حداً دولياً وإنما خط الهدنة[5].

د. أشارت إلى أن القدس تقع على بعد 35 ميلاً جنوب شرق تل أبيب يافا في "إسرائيل"[6]، وهذا تحديد جغرافي للمدينة بالنسبة إلى "إسرائيل" وليس بالنسبة إلى الأردن، ولا أي من مدن الضفة الغربية.

هـ. ذكرت أن المدينة الحديثة هي عاصمة "إسرائيل" ومركزها الثقافي[7]، وهذا الوضع ليس معترفاً به دولياً، ولا يوجد له أي سند سياسي وقانوني.

و. حددت أن جبل صهيون يقع في الشمال الشرقي[8]، والصحيح أنه يقع في الجنوب الغربي[9].

ز. ذكرت أن قبة الصخرة هي مسجد عمر[10]، وهذا غير صحيح[11]، فقبة الصخرة المشرفة أتم بناءها الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 72هـ/691م[12]. ويسمي الأوروبيون مسجد قبة الصخرة خطأ مسجد عمر[13].

ح. ذكرت أن قبة الصخرة بنيت على معبد سليمان[14]، وهذا غير مثبت من الناحية الأثرية حتى الآن[15].

ط. عند استعراض تاريخ القدس أهملت الموسوعة الفترة ما قبل عهد داود عليه السلام[16]، أي قبل الألف الأولى للميلاد، فلم تتحدث عن العرب الكنعانيين والعموريين واليبوسيين الذين سكنوها قبل ذلك[17].

ي. ذكرت الموسوعة أن داود سمّى المدينة أوروشالم[18]، على الرغم من أن الاسم أسبق من ذلك فهو في زمن الكنعانيين، وقد ورد في كتابات نصوص اللعنة المصرية (سميت نصوص اللعنة المصرية بذلك لأنها اشتملت على أسماء البلدان والمدن والحكام الذين لعنوا بسبب نواياهم وأفعالهم الشريرة ضدّ مصر، وهي نصوص ترجع إلى فترة الأسرة الفرعونية 12 وتحديداً زمن حكم سيزو ستريس الثالث 1879-1842ق.م)، وهي عبارة عن نقوشات خشبية أو نقوشات على جرار فخارية احتوت على الكثير من الكتابات، ويقدر عددها بنصف مليون لوحة وجرة. وهذه الاكتشافات تعدّ من أفضل الوثائق المؤرخة للعصور الغابرة، فيما يخص بلدان مثل سورية ولبنان وفلسطين والعراق) ومراسلات تل العمارنة (وهي مجموعة

من الألواح اكتشفت في صعيد مصر، في معبد الكرنك، وتعود أخبارها إلى القرنين 14 و15ق.م، وهي لوحات مسمارية كتبت باللغة الأكادية، وموضوعاتها عبارة عن مراسلات حدثت بين ولاة الأقاليم، وحكام وملوك الفراعنة في مصر، وعددها 360 لوحة من الآجر)[19].

ك. ذكرت أن موقع هيكل سليمان يقع على جبل موريا[20]، أي مكان الحرم القدسي، فجبل موريا يقع شمالي هضبة أوفل (الاسم آرامي الأصل) وهو محصور ضمن أسوار حجرية ترتفع زاويتها الجنوبية الغربية 38 متراً، وترتفع زاويتها الجنوبية الشرقية 46 متراً[21]. وهذا الادعاء غير ثابت أثرياً حتى الآن، بمعنى أنه لا يوجد ما يؤكد ويدلل على ذلك بشهادة علماء الآثار الإسرائيليين والأجانب، مثل: كاثلين كينيون، يائير زاكوفتش Yair Zakovitch، وإيلات مازار Eilat Mazar، وبن دوف، وشيلو Shiloh، وورن، وكوندير، وروبنسون، وسالكي، ودي فوجي، وبوريتي، وفنكلشتاين، وديفيد اسشكين David Ussishkin[22].

ل. عند استعراض تاريخ القدس أهملت الموسوعة فترة الحكم الفارسي[23]، كما أهملت فترة حكم الأمويين والعباسيين والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والسلاجقة والمماليك والعثمانيين[24].

م. ذكرت أن من حرر القدس من الصليبيين هم الترك[25]، وهذا غير صحيح حيث إن من حررها هي جيوش مسلمة من أعراق مختلفة (عرب وترك وكرد...) بقيادة صلاح الدين الأيوبي الكردي[26].

ن. ذكرت أن الأمم المتحدة قسمت القدس سنة 1948 بين "إسرائيل" والأردن[27]، وهذا غير صحيح، إذ إن هذا الوضع اعتمد على نتيجة الحرب العربية الإسرائيلية والإرهاب الصهيوني والمجازر، خاصة في دير ياسين، وليس على قرار صادر من الأمم المتحدة[28].

2. موسوعة كولير Collier's Encyclopedia:

أ. ذكرت أن القدس تقع على الهضبة اليهودية[29]، وهده تسمية يهودية والتسمية العربية الأصيلة هي جبال القدس.

ب. ذكرت أن موقع هيكل سليمان تحت القبة[30]، وهذا غير ثابت أثرياً حتى الآن[31]، بشهادة الآثاريين الإسرائيليين أنفسهم كما سبق ذكره.

ج. ذكرت أن الحدود بين الأردن و"إسرائيل" عبر مدينة القدس[32]، وهذه ليست حدوداً وإنما خط الهدنة[33].

3. موسوعة كومبتون Compton's Encyclopedia:

بعد تصفح مادة القدس في هذه الموسوعة يمكن ملاحظة ما يلي:

أ. ذكرت أن القدس تقع على التلال اليهودية[34]، وهذه تسمية يهودية، والتسمية الأصلية يفترض أن تكون عربية فيقال لها جبال القدس.

ب. اعتمدت على بعض المعلومات المأخوذة من المعتقدات اليهودية، خاصة من العهد القديم من الكتاب المقدس، وكأنها حقائق على الرغم من عدم ثبوتها أثرياً. فذكرت أن حجارة حائط المبكى من هيكل سليمان، وأن قبة الصخرة تقع على موقع سليمان، وأن الصخرة كانت مذبحاً للضحايا المحروقة في التاريخ العبري[35]. وهذه المعلومات غير ثابتة حتى الآن[36]، وتفتقر إلى إثباتات تاريخية موثوقة وحيادية.

ج. ذكرت أن الحدود بين الأردن و"إسرائيل" عبر مدينة القدس[37]، وهذه ليست حدوداً وإنما خط الهدنة[38].

4. الموسوعة الأمريكية Encyclopedia Americana:

يمكن ملاحظة ما يلي عند تصفح هذه الموسوعة:

أ. ذكرت أن القدس تقع في الجبال اليهودية على حافة الصحراء اليهودية[39]، وهذه تسميات لا تستند إلى مصادر تاريخية حقيقية، بل تسمي مواقع في فلسطين التاريخية بأسماء يهودية.

ب. أوردت بعض المعلومات المأخوذة من المعتقدات اليهودية كأنها حقائق، على الرغم من عدم ثبوتها أثرياً وتاريخياً، فذكرت أن حائط المبكى هو بقايا سور يحيط بموقع الهيكل الثاني[40]، وأن الحرم الشريف هو موقع جبل الهيكل[41]، وأن إبراهيم عليه السلام ضحى بابنه إسحق عليه السلام على موضع قبة الصخرة[42]. وهذه ليست حقائق تاريخية بل معتقدات يهودية لم تثبت من خلال مصادر موثوقة ترقى إلى التاريخية، هذا إلى جانب أنه لا يوجد دليل أثري يؤيدها[43]. وقد أكد علماء آثاريون إسرائيليون بأنه لا يوجد دليل على ذلك، كما أشرنا سابقاً.

5. الموسوعة الآسيوية Encyclopedia Asiatica:

أبرز الملاحظات يمكن تلخيصها تندرج فيما يلي:

أ. عند استعراض تاريخ القدس في الموسوعة يلاحظ أنها أهملت الفترة قبل عهد داود عليه السلام[44]، فلم تتحدث عن العرب الكنعانيين والعموريين واليبوسيين الذين سكنوها قبل ذلك[45].

ب. ذكرت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الخليفة الثالث[46]، والصحيح والثابت تاريخياً والذي لا يحتمل الشك مطلقاً أنه الخليفة الثاني[47].

ج. عند استعراض تاريخ القدس أهملت فترة حكم الأمويين والعباسيين والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والسلاجقة والمماليك والعثمانيين[48].

6. دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam:

يمكن ملاحظة ما يلي عند تصفح مادة القدس:

أ. تطلق هذه الموسوعة على المنطقة التي يقع عليها المسجد الأقصى وقبة الصخرة اسم منطقة الهيكل[49]، وهذا غير ثابت أثرياً حتى الآن.

ب. ترجمة عبارة مدينة بيت المقدس، التي هي اسم القدس في الفترة الإسلامية المبكرة، بعبارة إيليا مدينة الهيكل[50]، وهذه ترجمة غير صحيحة[51]. والصحيح أن "بيت المقدس" هو الاسم الإسلامي الذي أطلق على المدينة، لأنه يستعمل بهذه الصيغة في كتب الحديث والفقه والتاريخ، والاسم يعني بيت الطهارة والتقديس والعبادة أو (بيت الله). ولذلك فإنه قد يستعمل للدلالة على المسجد الأقصى، وقد يستعمل للدلالة على المدينة، من باب إطلاق الجزء على الكل[52].

7. موسوعة ليكسيكون العالمية Lexicon Universal Encyclopedia:

يمكن الإشارة في هذه الموسوعة إلى بعض الملاحظات:

أ. ذكرت أن القدس عاصمة "إسرائيل"[53]، وهذا غير معترف به دولياً، فالقدس افتراءً هي عاصمة لـ"إسرائيل" بعد أن قامت زوراً باحتلالها على مرحلتين، مخالفة بذلك الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة. فالجمعية العامة ومنذ الانتداب البريطاني

أصدرت قرارات عدة تدين الاحتلال الإسرائيلي غير الشرعي للقدس والأراضي العربية المحتلة في فلسطين، فقد أصدرت في 1947/11/29 القرار رقم 181، والذي نصّ على أن تدويل القدس أفضل وسيلة لحماية جميع المصالح الدينية في المدينة المقدسة، ونصّ على جعل منطقة القدس، لا مدينة القدس وحدها، منطقة قائمة بذاتها، وعهدت إلى مجلس الوصاية بوضع نظام خاص بمنطقة القدس على أن ترتبط بوحدة اقتصادية مع الدولتين العربية واليهودية. هذا بالإضافة إلى قرارات أخرى عديدة، استنكرت احتلال "إسرائيل" للأرض العربية بما فيها القدس[54].

ب. ذكرت أن القدس تقع في التلال اليهودية[55]، وهذه تسمية يهودية، والتسمية العربية الأصيلة لها والثابتة تاريخياً هي جبال القدس.

ج. ذكرت أن الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف (حائط المبكى) هو جزء صغير باقٍ من الجدار الأصلي لهيكل سليمان[56]، وهذا غير ثابت أثرياً حتى الآن[57].

د. ذكرت أن الحكومة الإسرائيلية تمنح الحرية الدينية والحماية لجميع الأماكن المقدسة[58]، وهذه مغالطة صارخة، إذ إن الوقائع تؤكد عدم صحة المعلومة، بل العكس هو الصحيح، حيث تقوم "إسرائيل" بانتهاك دائم ومستمر للمقدسات[59].

8. الكتاب الجديد للعلم The new book of knowledge:

عند قراءة مادة القدس فيها يمكن ملاحظة ما يلي:

أ. ذكرت أن يروشالم كلمة عبرية[60]، على الرغم من أن الاسم أسبق من ذلك، إذ يرجع إلى زمن الكنعانيين كما ورد في نصوص اللعنة المصرية ورسائل تل العمارنة[61].

ب. ذكرت أن القدس تقع على التلال اليهودية[62]، وهذه تسمية يهودية، والتسمية العربية الأصيلة لها هي جبال القدس.

ج. ذكرت، اعتماداً على العقيدة المسيحية وتحديداً العهد الجديد من الكتاب المقدس، أن "صلب المسيح" تمّ في القدس[63].

د. ذكرت أن قبة الصخرة تقع في الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة القديمة[64]، والصحيح أنها تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة القديمة.

هـ. ذكرت اعتماداً على مصادر يهودية توراتية أن تحت الصخرة حجر رمادي يعتقد أن عليه ضحى إبراهيم بابنه إسحق[65]، وهذا اعتقاد يهودي غير ثابت أثرياً.

9. موسوعة كاكستون الجديدة The new Caxton Encyclopedia:

من الملاحظات التي يمكن أخذها عليها:

أ. ذكرت أن قبة الصخرة تُعرف باسم مسجد عمر، وتقع على التل الذي عليه هيكل سليمان[66]، والصحيح أن مسجد عمر يختلف عن قبة الصخرة[67]. كما أن وقوع هيكل سليمان تحت قبة الصخرة أمر غير ثابت أثرياً[68].

ب. عند استعراض تاريخ مدينة القدس نجدها أهملت العصور الإسلامية، وتحدثت فقط عن مملكة القدس الصليبية[69].

ج. ذكرت أن القدس كانت مقسومة بين "إسرائيل" والمملكة الأردنية الهاشمية، ولكن بعد سنة 1967 حكمتها "إسرائيل" بقسميها، واعتبرتها وحدة لا تتجزأ، وهي الآن عاصمتها[70]، مع أن هذا الوضع غير معترف به قانونياً ودولياً مطلقاً.

د. ذكرت أن القدس الجديدة أكثر اتساعاً وأعظم شأناً مما كان عليه الحال عندما كانت تقتصر في ظلّ الحكم الأردني على القدس القديمة المحاطة بالسور، الذي شيده السلطان سليمان سنة 1542، أما الآن فقد زاد شأنها عندما ضمت الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) ومتحف الفن العصري ومنطقة السفارات والجامعة العبرية والكثير من دور العلم والمستشفيات[71].

هـ. عند استعراض تاريخ مدينة القدس لم تتحدث عن القدس تحت حكم العرب، وكذلك أهملت الفترة من عهد صلاح الدين الأيوبي حتى الانتداب البريطاني وكأن هذه الفترة ليست جزءاً من تاريخ القدس.

10. الموسوعة البريطانية الجديدة The New Encyclopedia Britannica:

يمكن إجمال الملاحظات على هذه الموسوعة بما يلي:

أ. عندما حددت موضع القدس جغرافياً، حددتها بالنسبة إلى "إسرائيل"[72].

ب. أوردت بعض المعلومات استناداً إلى معتقدات مسيحية، وليس بالضرورة استناداً إلى حقائق تاريخية، مثل أن "صلب المسيح" تمّ في القدس[73].

ج. ذكرت أن حجم الهيكل يشتمل على قبة الصخرة والمسجد الأقصى[74]، وهذا غير ثابت أثرياً حتى الآن[75].

11. موسوعة الكتاب العالمي World Book Encyclopedia:

يمكن أخذ الملاحظات التالية:

أ. ذكرت أن القدس عاصمة "إسرائيل"[76]، وهذا الوضع غير معترف به دولياً وقانونياً.

ب. أوردت بعض المعلومات اعتماداً على المعتقدات المسيحية الواردة في العهد الجديد، مثل أن صلب المسيح تمّ في القدس[77].

ج. ذكرت أن قبة الصخرة والمسجد الأقصى يقعان في موقع الهيكل، وأن حائط المبكى هو ما تبقى من الهيكل[78]، وهذا غير ثابت أثرياً[79].

د. أوردت استناداً إلى مصادر يهودية معلومات مثل أن تضحية إبراهيم بابنه إسحق تمت على موضع الصخرة[80].

12. موسوعة لاروس الكبرى Great Larousse encyclopedia:

يمكن أخذ الملاحظات التالية على الموسوعة الفرنسية:

أ. تشير إلى أهمية المدينة الدينية بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين، وتتحدث عن المعالم الدينية لكل ديانة منها.

ب. تشير إلى أن الكنعانيين، ومنهم اليبوسيون، حكموا المدينة في التاريخ القديم، ثمّ تشير إلى فترة حكم الإسرائيليين من خلال مملكة داود وابنه سليمان عليهما السلام وبناء الهيكل. والملاحظ أنها تتجاهل الفترة بين حكم اليبوسيين ومملكة داود، بمعنى أن هناك فجوة تاريخية تقدّر بألفي سنة قفزت عنها هذه الموسوعة في التاريخ القديم.

ج. افترضت أن القدس تقع بين الأردن و"إسرائيل"، وهذا كان حسب الوضع السياسي القائم قبل سنة 1967، على الرغم من أن هذا الوضع ليس حدوداً دولية[81].

د. كما يستدل على أن هذه الموسوعة لا تعترف بوجود شيء اسمه فلسطين على الخريطة، وكأنها لا تقر بوجود كيان للفلسطينيين. ويلاحظ أن هناك موسوعات أجنبية لم تعترف بوجود فلسطين كدولة واكتفت بالكتابة عن "دولة إسرائيل" في مداخلها، كما هو الحال بالنسبة للموسوعة البريطانية (كتاب سنة 1967)

Britannica Book of the year 1967، فقد أشارت إلى القدس باعتبارها أكبر مدن "إسرائيل"[82].

هـ. أشارت إلى أن القدس هي عاصمة لـ"إسرائيل"[83]. وهذا غير معترف به قانونياً في العصر الحديث، أما إذا كان المقصود أنها عاصمة "مملكة إسرائيل" الشمالية التي ظهرت بعد وفاة النبي سليمان، فقد تبين أن "مملكة إسرائيل" الشمالية اتخذت من شكيم في نابلس عاصمة لها[84]، هذا إذا صح أصلاً وجود هذه المملكة تاريخياً، فالقدس لم تكن عاصمة لـ"إسرائيل" إلا من خلال الدعاية الصهيونية المبنية على أوهام تاريخية توراتية محرَّفة. أما القدس كعاصمة وفق التاريخ التوراتي والإسرائيلي فكانت عاصمة لدولة "يهودا" بعد وفاة سليمان عليه السلام، وانقسام ملكه إلى دولتي "إسرائيل" و"يهودا".

13. موسوعة تشامبرز Chambers's Encyclopedia:

ومن الملاحظات التي يمكن أخذها عليها:

أ. تتحدث عن وصف لسطح المنطقة الجغرافية التي تقع فيها القدس، معتبرة فلسطين منطقة جغرافية[85]، وليست كياناً سياسياً له خصوصية ثقافية.

ب. أشارت إلى أن المدينة لها خصائص فريدة، وتحدثت عن اختيار داود عليه السلام لها كعاصمة لمملكته دون سواها، لموقعها المتوسط المحايد بين الشمال والجنوب.

ج. تحدثت في العهد العثماني عن الأحياء المسيحية الإسلامية واليهودية في القدس منذ فترة مبكرة من العهد العثماني، فأشارت إلى الحي المسيحي اللاتيني والأرثوذكسي حول الكنيسة القيامة شمال غرب المدينة القديمة، حيث تتجمع الكنائس العديدة والأديرة ودور التعبد، في حين كان الأرمن في الجنوب الغربي للمدينة، أما الحي اليهودي فكان داخل أسوار المدينة بين الحي الأرمني والحي الإسلامي[86]. وهنا يلاحظ أن التركيز كان على تحديد موقع الحي اليهودي في المدينة دون الأحياء الأخرى، كما يلاحظ أن الموسوعة قفزت مباشرة من عهد داود عليه السلام إلى العهد العثماني متجاهلة تاريخ المدينة.

د. تحدد تقسيم القدس إلى مدينتين بأنه جاء بعد حرب 1948، القسم اليهودي والقسم العربي، واستبدل القسم الغربي من المدينة كعاصمة لـ"إسرائيل" إلى تل أبيب سنة 1950[87].

هـ. والمعروف أن قرار التقسيم الصادر سنة 1947 لم يتحدث عن القدس إلا بوصفها كياناً منفصلاً، وما حدث أن اليهود احتلوا الشطر الغربي من المدينة في عدوان سنة 1948. أما الحديث عن أن القدس عاصمة لـ"دولة إسرائيل" الحديثة باعتبار أنها منذ سنة 1948 تحتضن مقر البرلمان ورئيس الحكومة ومعظم الوزراء، فهذا لا يمنحها صفة العاصمة السياسية لمجرد وجود هذه المعالم فيها.

و. أقيمت البلدية الاسرائيلية في شرقي القدس في1967/6/27[88]، بمعنى أنه بعد احتلال القسم الشرقي من المدينة، والمعروف أنه كان هناك مجلس بلدية للقدس العربية منذ سنة 1950، وكان أول رئيس بلدية فيها في ظلّ الحكم الأردني هو أنور الخطيب[89].

14. موسوعة العالم المصورة Illustrated World Encyclopedia:

ومن الملاحظات التي يمكن أخذها عليها:

أ. القدس المدينة الرئيسية في فلسطين، وكانت مركز إدارة الدولة خلال القرون الثلاثة الأخيرة، أول ذكر للقدس كان تحت مسمى أورسالم في رسائل تل العمارنة العائدة إلى القرن 14ق.م[90]. والصحيح أن أول ذكر للقدس كان تحت اسم "أوروسالم" في القرن 19ق.م وتحديداً في ما يعرف بنصوص اللعنة المصرية[91]. ويقال إن الأصح أن رسائل تل العمارنة ترجع للقرن 19ق.م وليس إلى القرن 14[92].

ب. كانت القدس الموطن الأساسي لليبوسيين، وهم جزء من الإسرائيليين القدماء[93]. هذا افتراء فإذا كان بنو إسرائيل كنعانيين فلماذا يصر الكتاب المقدس على أنهم كانوا من الأجانب؟ بل إن قصة التوراة والأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم تهيمن عليها قصة بحث بني إسرائيل عن وطن، ومن المحال أن نتصور أن قصة سفر الخروج برمتها قصة مختلقة[94].

15. فنك وواجنلز Funk & Wagnalls:

ملاحظات على هذه الموسوعة:

أ. اعتبرت أن القدس هي مدينة اليهود المقدسة، وأشارت إلى أن تاريخ القدس القديم شهد العديد من الشعوب الغزاة، وكان العنصر المهيمن فيها اليبوسيين، والذين أتوا إبان الغزو المصري للمدينة أيام احتلال الملك تحتمس الثالث في القرن 15ق.م[95].

ب. والمعروف أن اليبوسيين، وهم من الكنعانيين، كانوا في القدس قبل هذا التاريخ بقرون، حسبما ورد في نصوص اللعنة ورسائل تل العمارنة[96].

ج. تشير إلى أن المسلمين أخذوا المدينة من الفرس زمن الخليفة عمر بن الخطاب[97]، ومن المعروف والثابت تاريخياً أن المدينة عادت إلى السيطرة الرومانية بعد خضوعها للحكم الفارسي ابتداء من 613 للميلاد، ولكن في سنة 627 للميلاد، عندما قام هرقل بحملات عسكرية إلى الولايات البيزنطية التي خضع بعضها للحكم الفارسي، تمكن من استعادة بعضها ومن بينها فلسطين، وتمّ إعادة الصليب بعد أن استرده من الفرس[98]. وهذا معناه أن المسلمين لم يستلموا المدينة من الفرس بل من البيزنطيين سنة 638 للميلاد[99].

د. تشير إلى أنه تمّ بناء قبة الصخرة فوق أنقاض معبد سليمان[100]، والصحيح أنه لم يثبت أنها بنيت فوق بناء قائم أو على أنقاض معبد[101]، وعند الفتح العمري للمدينة لم يكن فيما يسمونه "منطقة الهيكل" أي بناء، وورد أن المنطقة كانت مهجورة[102].

هـ. تشير إلى أنه تمّ معاملة المسيحيين باحترام من المسلمين عندما سيطروا على المدينة، لكن لما أصبح الفاطميون خلفاء وحكموا القدس أصبحت الحالة غير ثابتة، وعندما حكم الأتراك المدينة سنة 1071 للميلاد عاملوا المسيحيين بقسوة، وهدموا كنيسة القيامة؛ مما أوجد مسبباً للحملات الصليبية[103]. وهنا من المهم أن يكون واضحاً أن هذه مجرد ذرائع لتبرير الحملات الصليبية. فهذه الدعاية استغلتها البابوية لتبرير هذا الغزو، بدليل أنهم أي الفرنجة لم يقوموا بحماية مسيحيي الشرق، بل هناك من المسيحيين في الشرق من قاوم وجودهم[104].

و. ذكرت أن القدس تعدّ مدينة الإقليم الفلسطيني في الشرق الأوسط، وأنها تضم: القدس الجديدة وهي عاصمة "إسرائيل"، والقدس القديمة التي هي جزء من المملكة الأردنية الهاشمية[105]. وهذا يحمل مغالطة صارخة، فالقدس ليست عاصمة "إسرائيل" في الوقت الحاضر ولا حتى عند تأسيسها، كما أن القدس الشرقية العربية التي تضم البلدة القديمة كانت ضمن المملكة الأردنية الهاشمية بعد احتلال أربع أخماس أرض فلسطين سنة 1948[106]. فالقدس القديمة خضعت لحكم المملكة الأردنية، وبقي الوضع على حاله حتى سنة 1967 بعد خسارة ما تبقى من القدس وباقي فلسطين، وكانت ما تزال تحت الحكم الأردني.

ز. رَكزتْ على المعالم الدينية، فالمدينة أي القدس القديمة مدينة مقدسة عند المسيحيين كونها شهدت أيام المسيح الأخيرة على الأرض، كما أنها مقدسة عند اليهود لما تحويه من رموز يهودية وكونها العاصمة لمملكة اليهود الأولى، وهي مقدسة عند المسلمين نظراً لأنها شهدت اعتلاء النبي محمد إلى الجنة[107] بحسب الموسوعة. ولكن لا يوجد ما يدل على الآثار اليهودية مطلقاً بعد أكثر من مئة سنة من الحفريات[108].

16. موسوعة جروليير العالمية Grolier International Encyclopedia:

ومن الملاحظات على هذه الموسوعة:

أ. أشارت إلى أنه وفقاً لقرار الأمم المتحدة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1947 تمّ تقسيم المدينة بين العرب واليهود فكانت المدينة القديمة من نصيب العرب[109]، وهذا غير صحيح فقد أوصى قرار التقسيم بأن تخضع القدس ككيان منفصل لسلطة دولية[110].

ب. بعد احتلال الجنرال البريطاني للقدس في كانون الأول/ ديسمبر 1917 وضعت عصبة الأمم The League of Nations فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وبقيت فلسطين كذلك حتى إعلانها وربطها بـ"إسرائيل المستقلة" فتمّ تطوير القدس الجديدة وتحديثها وتحويلها إلى مركز إداري، وتمّ ربطها عبر طريق سريع مع تل أبيب وحيفا. وعلى اعتبار أن القدس عاصمة "إسرائيل" فقد تمّ فيها بناء الكنيست الإسرائيلي وباقي الوزارات والمحاكم... إلخ[111]. وهذا غير صحيح فالقدس التي ازدهرت بعض الشيء في ظلّ الانتداب أصبحت هي عاصمة فلسطين الرسمية منذ الحروب الصليبية[112]، وهنا من المهم القول بأنه في أثناء الانتداب البريطاني بدأت في القدس عملية تحوُّل بطيئة أدت إلى تحويلها من مدينة عربية إلى مدينة ذات غالبية سكانية يهودية[113].

ثانياً: الموسوعات الدينية:

1. الموسوعات المسيحية:

أ. القاموس الكاثوليكي الجديد The New Catholic Dictionary :

ملاحظات على القاموس:

1. أشار إلى أن القدس مدينة قديمة في فلسطين، وأشار إلى أنها المركز الديني والسياسي للإسرائيليين[114]، وكأن فلسطين ليست أكثر من مفهوم جغرافي وليست مركزاً حضارياً للمنطقة التي تقع فيها القدس، لأن الأهمية أعطيت للمدينة بوصفها المركز الديني والسياسي للإسرائيليين.

2. أشار إلى أول ذكر للمدينة في العهد الجديد من خلال الإشارة إلى أن سكانها من اليبوسيين في الألف الثالثة قبل الميلاد، وهذا ليس صحيحاً، فهناك إشارات للمدينة في رسائل نصوص اللعنة المصرية ورسائل تل العمارنة[115].

3. أشار إلى الوعد بتقسيمها، وتحدث بأن أشهر من حكمها هو داود وابنه سليمان الذي بنى الهيكل، وبلغت المدينة أوج عظمتها ومجدها، وأوضح بأنها سقطت بعد حصار على أيدى الرومان زمن تيطس سنة 70 للميلاد وتمّ تدمير مملكة سليمان[116].

4. أصبح في المدينة أول كنيسة مسيحية لأنها بحسب الموسوعة شهدت "موت السيد المسيح" وفيها طريق الآلام[117].

ب. قاموس المسيح والأناجيل A dictionary of Christ and the Gospels:

وأهم ما جاء في هذا القاموس:

1. أشار إلى القدس ضمن تعرضه لفلسطين، مشيراً إلى أن القدس لا مثيل لها كمدينة مؤثرة في العالم، وأنها الأكثر قداسة منذ سيطر عليها داود سنة 100ق.م واتخذها سليمان مركزاً دينياً وعلمياً، ووجدها المسيح مدينة بالغة الأهمية في فرادتها، وهي المدينة التي شهدت آلام المسيح، وركز القاموس على أهميتها بالنسبة للحجيج في العصور الوسطى[118].

2. تجاهل فترة التاريخ القديم وكأن تاريخ المدينة بدأ مع داود. كما يلاحظ بشكل

عام أن الموسوعات الكاثوليكية تحاول تبرير الاجتياح الصليبي والسيطرة على القدس لتحرير ما يسمونه القبر المقدس.

ج. الموسوعة الكاثوليكية Catholic Encyclopedia:

ومما جاء في هذه الموسوعة:

1. اعتبرت أن هناك صراعاً بين العرب والمسيحيين منذ الغزو العربي للمدينة في القرن السابع الميلادي حتى قيام مملكة القدس اللاتينية على أيدي اللاتين.
2. ركزت على تاريخ القدس في الفترة اللاتينية أي منذ 1099 للميلاد، واعتبرت أن المملكة اللاتينية في القدس استمرت حتى سنة 1291 للميلاد. مع العلم أن الطرد النهائي للصليبيين من القدس كان سنة 1244 للميلاد، وأن المملكة اللاتينية استمرت حتى سنة 1291 للميلاد في عكا وليس القدس.
3. اعتبرت ما قام به صلاح الدين على أنه تدمير للمملكة التي عادت مرة أخرى لحكم اللاتين في ظلّ خلفائه.
4. اعتبرت أن الحرم الشريف هو مكان منطقة الهيكل.
5. تحدثت عن المعالم المسيحية في المدينة، خاصة الكنائس اللاتينية، وعن أهمية المدينة للمسيحيين والحجيج للقبر المقدس. وهذا أمر متوقع فهي ركزت على ما بعد المملكة اللاتينية، ولم تتحدث عن القدس الإسلامية ولا القدس اليهودية، وهي لا تقيم اعتباراً للقدس تحت السيطرة الإسرائيلية، ولم تذكر أن القدس عاصمة لـ"إسرائيل" فهي ليست معنية بالتاريخ القديم أو تاريخ المدينة تحت سيطرة "دولة إسرائيل".

فالمصادر المعاصرة للحملة الصليبية تتحدث بوضوح عن دوافع دينية خالصة تتمثل في رغبة البابوية تخليص القبر المقدس وتأمين سلامة الحجاج المسيحيين إلى القدس، وهذا كان واضحاً في خطاب البابا أوربان الثاني، الذي أعطى الشارة الأولى لبدء هذه الحملات على المشرق بقوله: "بما أنكم يا أبناء الله قد وعدتموه بأن تحفظوا السلام بينكم، وأن تخلصوا أكثر مما مضى في المحافظة على حقوق الكنيسة... عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين في المشرق الذي يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما التمسوها"[119].

فالذي يبدو أن البابوية ما زالت تنظر إلى أن أرض المشرق التي يسيطر عليها المسلمون هي أرض كانت ضمن الأملاك المسيحية الرومانية، وأيضاً كانت خاضعة فيما سبق للقديس بطرس، كما هو الحال عندما كانت الحملات تشن خلال حروب الاسترداد في الأندلس[120].

د. الموسوعة القبطية The Coptic Encyclopedia:

وأهم ما يمكن ملاحظته على هذه الموسوعة القبطية:

1. أشارت إلى تاريخ القدس في الفترة المسيحية، وبحثت في أهمية القدس الروحية بالنسبة للأقباط وزيارتهم لها سواء كانوا حجاجاً أم رهباناً، واستقرارهم بها. ثمّ أشارت إلى الفتح الإسلامي للمدينة وأنها سلمت من البطريرك صفرونيوس للخليفة عمر بن الخطاب، وتحدثت عن العهدة العمرية والأمان، وأشارت إلى الحكم الفاطمي للمدينة في القرن 10 و11 ميلادي عندما دخل الصليبيون المدينة، وأنه لم يسمح للحجيج القبط بزيارة القدس خلال الفترة الصليبية حتى مجيء صلاح الدين الأيوبي، وأنهم نعموا برخاء وأمان في عهده، وفي العهد العثماني حافظ الأقباط على دورهم وخصوصيتهم في المدينة حتى القرن العشرين[121].

ويشهد على وجودهم في القدس هيكلهم الموجود بكنيسة القيامة، والكنيسة التي أنشأها النبراوي مقاره المصري باسم كنيسة المجدلية[122]. ويذكر عارف العارف أن لهم دير السلطان وهو الملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية، والذي كان اللاتين قد أخذوه من القبط في زمن الصليبيين فرده صلاح الدين لهم فسموه دير السلطان، وهناك مطران للأقباط في القدس منذ القرن 13 ميلادي[123].

2. ركزت هذه الموسوعة على أهمية القدس بالنسبة للقبط، وأشارت إلى تاريخ المدينة من زاوية علاقتها بالأقباط، وأنهم تواجدوا فيها منذ القرن الأول الميلادي، وتعزز وجودهم مع القرن الثالث الميلادي[124].

فالأقباط تواجدوا في المدينة منذ القرن الأول الميلادي[125]، وقد توقفت زيارة المصريين للأرض المقدسة بعد هدم تيطس الروماني لها سنة 70 للميلاد، وقلّ زائروها من الأقباط المصريين بعدما هدمها أيليوس هادريان Aelius Hadrian سنة 135 للميلاد[126]. ثمّ استؤنفت الزيارات منذ بناء كنيسة القيامة سنة 335 للميلاد، فقد وصلت قافلة مسيحية من مصر إلى بيت المقدس لتحضر تدشين

كنيسة القيامة التي بنتها الإمبراطورة هيلانة، وكان رئيس هذه القافلة يومئذ الانبا اثناسيوس الأول بطريرك الإسكندرية. وقيل إن الإمبراطورة هيلانة هي التي استدعته للاشتراك مع بطريرك القسطنطينية في تدشين الكنيسة[127]. أما الإشارة إلى زيارة المصريين المنتظمة للأراضي المقدسة، فهذا تحتمه الكنيسة القبطية، ومن لا يستطيع زيارتها لسبب من الأسباب فعليه أن يرسل إليها القرابين، فكان الأقباط يزورونها للتكفير عن خطاياهم، كما ذكر في قصة مريم المصرية (350-420م) التي بنى الأقباط كنيسة باسمها ملاصقة لكنيسة القيامة[128].

وهذا معناه أن القدس لها خصوصية عند القبط، فبنوا فيها الكنائس وحافظوا على تواصلهم معها من خلال زياراتهم لها. كما أن الموسوعة أشارت باهتمام إلى أن الحكم الإسلامي للمدينة قد راعى خصوصيتها بالنسبة لهم كونهم من الكنيسة الشرقية، وأن العهدة العمرية كانت بمثابة عهد الأمان، وأن حكم صلاح الدين أزال من كان يمنعهم من زيارة القبر المقدس يعني الصليبيين.

3. لم تتطرق الموسوعة للتاريخ القديم، وهذا أمر متوقع فهي معنية بالفترة المسيحية، كما أنها لم تذكر أهمية المدينة مطلقاً لليهود.

ويلاحظ بصورة عامة أن طابع الموسوعات غلب عليه الاهتمام بالناحية الدينية، وهذا أمر متوقع، فهذه الموسوعات ذات طابع ديني مسيحي فنجدها قد اهتمت بإبراز الجانب المتعلق بالقدس وتاريخها كما يهتم بها المسيحيون الذين يعتقدون بأن السيد المسيح قضى الجزء الأكبر من حياته في القدس يتعبد ويعلم ويشرح. حتى إن إنجيل لوقا Luke's Gospel يشير إلى أنه في اللحظات الأخيرة، حينما حانت أيام ارتفاعه، عزم على الاتجاه إلى أورشليم، فالمسيح صمم على الذهاب إلى أورشليم لأنه كان يعرف أن في هذه المدينة سيتم كل شيء، وكانت القيامة تحقيقاً لتعاليم الأنبياء ونقطة انطلاق لنشر الإيمان المسيحي بين الأمم[129].

لكن يلاحظ أن هذه الموسوعات تجاهلت القدس في العهد الإسلامي وقداسة المدينة وطابعها الإسلامي الطاغي، من خلال المسجد الأقصى ومحيطه في البلدة القديمة النابض بالهوية العربية الإسلامية، ولكن هناك إشارات للعلاقة بين المسيحيين والمسلمين لا سيّما من جهة التسامح الديني الذي نعم به المسيحيون في ظلّ الحكم الإسلامي على الرغم من الإشارة إلى الجزية كضريبة.

كما يلاحظ أن هذه الموسوعات ليست معنية بعروبة المدينة، اللهم إلا في بعض الإشارات عن اليبوسيين، ويسجل على هذه الموسوعات أنها اشتملت على مغالطات تتعلق بأهمية القدس ومركزيتها بالنسبة للإسرائيليين دينياً وسياسياً. كما أشارت إلى الهيكل الذي تمّ تدميره نهائياً زمن الرومان.

2. الموسوعات اليهودية:

أ. الموسوعتان اليهوديتان Jewish Encyclopedia and Encyclopaedia Judaica:

وسنتناول مادة القدس في مدخل هذه الموسوعات اليهودية من خلال الموسوعتين السابق ذكرهما:

1. تعترف هاتان الموسوعتان بأن أول ذكر للقدس كان في نصوص اللعنة المصرية التي تعود إلى القرنين 18 و19ق.م على أنها مدينة كنعانية، فهي لا تشير إلى غير الكنعانيين كسكان أصليين[130]. ثمّ هناك الإشارة إلى الملك "عبد حيبا"، أحد رجال السلطة المحلية في أورسالم يرسل إلى فرعون مصر (تحتمس الأول Thutmose I) يعلن خضوعه للمصريين، ويطلب حمايتهم من شر قوم دعاهم في رسالته (الخابيرو) أو (الحبيري) حسب ألواح تل العمارنة[131]، أما العابيرو إن صح أنهم أصل بني إسرائيل في المدينة، فقد كانوا طارئين غزاة عليها، وكان ذلك غالباً في القرن 13ق.م[132]. فالقدس تعرضت خلال الحكم المصري لها إلى غزو البدو (الخابيري)، وخصوصاً في عهد أخناتون Akhnaton (1375-1358ق.م)، مما اضطر واليه على القدس عبدي خيبا أن يستنجد بأخناتون، ولكنه لم يتمكن من مساعدته فزال الحكم المصري عنها، ولم يعد إليها إلا في زمن سيتي الأول Seti I (1317-1301ق.م)[133].

2. تشير إلى أنه ورد ذكر اسم القدس في رسائل تل العمارنة باسم أورسالم، وفي التوراة يتم ذكرها باسم أورشليم، وأطلقوا عليها أيضاً اسم مدينة داود، كما أطلق على المدينة عدة أسماء من قبل الأنبياء والشعراء العبرانيين المتأخرين مثل: المدينة، مدينة الله، المدينة المقدسة، مدينة العدالة، مدينة الإخلاص، مدينة السلام، المدينة الجميلة[134]. لكن المدينة سُكنت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، فماذا عن أسمائها الأخرى؟.

والثابت أن "أورسالم" وهو اسم أطلقه على المدينة سكانها العرب الكنعانيون نسبة إلى "سالم" أو "شالم" بمعنى السلام. و"أور" تعني مدينة، وهي كلمة سومرية. ولقد حرفت الأمم القديمة اسم "أرووسالم" فذكرها الأكاديون "أورسالم"[135]، وورد ذكر القدس في نقش مصري قديم يرجع الى القرن 19ق.م باسم "أوشامام"، وذكرها اليهود باسم "يروشالايم" التي هي "أورشليم"، وذكرها اليونان والرومان باسم "هيروسوليما"، وذكرها الغربيون باسم "جروسالم". ومن الواضح أن اسم "أورشليم" ليس اسماً دينياً وإنما اسم دنيوي، أطلق من قبل أحد الملوك اليبوسيين، فأخذه اليهود ووضعوه في توراتهم المحرفة[136].

ومدينة "يبوس" اسم أطلقه على المدينة يشوع (يوشع)، قائد بني إسرائيل، عندما أغار هؤلاء على أرض كنعان في القرن 13ق.م[137]. و"يبوس" اسم لزعيم القبيلة الكنعانية العربية التي استقرت في فلسطين منذ فجر تاريخها في مدينة القدس، وفي الجبال المحيطة بها، وقد حارب اليبوسيون يوشع وقومه، وامتنعت يبوس على اليهود مائتي سنة[138]. فالقدس اليبوسية هي مدينة داود، التي تمتد جنوبي المسجد الأقصى من هضبة أوفل إلى نقطة التقاء وادي قدرون مع وادي هنوم، وذلك عندما تولى داود قيادة الإسرائيليين بعد يشوع عليهما السلام[139].

ولم يثبت أن اليبوسيين سموا المدينة اسماً يخرج عن سياق هذه الألفاظ، بمعنى أنه لم يرد تسمية (زيون) كما ورد في الموسوعة المذكورة، وحتى لو ثبت أن المدينة سميت بمدينة داود فهذا يعني أن التسمية كانت مع النبي داود وليس قبله كما ورد.

3. تقول الموسوعتان إن القدس عاصمة لـ"مملكة إسرائيل"، وإنها المدينة المركزية لديهم، وإنها بعد انقسام "مملكة إسرائيل" ويهوذا بعد سليمان في الألف الأولى قبل الميلاد ظلت القدس عاصمة لمملكة يهوذا حتى جاء البابليون ودمروا الهيكل في القرن السادس قبل الميلاد، ثمّ عمروه مرة أخرى قبل أن يدمره الرومان تماماً سنة 70 للميلاد وتنتهي القدس كعاصمة لمملكة يهوذا.

4. تتحدث الموسوعتان اليهوديتان عن اتخاذ داود القدس عاصمة لمملكته، وأن العاصمة ازدهرت تماماً زمن ابنه سليمان، وأنه تمّ بناء الهيكل بأبعاده الهندسية

الرائعة والعديد من الكنس والمعابد في المدينة. وأنه بعد سليمان انقسمت المملكة إلى قسمين، وظلت القدس عاصمة لمملكة يهوذا التي كانت في الجنوب.

5. تعترف الموسوعتان بأن أهمية القدس للمسيحيين بدأت سنة 336 للميلاد عند بداية بناء الرومان الكنائس فيها، خاصة بعد اعتناقهم للمسيحية. بمعنى أنهم يتجاهلون تماماً وجود المسيح فيها والقبر المقدس ورمزية المدينة بالنسبة للمسيحيين بكل طوائفهم، وأنه ليس صحيحاً أن أهمية المدينة بالنسبة للمسيحيين بدأت في القرن الرابع الميلادي، بعد اعتناق الرومان للمسيحية وبناء كنيسة القيامة. وهذا الكلام تفنده الموسوعات المسيحية نفسها التي تصر على أهمية القدس بالنسبة لهم منذ المسيح، أي منذ أوائل ما يعرف بسنوات الميلاد، وليس فقط ما يرتبط باعتناق الدولة الرومانية للمسيحية في القرن الرابع الميلادي.

6. تتحدث الموسوعتان عن وجود 480 كنيساً لهم في الفترة الرومانية و80 مدرسة[140]، والسؤال المطروح هنا هل كانت مدينة القدس بهذه الضخامة السكانية والاتساع الجغرافي لتستوعب كل هذه الكنس والمدارس.

7. تتحدث الموسوعتان عن غزو العرب للقدس في القرن السابع، وتشير إلى المظاهر الإسلامية التي انتشرت، مثل بناء الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 688 للميلاد لقبة الصخرة، ونصب القبة الصغيرة للمسجد الأقصى سنة 728 للميلاد، وأعيد بناؤها في الفترة بين 758-775 للميلاد زمن الخليفة العباسي المهدي، وأعيد بناء قبة الصخرة زمن الخليفة المأمون سنة 831 للميلاد، وسنة 1016 للميلاد تهدمت قبة الصخرة جزئياً بفعل هزة أرضية.

8. خلال الفترة الصليبية وقعت القدس ابتداء تحت الحكم الفاطمي، وكان الخليفة الرشيد قد سلم شارلمان Charlemagne مفاتيح القدس، وتمّ خلال عهده بناء العديد من الكنائس، ثمّ خضعت القدس لحكم السلاجقة والفاطميين خلال القرن 11 ميلادي قبل أن تسقط بأيدى الصليبيين سنة 1099 للميلاد، حتى جاء صلاح الدين وهزم الصليبيين (ملاحظة هم لا يتحدثون عن تحرير بل يقولون إن صلاح الدين هزم الصليبيين). ومع ذلك فالموسوعة تشير إلى أن صلاح الدين طلب من اليهود العودة إلى القدس، وأعاد ترميم المباني الإسلامية في الحرم القدسي، ويلاحظ أن الموسوعة أيضاً لم تفرد عنواناً لفترة صلاح الدين بل تحدثت عن الأيوبيين في إطار الصليبيين في حكم المدينة.

9. صورت الموسوعتان وقوع القدس تحت حكم العثمانيين، وركزت على النفوذ الأجنبي البريطاني والفرنسي في المدينة خاصة في القرن 19، ولم تولِ أهمية للبعد العربي والإسلامي فيها.

10. تشير الموسوعتان إلى أن العرب غزوا المدينة سنة 638 للميلاد (الصحيح سنة 636) فبقيت القدس تحت حكمهم وفرضوا الضرائب على المسيحيين واليهود، وظلّ اليهود يتواجدون في القدس. والملاحظ أن الموسوعتين اليهوديتين تعتبران فترة الحكم العربي في المدينة كما لو كانت فترة واحدة، لأنهما تتحدثان عن القدس تحت السيطرة الصليبية بعد ما سمته الغزو العربي للمدينة. كما أن الموسوعات المسيحية نفسها تشير إلى التسامح والتعايش بين المسيحيين والمسلمين هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الوجود اليهودي انحسر عن المدينة حسبما تدل وثيقة العهدة العمرية.

11. تشير الموسوعتان إلى أنه وبعد أن أعاد المماليك حكم المدينة حكمها العثمانيون الأتراك الذين سمحوا للأوروبيين بتواجد ونفوذ هناك طيلة فترة حكمهم وأن الإسرائيليين تمكنوا من تجميع صفوفهم وأعادوا تحرير أرض فلسطين واسترجاع القدس عاصمة مملكتهم سنة 1948، وتمكنوا من استرجاعها كاملة سنة 1967.

ب. نقاش عام للفرضيات الواردة في الموسوعات اليهودية:

هناك تجاهل واضح لتاريخ القدس القديم، خاصة الفترة التي سبقت الألف الأولى قبل الميلاد، وقد تمّ تقديم تاريخ المدينة باعتباره فعلياً بدأ مع الألف الأولى، وما سبقه لم يكن له أهمية، وذلك لإعطاء أهمية للفترة التي جاء بها داود وبداية الوجود اليهودي السياسي حسب التوراة في الألف الأولى قبل الميلاد.

يستند اليهود في النظر للقدس على أنها عاصمة لدولتهم الحديثة من منطلق أن مطالبتهم بالمدينة مترسخة ومتجذرة ومرتبطة بتأسيس النبي داود لها، أي في القرن العاشر قبل الميلاد. والثابت أن داود نفسه سيطر على مدينة اليبوسيين ولم يقم ببناء مدينة لليهود أنفسهم، وهناك موسوعات تشير إلى أن داود كان من الحكام اليبوسيين. المهم أن اليهود في العصر الحديث في هذا السياق ينظرون إلى أن القدس لم تكن في يوم عاصمة إلا لدولتين فقط؛ المملكة التوراتية التي أسسها داود وظلت حتى دمرها الرومان

سنة 70 للميلاد، و"دولة إسرائيل" الحديثة منذ إعادة ولادة دولتهم على أرض فلسطين سنة 1948.

يلاحظ أن الموسوعات اليهودية أنكرت تاريخ القدس القديم، بمعنى أن تاريخ المدينة قبل مملكة داود يكاد يقتصر على الإشارة إلى اليبوسيين فقط، لأن داود عندما هزمهم أقام عاصمة ملكه في القدس مركزهم. ولكن ماذا عن الأقوام التي سبقت وجود بني إسرائيل إن صح، فإلغاء التاريخ وتسليط الضوء على فترة قصيرة من تاريخ المدينة لا يمكن أن يكون دليلاً على حيادية وعلمية، بل على اجتزاء، الغرض منه خدمة ميل سياسي مقصود يصب في مصلحة الفكرة الصهيونية.

وقد أثبتت الحفريات أن المدينة اليبوسية التي سيطر عليها داود حوالي سنة ألف قبل الميلاد قد اختفت معالمها بعد أن خدمت نحو 800 سنة. كما أثبتت حفريات الدكتورة كينيون أن المدينة كانت شرق أسوار الحرم وعلى السفح المنحدر إلى وادي قدرون، فالمدينة لم تكن على جبل موريا حيث يقوم الحرم الشريف اليوم[141]. ومعظم الحفريات التي جرت قبل 1967 من قِبَل المدرسة البريطانية وغيرها لم تتوصل إلى تعيين مكان الهيكل[142].

أما عن الافتراض بأن العرب غزوا المدينة في القرن السابع للميلاد، وأنهم أغاروا على المسيحيين واليهود فيها، وأنهم أرهقوا السكان بالضرائب؛ فقد أشارت الموسوعات اليهودية ببراعة إلى تقمص دور الضحية في الصراع، وكأن السيادة والحضور الإسرائيليين كانا في المدينة، وأن العرب طرأوا على المدينة كما طرأ عليها الرومان من قبل، وذلك في محاولة مكشوفة لتجاهل طابع المدينة العربي على مدى أكثر من خمسة آلاف عام[143]. وقد أكدت كارين أرمسترونج Karen Armstrong بأن القدس ظلت مدينة إسلامية مهمة لما يقرب من 1,300 عام، باستثناء الفترة الوجيزة التي احتلها فيها الصليبيون[144]. وهذا معناه أن الإسرائيليين كانوا غزاة طارئين لفلسطين، أما القول بأن الفاتحين العرب كانوا غزاة لفلسطين في القرن السابع الميلادي فهو ادعاء غير صحيح تاريخياً، لأن العرب الفلسطينيين هم سكان فلسطين الأصليون. والفتح العربي الإسلامي لفلسطين لم يكن نقطة البداية لامتلاك العرب لها، فالعرب جنس سابق على الإسلام عاش في فلسطين وفي أقسام أخرى قبل ظهور الإسلام. ويشير مكسيم رودنسون إلى أن سكان فلسطين العرب مواطنون فلسطينيون، وأن عروبتهم تأكدت

نتيجة الفتح الإسلامي لفلسطين، وأن فلسطينيي الوقت الحاضر هم نسل الفلسطينيين القدماء والكنعانيين والقبائل القديمة الأخرى، وقد عاشوا باستمرار ودون انقطاع في بلادهم فلسطين منذ فجر التاريخ. وبالإمكان إرجاع استقرارهم فيها إلى ما قبل أربعة آلاف عام على الأقل، وقد تداخلت معهم عناصر من أجناس مختلفة، كاليونان والرومان والصليبيين، إلا أن الأصل العربي الفلسطيني بمسيحييه ومسلميه ظلّ يشكل العمود الفقري للسكان حتى سنة 1948، عندما هُجّر معظم السكان الأصليين على أيدي الإسرائيليين[145].

تحاول الموسوعتان اليهوديتان التأكيد على مركزية القدس بالنسبة لليهود، وتوظيف القول بأنها تاريخياً كانت عاصمة لدولتين فقط، هما: مملكة داود و"دولة إسرائيل"؛ غير أن هذا الكلام يجب أن يؤخذ بالكثير من الحذر:

- فالمسلمون من ناحية دينية يرون في تراث الأنبياء على أرض فلسطين تراثاً لهم، ويرون أنفسهم امتداداً لتاريخ التوحيد الذي مثله أنبياء الله داود وسليمان ويحيى وزكريا وعيسى... عليهم السلام؛ ويرون أنفسهم الأحق بتراث هؤلاء الأنبياء لأنهم هم المستقيمين على طريقهم، وليس بنو إسرائيل، الذين حرفوا وبدلوا وقتلوا أنبياءهم[146].
- لا يوجد ما يثبت أن اليهود المعاصرين هم أنسال بني إسرائيل السابقين فمعظم يهود هذا الزمان هم من يهود الخزر، وهم في أصلهم قبائل تركية قديمة دخلت في اليهودية في القرن الثامن الميلادي.
- إن المكانة الدينية لمدينة ما لا تقتضي بالضرورة أن تكون عاصمة للدولة، إذ يعتمد اختيار العواصم على معايير سياسية واستراتيجية واقتصادية، فضلاً عن المعايير الثقافية والدينية. ومكة أقدس مكان للمسلمين لم تكن يوماً عاصمة لأي من دولهم.

هوامش الفصل العاشر

[1] *Britannica Junior Encyclopedia for Boys and Girls*, Encyclopedia Britannica Editor, Chicago, 1971, vol. 1, p. 200.

[2] Sami Hadawi, *Land Ownership in Palestine* (New York: Palestine Arab Refugee Office, 1957), p. 6.

[3] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 200.

[4] *Ibid.*, vol. 1, p. 200.

[5] محمود العابدي، **قدسنا**، ص 169.

[6] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 200.

[7] *Ibid.*, vol. 1, p. 201.

[8] *Ibid.,* vol. 1, p. 201.

[9] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 441؛ وعارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 1187؛ ورشاد الإمام، **مدينة القدس في العصر الوسيط**، ص 61؛ ورائف نجم، **الحفريات الأثرية في القدس**، ص 14.

[10] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 201.

[11] عارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 48، 79؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 98، 496؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 94.

[12] رائف نجم، **الحفريات الأثرية في القدس**، ص 196-197؛ ومحمود العابدي، **مأساة بيت المقدس**، ص 14-18.

[13] K.A.C Creswell, *Early Muslim architecture: Umayyads, A.D. 622-750*, p. 134.

[14] *Encyclopedia*, vol. 1, p. 201.

[15] محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص62؛ وانظر:
Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, p. 54-62.

[16] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 2001.

[17] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 11؛ وعارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 11؛ وكارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 22-23؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 9؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 25، 36، 45؛ ومحمد أديب العامري، **عروبة فلسطين**، ص 62؛ و**قاموس الكتاب المقدس**، ص 691-692؛ ومصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 1، ص 396-413؛ ومحسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس**، سلسلة كتاب القدس 22 (مصر: مركز الإعلام العربي، 2003)، ص 19؛ وانظر:
Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 19-53.

[18] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 201.

[19] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 2، 4، 6؛ وعارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 11، 167؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 12، 15؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 46؛ وأحمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ حقائق تاريخية**، ص 300.

[20] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 201.

[21] رائف نجم، **الحفريات الأثرية في القدس**، ص 14.

[22] رائف نجم، **الحفريات الأثرية في القدس**، ص 96-150؛ رمضان عبده، "أقدم التنقيبات الأثرية وأهمها في أنحاء فلسطين وفي القدس خاصة،" من ندوة **آثار القدس** (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003)، ص 21-37.

[23] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 202.

[24] راجع: **الموسوعة السياسية**، ج 4، ص 763-768؛ **والموسوعة العربية العالمية**، ج 18، ص 82-86؛ **والموسوعة العربية الميسرة**، ج 3، ص 1847؛ **والموسوعة العربية الميسرة والموسعة**، المجلد 6، ص 2706؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 3، ص 508-517؛ وياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 5، ص 166-172؛ والحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص 556-557؛ وانظر:

Britannica Junior Encyclopedia, vol. 1, p. 202.

[25] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 202.

[26] مجير الدين العليمي، **الأنس الجليل**، ج 1، ص 330؛ وياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 5، ص 171؛ ورشاد الإمام، **مدينة القدس في العصر الوسيط**، ص 47؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 160، ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 75؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 52؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 34؛ ومصطفى الحياري، **القدس في زمن الفاطميين والفرنجة**، ص 73-75.

[27] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 1, p. 202.

[28] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 621-622.

[29] *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 541, 544, 546.

[30] *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 543.

[31] Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 54-62.

[32] *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 546.

[33] محمود العابدي، **قدسنا**، ص 69.

[34] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 12, p. 99.

[35] *Ibid.*, vol. 12, p. 100.

[36] محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين**، ص 62؛ وانظر:

Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, p. 54-62

[37] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 12, p. 202.

[38] محمود العابدي، **قدسنا**، ص 69.

[39] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 16, p. 27.

[40] *Ibid.*, vol. 16, p. 27.

[41] *Ibid.*, vol. 16, p. 201.

[42] *Ibid.*, vol. 16, p. 27, 28, 30, 31.

[43] Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 54-62.

[44] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 5, p. 431.

[45] عارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 111؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 1؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 9؛ وعز الدين فوده، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 25، 36، 45؛ ومحمد أديب العامري، **عروبة فلسطين**، ص 62؛ **وقاموس الكتاب المقدس**، ص 691-692؛ ومصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 1، ص 396-413؛ وأحمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، ص 299؛ وانظر:

Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 19-53.

[46] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 5, p. 432.

[47] الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 3، ص 428؛ وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج 1، ص 245؛ وعارف العارف، **تاريخ القدس**، ج 1، ص 48، 91؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 60؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 50؛ وكامل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص 26؛ ا. س. مرمرجي الدومنكي، **بلدانية فلسطين العربية**، تحقيق محمد خليل الباشا (بيروت: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1987)، ص 350؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 5، ص 171؛ والحميري، **الروض المعطار**، ص 556.

48 راجع: **موسوعة السياسة**، ج 4، ص 763-768؛ و**الموسوعة العربية العالمية**، ج 18، ص 82-86، و**الموسوعة العربية الميسرة**، ج 3، ص 1847؛ و**الموسوعة العربية الميسرة والموسعة**، المجلد 6، ص 2706؛ وأحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 3، ص 508-517؛ ورياض ياسين، **موجز تاريخ القدس**، ص 15-23؛ وانظر:

Britannica Junior Encyclopedia, vol. 5, p. 432.

49 *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 5, p. 322, 324, 325, 330, 330, 331, 340, 341, 342.

50 *Ibid.*, vol. 5, p. 322.

51 محمد أديب العامري،**عروبة فلسطين**، ص 62؛ وانظر:

Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 54-62.

52 محمد حسن شرّاب، **القدس**، ص 127-128.

53 *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 399.

54 راجع لمزيد من التفاصيل، **القدس في قرارات الأمم المتحدة** (عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 1995)؛ وجريس خوري، **القدس**، ص 42-43.

55 *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 399.

56 *Ibid*., p. 399, 401.

57 محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين**، ص 62؛ وانظر:

Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 54-62

58 *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 401.

59 محمود العابدي، **قدسنا**، ص 210؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 253.

60 *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 10, p. 78.

61 عارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 11، 167؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 2، 4، 6؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 12، 15؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 46؛ وأحمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، ص 300.

62 *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 10, p. 78, 79.

63 *Ibid.*, vol. 10, p. 78, 80, 81.

64 *Ibid.*, vol. 10, p. 81.

65 *Ibid.*, vol. 10, p. 81.

66 *Ibid.*, vol. 11, p. 3427.

67 رشاد الإمام، **مدينة القدس في العصر الوسيط**، ص 170؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 98، 496؛ ومحمود العابدي، **قدسنا**، ص 94.

68 محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين**، ص 62؛ وانظر:

Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, p. 54-62.

69 *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 11, p. 3427.

70 *Ibid.*, p. 3426.

71 *Ibid.*, pp. 3426-3427.

72 *Ibid.*, vol. 6, p. 583.

73 *Ibid.*, p. 538.

74 *Ibid*.

75 Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 54-62.

76 *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 11 , p. 95.

77 *Ibid.*, vol. 11, 95, 100.

78 *Ibid.*, vol. 11, p. 98, 99, 100.

79 Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*, pp. 454-462.

[80] *Britannica Junior Encyclopedia*, vol. 11, p. 111.

[81] Sami Hadawi, *Land Ownership in Palestine*, p. 6.

[82] *Britannica Junior Encyclopedia*, p. 450.

[83] *Grand Larousse Encyclopedique*, Paris, 1962, vol. 7, p. 6.

[84] محسن صالح، **الطريق إلى القدس**، ص 36.

[85] *Chambers Encyclopedia*, London, 1973, vol. 8, p. 77.

[86] *Ibid.*, pp. 76-77.

[87] *Ibid.*, p. 78.

[88] *Ibid*.

[89] إبراهيم أبو جابر وآخرون، **قضية القدس ومستقبلها** (مركز دراسات الشرق الأوسط، عمّان، 1997)، ص 88.

[90] *Illustrated World Encyclopedia*, Albert H.Morehead (Editor) (Woodbury, NY: Bobley Publishing Crop, 1966)

[91] هـ.ي. فرانكن، "القدس في العصر البرونزي،" من **القدس في التاريخ**، ترجمة وتحرير كامل العسلي (عمّان: الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، 1992)، ص 26.

[92] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 38.

[93] *Illustrated World Encyclopedia*.

[94] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 56.

[95] *Funk & Wagnalls: New Encyclopedia* (New York: Funk & Wagnells, 1975).

[96] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، ج 1، ص 2، 4، 6؛ وعارف العارف، **تاريخ القدس**، ص 11، 167؛ والعابدي، **قدسنا**، ص 12، 15؛ وعز الدين فودة، **قضية القدس في محيط العلاقات الدولية**، ص 46؛ وأحمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ حقائق تاريخية**، ص 300.

[97] *Funk & Wagnalls: New Encyclopedia.*

[98] جون ولكنسون، "القدس تحت حكم روما وبيزنطة،" من **القدس في التاريخ**، ترجمة وتحرير كامل العسلي (عمّان: الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، 1992)، ص 116.

[99] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 385؛ شفيق جاسر، **تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها حتى الحروب الصليبية**، ص 48.

[100] *Funk & Wagnalls: New Encyclopedia*

[101] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 400-401.

[102] K.A.C Creswell, *Early Muslim Architecture: Umayyads, A.D. 622-750*, pp. 23-24.

[103] *Funk & Wagnalls: New Encyclopedia*

[104] سيتم مناقشة هذا بشيء من التفصيل عند تحليل الموسوعات المسيحية.

[105] *Funk & Wagnalls: New Encyclopedia*

[106] محمود العابدي، **مأساة بيت المقدس**، ص 178.

[107] *Funk & Wagnalls: New Encyclopedia*

[108] رمضان عبده، "أقدم التنقيبات الأثرية وأهمها في أنحاء فلسطين وفي القدس خاصة،" ص 21-37.

[109] *Encyclopedia International* (New York: Grolier, 1972).

[110] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 620.

[111] *Encyclopedia International*

[112] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 605.

[113] **المرجع نفسه**، ص 599.

[114] *The New Catholic Dictionary* (New York: The Universal Knowledge Foundation, 1929), p. 504.

[115] كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 38.

116 *The New Catholic Dictionary*, p. 504.

117 *Ibid.*

118 *A Dictionary of Christ and the Gospels* (New York: 1908), vol. 2, p. 305.

119 فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمه زياد العسلي (عمّان: دار الشروق، 1990)، ص 36.

120 ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، ترجمة إلياس شاهين (موسكو: دار التقدم، 1986)، ص 24-26.

121 *The Coptic Encyclopedia* (New York: 1991), vol. 4, p. 1324.

122 جرجس فيلوثاؤس عوف، **أملاك القبط في القدس الشريف**، ج 1، ص 8، 9.

123 عارف العارف، **المسيحية في القدس**، ص 131.

124 *The Coptic Encyclopedia*, vol. 4, p. 1324.

125 ديمتري رزق، **قصة الاقباط في الاراضي المقدسة**، 1976، ص 31.

126 **المرجع نفسه**، ص 14.

127 عارف العارف، **المسيحية في القدس**، ص 128.

128 ديمتري رزق، **قصة الأقباط في الأراضي المقدسة**، ص 15.

129 جريس خوري (محرر)، **القدس: دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية** (القدس: مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة، 1996)، ص 38.

130 *Encyclopedia Judaica* (Jerusalem: 1971), vol. 9 , p. 1380.

131 رياض ياسين، **موجز تاريخ القدس**، ص 11.

132 كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 54.

133 مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، القسم الثاني، ج 9، ص 27.

134 *Encyclopedia Judaica*, vol. 9, p. 1380.

135 مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ص 23.

136 شفيق جاسر، **تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين**، ص 17؛ وراجع حول التسمية أيضاً، خالد العك، **تاريخ القدس العربي القديم** (دمشق: مؤسسة النوري، 1986)، ص 73.

137 رياض ياسين، **موجز تاريخ القدس**، ص 11.

138 شفيق جاسر، **تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين**، ص 18.

139 رائف نجم، **الحفريات الأثرية في القدس**، ص 27.

140 *Encyclopedia Judaica*, vol. 9 , p. 1406-1408.

141 محمود العابدي، الحفريات الأثرية حول الحرم المقدسي، بحث منشور في مؤتمر تاريخ بلاد الشام القرن السادس إلى القرن السابع عشر، الجامعة الأردنية، 1974، ص 531.

142 المرجع نفسه.

143 رياض حمودة ياسين، **موجز تاريخ القدس**، ص 121-123.

144 كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ص 597.

145 Cattan Henry, *Palestine, The Arabs and Israel: The Search for Justice* (London: Longman, 1969), p. 4.

146 محسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس**، ص 12.

الفصل الحادي عشر

الجمعيات التي تعنى بحفظ تراث مدينة القدس في ظل التزوير الإسرائيلي

الجمعيات التي تعنى بحفظ تراث مدينة القدس في ظل التزوير الإسرائيلي

د. إبراهيم أبو جابر

مقدمة:

تعدّ مدينة القدس من أكثر مدن العالم حساسية لدى تناول القضايا المتعلقة بها، سواء التاريخية أم الدينية أم الاجتماعية والسياسية، لكونها مركزاً للصراعات في هذه الأرض عبر عقود طويلة، وبسبب استمرار التنازع عليها حتى وقتنا الحاضر. ونتيجة لهذا الواقع من الاختلاف والتنازع، فإن تراث المدينة وحضارتها كان هدفاً من قبل المحتل للتزوير والطعن والسرقة، لتمرير مخططات ومؤامرات جهات عدة، مما جعل تراثها مرتعاً لضروبٍ من الحرب الممنهجة، وبالذات في الصراع العربي الإسرائيلي نظراً لكونها بؤرة الاختلاف.

والمتابع للأحداث في المدينة المقدسة يلحظ أن الاهتمام منصب حيال ما تتعرض له المدينة على النواحي الظاهرة للعيان فقط، كمصادرة الأراضي والحفريات وهدم المنازل وإغلاق المؤسسات، فيما الغياب سيد الموقف تجاه ما تتعرض له من تزييف ممنهج لتراثها وحضارتها، وفرض التهويد على كل ما يرتبط بتاريخها.

لا ينكر أحد أن هناك دعماً مالياً يتذبذب بين فترة وأخرى، يصل للمدينة من جهات إسلامية وعربية ودولية رسمية وغيرها، لكن اللافت للنظر أنه ينصب على مشاريع إما تطويرية لمحتويات المسجد الأقصى من سجاد وإنارة أو اجتماعية من خلال إقامة الإفطارات الجماعية ودعم الأطر النسوية والأطفال وقضايا حقوق الإنسان، لكن هناك شبه انعدام للدعم الموجه للحفاظ على تراث المدينة وحضارتها.

إن هناك غياباً للاهتمام العلمي والدراسي الفلسطيني والعربي والإسلامي لتراث المدينة المعمق، الذي يرصد كل ما له صلة بحضارة المدينة وتاريخها، خاصة أن الطرف الآخر يظهر اهتماماً واضحاً بذلك، ويخصص ملايين الدولارات، عبر التعاون مع خبراء ومهتمين يهوداً وأجانب سعياً لتحقيق مطامعه.

ويعدّ الاهتمام بهذا التراث جانباً من جوانب صمود أهل مدينة القدس في وجه التهويد والتهجير، الأمر الذي تفتقده الأجندة الفلسطينية الرسمية والأهلية، التي يغيب عنها الإدراك لخطورة المؤامرات التي تحاك ضدّ تراث القدس وفلسطين عموماً، وسعي الاحتلال الممنهج لتفريغها من مضمونها الحضاري والثقافي.

والمتابع لظاهرة استهداف تراث مدينة القدس يخشى من أن الحقائق التي يرسخها المُحتل على الأرض تتجه نحو تقوية الرواية الإسرائيلية التي تملك المقدرات والقوة وتسخير الخبراء والمختصين الذين يعملون دوماً من أجل تأكيد تلك الروايات.

ولقد تعرض التراث الثقافي الفلسطيني لعملية تدمير شبه منظمة في السنوات الأخيرة، وجرى استهداف مقصود لمواقع التراث الثقافي في المدن التاريخية، خصوصاً في القدس وبيت لحم والخليل ورفح وخانيونس والعديد من المواقع الأخرى. وتجري عمليات التدمير من قبل الاحتلال وتتواصل التنقيبات الأثرية الإسرائيلية في محيط المسجد الأقصى، على الرغم من مطالبة المجتمع الدولي بوقفها، لما تحمله من مخاطر.

أولاً: واقع تراث القدس:

تعدّ قضية "تراث القدس" من القضايا الشائكة التي ستظل حية، ما دامت قضية المدينة المقدسة نفسها حية، فالتراث العربي الإسلامي عموماً وتراث القدس خصوصاً همّ كبير من هموم الأمة، ولا بدّ من الإلحاح عليه، ليظل حاضراً عند صنّاع القرار والمؤسسات التراثية العربية والإسلامية، والغيورين على أمتهم وتراثهم[1]. وهذه قضية مفصلية لها منطلقات أيديولوجية عميقة، إلى جانب ارتباطاتها السياسية والاقتصادية والثقافية المتنوعة.

إن تراث المدينة الفلسطينية بشكل عام وتراث القدس بشكل خاص لم يلقَ الاهتمام اللازم، حيث لم يتم جمعه كما لم يتم تدوينه، لأسباب كثيرة لسنا في مجال طرحها في هذه العجالة، وإن كان التذكير هنا بمثابة دعوة إلى المؤسسات المقدسية إلى ضرورة التعجيل في القيام بهذه المهمة، لأن هذا التراث مهدد بالاندثار، نتيجة تطور الحياة وأسباب أخرى[2].

إن أهم المعالم التراثية في القدس هي دور العبادة فيها، التي تمثل روائع هندسية جمالية إضافة إلى مكانتها الروحية، وأبرز دور العبادة هذه هو المسجد الأقصى وقبة

الصخرة المشرفة ومسجد عمر، وعشرات المساجد والزوايا والتكايا التاريخية الأخرى، وكذلك كنيسة القيامة، وكنيسة العذراء، وكنيسة الجثمانية، وعشرات الكنائس والأديرة الأخرى[3]. ناهيك عن الأزياء والمأكولات وغيرها من المعالم التراثية، التي تعدّ جزءاً لا يتجزأ من الثقافة والتراث الذي يضرب بجذوره في أعماق التاريخ.

وفي هذا الإطار يظهر جلياً المشهد الثقافي المقدسي بهويته الفلسطينية العربية، وبتاريخه الإسلامي المسيحي، يصمد في القدس عبر الأيام والسنوات والعقود؛ في حارات ومراكز ثقافية ومؤسسات سياسية وأخرى مجتمعية ومتاحف ونوادي عريقة وفنادق ومواقع تاريخية سياحية، يحاول مرهقاً الوقوف في وجه احتلال لم يفتأ يتربص به وبعناوينه الإنسان والشارع والبيت. ذلك الصمود الذي يقاوم التنازل واليأس، ويحملنا من شارع إلى شارع، في البلدة العتيقة، يطمئننا على القيامة في حارة النصارى، وعلى أقصى الإسراء والمعراج بمسار درب الآلام... قضية تراث القدس من القضايا الشائكة التي ستظل حية، ما دامت قضية المدينة المقدسة نفسها حية، فالتراث العربي الإسلامي عموماً، وتراث القدس خصوصاً، همٌّ كبير من هموم الأمة، ولا بد من الإلحاح عليه، ليظل حاضراً عند صُنّاع القرار والمؤسسات التراثية العربية والإسلامية، والغيورين على أمتهم وتراثهم[4].

ويتطرق يوسف زيدان، مدير مركز ومتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، في بحث عنوانه "المخطوطات المقدسية المفهرسة" إلى أن بعض مجموعات من المخطوطات العربية ما تزال "بيد اليهود، منها مجموعة بالجامعة العبرية في القدس لا نكاد نحن العرب نعرف عن محتوياتها إلا أقل القليل"، إضافة إلى مخطوطات أخرى محفوظة في المكتبة القومية اليهودية والمكتبة الجامعية بالقدس. وأضاف زيدان بقوله: "حولوا تراثنا العربي إلى سلعة يستفاد منها مالياً، ولو باعوا من النسخ المصورة 100 نسخة فقط، وهو عدد أقل من المتوقع، فسوف يحصلون الملايين"[5]. وهذا أحد آثار الإهمال الذي تتعرض له المخطوطات منذ احتلال فلسطين في الحقب الزمنية المتتابعة.

ويرى زيدان أن العرب أنفسهم أهملوا في حقّ التراث الموجود بالقدس، مشيراً إلى تأخر تكوين المجموعات الخطية الكبيرة في القدس وفلسطين. مضيفاً أن تأخر فهرستها من بداية القرن العشرين إلى نهاياته "شاهد على عدم وعينا بأهمية تراث الإنسان في المكان. ويثور العرب كلما اقترب اليهود من ساحة المسجد الأقصى، مع أن هذا المسجد وغيره يضم تراثاً مهملاً بيدهم"[6].

كما أن الوقوف على حجم مخاطر ذلك يتطلب إجراء دراسات معمقة وحيادية، بعيداً عن المنطلقات السياسية، حتى يتمّ تقييم مدى الضرر وكيفية مواجهته ومعالجته، علمياً وعملياً، والحد من استفحال الظاهرة.

ويقول عبد الستار الحلوجي، الأستاذ بجامعة القاهرة، إن التراث المخطوط بمكتبات القدس كثير ومتنوع وموزع على أديرة ومعابد وكنائس ومتاحف ومساجد إضافة إلى المكتبات الخاصة، مشيراً إلى أن هذا التراث ما يزال بحاجة إلى تعريف. كما أنه يتعرض لعدوان بشع يدينه الضمير الدولي ويفضح دعاوى العدل وحقوق الإنسان، فأشكال التدمير لا تستهدف المباني والبشر فقط، بل تمتد إلى طمس ذاكرة المدينة والسطو عليها، من خلال إتلاف هذا التراث الذي يثبت هويتها ويؤكد عروبتها[7].

وجوبهت تلك الممارسات بصمت مطبق عربياً وإسلامياً، فيما وقف المجتمع الدولي موقفاً متجاهلاً، مما فتح المجال للساسة والمنظمات الصهيونية لمواصلة تنفيذ مخططاتها الرامية لإبراز وجهة النظر اليهودية على كل ما يمت بصلة للتاريخ والتراث، مما يكشف مبررات استمرار الاستهتار للسنوات التي أعقبت ذلك وما تزال حتى اللحظة.

والقدس ومنذ سنة 1967 تتعرض لعمليات تهويد واسعة النطاق، فهي مدينة توقف فيها الزمان منذ تلك السنة، ومما يؤكد ذلك أن أكبر سوق تجاري ليس فيه أكثر من مئة محل، كما أن الأسماء العربية المعروفة للحارات والأزقة والمنشآت تغيرت إلى أسماء يهودية. والجهود ما تزال فردية من جانب الباحثين في دراسة تاريخ القدس وحضارتها، وكل ما يشتمل عليه هذا التاريخ من عمارة وثقافة، وتحتاج إلى دعم من المؤسسات في العالمين العربي والإسلامي، لا سيّما المؤسسات العلمية[8].

وعن دور اليونسكو يؤكد خبير الآثار نظمي الجعبة أن على اليونسكو دوراً كبيراً تجاه مدينة القدس، وقال: "إن منظمة اليونسكو تصدر تقارير دورية حول ما يدور في المدينة، معظمها غير جيدة، لأنه تمّ تحييدها من قبل أمريكا وإسرائيل وبعض الدول الأوروبية، ولم يعد صوتها مؤثراً، وهذا لا يعني أن نقبل بالدور الحالي لليونسكو، فعلينا الضغط عليها لفضح ما يدور بالمدينة، وحماية ما تبقى منها"[9].

وأضاف الجعبة أن المقدسات في القدس تتعرض لهجمة كبيرة وتمّ السيطرة على عدة مقدسات في المدينة، وذكر منها النبي صمويل وقبة راحيل. كما تمّ تهميش البعض الآخر من المقدسات مثل المسجد العمري القائم في حارة الشرف أو ما يعرف بـ"حارة اليهود"،

والذي أصبح الوصول إليه شبه مستحيل. يضاف إلى ما سبق الهجمة الدائمة التي يتعرض لها الأقصى من منع المصلين من الوصول إليه، وافتتاح مركز شرطة داخله، وتقييد حركة السياحة إليه بحجج وذرائع واهية، و"الهدف من ذلك تقسيم المسجد الأقصى بين المسلمين واليهود كما هو في الحرم الإبراهيمي في الخليل، وإذا لم يتم إيقاف هذه الهجمة المبرمجة والمنظمة ستؤدي إلى تدميره أو أجزاء منه أو تقسيمه"[10].

ثانياً: وسائل اليهود في تزييف تراث وحضارة القدس:

مارست الدولة العبرية وسائل شتى في طمس وتزوير تراث المدينة، في محاولة لقلب الحقائق وإظهار أحقية اليهود في هذه البلاد، مستخدمة الإمكانات المالية والسيطرة على الأرض ووسائل الإعلام المختلفة، وبخاصة العالمية، من أجل تمرير ادعاءاتها بأن حضارة وتراث المدينة مرتبط فقط بالتواجد اليهودي في هذه الأرض.

وفي الاجتماع السنوي الـ 28 لليونسكو الذي عقد في الصين في شهر تموز/ يوليو 2004، قدمت السلطات الإسرائيلية طلباً لشطب القدس من قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر، وطلباً آخر لتسجيل النقب ضمن قائمة التراث العالمي. على إثر ذلك اجتمعت المجموعة العربية المشارِكَة في الاجتماع السنوي، ووضعت صيغة باللغتين الإنجليزية والفرنسية (حسب نظام لجنة التراث العالمي) من سبعة بنود، أكدت فيها على طلب بقاء تسجيل القدس ضمن قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر؛ لعدم تغير الظروف، ولاستمرار الصعوبات أمام عمليات الترميم. وحثت السلطات المعنية لتسهيل عمليات الإعمار والترميم داخل المدينة القديمة، وعدم ممانعة دخول العمال ومواد الترميم إلى المواقع. وشجعت المدير العام لليونسكو على اتخاذ زمام المبادرة في تنفيذ قرار المؤتمر العام لليونسكو رقم 39 الصادر في تشرين الأول/ أكتوبر 2003، بشأن وضع خطوط عريضة لخطة عمل واقتراحات للحفاظ على تراث القدس، ولدى عرض الصيغة في الاجتماع الذي عقد في 2004/7/2 نال الموافقة بالإجماع[11].

واستخدمت "إسرائيل" أشكال متعددة من الوسائل في هذا السياق أبرزها الباحث سعيد يقين من جامعة بيرزيت في دراسة بعنوان "الحركة الصهيونية وخطر التصفية والتزوير الحضاري والتاريخي في منطقة القدس" بما يلي:

1. تزوير الأسماء:

تتم عملية تهويد المسميات بطريقة منظمة عن طريق "سلطة تسمية الأماكن الإسرائيلية"، وهي الهيئة الوحيدة المنوط بها هذا العمل، وتعتمد على عدة طرق؛ منها ترجمة الاسم إلى العبرية (العبرنة) مثل جبل الزيتون إلى هار هزيتم، وجبل الرادار إلى هار دار شمال غرب القدس وغيرها. وهناك أسلوب آخر هو تحريف الاسم العربي ليلائم اسماً عبرياً، مثل كسلا التي أصبحت كسلون، والجيب التي أصبحت جبعون، وهناك العديد من الأحياء العربية التي تمّ تغيير أسمائها في الخرائط واللافتات والعناوين، مثل شارع الواد في البلدة القديمة (هحاي)، شارع خان الزيت (حباد)، باب الساهرة والحي (هيرودوس)، كرم الجاعوني (قبر الصديق شمعون)، جورة النقاع في الشيخ جراح (كبانية ام هارون)، سلوان (كفار هشلوح)، دير أيوب (كفار هيمنيم)، وادي حلوة (معالي عير ديفيد)، وادي الربابة (غاي بنهبؤوم)، واد ستنا مريم (وادي قدرون)، مركز حي سلوان (عير ديفيد)، عين سلوان (حزيك ياهو)، حي الفاروق في جبل المكبر (نوف لتسيون)، جبل الزيتون (متسبري تسوريم)، كرم عياش في راس العامود (معالي زاتيم)[12]. وهناك مئات الأسماء العربية لمواقع مختلفة في القدس تمّ تزويرها.

2. طمس الآثار العربية:

هناك أسلوب آخر للتزوير الحضاري والتاريخي للقدس وهو إزالة وطمس آثار القرى العربية واستخدام حجارتها في بناء المستوطنات اليهودية، ولجأت الحركة الصهيونية وعصاباتها إلى تدمير كامل القرى المقدسية في حرب 48، ولم يبقَ منها إلا قرية أبو غوش غرب القدس وجزء من قرية شرفات.

3. سرقة وإهمال:

لقد أطلقت "إسرائيل" العنان للتجار اليهود لممارسة أبشع أشكال التجارة والسرقة، غير المشروعة، للمعالم الأثرية، فلم تبقَ خربة إلا وعاث فيها اللصوص خراباً وتدميراً. ومسّت مناطق بأكملها كما هو الحال في قرية طليلية الواقعة بين بيت اكسا وبيت حنينا؛ حيث أقيمت عليها مستوطنة راموت Ramot إلى الشمال من القدس كما بنيت مستوطنة جفعات زئيف Givat Ze'ev إلى الشمال من قرية الجيب على أنقاض عدد من الخِرَب، بالإضافة إلى ما يجري حالياً من تدمير وإزالة لخربة عين الدوير على أراضي الجيب وبيتونيا لتوسيع جفعات زئيف[13].

والاحتلال الإسرائيلي معني بنشر ثقافته ولغته، ويحاول فرض مفرداته لكي تكون هي السائدة في البلاد. وهناك كلمات استقدمت من العبرية أصبحت هي المتعارف عليها حتى بين طبقة المتعلمين، مثل (محسوم=حاجز)، و(رمزور=إشارة ضوئية) و(مزجان=مكيف الهواء)[14].

ويقول محمد الصفدي من مركز إحياء التراث في القدس: تجري محاولات حثيثة لنقل المخطوطات إلى أماكن صحية وسليمة للحفاظ عليها، مضيفاً "نحن نواجه أزمة حقيقية لأننا عاجزون عن حمايتها والعناية بها، ومهما بحثنا عن بدائل كتصويرها والاحتفاظ بصورها فلن يكون الأمر كافياً إلا بترميمها والعناية بها بشكل مباشر"[15].

من جانبه نفى وزير الثقافة الفلسطيني السابق إبراهيم أبراش الاتهامات الموجه للسلطة الفلسطينية بالإهمال المتعمد في هذا المجال، مشيراً إلى محدودية قدرة وزارة الثقافة والسلطة الوطنية "بحكم اتفاق أوسلو"، وأضاف: "هناك مخطوطات ومكتبات كثيرة تحتاج إلى العناية والترميم، لكن إسرائيل تمنعنا من ذلك، حتى إنها تحول دون علاج المكتبات القديمة وإصلاحها". لافتاً النظر إلى صعوبة تواصل الجمهور الفلسطيني مع مدينة القدس بغية التعرف على هذه المخطوطات، مشيراً إلى محدودية قدرة السلطة الفلسطينية على رصد إمكانيات مالية بهذا الصدد[16].

ثالثاً: الجمعيات والمراكز التي تعنى بتراث القدس:

1. الجمعيات والمراكز العربية:

هناك العديد من المؤسسات والمراكز التي عنيت بالتراث منها:

أ. مركز ترميم المخطوطات:

ويقف على رأس الهرم فيه الدكتور الشيخ ناجح بكيرات، الذي قدم عرضاً لأهداف المركز، والمحددة بترميم ومعالجة كافة المخطوطات والوثائق والكتب النفيسة الموجودة في المسجد الأقصى، والتي تحتاج إلى ترميم علمي دقيق. وصيانة وحفظ المخطوطات، وتوفير البيئة المناسبة لاستمرار بقائها ونقلها للأجيال القادمة باعتبارها تراثاً حضارياً إسلامياً. واستكمال فهرسة تصنيف المخطوطات، وتوثيقها بتصويرها رقمياً وفوتوغرافياً، من أجل استفادة الباحثين منها محلياً وعالمياً. ومدّ المساعدة

والعون لأصحاب المجموعات الخاصة التي لديها مخطوطات خاصة بها، والتعاون مع المؤسسات البحثية العربية والإسلامية التي تختص بحفظ وصيانة المخطوطات[17].

أما رؤية المركز فتتمثل في توقه إلى نشر الوعي الثقافي بين كل المهتمين بالتراث، والتركيز على التعامل مع المخطوطات باعتبارها جزءاً أساسياً من هويتنا العربية والإسلامية، إضافة إلى الإسهام في تحسين أوضاع المخطوطات المهددة بالاندثار والتلف، من خلال توفير العديد من المعدات والأجهزة والمواد اللازمة[18].

يخضع ترميم المخطوطات لعملية تقنية دقيقة لحمايته من التلف بسبب العوامل الطبيعية والكيمائية، وعامل الزمن الذي يؤدي إلى ضعف في قوة تماسك المخطوط، وتعتمد عملية ترميم المخطوطات بشكل كامل على مهارة يد المختص، والمواد المستخدمة. ويعمل في المركز مختصون تمّ إيفادهم إلى أشهر المعاهد العالمية في إيطاليا، لدراسة ترميم وصيانة المخطوطات وطرق حفظها. ويتألف فريق العمل من: الدكتور ناجح بكيرات رئيساً للمركز، والسيد خضر شهابي، والسيد عصام نجيب، وهما فنيّان، والثلاثة من ضمن كادر دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية[19].

وقد منع الاحتلال الإسرائيلي إدخال أجهزة ومعدات لمركز المخطوطات تبرعت بها اليونسكو "مختبر خاص للترميم المخطوطات"، وتمّ احتجازها لمدة عامين ونصف العام في ميناء أشدود Ashdod Port، وبعد تدخل من الملك عبد الله الثاني، تمّ تذليل الصعوبات الإسرائيلية. كما يواجه عمل المركز معوقات إسرائيلية شبه يومية؛ لأن إدخال أي مادة ترميم، ولو كانت عبارة عن "كرتون"، يحتاج إلى تصريح إسرائيلي. كما يعاني المركز من نقص في الأيادي العاملة، بسبب الصعوبات المالية التي تواجهه، وعدم قدرته على تشغيل مرممين إضافيين[20].

ب. دار الرعاية الصحية والاجتماعية:

يهتم هذا المركز بتأهيل المرأة المقدسية لمحاربة خطة وسكونسن الإسرائيلية Wisconsin Plan، الهادفة إلى إدخال العائلات التي لم تكن ضمن إطار مجموعة عمل في سوق العمل، ويتم إرسال المرأة المقدسية للعمل في وظائف لا تليق بها كعاملة نظافة في الحدائق الإسرائيلية أو في المستشفيات... إلخ. فيقوم المركز بتعليم المرأة حياكة الصوف والتطريز وعمل الإكسسورات، وبهذا يكون قد حقق المركز هدفين؛ الأول: المحافظة على مكانة المرأة المقدسية، والثاني: المحافظة على تراث التطريز وحياكة الصوف[21].

ج. قسم إحياء التراث في المسجد الأقصى المبارك:

يعدّ هذا المركز متفرعاً عن مركز ترميم المخطوطات، ويضم هذا القسم مئات من الملفات المتبقية من قسم إحياء التراث الذي تمّ نقله إلى قسم إحياء التراث في أبو ديس، والقسم الحالي يحوي مجموعة من الملفات المالية والمحاسبية لدائرة الأوقاف، وذلك منذ سنة 1950 وحتى الآن، كما وتقوم الأوقاف بتخزين الملفات التي لا تحتاجها فيه[22].

د. متحف دار الطفل العربي للتراث الشعبي الفلسطيني:

في محاولة من مؤسسة دار الطفل العربي لإنقاد ما يمكن إنقاذه من تراث القدس، فإن المؤسسة لجأت إلى تأسيس متحف متواضع يحوي بعض الموجودات التراثية من صناعات وأدوات صناعية وزراعية، وأثواب مطرزة. ويضم المتحف قطعاً أثرية من شتى أنحاء فلسطين، كما يحتوي بعض الأزياء الشعبية من بلدان عربية وإسلامية، تمّ جمعها منذ سنة 1948 بجهود هند الحسيني، من أجل المحافظة على التراث الفلسطيني من الاندثار، ولتعريف الأجيال القادمة بتراثنا وقيمته[23].

وخلال السنوات الماضية تمّ:

- ترميم وتنظيف الأثواب والحلي والقطع النحاسية والفخارية.
- توثيق القطع بالصور والشرائح وحفظها في الحاسوب بمساعدة خبيرة هولندية.

هـ. المتحف الإسلامي:

وهو متحف في رواق المسجد الأقصى، وفيه بعض الموجودات القديمة جداً، كما أنه يحوي قسماً لترميم الآثار القديمة.

و. مكتبة الأقصى:

وهي مكتبة موجودة في مقرين؛ أحدهما تحت المسجد الأقصى، والثاني في رواقه، وتحويان على مئات الآلاف من الكتب القديمة والحديثة.

ز. مركز التراث والبحوث الإسلامية:

وهو موجود في أبو ديس، وقد صدرت عنه عشرات الدراسات القيمة حول المدينة المقدسة[24].

ح. المتحف الإسلامي:

وهو بناء قديم جداً، يقع في الرواق الغربي للمسجد الأقصى المبارك، إلى الجنوب من باب المغاربة، وله بابان؛ أحدهما مغلق في جهته الشمالية، والثاني مفتوح في جهته الشرقية المواجهة للجدار الغربي للجامع القبلي. ويقال إن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بناه سنة 590هـ/1193م لصلاة المالكية. ويستعمل اليوم كقاعة عرض لأغراض المتحف الإسلامي ومقتنياته، التي نقلت إليه من الرباط المنصوري، في سنة 1348هـ/1929م. ويحوي المتحف آثاراً كثيرة من العهود المختلفة للحكم الإسلامي لبيت المقدس، وبداخله ما تبقى من آثار منبر نور الدين زنكي بعد إحراق المسجد الأقصى سنة 1969[25].

وفي سنة 2004، قام بعض الصهاينة، الذين اعتادوا اقتحام الأقصى من باب المغاربة (والذي صادره المحتلون منذ بدء الاحتلال، ويمنعون المسلمين من استخدامه)، بتكسير أعمدة رخامية أثرية قريبة من المتحف الإسلامي، يعود تاريخها إلى العصور الإسلامية الأولى، كما حدث انهيار في جداره الغربي في سنة 2003، بسبب الحفريات اليهودية في ساحة البراق القريبة. ويتابع شؤون المتحف دائرة الأوقاف الإسلامية[26].

ط. مؤسسة التعاون:

تهدف المؤسسة إلى دعم ورعاية الأنشطة الفنية والثقافية وتشجيع الإبداع، مع إيلاء أهمية خاصة لإبراز الهوية الفلسطينية والحفاظ على التراث. وتسعى لأن تكون مؤسسة فلسطينية أهلية تنموية تسهم في تطوير قدرات الإنسان الفلسطيني والحفاظ على تراثه وهويته ودعم ثقافته الحية وفي بناء المجتمع المدني، وذلك من خلال التحديد المنهجي لاحتياجات الشعب الفلسطيني وأولوياته، والعمل على إيجاد الآليات السليمة للاستفادة القصوى من مصادر التمويل المتاحة[27].

ي. مركز دراسات القدس:

تأسس مركز دراسات القدس سنة 1998 كجزء من جامعة القدس، ليكون أول مركز فلسطيني متعدد المناهج للدراسات حول القدس، ويتناول وضع مدينة القدس الفريد للفلسطينيين خاصة وللعالم بصفة عامة. ويركز المركز على طرح سيناريوهات استراتيجية متنوعة لدراسة قضايا عديدة تتعلق بمدينة القدس، بما في ذلك قضايا سياسية وتاريخية وقانونية واقتصادية واجتماعية. ومن أهم نشاطات المركز البحث العلمي الأكاديمي، بالإضافة إلى عقد نشاطات تربوية ثقافية متنوعة موجهة لطلاب

جامعة القدس وسكان القدس، بغية تعميق الوعي الثقافي بخصوصية المدينة، من حيث المكان والزمان والواقع، وآليات الحفاظ على خصوصية المدينة العربية[28].

ك. دار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب:

تم تحويل منزل الأديب الفلسطيني محمد إسعاف النشاشيبي إلى مركز أبحاث إسلامية على يد هند الحسيني بمعاونة إسحق الحسيني سنة 1982، حيث عكف إسحق على إقامة مكتبة في المركز ضمت أكثر من ثمانية آلاف كتاب من أمهات كتب التراث العربي الإسلامي، وكرس خدماتها لجمهور الطلبة والأساتذة والباحثين، ولكن وبسبب الاحتلال وما نجم عنه من إغلاقات للحدود وإغلاقات بين المدن الفلسطينية وعزل المدينة عن الضفة الغربية؛ بدأت أعداد رواد المكتبة تتقلص بسرعة، كذلك تقلصت معها فعاليات المكتبة إلى أن شلت تماماً. وبعد ذلك شرعت مؤسسة دار الطفل العربي بعملية إحياء للمكتبة وإعادة تنظيمها وتأهيلها، وفتح أبوابها من جديد أمام الجمهور المقدسي تحت عنوان "دار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب". وتمت عملية صيانة سريعة للمبنى والمكتبة معاً، وأدخلت المعدات والأجهزة لها، ومن ضمنها أجهزة "قارئة ميكروفيلم" لتمكين الباحثين من الاطلاع على مصورات مخطوطات في الدار[29].

2. الجمعيات والمراكز الأجنبية:

هناك ندرة في المعلومات المحاطة بالجمعيات والمراكز الأجنبية، التي تتواجد في مدينة القدس وتعنى بقضايا التراث، إما بشكل مقصود من قبلها، أو لقلتها واقتصار العمل في هذا المجال على الجمعيات اليهودية، التي تفرض تعتيماً على أنشطتها والمجالات التي تختص بها.

ومن خلال البحث والتحري لم يتم الوصول إلى أي عنوان من المؤسسات الأجنبية الناشطة في هذا المجال، الأمر الذي يضع علامات استفهام حول عدم وجود أي رصد لها أو متابعة لنشاطاتها إن وجد. ومن خلال المتابعة تمّ التوصل إلى إحدى الجمعيات المسيحية الناشطة في مجال حماية التراث وهي:

جمعية حاملات الطيب:

نشأت جمعية حاملات الطيب سنة 1962، وقامت بالتعاون مع بطريركية الروم الأرثوذكس، بالعديد من الأنشطة مثل تأسيس مركز ميليا لتدريب وتشغيل المرأة

الفلسطينية، والذي نجح في تطوير نشاطاته لتمتد إلى مناطق متعددة في القدس وباقي أراضي الضفة الغربية، ويوفر فرص عمل لعدد كبير من النساء الفلسطينيات. وقامت الجمعية أيضاً بتأسيس وإدارة "مركز بنت البلد" و"مركز البلد إنترنت"، والذي يجري إعادة تأهيله الآن ليستعمل كمركز تراثي في البلدة القديمة.

رابعاً: دور الجمعيات في حماية تراث القدس:

بالرغم من وجود بعض الأنشطة من قبل العديد من الجمعيات والمراكز في الدفاع عن التراث المقدسي، إلا أن دور العديد منها يقتصر على إصدار البيانات والتنديد بما تتعرض له المدينة ومقدساتها بما فيها تراثها القديم. ويكاد يكون النشاط الموجه نحو التراث جزئياً من قبل بعض الجمعيات والمراكز، الأمر الذي يجعل فاعليتها غير شاملة ومقتصرة على المجالات المتاحة لها من قبل طواقمها العاملة. ويقترح الباحث المغربي من جامعة تطوان، الدكتور أحمد السعدي، مقترحاً عملياً لإنشاء مكتبة رقمية تحافظ على تراث القدس وتمنع تزويره أو تزييفه، لتكون شاهداً ودليلاً على أصالة التراث العربي والإسلامي في مدينة القدس[30].

وجاء هذا الاقتراح لعدم وجود آليات لحفظ تراث المدينة بالطرق الحديثة، يضمن عدم تعرضها للتلف والتزوير، ويحفظها للأجيال القادمة في ظلّ ما تتعرض من مخاطر جمة طيلة عقود طويلة.

ودعا المؤتمر العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) The Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization (ISESCO)، الذي عقد في تونس والذي شارك فيه وزراء التربية والثقافة في الدول العربية، إلى دعم مدينة القدس ودعم تراثها الثقافي في مواجهة ما تتعرض له من أخطار وتهديدات إسرائيلية، ومن بين مهامه متابعة قرار المؤتمر العام بإنشاء صندوق خاص لحماية وترميم وصيانة تراث وآثار مدينة القدس. كما دعا المؤتمر المدير العام لمنظمة الإيسيسكو لإجراء الاتصالات اللازمة بمدير عام اليونسكو ورئيس لجنة التراث العالمي؛ لتوضيح الموقف العربي من قيام سلطات الاحتلال الإسرائيلي بمحاولة تسجيل مدينة القدس على قائمة التراث العالمي كتراث يهودي[31]. الأمر الذي جوبه برفض عربي وفلسطيني رسمي ومؤسساتي.

وهناك مطالب من المركز من جميع المؤسسات العاملة في حقل المعلومات والتوثيق أن تستنهض هممها، وتستجمع قواها، للحفاظ على الذاكرة الفلسطينية، وتسليط الضوء على التراث العربي الإسلامي والمسيحي في مدن وقرى فلسطين، وخاصة في مدينة القدس الشريف، بقصد تعميق الانتماء إلى الوطن، والوقوف في مواجهة محاولات التزوير الإسرائيلية[32].

ويقوم قسم الآثار الإسلامية بتوثيق وصيانة المعالم الإسلامية المعرضة للأخطار حسب الإمكانات المالية المتوفرة، وقد تمكن هذا القسم من صيانة عدد لا بأس به من هذه المعالم بإشراف "مركز توثيق وصيانة وترميم آثار القدس"، الذي أنشأته جامعة الدول العربية في عمّان سنة 1982 ثمّ جمدت أعماله في سنة 1991. وتمّ خلال هذه الفترة ترميم المعالم الآتية: المدرسة الكيلانية، والمدرسة المزهرية، وتركان خاتون، ورباط كرد، والمدرسة اللؤلؤية، ورباط بايرام جاويش، والمدرسة السعدية، والمدرسة الجالقية، وقبة سليمان، والمدرسة الطشتمرية، وزاوية المغاربة، والمدرسة الأشرفية من الخارج، وخان السلطان، والمدرسة الغادرية، والمدرسة الجوهرية[33].

ولأن التراث المعماري الإسلامي في البلدة القديمة من القدس مهدد في ظلّ محاولات التهويد التي تتعرض لها المدينة؛ فقد أقدمت دائرة الأوقاف على تأسيس قسم الآثار سنة 1977، بهدف توثيق هذا التراث بأسلوب علمي، والحيلولة دون تشويه البلدة القديمة وتغيير معالمها، بالإضافة إلى ترميم هذه الآثار حيث تكثر في القدس القديمة المباني التي شيّدت من قبل أسر إسلامية، خاصة في الفترتين المملوكية والعثمانية، والتي هي آية في الجمال والإبداع الفني المعماري، إضافة للعديد من المباني التي تعود لفترات أخرى، إذ يقدر مدير قسم الآثار الإسلامية وجود نحو 220 أثراً إسلامياً في القدس، وتعود هذه المباني الأثرية إلى الحقبات الأموية والأيوبية والمملوكية والعثمانية[34].

والمتحف الفلسطيني المعروف حالياً بمتحف روكفلر، والذي خضع للسيطرة الإسرائيلية سنة 1967، يمثل تاريخ فلسطين في حقب تاريخية قديمة جداً، تبدأ من العصور التاريخية المبكرة وتستمر حتى العصر الكالكوليسي (العصر الحجري القديم)، والعصر البرونزي، والعصر الحديدي، حتى أوائل الفترة العربية الإسلامية (الأموية). كما يحتوي المتحف على موجودات أموية، ووثائق تاريخية مهمة في تاريخ فلسطين، والحضارات التي قامت فيها، مؤكداً أهمية الحفاظ على هذه الآثار والوثائق، باعتبارها جزءاً من تراث البشرية[35].

وبين خبير الآثار نظمي الجعبة أن الأخطار الرئيسية التي تهدد مستقبل الآثار في مدينة القدس وفي فلسطين عامة، بسبب الاحتلال الإسرائيلي، تتمثل في النهب والتزوير وإعادة كتابة التاريخ بطريقة مختلفة والتهويد، إضافة إلى تهميش التاريخ العربي والإسلامي في المدينة. موضحاً أن المؤسسات الإسرائيلية تسعى إلى إبراز فترات تاريخية لمدينة القدس على حساب فترات تاريخية أخرى، والفترات التاريخية التي تتحدث عنها "إسرائيل" تتمحور فقط حول زمن الهيكل الأول والثاني، وقال: "كأن التاريخ توقف بالمدينة عند ذلك، ولم يكن تاريخ بها قبل ذلك"[36].

وأضاف: "منذ احتلال المدينة سنة 1967 وحتى اليوم جرى نهب العديد من الآثار، وتم تحويلها للمعاهد الإسرائيلية"، وأوضح بأنه: "لا علم لنا بما تمّ اكتشافه ونهبه، والقائمة قد تضم عشرات الآلاف من القطع الأثرية"، مشيراً إلى نهب سلطات الاحتلال المتحف الفلسطيني وتسميته بمتحف روكفلر. وتابع بالقول: "أي أثر يتم العثور عليه واكتشافه للفترة الرومانية يتم بشكل تلقائي نسبه إلى الهيكل الثاني، فتزوير التاريخ يتم بشكل كامل داخل القدس"، وأضاف: "يتم تهويد التاريخ والمكان في مدينة القدس". كما أكد عدم وجود أي مؤسسة مقدسية تعنى بالآثار سوى دائرة الآثار التابعة للأوقاف، والتي يقتصر عملها على المسجد الأقصى والمباني الوقفية، وبالتالي تعجز الدائرة عن القيام بالاهتمام بالآثار في المدينة، مشيراً إلى عمل مؤسسة التعاون ولجنة الرفاه للتطوير، حيث تقوم بترميم المباني في البلدة القديمة، وقال :"بالرغم من جدية عمل المؤسستين في المدينة إلا أن التحديات أكبر من قدراتهما"[37].

ولإنقاذ الآثار والتراث في مدينة القدس شدد الجعبة على توثيق كل الانتهاكات من تدمير ونهب وما يتم اكتشافه بالمدينة، ورفع تقارير دائمة لليونسكو والمؤسسات الدولية، إضافة إلى تدخل الدول العربية والإسلامية للاحتجاج ورفع صوتها أمام المحافل الدولية لإيقاف الممارسات الإسرائيلية تجاه التراث العربي والإسلامي. وطالب برفع مستوى الوعي وتوعية السكان والشعب الفلسطيني والعالم العربي والإسلامي بالآثار الفلسطينية ومصيرها، والأخطار التي تتعرض لها، وطالب بإدخال موضوع الآثار في المناهج الفلسطينية بشكل عملي وواقعي، ودعم مشاريع الترميم حفاظاً على الآثار المتبقية.

خاتمة:

يظهر من خلال المتابعة السابقة أن هناك ضعفاً في حماية التراث الإسلامي والعربي في مدينة القدس على الصعيدين الرسمي والأهلي، وعلى الرغم من وجود بعض المراكز التي تعنى بقضايا التراث إلا أنها تعاني من قلة الإمكانات والمحاربة من قبل السلطات الإسرائيلية وندرة الكفاءات والخبراء في هذا المجال، ناهيك عن عدم الجدية والإدراك لخطورة ما يتعرض له تراث المدينة المقدسة.

وفيما يلي عرض لأبرز النتائج التي توصل لها الباحث:

1. غياب التنسيق بين الجهات الناشطة في حفظ التراث.
2. ندرة الخبراء المختصين في هذا المجال، واعتماد النظام التقليدي في حفظ المخطوطات، مما يجعلها عرضة للتلف والتخريب.
3. هناك خطط ممنهجة من قبل الدولة العبرية في طمس تراث المدينة المقدسة وتزويره، لتحقيق أطماع توسعية بعيداً عن أي التزامات علمية ومهنية.
4. ضعف الدعم المالي الممنوح لحماية وحفظ تراث القدس، على الرغم من الحاجة الماسة له في إنجاح مشاريع وخطط الدفاع عن تراثها المنهوب.
5. هناك ظاهرة بيع المخطوطات والقطع الأثرية والتراثية والمتاجرة فيها، مما يشكل خطراً على ضياع وتبديد التراث الثقافي للقدس.
6. ما تزال المخططات الإسرائيلية لسلب تراث المدينة المقدسة متواصلة، وتشهد تصعيداً متزايداً في المرحلة الراهنة من قبل المنظمات الصهيونية.
7. غياب برنامج فلسطيني رسمي لمجابهة المخططات الصهيونية، مع ضعف الجمعيات الأهلية.
8. عدم توفر توثيق لكل الانتهاكات التي تستهدف تراث القدس ومخطوطاتها، مما يثير مخاوف من فقدان الكثير منها.
9. عدم وجود معرفة بنشاط الجمعيات الأجنبية في مجال حماية التراث والآثار، مما يتطلب العمل من أجل متابعة ذلك والتحري بشأنه، للوقوف على حقيقة تلك الجمعيات وطرائق عملها.

توصيات:

انطلاقاً من استشراف واقع التراث في المدينة المقدسة، وما تتعرض له من تزوير وتحريف ممنهج فإن هذا الواقع المؤلم يستدعي طرح جملة من التوصيات أبرزها:

1. التنسيق الجاد والفعلي بين المراكز والجهات التي تعنى بتراث القدس في الداخل والخارج، وتشكيل مرجعية عليا للتنسيق.
2. تنظيم مؤتمرات وورش عمل مختصة بحماية التراث، يتم فيها استضافة خبراء ومهتمين، وإجراء دراسات علمية معمقة حيال كل ما يتعرض له التراث من سرقة وتزوير.
3. حفظ تراث المدينة والمخطوطات بأحدث الطرق العلمية، وبالذات عبر النظام المحوسب وحفظها بعيداً عن السرقة والتزوير.
4. إيفاد مبعوثين محليين للخارج للتخصص في مجال حفظ التراث، وتدريبهم على أفضل الطرق وأحدثها.
5. محاربة ظاهرة الإتجار بالمخطوطات والمواد التراثية.
6. إنشاء مركز متخصص في التراث المقدسي يُعنى بالتدريب وتأهيل القيادات والخبراء.
7. إدراج موضوع التراث في المناهج المدرسية والجامعية الفلسطينية.
8. إنشاء صندوق مالي يوجه رصيده لحماية التراث والمخطوطات وكل ما يمت بصلة لحضارة المدينة العريقة.
9. إثارة مسألة سرقة الآثار والتراث في المحافل الدولية والمنظمات التي تعنى بالمخطوطات وتاريخ الحضارات.

هوامش الفصل الحادي عشر

[1] خالد عزب، تراث القدس: ذاكرة المكان والإنسان، جريدة **الحياة**، لندن، 2009، في:
http://www.daralhayat.com/classics/02-2009/Article-20090227-b8129ba3-c0a8-10ed-012b-29edb5c90274/story.html

[2] جميل السحلوت، ومضات عن التراث الشعبي المقدسي الفلسطيني، 2009، مدونات مكتوب، في:
http://jerusalem2009.maktoobblog.com/1617727/%D9%

[3] المرجع نفسه.

[4] تراث القدس: ذاكرة المكان والإنسان، موقع الإسلام اليوم، نوافذ، 2009/4/2، في:
http://www.islamtoday.net/nawafeth/artshow-98-110721.htm

[5] مؤسسات إسرائيلية تعرض نسخاً من مخطوطات القدس للبيع، موقع العربية.نت، 2006/11/16، نقلاً عن وكالة رويترز للأنباء، انظر: http://www.alarabiya.net/articles/2006/11/16/29125.html

[6] المرجع نفسه.

[7] تراث القدس بالقاهرة، موقع القناة، 2006، في: http://www.alqanat.com/news/shownews.asp?id=75594

[8] طه عبد الرحمن، حملات تهويد المدينة تجري على قدم وساق منذ 1967، جريدة **الشرق**، قطر، 2008.

[9] مقابلة مع نظمي الجعبة، 2009/4/9.

[10] المرجع نفسه.

[11] رائف نجم، "دور الأردن في العمل على حماية المقدسات الإسلامية في القدس،" موقع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، في:
http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Mokad/p9.php

[12] المرجع نفسه.

[13] دراسة أكاديمية تحذر من خطر التزوير الحضاري والتاريخي الصهيوني في القدس، موقع المركز الفلسطيني للإعلام، في: http://www.palestine-info.info/arabic/alquds/tahweed/altazweer.htm

[14] مقابلة مع هايل صندوقة، 2009/4/3.

[15] تحذيرات من تلف المخطوطات الفلسطينية بالقدس، موقع الجزيرة.نت، 2007/9/18، في:
http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1069187

[16] المرجع نفسه.

[17] مقابلة مع ناجح بكيرات، مدير مركز ترميم المخطوطات، 2009/3/28.

[18] المرجع نفسه.

[19] المرجع نفسه.

[20] المرجع نفسه.

[21] مقابلة مع عفاف الدجاني، مديرة دار الرعاية الصحية والاجتماعية، 2009/3/22.

[22] مقابلة مع ناجح بكيرات، مرجع سابق.

[23] عشر سنوات من الإنجازات 1995-2005، مؤسسة دار الطفل العربي، القدس.

[24] جميل السحلوت، ومضات عن التراث الشعبي المقدسي الفلسطيني.

[25] أخوات من أجل الأقصى، دليل المسجد الأقصى المبارك المصور، جامع المغاربة (المتحف الإسلامي)، في:
http://www.foraqsa.com/CONTENT/daleel/html/23.htm

[26] المرجع نفسه.

[27] انظر موقع مؤسسة التعاون: http://welfare-association.org/ar

[28] انظر موقع مركز دراسات القدس: http://www.shammel.net/links/detail/25262

[29] المرجع نفسه.

30 وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا)، المؤتمر العاشر للقدس يوصي بدعم المدينة المقدسة على كافة الصعد، 2009، في:
http://www.wafa.ps/arabic/index.php?action=detail&id=33300

31 محمد علي القليبي، الإيسيسكو تختتم مؤتمرها بتوصيات تتضمن الحفاظ على تراث مدينة القدس، جريدة **الشرق الأوسط**، لندن، 2001، انظر:
http://www.aawsat.com/details.asp?section=30&article=23040&issueno=8093

32 النادي العربي للمعلومات يدعو للتحرك بسرعة لحماية تراث القدس وذاكرتها، **مجلة العربية،** 2005، انظر:
http://www.arabcin.net/akbar/modules.php?name=News&file=article&sid=272&mode=thread&order=0&thold=0

33 مقابلة مع يوسف النتشة، 2009/4/9.

34 المرجع نفسه.

35 المرجع نفسه.

36 مقابلة مع نظمي الجعبة، مرجع سابق.

37 المرجع نفسه.

الفصل الثاني عشر

بيبليوغرافيا التراث الثقافي لمدينة القدس

بيبليوغرافيا التراث الثقافي لمدينة القدس

أ. محمود عواد

مقدمة:

أروع ما في هذه المدينة قداستها، وأفظع ما فيها أنّ قداستها هي سرّ مأساتها.

هذا هو على الأقل ما يؤكده تاريخها، الماضي والحاضر، عبر غزوات الفرنجة والقرون الوسطى والغزوة الصهيونية اليوم، لكأني بهؤلاء القوم يدعون أن قداسة مكان ما يؤسس لأتباعه حقوقاً في وطن الغير وسيادة عليه.

بيد أنّ علينا أن نتذكر ونذكِّر دائماً، بأن التاريخ القديم للقدس وفلسطين الذي نقرأه في الكتب والمؤلفات الآن، زوره الكتاب الصهاينة ومن والاهم، وبنوه على خرافات توراتية محرَّفة، وادعاءات يهودية جاءت على لسان اليهودي المتنكر في ثياب مؤرخ روماني، اسمه يوسيفوس فلافيوس، ذلك أننا لا نعثر على مصدر آثاري أو تاريخي أو علمي، خارج هذين المصدرين، يؤكد صحة تلك الادعاءات والأضاليل... لا بل إن علماء الآثار والتاريخ واللاهوت المنصفين، اليهود والمسيحيين، قد دحضوا خرافات التوراة المحرَّفة. من هنا وجب علينا إعادة كتابة هذا التاريخ من جديد تنقّيه من كل هذه الأباطيل والأضاليل.

بعد ذلك، هل بنا حاجة للتأكيد بأن الكلمة الصادقة والمعلومة الصحيحة تمهدان للفعل المقاوم، الذي هو السبيل الوحيد لهزيمة هذه الغزوة الاستعمارية الإحلالية، وأن استعادة القدس ستكون درة التاج في تحرير كامل الوطن فلسطين.

هذه المدينة ضاربة الجذور في أعماق الزمن، وتراثها غني وعريق ومتنوع... ولأن عنوان بحثنا هو بيبليوغرافيا التراث الثقافي للقدس، آثرنا أن نبدأ أولاً بالتعريف بمكونات هذا العنوان.

أولاً: التعريف بالقدس:

1. معنى القدس:

في اللغة تعني الطهر والبركة والقداسة.

2. أسماؤها[1]:

أ. يبوس: نسبة لليبوسيين الكنعانيين الذين أنشأوها قبل ما يزيد على خمسة آلاف عام.

ب. أورسالم (أورشاليم): وتعني مدينة سالم أو مدينة السلام، في اللغة الأكادية. ونلاحظ أنه من هذا اللفظ اشتق اسمها التوراتي، والذي انتقل منه محوراً إلى اللغات الأوروبية (المسيحية) فيما بعد.

ج. يروشلايم: هو اسمها بالعبرية.

د. هيروساليما: هو اسمها باليونانية.

هـ. إيليا كابيتولينا: بالرومانية، وهو الاسم الأول من إيليوس هادريان الإمبراطور الروماني الذي دمرها ثم أعاد بناءها، ثمّ كلمة كابيتول، ومعنى الاسم: مركز الشمس.

و. القدس: عند العرب المسيحيين.

ز. إيلياء: عند العرب قبل الفتح، وهو الجزء الأول من الاسم الروماني.

ح. بيت المقدس: عند المسلمين بعد الفتح.

ط. جروسَلِمْ (جيروسالم): بالإنجليزية.

ي. خيروساليم: بالإسبانية... إلخ.

3. التقسيمات الجغرافية للقدس[2]:

أ. القدس القديمة The Old City of Jerusalem: المسوّرة التي تحوي المقدسات الإسلامية، والمقدسات المسيحية، والقدس القديمة هي أصل القدس وأهم جزء فيها تراثياً ودينياً، أما مساحتها فهي أقل من كيلومتر مربع (871 دونماً) ولم يكن لليهود فيها سوى خمسة دونمات.

ب. **القدس الجديدة The New City of Jerusalem**: بعد سنة 1850 بدأ الفلسطينيون يبنون خارج سور البلدة القديمة. وخلال قرن من الزمان أصبحت مساحتها خارج الأسوار 19,331 دونماً. ونتيجة الهجرات اليهودية التي سمحت بها بريطانيا، تمكن اليهود من امتلاك حوالي 26% من مساحتها أي ما يقارب خمسة آلاف دونم. لكن وكنتيجة لنكبة فلسطين فقد اغتصب اليهود حوالي 12 ألف دونم زيادة، أي أن هذا الجزء الذي أصبح يعرف بلدية القدس الغربية منذ سنة 1948 أصبحت مساحته حوالي 16,291 دونماً.

ج. **القدس الغربية West Jerusalem**: بين النكبة سنة 1948 وعدوان سنة 1967 قام اليهود بتوسيع ما يسمى بلدية القدس الغربية على حساب القرى الفلسطينية التي احتلوها سنة النكبة حتى وصلت إلى 38,100 دونم.

د. **القدس الشرقية East Jerusalem**: كان كل ما تبقى من القدس الجديدة للعرب هو 2,200 دونم، بالإضافة إلى البلدة القديمة المسورة، وهو ما أصبح يعرف باسم بلدية القدس الشرقية. قامت الحكومة الأردنية بتوسعتها شرقاً حتى أصبحت ستة آلاف دونم، وذلك قبل عدوان "إسرائيل" سنة 1967.

هـ. **القدس الموحدة The Unified City of Jerusalem**: في عدوان 1967 احتلت "إسرائيل" ما تبقى من أرض فلسطين كلها، بما فيها القدس الشرقية. وقامت بمصادرة أراضٍ أخرى جديدة شرقي القدس، بحيث أصبحت بلدية شرق القدس بعد المصادرة حوالي 70 ألف دونم، ضمتها لبلدية القدس الغربية ليصبح مجموع مساحتهما 108 آلاف دونم، وأطلقت عليها اسم العاصمة الموحدة لـ"دولة إسرائيل". وفي سنة 1993 وسّعت "إسرائيل" البلدية من الجهة الغربية بحوالي 15 ألف دونم، وصادرت أراضٍ جديدة شرقي البلدية بحيث أصبح مجموعها سنة 2008 حوالي 126 ألف دونم، وهي تشتمل على الأراضي المغتصبة سنتي 1948 و1967، بما في ذلك البلدة القديمة التي تحتضن المقدسات الإسلامية والمسيحية[3].

و. **القدس الكبرى Greater Jerusalem**: في حال ضمت "إسرائيل" المستعمرات الكبيرة حول القدس وهي معاليه أدوميم Ma'ale Adumim شرقاً، وجيلو Gilo جنوباً، وجفعات زئيف شمالاً، ستصل مساحة البلدية إلى ما يزيد على 400 ألف

دونم. وإذا ضخمت "إسرائيل" هذه البلدية من جهاتها الأربعة، حسب بعض المقترحات المطروحة فيما يسمى القدس العظمى Metropolitan Jerusalem، فربما وصلت إلى ما يقارب مليون دونم أي ألف كم[2].

ثانياً: التعريف بالثقافة والتراث:

1. الثقافة:

الثقافة في المنجد[4]: هي التمكن من العلوم والفنون والآداب. وفي قاموس وبستر الجديد Webster's New Dictionary[5]: هي تدريب العقل وتطويره. وهي تهذيب الذوق والأخلاق التي يتحصّل عليها عبر ذلك التدريب والتطوير. وهي أيضاً البنى الاجتماعية والدينية، والتجليّات الفكرية والفنيّة... إلخ، التي تُميّز مجتمعاً ما.

وقد ذكر ريموند وليامز Raymond Williams في منتصف القرن العشرين أن الثقافة تكاد تكون من أصعب المواضيع تعريفاً بعد مفهوم الديموقراطية. ثمّ جاء إدوارد سعيد، صديق وليامز، ليقول إن الثقافة تتعدى في مداها المجتمع والأدب، لتصبح: الثقافة والعالم. وكان الخلط بين مفهومي الثقافة والحضارة شائعاً، ولولا إدوارد سعيد لما استطعنا أن نقترب بكلمة "ثقافة" العربية، من مرادفتها بالإنجليزية "Culture". ولعلنا نتذكر ما نسمعه يومياً في سياق إطراء سلوك شخصٍ، معبرين عن درجة الرضا عليه بقولنا: إن فلاناً شخص حضاري، أو هذا سلوك حضاري، إلى غير ذلك من العبارات المشابهة، ونحن نستخدم لفظ الحضارة في هذا السياق دون أن نعلم أنه مرادف لمفهوم الثقافة في اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية[6].

2. التراث الثقافي:

يشمل التراث كل ما أنتجه شعب ما على مدى تاريخه من زخارف وعمران يتجلى في المعالم الدينية والثقافية في الأبنية العامة والخاصة، سواء ما بقي منها ظاهراً للعيان، أو ما يختزنه باطن الأرض من لُقىً وتماثيل وبقايا بنيان. كما يشمل ما طوره ذلك الشعب واستخدمه قديماً، أو ما زال يستخدمه حتى الآن، من أزياء وأدوات ونقوش ورسومات ورُقم وكتابات وحِرَف وفنون وموسيقى وغناء وألعاب وحكم وأمثال وقيم ومسلكيات.

ثالثاً: بيبليوغرافيا مدينة القدس:

1. تعريف بمصطلح البيبليوغرافيا[7]:

يقول محمود الأخرس:

> البيبليوغرافيا لفظ يوناني، يتكون من كلمة (بيبليو) وتعني كُتُباً، والكلمة الثانية (غرافي) وتعني كتابة، وبدمج الكلمتين يكون معنى البيبليوغرافيا كتابة الكتب. ولكن المفهوم العلمي لهذا اللفظ تطور في القرون الأخيرة ليعني (التدوين العلمي للكتب). وفي كثير من الأحيان يطلق لفظ قائمة الكتب أو قوائم الكتب باللغة العربية لتعني لفظ البيبليوغرافي... وهي سجلٌ للكتب وفق أسس علمية وقواعد متعارف عليها.

وقد قسّم الأخرس البيبليوغرافيا إلى ثلاثة أقسام: القومية أو الوطنية، والموضوعية (حول موضوع معين)، والشخصية (أي الفردية). أما عن أهميتها فقد أشار إلى أنها من المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها الدارسون والباحثون، وإن من العسير على أي باحث معرفة الإنتاج الفكري لبلد ما أو في موضوع محدد دون توفر البيبليوغرافيا المحققة لذلك. فهي المرجع الرئيسي لاختيار الكتب والمطبوعات، وهي المصدر المهم لإرشاد القراء إلى ما يتوافر من المطبوعات في الموضوع المطلوب. وهي مصدر رئيسي للمعلومات الإحصائية عن الإنتاج الفكري في قطر ما أو بلد معين، كما أنها سجل تاريخي لتطور هذا الإنتاج وازدهاره أو عكس ذلك.

ومعلوم أنّ الكثير من الدول المتقدمة قد أنشأت مراكز بيبليوغرافية، أما الدول النامية ومنها البلدان العربية فهي متخلفة في هذا المجال. على الرغم من وجود محاولات لا بأس بها في كل من مصر وتونس والأردن وغيرها. أما أهم صعوبات العمل البيبليوغرافي فهي:

- حصر المواد البيبليوغرافية.
- عدم توافر المعلومات البيبليوغرافية المطلوبة.
- عدم شمول البيبليوغرافيا، أي احتواؤها على جميع المؤلفين والمؤلفات.
- طول الفترة الزمنية التي تغطيها البيبليوغرافيا.

2. أهم المصادر التي تتوفر فيها المعلومات حول التراث الثقافي لمدينة القدس:

- البيبليوغرافيات والفهارس والموسوعات، والمكتبات الجامعية والمكتبات الخاصة في القدس وغيرها من العواصم العربية والأجنبية ومراكز البحوث الخاصة بالقدس وفلسطين.
- الآيات والأحاديث النبوية.
- كتب اليهود والنصارى.
- كتب الرّحالة المسيحيين والمسلمين.
- كتب الآثار والعمران.
- المتاحف، وبخاصة المتحف الإسلامي في القدس.
- كتب التاريخ.
- كتب فضائل بيت المقدس، وكتب المستشرقين واللاهوتيين الغربيين.
- السجلات الفلسطينية والعثمانية الشرعية والعقارية، والسجلات البريطانية، والقناصل الغربيين.
- الوثائق والمخطوطات.
- مكتبات الكنائس والأديرة.
- مكتبة المسجد الأقصى.
- القرارات الدولية الصادرة عن منظمات الأمم المتحدة، وبصفة خاصة اليونسكو، واتفاقات حماية التراث الثقافي.
- التوصيات والنداءات التي تبنتها المؤتمرات والاجتماعات والندوات والحلقات الدراسية واللقاءات المتعلقة بالقدس وفلسطين.
- الصحف والمجلات.
- كتب الباحثين المختصين في موضوع القدس، من المقدسيين خاصة.
- كتب الفلكلور الفلسطيني.

- كتب الصهاينة أو المتصهينيين، والكتب السياسية الحديثة، وكتب القانون، وكتب الدفاع عن عروبتها.
- الإنترنت.
- العمران الموجود، والمعالم الدينية والأثرية، والأسواق، والحجارة طراز العمران، والحرف اليدوية، والأزياء.

3. استعراض بيبليوغرافيات عربية ذات علاقة بالقدس:

بعد الاطلاع على البيبليوغرافيات المتوفرة لدى كل من مكتبتي الجامعة الأردنية وعبد الحميد شومان، وهما أهم مكتبتين في الأردن معنيتين في هذا الموضوع وأمثاله، الأولى مكتبة جامعة رسمية، والثانية مكتبة على نفقة القطاع الخاص؛ لم أعثر سوى على مؤلفٍ واحد من أربعة أجزاء يحمل عنوان "بيبليوغرافيا مدينة القدس الشريف". كما تسنى لي الاطلاع على "موسوعة بيت المقدس". وسأعرض لهما تالياً بقليل من التفصيل.

أما البيبليوغرافيات الأخريات فهي إما عن فلسطين أو عن فلسطين والأردن أو عن بلاد الشام، وترد القدس في ثناياها، وليس هناك بيبليوغرافيا خاصة بالثقافة وحدها، ناهيك عن التراث الثقافي، في القدس أو فلسطين أو بلاد الشام. وسأقدم نبذة مختصرة عنها، كما سأذكر أسماء عدد من البيبليوغرافيات الأخرى في الوطن العربي.

أ. بيبليوغرافيا مدينة القدس الشريف، الدكتور رشاد الإمام:

(تونس: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، 1989)

يقول الدكتور رشاد الإمام في مقدمة الجزء الأول، وفي الصفحات (أ-خ): إن هذه البيبليوغرافيا تغطي كامل الفترات التاريخية التي مرّت بها مدينة القدس من حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد وحتى سنة 1988. كما أنه لم يكن للقدس بيبليوغرافيا شاملة لا باللغة العربية ولا بأية لغة أخرى، على الرغم من شدة أهمية البيبليوغرافيات للباحثين والدارسين، وفضلها ودورها الأساسي في الحفاظ على الإنتاج الفكري في أوسع معانيه.

وقد تتبع المؤلف الكتب والدراسات واستقصى أثرها أينما وجدت سواء في البلاد العربية أو في أوروبا والولايات المتحدة وكندا. ويقول إنها تشتمل على جميع الكتب والمقالات والملفات والوثائق والقرارات والإجراءات التي تمكن من معرفة مؤلفيها أو محققيها أو مُعدّيها... وعناوينها، المتعلقة بالقدس في مختلف الفترات التاريخية. ويقول

إنه لم يفلت من مواد أجزاء كتابه إلا الوثائق والدراسات والمؤلفات التي لم يعثر عليها أو على البيانات والعناوين المرشدة لها، مع كل ما بذله في الإعداد من صبر وأناة ودقة خلال فترة تتجاوز 18 عاماً.

يحتوي الجزء الأول على بيبليوغرافيات مدينة القدس في العصور القديمة، وفي العصور الوسيطة حيث تنتهي سنة 1516، وهو تاريخ دخول القدس تحت الحكم العثماني، ويشتمل هذا الجزء على البيبليوغرافيا العربية لتلك الفترة التاريخية. أما الجزء الثاني فيشتمل على بيبليوغرافيا القدس من سنة 1516 حتى النصف الأول من سنة 1988، ويضمّ بدوره البيبليوغرافيا العربية في القرون الحديثة والمعاصرة.

وقد رتُبت البيبليوغرافيا في هذين الجزأين ترتيباً هجائياً من الألف إلى الياء بحسب ألقاب المؤلفين والكتاب، أو المجموعات الوثائقية مثل "وثائق"، و"مذكرات"، و"قرارات". وأحياناً رتبت أيضاً باعتبار لقب المترجم أو المحقق عند اللزوم، مع إهمال "ال" التعريف أياً كان ورودها.

وقد اشتمل الجزء الأول على ملاحق حول الآيات والأحاديث المتعلقة بالقدس، والعهدة العمرية وعهد أهل القدس لعمر بن الخطاب، ونصّ رسالة بعث بها صلاح الدين يخبر المسلمين باستعادة القدس من الصليبيين، ونَصّي وقف حي المغاربة ووثيقة أبي مدين الغوث بالقدس، وجدول تاريخي للمدينة حتى سنة 1516، وجميعها مرتبة زمنياً وفق تواريخ حدوثها.

أما الجزء الثاني فقد اشتمل، بالإضافة إلى موضوعات أخرى، على قرارات المنظمات الدولية المتعلقة بالقدس مرتبة حسب تاريخ صدورها، وعلى صك الانتداب البريطاني على فلسطين وقرار التقسيم الخاص بالقدس، وغيرها من القرارات والمذكرات والفتاوى والتوصيات المتعلقة بالمدينة، بالإضافة إلى جدول تاريخي من سنة 1516 وحتى سنة 1988، وهو تاريخ صدور البيبليوغرافيا. كما اشتمل على فهرس بعناوين المؤلفات الواردة في كل جزء، مرتبة هجائياً، مع إشارة مختصرة لاسم الكتاب أو المترجم أو المحقق أو الناشر.

أما الجزء الثالث فيضم بيبليوغرافيا مدينة القدس باللغة الإنجليزية، ويحتوي على المؤلفات والدراسات والأبحاث التي تهم المدينة، مرتبة أيضاً حسب حروف الهجاء لألقاب المؤلفين والكتاب، أو الناشرين والمحققين والمترجمين.

وقد خُصِّص الجزء الرابع لبيبليوغرافيا القدس باللغة الفرنسية، وهو مرتب كسابقه. وفي آخر كل من هذين الجزئين؛ الثالث والرابع، ملاحق وثائقية تتعلق بمختلف فترات تاريخ القدس، وبخاصة الحديث والمعاصر، وتليها فهارس بأسماء وعناوين المؤلفات والدراسات مرتبة حسب حروف الهجاء، مع إشارة مختصرة لاسم المؤلف أو الكتاب أو المحقق أو الناشر.

ويقع الجزء الأول في 183 صفحة، ويضمّ حوالي 720 عنواناً، وهي ليست جميعها كتباً، كما أشرنا في المقدمة. ويلاحظ أن بعض العناوين مكررة، في هذا الجزء، وفي الجزء الثاني أيضاً، والذي يحوي أكثر من ثلاثة أضعاف العناوين في الجزء الأول.

ب. موسوعة بيت المقدس، فؤاد إبراهيم عباس:

(القاهرة: دار المنار للطباعة، الزيتون، 2000)

يشتمل الكتاب على عدة مختصرات لعدد من مكونات التراث الثقافي لبيت المقدس، يمكن الإشارة إليها كما يلي:

تسجيل للحوادث والوقائع والمعلومات والنشاطات المتعلقة بفلسطين أو القدس، وخاصة في مصر، بدءاً من سنة 1998، ومن بينها احتفالية القدس بدار الأوبرا المصرية سنة 1998، التي قدّم فيها المؤلف عباس بحثاً جيداً عن التراث الشعبي (الفولكلور) لزهرة المدائن، تضمن نماذج من الأناشيد الوطنية، والألحان والقوالب الفولكلورية، والمواسم الشعبية الإسلامية والمسيحية، والأزياء والحرف اليدوية، والأمثال والحكايات، وقد أورد في نهاية بحثه مراجع ومصادر البحث. كما اشتمل الكتاب على بحث جيد آخر للمؤلف نُشِر في إحدى الدوريات التي تُصدر أعداداً ممتازة عن القدس، عنوانه "مصادر عروبة القدس". ثمّ انتقل إلى بيت المقدس في القرآن والسنة والكتب التي تناولت المدينة المقدسة أو أشارت إليها، بالإضافة إلى ما ورد في كتب التراجم المهمة حول الشخصيات المقدسية، أو تلك التي زارت المدينة أو أقامت فيها أو تقلدت منصباً مهماً فيها أو تحدثت عنها في رحلة أو كتاب؛ وهي كتب كثيرة وشخصيات متعددة، وبخاصة في الحقبة الإسلامية، وكذا في الفترة الحديثة.

إن الجهد الذي بذله المؤلف في جمع المادة هو جهد شاق، حريّ به أن يتطور ليصبح عملاً مؤسسياً لا عمل فرد واحد، أو حتى مجموعة. ولا بدّ من الإشادة بهذا العمل وبحماسة المؤلف ومبادرته التي ظهرت في هذا العمل بالإضافة إلى ما فيه من الفائدة.

وإن كان يؤخذ عليه أنه يخلط بين الموضوعات، ويفتقد المنهجية الواضحة، الأمر الذي يجعل القارئ مضطراً لإعادة النظر مراراً وتكراراً لكي يتبين المعلومات التي أراد المؤلف أن يضمنها تلك الموضوعات.

ج. البيبليوغرافيا الفلسطينية الأردنية 1900-1970، محمود الأخرس:
(عمّان: جمعية المكتبات الأردنية، 1973)

تتألف البيبليوغرافيا من كتاب رئيسي يغطي الفترة الممتدة على مدى سبعين عاماً من بداية القرن العشرين، وفي حالات معيّنة تسبق بداية القرن ببضعة أعوام. وتقع البيبليوغرافيا في 353 صفحة وتشمل حوالي 2,700 عنوان كتاب، استثنت منها جميع المطبوعات الحكومية والكتب المدرسية، واقتصرت على المؤلفات باللغة العربية فقط. وقد تضمنت المعلومات الوصفية اسم المؤلف (أو المترجم والمحقق والجامع والمحرر... إلخ) الحقيقي دون المستعار وبدءاً بالاسم الأول وانتهاء بالجزء الأخير، ثمّ العنوان، والذي إذا تكرر فإما أن يكون الكتاب في طبعات متعددة أو يكون ثمة تشابه في العنوان لأكثر من مؤلف. وتشتمل كذلك المعلومات الوصفية على الطبعة ومكان النشر واسم الناشر، إن وجد، وتاريخ النشر، وترقيم الصفحات في البيبليوغرافيا، وانتهت البيبليوغرافيا بكشافين للمؤلفين والعناوين، وهما مرتبان هجائياً.

أما الكتيب الفرعي للبيبليوغرافيا وعدد صفحاته 56 صفحة فقد صدر سنة 1973، ويغطي فقط مؤلفات تلك السنة فقط، وفيه تحليل بسيط لأعداد المؤلفات في المجالات المختلفة، والتي لم تزد في مجموعها عن 180. وجرى التعامل فيما يتعلق بالمعلومات الوصفية وغيرها، بمنهجية الكتاب الرئيسي نفسها.

تعدّ هذه البيبليوغرافيات، أول عمل منهجي أكاديمي يغطي الإنتاج الفلسطيني على نحو شبه متكامل. وقد بذل فيه المؤلف جهداً مشكوراً حيث جمع مادته على مدى 12 عاماً. غير أنه وكما يظهر من العنوان فإن مدينة القدس تأتي بين مئات العناوين الأخرى، كما أن الثقافة أو التراث الثقافي قد جاءا عرضاً أو في ثنايا الكتب. ولسوف تحتفظ هذه البيبليوغرافيا بمكانة بارزة بين أوائل البيبليوغرافيات العربية عامة، والفلسطينية خاصة.

د. الببليوغرافيا الفلسطينية: ما نشره العرب في فلسطين (1948-1980)، يسرى أبو عجمية:

(عمّان: جمعية المكتبات الأردنية، 1982)

تقول يسرى في مقدمة كتابها: رتبت هذه الببليوغرافيا موضوعياً حسب نظام ديوي العشري للتصنيف Dewey Decimal Classification بتعديلاته العربية. أما الوصف الببليوغرافي فقد أُجري حسب قواعد الفهرسة الأنجلو-أمريكية (الطبعة الثانية) وقواعد التقنين الدولي للوصف الببليوغرافي. وتتكون الببليوغرافيا من 281 صفحة، وتشتمل على كشاف العناوين والمؤلفين الذي غطى 1,234 عنواناً، هذا بالإضافة إلى كشاف الموضوعات. أما عن موضوع التراث الثقافي في القدس، فلا يوجد ما يرشد إليه، كالببليوغرافيات الأخرى، سوى تصفح الكتب ذاتها.

هـ. الببليوغرافيا الفلسطينية في الوطن، حسين غيث:

(القدس: جمعية الدراسات العربية)

غطى الكتاب الأول النتاج الفكري العربي الفلسطيني (المحلي) بين السنوات 1967-1980، ثم أتبعه بنشرات دورية كل سنة أو اثنتين أو أكثر لتغطي النتاج الفكري حتى نهاية سنة 1992، والكتاب من القطع الصغير.

وقد استعمل في تصنيف الموضوعات طريقة ديوي العشرية، فجاءت مرتبة وفقاً لتشابهها، كما أفرد كشافاً بالمؤلفين (المحليين) وإنتاجهم، وكشافاً آخر بأسماء الكتب، وثالثاً بموضوعات تصنيف ديوي التي وردت في هذا الكتاب. وأفرد كذلك في نهاية الكتاب قائمة "مستدركات الببليوغرافيا الفلسطينية في الوطن" لما فاته في السنوات السابقة.

جهد المؤلف مشكور، فقد تنبّه إلى ضرورة الاهتمام بنتاج الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي، وهو كغيره من الببليوغرافيات لا يخص ثقافة بيت المقدس أو تراثها بعنوان.

و. فهرس المطبوعات العربية في "إسرائيل" – فلسطين: 1948-1972، شموئيل موريه Shmuel Moreh:

(القدس: مركز جبل المشارف "سكوبس" لدراسات العرب في فلسطين والعلاقات العربية الإسرائيلية)

يقول معدّ الكتاب في المقدمة إنه رتب الفهرس حسب الفن الأدبي الذي تنتمي إليه الكتب؛ شعر، قصة، رواية... إلخ. وتحت هذه المواضيع رتب الكتب حسب سنوات الصدور، ووضع الصحف والمجلات في آخر الكتاب ورتبها هجائياً حسب عناوينها، وذيل الكتاب بفهرس أسماء الأعلام وفهرس العناوين، كما ذيل بفقرة أو بضع جمل مقتبسة من المقدمة لتلفت الضوء إلى محتوى الكتاب وغاياته. ويقع الفهرس في 114 صفحة، باستثناء كشافي الأعلام والعناوين. وفهرس بعناوين المؤلفات الواردة في كل جزء مرتبة هجائياً مع إشارة مختصرة لاسم الكتاب أو المترجم أو المحقق أو الناشر. وليس في الكتاب فائدة تذكر في الموضوع الذي نبحث فيه هنا.

4. الفهارس والمخطوطات والمؤتمرات ذات العلاقة بالقدس أو بفلسطين:

- محمود الأخرس، **الجدول المفهرس للكتب التي ترجمها الفلسطينيون والأردنيون: 1950-1972.**
- **الكتاب العربي الفلسطيني**. القدس: لجنة الثقافة العربية في فلسطين، 1946، 32 صفحة.
- فؤاد محمد عبيد، **مخطوطات فلسطين: واقع وطموح (بيت المقدس – هوامش تراثية)**. القدس: مركز الأرشيف الوطني الفلسطيني، 2000، 93 صفحة.
- نظمي الجعبة، **فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية (القدس)**. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2001.
- **قائمة بالمطبوعات العربية الموجودة في المكتبة لجامعة بغداد التي تبحث في فلسطين وإسرائيل والصهيونية**. بغداد: جامعة بغداد، 1967، 24 صفحة. وهناك قائمة أخرى نشرت في 1970.
- حسام الساموك، جمع وترتيب، **فلسطين في المؤلفات العراقية: بيبليوغرافية تفصيلية**. بغداد: جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، 1979، 32 صفحة.
- يونس أحمد الخاروف، **قائمة بيبليوغرافية بالكتب العربية والمعربة في مصر: حقائق وأرقام: فلسطين: تاريخ وبيبليوغرافيا**. بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1973، 52 صفحة.

- المؤتمرات الدولية لتاريخ بلاد الشام (1-6). عقدت في الجامعة الأردنية، وجامعة دمشق، وجامعة اليرموك. وقد اختص المؤتمر الثالث بفلسطين والقدس. وصدر عنه: المجلد الأول: القدس. عمّان: الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك: 1983، وقد تضمن 15 بحثاً باللغة العربية.

كما صدر عنه كتاب آخر باللغة الإنجليزية ضمّ 13 بحثاً:

The Third International Conference on Bilad Al Sham: Palestine-1980. Amman: University of Jordan and Yarmouk University, 1988, vol. 1 Jerusalem.

- **الموسوعة الفلسطينية** بقسميها الأول والثاني.
- خضر إبراهيم سلامة، **فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى: دراسة حول محتوياتها ومصادرها ومتطلباتها**.
- قائمة بيبليوغرافية بمقتنيات مكتبة البحوث والدراسات العربية عن فلسطين: من كانون الثاني/ يناير 1968 – كانون الأول/ ديسمبر 1970.

5. مكتبات مهمة للمصادر والمراجع عن مدينة القدس:

- خزانة الوثائق الفلسطينية – المجموعة الثانية: 1918-1948.
- دليل متحف التراث الشعبي الفلسطيني.
- وحيد قدورة، **المكتبات في القدس**. تونس: الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، 2002.

رابعاً: موضوعات البيبليوغرافيات، الباحثون، المؤلفات:

1. موضوعات البيبليوغرافيات:

في محاولة لإجراء مسح تقريبي لعدد الكتب المثبتة في بيبليوغرافيا القدس الشريف للدكتور رشاد الإمام، حيث إنها الأشمل بين جميع البيبليوغرافيات، على الرغم من تداخل بعضها في العنوان والموضوع، وجدت أن الجزء الأول من البيبليوغرافيا الذي

يُغطي الفترة الأولى والوسيطة من تاريخ المدينة والمنتهية سنة 1516 جاء ترتيب موضوعاتها بحسب عددها على النحو التالي:

الوثائق والسجلات، والتاريخ والجغرافيا، وفلسطين، وآثار القدس، وفضائل المسجد الأقصى، والفرنجة، وبلاد الشام، والجهاد والدفاع، والإسلام، والمسيحية، والرحلات والزيارات، والزوايا والمدارس والمعاهد والخوانق، والإسرائيليات واليهودية، والعروبة، والتراجم، والتقارير والملاحق والملفات، والأنبياء، والمعاجم والفهارس، والثقافة والتراث والفولوكلور والأدب، والمخطوطات، والزخرفة والعمارة، والقانون، وموضوعات أخرى.

وهكذا نرى أن الكتب التي تناولت تراث القدس وثقافتها وفولوكلورها وأدبها في هذا الجزء والذي يشمل حوالي 800 عنوان، قد جاء في موقع متأخر بالنسبة لغيره من المؤلفات. ويلاحظ أن أكثر الكتب التي لها علاقة بالقدس كانت في التاريخ والجغرافيا، والفضائل، والآثار، وتلت مباشرة الوثائق والسجلات. كما أن الكتب التي تناولت فلسطين وبلاد الشام، وهي كثيرة ومتعددة، قد اشتملت، ولا شكّ، على معلومات بشأن القدس والمسجد الأقصى والمقدسات.

أما الجزء الثاني من البيبليوغرافيا، والتي تصل إلى أكثرمن ثلاثة أضعاف عدد الكتب والمواد الأخرى الموجودة في الجزء الأول، وتغطي الفترة (1516-1988) فقد تبين أن أكثر المؤلفات عدداً حسب موضوعاتها كانت على النحو التالي:

الملاحق والتقارير والقرارات والملفات، وفلسطين والقضية الفلسطينية، والصهيونية والاستيطان والتهويد وإسرائيل واليهودية، والتاريخ والجغرافيا، والوثائق والسجلات والمكتبات. ثمّ عروبة القدس والدفاع عنها والكتب السياسية، وفضائل المسجد الأقصى والقدس، والتراث والثقافة والفولكلور والفكر، والآثار والعمران في فلسطين والقدس والمسجد الأقصى، والفهارس والقوائم والبيبليوغرافيا والمعاجم، والإسلام، والمسيحية، والجهاد، والتراجم، والرحلات والزيارات، والقانون، والزوايا والمدارس والمعاهد والخانقات، وبلاد الشام، والفرنجة والصليبيون، والمخطوطات، والعمارة والزخرفة.

وهكذا نجد أن التراث والثقافة والفولكلور والفكر في القدس وفلسطين قد تقدم كثيراً عما كان عليه الإنتاج في الجزء الأول من البيبليوغرافيا. وليس مستغرباً أن تحظى

القضية الفلسطينية ومخاطر الاستيطان والتهويد الصهيوني، الذي نتج عنه قيام ما يسمى "دولة إسرائيل"، المكانة الأولى في الإنتاج، مؤيدة بالملاحق والتقارير والقرارات والملفات الخاصة بالمدينة المقدسة.

2. الباحثون المقدسيون المعاصرون:

قبل وقوع النكبة سنة 1948 كان عدد من أبنائها المقدسيين يتصدون للغزاة الصهاينة بالكلمة الحرة، وبخاصة في ميادين الأدب والفكر والتاريخ والدين. ومن أبرز هؤلاء إسحق موسى الحسيني، وخليل طوطح، وخليل السكاكيني وغيرهم. وبعد وقوع الكارثة، ظهر جيل من الباحثين الأكاديميين الذين اختصوا بالمدينة، تاريخاً وفكراً وحضارة، ومن أهمهم وأغزرهم إنتاجاً:

- **الدكتور كامل جميل العسلي:** وله ما يزيد على عشرين كتاباً، 12 منها خاص بالقدس. هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات والدراسات الأخرى، وقد وقف حياته العلمية الجامعية كلها تقريباً عليها.

- **عارف العارف:** وكان رئيساً لبلديتها قبيل نكبة سنة 1948، وقد كتب تاريخها معاينة شخصية، بالإضافة إلى العمل البحثي، ومن بين مؤلفاته الخمسة عن المدينة يعدّ كتابه "المفصل في تاريخ القدس" واحداً من أكثر المصادر التي يرجع إليه الطلبة والباحثون الجدد.

- **مصطفى مراد الدباغ:** مؤلفاته تزيد على 25 كتاباً، تناولت أقطار العالم العربي ومدنه. أما أهم أعماله فهو "بلادنا فلسطين"، وهو في عشرة أجزاء، تحدث بشكل رئيس عن جغرافية كل قرية ومدينة ومحافظة فيها، وعن تاريخها. وقد اختص الجزء التاسع منها، في قسمه الثاني، بالقدس.

- **محمود العابدي:** يصل عدد مؤلفاته إلى 33 حول آثار فلسطين والأردن ومدنهما والتاريخ والجغرافيا والسياسة والمناهج المدرسية، ومن بين تلك المؤلفات له أكثر من ثلاثة كتب اختصت بالقدس.

- **الدكتور يوسف النتشة:** تتركز مؤلفاته في النواحي الأثرية والعمارة في القدس والمسجد الأقصى، ودراسات حول السجلات الإسلامية فيها. وله ما يزيد على خمسة كتب في موضوع القدس.

- **محمد هاشم غوشة:** ابتدأ التأليف حول القدس وهو ما زال على مقاعد الدراسة الثانوية. ويعدّ من أبرز قارئي سجلات المحاكم الشرعية والسجلات العثمانية ومحتويات مكتبات القدس، والنقوش في جدرانها. وله ما يزيد على سبعة مؤلفات حول المدينة.

3. كتب باللغة العربية عن القدس مصنفة حسب الموضوع:

أ. التراث المقدسي (الفولكلور، الثقافة، الأزياء، الاحتفالات، الفن، الأدب، الأغاني، الثقافة، الفكر):

- شريف كناعنة، **الدار دار أبونا: دراسات في التراث الشعبي الفلسطيني**. القدس: مركز القدس العالمي للدراسات الفلسطينية، 1999.
- شوقي أحمد يعقوب أبو زيد، تواصل الشعر الفلسطيني الحديث بالتراث، رسالة دكتوراة، إشراف الدكتور عبد الرحمن ياغي، الجامعة الأردنية، عمّان، 1995.
- كامل العسلي، **موسم النبي موسى في فلسطين: تاريخ الموسم والمقام**. عمّان: الجامعة الأردنية، 1990.
- يحيى وزيري، **التطوير العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف**. القاهرة: الدار الثقافية، 2005.
- عبد الله عوض الخباص، **في الأدب العربي الحديث في فلسطين والأردن**. عمّان: 1995.
- محمد الكفراوي، **العطاء الحضاري لبيت المقدس**. القدس: كلية الدعوة وأصول الدين، 1979، 39 صفحة.
- عبد الله أبو راشد، **فن التصوير الفلسطيني: حواريات الأرض، التراث، القدس، المقاومة، الانتفاضة، نماذج مختارة**. دمشق: دار مؤسسة فلسطين للثقافة، 2007.
- جاسر علي العناني، **الحياة الثقافية في القدس 637-1948م**. عمّان: أمانة عمّان، 2007.

ب. الآثار:

- حمد أحمد يوسف، **من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس**. القدس: مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية، 2000.
- كامل جميل العسلي، **من آثارنا في بيت المقدس**. عمّان: الجامعة الأردنية، جمعية المطابع العربية، 1982.
- رائف نجم ويوسف النتشة وآخرون، **كنوز القدس**. الكويت: منظمة المدن العربية، 1983، 496 صفحة.
- إسحق موسى الحسيني، **الأبنية الأثرية في القدس**. بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1977.
- يوسف سعيد النتشة، **الآثار الإسلامية في بيت المقدس وفلسطين**. القدس: دائرة الأوقاف الإسلامية، قسم الآثار الإسلامية، 1980، 32 صفحة.
- رفيق وفا الدجاني، "آثارنا بين التهويد والضياع،" مجلة **هدى الإسلام**، العددان 3-4، المجلد 17، 1973.
- إسحق موسى الحسيني، مترجم ومدقق، **الأبنية الأثرية في القدس الإسلامية**. القدس: دائرة الأوقاف الإسلامية، 1977.
- إبراهيم عبد الكريم، **الآثار والمعالم الفلسطينية في القدس القديمة (دليل مصور)**. طرابلس، ليبيا: القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، 2001.

ج. الفضائل:

- أبو المعالي المشرف بن المرجي المقدسي، **فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام**. 180 صفحة.
- عبد الوهاب بن محمد تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن محمد بن حسن الحسيني، **الروض المغرّس في فضائل البيت المقدس**. 59 صفحة.
- محمد بن محمد بن حسن الصوفي الكنجي، جامع، **فضائل بيت المقدس وفضل الصلاة فيها**. 50 صفحة.
- عارف الشريف، **زاد المغلس في فضائل بيت المقدس**.

- شمس الدين السيوطي، **إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى**. ج 1.
- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، **فضائل القدس**، تحقيق جبرائيل سليمان جبور. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979، 167 صفحة. وقد تمّ التحقيق اعتماداً على نسخة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية، وترجمه إلى الإنجليزية جبرائيل جبور نفسه.

د. سياسة، عروبة، تاريخ:

- إسحاق موسى الحسيني، **عروبة بيت المقدس**، سلسلة دراسات فلسطينية (6). بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1969، 86 صفحة.
- فهيم أبو ركن، **في القدس العاربة**. مكتبة الأسوار، 1979، 59 صفحة.
- الأب بولس بدارو، **القدس الشريف**. القدس: 1961.
- إبراهيم أحمد العلوي، "قضية فلسطين والقدس في دراسات المؤرخين المسلمين،" **مجلة معهد البحوث والدراسات العربية**، آذار/ مارس 1982، ص 13-36.
- محمد عيسى صالحية، **مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275-1368هـ/1858-1948م**. بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2009.
- إبراهيم عبد الكريم، **حائط البراق: الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي**. طرابلس، ليبيا: القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، 2001.

هـ. قضية القدس:

- خليل إسماعيل الحديثي، البداية والجذور.
- سالم الكسواني، **المركز القانوني لمدينة القدس**. عمّان: 1977.
- محمود عواد وزهير غنايم، **القدس: طروحات التسوية السياسية**. عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2001.
- بديع العابد، **المركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض: دور التخطيط العمراني للكيان الصهيوني اليهودي في القضاء على هويته المعمارية**. عمّان: أمانة عمّان، 2008.

و. المسيحية:

- خليل سركيس، **تاريخ أورشليم**. بيروت: 1874.
- أحمد محمود قصير، **تاريخ القدس والعلاقة بين المسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي وحتى الحروب الصليبية**. عمّان: دار البشير للنشر والتوزيع، 1984، 284 صفحة، وهو أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة.
- عارف العارف، **المسيحية في القدس**. القدس: مطبعة دير الروم الأرثوذكس، 1951، 261 صفحة.
- لحد صعب، **مختصر تاريخ طائفة الروم**. بيروت: 1914.
- الآباء الفرنسيسكان، **السير السليم في يافا والرملة وأورشليم**. القدس: مطبعة الآباء الفرنسيين، 1890.
- يعقوب كركي، **السريان في الأراضي المقدسة**. القدس: 1976.
- ريتشارد ستيفنز Richard Stevens، "الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية والقدس،" مجلة **قضايا عربية**، العدد 1، كانون الثاني/ يناير 1982، ص 193-201.
- **قانون طائفة الملكيين الكاثولكيين في الكرسي البطريركي الأورشليمي**. حيفا: مطبعة الزهرة، 1936، 37 صفحة.
- شارل الخوري ثاوفانس، **كنيسة القيامة**، مترجم من اليونانية. القدس: مطبعة الآباء الفرنسيين، 1988.

ز. الرحلات والزيارات:

- سعيد عبد البشاوي، مترجم، **وصف رحلة الحاج سابلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة: 1102-1103**. عمّان: دار الشروق، 1997، 69 صفحة.
- بطرس توديبود Peter Tudebode، **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**، ترجمة جون هيوج هيل John Hough Hill ولوريتا لـ. هيل Laurita L. Hill. وحسين محمد عطية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999، 383 صفحة مع الصور التوضيحية.

- جمال الدين أبو القاسم عبد الرحيم بن علي، **مفتاح المقاصد ومصباح الراصد في زيارة بيت المقدس**. نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2008.
- موسى مينا، **إرشاد لطيف لزائري القدس الشريف**. القاهرة: المطبعة المتوسطة، 1902.
- مصطفى بن كمال الدين بن علي ومحمد أمين بن عمر بن محمد الدنف الأنصاري، **الخمرة الحسية في الرحلة القدسية**. القدس: دار التراث الإسلامي، 1908.
- كامل العسلي، **بيت المقدس في كتب الرحالة العرب والمسلمين**. عمّان: كامل العسلي، 1992.
- أحمد الطريبق أحمد، **القدس: بحثاً عن معالم الصورة (من خلال الرحلة المغربية)**. طنجة، المغرب: سليكي إخوان، 2009.

ح. أعلام وتراجم:

- عبد اللطيف الطيباوي، "علماء القدس،" **مجلة مجمع اللغة العربية**، دمشق، المجلد 1، 1980، ص 266-287.
- كامل جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**. عمّان: 1981.

ط. وثائق، مخطوطات، سجلات:

- كامل جميل العسلي، **وثائق مقدسية تاريخية: مع مقدمة حول بعض المصادر الأولية لتاريخ القدس**. عمّان: كامل العسلي، 1983.
- وليد الخالدي، **الحق العربي في حائط البراق (المبكى)**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1968.
- كامل العسلي، **مخطوطات فضائل بيت المقدس: دراسة وبيبليوغرافية**. عمّان: مجمع اللغة العربية، 1981.
- محمود إبراهيم، **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة: دراسة تحليلية ونصوص مختارة محققة**. الكويت: معهد المخطوطات العربية، 1985.
- وثائق المتحف الإسلامي بالقدس، ويبلغ عددها 750 وثيقة من العصر المملوكي، مكتوبة على رقاع من الرقّ.

- كامل جميل العسلي، "آثار القدس ومخطوطاتها،" مجلة **شؤون عربية**، العدد 15، 1985، ص 304-309.
- سجلات المحكمة الشرعية المحفوظة في خزائن المحكمة الشرعية بالقدس.
- أسد رستم، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**. بيروت: مجلة المسرة، 1959.
- سعد الدين العلمي، **وثائق الهيئة الإسلامية العليا 1967-1984: القدس**. عمّان: دار الكرمل، 1986.

ي. قرارات، ملفات، فهارس، بيبليوغرافيات:

- ملف القدس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو). القاهرة: 1977.
- محمود الأخرس، **الجدول المفهرس للكتب التي ترجمها الأردنيون والفلسطينيون 1950-1972**. عمّان: اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، 1973، 30 صفحة.
- خضر إبراهيم سلامة، **فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى**. القدس: مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، 1980.
- القدس: عدد خاص ومائة صورة عنها، مجلة **الهلال**، السنة 17، العدد 12، كانون الأول/ ديسمبر 1969.
- محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة 1947-1994**. عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 1995.

ك. الفرنجة:

- ريمون داجيل Raymond d'Agiles، **تاريخ الفرنجة... غزاة بيت المقدس**، ترجمة حسن محمد عطية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000، 297 صفحة.
- عماد شمس الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد الأصفهاني، **حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس**، وهو الكتاب المسمى **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، 339 صفحة.
- عبد الجليل عبد المهدي، **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية**. عمّان: دار البشير، 1995، 440 صفحة.

ل. المعاهد والمدارس:

- كامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**. عمّان: الجامعة الأردنية، 1981.

م. التاريخ:

- كامل جميل العسلي، **الدراسات العلمية لتاريخ القدس وأثرها في القضية الفلسطينية**. عمّان: مكتب المؤتمرات الإسلامي العام لبيت المقدس، 1983.
- محمد هاشم غوشة، **القدس في تراث كامل العسلي**. القدس: 1996.
- الأعظمي، **بحث في الجذور التاريخية لمدينة القدس**.
- خالد العك، **تاريخ القدس القديم**. دمشق: مؤسسة النوري للطباعة والنشر والتوزيع، 1986.
- مجير الدين الحنبلي العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. عمّان: مكتبة المحتسب، 1973.
- محمود العابدي، **قدسنا**. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات، 1962.
- رشاد الإمام، **مدينة القدس في العصر الوسيط: منذ بدء تاريخها حتى عام 1516**. تونس: الدار التونسية للنشر، 1976.
- عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**. القدس: مطبعة المعارف، 1961.
- ميخائيل مكنسي اسكندر، **القدس عبر التاريخ**.
- زهير غنايم ومحمود عواد، **القدس: الوقائع، المواقع، المساحة، السكان**. عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2002.
- محمود محمد شاكر، **القدس العذراء**.
- عبد اللطيف الطيباوي، **القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام**.

ن. اليهودية، الصهيونية، الاغتصاب:

- يوسف الحاج، **هيكل سليمان**. بيروت: 1934.
- محمود عواد، **إقامة الهيكل المزعوم: إعلان الحرب الدينية**. عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2004.

- هالة العوري، **أهل الكهف: قراءة في مخطوطات البحر الميت**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2000.
- محمد مراد، **القدس بين الاجتثاث الصهيوني والمهادنة الدولية**. بيروت: دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، 2008.
- نواف الزرو، **القدس: صراع هوية وسيادة ومستقبل**. عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2009.
- إبراهيم عبد الكريم، **القدس تحت الاحتلال: معاناة وصمود**. طرابلس، ليبيا: القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، 2001.
- **مخطوطات قمران – البحر الميت: التوراة: كتابات ما بين العهدين**، حُققت بإشراف أندريه دوبون–سومر Andre Dupont-Sommer ومارك فيلوننكو Marc Philonenko، ترجمة وتقديم موسى ديب الخوري. دمشق: دار الطليعة الجديدة، 1998.
- الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية – القدس (باسيا) The Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs, Jerusalem (PASSIA): دورية سنوية تصدر عن الجمعية الأكاديمية الفلسطينية للشؤون الدولية، وهي من تحرير وإشراف الدكتور مهدي عبد الهادي، وتصدر في القدس، وتعدّ أهم مصدر توثيقي للإجراءات الصهيونية الإسرائيلية في القدس وفلسطين حسب تاريخها في اغتصاب الأرض وانتهاك الحقوق.

4. كتب باللغة الإنجليزية عن القدس:

- Abd al-Fattah el-Awaisi, *Introducing Islamic Jerusalem*. Dundee: al-Maktoum Institute Academic Press, 2005.
- Abd al-Fattah el-Awaisi, *Introducing Islamic Jerusalem*. 2007. Includes Index.
- Abd al-Fattah el-Awaisi, *Islamic Jerusalem Studies: A Guide*. Dundee: al-Maktoum Institute Academic Press, 2007. Includes Appendices.

- Kathleen Kenyon, *Jerusalem: Excavating 3000 Years of History*. Thomas and Hudson, 1979.
- Mariam Shahin and George Azar, *Palestine: A Guide*. Interlink [S.I], 2006. Includes Appendix.
- Mahmoud Awwad, *Jerusalem in the United Nations Resolutions: 1947-1995*. Amman: The Royal Committee for Jerusalem Affairs, 1996.
- Nasir I. Khusrau, *Diary of a Journey Through Syria and Palestine in 1047 A.D.*, translated from the Persian and annotated by Guy Le Strange. London: Palestine Pilgrim's Society, 1893.
- Karen Armstrong, *Jerusalem: One City, Three Faiths*. New York: Alfred A. Knopf, 1996.
- Aziz S. Atiya, *The Crusade: Historiography and Bibliography*. USA: Indiana University Press, Bloomington, 1962, 170 pages.
- Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman, *The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texts*. New York: Free Press, Simon and Schuster Inc., 2001.

5. نبذة عن بعض الكتب:

- يوسف بكار، "بيت المقدس في رحلة ناصر خسرو،" **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام: فلسطين**. عمّان: الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك مطابع الجمعية العلمية الملكية، 1983، المجلد 1، ص 325-342.

عرض فيه الباحث أهم المواقع التي تحدثت عنها الرحلة في المدينة المقدسة، بعد أن ذكر شيئاً عن حياة صاحبها وأهدافها وبواعثها، وبعد أن قام باستعراض الرحالة الفرس الآخرين قبله. سرد خسرو كثيراً من الحكايات الأسطورية والخرافات الملازمة للكثير من الأماكن المقدسة وأوليائها. وعلى الرغم من أن الدكتور بكار قد انتقد القليل مما ورد على لسان خسرو من تلك السفسطائيات، إلاّ أنني شخصياً قد رأيت في تلك الرحلة ، وقد اطلعت عليها باللغة الانجليزية، الكثير من الأضاليل

والإدعاءات التي أراد خسرو من خلالها أن يبين ارتباط الأمكنة باليهودية على نحو كبير، وبالمسيحية على نطاق أقل، كما أن ترديده الخرافات على لسان بعض المسلمين، والتي هي في الأصل خرافات يهودية، لا يمكن أن نسلم بأن وصفه دقيق علمياً، وأن عقيدته الإسلامية سليمة تماماً.

• محمود عواد، **القدس في قرارات الأمم المتحدة منذ عام 1947**. عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 1995.

يوثق الكتاب لجميع قرارات الأمم المتحدة حول القدس منذ سنة 1947 وحتى سنة 1994، الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ومجلس الوصاية الخاص، بالإضافة إلى الملاحق، ويقع في 627 صفحة من القطع العادي.

وقد تتبع الباحث كلمة القدس أو بيت المقدس أو المدينة المقدسة حيثما وردت في القرارات، ووضع خطّاً تحتها لإبرازها، وتكررت الكلمة في القرارات المختلفة زهاء ألف مرة.

إن الجهد المبذول في إعداد هذا الكتاب واضح، والكتاب ضروري لكل من أراد التطرق بالبحث حول ما يسمى قرارات الشرعية الأممية الخاصة بالمدينة. ويذكر أن نسخة باللغة الإنجليزية من القرارات قد صدرت أيضاً للكاتب نفسه بعد عام من صدورالنسخة العربية، وعدد صفحاتها 651 صفحة من القطع العادي.

• سالم الكسواني، **المركز القانوني لمدينة القدس**، ط 2. عمّان: سالم الكسواني، جمعية عمال المطابع التعاونية، 1978.

يقول الدكتور الكسواني في مقدمة الطبعة الأولى إن أية دراسة للمركز القانوني للقدس يجب أن تشمل القضية الأم (فلسطين)، ويترتب على الباحث في هذه الحالة أن يغوص في أعماق المشكلة حتى يصل إلى جذورها، لأنها قضية دولية.

وقد حددت الأمم المتحدة للقدس وضعاً دولياً خاصاً في إطار هذه القضية، وقد أوضح المؤلف طبيعة الانتداب البريطاني وتقسيم فلسطين ومدى انسجامه مع القوانين والأعراف الدولية. وناقش قرار تدويل القدس ومدى شرعية الإجراءات الإسرائيلية لضم القسم الباقي من المدينة، ثمّ نوّه إلى حقّ تقرير المصير الذي لم يمارسه شعب فلسطين، والذي يعدّ الحلقة المفقودة في تاريخ هذه القضية.

كما أوضح أن حقّ الشعب الفلسطيني في فلسطين حقّ ثابت، وأن السيادة على القدس من المواضيع التي تدخل في الإطار الذي حدد لهذه الدراسة، موضحاً حقّ الشعب الفلسطيني في السيادة على المدينة المقدسة.

• شريف كناعنة، **الدار دار أبونا دراسات في التراث الشعبي الفلسطيني**. القدس: مركز القدس العالمي للدراسات الفلسطينية، 1992.

يقع الكتاب في 230 صفحة من الحجم العادي، واشتمل أولاً على تعريف الفولكلور ثم ربطه بالهوية الوطنية الفلسطينية. وتناول الانتفاضة الفلسطينية الأولى من خلال الأقاصيص الشعبية ودور المرأة في أساطيرها والنكتة والقصة المضحكة في الانتفاضة وفي حرب الخليج. ثمّ أوضح الترابط بين الأمثال الشعبية والأبعاد الاجتماعية، وأشار إلى التغيير الاجتماعي من خلال ألعاب الأطفال، وتغيير أنماط الطعام في القرى الفلسطينية، وتحدث بعد ذلك عن الثقافة وقانون الطوشة، وأفرد بحثاً خاصاً عن الطابون، حيث أرجعنا لأيام الطفولة لنعيش في أجوائها ونشم رائحة رغيف القمح الخارج من جوفه، ثمّ لنسترجع أدواته وأجزاءه واستعماله وإشعاله. وكفلاح ولد في قرية مقدسية قبل الهجرة الأولى، أجد أن الباحث استوفى الكثير من تراثنا الشعبي.

• رائف نجم ويوسف النتشة وآخرون، **كنوز القدس**. الكويت: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان، بالتعاون مع منظمة المدن العربية بالكويت.

وهو مرجع توثيقي لآثار القدس، ويعدّ وثيقة معاصرة في غاية الأهمية لإحصاء تراث المدينة وتبين وضعها الإنشائي. وزاد من أهميته وجود المئات من الصور الملونة وغير الملونة، أضفت شروحاً على جانب المتن المكتوب. وكان الهدف من إصداره إعداد دراسة لمجال عمل الصيانة اللازمة لكنوز القدس الأثرية، ويضمّ الكتاب 496 صفحة من القطع الكبير، وأكثرها صور ملونة.

• سميح حمودة، تحرير وفهرسة، **دراسات تراثية**. القدس: جمعية الدراسات العربية، 1986.

وهو كتاب غير دوري صادر عن لجنة التراث والحضارة الإسلامية في جمعية الدراسات العربية بالقدس، ويشتمل على الموضوعات التالية:

الدور التربوي للمسجد الأقصى في صدر الإسلام، ومنبر الحرم الإبراهيمي، والقضية التاريخية للقدس، والمكتبة البديرية بالقدس، ومنهج عزت دروزة اللغوي في تفسير الحديث، وتعميرات الشيخ محمد الخليلي في فلسطين، وكنوز القدس عرض ونقد، وتعريف بلجنة التراث والحضارة الإسلامية، وفهرس الأعلام والبلدان. ويقع الكتاب في 122 صفحة من القطع المتوسط.

- كامل جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس**. عمّان: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1981.

يضم الكتاب 324 صفحة من القطع العادي، وهو عبارة عن دراسة أثرية تاريخية لمقابر القدس وتربها، وثبت بأسماء الأعيان المدفونين فيها، ويحتوي على 92 صورة. حيث يضم ثراها الطاهر رفات تسعة على الأقل من الصحابة، وقد أورد المؤلف أسماء 355 من أعيان الحكم أو العلم أو الدين أو الجهاد غير الصحابة الكرام. وليس في فلسطين قرية إلا ولها وليّ واحد أو أكثر. من ذلك كله ندرك مدى قداسة هذه المدينة الخالدة وكل فلسطين.

- كامل جميل العسلي، **من آثارنا في ثرى بيت المقدس**. عمّان: كامل العسلي، جمعية عمال المطابع التعاونية، 1982.

هذا الكتاب هو تتمة لثلاثة كتب وضعها المؤلف حول التراث الإسلامي في القدس، ويقع في 330 صفحة من القطع الكبير. وهو دراسة لبعض آثار القدس التي لم تتناولها كتبه السابقة. والآثار هي: تكية خاصكي سلطان الشهيرة، وخانات القدس، ومصادر المياه ومنشآتها من العيون والآبار والصهاريج والبرك والقنوات ثم الحمامات فالأسبلة. وقد شفع الدراسة بالرسوم والمخططات والصور والخرائط، مستفيداً مما كتبه المؤرخون والباحثون القدماء والمحدثون من أسلافنا، أو من الأجانب والمستشرقين، ومعلوم أنه قد قام بعدة زيارات للقدس لدراسة آثارها.

ومن خلال هذا الكتاب وبضعة عشر كتاباً آخر حول القدس، يتبين لنا أننا أمام أحد أهم أعمدة البحث التاريخي والآثاري الأكاديمي الرزين عبر عصور المدينة المختلفة.

• مجير الدين الحنبلي العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. الخليل: مطبعة دنديس، 1999.

يتألف الكتاب من مجلدين، الأول وعدد صفحاته 583، والثاني وعدد صفحاته 526 صفحة من القطع الكبير. ويغطي المجلد الأول ما بين بدء الخليقة إلى سنة 627هـ/1239م، وهو من إعداد وتحقيق ومراجعة عدنان يونس عبد المجيد أبو تبانة؛ وإشراف د. محمود علي عطا الله. كما يغطي المجلد الثاني الفترة 627-900هـ الموافق 1239-1494م.

الكتاب مرجع لا غنى لأي باحث في تاريخ القدس عن النظر فيه والاستفادة منه، وتكثر الإشارة إليه في البحوث الأكاديمية على "المستويات المختلفة". ولا شكّ أن اقتناءه يُعدّ ضرورياً للمختصين في مجال البحث والتأليف.

• توفيق كنعان، **الأعمال الفولكلورية الفلسطينية**، ترجمة نمر سرحان. عمّان: المركز الفلسطيني للفنون الشعبية في المنفى، 1988.

يقول الدكتور نمر سرحان في مقدمة الجزء الأول من الكتاب الذي نشر في جزأين منفصلين: إنه بعد أن استكمل جمع أعمال الدكتور كنعان من عدة دول وعدة مصادر بدأ بترجمة تلك الأعمال. وبعد أن أنجز تلك المهمة، نشرها في كتابين بمساعدة العديد من المؤسسات والشخصيات، شملت كل ما كتبه د. كنعان باللغتين الإنجليزية والألمانية في الفترة (1882-1964).

وعدد صفحات الجزء الأول 88 صفحة، من القطع العادي، والجزء الثاني عدد صفحاته 84 صفحة من القطع ذاته. والكتاب غني جداً، يبدأ بلوحة الغلاف في الجزء الأول، التي تمثل شابا يحمل صينية الحنّاء المغطاة بالورد في سهرة ليلة الحناء، كما يحمل غلاف الجزء الثاني لوحة "المنسف" في بيت فلسطيني في القرن 19، رسمها جيمس نيل.

ملاحظات وتوصيات:

- يندر وجود كتب تتحدث عن التراث الثقافي لمدينة القدس، وربما نجد التراث منبثقاً في ثنايا كتب تتناول موضوعات أخرى.
- تتكرر عناوين الكتب في الكثير من البيبليوغرافيات.
- لا يوجد تصنيف للموضوعات المتعلقة بالمدينة.
- لم يتمّ إيجاد بيبليوغرافيا خاصة بالقدس تغطي العقود الثلاثة الأخيرة في المناطق المختلفة من العالم.
- ما تزال الجهود الفردية هي التي تنتج مثل هذه الأعمال.

وعليه فإن أهم ما يُوصى به في هذا المجال:

- الاهتمام بالعمل البيبليوغرافي بشكل عام.
- تحديث واستكمال البيبليوغرافيات الخاصة بفلسطين في المراحل المختلفة، مع تصنيف موضوعات البحث، وحسب الفترات الزمنية أيضاً.
- إفراد بيبليوغرافيا خاصة بمدينة القدس، تأخذ في الاعتبار التسلسل التاريخي في المراحل المختلفة، وتصنيفها حسب موضوعاتها، وحسب الفترات الزمنية التي مرّت بها. وذلك بالنظر إلى كون القدس محور الصراع العربي اليهودي ولبه، ولأنها مبرر غزوات الفرنجة (الصليبيين) قديماً، والغزوة الصهيونية الاستعمارية الإحلالية الحالية.
- العناية بفهرست التراث الثقافي للقدس خاصة، ولفلسطين بشكل عام، حيث إنه قد بلغ مرحلة الخطر، نتيجة عبث "إسرائيل" بهذا التراث وطمس معالمه في محاولة لإزالته من الوجود.
- التشديد في كل الكتابات المتعلقة بالتراث أو غيره من الموضوعات، على ضرورة الكلمة المقاومة التي تمهد للفعل المقاوم باتجاه تحرير بيت المقدس وكل الوطن الفلسطيني المغتصب.
- ضرورة إعادة كتابة تاريخ القدس، شريطة انتهاج العلمية في دحض الافتراءات الصهيونية واللاهوتية، وحول الحقوق التوراتية الخرافية لليهود في القدس

وفلسطين، وبيان كذب ادعاء وجود ما يسمى "إسرائيل القديمة"، والمملكة المتحدة القديمة، وغزو فلسطين، وغير ذلك، مما أثبتت الحفريات والآثار بطلانه وزيفه. مع التركيز على عدم قبول هذه التوراة كمصدر للتاريخ أو الجغرافيا أو حتى للعقيدة، كما أوضح ذلك علماء الآثار والمؤرخون وعلماء اللاهوت، والتنبه كذلك إلى التزوير الذي يملأ كتب الصهاينة والتوراتيين الحديثين، وكتب المؤرخ اليهودي المتنكر يوسيفوس فلافيوس وعدم القبول بها.

- العناية بتأليف الكتب الخاصة بالقدس وفلسطين باللغات الأجنبية، وترجمة الكتب العربية المهمة الخاصة بهذا الموضوع، وإعداد بيبليوغرافيا حديثة شاملة لها.

هوامش الفصل الثاني عشر

[1] إسحاق موسى الحسيني، **أسماء القدس**؛ وعارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**.

[2] زهير غنايم ومحمود عواد، **القدس: الوقائع، المواقع، المساحة، السكان** (عمّان: اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2002).

[3] للمزيد، انظر: وليد مصطفى، **القدس سكان وعمران من 1850-1996** (القدس: مركز القدس للإعلام والاتصال، 1997)؛ وسمير جريس، **القدس: المخططات الصهيونية: الاحتلال والتهويد** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981).

[4] **المنجد في اللغة والأعلام**، ط 24 (بيروت: دار المشرق، 1986)، ص 71.

[5] *The New Lexicon Webster's Dictionary of the English Language* (New York: Lexicon Publications, Inc., 1990), p. 235; Culture: The training and development of the mind; the refinement of taste and manners acquired by such training; the social and religions structures and intellectual and artistic manifestation etc. that characterizes a society.

[6] محمد شاهين، صورة المثقف في فكر إدوارد سعيد، من ملف شرفات: إدوارد سعيد في الذكرى الأولى لرحيله: المقدسي العالمي الذي لم يخن جذوره، جريدة **الغد**، الأردن، 2004/9/24.

[7] محمود الأخرس، **الببليوغرافيا الفلسطينية الأردنية 1900-1970** (عمّان: جمعية المكتبات الأردنية، 1973)، ص 7-9.

الفصل الثالث عشر

القـدس والـدور المـأمـول

المبحث الأول
الدور العربي والإسلامي في الحفاظ على التراث الثقافي للقدس

أ. عبد الله كنعان

مقدمة:

عرفت القدس منذ القدم الكثير من الغزوات والحروب والاحتلالات، وتعاقب على احتلالها الكثير من الأمم، ولكنها يقيناً لم تشهد طوال تاريخها القديم والحديث احتلالاً مدمراً لتراثها الثقافي ومغيراً لمعالمها الحضارية والتاريخية كالاحتلال الصهيوني الاستعماري الإحلالي. ووفقاً للفلسفة الأسطورية لليهودية الصهيونية فقد اعتمد ذراعها، الحركة الصهيونية وكيانها الصهيوني "إسرائيل"، مبدأ الإبادة؛ إبادة الغير، سواء بصيغة إنكار وجوده، كما فعلت الغالبية العظمى من قادة الحركة الصهيونية وحكومات كيانها المتعاقبة منذ قيامها وحتى الآن، أم من خلال استئصاله الفيزيائي بطمس مواقعه الحضارية، كما فعلت "إسرائيل" وعصاباتها الهاغاناه Haganah والشتيرن Stern في المذابح والمجازر التي اقترفتها بحقّ الشعب العربي الفلسطيني خلال حرب اغتصاب فلسطين بمساندة حلفائها الدوليين الاستعماريين الاستراتيجيين، وبخاصة بريطانيا العظمى، التي هيأت من خلال سلطاتها الانتدابية المسرح لولادة هذا الكيان الصهيوني على أشلاء شعبنا العربي في فلسطين.

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على المؤسسات الرسمية العربية المعنية بالحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس، وتوضيح حقيقة الدور العربي –الإسلامي في الحفاظ على هذا التراث، وبيان مدى فاعليته.

وقبل البدء في البحث لا بدّ من التنويه إلى إن هذه الدراسة ستعنى بالدور العربي – الإسلامي الرسمي دون الخوض في المنظمات غير الحكومية.

أولاً: الجهات المعنية بالحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس ذي الطبيعة العالمية الاستثنائية:

ما الجهات التي تتحمل مسؤولية الحفاظ على التراث الثقافي والطبيعي ذي القيمة العالمية الاستثنائية وفقاً لاتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي؟.

نصّت المادة (4) من الاتفاقية بأنه تعترف كل دولة من الدول الأطراف في هذه الاتفاقية بما يلي:

> إن واجب القيام بتعيين التراث الثقافي والطبيعي المشار إليه في المادتين والذي يقوم في إقليمها وحمايته، والمحافظة عليه، وإصلاحه، ونقله إلى الأجيال المقبلة، يقع بالدرجة الأولى على عاتقها. وسوف تبذل كل دولة أقصى طاقتها لتحقيق هذا الغرض وتستعين عند الحاجة بالعون والتعاون الدوليين اللذين يمكن أن تحظى بهما، خاصة على المستويات المالية والفنية والعلمية والتقنية.

هذا يعني عملياً أن مسؤولية الحفاظ على التراث الثقافي والطبيعي لمدينة القدس الواقع في إقليم فلسطين هو، وفقاً لمنطوق المادة (4) من الاتفاقية، من مسؤولية واختصاص:

1. الطرف الفلسطيني (السلطة الوطنية الفلسطينية) بالدرجة الأساس.
2. دولة الاحتلال (إسرائيل): ولما كانت السلطة الفلسطينية تقوم على الأراضي التي تحتلها "إسرائيل"، فإن واجب الحفاظ على التراث الثقافي والطبيعي لمدينة القدس يقع على عاتق دولة الاحتلال وفقاً للقانون الدولي، واتفاقية لاهاي سنة 1954، واتفاقيات جنيف الأربعة 1949/8/12 ولقرارات الأمم المتحدة (قرارات الشرعية الدولية) ذات الصلة بالقضية الفلسطينية والقدس والصراع الإسرائيلي – العربي (الصراع الشرق – أوسطي)، شريطة أن لا يمس ذلك بـ أو ينتقص من سيادة الدولة المحتلة أرضها، أي فلسطين؛ إذ أن السيادة مع غياب الدولة الفلسطينية كامنة بالشعب العربي الفلسطيني.

كما يتوجب على "إسرائيل" بصفتها الدولة المحتلة لفلسطين (الضفة الغربية بما في ذلك القدس) وكونها طرفاً في "اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي" ووفقاً للفقرة الثالثة من المادة (6) "ألا تتخذ متعمدة، أي إجراء من شأنه إلحاق الضرر بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالتراث الثقافي والطبيعي المشار إليه في

المادتين 1 و2، والواقع في أقاليم الدول الأخرى الأطراف في هذه الاتفاقية". ومثل هذا الإخلال أو الخرق لهذا البند من الاتفاقية يتجلى بوضوح بسياسة "إسرائيل" التهويدية، وأبرزها الاستيطان الاستعماري الإحلالي للضفة الغربية وبخاصة القدس.

3. المملكة الأردنية الهاشمية: المملكة الأردنية الهاشمية معنية بالحفاظ على التراث الثقافي والطبيعي لمدينة القدس، فالضفة الغربية بما فيها القدس توحدت مع المملكة سنة 1950، وعندما احتلها الإسرائيليون سنة 1967 كانت جزءاً من أرضها. وعلى الرغم من فكّ الارتباط الإداري والقانوني في 1988/7/30 معها لأسباب سياسية، وعلى الرغم من عقد الأردن اتفاقية سلام مع "إسرائيل" سنة 1994، إلا أن المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس ظلّت تحت الولاية الأردنية.

4. اللجنة الدولية الحكومية لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي (لجنة التراث العالمي): وهي لجنة تتبع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، وعدد أعضائها حالياً 21 عضواً، منها خمس دول عربية هي: الأردن ومصر، والجزائر والبحرين وتونس.

5. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، Arab League Education Culture and Science Organization (ALECSO).

6. منظمة المؤتمر الإسلامي للتربية والعلم والثقافة (الإيسيسكو).

7. اللجان الوطنية للتربية والعلم والثقافة للدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي للتربية والعلم والثقافة.

8. اللجان الوطنية للتربية والعلم والثقافة للدول الأعضاء في المنظمة العربية للتربية والعلم والثقافة.

هذا يعني عملياً أن الحفاظ على التراث الثقافي والطبيعي الفلسطيني – المقدسي هو من اختصاص الطرفين الفلسطيني والأردني، ومن واجب دولة الاحتلال "إسرائيل" بحكم القانون الدولي واتفاقيات جنيف الأربعة سنة 1974 واتفاقية لاهاي سنة 1954 واليونسكو من خلال لجنة التراث العالمي، طبقاً لاتفاقية الحماية.

ثانياً: الإطار السياسي لنشاط المنظمات المعنية بحماية التراث الثقافي لمدينة القدس:

نشاط المنظمات الدولية والإقليمية والوطنية الحكومية محكوم عملياً بقرارات المنظمات الدولية والإقليمية والوطنية والحكومية الأم. فقد اجتمعت إرادة المجتمع الدولي بمنظماته الدولية (هيئة الأمم المتحدة بأجهزتها الرئيسية والمتخصصة وأبرزها الجمعية العامة، ومنظمة اليونسكو، والإقليمية وأبرزها منظمة عدم الانحياز، وجامعة الدول العربية – مؤسسة القمم العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومنظمة الـ 77، والتي تضمّ الآن حوالي 132 دولة، والاتحاد الإفريقي على الآتي:

1. إقامة دولتين في فلسطين دولة عربية وأخرى إسرائيلية وفقاً للقرار 1947/181 الذي قام بموجبه الكيان الصهيوني والذي سمي بـ"إسرائيل" على حوالي 78% من مجموع مساحة فلسطين، وهو ما يزيد كثيراً عما هو مقرر لها المنصوص عليها في القرار الوارد أعلاه 56% كنتيجة فعلية لحرب سنة 1948، وهو ما بات يعرف اليوم بـ"حلّ الدولتين".
2. "إسرائيل" دولة محتلة للضفة الغربية بما في ذلك القدس، وعليها الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة كافة؛ هذا يعني الانسحاب من الضفة الغربية بما في ذلك القدس، ومرتفعات الجولان السورية ومزارع شبعا في لبنان.
3. عدم جواز اكتساب أراضي الغير بالقوة.
4. بطلان جميع إجراءات تهويد الأراضي العربية، بما في ذلك القدس، تشريعية كانت أم سياسية أم استيطانية أم ديموغرافية.
5. امتناع "إسرائيل" الفوري عن الإتيان بأي عمل من شأنه أن يغير في الطبيعة الدينية والتاريخية والحضارية والديموغرافية للأراضي العربية المحتلة بما في ذلك القدس.
6. عدم شرعية الاستيطان ومطالبة "إسرائيل" بتفكيك القائم من المستوطنات، وهو ما استندت إليه محكمة العدل الدولية International Court of Justice (ICJ) في لاهاي في فتواها بناءً على طلب الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة المتخذ في

2004/7/9، والمعتمد من الجمعية العامة في 2004/7/20 والقاضي بإزالة جدار الفصل وتعويض المتضررين منه.

7. الاعتراف بحقّ الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولته المستقلة ذات السيادة على ترابه الوطني وعاصمتها القدس[1].

8. عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم مع تعويضهم عما لحق بهم من أضرار في الممتلكات والأشخاص وتعويض من لا يرغب منهم في العودة وفقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 1948/194، وهو حقّ غير قابل للتصرف باعتباره حقاً فردياً لا يجوز التنازل عنه[2]، والذي لم تقبل "إسرائيل" عضواً في هيئة الأمم المتحدة إلا بعد اعترافها به وبالقرار 1948/181، وإن هي عادت بعد ذلك وتنكرت لهما.

وقبل البدء في استعراض الدور العربي والإسلامي في حماية التراث الثقافي للقدس، تجدر الإشارة إلى ملاحظتين أساسيتين، لها دلالات تراثية وسياسية وتاريخية وحضارية، وهما:

1. إن القدس القديمة بكاملها ذات قيمة عالمية استثنائية، بمعنى أن قيمتها العالمية الاستثنائية، لجهة تراثها الثقافي والطبيعي تتفوق وتسمو على قيمتها على المستوى الوطني وفقاً للمعايير العالمية لتحديد المواقع التراثية العالمية المنصوص عليها في اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، وهو ما شدد عليه كريم اندسيه هندلي، مستشار منظمة اليونسكو للتراث العالمي والثقافي والخبير المكلف من مركز التراث العالمي بالإشراف على إعداد استبيان خاص بدول منطقة الخليج العربي، بقوله: "إن مدينة القدس القديمة وآثارها تعتبر حالة خاصة وتنطبق عليها كل الآليات التي تعنى بالمواقع التراثية العالمية وتجب المحافظة عليها"[3]، وإن هو وعن غير قصد أعاد "خصوصية القدس في التراث العالمي... من كونها لا تتبع لأية دولة" مستنداً في ذلك على ما يبدو إلى القرار 1947/181 الصادر عن الجمعية العامة في 1947/11/29، والقاضي بأن يكون للقدس كيان خاص بها Corpus Separatum، أي تدويلها. لكن تطورات القضية الفلسطينية بتجلياتها المتعددة جاءت لتتجاوز هذا القرار في شقه الخاص بالقدس، والتي هي وفقاً لقرارات الأمم المتحدة الصادرة عن الجمعية العامة ومجلس الأمن وغيرها من أجهزتها الرئيسية

والمتخصصة أرضاً عربية محتلة (الشطر الشرقي) كبقية الأراضي العربية المحتلة، وعلى "إسرائيل" الانسحاب منها لتعود إلى سابق عهدها قبل 1967/6/5، ولتكون مستقبلاً عاصمة للدولة الفلسطينية التي تنتظر القيام منذ 62 عاماً.

2. حقيقة أن القدس تضم 14% من مجموع المباني التاريخية القديمة القائمة، لتأتي في المرتبة الرابعة بعد الخليل التي تضم 20.5%، ونابلس 19.3%، ورام الله 15.1%، في حين جاءت جنين في المرتبة الخامسة والأخيرة بنسبة 10.6% من مجموع المباني التاريخية والقديمة الكائنة في الضفة الغربية المحتلة[4].

ثالثاً: دور المؤسسات العربية في حماية التراث الثقافي للقدس:

البحث في الدور العربي في حماية التراث الثقافي للقدس يعني البحث في دور المؤسسات العربية السياسية، وأبرزها:

- جامعة الدول العربية (الأمين العام والمندوبون الدائمون).
- مؤسسة القمة العربية (مؤتمرات القمم العربية).
- مؤسسة مؤتمر وزراء الخارجية العرب.

ولما كانت جميع تلك المؤسسات ذات طبيعة سياسية، ينحصر دورها في المجال السياسي وتحديد الإطار السياسي لنشاط المنظمات العربية المتخصصة بحماية التراث الثقافي والطبيعي العربي، وتمّ استعراضه بشكل مكثف سابقاً، فإن الحديث سيقتصر في هذا السياق على المنظمات العربية المتخصصة ودورها في حماية التراث الثقافي لبيت المقدس (القدس) وهي:

- مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سواء على صعيد أمانتها العامة أم مؤتمرها العام أم مجلسها التنفيذي.
- لجنة القدس التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي ووكالة بيت مال القدس الشريف التابعة لها.

- اللجان الوطنية للتربية والثقافة والعلوم.
- لجنة الخبراء العرب المتخصصين بالتراث الثقافي.
- لجنة إعمار المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في الأردن.
- الصندوق الهاشمي لإعمار المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة في الأردن.
- اللجنة الملكية لشؤون القدس في الأردن.

وبمراجعة فاحصة لوثائق هذه المؤسسات، يمكن للمرء أن يلخص دورها في حماية التراث الثقافي للقدس بالآتي:

1. إدراج القدس وحماية تراثها الثقافي والطبيعي على جداول أعمال جميع مؤتمراتها الدورية والاستثنائية، وتخصيص الجزء الأكبر من قراراتها وتوصياتها للقدس وحماية تراثها الثقافي والطبيعي.
2. نجاح الأردن بتسجيل القدس على قائمة التراث العالمي سنة 1981، بالتنسيق والتعاون مع الدول العربية الممثلة في لجنة التراث العالمي، والتي تضمّ حالياً خمس دول عربية هي: الأردن ومصر وتونس والبحرين والمغرب، مشكلة بذلك حوالي خُمْس أعضاء اللجنة وعددهم 21 عضواً.
3. نجاح الأردن، بالتنسيق والتعاون مع الدول العربية الممثلة في لجنة التراث العالمي بتسجيل موقع "القدس: المدينة القديمة وأسوارها" على قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر منذ سنة 1982.
4. نجاح الأردن بالتنسيق مع الدول العربية الممثلة في لجنة التراث العالمي بإفشال طلب "إسرائيل"، الذي يدعو إلى إلغاء اعتبار القدس تراثاً عالمياً مهدداً بالخطر.
5. نجاح الإيسسكو حتى الآن في الحفاظ "على القيمة الاستثنائية للقدس بوصفها تراثاً إنسانياً في مواجهة ما تقوم به إسرائيل لتدمير تراثها الحضاري ونسيجها الاجتماعي"[5].
6. نجاح المنظمة في التعريف "بالانتهاكات الإسرائيلية للمعاهدات والمواثيق والقرارات الدولية، والتركيز على ما ورد في وثيقة اليونسكو من سرد للمشاريع

الإسرائيلية الساعية إلى تغيير وجه المدينة المقدسة وتهويدها، باعتبارها وثيقة دولية رسمية تدين السلطات الإسرائيلية"[6].

7. تقديم الدعم المالي، وإن كان دون المطلوب، إلى المؤسسات العاملة في القدس لتوثيق وصون تراثها المعماري والحفاظ على نسيجها الاجتماعي وهويتها الثقافية[7].

8. اختيار القدس عاصمة للثقافة العربية لسنة 2009، وذلك ضمن استراتيجية تهدف إلى تحقيق الآتي:

- إعادة الصدارة لمدينة القدس بقيمتها الثقافية وبعدها الحضاري التاريخي والديني، وحماية معالمها التاريخية والروحية بما يعزز هويتها الثقافية العربية.
- تعزيز صمود المواطنين المقدسيين ثقافياً وتربوياً واجتماعياً وإعلامياً واقتصادياً، والإسهام في تخفيف معاناة مواطني المدينة المقدسة، من خلال إيجاد فرص عمل للأيدي العاملة فيها.
- تفعيل الحراك الثقافي في القدس ومحيطها داخل الوطن وخارجه.
- تأهيل بنى تحتية مناسبة للاحتفال بالقدس عاصمة الثقافة العربية.
- توسيع دائرة التضامن العربي والدولي وتعميقه للحفاظ على عروبة القدس.
- كسر العزلة الثقافية التي تعيشها المدينة عن واقعها العربي الطبيعي بفعل ممارسات الاحتلال.
- الإسهام في التخفيف من المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الفلسطيني داخل مدينة القدس.
- دعم البرامج والنشاطات والفعاليات الثقافية التي سيتمّ تنفيذها من أجل تأكيد هوية القدس العربية.
- دعوة الدول العربية لتنفيذ نشاطات وفعاليات ثقافية في عواصمها لتعزيز الهوية الثقافية العربية لمدينة القدس.
- تنفيذ حملة عالمية بالتنسيق مع الهيئات الدولية والإقليمية وحركة التضامن مع الشعب الفلسطيني من أجل فكّ الحصار وتعزيز الهوية العربية للقدس حضارة وتاريخاً وأصالة[8].

أما الرؤية العامة التي يستند إليها قرار الاحتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية لسنة 2009 على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي، فيأتي في إطار التأكيد على أنها جزء لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة 1967، ووحدة القضية الفلسطينية، وتكريسها للبعد السياسي لتكون عاصمة للدولة الفلسطينية المستقلة، وتعضيداً لمكانتها في الوجدان العربي والإسلامي والإنساني، وتجذيراً لهويتها الثقافية العربية، ودعماً للوجود العربي الفلسطيني في القدس، وتصدياً للإجراءات التهويدية للقدس من جانب سلطات الاحتلال الإسرائيلية، وتعزيزاً لشعور أهلها بانتمائهم الوطني والعربي تجاه هوية ثقافية عربية موحدة[9].

ولكن ما الخطة المعتمدة في تنفيذ هذه الرؤية؟.

الخطة التنفيذية بنيت على الأسس والقواعد الآتية:

- تخصيص الجزء الأكبر من الميزانية المعدة للاحتفاء بهذه المناسبة، وكذلك الاعتمادات المالية العربية، لدعم مشاريع البنية التحتية الثقافية في مدينة القدس.
- دعم مشاريع البنى التحتية للمؤسسات في داخل مدينة القدس لتأهيلها فنياً، وذلك لتمكينها من تنفيذ البرامج والنشاطات الخاصة بالقدس داخل المدينة.
- أهمية مشاركة كل دولة عربية شقيقة بتبني مشروع خاص بالبنية التحتية، وآخر ثقافي بمدينة القدس، على أن يسجل هذان المشروعان باسم عاصمتها في القدس.
- تنفيذ المشهد الاحتفالي من برامج وفعاليات ونشاطات ثقافية على مستوى الأراضي الفلسطينية بما فيها مدينة القدس، وتشمل أيضاً المخيمات الفلسطينية كافة، داخل فلسطين وخارجها.
- إقامة أسابيع ثقافية فلسطينية في العواصم العربية بالتنسيق مع الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- تنفيذ فعاليات ثقافية تبرز المخزون الثقافي والحضاري لمدينة القدس في العواصم الأوروبية والعالم[10].

وتتضمن الخطة التنفيذية ما يلي:

1. تظافر الجهود السياسية ما بين جامعة الدول العربية (الأمانة العامة) والإيسسكو في التأثير على الدول الأعضاء في اليونسكو، وبخاصة تلك الممثلة في لجنة التراث العالمي، وعلى إسبانيا كونها تترأس لجنة التراث العالمي للدورة الحالية، في مواجهة "إسرائيل" والولايات المتحدة الأمريكية الممثلين في لجنة التراث العالمي.

2. التعريف بالتراث الثقافي العربي في القدس وما يتهدده من أخطار، وبالحقّ العربي في القدس عبر وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة، بواسطة التعبيرات الثقافية والفنية المتنوعة، على صعيد الوطن العربي والعالم، والذي أخذ يتزايد بفعل بعض الفضائيات العربية وأهمها الجزيرة.

3. ممارسة الضغط على "إسرائيل" من خلال الأمانة العامة لليونسكو لوقف انتهاكاتها لموقع القدس، تطبيقاً لاتفاقية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لسنة 1972.

4. تخصيص الإيسسكو العدد الأخير من المجلة العربية للثقافة لموضوع التراث الثقافي في الدول العربية بنشر دراسة حول موقع القدس، وكذلك ترجمة تقرير اليونسكو الذي يكشف الانتهاكات الإسرائيلية للموقع وذلك للتعريف بوضع الموقع والتنبيه للأخطار المحدقة به[11].

5. التنسيق والتعاون ما بين الإيسسكو ومؤسسات المجتمع المدني واللجان الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، من خلال عقد ندوات ومؤتمرات مشتركة حول حماية التراث الثقافي للقدس.

6. الإعمارات الهاشمية للمسجد الأقصى وقبة الصخرة، والتي زادت تكاليفها عن نصف مليار دولار أمريكي، تكفلت بها القيادة الهاشمية منذ عهد الشريف الحسين بن علي، فالملك المؤسس عبد الله بن الحسين، فالملك الحسين بن طلال، فالملك عبد الله الثاني ابن الحسين، والذي تمّ عن طريق لجنة إعمار المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة التي يترأسها وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردني، ويتولى الجانب التنفيذي فيها المهندس رائف نجم نائب رئيس لجنة إعمار المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة[12]، والذي تقدم بعرض مصحوب

بالصور حول "موقع القدس: المدينة القديمة وأسوارها" كأساس لإسقاط موقع القدس من القائمة التمهيدية الإسرائيلية، والذي قدمه لمؤتمر القمة العربية في الرياض سنة 2007[13].

7. إعادة بناء منبر صلاح الدين الأيوبي، الذي أتى عليه حريق المسجد الأقصى والذي قد أشعله دنيس روهان الأسترالي الجنسية في 1964/8/21 بالتواطؤ مع سلطات الاحتلال الإسرائيلية، ذلك الحريق الذي أتى كذلك على أجزاء كبيرة من المسجد، وكان الدافع لولادة منظمة المؤتمر الإسلامي[14]. وإعادة بناء المنبر جاءت على نفقة الملك عبد الله الثاني بن الحسين، كما أمر الملك بإنشاء مئذنة خامسة للمسجد المسقوف.

8. تكليف الدول العربية الأعضاء في لجنة التراث العالمي، بالتعاون مع المنظمة العربية، وبالتنسيق معاً، ومع الدول الأعضاء الصديقة للعرب في اللجنة، بالعمل على استصدار قرارات للوقف الفوري لأعمال الحفريات كافة التي تقوم بها السلطة الإسرائيلية المحتلة في الحرم القدسي الشريف والمناطق المحيطة به، وكذلك الأعمال غير المشروعة التي تقوم بها السلطة المحتلة في القدس، والمبينة في تقرير مركز التراث العالمي المقدم إلى الدورة الأخيرة للتراث العالمي حول وضع صيانة الموقع، والذي يقرّ بأن ما تقوم به "إسرائيل" يهدد القيمة الثقافية الاستثنائية للقدس بوصفها تراثاً إنسانياً[15].

9. دعوة وزارة الثقافة الفلسطينية إلى إعداد ملف كامل يتضمن أسماء المؤسسات داخل القدس والتعريف بها واحتياجاتها، من حيث البرامج والميزانيات، وتقديمها إلى الدورة القادمة لاجتماع اللجنة الدائمة للثقافة العربية لدراستها؛ التي ستقوم بدورها بتقديم ما يُتفق عليه من آلية دعمها إلى سمو ومعالي الوزراء[16].

10. تنفيذ أنشطة ثقافية وإعلامية قطرية ومشتركة لإبقاء قضية القدس حية في ضمير أبناء أمتنا، والتعريف بها في المحافل الدولية[17].

11. إعداد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ملفاً كاملاً لاجتماع لجنة التراث العالمي باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهما لغتا وثائق اجتماع اللجنة، فضلاً عن مادة علمية وافية باللغة العربية وضعتها و/أو ترجمتها لهذه الغاية، تتناول

كافة القضايا ذات الصلة بما يهم الوطن العربي ويمس شؤونه، وبالأخص ما يتعلق بالقدس والأراضي الفلسطينية والأراضي العربية المحتلة.

وكانت البنود المتعلقة بهذا الملف عديدة ومتشعبة في اجتماع اللجنة العالمية سنة 2009، ومن أبرزها:

- نتائج اجتماع الخبراء الذي عقدته "إسرائيل" في دافوس Davos بسويسرا في آذار/ مارس 2009، الخاص بالمناطق العازلة لمواقع التراث الثقافي العالمي، وحاولت إدخال تلك النتائج كتعديلات على المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي، وهي ذات تأثير على موقع "القدس: المدينة القديمة وأسوارها" المسجل على قائمة التراث العالمي من قبل الأردن سنة 1981، وعلى قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر سنة 1982.

- التعديلات المقترحة على المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي من قبل مركز التراث العالمي باليونسكو الخاصة بالقوائم التمهيدية (المؤقتة) للدول. وكانت الدول العربية الأعضاء في لجنة التراث العالمي آنذاك (تونس، والكويت، والمغرب) أثارت مجدداً في اجتماع اللجنة، في كرايست شيرش – نيوزيلندا 2007، ما كانت قد نبهت إليه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتابعته منذ سنة 2000، وهو محاولات "إسرائيل" تسجيل القدس كموقع إسرائيلي على قائمة التراث العالمي، واستمرار وجود القدس على القائمة التمهيدية (المؤقتة) الإسرائيلية. وقد أقرت لجنة التراث العالمي في اجتماع كرايست شيرش، بعد الضغط العربي على إسقاط القدس من القائمة التمهيدية (المؤقتة) الإسرائيلية، الذي تمثل في مكاتبات الأمين العام للجامعة العربية والمدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة إلى المدير العام لليونسكو في هذا الشأن، تنفيذاً لقرار القمة العربية الخاص بهذه القضية المنعقدة في الرياض سنة 2007، مبدأ منح مركز التراث العالمي صلاحية التدخل لدى الدول لضمان أن تكون المواقع المقترحة على القوائم التمهيدية (المؤقتة) "مناسبة منطقياً مع المواقع التي تمّ تسجيلها على القائمة"، ووجهت لجنة التراث المركز إلى تعديل وثيقة المبادئ التوجيهية لتحقيق ذلك. وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة عرضت هذا الموضوع على المجلس التنفيذي في دورته الـ 86 المنعقدة في القاهرة بتاريخ أيلول/ سبتمبر 2007.

• مسألة صون موقع "القدس: المدينة القديمة وأسوارها"، وقضية الحفريات الإسرائيلية في منحدر باب المغاربة، وتقارير بعثات اليونسكو المتتالية في هذا الشأن وتقارير الخبراء الفلسطينيين والأردنيين بشأنه، وخاصة التقريران المهمان اللذان قدمتهما اليونسكو حول صون الموقع للجنة التراث العالمي في سنتي 2008 و2009[18].

وكان من منجزات العمل العربي ما يلي:

1. تشكيل اللجنة العربية للتراث الثقافي العالمي والطبيعي تنفيذاً لقرار المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دورته 88 المنعقد في تونس للفترة 14-2008/12/16[19].

2. توجيه مدير عام المنظمة العربية للتربية العديد من المذكرات (المراسلات) إلى مدير عام اليونسكو حول ما تتعرض له مدينة القدس من تهديدات لتراثها الثقافي العربي الذي تعمل "إسرائيل" على هدمه وطمسه ومنها تلك المتعلقة بمقبرة مأمن الله (ماميلا)، وباب المغاربة... وغيرها.

3. تكثيف العمل الإعلامي الخاص بالتهديدات الإسرائيلية لعروبة القدس بإصدار الإيسسكو لكتاب باللغة الإنجليزية الموسوم بـ: Jerusalem and the Geopolitics of De-Palestinisation وذلك بالتعاون مع معهد الأبحاث التطبيقية – القدس في نيسان/ أبريل 2007، الذي يتحدث عن بالقدس وما تتعرض له من مخاطر تهويد وتغيير هويتها العربية.

4. عقد ندوات دولية حول القدس حيث عقدت الأولى في لندن في كانون الأول/ ديسمبر 1999 في المعهد الملكي للشؤون الدولية Chathan House، وتميزت بنجاح كبير وكان لها صدى إعلامي واسع النطاق[20].

كما عقدت الندوة الدولية الثانية في لندن أيضاً، في حين يخطط لعقد الندوة الثالثة في بروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبي، بالتعاون مع البرلمان الأوروبي وبعض الأحزاب الأوروبية الناشطة في مجال القضية الفلسطينية والقدس.

5. التركيز على القدس في المؤتمر 18 للآثار والمؤتمر الاستثنائي للوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، اللذان استضافتهما الجزائر في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2007.

وقد خصصت المنظمة العربية للتربية في هذين المؤتمرين، اللذين يتناولان التراث الثقافي العربي والحفاظ عليه والنهوض به، حيزاً خاصاً للقدس، وكلفت المهندس رائف نجم بإعداد دراسة تقدم لهذين المؤتمرين حول موقع "مدينة القدس القديمة وأسوارها" المسجل من قبل المملكة الأردنية الهاشمية على قائمة التراث العالمي سنة 1981، وقائمة التراث العالمي المهدد بالخطر سنة 1982، تتضمن المعايير التي تمّ على أساسها وضع القدس على قائمة الخطر، والمخاطر الحقيقية التي يواجهها الموقع، وما ينبغي على الدول العربية ومنظمة اليونسكو القيام به للحفاظ على المدينة المقدسة ومعالمها وتجنيبها ما تتعرض له من مخاطر تمسّ بها وبهويتها العربية.

6. دعم مؤسستين أساسيتين في القدس، هما: المتحف الإسلامي التابع للحرم الشريف ومكتبة المسجد الأقصى، تنفيذاً للقرار الذي أصدرته الدورة 14 لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي المنعقد في صنعاء 2004، استناداً للمشروعات التي كلف مدير هاتين المؤسستين بإعدادها والتي تبناها المؤتمر[21].

7. إقرار اليونسكو للمشروع الأردني لتصميم جسر تلة المغاربة في القدس، إذ نجح الأردن بفضل التعاون والتنسيق مع الدول العربية الأعضاء في اليونسكو على حمل المجلس التنفيذي لليونسكو على اعتماد قرار، في دورته 181 المنعقدة في باريس، بمشاركة الأردن بشكل خاص بآلية متابعة ومراقبة اليونسكو لتصميم موقع جسر تلة المغاربة في القدس، كموقع محمي ومدرج من الأردن على لائحة التراث الإنساني العالمي، وبما يراعي أصالة الموقع وتراثه الإسلامي وتكامله. وقد شارك في هذا الاجتماع وفد من وزارة الخارجية الأردنية برئاسة السفير الأردني في باريس، وضمّ دبلوماسيين وخبراء قانونيين من الوزارة، حيث اعتمد المجلس التنفيذي لليونسكو في قراره "المطالب الأردنية الأساسية إزاء موضوع تلة المغاربة"[22]. كما "أقر المجلس بوجود مخاوف عميقة لليونسكو إزاء المخططات والإجراءات الأحادية في موقع تلة باب المغاربة، بما في ذلك تلك المتعلقة بالتصميم الإسرائيلي للجسر في هذا الموقع"[23]، مؤكداً على وجود معوقات أمام وصول الخبراء الأردنيين إلى موقع تلة المغاربة لأخذ القياسات اللازمة الضرورية لتنفيذ

التصميم الأردني، محملاً سلطات الاحتلال الإسرائيلية "المسؤولية الكاملة في إعاقة وصول الخبراء الأردنيين إلى الموقع" للقيام بما يلزم لإخراج التصميم إلى حيز الوجود، مؤكداً في الوقت ذاته على "أن عملية متابعة مركز التراث العالمي لتصميم تلة باب المغاربة ما تزال مستمرة ومفتوحة"[24].

8. رفض المجلس التنفيذي لليونسكو في قراره لأي "إجراءات أحادية الجانب أو غيرها في موقع تلة المغاربة بموجب اتفاقية لاهاي حول حماية التراث الثقافي الإنساني أثناء النزاعات المسلحة، الموقعة سنة 1954 كون أن القدس وضمنها تلة المغاربة أرض محتلة"[25]، ووفقاً "لاتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لعام 1972" التي يستند إليها في التأكيد على "أصالة الموقع وتراثه الإسلامي وتكامله"[26].

9. إعداد المديرية العامة للآثار والتراث الثقافي الفلسطينية لكتاب بعنوان: "قائمة مواقع التراث الثقافي والطبيعي ذات القيمة العالمية المتميزة في فلسطين" الذي قامت منظمة الإيسسكو بترجمته إلى العربية ونشره، داعية الدول العربية إلى الاستئناس به والاستفادة منه في وضع قوائمها التمهيدية الخاصة بمواقع التراث الثقافي والطبيعي ذات القيمة العالمية الاستثنائية، للعمل على تسجيلها في قائمة التراث العالمي الثقافي والطبيعي[27].

10. تخصيص حكومة المملكة المغربية مبلغ 57 مليون درهم أي ما يعادل 6.7 مليون دولار أمريكي للاحتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية لسنة 2009، وتوقيع اتفاق بهذا الشأن بين وزير الاقتصاد والمالية المغربي ومدير وكالة بيت مال القدس الشريف[28].

11. إسقاط اقتراح مركز التراث العالمي لتعديل المبادئ التوجيهية بشأن القوائم التمهيدية (المؤقتة) للدول التي تصب جميعها في مصلحة "إسرائيل" وإن لم تستطع الدول العربية تمرير اقتراحها بسبب رفض الولايات المتحدة و"إسرائيل" وأستراليا الشديد، إذ تمّ تأجيل البت فيه إلى الاجتماع القادم في إسبانيا، وقد أبدت السيدة سفير إسبانيا لدى اليونسكو، رئيس الدورة القادمة للجنة التراث العالمي تفهماً للمقترح العربي، وتجاوباً معه، واستعداداً للتعاون لضمان إسقاط القدس من القائمة التمهيدية (الموقتة) الإسرائيلية[29].

12. التنسيق الكامل بين فلسطين والأردن، العضو في لجنة التراث العالمي، مما كان له أثر كبير في تعديل القرار الصادر عن لجنة التراث العالمي حول القدس، وهو ذو شقين؛ الأول: ويتناول صون الموقع، وهو ما لم يكن مُتَضمَناً في قرار اللجنة لسنة 2007. والثاني: خاص بالحفريات في منحدر باب المغاربة، حيث أُعطي الخبراء الفلسطينيون والأردنيون "مجالاً للإسهام فيما يتخذ من خطوات لصون الموقع، على ألا تتجاوز التدخلات الميدانية الإسرائيلية حال الصون التزاماً بمعاهدة لاهاي 1954 وبروتوكولاتها"[30].

13. إقرار لجنة التراث العالمي المنعقدة في كرايست شيرش – نيوزيلندا في 2007 لمشروع القرار المقدم من مركز التراث العالمي بشأن موقع القدس القديمة وأسوارها، المتضمن التأكيد على الالتزام بمعاهدات جنيف الأربعة لسنة 1949، ومعاهدة لاهاي الخاصة بحماية التراث العالمي الثقافي في حال النزاع المسلح لسنة 1954، واتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لسنة 1972، شريطة أن لا يؤثر كل ما تضمنه القرار "بأية صورة على القرارات ذات الصلة الصادرة عن الأمم المتحدة، وبخاصة تلك الصادرة عن مجلس الأمن بشأن الوضع القانوني للقدس"[31]، باعتبارها المرجعية الدولية للقضية الفلسطينية والنزاع الإسرائيلي – العربي.

14. تركيز اللجنة الملكية لشؤون القدس في الأردن على وجوب أن تحتل القدس مكانة خاصة في مناهج التعليم العام في الأردن، والأقطار العربية كافة، وكذلك في مناهج التعليم العالي. لذا قامت اللجنة بمفاتحة الجهات المعنية في الأردن واتحاد الجامعات العربية لإبراز القدس في المناهج التعليمية المدرسية والجامعية، وإيلائها أهمية خاصة في مجال الرسائل الجامعية (الماجستير والدكتوراه). الأمر الذي لقي تجاوباً جدياً، سواء على صعيد المناهج التعليمية العامة أم على مستوى الجامعات، بتخصيص مساقات إجبارية في بعضها واختيارية في بعضها الآخر حول القدس. كما نجحت اللجنة الملكية لشؤون القدس في حمل مدارس العديد من المدن الأردنية، وبخاصة في العاصمة عمّان، على تشكيل لجان أصدقاء القدس، وتخصيص أسابيع ثقافية وإعلامية ومعارض سنوية حول القدس، وهو ما يتماشى مع الفقرة الأولى من المادة (27) لاتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لسنة 1972.

15. كما تقوم اللجنة الملكية لشؤون القدس بإطلاع الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي على ما يجري في القدس، سواء من خلال البيانات الصحفية التي تتناقلها وكالات الأنباء ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وبخاصة الفضائيات، والتي صدر الجزء الأول منها في كتاب بعنوان "القدس وسياسة أضعف الإيمان" سنة 2004، وسيصدر الجزء الثاني في وقت لاحق، بالإضافة إلى إعداد تقارير وثائقية حول الاعتداءات والانتهاكات الإسرائيلية، وأهمها التقرير حول مقبرة مأمن الله وباب المغاربة وجدار الفصل العنصري.

16. كما تقوم اللجنة الملكية لشؤون القدس بإجراء مقابلات وحوارات صحفية وتلفزيونية محلية وعربية، وتشارك في جميع الندوات والمؤتمرات المحلية ذات الصلة بالقدس وفلسطين؛ مما يسهم في فضح المؤامرات والانتهاكات الإسرائيلية ضدّ القدس وتراثها الثقافي والطبيعي ذي القيمة العالمية الاستثنائية والأخطار التي تتهددها، منسجمة بذلك مع منطوق الفقرة الثانية من المادة (27) لاتفاقية الحماية لسنة 1972.

17. قامت اللجنة الملكية لشؤون القدس بوضع خطة إعلامية متكاملة بشأن القدس، نشرت في مجلة "الرابطة"، الصادرة عن الأمانة العامة لرابطة المؤسسات العربية الخاصة للتعليم العالي، بعنوان: "الحاجة إلى خطة إعلامية للتعريف بالقدس"[32].

رابعاً: الدور الإسلامي في حماية التراث الثقافي للقدس:

يمكن استجلاء الدور الإسلامي في حماية التراث الثقافي للقدس من خلال المنظمات الإسلامية ذات الصلة بالقدس، وهي:

1. منظمات ذات طبيعة سياسية تنظيمية، متمثلة بـ: منظمة المؤتمر الإسلامي ومؤتمرات القمم الإسلامية، والأمانة العامة ممثلة بشخص أمينها العام.

2. منظمات ذات طبيعة مهنية، أي منظمات متخصصة، وأبرزها: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسسكو)، والمؤتمرات العامة، والمجلس التنفيذي.

منذ ولادة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الإيسسكو في سنة 1982، وهي تولي اهتماماً خاصاً بفلسطين والقدس وتراثها الثقافي والطبيعي ذي القيمة العالمية

الاستثنائية، الأمر الذي ظهر جلياً في خطط عملها المتواترة. وقد تجلى هذا الاهتمام الاستثنائي بالقدس بإنشاء وحدة القدس الشريف، في إطار الإدارة العامة قبل 18 عاماً، تنفيذاً لقرار دورة الرباط؛ الدورة الرابعة للمؤتمر العام للمنظمة المنعقدة في الرباط في تشرين الثاني/ نوفمبر 1991[33].

وتنفيذاً لقرارات المنظمة الإسلامية الإيسسكو، ومؤتمراتها العامة، ومجلسها التنفيذي؛ قامت الإدارة العامة بالنشاطات الآتية:

1. الأنشطة الميدانية:

- ترميم مجمع عائلة شاهين.
- إنتاج أفلام وثائقية عن القدس.
- ترميم مركز الجامعة الأثري في خان تنكر وحمام العين في جامعة القدس.
- ترميم وصيانة الوحدة الصحية في مدارس دار الأيتام.
- دعم مؤسسات ومراكز ثقافية بآلات التصوير.
- دعم مكتبة الأنصاري وتزويدها بتجهيزات مكتبية.
- تأهيل مشروع المتحف الإسلامي.
- تقديم الدعم المادي لحفظ التراث الشعبي وتوثيقه.
- دعم دائرة الآثار الفلسطينية برام الله.
- عقد ورش عمل لتكوين أطر متخصصة.
- دعم مادي لترميم مؤسسة إحياء التراث الإسلامي في القدس الشريف.
- دعم مادي للمركز الفلسطيني لتطوير الثقافة والفنون في القدس الشريف.
- دعم مشروع تطوير الآثار والتراث الثقافي في القدس.
- دعم مادي لمركز القدس الثقافي.
- دعم مادي لترميم مؤسسة إحياء التراث الإسلامي.
- دعم مادي لإحياء يوم التراث في جميع المحافظات الفلسطينية.

- دعم مشروع الحفريات الإنقاذية التي قامت بها دائرة الآثار الثقافية.
- تقديم الدعم لترميم مؤسسات ثقافية في القدس الشريف وصيانتها.
- دعم نشر كتاب للفتيان لتعريفهم بمعالم القدس وتاريخها.
- تقديم الدعم المادي والفني لترميم نادي البلدة القديمة في القدس.
- دعم مشروع تطوير مكتبة الآثار والتراث الثقافي في القدس.
- دعم ورشة عمل لتكوين أطر متخصصة في مجال ترميم المخطوطات[34].
- تنفيذ عشرات البرامج والأنشطة التربوية والثقافية والعلمية للمؤسسات الفلسطينية والمقدسية ذات الاختصاص، بما يمكّن أبناء فلسطين وبخاصة في القدس من التصدي للاعتداءات الإسرائيلية اليومية التي تستهدف الإنسان والأرض والهوية[35].

2. الندوات والمؤتمرات:

- عقد ندوة "القدس وتراثها" في إطار الحوار الإسلامي المسيحي في الرباط للفترة من 19-1993/10/21، بهدف تسليط الأضواء على قضية القدس بجميع أبعادها الدينية والتاريخية والحضارية.
- عقد المؤتمر الدولي الأول حول حماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين، المنعقد في الرباط للفترة ما بين 7-2002/6/8.
- عقد المؤتمر الدولي حول توثيق الجرائم الإسرائيلية ضدّ الشعب الفلسطيني المنعقد في الرباط للفترة من 2/27-2003/3/1 بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، والمنظمة العربية لاتحاد المحامين الشباب، والجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني[36].
- عقد يوم إعلامي حول جدار الفصل العنصري وأثره المدمر على المعالم الحضارية والبيئية في فلسطين المنعقد في الرباط بتاريخ 2004/6/26.
- عقد ندوة حول مستقبل المشروع الثقافي الفلسطيني المنعقدة في تموز/ يوليو 2003 في القاهرة، برعاية المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية[37].
- المشاركة في اجتماعات لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة اليونسكو[38].

- عقد المؤتمر الدولي الثاني حول حماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين المنعقد في عمّان بتاريخ تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، والذي صدرت وقائعه بكتاب بعنوان: "حماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين" عن الإيسسكو في سنة 2005[39].

3. الإصدارات والمطبوعات:

- القدس وتراثها الثقافي في إطار الحوار الإسلامي.
- القدس الشريف: دراسة توثيقية، تاريخية وجغرافية للمدينة المقدسة، تأليف د. شوقي شقر.
- ترجمة كتاب: لقد اغتصبتمونا أرضنا: دراسة شاملة حول سياسات الاستيطان الصهيوني في فلسطين في مئة عام، تأليف فكتوريا والتز ويواخيم شيشا (مترجم عن الألمانية).
- سلسلة "القرى الفلسطينية المدمرة": وقد صدرت بالتعاون مع جامعة بير زيت، والتي ستواصل الإدارة العامة للإيسسكو إصدارها بالتعاون مع جامعة القدس، نظراً لإقبال الأوساط العربية والإسلامية المتزايد عليها، واستجابة لطلب اللجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والعلوم والثقافة.
- القدس والخليل في الرحلات المغربية: وهو من تأليف د. عبد الهادي التازي.
- حماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين: وهي بحوث وأوراق عمل المؤتمر الدولي الأول الذي عقدته المنظمة يومي 7-2002/6/8 في الرباط، برعاية الملك محمد الخامس.
- الإيسيسكو في فلسطين: تقرير بعثة الإيسيسكو إلى فلسطين، وذلك للفترة من 20-1996/11/22 للوقوف على حقيقة الأوضاع التعليمية في فلسطين عامة والقدس الشريف خاصة.
- القرارات الخاصة بالقدس الشريف الصادرة عن مؤتمرات القمة الإسلامية[40].

وتجدر الإشارة إلى أن جميع هذه الكتب والدراسات قد صدرت باللغات المعتمدة في عمل المنظمة الإسلامية، وهي: العربية والإنجليزية والفرنسية، وتمّ توزيعها على الدول الأعضاء وجهات الاختصاص فيها[41].

4. الزيارات واللقاءات:

قام المدير العام للمنظمة بزيارة عمل إلى الأراضي الفلسطينية في الفترة ما بين 13-1999/3/15، وقد زار بصفة خاصة مدينة القدس الشريف، ومنها وجه نداءً عاجلاً إلى كافة الدول الأعضاء وأمناء المنظمات الدولية والإقليمية لتقديم العون العاجل للمؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية في فلسطين عامة، والقدس الشريف خاصة[42].

5. البيانات والنداءات:

أصدرت المنظمة عشرات البيانات والنداءات استنكرت فيها الممارسات الإسرائيلية ضدّ الإنسان الفلسطيني، وتوجهت فيها إلى المجتمع الدولي وهيئاته ومنظماته، ودعت فيها إلى مناصرة الشعب الفلسطيني، وفضح الممارسات الإسرائيلية والانتهاكات المتكررة ضدّ مقدساته ومؤسساته ومشروعه التعليمي والتربوي والثقافي، والتي تمسّ يومياً الإنسان وممتلكاته الوطنية[43].

وفي ضوء الزيارات الميدانية التي قام بها خبراء المنظمة الإسلامية، والتي كشفت عن حجم الدمار الذي لحق بالمعالم الأثرية والتراث الثقافي في فلسطين والقدس، وفي ضوء التقارير الدورية وغيرها؛ فقد قررت المنظمة زيادة الموازنة الخاصة لحماية المعالم الأثرية والتراث الفكري في مدينة القدس الشريف، كما ستقوم بتكثيف الجهود والاتصالات مع المنظمات الدولية والإسلامية والعربية والهيئات الخيرية، للحصول على موارد مالية إضافية للإسهام في إعادة بناء ما دمره العدوان الإسرائيلي من معالم وآثار وترميمها، حفاظاً على المعالم المدنية للقدس الشريف، وفي إطار حماية معالمها المقدسية وتراثها الفكري والحضاري.

خامساً: فاعلية الدور العربي والإسلامي في حماية التراث الثقافي للقدس:

إن فاعلية الدور العربي والإسلامي في حماية التراث الثقافي للقدس محكومة بمنظومة من العناصر أبرزها:

1. المبادئ التي يستند إليها الدور العربي الإسلامي في حماية التراث الثقافي للقدس، المتمثلة بأن القدس أرض عربية محتلة شأنها شأن الضفة الغربية ومرتفعات

الجولان السورية، وفقاً للقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة (الشرعية الدولية) التي تنصّ على أنه يتوجب على "إسرائيل" الانسحاب منها، وتمكين الشعب العربي الفلسطيني من حقّه في تقرير مصيره، وإقامة دولته المستقلة ذات السيادة التامة على كامل ترابه الوطني المحتل وعاصمتها القدس.

2. اتفاقيات جنيف الأربعة لسنة 1949.

3. اتفاقية لاهاي لحماية التراث الثقافي في حال النزاع المسلح لسنة 1954.

4. اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لسنة 1972.

5. القدس جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية المحتلة.

6. قرار فكّ الارتباط الإداري والقانوني مع الضفة الغربية والقدس، باستثناء المقدسات الإسلامية في القدس، والذي لا يعني بأي شكل من الإشكال التنازل عنها لـ"إسرائيل" بل للشعب العربي الفلسطيني، حيث تكمن السيادة فيه ولا ينتقص من حقّه قي تقرير مصيره والاحتفاظ بسيادته على الأرض الفلسطينية احتلال "إسرائيل" لها، لا سيّما وأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد له، باعتراف عربي شامل ودولي شبه مطلق.

كما أن الدور العربي والإسلامي في حماية التراث الثقافي والطبيعي للقدس محكوم بمنظومة الأهداف المتوخاة من هذا الدور وأبرزها:

1. إلزام "إسرائيل" بالانسحاب من كافة الأراضي العربية المحتلة والقدس في مقدمتها.

2. إقامة الدولة الفلسطينية على كامل التراب الوطني الفلسطيني وعاصمتها القدس.

لذا ومهما حققت منظمات أو مؤسسات العمل العربي الرسمي ذات الطبيعة السياسية والمتخصصة، التي سبق التطرق إليها آنفاً، من نجاحات على صعيد حماية التراث الثقافي والطبيعي لمدينة القدس، والتي يبدو أنها كانت نسبياً أكثر فعالية من مؤسسات العمل الرسمي الإسلامي المشترك؛ تظلّ على الرغم من كل ذلك ذات أثر ضيق ومحدود يتعامل مع القدس بالقدر الذي تتيحه له سلطات الاحتلال الإسرائيلية، والتي تعمل بكل الوسائل على طمس الهوية الثقافية العربية الإسلامية للقدس من خلال سياسات استيطانية استعمارية إحلالية وتهويدية شاملة لجميع مناحي الحياة

المجتمعية في القدس، وبخاصة على الصعيد الديموغرافي والحضاري والديني والتراث الثقافي والطبيعي. ومهما حققت من نجاحات فإنها تبقى قاصرة عن مواجهة مسلسل السياسات التهويدية والاستيطانية الاستعمارية الإحلالية للضفة الغربية، وبخاصة في القدس، بهدف الحيلولة دون قيام دولة فلسطينية قابلة للحياة والاحتفاظ بالقدس عاصمة موحدة وأبدية لـ"إسرائيل".

وحتى على صعيد حماية التراث الثقافي والطبيعي للقدس، فإن منظمات العمل الرسمي العربي والإسلامي ستبقى تواجه محاولات "إسرائيل" المتكررة لإسقاط القدس من قائمة التراث العالمي، وذلك بالتآمر مع بعض الدول الفاعلة في لجنة التراث العالمي، وأبرزها الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا، والتي تجلت بوضوح بتشكيل لجنة فنية لمعاينة حالة الحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس وأسوارها، بناءً على اقتراح أمريكي لم تعارضه "إسرائيل" على غير عادتها مما يشتم منه رائحة مؤامرة أقطابها الظاهرون أمريكا و"إسرائيل" وأستراليا ورئيس البعثة الذي لم يوافق على اقتراح ضم خبير في الآثار الإسلامية، هو عبد العزيز بشاوش، واستبعاد عالم الآثار "أوليك جرابا"، وهو الوحيد الذي يعدّ متخصصاً في القدس من بين أعضاء اللجنة، الذي رفضت "إسرائيل" السماح له بدخول البلاد. وكان ذلك موضع احتجاج المجموعة العربية، إذ تشير المذكرة الأردنية التي أعدّها ممثل الأردن في لجنة التراث العالمي، د. عبد السميع أبو دية، إلى أن "المجموعة العربية في منظمة اليونسكو احتجت لدى مدير عام المنظمة لأن البعثة لم تضم خبيراً بالآثار الإسلامية، وهو عالم الآثار عبد العزيز بشاوش إلى أعضائها"[44]، لا سيّما أن البعثة كانت تؤدي عملها في القدس وسط أجواء مريبة، بطلبها إجراء تعديلات على البرنامج المعدّ سلفاً ليشمل موضوعين جديدين، هما: أسطح البيوت في القدس القديمة، وبركة حزقيا، وهو الطلب الذي كانت دائرة الأوقاف الإسلامية قد رفضته لأن هذين الموضوعين يعبران عن أفكار إسرائيلية[45].

وكانت الدكتورة ريتا عوض قد لمّحت في كلمة لها عن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة إلى وجود مثل هذه "المؤامرة" قائلة: "ساد شعور عربي له ما يبرره لدى المجموعة العربية في اليونسكو بأن إسرائيل ما وافقت على استقبال هذه البعثة بعد سنوات من رفض قبول بعثات من اليونسكو إلا بوجود ضمانات من المنظمة الدولية بأن يكون تقرير البعثة مواتياً لمطالب إسرائيل ومحققاً لها"، وأشارت بدورها إلى عدم

وجود أي خبير عربي أو مختص بتراث المنطقة ضمن أعضائها. وقد تحول الشك إلى يقين، حسب تأكيد الدكتورة ريتا، التي أضافت في هذا السياق قائلة:

> وقد أصبح شك السفراء العرب في اليونسكو يقيناً بعد لقائهم مع رئيس مركز التراث العالمي في اليونسكو، الذي رأس البعثة وتقديمه بعد امتناع تقريراً شفهياً مختصراً عن نتائج الزيارة، ظهر فيه جلياً أن البعثة لا تذكر أن القدس مدينة محتلة، ولا تحمّل أية مسؤولية للاحتلال عن تردي الأوضاع المعيشية في المدينة بوجوهها جميعاً، بما فيه مواقع التراث الثقافي[46].

والأخطر من كل ذلك هو ما ورد في العبارات التالية: "ولعل أخطر ما صرح به أن القدس لا تستجيب في وضعها الراهن لشروط التسجيل على قائمة التراث العالمي، مما يوحي بخطر إسقاطها عن هذه القائمة!!!"[47].

وتتضح خطورة هذه المؤامرة من نجاح "إسرائيل" في تسجيل ثلاثة مواقع على قائمة التراث العالمي من مجموع 26 موقعاً من جهة، وأن "إسرائيل" كانت قد تقدمت سنة 2000 بطلب لتوسعة موقع مدينة القدس القديمة على قائمة التراث العالمي بهدف إضافة معبد يهودي، في محاولة سافرة منها للتدخل في ملف المدينة، لتعود الآن وتطالب بشطب القدس من لائحة التراث العالمي بعد أن نجح الأردن بتسجيلها على لائحة التراث العالمي سنة 1981، وعلى لائحة التراث العالمي المهدد بالخطر سنة 1982.

خاتمة:

وختاماً فإن استعراض الدور العربي والإسلامي في الحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس تمّ من خلال الوثائق والمراجع التي تمّ الاطلاع عليها، والتي تبين ما استطاعت المنظمات العربية والإسلامية القيام به للحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس في محيط دولي صعب للغاية، ودعم غير محدود للاحتلال الإسرائيلي من الولايات المتحدة الأمريكية الحليف الاستراتيجي لها من جهة، وتواطؤ دول أخرى تماشياً مع الضغوط الأمريكية من جهة أخرى، وفي ظلّ الافتقار إلى إرادة عربية وإسلامية موحدة، وضعف في الإرادة السياسية، ووجود الخلافات العربية – العربية، والإسلامية – الإسلامية، دون وعي وإدراك يتناسبان مع تطلعات الخطر الصهيوني الذي يستهدف كل تاريخنا وثقافتنا وهويتنا عرباً كنا أم مسلمين. يلاحظ أنه يمكن أن يلعب المال العربي دوراً كبيراً

في الحفاظ على التراث الثقافي والتاريخي والحضاري للقدس إلى جانب الإرادة السياسية، ومن المؤسف أن المنظمات العربية والإسلامية كانت تفكر في كثير من الأحيان عند اتخاذ قرارات كيف ستجمع المال أو تطلب توزيعه على الدول بنسب معينة، في الوقت الذي يمكن لرجل أعمال عربي واحد، أو مؤسسة عربية واحدة، أو دولة عربية، أو إسلامية واحدة، ممن أنعم الله عليهم بوفرة المال؛ تغطية كل احتياجات هذه المنظمات العربية والإسلامية لتعمل بكامل راحتها وطاقاتها وتنفق بسخاء لكل ما يحتاجه حفظ التراث الثقافي لمدينة القدس.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا، متى سيتنبه أغنياؤنا من العرب والمسلمين إلى أن الإنفاق على القدس بكل ما تحتاجه هو دفاع عن الأمة كلها عربية وإسلامية، ودفاع عن تاريخها وحضارتها وهويتها، ودفاع عن أقطارها ونظمها المجتمعية وبخاصة السياسية.

وجدير بالذكر أيضاً أن الإرادة العربية والإسلامية وتوحيد كلمتها وجمع صفها، يحتاج إلى توظيف كل سياسات دولها الخارجية والداخلية من أجل القدس وفلسطين، لتفرض احترامها على العالم من جهة، وليحسب الآخرون حساب مصالحهم معنا إذا ما وقفوا ضدّنا، ضدّ الحقّ والعدل والمساواة، ضدّ الشرعية الدولية وتنفيذ قراراتها من جهة أخرى. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.

والله ولي التوفيق

هوامش المبحث الأول

[1] مقتطفات من قرارات الشرعية الدولية (هيئة الأمم المتحدة: الجمعية العامة ومجلس الأمن)؛ لمزيد من التفاصيل راجع: محمود عواد، **القدس في قرارات الامم المتحدة منذ عام 1947-1994** (عمّان: منشورات اللجنة الملكية، 1995)، ج1؛ وفاروق الشناق وآخرون، **القدس في قرارات الأمم المتحدة من 1995-2008**، (عمّان: 2009)؛ وفاروق الشناق، **القدس في الشرعية الإسلامية** (عمّان: منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس)، ص 28 وما يليها.

[2] قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة رقم 194 في 1948/12/11، انظر:
UN General Assembly (GA), 3rd session, 11/12/1948, UN Doc A/RES/194, in: http://unispal.un.org/UNISPAL.NSF/0/C758572B78D1CD0085256BCF0077E51A

[3] تقرير طارق الأشقر، موقع الجزيرة.نت، 2009/6/17، انظر: www.aljazeera.net

[4] نظمي الجعبة، وسعاد العامري، **سجل رواق للمباني التاريخية في فلسطين**، سلسلة رواق في تاريخ العمارة في فلسطين (9) (رام الله: مركز المعمار الشعبي (رواق)، 2006)؛ ووثيقة مهمة للحفاظ على التراث الثقافي، الكاتب يوسف الشايب، جريدة **الأيام**، فلسطين، 2009/6/17.

[5] وثيقة مقدمة من المدير العام إلى المجلس التنفيذي بشأن القدس والأوضاع التربوية والثقافية في فلسطين رقم م ت/د/87/و9 في 2007/11/7.

[6] المرجع نفسه.

[7] المرجع نفسه.

[8] رؤية القدس عاصمة الثقافة العربية 2009.

[9] المرجع نفسه.

[10] المرجع نفسه.

[11] المرجع نفسه.

[12] لمزيد من التفاصيل راجع: فاروق الشناق، **القدس في السياسة الأردنية** (عمّان: منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، 2008).

[13] وثيقة مقدمة من المدير العام إلى المجلس التنفيذي بشأن القدس والأوضاع التربوية والثقافية في فلسطين رقم م ت/د87/و9.

[14] لمزيد من التفاصيل راجع: فاروق الشناق، **القدس في الشرعية الإسلامية**.

[15] وثيقة مقدمة من المدير العام إلى المجلس التنفيذي بشأن القدس والأوضاع التربوية والثقافية في فلسطين رقم م ت/د/87/و9 ووثيقة رقم: م ت/د88/و10 في 28/4-2008/5/2.

[16] المرجع نفسه.

[17] المرجع نفسه.

[18] وثيقة مقدمة من المدير العام إلى المجلس التنفيذي بشأن القدس والأوضاع التربوية والثقافية في فلسطين رقم م ت/د88/و10.

[19] وثيقة مقدمة من المدير العام إلى المجلس التنفيذي بشأن القدس والأوضاع التربوية والثقافية في فلسطين رقم م ت/د88/و10.

[20] المرجع نفسه.

[21] المرجع نفسه.

[22] اليونسكو تقر المشروع الأردني لتصميم جسر تلة باب المغاربة في القدس، مؤسسة القدس الدولية، 2009/5/3، انظر: http://www.alquds-online.org

[23] المرجع نفسه.

[24] المرجع نفسه.

[25] المرجع نفسه.
[26] المرجع نفسه.
[27] "التقرير النهائي والقرارات والتوصيات،" مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، الدورة الخامسة عشرة، مسقط، عمّان، 8-2006/11/9.
[28] وثيقة رقم م ت/د90/و9 مقدمة من المدير العام بشأن القدس: الأخطار المحدقة بالتراث في القدس وغزة، والأوضاع التربوية والثقافية والعلمية في فلسطين.
[29] وثيقة مقدمة من المدير العام إلى المجلس التنفيذي بشأن القدس والأوضاع التربوية والثقافية في فلسطين رقم م ت/د88/و10.
[30] المرجع نفسه.
[31] المرجع نفسه.
[32] عبد الله كنعان، "الحاجة إلى خطة إعلامية للتعريف بالقدس،" مجلة **الرابطة**، الأمانة العامة لرابطة المؤسسات العربية الخاصة للتعليم العالي، المجلد 6، العدد 1، كانون الثاني/ يناير 2006، ص 101-128.
[33] قارن: محمد الغماري، "جهود الإيسيسكو في مجال حماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين،" **حماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين (وقائع المؤتمر الدولي الثاني)** (عمّان: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، 2005)، ص 211.
[34] **المرجع نفسه**، ص 211 وما بعدها.
[35] **المرجع نفسه**.
[36] **المرجع نفسه**، ص 214.
[37] **المرجع نفسه**، ص 215.
[38] **المرجع نفسه**.
[39] **المرجع نفسه**.
[40] **المرجع نفسه**، ص 216 وما بعدها.
[41] **المرجع نفسه**، ص 217 وما بعدها.
[42] **المرجع نفسه**، ص 218.
[43] **المرجع نفسه**، ص 218 وما بعدها.
[44] خبار الآداب "الأخدود العظيم" محاولة إسرائيلية "لاختراق إفريقيا" 2004/4/25.
[45] المرجع نفسه.
[46] المرجع نفسه.
[47] المرجع نفسه.

المبحث الثاني
دور العلماء والأكاديميين في الحفاظ على التراث الثقافي للقدس

د. عبد الجبار سعيد

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم، على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن الله عز وجل بارك في المسجد الأقصى وما حوله، وهذا يشمل فلسطين والشام ومصر على أقوال كثير من العلماء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء: آية 1). فالقدس الشريف درة فلسطين المباركة، ودرة القدس المسجد الأقصى المبارك، أعاده الله إلى رحاب الإسلام وحوزة المسلمين، والقدس مكان معراج النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء، وقدسيتها ممتدة عبر التاريخ الإنساني، حيث بُني المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام بأربعين عاماً، كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه[1].

ومما لا شكّ فيه، أن هذه القداسة التاريخية جعلت القدس محلّ استهداف من قبل الحضارات الإنسانية المتعاقبة، ومهوى أفئدة الأنبياء وأتباعهم منذ زمن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وخاتمهم جميعاً سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي صلى بهم إماماً في رحلة الإسراء والمعراج، الأمر الذي يؤكد بالنسبة لنا أحقيتنا في السيادة على القدس.

والسؤال الذي يجب أن نتوقف أمامه اليوم، ما هو الدور المأمول لكل من العلماء والأكاديميين في الحفاظ على تراث هذه المدينة المقدسة، والحفاظ على قدسيتها وإسلاميتها وعروبتها من حيث النتيجة؟ والأمر هنا لا يتناول علماء الشريعة وحدهم، وإنما يمتد ليشمل علماء التخصصات ذات العلاقة بهذا التراث الإنساني الإسلامي

العربي المقدس، بالإضافة إلى الأكاديميين والباحثين في شتى العلوم ذات العلاقة. وهذا المأمول هو ما سنحاول الوقوف على طبيعته ومضامينه في هذه الورقة.

أولاً: التراث الثقافي لمدينة القدس:

تؤكد كلّ الشواهد أنّ المسيرة العلمية والثقافية في مدينة القدس بدأت تتميز منذ الفتح الإسلامي لها، واستمرت حتى يومنا هذا، ولكن تدلّ المؤشرات الكثيرة على أنّ هذه المسيرة لم تمضِ على وتيرة واحدة من الازدهار والرقي والنضوج الفكري والثقافي، بل تعرّضت إلى هزات عنيفة ارتبطت بالأجواء السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي مرّت بها مدينة القدس في حقب تاريخها الطويل. ومن أبرز معالم هذا التراث الثقافي:

1. العمارة الإسلامية في المسجد الأقصى بكل مكوناته، وفي الأحياء المحيطة به: وما تزال هذه العمارة بطابعها الإسلامي شاهداً على جذرية هذا التراث العربي الإسلامي في مدينة القدس.

2. المدارس: إنّ أكثر المباني الإسلامية في القدس هي المدارس التعليمية. فمثلاً، يذكر أوليا جلبي أنّ عدد المدارس والزوايا في القدس خلال القرن 11 هجري كان 630 مدرسة.

3. المكتبات: لقد أنشئت المكتبات في بيت المقدس، منذ بداية الفتح الإسلامي لها، وتعدّ مكتبات المساجد والجوامع من أولى تلك المكتبات التي انتشرت في بيت المقدس، وقد ضمت بين جنبتاها الكثير من المؤلفات والمسانيد والجوامع، ثم أصبحت تنتشر هذه المكتبات عبر المدارس والزوايا العلمية والصوفية عبر التاريخ الإسلامي. كما نشأت مكتبات العائلات الخاصة، والمكتبات الشخصية في بيت المقدس.

4. المخطوطات: لقد حفلت المكتبات في بيت المقدس عبر التاريخ بكم وافر من المخطوطات، في مختلف الموضوعات، وقد ضمّت المكتبات المقدسية بين جنباتها آلاف المخطوطات، فمكتبة المسجد الأقصى تحوي 434 مخطوطاً؛ منها 85 مخطوطاً في علوم القرآن، و76 مخطوطاً في الفقه الإسلامي، و50 مخطوطاً في اللغة العربية، و49 مخطوطاً في علوم الحديث.

ثانياً: المخاطر التي يتعرض لها التراث الثقافي المقدسي:

ثمة العديد من المخاطر التي يتعرض لها التراث الثقافي في القدس، أما أبرزها فيتلخص فيما يلي:

1. ما يتعرض له المسجد الأقصى بكل مكوناته، بما فيها حائط البراق، والمسجد القبلي، وقبة الصخرة المشرفة، وتتعدد صور هذه المخاطر بتعدد الأطماع التي تسيطر على عقلية الاحتلال، الساعية لتدمير كل أثر للتراث الإسلامي، وطبعه بالطابع اليهودي الصهيوني.
2. الحفريات الأثرية في القدس: بدأت تلك الحفريات منذ عهود مبكرة في النصف الثاني من القرن 19.
3. الاعتداء على المعاني والمقامات الروحية والرمزية للمدينة المقدسة وتراثها الثقافي: بما في ذلك القيام بأعمال المصادرة والتشويه وتغيير الأسماء وغيرها.
4. مصادرة الأبنية والعقارات العربية والإسلامية.
5. محاصرة المؤسسات الثقافية ومنعها من أداء مهامها: بما في ذلك الجامعات والمعاهد العربية والإسلامية مثل المعهد العربي، وجامعة العلوم والتكنولوجيا في أبو ديس، وبيت الشرق وغيرها، بالإضافة إلى محاصرة القدس ومنع المثقفين من الوصول إليها، بل وإبعادهم عنها، ومنع كل ما من شأنه أن يربط القدس بهويتها العربية والإسلامية، كما حصل عندما منعت سلطات الاحتلال أبناء القدس من إطلاق احتفالات الإعلان عن القدس عاصمة للثقافة العربية. وقد امتد هذا العدوان ليصل إلى المكتبات ودور الثقافة، حيث قامت سلطات الاحتلال بمصادرة العديد من المكتبات ومحتوياتها، وعملت على إتلاف الكتب والمخطوطات، ومن ذلك أنها استولت سنة 1967على مكتبة متحف الآثار الفلسطيني[2].

ثالثاً: دور العلماء والأكاديميين في الحفاظ على التراث الثقافي لمدينة القدس:

إن الدور المنوط بالعلماء والأكاديميين دور استراتيجي ومحوري في إطار الحفاظ على بيت المقدس وتراثها، ونود أن نؤكد في هذا المقام على أن الدور المطلوب في مجمله إحياء هذا التراث المقدسي وليس مجرد الحفاظ عليه، فعملية إحياء التراث ذات مفاعيل أشمل وأوسع وأرسخ في تثبيت هوية القدس من جهة، ومواجهة المشروع الصهيوني من جهة أخرى. مع العلم أننا من حيث المبدأ لسنا من أنصار تقديس التراث ولا من أنصار إخراجه من إطار الجهد البشري، القابل للصواب والخطأ، هذا من جهة الموقف الفكري منه قبولاً أو ردّاً، وإنما ندعو لإعادة إنتاج هذا التراث المقدسي بصورة مبصرة واعية، تقبل وترفض في ضوء معيار التوافق والانسجام مع معتقد الأمة وشريعتها ومبادئها وثوابتها. ولسنا مع أن يدفعنا حرصنا على هذا التراث المقدسي إلى أن نخرج التراث بقضّه وقضيضه كما هو، بل إن عملية الإحياء التي ندعو لها، تدعو إلى ترتيب سلم الأولويات حسب الأهمية والمنفعة المأمولة مما يعاد إنتاجه، وتدعو إلى تحديد الموقف من المضمون الثقافي والفكري من هذا التراث، ليوضع في دائرة القبول والاستحسان، أو دائرة النقد والتعديل، وربما الرفض وعدم بث الروح فيه من جديد، أو إعادة الإنتاج مرفقة بموقف فكري واضح جلي من مضمون ما يعاد إنتاجه. ونحن نعتقد أن هذه الرؤية هي التي ينبغي أن تكون حاكمة ومرافقة لجهود إحياء هذا التراث التي نتحدث عنها تالياً:

1. إعداد الدراسات الشرعية والفتاوى التي تحفظ التراث الثقافي وتعمل على إحيائه: ونحن نعتقد أن هذه القضية مسألة في غاية الأهمية، بل إن تحديد الموقف الشرعي منها ومن جزئياتها لا يقل شأناً عن تحديد الموقف الشرعي من تدويل القدس أو التنازل عنها أو عن جزء منها، أو بيع الأراضي والمنازل أو غير ذلك، ويدعونا إلى تبني هذا الموقف ثلاثة مبررات:

الأول: إدراك أثر الحفاظ على التراث في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية لبيت المقدس.

الثاني: إدراك أن الدافع الديني هو الحاضر أو المستحضر وراء المواقف الصهيونية الساعية إلى طمس الهوية التراثية لبيت المقدس، وحرفها باتجاه يخدم الاحتلال.

الثالث: إدراك أن جزءاً كبيراً من هذا التراث ذو طابع شرعي، يتعلق بالقرآن أو السنة أو غيرهما من الدراسات الشرعية، كما تبين لنا في محتويات مكتبة المسجد الأقصى نموذجاً، وكذا الحجارة والآثار التي يشكل المسجد الأقصى بكل محتوياته جزءاً لا يتجزأ منها.

وضمن هذه المهمة ثمة أسئلة شرعية تطرح أمام العلماء لا بدّ أن يحددوا موقفهم الشرعي منها بوضوح، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ما الموقف الشرعي من بيع التراث المقدسي لأية جهة من الجهات، أياً كان هذا التراث: كتاباً أو مخطوطاً أو أثراً مادياً أو نحو ذلك؟
- وما الموقف الشرعي من الأشخاص والجهات الذين يتعاونون مع الأشخاص والجهات التي تسعى للحصول على هذا التراث والسيطرة عليه، ومن ثمّ إخفاؤه أو تدميره أو تزويره؟
- وهل تندرج عملية إحياء هذا التراث ضمن الأعمال المشروعة التي تستحق دعماً مالياً ينفق عليها من أموال الزكاة، أو الجهاد أو نحو ذلك؟
- وأين تقع عملية الإحياء هذه في سلم الأولويات الشرعية ضمن مشروع مواجهة الاحتلال واستهدافه لفلسطين عموماً وبيت المقدس خصوصاً؟

ويضاف إلى مهمة الفتوى إعداد البحوث والدراسات وتحقيق المخطوطات والكتب ونشرها ونحو ذلك، وأحب أن أشير هنا إلى اهتمام هيئة علماء فلسطين في الخارج بهذا الأمر ضمن أهدافها وخططها ولجانها، ونحن لدينا لجنتي الفتوى التي تتشكل من خيرة علماء فلسطين في الخارج، ولجنة البحوث والدراسات التي تضمّ عدداً من الباحثين المتميزين، وكلتا اللجنتين مطلقة الصلاحية بل وتضعان ضمن خططهما التواصل مع أبناء الأمة لتحقيق هذا الغرض.

2. إعداد الدراسات العلمية الأكاديمية حول التراث الثقافي المقدسي: ومن الموضوعية أن نشير هنا إلى أن اهتمامنا ببيت المقدس وبأكناف بيت المقدس، ما يزال في كثير من الحالات ذا طابع عاطفي مشاعري، وهذا بحدّ ذاته أمر جيد ومقبول، ولكنه ليس كافياً في معركة الحفاظ على التراث المقدسي وإحيائه. ولذلك، فإن الباحثين والأكاديميين، ومؤسسات البحث العلمي، ومراكز الدراسات، مدعوة اليوم أكثر من أي

وقت مضى إلى بذل المزيد من الجهد، لتبني وإعداد الدراسات المقدسية التي تسهم في تثبيت الهوية العربية الإسلامية للقدس، وتعمل على إحياء التراث المقدسي، سواء كانت هذه الدراسات تاريخية أو أنثروبولوجية أو حضارية أو ثقافية فكرية، وغير ذلك. ولعل من أنجع السبل في سبيل تحقيق هذه المهمة أن يتولى جزء كبير من طلبة الدراسات العليا في العالم العربي والإسلامي هذا الأمر، وهذا يتطلب تسهيل مهمتهم من قبل الأقسام الأكاديمية والجامعات كما سنشير إليه لاحقاً.

3. **تحقيق المخطوطات والكتب وإحياؤها:** ولا يخفى ما لهذه العملية من أثر في إعادة إحياء التراث في بيت المقدس، ذلك أن عملية التحقيق هذه هي بمثابة بثّ الروح في الجسد من جديد فهي من جهة تحافظ على الكتاب والمخطوط وتعيده إلى دائرة الضوء والاهتمام. وهي من جهة أخرى تبث الحياة في المضمون العلمي والثقافي للكتاب أو المخطوط، ولا شكّ بأن هذه العملية تحتاج إلى دعم واهتمام غير عاديين حتى تؤتي ثمارها، خاصة من قبل مؤسسات النشر والجامعات، وغيرها من المؤسسات البحثية العملية، ضمن جهود متضافرة منسقة بين كل الأطراف المعنية.

4. **إحياء دور المكتبات:** لقد كان للمكتبات دور كبير عبر التاريخ في عملية الحفاظ على الهوية الثقافية، فهي خزانة الثقافة والحضارة والأدب، ولطالما شكل وجود المكتبات معلماً حضارياً للأمم والشعوب، ولذلك كان من غير المستغرب أن تتعرض المكتبات المقدسية لما تعرضت له من قبل الاحتلال الصهيوني. وعليه، فإن إحياء دور المكتبات يسهم إسهاماً فعالاً في مواجهة المشروع الصهيوني من جهة، ويمثل رافعة مهمة في الحفاظ على التراث المقدسي وإعادة إحيائه من جهة أخرى، وليس المطلوب هنا أن تدعم المكتبات لتحافظ على قدرتها على البقاء فقط، بل نتجاوز ذلك إلى تهيئتها لتصبح في متناول الباحثين وطلبة العلم، قراءة وبحثاً وارتياداً، بل ودوراً للنشر وتبني الدراسات والباحثين في القضايا المقدسية. ولعل من أفضل الجهود المطلوبة في هذا الزمان وضع تلك المكتبات على خريطة التكنولوجيا والشبكة العنكبوتية لإتاحة الفرصة أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين في العالمين العربي والإسلامي على وجه الخصوص للاطلاع عليها والاستفادة منها.

5. **دعم المثقفين والعلماء المقدسيين والمؤسسات الثقافية والعلمية المقدسية:** فإذا اتفقنا أن هذه المؤسسات هي محضن المشروع الثقافي وإحياء التراث جزء منه، فإن دعم هذه المؤسسات والحفاظ على وجودها، بل وإيجاد المزيد منها، يسهم إسهاماً

فعالاً في الحفاظ على التراث وإعادة إحيائه، سواء كانت هذه المؤسسات جامعات أم مراكز دراسات وبحوث أم مدارس. ولا يخفى على أحد ما كان لهذه المدارس من دور في جعل القدس محطة إشعاع حضاري وعلمي على مستوى الدولة الإسلامية، بل وعلى مستوى العالم عبر التاريخ الإسلامي في بيت المقدس، بل إن هذه المدارس كانت صاحبة الأثر الكبير في مواجهة الاحتلال الصليبي وإعادة بيت المقدس إلى رحاب الإسلام عبر الفتح الصلاحي[3]، كالمدرسة الغزالية مثلاً وغيرها.

ولعل أوجه دعم هذه المؤسسات متعددة، يهمنا منها بالإضافة إلى الجانب المادي، الدعم العلمي والأكاديمي والثقافي من المؤسسات المناظرة والمماثلة في العالمين العربي والإسلامي، عبر تبادل زيارات الوفود وتبادل الخبرات ما أمكن، وعبر المؤاخاة بين المؤسسات المتناظرة في بيت المقدس والخارج العربي والإسلامي بل والعالمي. وعبر تعميم التواصل المعرفي والثقافي بين أصحاب التخصصات الواحدة أيضاً، ويمكن إنشاء هذه المجموعات المتخصصة وتحقيق هذا الدعم عبر الإنترنت.

6. تبني البرامج الدراسية المتخصصة في بيت المقدس والتراث الثقافي المقدسي وتخريج الباحثين المتخصصين في الدراسات المقدسية: ولا يخفى أن هذه المهمة تتوجه نحو الجامعات الفلسطينية والعربية والإسلامية، وقد سبق لاتحاد الجامعات العربية أن تبنى توصية بإدراج مقرر دراسي حول القدس ضمن مساقات التدريس في الجامعات العربية، ولكن هذا لا يعدّ كافياً، فضلاً عن أن حجم الالتزام به ما زال قليلاً. إن المطلوب اليوم تبني خطط وبرامج دراسية متكاملة حول القضية الفلسطينية عموماً، وحول بيت المقدس خصوصاً، سواء في الجانب السياسي أم القانوني أم التراثي أم الديموغرافي أم الاجتماعي وغير ذلك من الجوانب الكثيرة، ونحن ندرك أن تبني هذه البرامج قد لا يكون مشجعاً كثيراً للجامعات والطلبة والأساتذة والمفكرين بادئ الأمر، بحكم العوامل السياسية والاقتصادية، ولكن الأمر يستحق منا المحاولة والدعم، وذلك بالتواصل مع منظمة المؤتمر الإسلامي، والاتحاد العام للجامعات العربية، والاتحاد العام للجامعات الإسلامية، وأكبر قدر ممكن من الجامعات نفسها. وحتى يتمّ تسهيل طرح المشروع والدعوة إليه، فإننا مدعوون لبلورة مشروع خطة دراسية أكاديمية متكاملة لتخصصي الدراسات الفلسطينية، والدراسات المقدسية، وعرضها على الجهات المعنية لعلها تجد قبولاً.

7. متابعة المعارك القانونية والثقافية في المحافل الدولية: وتكمن أهمية ذلك في الحفاظ على التراث المقدسي، ومنع العدوان الصهيوني عليه، ويجب أن نقر بأن أداءنا في العالم العربي والإسلامي في هذه المسألة في غاية الهامشية وقلّة الأثر، وأن إدراكنا لأثر هذا الجانب على الاحتلال الصهيوني ما زال محدوداً بقدر كبير، وما فجّره العدوان الغاشم على غزة في المعركة القانونية ومدى أثرها على الجانب الصهيوني، ومدى تأخر اهتمامنا بها، لهو خير مؤشر على أهمية هذا الموضوع وضرورة متابعته أمام المحافل القانونية الدولية عموماً، والثقافية منها على وجه الخصوص، مثل اليونسكو وغيرها. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أن هناك العديد من القرارات المهمة التي صدرت حول القدس والعدوان الصهيوني عليها، ولم تلقَ الاهتمام والمتابعة الكافيين، لتعرية موقف الاحتلال المخالف والرافض لتطبيق هذه القرارات والعمل على إلزامه بمقتضاها. وأكدت تلك القرارات على "اعتبار القدس الشرقية بأنها تحت الاحتلال، وعدم جواز احتلال أراضي بالقوة، وبطلان ضمّ القدس لإسرائيل، وتحذير إسرائيل من إجراء أي تغيير في معالم المدينة المقدسة، سياسياً أو قانونياً أو جغرافياً أو سكانياً". كما أشارت بعض القرارات إلى "اعتبار الإجراءات التي نفذتها إسرائيل في القدس الشرقية بأنها أعمال عدوانية"[4].

وكذلك قرارات اليونسكو في الحفاظ على الممتلكات الثقافية خصوصاً في القدس القديمة، والمحافظة على جميع المواقع أو المباني وغيرها من الممتلكات في المدينة القديمة. والامتناع عن أي عملية من عمليات الحفريات، أو أي عملية لنقل هذه الممتلكات أو تغيير معالمها أو ميزاتها الثقافية، وأدانت في قرارها بتاريخ 1990/1/20 "استمرار إسرائيل في تغيير الطبيعة التاريخية للمدينة"[5].

8. استخدام وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في حملات التوعية والتعبئة المتعلقة بالتراث الثقافي للقدس: ويتوجب علينا نقل التراث المقدسي بأساليب سهلة ومؤثرة للإنسان العادي بحيث يظلّ على تواصل دائم بالقدس وتراثها. وينطبق على ذلك المقالات والأخبار والأعمدة الثابتة في الصحف، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، والأفلام الوثائقية، ومواقع الإنترنت. كما ينطبق على منابر المساجد والكنائس، والمسارح... وغيرها.

خاتمة:

وهكذا فقد تبين لنا أن التراث الثقافي لمدينة القدس، تراث في غاية الثراء والأهمية، وهو ركن ركين في معركة الحفاظ على هوية القدس العربية الإسلامية، وهذا التراث الذي يتعرض في ظلّ الاحتلال الصهيوني لأشرس حملات الطمس والتشويه، يستحق منا جميعاً جهداً مميزاً وخاصاً، للحفاظ عليه وإعادة إحيائه. وإن كان للعلماء والأكاديميين الدور الأبرز الذي ينبغي أن يقوموا به في هذا الاتجاه، إلا أن الجهد المطلوب جهد جماعي مؤسساتي، يجب أن تتضافر فيه الجهود الرسمية والشعبية العربية والإسلامية، سواء كان هذا الجهد فكرياً أم علمياً أم مالياً أم فنياً، أو غير ذلك من العمليات المطلوبة ضمن جهود الحفاظ على التراث وإعادة إحيائه. ونرجو أن تعدّ هذه الورقة بمثابة الدعوة لكل صاحب جهد أن يسهم بجهده في هذا الميدان الثري والخصب ضمن ميادين المواجهة مع المشروع الصهيوني.

والله ولي التوفيق.

هوامش المبحث الثاني

[1] صحيح البخاري، رقم 3115، 3172، وصحيح مسلم، رقم 808، 809، انظر: **الموسوعة الشاملة**، الإصدار الثاني.

[2] http://alyaseer.net/vb/showthread.php?t=4376

[3] ينظر في هذا الباب: ماجد عرسان الكيلاني، **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، الطبعة المنقحة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

[4] زيدان كفافي وآخرون، **القدس عبر العصور**، طبعة تجريبية، جامعة اليرموك، ص 378-379.

[5] **المرجع نفسه**، ص 379.

المبحث الثالث
دور مؤسسات المجتمع المدني
في حماية التراث الحضاري والثقافي للقدس
(مؤسسة القدس الدولية نموذجاً)

د. محمد أكرم العدلوني

مقدمة:

مدينة القدس مدينة عريقة تأسست سنة 3000ق.م على يد اليبوسيين، وهي مهد الديانات السماوية، وجزء مهم جداً من التاريخ الإنساني، وما تتعرض له القدس اليوم في هويتها ومقدساتها الإسلامية والمسيحية، هو في الحقيقة اعتداءٌ على الإرثِ التاريخي للحضارة الإنسانية.

وفي ظلّ الواقع الصعب الذي تعيشه القدس فإن ثمة حاجة إلى سياسة تثبيت تقوم على:

1. دعم السكان المقدسيين ليتمكنوا من البقاء والعيش في المدينة، ومواجهة سياسات التهجير والتضييق، مع الحفاظ على نسبة زيادتهم التي ستجعلهم مع حلول سنة 2020 يُشكّلون 40% من مجموع سكان مدينة القدس.
2. الحفاظ على الهوية الدينية والثقافية للمدينة من خلال حماية المقدسات وصيانتها، وحماية العقارات والأملاك المقدسية، خاصة في البلدة القديمة ومحيطها.

وتقوم المؤسسات المقدسية المهتمة اليوم بالتراث الحضاري والثقافي للقدس، بالعمل في مجالات محاربة من الاحتلال، أهمها: إحياء النشاطات الثقافية، والتواصل مع الفلسطينيين في الخارج، ومحاولة نقل التراث والتقاليد المقدسية، واستقدام الدعم للمشاريع ذات الصلة بالتراث. وعلى الرغم من محدودية حركتها فإن هذه المؤسسات تمثل اليوم رئة القدس وضمير أهلها، والجهة الفاعلة الأبرز على الساحة الفلسطينيّة، بعد انحسار دور السلطة الفلسطينيّة، والدور الأردني أيضاً، وحصره بدفع رواتب موظّفي الأوقاف، وتمويل مشاريع الإعمار الصغيرة في المسجد الأقصى.

وعلى الرغم من ذلك ثمة مؤسسات عاملة بجد لحماية الهوية الثقافية والحضارية للقدس، في عدة مجالات، أهمها:

1. حماية المسجد الأقصى.
2. المؤسسات الثقافية والفنية.
3. مراكز الدراسات.
4. المسرح (باعتباره أحد أوجه التعبير عن الهوية الثقافية).
5. المكتبات الثقافية.

أولاً: واقع المؤسسات المقدسية العاملة في المجال الثقافي ودورها:

1. واقع المؤسسات المدنية في القدس عموماً:

المجتمع المقدسي غني بالجمعيات والمؤسسات الأهلية حيث يبلغ عددها حوالي 154 جمعية ومؤسسة، تقدم خدمات لحوالي 255 ألف مقدسي يسكنون داخل الحدود البلدية، أي أن هناك جمعية لكل 1,700 مواطن مقدسي. لكن ليست كل هذه الجمعيات نشطة، فبعضها نشط جدا ويقوم بدور حيوي وأساسي في القدس، وبعضها ينفذ أجندات خارجية يمليها الممولون، وبعضها وهمية لا هدف لها سوى الحصول على التمويل. وتنشط المؤسسات والجمعيات الأهلية المقدسية بشكل رئيس في مجالات التعليم والثقافة والصحة وخدمة المجتمع، وبدرجة أقل في مجال الإسكان والترميم والحفاظ على الهوية.

ولأن هذه الجمعيات هي الجهة الأقدر على الفعل والتحرك داخل المدينة، ولأنها تنشط وحيدة تقريبا، ولأنها تعتمد بشكل كامل على المنح الخارجية وترتبط بها، فإن من يمسك بتمويلها ومصادر دعمها يكون الأقدر على توجيه سياساتها، وبالتالي توجيه السياسات واتجاهات النمو والتطور في الأحياء الفلسطينية في القدس. وهي حقيقة تدركها تقريبا جميع الأطراف الفاعلة في القدس، وإن كان العرب والمسلمون هم آخر من أدرك هذا الواقع، وبدأ يعمل وفق شروطه[1].

وتنقسم الجهات الممولة للجمعيات والمؤسسات الأهلية العاملة في القدس إلى أربع جهات رئيسية، وهي:

أ. **الاتحاد الأوروبي وكندا:** يعد الاتحاد الأوروبي المانح الأكبر في القدس، وتنشط كل من إيطاليا وإسبانيا واليونان في هذا المجال بشكل خاص، حيث تحتوي قنصلية كل من هذه الدول في القدس مكتباً خاصاً لمتابعة تمويل المشروعات والاتصال بالجمعيات والمؤسسات المقدسية. ويتركز تمويل الاتحاد الأوروبي على المشاريع المتعلقة بالرعاية الاجتماعية كتحسين وضع المرأة ورعاية الشباب والمراهقين، ومشاريع المساعدة النفسية، ومشاريع التوعية السياسية والمدنية، والمشاريع الثقافية، ومشاريع الدعم القانوني. ويرفض الاتحاد الأوروبي تمويل أي مشروع من شأنه المحافظة على هوية القدس وإرثها الحضاري، ومن هذا المنطلق رفض الاتحاد الأوروبي تبني أي مشروع من مشروعات احتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية على الرغم من أنها تدخل في المجالات التي يمولها عادة، وقد تحدث مسؤول المنحة الإيطالية في القدس عن هذه السياسة صراحة، حين سأل وفداً من الفعاليات المقدسية عن سبب إصرارهم على تعريب القدس، قائلاً: "لماذا تصرون على إلباس القدس طاقية عربية؟".

ب. **الولايات المتحدة الأمريكية:** تعد الولايات المتحدة أحد أهم المانحين في مدينة القدس، وإن كان حجم تمويلها للمشاريع أصغر من حجم التمويل الذي يقدمه الاتحاد الأوروبي، ويتركز التمويل الأمريكي على مشاريع الرعاية والمساعدة الاجتماعية البحتة، كرعاية المكفوفين وذوي الاحتياجات الخاصة أو مراكز صعوبات التعلم.

ج. **الجهات العربية والإسلامية:** ويُعدّ وجود هذه الجهات في القدس ضعيفاً حتى اليوم، ولا تبرز في هذا المجال سوى ثلاث جهات رئيسية، هي:

- **بنك التنمية الإسلامي:** ويدير هذا البنك أموال صندوق القدس الذي أقرّته قمة بيروت العربية سنة 2002، ويبلغ حجمه 50 مليون دولار أمريكي، ويُركز البنك جلّ اهتمامه على البلدة القديمة في القدس، وقد تبنى مشروعاً لإعادة إعمار وترميم البلدة القديمة بكاملها بكلفة تقريبية بلغت 15 مليون دولار، وذلك بالشراكة مع مؤسستي الرفاه والتعاون، اللتين أنجزتا مسحاً هندسياً

كاملاً للبلدة القديمة، قسّمت على أساسه البلدة إلى قطاعات، وجزّئت مشروع الإعمار إلى خمس مراحل رئيسية، واليوم وصل هذا المشروع إلى بداية المرحلة الثالثة، وبلغت قيمة ما أنجز من أعمال حوالي 10 ملايين دولار أمريكي.

- **وكالة بيت مال القدس:** وتتبع هذه الوكالة للجنة القدس المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي التي يرأسها الملك المغربي، ويبلغ حجم مشاريعها السنوية حوالي ثمانية ملايين دولار أمريكي، تتركز في مجالات الإسكان والتعليم والصحة ودعم المؤسسات، ومن أبرز مشاريع الوكالة صندوق الإقراض السكني الذي يبلغ حجمه حوالي ثلاثة ملايين دولار.
- **تركيا:** تموّل تركيا من خلال قنصليتها في القدس عدداً من المشروعات في مختلف المجالات، وقد بدأت حديثاً تهتمّ بمشروعات الحفاظ على التراث العثماني في مدينة القدس.

د. **بلدية الاحتلال في القدس:** نتيجةً لغياب الدعم الخارجي العربي والإسلامي، والضغط الاقتصادي الكبير الذي تتعرض له القدس، هناك كلام كثير عن وجود جمعياتٍ تتلقى الدعم من بلدية الاحتلال، في مجالات التعليم تحديداً. وفي المرحلة الحالية فإن بلدية الاحتلال لا تفرض على المدارس التي تتلقى الدعم شروطاً تتعلق بالمناهج أو المحتوى الدراسي أو طريقة التدريس، لكن من المتوقع أن تلجأ لذلك في المستقبل بعد أن تُصبح هذه المدارس معتمدة على معونتها بشكل كبير[2].

ويُمكن القول إن مؤسسات المجتمع المدني هي مصدر الدعم الأساسي والوحيد لمشروع التثبيت في القدس، ومن يُمسك بتمويل هذه المؤسسات يُحدد مصير مشروع التثبيت في المدينة.

2. واقع المؤسسات المقدسية العاملة في المجال الثقافي:

تعدّ المؤسسات المدنية المقدسية من أوائل المؤسسات التي قامت في فلسطين، وهي كحال كل مكونات المجتمع الفلسطيني شهدت تحولات كبيرة نتيجة الاحتلال، إذ أصبح اهتمامها الأول الصراع من أجل البقاء، وتأمين الحاجات الأساسية للمواطن المقدسي الذي يواجه خطر الاقتلاع من أرضه، سواء قسراً أم من خلال البيئة الطاردة التي صنعها الاحتلال. وبذلك تقلصت المؤسسات الأهلية المقدسية المهتمة بالحفاظ على الهوية، إما لأن الاحتلال أقفلها أو ضيق عليه، وإما لنقص التمويل، وأخيراً لأن الضرورات الحياتية

باتت ملحة أكثر. ولذا ليس غريباً أن تنشأ مؤسسات خارج القدس، بل وخارج فلسطين، تكون معنية بالدرجة الأولى بالحفاظ على هوية القدس، على اعتبار أن الواقع في الداخل لم يعد يسمح بنشوء هكذا مؤسسات وتطورها.

وإضافة إلى محدودية الحركة، وضعف التمويل، وانعدام الغطاء السياسي، تواجه المؤسسات المقدسية حالة من ضعف الإيمان بالرسالة، وهي حالة ناتجة عن حالة الإحباط العامة التي يعيشها المواطن المقدسي. ويزيد من حدة هذه الحالة إصرار البعض من الفلسطينيين وغير الفلسطينيين على "عبثية" الجهد الثقافي المبذول في القدس.

ثانياً: أهم المؤسسات المقدسية العاملة في المجال الثقافي:

على الرغم من التضييق الشديد فإن ثمة مؤسسات مقدسية عاملة بجد لحماية الهوية الثقافية والحضارية للقدس.

1. حماية المسجد الأقصى:

تعدّ مؤسسة الأقصى للوقف والتراث، التي أسسها الشيخ رائد صلاح سنة 2008، بعد إقفال الاحتلال مؤسسة الأقصى لإحياء المقدسات الإسلامية، في السنة نفسها، المؤسسة الأهم في هذا المجال، وهي مؤسسة ناشطة جداً في المسجد الأقصى، على الرغم من عدم وجود مقر لها هناك، وهي تلعب دوراً كبيراً، في دعم مشاريع الحفاظ على المسجد الأقصى، وكشف محاولات الاحتلال لتهويده.

2. المؤسسات الثقافية والفنية:

ثمة العديد من المؤسسات الثقافية والفنية العاملة في القدس، من أهمها[3]:

أ. مؤسسة يبوس، وقد تأسست في سنة 1995، وهي تعمل على إعادة الدور المركزي للقدس في الحياة الثقافية الفلسطينية، وهي تملك مركزاً ثقافياً كبيراً، وتنظم مهرجانات ثقافية وفنية.

ب. مؤسسة التعاون، وقد تأسست سنة 1983، وهي مؤسسة ناشطة تسعى للحفاظ على التراث الفلسطيني والهوية ودعم الثقافة وبناء المجتمع المدني.

ج. دار إسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب، وقد تأسس سنة 1999، وهو يقيم معارض وأمسيات شعرية، ويدير مكتبة عامة تختص بالتراث العربي والإسلامي.

د. مركز السكاكيني الثقافي، هو عبارة عن مؤسسة مكرسة لتعزيز الفنون والثقافة الفلسطينية.

هـ. مركز المنتدى الثقافي – بيت عنان، وقد تأسس سنة 2001، وهو يقيم برامج ودورات ثقافية.

و. جمعية مركز برج اللقلق المجتمعي، وقد تأسست سنة 1991، لتعزيز الوجود الفلسطيني في القدس.

ز. جمعية المنتدى الثقافية – صور باهر، وقد تأسست سنة 2000، وهي ناشطة في المجالين الاجتماعي والثقافي.

ح. مؤسسة المنى الثقافية، وقد تأسست سنة 2004، وتهتم بالثقافة وبالأسرى وبالمساعدات الاجتماعية.

ط. جمعية الدوم، وقد تأسست سنة 1999، وهي تهتم بإحياء التراث الغجري الفلسطيني.

ي. مؤسسة حوش الفن الفلسطيني، وقد تأسست سنة 2004، وهي تهتم بإقامة المعارض وورش العمل الفنية.

ك. مؤسسة صابرين للإنتاج الفني، وقد تأسست سنة 1987، كجمعية خيرية مهتمة بالعمل الفني[4].

ويجتمع عدد كبير من المؤسسات وغيرها في إطار: "الائتلاف الأهلي للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس"، وهي تضم كما هو وارد على موقعها على الإنترنت[5] المؤسسات الآتية:

أ. مركز أبحاث الأراضي www.lrcj.org

ب. مركز القدس للحقوق الاجتماعية والاقتصادية www.jcser.org

ج. مركز القدس للمساعدة القانونية وحقوق الإنسان www.mosaada.org

د. الملتقى الفكري العربي www.multaqa.org

هـ. مؤسسة الحق www.alhaq.org

و. مؤسسة مفتاح www.miftah.org

ز. الغرفة العربية للتجارة والصناعة – القدس www.jerusalemchamber.or
ح. المركز الفلسطيني للإرشاد www.pcc-jer.org
ط. مركز المرأة للإرشاد القانوني والاجتماعي www.wclac.org
ي. الحركة العلمية للدفاع عن الأطفال – فلسطين www.dci-pal.org
ك. دائرة الخرائط ونظم المعلومات الجغرافية.
ل. جمعية الدراسات العربية www.orienthouse.org/dept/maps_dept.html
م. مؤسسة سانت ايف.
ن. الحملة الشعبية لمقاومة جدار الفصل العنصري www.stopthewall.or
س. اتحاد لجان العمل الصحي/ مركز نضال www.hwc-pal.org
ع. جمعية القدس للرفاه والتطوير.
ف. مركز القدس للديمقراطية وحقوق الإنسان www.jcdhr.ps
ص. اتحاد الحقوقيين لحقوق الإنسان.
ق. مؤسسة التعاون www.welfareassociation.org

3. مراكز الدراسات:

أما أهم هذه المراكز فنذكرها فيما يلي:

أ. مركز أبحاث الأراضي: وهي "مؤسسة أهلية فلسطينية تأسست سنة 1986 في القدس ولها فروع في الخليل ورام الله ونابلس"، وتتلخص رسالة المركز في "تعميق البحث العلمي والدراسات وتطوير التعاون والتنسيق، بما يكفل تعزيز الصمود الفلسطيني على أرضه وحفظ حقوقه التاريخية والإنسانية في أملاكه وتراثه وثقافته وثرواته، وتطوير وتنمية المصادر البشرية والطبيعية".

ب. الجمعية الأكاديمية الفلسطينية لدراسة الشؤون الدولية (باسيا): وقد تأسست سنة 1987 من قبل الدكتور مهدي عبد الهادي، ومجموعة من المثقفين والأكاديميين الفلسطينيين في القدس. وهي "تسعى لعرض القضية الفلسطينية عبر رؤية وطنية وعربية ودولية من خلال سياقات البحث الأكاديمي والحوار والنشر". كما تجري "البحوث، وتعقد الندوات وحلقات العمل، سواء الدولية أو فيما بين الفلسطينيين، وتكون مفتوحة"[6].

ج. جمعية الدراسات العربية: وهي مؤسسة تهدف إلى عمل الدراسات المتعلقة بالقدس ونشرها حفاظاً على تراثها وحضارتها، وتتبع الجمعية مكتبة أنشئت سنة 1980 وبها ما يزيد عن 20 ألف كتاب متخصص بالقضية الفلسطينية والقدس والشرق الأوسط، وكان مقرها بيت الشرق. كما تتبع الجمعية دائرة الخرائط ونظم المعلومات الجغرافية، وهي إحدى دوائر جمعية الدراسات العربية التي أقيمت سنة 1983، وهدفت إلى تعريب الأسماء والمواقع الجغرافية الفلسطينية وعمل الخرائط ومتابعة الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية ومتابعة قضايا الأراضي والملكيات ضمن محافظة القدس[7].

د. مؤسسة الدراسات الفلسطينية – القدس: وهي مؤسسة نشأت في بيروت، سنة 1963، ولها عمل في القدس، وتعدّ متخصصة بالبحث والتحليل والنشر، فيما يتعلق بالشؤون الفلسطينية والصراع العربي – الإسرائيلي بشكل عام[8].

إشارة أيضاً إلى أن جامعة النجاح الوطنية في نابلس، تقيم منذ عشر سنوات ندوات متخصصة حول القدس، تحت عنوان: يوم القدس[9]، وقد عُقدت الندوة العاشرة في 2009/2/25[10].

4. المسرح (باعتباره أحد أوجه التعبير عن الهوية الثقافية):

أهم المؤسسات المسرحية:

أ. مسرح الحكواتي المعروف بالمسرح الوطني الفلسطيني، وقد تأسس سنة 1984، للاهتمام بالأنشطة الفنية والثقافية.

ب. مسرح الجوال المقدسي، وقد تأسس سنة 1982، لشرح القضايا الفلسطينية بلغة مسرحية.

ج. مسرح سنابل للثقافة والفنون، وقد تأسس سنة 1984، للتعبير عن الهوية المقدسية.

د. مؤسسة قافلة – المسرح المتنقل، وقد تأسست سنة 1997، لإظهار التراث الفلسطيني.

هـ. مؤسسة أيام المسرح، وقد تأسست سنة 1990، وتعمل في مجال التدريب والعرض المسرحي[11].

5. المكتبات الثقافية:

تعدّ مدينة القدس مدينة العلم الأولى في فلسطين، سواءً بعلمائها أم دور العلم فيها، أم مكتباتها المتوافرة فيها، فلقد كانت مكتبات وخزائن الكتب في القدس من الوفرة بمكان حيث تجاوزت أكثر من ستين خزانة ما بين عامة وخاصة، حوت في طواياها الكتب ونوادر المؤلفات التي عزّ وجود نظير بعضها في بلد آخر.

أما أهم هذه المكتبات القديمة: مكتبة المسجد الأقصى، المكتبة الخالدية، مكتبة الشيخ محمد صنع الله الخالدي، مكتبة العلامة خليل الخالدي، مكتبة أحمد سامح الخالدي، مكتبة حسن الترجمان، مكتبة البديري، مكتبة أبي السعود (محمد طاهر)، مكتبة المحكمة الشرعية (دائرة قاضي القضاة)، مكتبة آل الخطيب، مكتبة الفُتياني، مكتبة آل اللحام، مكتبة حسن عبد اللطيف الحسيني، مكتبة إسحق موسى الحسيني، مكتبة النشاشيبي، مكتبة خليل بيدس، دار الكتب الفخرية، المكتبة الخليلية، مكتبة آل الموقت، ومكتبة آل قطينة، مكتبة عبد الله مخلص، مكتبة آل جارالله، مكتبة المدرسة الصلاحية، مكتبة الكلية العربية، مكتبة الزاوية البخارية (النقشبندية)، مكتبة المدرسة الأشرفية السلطانية، مكتبة المدرسة الأمينية، مكتبة الزاوية النصرية... إلى غير ذلك من المكتبات والخزائن التي كانت تحفل بها القدس في ذلك الوقت.

وعندما احتلت القوات الإسرائيلية مدينة القدس سنة 1967 كانت مكتبات القدس الخاصة والعامة تضم أكثر من مئة ألف كتاب وأكثر من نصف مليون وثيقة ومخطوط وسجل، ومنذ ذلك الاحتلال الغاصب لهذه المدينة وهي تتعرض لإجراءات بالغة الخطورة، هدفها الرئيس تهويد القدس من جهة والقضاء على هذا الإرث من جهة أخرى[12]. وعند احتلالها القدس، صادرت سلطات الاحتلال مكتبة القدس العامة بكل محتوياتها، وقامت في الوقت نفسه بمصادرة عدد من الكتب والدوريات الموجودة في المكتبة، واعتبرتها ممنوعة ونقلتها إلى مكان مجهول، كما حددت نوعية الكتب والدوريات المسموح بإدخالها إلى هذه المكتبة. كما استولت على وثائق وأوراق ومستندات وسجلات المحكمة الشرعية بالقدس، وتحتوي هذه المحكمة على وثائق ومعلومات على جانب كبير من الأهمية، لأنها تخص حياة المسلمين في القدس منذ سنة 1517.

كما حظرت سلطات الاحتلال استيراد العديد من الكتب وتوزيعها، ومنعت تداولها في أسواق القدس ومكتباتها، وفرضت رقابة صارمة على طباعة الكتب العربية ونشرها في القدس. ومنعت المكتبات في شرقي القدس من اقتناء كل ما تقتنيه المكتبات في غرب القدس المحتلة سنة 1948، على سبيل المثال: كانت الكتب الصادرة عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الأبحاث الفلسطيني موجودة في مكتبات الجامعات والمعاهد الإسرائيلية ولكنها منعت في مكتبات القدس العربية.

كما قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بإغلاق العديد من المؤسسات الثقافية في القدس العربية، فقد قامت بإغلاق جمعية الدراسات العربية لمدة أربع سنوات ومصادرة العديد من الكتب والوثائق؛ مما أدى إلى إلحاق أضرار بالغة في مكتبة الجمعية وأرشيفها، كما تمّ إغلاق اتحاد الكتاب وغيره من المؤسسات الثقافية.

وهناك مكتبات دمرت جزئياً أو كلياً جراء العمليات العسكرية، ومن تلك المكتبات مكتبة عبد الله مخلص التي خبّأها في دير القربان في القدس، فدمرت عندما نسف الإسرائيليون الدير وضاعت تحت الأنقاض، ويقال أن اليهود سرقوها ونهبوها قبل النسف.

والأخطر أن اليهود منعوا إنشاء مكتبات عامة جديدة في القدس. وقد لعبت هذه القيود دوراً مركزياً في إعاقة نمو المكتبات العامة والمدرسية، كما ألزمت المكتبات على سحب عدد من الكتب من على رفوفها وتسليمها إلى الإدارة العسكرية[13].

أما أهم المكتبات الموجودة الحديثة حالياً:

أ. مكتبة جمعية الدراسات العربية، وقد تأسست سنة 1980.

ب. مكتبة قسم إحياء التراث الإسلامي، وقد تأسست سنة 1983.

ج. مكتبة جامعة القدس، وقد تأسست سنة 1984.

د. مكتبة المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف، وقد تأسست سنة 1985.

هـ. مكتبة مركز الأبحاث الإسلامية، وقد تأسست سنة 1986.

و. مكتبة مركز القدس للأبحاث، وقد تأسست سنة 1986.

ز. مكتبة الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية (باسيا)، وقد تأسست سنة 1987.

ح. مكتبة مركز الدراسات النسوية، وقد تأسست سنة 1989.

ط. مكتبة مركز العمل التنموي (معاً)، وقد تأسست سنة 1989.
ي. مكتبة المركز الفلسطيني لتعميم المعلومات البديلة بانوراما،وقد تأسست سنة 1992.

إضافة إلى مكتبات الكنائس والأديرة العريقة الموجودة في القدس[14].

ثالثاً: تجربة مؤسسة القدس الدولية في حماية التراث الحضاري والثقافي للقدس:

1. الرؤية والأهداف والحفاظ على الهوية:

على إثر تفجر انتفاضة الأقصى في 2000/9/28، كان للمؤتمر القومي الإسلامي الثالث، المنعقد في بيروت بتاريخ 21-2001/1/23، فضل السبق بوقفة مشهودة، فاتخذ قراراً بتشكيل لجنة من بين أعضائه لعقد مؤتمر ترشح عنه خطوات عملية لإنقاذ مدينة القدس، فقرر إنشاء مؤسسة تُعنى بشؤون القدس وتسهم في إنقاذ هذه المدينة المقدسة، وتحافظ على طابعها الحضاري، وتتصدى لمحاولات تهويدها وتهجير أهلها، وتواجه التهديدات ببسط السيادة الصهيونية عليها.

ووفق الهوية التي صاغها المؤسسون فإن مؤسسة القدس الدولية هي:

> مؤسسة مدنية مستقلة تضم شخصيات وهيئات عربية وإسلامية وعالمية، غايتها العمل على إنقاذ القدس، والمحافظة على هويتها العربية ومقدساتها الإسلامية والمسيحية، في إطار مهمة تاريخية لتوحيد الأمة بكل أطيافها الدينية والفكرية والثقافية والعرقية من أجل إنقاذ القدس عاصمة فلسطين. وهي تتعدى البرامج الإغاثية إلى التخطيط المرحلي والاستراتيجي لخدمة مدينة القدس وتأمين حاجات سكانها.

وتسعى مؤسسة القدس الدولية إلى أن تكون أكبر وأوسع إطار مدني عربي وإسلامي وعالمي، يجمع ويمثل ألوان الطيف الديني والمذهبي والفكري والسياسي والعرقي والثقافي للأمة العربية والإسلامية، وينظم جهودها للحفاظ على الهوية الحضارية للقدس وإنقاذها ودعم أهلها في الداخل والخارج، في إطار مهمة تاريخية هي العمل لتوحيد الأمة على تحرير فلسطين.

ومن الوسائل الثقافية التي تعتمدها المؤسسة للحفاظ على هوية القدس، إقامة المؤتمرات والندوات، وتنظيم البرامج، واستخدام كافة وسائل الاتصال الحديثة للتعريف بقضية القدس تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.

وتعمل إدارة الإعلام والمعلومات في مؤسسة القدس الدولية على خدمة قضية القدس من خلال الإنتاج الإعلامي، ونشر المعلومات، وإعداد الأبحاث والدراسات، وتنظيم الحملات الإعلامية. كما تقوم بخدمة مؤسسة القدس إعلامياً وإخبارياً[15].

2. المؤتمرات السنوية وإعلان إسطنبول:

منذ انطلاقتها وحتى اليوم، تعقد مؤسسة القدس الدولية مؤتمرات سنوية للقدس، تحوّلت مع الوقت إلى مناسبات لمراجعة حال القدس، وإحياء قضيتها في النفوس عموماً، وفي البلد الذي ينعقد فيه المؤتمر خصوصاً، وقد جاءت المؤتمرات على الشكل الآتي[16]:

أ. المؤتمر السنوي الأول – لبنان في 2001/1/28.
ب. المؤتمر السنوي الثاني – لبنان في 2002/2/16.
ج. المؤتمر السنوي الثالث – لبنان في 2004/5/5.
د. المؤتمر السنوي الرابع – اليمن في 2005/12/4.
هـ. المؤتمر السنوي الخامس – الجزائر في 2007/3/25.
و. المؤتمر السنوي السادس – قطر في 2008/10/12.
ز. المؤتمر السنوي السابع – بيروت في 2010/1/13.

غير أن النشاط الأهم تمثل في عقد ملتقى القدس الدولي – إسطنبول في 2007/11/15، والذي أصدر إعلان إسطنبول التاريخي، بحضور نحو خمسة آلاف شخصية عربية وغير عربية، وقد شكل هذا الحدث، نقطة مضيئة على الدرب الطويل لاستعادة القدس والحقوق السليبة.

3. الشبكة العالمية للمؤسسات العاملة للقدس والروابط الشعبية:

أطلقت مؤسسة القدس الدولية الشبكة العالمية للمؤسسات العاملة للقدس في 2004/6/23 في بيروت، حيث تشكلت من حوالي أربعين مؤسسة ومنظمة وجمعية إسلامية ومسيحية، عربية وعالمية، تهتم بالقدس وقضيتها، وذلك من عددٍ كبيرٍ من الدول. وأخذت بعدها تتوسع حتى باتت تضم أكثر من مئة جمعية ومؤسسة تشمل

مؤسسات من: القدس وغزة والضفة الغربية، والسعودية، والكويت، وقطر، والبحرين، والإمارات، واليمن، والأردن، وسورية، ولبنان، ومصر، والسودان، والجزائر، وتونس، والمغرب، وتركيا، وماليزيا، وإندونيسيا، وباكستان، وإيران، وفرنسا، وإيطاليا، والسويد، والنمسا، وبريطانيا، وإيرلندا، والدانمارك، وهولندا، وجنوب إفريقيا، وكندا، وروسيا.

وتمثل الشبكة اليوم نموذجاً للشراكة والتشبيك من أجل القدس، وهي تعمل من أجل الحفاظ على المقدسات الدينية الإسلامية والمسيحية، والإرث الحضاري، والاهتمام بالشأن المقدسي عموماً.

4. الحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية:

مع إعلان القدس عاصمة للثقافة العربية لسنة 2009، وجدت مؤسسة القدس الدولية نفسها معنية بدعم الجهد الرسمي، سواء في رام الله أم غزة، بحملة أهلية لا تستثني أحداً، وتعمل من أجل إبراز الهوية الثقافية لمدينة القدس، فلسطينياً وعربياً وإسلامياً ومسيحياً وإنسانياً، والتعريف بها وبهويتها ومقدساتها وتراثها من خلال استعراض ونشر المخزون الثقافي لهذه المدينة المقدسة المغيبة في ليل الاحتلال. وتكريس رمزية هذه المدينة، وترجمتها إلى واقع يضعها في صدارة الوعي والثقافة والفكر في العالم العربي، من خلال إطلاق حركة ثقافية فكرية لخدمة المدينة في كل مناحي الثقافة والفكر والمعرفة. والتعريف بما تعانيه هذه المدينة وأهلها في ظلّ الاحتلال الصهيوني العنصري، وبواقع صمودها وصمود أهلها الذين جعلوا مدينتهم مدينة عصية على الاقتلاع.

على هذا الأساس عقدت المؤسسة اللقاء التحضيري للحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية في دمشق في 2008/7/3، وهناك تشكلت الأجهزة الرئيسية للحملة، وقد باتت اليوم واقعاً فاعلاً يمتلك أدوات عمل في عدد كبير من الأقطار العربية والإسلامية، ويقيم الفعاليات المختلفة، وله موقع مميز على شبكة الإنترنت.

5. العمل من أجل القدس: نتائج جيدة وآمال أكبر:

خلال تجربتها القصيرة نسبياً قامت مؤسسة القدس الدولية، بإطلاق مشاريع كبيرة وهادفة، نذكرها باختصار شديد، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

أ. الموقع الإلكتروني الخاص بالقدس، وقد أصبح واحداً من أهم المواقع المرجعية للقدس www.alquds-online.org.

ب. أطلقت المؤسسة مشروع سفراء القدس، وصولاً إلى إنشاء أكاديمية القدس.

ج. أطلقت المؤسسة العديد من الروابط الشعبية في الأقطار، ومن أنشطتها حالياً: رابطة شباب لأجل القدس، التي لها بنيتها ونشاطاتها ومؤتمراتها السنوية.

د. أطلقت المؤسسة مشروع وقف الأمة لبيت المقدس، وبموجبه أصبح للقدس اليوم أوقاف ضخمة، لا سيّما في: البحرين وقطر واليمن والسودان والجزائر.

هـ. أطلقت المؤسسة مشروع الصناديق الوقفية لأجل القدس، وفيها صندوق خاص للحفاظ على المقدسات.

وقد كان لذلك نتائج تحققت، ويمكن تلمسها بسهولة[17]:

أ. رفع قضية القدس إلى مرتبات عالية في وعي الأمة، حتى يمكن القول إنها باتت في صدارة القضايا الجامعة، بعدما كادت المشاكل القطْرية، والصراعات الطائفية والمذهبية، وقضايا الصراع العربي – الإسرائيلي الأخرى تطمس عليها.

ب. إعادة استحضار الحقائق المقدسية التاريخية، وقد نجحت المؤسسة إلى درجة مقبولة في تصحيح العديد من المفاهيم ذات الصلة، لا سيّما فيما يخص المسجد الأقصى، وتعريب الكنيسة الأرثوذكسية والحفاظ على أوقافها، وتسليط الضوء على واقع الحفريات.

ج. أدت هذه الحركة الهادفة إلى إطلاق مشاريع ثقافية ذات صلة، أسهمت في إحياء الطبيعة الوحدوية لقضية القدس.

هل يكفي ذلك كله؟ طبعاً لا، فمؤسسة القدس هي واحدة من جملة مؤسسات خارجية كبيرة تعمل للقدس، لكن جهد هذه المؤسسات مجتمعاً لا يكفي، نظراً إلى حجم المشروع الذي نواجه. وعليه، فليس أمامنا سوى المزيد من العمل والتشبيك وإحياء الهمم، وصولاً إلى جمع الأمة كلها، بحكوماتها وشعوبها في مشروع استعادة القدس إن شاء الله.

هوامش المبحث الثالث

[1] تقرير حال القدس خلال الفترة من كانون الثاني/ يناير وحتى آذار/ مارس 2009، ص 8.
[2] المرجع نفسه، ص 9.
[3] لا يعني هذا العرض أن لا وجود لمؤسسات أخرى غير المذكورة، وإنما ذكرنا المؤسسات المعروفة، أو التي تمكنا من الحصول عن بيانات وافية عنها.
[4] **دليل المؤسسات الأهلية في القدس** (الملتقى الفكري العربي والائتلاف الاهلي للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس، 2007)، ص 245-291.
[5] موقع الائتلاف الأهلي للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس، انظر: http://www.ccdprj.ps/arabic/partners.html
[6] موقع الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية – القدس، انظر: http://www.passia.org
[7] انظر: http://www.miftah.org/arabic/AboutUs.cfm
[8] www.palestine-studies.org/ar_index.aspx
[9] http://www.najah.edu/index.php
[10] موقع جامعة النجاح الوطنية، نابلس، انظر: www.najah.edu
[11] **دليل المؤسسات الأهلية في القدس**،ص 245-291.
[12] إسحاق البديري، "القدس بين التاريخ والسياسة والثقافة،" المؤتمر الحادي عشر للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، القاهرة، 12-2000/8/16، ص 8.
[13] أحمد المرعشلي وأنيس صايغ وآخرون، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، ج 4، ص 288؛ ومصطفى عليان، المكتبات في مدينة القدس، مجلة **عالم الكتب**، العدد 23، 2002، ص27-29.
[14] دراسة من إعداد ربحي مصطفى عليان، أستاذ علم المكتبات في جامعة البلقاء التطبيقية، تقدم بها إلى ندوة القدس والجولان في العمل المكتبي، دمشق، 2000/9/21.
[15] انظر كتيب التعريف: **مؤسسة القدس الدولية: الرؤية، الرسالة، الأهداف، مجالات العمل**، 2008، ص 7-17.
[16] **المرجع نفسه**، ص 34.
[17] وهي نتائج تحققت بجهد الجهات العاملة للقدس كلها، وليس المؤسسة وحدها، ولكن الحديث قاصر على المؤسسة التزاماً بمقتضيات البحث الذي يقدم مؤسسة القدس نموذجاً.

إصدارات مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

1. بشير نافع ومحسن صالح، محرران، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2005**.
2. محسن صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2006**.
3. محسن صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2007**.
4. محسن صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة 2008**.
5. محسن صالح ووائل سعد، محرران، **مختارات من الوثائق الفلسطينية لسنة 2005**.
6. محسن صالح ووائل سعد، محرران، **الوثائق الفلسطينية لسنة 2006**.
7. محسن صالح ووائل سعد، محرران، **الوثائق الفلسطينية لسنة 2007**.
8. وائل سعد، **الحصار: دراسة حول حصار الشعب الفلسطيني ومحاولات إسقاط حكومة حماس**.
9. محمد عارف زكاء الله، **الدين والسياسة في أميركا: صعود المسيحيين الإنجيليين وأثرهم**، ترجمة: أمل عيتاني.
10. أحمد سعيد نوفل، **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي**.
11. محسن صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية: تقييم التجربة وإعادة البناء**.
12. محسن صالح، محرر، **قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها 2006-2007**.
13. خالد وليد محمود، **آفاق الأمن الإسرائيلي: الواقع والمستقبل**.
14. حسن ابحيص ووائل سعد، **التطورات الأمنية في السلطة الفلسطينية 2006-2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (1).
15. محسن صالح، محرر، **صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية 2006-2007**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (2).
16. مريم عيتاني، **صراع الصلاحيات بين فتح وحماس في إدارة السلطة الفلسطينية**.
17. نجوى حساوي، **حقوق اللاجئين الفلسطينيين بين الشرعية الدولية والمفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية**.
18. محسن صالح، محرر، **أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان**.
19. عباس إسماعيل، **عنصرية إسرائيل: فلسطينيو 48 نموذجاً**، سلسلة أولست إنساناً (1).
20. حسن ابحيص وسامي الصلاحات، **معاناة المرأة الفلسطينية تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً (2).



21. أحمد الحيلة ومريم عيتاني، **معاناة الطفل الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً (3).
22. فراس أبو هلال، **معاناة الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً (4).
23. ياسر علي، **المجازر الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني**، سلسلة أولست إنساناً (5).
24. حسن ابحيص وخالد عايد، **الجدار العازل في الضفة الغربية**، سلسلة أولست إنساناً (8).
25. **معاناة قطاع غزة تحت الحصار الإسرائيلي**، تقرير معلومات رقم (1)، قسم الأرشيف والمعلومات.
26. **معابر قطاع غزة: شريان حياة أم أداة حصار**، تقرير معلومات رقم (2)، قسم الأرشيف والمعلومات.
27. **أثر الصواريخ الفلسطينية في الصراع مع الاحتلال الإسرائيلي**، تقرير معلومات رقم (3)، قسم الأرشيف والمعلومات.
28. **مسار المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية ما بين "أنابوليس" والقمة العربية في دمشق (خريف 2007 – ربيع 2008)**، تقرير معلومات رقم (4)، قسم الأرشيف والمعلومات.
29. **الفساد في الطبقة السياسية الإسرائيلية**، تقرير معلومات رقم (5)، قسم الأرشيف والمعلومات.
30. **الثروة المائية في الضفة الغربية وقطاع غزة بين الحاجة الفلسطينية والانتهاكات الإسرائيلية**، تقرير معلومات رقم (6)، قسم الأرشيف والمعلومات.
31. **مصر وحماس**، تقرير معلومات رقم (7)، قسم الأرشيف والمعلومات.
32. **العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: 2009/1/18-2008/12/27**، تقرير معلومات رقم (8)، قسم الأرشيف والمعلومات.
33. **حزب كاديما**، تقرير معلومات رقم (9)، قسم الأرشيف والمعلومات.
34. **الترانسفير (طرد الفلسطينيين) في الفكر والممارسات الإسرائيلية**، تقرير معلومات رقم (10)، قسم الأرشيف والمعلومات.
35. **الملف الأمني بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل**، تقرير معلومات رقم (11)، قسم الأرشيف والمعلومات.
36. **اللاجئون الفلسطينيون في العراق**، تقرير معلومات رقم (12)، قسم الأرشيف والمعلومات.

37. **أزمة مخيم نهر البارد**، تقرير معلومات رقم (13)، قسم الأرشيف والمعلومات.
38. إبراهيم غوشة، **المئذنة الحمراء**.
39. عدنان أبو عامر، مترجم، **دروس مستخلصة من حرب لبنان الثانية (تموز 2006): تقرير لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي**.
40. عدنان أبو عامر، **ثغرات في جدار الجيش الإسرائيلي**.
41. قصي أحمد حامد، **الولايات المتحدة والتحول الديموقراطي في فلسطين**.
42. أمل عيتاني وعبد القادر علي ومعين منّاع، **الجماعة الإسلامية في لبنان منذ النشأة حتى 1975**.
43. محمد عيسى صالحية، **مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275-1368 هـ/ 1858-1948** م.
44. عدنان أبو عامر، مترجم، **قراءات إسرائيلية استراتيجية: التقدير الاستراتيجي الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي**.
45. عبد الحميد الكيالي، محرر، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان 2008/12/27-2009/1/18**.
46. سمر البرغوثي، **سمات النخبة السياسية الفلسطينية قبل وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية**.
47. سامح خليل الوادية، **المسؤولية الدولية عن جرائم الحرب الإسرائيلية**.
48. رأفت مرة، **الحركات والقوى الإسلامية في المجتمع الفلسطيني في لبنان: النشأة – الأهداف – الإنجازات**.

49. Mohsen Saleh and Basheer Nafi‘, editors, *The Palestinian Strategic Report 2005*, Beirut, 2007.

50. Mohsen Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2008*, Beirut, 2010.

51. Mohammad Arif Zakaullah, *Religion and Politics in America: The Rise of Christian Evangelists and their Impact*.

52. Abbas Isma‘il, *The Israeli Racism: Palestinians in Israel: A Case Study*, Book Series: Am I not a Human (1).

53. Hassan Ibhais, Mariam Itani and Sami al-Salahat, *The Suffering of the Palestinian Woman Under the Israeli Occupation*, Book Series: Am I not a Human (2).

54. Mohsen Saleh and Ziad al-Hasan, *The Political Views of the Palestinian Refugees in Lebanon as Reflected in May 2006*.

55. Ishtiaq Hossain and Mohsen M. Saleh, *American Foreign Policy & the Muslim World*.



Studies on the Cultural Heritage of Jerusalem

هذا الكتاب

يعدّ هذا الكتاب أحد أبرز إصدارات الحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية سنة 2009، وهو كتاب علمي متخصص شارك في إعداده نخبة من أبرز المتخصصين والمهتمين بالتراث الثقافي للقدس.

يسلط الكتاب الضوء على مدينة القدس بهويتها المعمارية، وأوقافها وممتلكاتها الإسلامية والمسيحية، ومكتباتها ومؤسساتها التعليمية، والدور الحضاري لعدد من أبرز علمائها، وموقعها في الموسوعات العالمية. ويدرس الكتاب دور العثمانيين في الحفاظ على التراث الثقافي للمدينة، وموقف المعاهدات والقرارات الدولية من هذا التراث. ويوضح الكتاب ما تتعرض له المدينة تحت الاحتلال الإسرائيلي من معاناة ومن إجراءات تهويد، كما يعرض للأدوار المأمولة لحماية التراث الثقافي للقدس من العالمين العربي والإسلامي ومن العلماء والأكاديميين ومن مؤسسات المجتمع المدني.


مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 5034-14 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

الحملة الأهلية لاحتفالية
القدس
عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩





مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات - بيروت